ايلي سالم

الخيارات الصعبة

١٩٨٢

١٧ آيار

الاتفاق الثلاثي

الانتفاضة

جنيف - لوزان

انتخابات رئيس الجمهورية

مباحثات دمشق

التسلم والتسليم: امين الجميل - ميشال عون

١٩٨٨

دبلوماسية البحث عن مخرج

الخيارات الصعبة

دبلوماسية البحث عن مخرج



الدكتور ايلي سالم



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد.

ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان.

برقياً: انكلسامس

تلفون٢ / ٣٥٠٧٢١.

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

الطبعة الثالثة ١٩٩٧م

تصميم الغلاف: جومانا ابو شقرا

تمهيد

لم يكن من السهل عليّ أن أتوصل إلى عنوان لهذا الكتاب، فعنوان «الخيارات الصعبة» يعبر، دون شك، عن الخيارات التي اتخذها لبنان في الثمانينات، وهي الحقبة الأصعب في تاريخه المعاصر، حيث دخلت إسرائيل إلى العمق اللبناني واحتلت العاصمة وضواحيها، وحيث كانت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي على أشدها. فمن الناحية الاستراتيجية الدولية وقع لبنان في أتون الصراع الأميركي ـ السوفياتي، كما وقع في أتون الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وأيضاً لم يكن من الممكن، كما تبين في ما بعد، ايجاد مخرج للبنان من الصراعات الدولية والإقليمية إلا حينما انتهى الصراع الدولي بتفكك الاتحاد السوفياتي، وقيام روسيا الاتحادية دولةً «ديمقراطية» شريكةً لأميركا، لا مناهِضَةً لها في سياستها حيال منطقة الشرق الأوسط.

وبانتهاء الصراع الأميركي ـ السوفياتي، انخفضت حدة الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وراحت الدول العربية واسرائيل، بمسعى اميركي ـ روسي، تبحث عن سلام شامل وعادل ومستقر في المنطقة، وهو مسعى لا يزال مستمراً، وبشيء من التفاؤل، عربياً واسرائيلياً.

اما المرحلة التي دَوَّنْتُ معالمها، فهي مرحلة التناقض العميق، مرحلة المواقف الإيديولوجية المتشددة، ومرحلة التصادم العميق بين العرب واسرائيل. وقد حرصتُ، منذ تسلُّمي مسؤولياتي وزيراً للخارجية، ومن بعدها مستشاراً للسياسة الخارجية لرئيس الجمهورية، أن أرصد يومياً كل الأحداث المهمة، وخصوصاً تلك

التي كنت أشارك فيها بشكل مباشر، في محاضر وافية خولتني كتابة هذه المذكرات بالشكل الذي كتبت، بالتفصيل الذي أردفت، والذي وحده يعطي الصورة الواقعية للأحداث ولما كان يجري وراء الكواليس. على الرغم من حضور الذات فيه، عمدت ان أؤرخ هذا الفصل المهم من تاريخ لبنان بأسلوب واقعي موضوعي، فجاء النص تأريخاً بقدر ما هو قصة كان كاتبها حاضراً، بل جزءاً، من معظم احداثها. وكل عمل تاريخي هو في الواقع قصة، ولكنها قصة وطن مع كل ما يحمل من آلام وآمال ومن تشابك لهذه الآلام والآمال بمصالح الغير.

اما الكتاب فأترك للقارئ ليتعاطى معه كما يشاء. فأنا حاولت أن أكتب بشيء من التجرد بقدر الإمكان على الرغم من تشابك الموضوعات المطروحة وحُمُوِّها. وكل ما كتبت في تصوري حقيقة، لكن ليست كل الحقيقة تقال. لأن التاريخ الدبلوماسي المسؤول يحمل معه مسؤولية حفظ كرامة الغير ومسؤولية الحفاظ على المصلحة الوطنية، والتقيد بمواقف تمليها الظروف والأزمان. وقد يكون في الموضوعية بعض الأمور التي تجرح، واذا كان الأمر كذلك فإني آمل ان تكون الفائدة المرجوة من الموضوعية أهم من اي شعور شخصي بالاساءة.

القول إن القرارات رهينة بأوقاتها قول صحيح، فثمة بالفعل، كما يقول كاتب «سفر الجامعة» في الكتاب المقدس، «لكل أمر أوان ولكل غرض تحت السماء وقت... للقتل وقت وللمداواة وقت... للصمت وقت وللنطق وقت... للحرب وقت وللصلح وقت». هذه مذكرات حرب، مذكرات حواجز وقصف، ومذكرات دبلوماسية تحت المدفع. ولكن يتخللها الطابع الشخصي لأنني كتبتها من عميق الجرح اللبناني.

واني إذ أضع هذه المذكرات، لا بل قصة الدبلوماسية اللبنانية، في المرحلة الأصعب من تاريخ وطننا، بين ايدي القراء، لا يسعني إلا أن أنوِّه بصبرِ ودعمِ زوجتي فلس سال سالم، التي اختارت لبنان وطناً لها واعطت كل ما لديها من عقل وحب وولاء، وكانت شريكة «تحت النار» في كل المراحل الصعبة التي مر بها وطننا في الثمانينات، كما أشكر أفراد عائلتي جميعاً لدعمهم المستمر. ولا بد من أن أذكر بتقدير كبير دورَ الجامعة الأميركية في بيروت، التي قدمت إليَّ كل مساعدة احتجت

اليها للقيام بمهمتي، وأخص بالشكر مديرة مكتبي الآنسة ايتمار دياب، التي دونت محاضر اللقاءات الدبلوماسية في بيروت وفي عواصم العالم، والتي تحملت معي الكثير من المخاطر خلال السنوات الست الصعبة. ويهمني أيضاً أن أشكر زملائي في الجامعة الأميركية في بيروت وأصدقائي العاملين في الحقل السياسي والإعلامي، الذين قرأوا مسودة هذا الكتاب بتمعن واقترحوا عليَّ تعديلات تبنيتها كلها بكل امتنان.

ايلي سالم

بيروت، ١٥/ ١١/ ١٩٩٣

المقدمة

في السابع من حزيران ١٩٨٢، وبينما كنت في زاوية آمنة أو شبه آمنة، بمنزلي في حرم الجامعة الأميركية في بيروت، أصابت قذيفة موجهة، منطلقة من سفينة إسرائيلية قرب شاطىء بيروت، واجهة المنزل الزجاجية المواجهة للبحر. وكانت القذائف المنهمرة على بيروت من البحر تتسابق مع القنابل المنهمرة من الجو.

وحطمت القذيفة الواجهة، فتركت وراءها الدخان والغبار والشظايا، وتركتني ملقى على الأرض، بين الوعي واللاوعي. فحاولت أن ألتقط أنفاسي، وأحافظ على شيء من رباطة الجأش، فزحفت، كجندي في أحد الخنادق الأمامية، من البيت المتصدع فوقي وورائي، إلى مبنى المرصد، ذلك المبنى القديم الذي بناه مؤسسو الجامعة آواخر القرن التاسع عشر، والذي تخطته تكنولوجيا علم الفلك، وأصبح مركز اجتماعات لزملائي الأساتذة في كلية الآداب والعلوم.

وصلت إلى المرصد، تحت وابل من الرصاص وأنا في حالة من الترجُّح بين الشجاعة والخوف، بين الحذر واللامبالاة. ويظهر أنَّ قَدَراً مَّا يتحكم بالإنسان عندما يواجه الخطر الأكبر، فيقرر تصرفاته، ويفرض مسالك محددة عليه. كان ذلك في اليوم الثاني لاجتياح إسرائيل للأراضي اللبنانية. أذكر هذه الحادثة في مطلع هذا الكتاب، لا لأنها فريدة تستحق الذكر، بل لأنها عادية جداً إذا قيست بما كانت تعانيه كل عائلة لبنانية، بشكل أو بآخر، منذ اندلاع الحرب اللبنانية، منتصف السبعينات، وقبل أن تعظُم وتتدخل فيها الدول، ويتعرض لبنان لاجتياحات إسرائيلية متتالية، آخرها اجتياح حزيران ١٩٨٢.

فالقذيفة على منزلي في الجامعة مظهر من مظاهر العنف الذي عشناه في لبنان طيلة سبع سنوات، حتى أصبح العنف والخوف والخطر، والتحديق وجها لوجه في الموت، جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية، يواكبنا في النهار، ويلاحقنا في الليل، ويصر على ملازمتنا حتى في الأحلام ـ هذا إذا أتاح لنا أزيز الرصاص نوماً نحلم فيه.

والآن، وأنا أكتب هذه الأسطر في شباط/فبراير ١٩٨٩، لم يزل العنف مسيطرا على هذا البلد المعروف، منذ الأجيال الغابرة، بجمال أرضه، واعتدال مناخه، وطيبة شعبه، وعظمة حضارته؛ ولا يزال الشعب ينتظر الحل الناجع، والخلاص من الأزمة إلى السلم الصحيح الثابت، الذي يتوق إليه كل إنسان، والذي يعتبر حقا من حقوقه الأساسية.

أكتب هذه الأسطر ومجنزرات الجيش اللبناني تمر أمام منزلي في حي سبنيه من بلدة بعبدا، لتتخذ مراكز هجومية لها ضد «القوات اللبنانية» التي كانت، حتى الماضي القريب، حليفة للجيش وداعمة له. غير أن تحالفات الحرب وتبدلاتها غيرت المعادلات وجزأت الأفرقاء، فحجمت من حجمت، وهمّشت من همشت.

وهكذا يكون دولاب العنف قد دار من جديد، بقضية جديدة وهدف جديد، ومنطقةٍ جديدة، في نطاق الفوضى الهوجاء، التي تسيطر على لبنان وتتحكمٍ بعقله.

وقد يلومني بعض زملائي الجامعيين على محاولة الكتابة عن الأوضاع اللبنانية، في وقت لم يزل البركان اللبناني متأججاً فيه، لأن الكتابة الموضوعية الدقيقة تستدعي مسافةً مًا من الزمن، وموقعا محايدا للكاتب، حتى يلم بالحقيقة من كل الجوانب. لا شك أنهم على حق في ذلك؛ ولكني لا أكتب كباحث متجرد، بل أكتب كمواطن عايش أحداثاً معينة، وتوجب عليه أن يكشفها بأمانة كما عرفها وخَبِرها، وأن يكتبها، لا بروحية الباحث فحسب، ولكن بحرارة المشارك فيها أيضاً.

فالواجب الوطني، كالواجب العلمي، يفرض علي أن أبين حقائق ما عرفتُ وما خَبِرتُ، وأن أبينها بروح علمية، مراعيا كرامات القيادات المعنية، متجنبا التعرّض لنقاطٍ من شأنها تعريض المصلحة الوطنية للتصدع والخطر.

وتتخذ الكتابة عن لبنان أيام الحرب طابعا هاما، لأن الحرب اللبنانية، ككل الحروب بين المجموعات البشرية، تثير القضايا المصيرية في حياة الشعوب، وعلى الأخص منها قضية النظام والفوضى، قضية الفرد والدولة، قضية الطائفة والمجتمع، قضية السلم والحرب، قضية المحبة والكره، قضية التآخي والتباعد، قضية الحياة والموت.

لقد شهدت حربنا، كباقي حروب العالم، الخطف والقتل والتهجير وتدمير الممتلكات، وتفريغ الرموز الوطنية، والخلط اللامسؤول بين الدين والسياسة، بين الطائفة والطائفة، بين الطائفة والدولة. ولأن الحرب اللبنانية كانت حربا داخلية ذات جوانب إقليمية، فإنها تركزت على تحطيم الدولة والهيكلية الإدارية المرتكزة عليها، ففجرت كل القوى البدائية واللاعقلانية الكامنة في عمق الإنسان، وطغت على العقل والقانون والدولة.

وكما ذقت أنا طعم العنف، فقد ذاقه أيضا كل لبناني عايش الفوضى والعنف. كان إذا اختلف شابان في شأنٍ مًا، أخذ أحدهما مسدسا وأطلق النار على الثاني وأرداه قتيلا. فلا والد القتيل يدّعي أمام المحاكم، ولا الشهود يتبرعون بشهادة، ولا قوة أمنية تتحرك لتتحرى في الامر. ثم يبكي الوالد ويدفن ابنه ويستمر في ما تبقى له من مجتمع وحياة.

موظف في إدارةٍ مًا يقوم بواجبه كما يملي الضمير. يطلب منه أن يخون ضميره فيرفض، فيقتل في اليوم التالي ويرمى في صندوق سيارة، إلى أن يشم رائحته المارة، ويُطلب من الأقرباء التعرف على الجثة. العائلة تبكي فقيدها، والحياة تستمر بألم. قال الفيلسوف الألماني نيتشه «إن الله قد مات وكل شيء قد حُلِّل». ومن عايش الحرب اللبنانية يحق له أن يحرف نيتشه ويقول «لقد ماتت الدولة واستبيح كل شيء».

يقول الفيلسوف السياسي الانكليزي «توماس هوبز»، في كتابه الليفياثان Leviathan، الذي وصف فيه الحرب الأهلية الدامية في انكلترا، في القرن السابع عشر: إن الدول القوية، القادرة على تطبيق القانون وتوفير الأمن، وحدها تحول

دون ارتداد المجتمع إلى الفوضى، التي تجعل حياة الانسان «تعيسة متوحشة قصيرة». وقد سبق للمؤرخ العربي ابن خلدون، الذي سبق هوبز بمئتي سنة، أن تناول هذا الموضوع، فابرز أهمية الدولة القادرة، وأظهر «هيبة» الحكم، وفرض الطاعة على المواطنين، ومراعاة النظام العام وحقوق الغير.

في الحرب التي عرفناها منذ منتصف السبعينات، انتقلت «الهيبة» من حيث يجب أن تكون، أي من الحكومة المركزية، إلى الحكومات المحلية، المثلة بالميليشيات وقادتها. وعند سقوط الدولة، ونشوء دويلات الميليشيات، تقلص العمل الحكومي والاداري، ورجع اللبنانيون إلى مجتمعاتهم الصغيرة، أي إلى طوائفهم ومناطقهم، بل رجعوا حتى إلى أبناء حيهم يصوغون حياة اجتماعية جديدة، بديلة من المجتمع الكبير، الذي كانت تؤمنه الدولة. ويستطيع متتبعو الأحداث اللبنانية، ولا سيما القصصيون، أن يكتبوا الكثير عن حياتنا اليومية في السبعينات والثمانينات. يستطيعون أن يكتبوا عن الموت والحياة، وعن الحفلات اليومية تحت دوي المدافع وكأن الشعب اللبناني، من خلال هذه التجمعات والحفلات المتعددة، يتحدى القوى الظالمة التي تحيط به، والقدر القاتم الذي يسيطر عليه.

وحلت الاهتمامات الصغرى محل الاهتمامات الكبرى، فكان في ذلك شيء من الراحة، لا بل من الفكاهة. وأصبح اهتمام المواطن، في المجموعة الصغيرة، أن لا يصاب بشظية، وأن يحظى بملجأ آمن وقليلٍ من الماء والكهرباء والطعام.

إنني لا أقصد من هذا الكتاب أن أضع دراسة عن الحرب اللبنانية. ما أقصده: أن أبين بعض ما عرفت، وبعض ما خبرت، بوصفي وزيراً للخارجية، ومستشاراً للشؤون الخارجية لرئيس الجمهورية. فأنا، إذن، أكتب كشاهد على مصير دولة صغيرة وقعت ضحية الاشكالات الداخلية والإقليمية، وأكتب كشاهد على النظام الليبرالي الديمقراطي الذي يجاهد بعناد ضد قوى الجاذبية المعاكسة في المنطقة. وربما كنت شاهداً كذلك على التجاهل المخيف الذي يحيق بالضعيف في عالم الأقوياء.

وقد يكون من المناسب أن أبدأ مذكراتي السياسية بلقائي مع الشيخ بشير

الجميل، وهو أول لقاء لي مع قائد ميليشيا: لأنني كنت أعيش حياة جامعية صرفة، ضمن الحرم الجامعي، عميداً لكلية الآداب والعلوم في الجامعة الأميركية في بيروت.

إن الحروب على أنواعها تنجب قادة وأبطالا وتدفع بهم إلى أعلى الهرم لبرهة من الزمن، ثم تتركهم يسقطون في الهاوية. شاب يلتحق بميليشيا، يتحين الفرص، يجازف بنفسه، يرتفع في سلم القيادة ويغامر لتحقيق آماله الوطنية. وكلما ازداد الخطر، ازداد الدور البطولي. على أنه في النهاية يضحي بنفسه. هكذا كان بشير الجميل.

كان للشيخ بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب، وحامل راية المارونية، ولدان يتنافسان على الدور القيادي في المجتمع المسيحي. وكان بشير، وهو الابن الأصغر، أكثر من أخيه أمين حبا للقيادة والمغامرة التي تستدعيها الحروب. كان محازباً عنيفاً، وقائداً في الحركة الطلابية فالتحق بميليشيا الحزب وترعرع فيها، وتميز بصفات قيادية دفعت به سريعاً لتسلم دور القيادة، وتحويل الميليشيا إلى «القوات اللبنانية»، وهي مؤسسة عسكرية مستقلة، أو شبه مستقلة، عن حزب الكتائب الذي انبثقت منه.

كان بشير الجميل ابنا للحرب اللبنانية، بكل ما لهذه الكلمة من معنى. وكانت نظرته السياسية محصورة في نظرة الطائفة التي ينتمي إليها، كما كانت الحال مع كل قائد ميليشيا في هذه الحرب.

وكان لكل قائد ميليشياوي مجموعته ومستشاروه. وكان لبشير معلمون من لون واحد، منهم الفيلسوف الدكتور شارل مالك، والمؤرخ فؤاد أفرام البستاني، والسياسي كميل شمعون، والوالد المؤسس للحزب الشيخ بيار الجميل. وقد كان هؤلاء كهنة الهيكل الذي كان يلجأ إليه بشير يوميا.

كان الدكتور مالك أرثوذكسي النشأة، ولكن فكره السياسي كان كاثوليكياً، بل كان أكوينيا، تبعا للاهوتي الكبير القديس توما الأكويني. وقد كان مالك مسؤولاً، إلى حد كبير، عن صياغة الفلسفة السياسية عند الموارنة، وكان معجباً بهم لموقفهم

في العالم الكاثوليكي، وموقعهم التاريخي كمؤسسين للبنان الحديث وكحماة له. وكان مالك شخصية بارزة مؤثرة، وعقائديا واثقا من نفسه ومن لبنان الذي يريده. لقد شرب مالك من ينابيع العلم في جامعة هارفارد الشهيرة، واحتضن التراث المسيحي في كليته بشكل لم يترك له متسعا لاحتضان التراث العربي الاسلامي بالشكل الذي يستحقه هذا التراث.

وكان فؤاد أفرام البستاني مؤرخا كبيرا للبنان وللتراث اللبناني عبر الاجيال، وللعبقرية اللبنانية التي كان يتابعها بشكل خاص من المدن الفينيقية التي نشأت على الساحل اللبناني، وعبر الامبراطوريات المتتابعة إلى قيام لبنان الحديث. وقد ميز الأستاذ بستاني لبنان من غيره في العالم العربي، وجعل له ايديولوجية تتناغم مع التطلعات المارونية المستقبلية، ومع أحلام الشاب الميليشياوي بشير.

أما الشيخ بيار الجميل، فقد كان، بالنسبة لبشير، السياسي البارع، رغم مظاهر البراءة على وجهه والبساطة على لسانه. لقد نجح الشيخ بيار حيث فشل غيره، فجمع، في حزب سياسي واحد، الأعداد الكبيرة من الموارنة وغير الموارنة من المسيحيين. وقد ربّى ولديه، أمين وبشير، على حب لبنان كما يراه، ايقونةً لكنيسة مقدسة، لا تخضع للبحث أو التحليل أو المساومة.

وكان كميل شمعون المعلم البارع والسياسي اللامع في فن التحالفات والتغيرات، واستاذ البراغماتية في السياسة اللبنانية. وكانوا يطلقون على شمعون لقب «البطريرك السياسي» للمسيحيين، والمرجع الاخير لهم. وكان شمعون معجبا ببشير لانه حقق، بذكائه وطاقاته، قوة عسكرية هائلة، اراد هو ان يكون احد موجهيها.

لقد اخذ بشير القليل من كل واحد من هؤلاء، وجعل من هذا القليل شيئا كبيرا مجسدا في شخصه ونهجه ولهجته. فكان في مسلكه باردا عمليا مخططاً، وكان شديد الحب للقوة والسيطرة. وكان على عجلة من أمره، يصعب عليه ان ينتظر دورا قد يقع على عاتقه بعد وفاة والده، او بعد ان يكون اخوه قد لعب الدور المهيّأ له. لقد توصل الى قيادة القوات اللبنانية من طريق الشجاعة وسرعة القرار؛ وتطلع من بعد

هذا الى رئاسة حزب الكتائب؛ وبعد رئاسة الكتائب، تطلع الى رئاسة الجمهورية يحدوه الامل في أن يغير لبنان من هذا الموقع.

وأما نظرته إلى السياسة، فكانت مزيجاً من المثالية والواقعية، وكانت في تغير مستمر. كان يهدف الى رئاسة جمهورية قوية وجيش قوي. ولم يكن يخشى عواقب تحالفاته السياسية، التكتيكية منها والاستراتيجية. كان يتعامل مع اسرائيل بشكل علني، ولكن تعامله كان تكتيكيا مكيافالياً كما تبين فيما بعد.

إنني، بصدفة من الصدف، تعرفت على هذا الشاب. وقد علمت، عندما تعرفت عليه، صيف ١٩٨٢، بأنه كان يخطط للوصول الى رئاسة الجمهورية، وان المجموعة الشابة من حوله كانت تعمل ليلاً ونهاراً في لبنان، واوروبا، والولايات المتحدة، لانتخابه لهذا المنصب. وكانت مؤسسة علمية في واشنطن قد دعتني لالقي محاضرة فيها عن الأوضاع القائمة في لبنان، وعن امكانية استمرار هذا البلد. فلما علم بشير بذلك، غضب غضباً شديداً: لانه كان يعتبر واشنطن المحور الاساسي لعمله السياسي، ولا يسمح لاي لبناني ان يدخل هذا المحور بشكل مستقل ويحاضر فيه ويؤثر عليه، دون التنسيق الكامل معه.

وقبل مغادرتي بيروت الى واشنطن لالقاء المحاضرة، تلقيت رسالة من بشير تنذرني بعدم التوجه الى واشنطن. ولم يكن يجوز لعاقل في تلك المرحلة من تاريخ لبنان ان يتجاهل انذارا من بشير، او من اي قائد ميليشياوي آخر. وتذكرت عند تسلمي الرسالة بأنني قابلت بشير مرة على مائدة الطعام في بيت الدكتور شارل مالك، آوائل الحرب اللبنانية.

وتذكرت بانه، في تلك الامسية، كان هادئاً، منكمشاً على نفسه، خجولا الى حد ما. لقد تبين لي، من ذلك الاجتماع الاول، وكأنّ بشير شاب مرتاح في قرارة نفسه، يخطط وحده، وينظر الى البعيد، ويتحين الفرص. ومما ادهشني كثيراً، في تلك الامسية، ان الدكتور مالك، المعروف بثقته الفائقة بنفسه، والمعتز بموقفه الدولي، كان يتكلم مع هذا الشاب بكثير من التواضع والاحترام، وكأن الشاب الصغير امامه هو المخلّص المنتظر للمجتمع المسيحي وللبنان.

كنت، أنا والدكتور مالك، نسيبين: لأن والدتي من عائلة مالك، وكلانا من قرية بطرّام في قضاء الكورة بشمالي لبنان. وكان لمالك تأثير كبير علي، فكريا وفلسفيا، وعلى الأخص عندما كنت طالبا في اميركا، ومساعدا للبحوث معه، حيث كان سفيرا للبنان في واشنطن. وتعرفت، من خلاله، على الفكر الألماني والادب الروسي، واللاهوت المسيحي، الكاثوليكي منه والبروتستانتي. ولكننا كنا نختلف سياسيا. وكنت اقدر موقفه بالنسبة للبنان كوطن نهائي حر، وموقفه بالنسبة لأهمية المسيحيين في لبنان والشرق الاوسط، وأهمية دورهم في تطوير الفكر في هذه المنطقة. ولكني كنت اختلف معه في التفاصيل المتعلقة بلبنان، والعرب، والحضارة العربية الاسلامية. وكان مالك يشدد كثيرا على الدور الاغريقي الروماني المسيحي في تكوين الحضارة الاوسطية، ويتجاهل، الى حد ما، الدور العربي الاسلامي فيها. وكانت ركائزه الايديولوجية في اميركا وأوروبا والفاتيكان. اما انا، فكانت جذوري تختلف عن جذوره. لقد درست الاسلام في الجامعة، وتعمقت فيه وكتبت الكثير عنه. كنت معجبا بالتراث العربي المتراكم، الممتد سبعة قرون، والذي كانت اللغة العربية فيه هي اللغة العالمية، لغة العلم والادب والفكر الديني والرياضيات، لغة المهن والبحوث الموضوعية في كل الحقول. وفي الوقت الذي كنت فيه متمسكا باستقلال لبنان وسيادته ونظامه الديمقراطي الحر، لم يساورني يوما شك بأن لبنان بلد عربي ووريث للتراث العربي الكبير، بالاضافة الى تراث الاغريق والرومان والبيزنطيين.

وانطلاقا من موقفي هذا، استغربت كثيرا انذار بشير لي بالنسبة لزيارتي الى واشنطن. فاتصلت بزميل لي بالجامعة الاميركية في بيروت، وصديق حميم لبشير، واخبرته عن المشكلة القائمة، فاقترح ان اجتمع به على غداء خاص في بيته.

عند وصولي الى الاجتماع، اتجه بشير نحوي بسرعة، ومد يده وصافحني بقبضة شديدة، وكأنه يذكرني بانه هو القائد القوي، وهو الذي يأخذ المبادرات وقال: لندخل رأساً في الموضوع. سمعت بأنك ذاهب الى واشنطن، وأنك ستلقي محاضرة هناك في مؤسسة هامة لها دورها المميز في صنع القرار الأميركي، وانت تعلم أن

واشنطن مهمة جدا بالنسبة لي: لانني مرشح لرئاسة الجمهورية. فقاطعته ببراءة تدل على جهلي لتفكيره وتخطيطه السياسي وقلت له: هل تفكر بترشيح نفسك الآن، أي في صيف سنة ١٩٨٢، او تفكر بترشيح نفسك بعد ست سنوات؟ كان سؤالي ناتجا عن شعوري بأن شابا في اوائل الثلاثينات من عمره، دون أي خبرة سياسية تذكر، لا يمكن ان يكون جديا في طرح نفسه رئيسا لجمهورية قد يكون حكمها اصعب من حكم أيّ جمهورية في العالم. فاجاب دون تردد: «إما الآن وإما ابدا.» كانت تلك صدمة بالنسبة لي. إذ كيف يمكن لشاب حزبي ميليشياوي، لا يرتاح له نصف لبنان المسلم، ان يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية. ولكن لم يكن هناك اي شك في موقفه، او اي تردد في صوته. فكان تصميمه كاملا وثقته بالنجاح مطلقة. واخذ يلقي عليّ محاضرة طويلة عن لبنان وتاريخه وفلسفة وجوده، وعن دوره العريق في صنع الحضارة الاوسطية. وكان بشير محدثا بارعا. فالحوار بالنسبة له فرصة لتعريف الغير بنفسه اولا، وبموقفه ثانيا، لان الشخص بالنسبة له هو الموقف. فبرنامج بشير السياسي هو في الواقع بشير نفسه.

وفي الوقت الذي كان يلقي فيه محاضرته الطويلة علي، كنت افكر في أشياء اخرى في كتاباتي انا وفي مواقفي. فأنا كنت استاذا للعلوم السياسية منذ ثلاثين سنة، ويمكن لهذا الشاب ان يكون احد المئات من طلابي. وها هو الآن يطلب مني ان تتجانس افكاري مع افكاره، ومواقفي مع مواقفه، بل وسائلي مع وسائله. اما انا، فكنت اشعر بأن فكره السياسي لم يزل طري العود غير مكتمل، وبأن خبرته السياسية خبرة محدودة؛ فقاطعت المحاضر الشاب وكسرت المألوف: اذ ما من احد كان يقاطع بشير عندما يحاضر. والواقع أنه كان يحاضر وكأنه يخاطب المئات لا بل الآلاف من المستمعين. قاطعته بلغة تُراوح بين المزاح والجد وقلت: انني أكبُرُك بعشرين سنة ومهنتي هي المحاضرات، والمحاضرات عن لبنان على الأخص. وقد قرأت بعض الكتب الصادرة عن حزب الكتائب، وأتفق مع الفكر الكتائبي في بعض النقاط، وأختلف عنه في بعضها. ثم ابتسمت لأؤكد له جو المزاح الذي اردته وقلت: اذا كان هناك من تناقض بيني وبين بشير، فإني انتظر من بشير ان يتكيف مع

موقفي لا ان اتكيف أنا مع موقفه. وما ان انتهيت من هذا الكلام، حتى كان بشير يعانقني ويقول: انك على حق. وفي تلك اللحظة شعرت بكثير من المحبة نحو هذا الشاب. اذ وجدت فيه المرونة الكافية والاستعداد للاستماع الى الغير والتكيف مع كل رأي يدعم لبنان.

وهكذا ، ودون سابق تصور وتصميم، صادقت بشير، ووجدت نفسي متنقلا بين حرم الجامعة في رأس بيروت والأشرفية لاجتمع به، وربما للتأثير فيه ولو إلى حد قليل. ولم يكن هذا الشاب قد سمع، منذ عقد من السنوات، الا صوتا واحدا وموقفا واحدا. وكان هذا كافيا لدوره كقائد ميليشيا مسيحية، ولكنه غير كاف لمن يطمح الى رئاسة لبنان. وكانت خطب بشير تسمع عاليا وفي كل المناطق اللبنانية، حتى إنه اصبح سنة ١٩٨٢ شخصية محورية في السياسة اللبنانية. وكان يتكلم في كل الموضوعات، وبحرية تامة، دون خوف او تردد، معرضا نفسه للمخاطر. وهذا التحدي في أسلوبه ونهجه هو الذي اعطاه صفة مميزة، إذ كان في تحديه هذا وكأنه يتحدى القدر بشيء من البطولة والمأساة.

وبما ان الحرب اللبنانية كانت، في بعض جوانبها، اكبر من لبنان، فقد اعتنق بشير شعار تحرير لبنان البالغ ١٠٤٥٢ كيلو متراً مربعا، مدغدغا بذلك شعور اللبنانيين، مغذيا فيهم الروح الوطنية.

اما صداقتي لبشير في تلك المدة المحدودة من الزمن، فلم تكن ترتكز على قواعد ثابتة: لاننا كنا نختلف تقريبا على كل شيء. كنا نختلف حول اسرائيل وسوريا، حول العرب والغرب، حول الولايات المتحدة والاصلاح الدستوري. ولكني كنت احب فيه صفتين كانتا كافيتين، في تلك المرحلة، لمواصلة عرى الصداقة: موقفه الصارم ضد الفساد في الحكم والإدارة، ومرونته السياسية والطلاقة في التعبير عنها. اما الفساد، فكان منذ زمن طويل متفشيا في النظام السياسي اللبناني، وفي الادارة العامة المنبثقة منه. وكان العرف أنّ من يدخل السياسة، فانما يدخلها ليكسب المال، ثم يستعمل المال لتثبيت نفسه في السياسة. فالسياسة والمال اصبحا رديفين، حتى ان الشعب اخذ يتقبل هذا الواقع وكأنه معطى من معطيات السياسة العامة.

أما الأسلوب، فكنت احب فيه حماسه وايمانه وقدرته على التعبير عن نفسه باللغة المحكية. وكنت احب ما نسميه، بالعامية، «همشريته» التي هي جزء لا يتجزأ من جدية الهدف عنده. وكان يبدأ دائماً بالموقف المتطرف، لرغبته في ان يصدم مستمعيه ويوقظهم حتى يشدهم إلى الاستماع، وربما لحملهم على الولاء له. وكان يتكلم بشفتيه وعينيه ويديه، حتى انه اصبحت قبضة اليد عنده محطة كلام. وكان سريعا ومتسرعا في كل ما يفعل ويقول، وكأن القدر قد انبأه بأن الوقت المقرر له قصير جدا. وكان لأسلوبه وجه معتم لأنه كان قاسيا مع منافسيه. حبه للقوة أباح كل شيء. اما علاقته باسرائيل، فكانت نتيجة للتخوف الماروني من ازدياد نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، والتخوف من تحالف هذه المنظمة مع القوى الوطنية والاسلامية. وهذا التحالف مضر بلبنان. فكانت اسرائيل، في نظر بشير، الوسيلة المتاحة للتغلب على المقاتلين الفلسطينيين وحلفائهم، ومساعدته على الوصول الى رئاسة الجمهورية. كانت السلطة بالنسبة لبشير غاية بحد ذاتها. وللتوصل إلى هذه الغاية، كان مستعداً لأن يلجأ الى أي وسيلة كانت، شعورا منه بأن شخصه يبرر الوسائل ويطهرها.

وكان بشير يحب اميركا حبا شديدا ويثق في سياستها، ويؤمن بانها قادرة ومصممة على تحرير لبنان. أما تحول هذا الطالب الفرنكوفوني، المولود في بيت فرنكوفوني، من مغرم بفرنسا الى مغرم باميركا، فأمر فرضه الواقع الاستراتيجي في العالم. وكان بشير يهدف الى تحالف في العمق مع الولايات المتحدة، وكان يقول لمستمعيه: اذا كان الاتحاد السوفياتي موجودا في سوريا، فماذا يمنعنا نحن من ان تكون اميركا معنا في لبنان؟

في ٢٣ آب/اغسطس ١٩٨٢، وخلال الاحتلال الاسرائيلي للبنان، انتخب بشير الجميل رئيسا للجمهورية اللبنانية. وقد حصل هذا الانتخاب في جو ضاغط، استطاع فيه بشير ومعاونوه تأمين العدد الكافي من النواب لحضور جلسة الانتخاب. وقد تأمن العدد الكافي، اي ٦٢ نائبا، لعقد الجلسة. وصوّت له من الحضور ٥٧ نائبا بينما قدم الخمسة الباقون اوراقا بيضاء. وبعد انتخابه بلحظات،

جاب مؤيدوه شوارع المنطقة الشرقية وهم يرقصون فرحا بالعهد الجديد الذي انبثق امامهم، بينما تلقت مناطق اخرى من لبنان نبأ انتخابه بشيء من الحذر.

وكان الاسرائيليون ينتظرون الكثير من بشير. ولكنهم لم يحصدوا ما زرعوا: لان بشير، الذي وصل الى الرئاسة بوجودهم في جوار بيروت، اراد الآن ان يقفز من القطار الاسرائيلي، الى قطار آخر يؤمن له الدعم اللبناني الشامل، وبالأخص الدعم الاسلامي الذي لم يكن متيسراً له من قبل. وقد علمت، من صديق مشترك، بأن اجتماعا سريا انعقد بعد انتخاب بشير بينه وبين بيغن، وأن بيغن طلب منه ان يتعهد بعقد معاهدة سلام. ولكن بشير تردد وتنصل من وعده السابق، واخذ يقدم العذر تلو الآخر لتردده، مثيراً بذلك غضب بيغن وغضب وزير دفاعه اريبل شارون، الذي كانت له علاقات خاصة ببشير، ويعلق آمالا كبيرة عليه. كان بشير الذي انتخب رئيسا غير بشير القائد الميليشياوي. اذ اخذ، منذ انتخابه، يوطد علاقاته مع القادة المسلمين ويغير مواقفه ليحظى بإجماع وطني يدعم دوره الرئاسي.

إنه ما ان انِتخب رئيسا، حتى امت داره جميع وسائل الاعلام اللبنانية منها والعربية والدولية. وكانت كل وكالة تريد ان تعرف موقفه، كرئيس للجمهورية، من كل قضية من القضايا المعقدة والكثيرة المشتعلة على الأرض اللبنانية. ووافق على إجراء مقابلة مع وكالة تلفزيونية اميركية مشهورة، شرط ان اكون انا بجانبه ليتاح له أن يتكلم بحرية في كل الموضوعات، وادون انا النقاط التي تحتاج الى تعديل او حذف. فاذا قبلت الوكالة بهذا الشرط، أجرى هو المقابلة. وهكذا كان. وبعد ان انهى المقابلة الطويلة سألني: هل من تعديلات؟ فاجبته نعم، هناك ١٨ ملاحظة بعضها هام وبعضها اقل اهمية. فقال بشير: تفضل واعرضها. قلت له: لقد قلت كذا وكذا، ومن الافضل ان تقول كذا وكذا، فأجاب انت على حق. وهكذا واصلنا التعديل والحذف حتى وصلنا الى النقطة ١٨. فنظر الي وعلى وجهه ابتسامة عريضة وقال، بصوت ينم عن الجدية والتهديد: هذه النقطة يا حضرة الاستاذ مهما كانت خطورتها ستبقى. الا يحق لي، وانا رئيس جمهورية لبنان، ان اربح نقطة من ١٨؟ فقلت له انت على حق فلتبق. ولم اعد اذكر تلك النقطة، لكن لا يسعني إلا أن اقدر المرونة الهائلة

التي تحلى بها بشير في تغيير المواقف، عندما تتبين له مصلحة لبنان ومصلحته هو كقائد مسؤول.

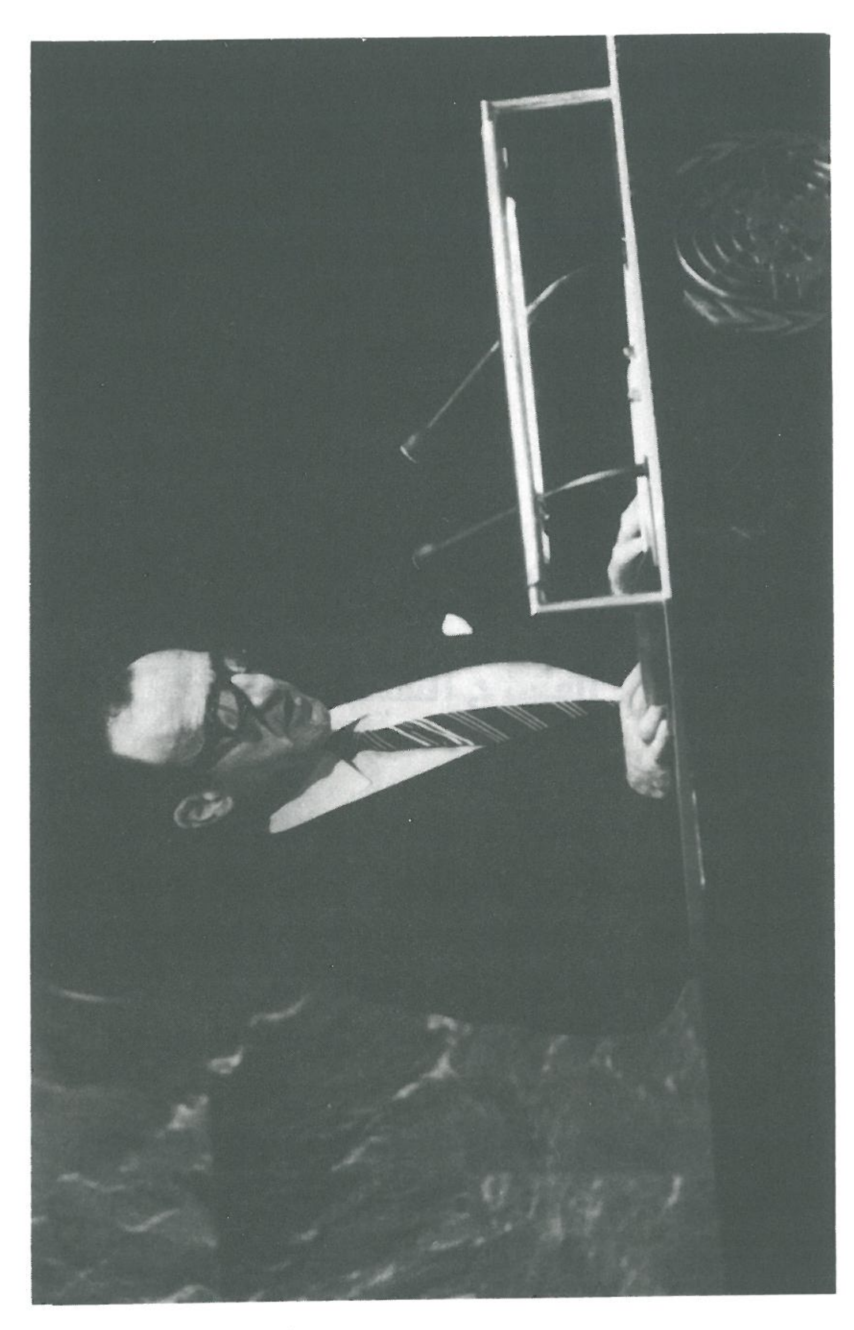
وفي ١٤ ايلول/سبتمبر، اي بعد ٣ اسابيع من انتخابه، قتل بعبوة ناسفة فجّرت في المركز الكتائبي بالاشرفية. وانتهت بمقتله السيرة المأساوية التي بدأها. وقتل معه حلم كبير لجيل من الشباب المسيحيين نشأ في هذه الحرب. لقد مات بشير وهو في ذروة مجده، وقبل ان يُختبر في دهاليز المسؤولية الرئاسية. وقد وحّد بموته كثيراً من اللبنانيين الذين كانوا يعادونه في حياته: لانه كان يحاول ان يبني جسورا معهم ويتعهد بالعمل معهم لانقاذ لبنان. وكان مأتمه في بلدته بكفيا مأتما شعبيا شارك فيه كل افراد العائلة اللبنانية، ليس حبا لبشير، بل تقديرا للمأساة التي عاشها من يتحدى القدر ويتطاول عليه. وكان لرئيس الجمهورية الياس سركيس كلمة مؤثرة في رثاء الرئيس المنتخب، تعثر في القائها، لالمه الشديد لوفاة شاب عمل هو على تدرجه في السياسة اللبنانية وعلى مساعدته لبلوغ الرئاسة.

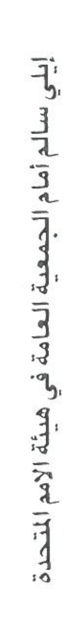
ولكن لا يمكن للسياسة ان تتوقف. ففي الساعة التي كان يدفن فيها الرئيس الشاب، كانت الجهود منصبة على انتخاب خلف له. وكان من الطبيعي، في ايلول/سبتمبر ١٩٨٢، وفي إطار المعادلات السياسية القائمة آنذاك، أن تتجه الانظار الى اخيه الاكبر أمين الذي كان اكثر اعتدالا منه. وكان امين عضوا في مجلس النواب، ولاعبا سياسيا بارعا، ذا علاقات قوية مع فئات واحزاب وقيادات في كل المناطق اللبنانية. وفي ٢١ ايلول/سبتمبر، انتخب امين رئيسا للجمهورية.

ولم اكن انا على معرفة بالرئيس الجديد. فعندما انتخب اتصل بي بعض اصدقاء بشير وطلبوا مني ان ارافقهم لزيارة الرئيس الجديد، فذهبت معهم. وكان وحده في شقته ببكفيا، وعلى وجهه علامات التعب المتراكم من الاحداث المتسارعة التي أوصلته، دون سابق اعداد، الى مركز الرئاسة.

والذي لفت نظري، في تلك الزيارة للرئيس الجديد، أن هذه الشقة هي منزل اخ لرئيس اغتيل منذ اسبوع، وأن الرئيس الجديد، وهو رئيس بلد من اخطر بلدان

العالم، إنما يسكن الآن في شقة متواضعة جدا، مع ثلاثة حراس على مدخل بابه. هذا في الوقت الذي يصر فيه كل قائد ميليشيا في لبنان على أن يحيط به ويرافقه عشرات من الحرس. فاستغربت ذلك وقلت له: يا فخامة الرئيس انك بحاجة الى مزيد من الحرس. فنظر الي وقال بلغة صوفية مثقلة بالقدر: يا عزيزي ايلي: الله فوق، وهو الذي يحمي. وعندما تأتي ساعتي تأتي بحرس او بدون حرس. فرأيت ان اذكره بقول الرسول محمد بشأن الحرية والاتكال على الله. لقد قيل ان أحدهم سأله: يا رسول الله، اذا كان المسلم مسافرا في الصحراء واراد ان ينام، فهل يعقل ناقته الى نخلة، ام يتركها ويتكل على الله؟ فأجاب الرسول: إِعْقِلْ وتوكَّل. اي اربط الناقة ثم توكل على الله. وهكذا يا فخامة الرئيس عليك ان تؤمن حراسة لك ثم تتكل على الله. ولم يكن الرئيس امين الجميل ضليعا في التراث العربي الاسلامي. وما كنت اعلم، آنذاك، بأنني ساعمل الى جانبه، وبأنني سأرجع مرارا وتكرارا الى الحضارة العربية، لاستخلص منها العبر المناسبة للاوضاع التي يعالجها رئيس الجمهورية اللبنانية.




إيلي سالم أمام الجمعية العامة في هيئة الامم المتحدة

الفصل الأول

المسرح السياسي

مع هبوط الليل، تكتسب الحروب حدة وكثافة: كأن هناك علاقة بين الظلمة وغريزة الانسان الكامنة فيه. أو لعل ذلك يعود الى ان رجع اصداء العنف والقصف يشتد في الليل اكثر مما يشتد في النهار. كانت أصوات المدافع تدوي كالرعد في الشوارع الداخلية الضيقة، والرشاشات تنطلق كالمفرقعات النارية، والمقاتلون يقومون، بين الحين والآخر، بإدخال إيقاعات موزونة ومحسوبة بدقة على بنادقهم ورشاشاتهم، وكأنهم من الذين يقرعون الطبول لانذار القبائل بوقوع خطر داهم.

كان ليل السادس من تشرين الاول/اكتوبر ١٩٨٢ ليلاً هادئا على غير عادة في بيروت، وسماء الخريف سماء صافية. وحول الساعة العاشرة مساء، وبينما كنت أتسامر مع عدد من الاصدقاء، على شرفة شقتي بالجامعة الاميركية في بيروت رن جرس التلفون، وكان على الطرف الآخر الدكتور وديع حداد، زميلي السابق في الجامعة، وكان قد التحق بالبنك الدولي، لكنه اخبرني أنه عاد للعمل في لبنان مع صديقه القديم الشيخ أمين الجميل، وأنه يتحدث معي من القصر الجمهوري في بعبدا. وسألني: هل أستطيع الذهاب إلى بعبدا في ذلك الوقت، لأن الرئيس يريد أن يتحدث معي. وحاولت بشيء من الالحاح تأجيل ذلك حتى الصباح، لأنني لم أكن تواقا إلى المغامرة وحدي في الليل، قطع الحواجز الكثيرة التي تعترض طريقي، من رأس بيروت الى بعبدا. غير أنه أصرّ على أن الامر لا يحتمل التأجيل. وبعد دقائق قليلة، انطلقت في سيارتي قلقاً حذرا عبر الشوارع المظلمة الموحشة إلى بعبدا في ضواحي المدينة.

وحين وصلت، رأيت الرئيس الجميل والدكتور حداد يتمشيان أمام مدخل القصر. كان الرئيس يحمل سلسلة مفاتيحه ويلعب بها كالمسبحة مما شجعني على أن أفعل مثله، لأنني كنت مثله من المعتادين على سلسلة المفاتيح لا على المسبحة.

كان الجميل يبدو فتيا صغيرا بعض الشيء، في ذلك البهو الكبير، أمام القصر

الجمهوري. وكان يبدو وهو يمشي مستغرقا في التأمل، وكأن عبئا ثقيلا ألقي على كاهله. لكنني شعرت أنه يتحلى بثقة خفية وكأن القدر اختاره للمهمة، وانه على استعداد للقيام بها.

رحب الجميل بي بحرارة. وما لبث الدكتور حداد ان تركنا، فأخذت اتمشى مع الرئيس واتحدث اليه. وبعد قليل قال: سأجتمع إلى رئيس الوزراء المكلف الاستاذ شفيق الوزان غداً لتشكيل الوزارة، واود ان تحضر الاجتماع، وان تتولى وزارة الخارجية طوال سنوات رئاستي الست. وبعد انتهائها تُعيّن سفيراً للبنان في واشنطن. وكان قد خطر ببالي شيء من ذلك وأنا في طريقي بالسيارة إلى بعبدا وسبَّب لي بعض القلق. إذ كنت من محبي الحياة الجامعية والخبراء بشؤونها الإدارية. لكن لم يكن باستطاعتي ان ارفض مناسبة تتيح لي ذلك العمل الرسمي وخدمة لبلادي في مثل ذلك الوقت العصيب الذي اعقب الاحتلال الاسرائيلي للبنان. وقبل ان اقبل عرضه طرحت عليه السؤال التالي: هل انت ملتزم بعقد معاهدة سلام مع إسرائيل؟ وكنت سارفض العرض لو وجدته ملتزماً بذلك. قال: كلا. ولم يكن جوابه يوحي بأي تردد. واضاف قائلاً: انت تعلم اني كنت على خلاف مع بشير حول جميع القضايا السياسية تقريباً. وحتى بشير ذاته اخذ يبتعد عن إسرائيل ويضع سياسته في إطار لبناني وعربي. فهل ينتظر مني ان افعل غير ذلك؟

عندئذ قلت له: اقبل العرض وأعتبره شرفاً لي. لكن دعنا ننسى الآن مسألة تعييني سفيراً بواشنطن لأنني لا اطيق القيام بواجبات السفير الاجتماعية والبروتوكولية ومهماته الدبلوماسية. فعندما اترك وزارة الخارجية اعود إلى الجامعة الاميركية. فقال الرئيس: لا لن تعود إليها، فالامور ستتغير، وانت نفسك ستتغير. فقلت: انا لن اتغير. فارتباطي بالشؤون الأكاديمية هو من الشدة بحيث يحول دون التخلي عنها من اجل منصب إداري وخصوصاً منصب سفير. ثم تحدثنا قليلاً قبل ان أستاذنه بالانصراف. وفي الطريق إلى الجامعة، أخذت أتساءل عما دعا الرئيس إلى إسناد المنصب إليّ وهو لا يعرفني. فباستثناء زيارة قصيرة له قبل ذلك ببضعة أيام، لتهنئته على انتخابه، لم أكن قد التقيته. وكنت اعرف بعض

الأشياء عنه بوصفه زعيماً مارونياً، لكنني لم اكن متأكداً من انه يعرف اي شيء عني. على انني علمت بعد ذلك انه كان يعرف بعض اصدقائي، وانه قرأ شيئاً مما كتبته، وأراد ان اكون نائباً لرئيس الوزراء، ووزيراً للخارجية ومساعداً وصديقاً. وبالرغم من ان الرئيس الجديد فرانكفوني، فانه يتكلم الانكليزية بطلاقة ويرغب في التعاون مع الجامعة الاميركية وخريجيها، ويعوّل كثيراً على مساعدة الولايات المتحدة له، وكان كأخيه بشير، يدرك ابعاد التحول الاستراتيجي في العالم، ويمد بصره الى ما وراء المتوسط وفرنسا، إلى تلك الامبراطورية الجديدة وراء الأطلسي.

وفي تلك الأثناء، كنت أسمع دوي المدافع البعيدة وموسيقى الرشاشات في الأسواق. وتبين لي اننا، على مر السنين، قد ألفنا الحرب وقبلناها، شرط ان تفصلنا عن مسرح القتال بضعة شوارع، او حتى بضعة أمتار. ومع اي حال فإنني كنت سأجد نفسي معنياً بهذه الحرب من كل ناحية، لابل وشريكاً في مسؤولية وضع نهاية لها.

وعندما وصلت إلى حرم الجامعة، توجهت إلى شقتي التي تقوم على تلة صغيرة على حافة البحر، وما هذا البحر إلا أوتوستراد يسلكه المهاجرون اللبنانيون، عبر مضيق جبل طارق إلى مختلف انحاء العالم، كما يسلكه العائدون منهم يحملون الثروة التي جنوها والأفكار والمؤسسات الجديدة التي حولتّ لبنان، خلال نحو قرن، إلى دولة لا يعرف العالمان العربي والآسيوي لها مثيلاً من حيث تقدمها وحضارتها. وخرجت إلى الشرفة وحدقت في جبل لبنان متكئاً على الساحل، يدفع امامه القرى والمدن إلى شاطئ المتوسط. وكانت هذه تبدو من الشرفة نقاطاً مضيئة في سماء الليل الحالك، يلفها الهدوء من الخارج تكتوي بنيران الحرب المستعرة في الداخل. ورحت اتساءل: كيف قدر لهذا البلد الجميل ان يلقى مثل هذا المصير؟ وكيف يمكن لهذا القدر الكبير من الجمال ان يحمل في طياته هذا القدر الكبير من العنف؟ وكيف يمكن لدورة العنف ان تتوقف؟ وقلت في نفسي بأنه سيتاح لي قريباً الإسهام في تغيير الأوضاع بالعمل من داخل الحكومة والمشاركة في اتخاذ القرارات الصعبة، لا من خارجها بالكتابة والوعظ وإلقاء المحاضرات. لكني لم البث ان تساءلت: هل هناك

فرق بين العمل من الداخل والعمل من الخارج؟ هل كانت سلطة اتخاذ القرارات بيد الدولة، ام بيد تلك القوى المهيمنة على الساحة اللبنانية؟ وإلى اي حد كانت ستقرر مستقبلنا الأحداث الاقليمية والدولية التي لا سيطرة لنا عليها؟ وهل يمكن لصوت الحكومة الدستورية، في هذا الصراع بين القوى على السلطة، ان يكون إلا مجرد شكوى وتذمر؟ ان الاساتذة الجامعيين مدربون على التفكير من خلال الأسئلة لكنني لم ألبث ان ادركت انه قد لا يكون هناك مكان للأسئلة وان الاهمية كلها للأجابات. وعليه، فقد قررت، بيني وبين نفسي، ان اعمل ما اراه حقاً، وان افعل ذلك وكأن القرار كله بيدنا، وان لا أستسلم للتشكيك الفلسفي الذي ينتهجه الأكاديميون.

تشكيل الحكومة

عدت في اليوم التالي إلى القصر الجمهوري، للاجتماع بالرئيس الجميل وحضور الاجتماع الذي دعا اليه لتأليف الحكومة. وضم الاجتماع رئيس الوزارة شفيق الوزان، ومدير الأمن العام فاروق ابي اللمع، ومدير المكتب الثاني(المخابرات) العسكري العقيد جوني عبده. وكان الدستور اللبناني، قبل تعديله في ايلول/سبتمبر ١٩٩٠ يقضي بان يعيّن الرئيس الوزراء ويكلّف احدهم برئاسة الوزارة. لكن جرت العادة بأن يقوم رئيس الجمهورية، بعد التشاور مع اعضاء المجلس النيابي وقوى وطنية اخرى، بتعيين رئيس الوزراء. ويقوم هذا بدوره بإجراء استشارات واسعة لتشكيل الحكومة. وفي ضوء تلك الاستشارات، يتفق هو ورئيس الجمهورية على باقي الوزراء.

وكان رئيس الجمهورية يعوّل على نصيحة المسؤولين الرئيسيين اللذين يترأسان الامن العام واستخبارات الجيش، وهما عادة مارونيان. ومع مرور الزمن، صار الرئيس يمارس الكثير من صلاحياته بواسطتهما. وكانا من اقرب مستشاريه. وعلى الرغم من ان عبده وابي اللمع كانا من المقربين من الرئيس الياس سركيس، فإن الرئيس الجديد كان يثق بهما ويقدر لهما خبرتهما. وبالتالي فقد كنت الشخص الوحيد في هذا الاجتماع البعيد كل البعد عن سياسة تأليف الحكومة واشكالاتها.

كان الوزان قد اجرى مشاوراته واجتمع بالكتل البرلمانية، واستشار رؤساء

الوزراء السابقين، كما تقضي التقاليد، بالاضافة إلى قادة الاحزاب غير الممثلة في البرلمان. قال لنا الوزان انه، اذا كان له ان يعمل بموجب نتائج استشاراته فلا بد من التوصية بحكومة يبلغ معدل عمر افرادها ٧٥ عاماً؛ لأن جميع الزعماء الذين كانوا على المسرح السياسي اللبناني، منذ الثلاثينات، يصرون على الاشتراك في الحكومة. ومثل هذه الحكومة كما قال، لن تعكس الصورة التي يريد الرئيس الجميل ان يعكسها. ان رئيساً في اوائل الاربعينات من العمر بحاجة الى حكومة من الشبان الذين يستطيعون ان يعملوا بكفاءة وان يجسدوا صورته الدينامية.

وافق الرئيس الجميل على ذلك، ولكنه اصر على ان تؤلف الحكومة فوراً في هذا الاجتماع بالذات لأن الجميع يعرفون ان في القصر الرئاسي اجتماعاً يعقد لهذه الغاية؛ فاصر على وجوب اعلان الحكومة في نهاية الاجتماع، وإلا صعب تأليف الحكومة. وخلال خمس ساعات تالية راح كل واحد في هذه المجموعة يقترح الاسم الذي يعتبره مناسباً. واذا ما توفر الاجماع على القبول بهذا الشخص او ذاك، كان العقيد عبده يكلف بان يتثبت من سجله السابق. بعد ذاك يتغيب عبده بضع دقائق ليعود حاملاً الرد. اي رد سلبي يسقط اسم المرشح حتماً. كذلك كانت اي معارضة من قبل رئيس الجمهورية او رئيس الوزارة لأي اسم تنهي المداولة به. يوم ذاك كانت الاعتراضات تثار بالنسبة للمرشح اذا كان عقائدياً متصلباً، او حزبياً، او مثار خلاف، او بدون مؤهلات مهنية.

وعند تقديم اسماء المرشحين الموارنة، اقترحت اسم جورج افرام، وكنت اعرفه جيداً كصناعي ناجح ومواطن، ومن القلائل المهتمين بالشأن العام، ويصرفون من اموالهم الخاصة للمصلحة العامة، ووافق الرئيس على اقتراحي وايّد هذه التسمية بحماسة، ونزل رئيس الوزراء عند ارادة رئيس الجمهورية بخصوص افرام، لأنه كان كما بدا متجانساً مع الصورة التي يريدانها.

وكان الوزان هو الذي يتقدم باسماء غالبية المرشحين المسلمين. وعندما اقترح الرئيس الوزان اسم زميل لي بالجامعة طلب الرئيس الجميل من ان اتثبت من خلفيته السياسية. اتصلت بالهاتف بزميل لنا في الجامعة، فجاءت نصيحته بمعارضة هذه

التسمية، لأن المرشح كان قد هاجم حزب الكتائب، وشتم الشيخ بيار الجميل، والد الرئيس. ذكرت ذلك للمجموعة. وعندها اخذ المجتمعون يفكرون في شخص آخر. وبعد بحث سريع عن بديل، عاد الوزان الى اقتراح اسم الزميل ذاته الذي كان قد هاجم الشيخ بيار. ومرة اخرى عاد الرئيس الجميل فطلب مني الاتصال بالزميل نفسه، وان احصل على تقييم دقيق. قمت بذلك وعدت بما يشبه التقرير السابق ذاته. بدت الحيرة على الرئيس. غير أن رئيس الوزارة الذي يعرف بحبه للنكته، نظر الى الرئيس وقال: «يا فخامة الرئيس، هل تعرف في هذه الحرب الطويلة أي انسان لم يشتم الشيخ بيار؟» انفجر الرئيس ضاحكا، ورحّب بالوزير الجديد، وهو الدكتور عدنان مروّه، الطبيب المعروف في مستشفى الجامعة الاميركية والذى برهن عن كفاءة في تحمله المسؤولية.

وفي وقت لاحق، حين سئل الدكتور مروّه عن الشخ بيار، ضحك وقال:«اما كنتم فعلتم ذات الشيء؟» وأمل رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة تشكيل حكومة من ستة اعضاء تكون فيها حقيبتان أو ثلاث حقائب لكل وزير. فرفضت بصورة قاطعة ان تكون لي أي وزارة اخرى بالاضافة الى وزارة الخارجية. ومن المضحك انه عرضت علي وزارة الزراعة بالاضافة الى نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، على اساس ان أتعاقد مع مستشار يعنى بشؤون وزارة الزراعة. وكان همّي أن أركز على الشؤون الخارجية لتحقيق انسحاب الجيش الاسرائيلي من كل لبنان، والذي كان قد توغل حتى في العاصمة وضواحيها، واخذ يؤثر على التركيبة اللبنانية ويهددها.

واخيرا تشكلت حكومة الرئيس الوزان من عشرة وزراء. وهنا كانت المهمة الصعبة امام الرئيس الجميل كسب تأييد الرئيس كامل الاسعد لحكومة من اعضاء غير معروفين سياسيا. وكان الرئيس ينتظر معارضة من الرئيس الاسعد لأن التشكيلة الحكومية قامت دون التشاور معه بشأنها.

وتهيأ الرئيس الجميل للاجتماع المرتقب مع الرئيس الاسعد وكان له ما يكفي من الثقة بنفسه ان طلب، في هذه الاثناء، دعوة المرشحين للحكومة الى القصر لاخذ

الصورة التقليدية لهم مع رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة ورئيس المجلس النيابي. وسرعان ما عرفت ان الرئيس الجميل يستطيع أن يكون شخصاً شديد الاقناع، قادراً، في بعض الاحيان، أن يبدو لين العريكة، متكيفاً، لكّنه يظل في الحقيقة على حاله لا يتنازل ابدا، تلك هي ميزة فيه، كما قيل لي، ورثها عن والده الشيخ بيار. وكان الاجتماع مع الرئيس الاسعد اجتماعاً طويلا، وفي وقت لاحق وصفه الرئيس للوزان بأنه «كاقتلاع الاسنان».

اسرائيل تجس النبض

بعد هذا اليوم الطويل، رجعت الى البيت في بعبدا، وهو بيت اشتريناه سنة ١٩٦٤. وما زلت حتى الآن افتخر بتذكير ضيوفي بان هذا البيت هو البيت الذي نشأ فيه الشيخ بشاره الخوري، اول رئيس جمهورية للبنان المستقل وقد خلّده الشيخ بشاره بوصفه مع صورته في مذكراته «حقائق لبنانية». وكان القدر قد وضع هذا البيت على مسافة خمس دقائق بالسيارة من القصر الجمهوري وعلى مسافة عشرين دقيقة من وزارة الخارجية في الاشرفية.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة اعلنت الوزارة. وفي وقت باكر من صباح اليوم التالي، الثامن من تشرين الاول، في الساعة السابعة والنصف بالضبط، كانت زوجتي فلس في طريقها من غرفتنا الى المطبخ لتهيء قهوتها الصباحية، واذا بشاب غريب اشقر اللون يقف في قاعة الاستقبال. ادخلته الخادمة دون سؤال. وكنت لا أزال في تلك المرحلة الانتقالية الخطرة بين عميد لكلية الآداب والعلوم في الجامعة ووزير للشؤون الخارجية دون حراسة. دامت هذه الفترة الانتقالية نحو اسبوعين. تبادلت زوجتي بضع كلمات مع الشاب، وعادت لتقول لي ان معاون ديفيد كمشي، المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية موجود في الدار. قالت لي ان هذا الشاب بدا محترفا؛ كان يتكلم كأنه موظف في الخارجية. قال لزوجتي ان لكمشي مكتباً في مركز شاهين بجوار منزلنا، وان كمشي يود زيارتي والتحدث إلي.

كانت زوجتي متوترة الاعصاب في الاسابيع القليلة الماضية، اذ كانت تخوض معاركها الخاصة مع الجيش الاسرائيلي في بعبدا، لأن الاسرائيليين قد دخلوا بيتنا

قبيل انتقالنا اليه في تشرين الاول بعد غياب طويل واخذوا منه ما هم بحاجة اليه، وعاثوا في الحديقة فسادا، وهي التي عنيت بها بجهد ونشاط. قلت لها انقلي الرسالة التالية للشاب: «ان وزير الخارجية لا يستطيع الاجتماع بمسؤول اسرائيلي. ان اسرائيل خرقت اتفاقية الهدنة. بين بلدينا واحتلت ثلث الاراضي اللبنانية بما في ذلك عاصمتها. ان اي شيء اود ان اقوله للاسرائيليين، سأقوله بواسطة الممثل الاميركي. أرجو ان تغادر المنزل الآن، وان لا تعود». ولا ريب ان زوجتي احسنت القيام بالمهمة لأن الرجل ذهب ولم يعد.

ولما اخبرت الرئيس الجميل بهذه الحادثة قال لي انه يواجه مشاكل أسوأ من تلك مع الاسرائيليين. لقد اقاموا حواجز على الطريق من سن الفيل. حيث يقيم، الى بعبدا، مركز القصر الجمهوري. وأبلغني انه سيطلب من السفير الاميركي روبرت ديلون ان يقنع الاسرائيليين بازالة هذه الحواجز حتى يتمكن رئيس الجمهورية من الوصول الى مكتبه في القصر دون اذلال.

ولم تكن الضغوط الاسرائيلية على الحكومة اللبنانية الجديدة خفية. الجيش الاسرائيلي منتشر في بيروت وحواليها. والمخيمات العسكرية الاسرائيلية تحيط بالقصر الجمهوري. وأثناء ذهابي الى مكتبي بالسيارة كثيرا ما كنت أجد مروري في شوارع بعبدا الضيقة يتعرقل بدبابات «مركافا» الاسرائيلية الضخمة التي كانت، على ما يبدو، تتعطل «صدفة» امامي. كنت أقف بغضب هادئ وراء هذه الدبابات التي تأخذ الطريق كلها. لا أستطيع التقدم حتى يقرر الاسرائيليون ان الدبابة أصبحت صالحة، فتتحرك وتنفتح الطريق.

ذات يوم، حدّق بي جندي من برج دبابته وسأل: «يا حضرة الوزير، متى ستذهب إلى اسرائيل؟» تعمدت الصمم ولو انني لم أستطع ان أخفي ابتسامة خفيفة. هنا عدت بالذاكرة إلى أيام الدراسة في الجامعة الاميركية في بيروت في النصف الثاني من الأربعينات. تلك كانت سنوات حاسمة في تاريخ الشرق الأوسط وكان النزاع بخصوص فلسطين يسيطر على حياتنا الطلابية. وكان طلاب يهود من

فلسطين لا يزالون يدرسون في الجامعة الاميركية حتى ١٩٤٧. وكان من بين هؤلاء طالب يدعى دايفيد، ولم أعد أذكر اسم عائلته.

ومع اشتداد حدة النزاع بين العرب واليهود، بدأ الطلبة العرب في الجامعة الاميركية في بيروت ينخرطون في جيش المتطوعين بقيادة فوزي القاوقجي، فيما راح اليهود الفلسطينيون ينسحبون بهدوء من الجامعة ليلتحقوا بمنظماتهم العسكرية الخاصة بهم.

في مثل هذه اللحظات الدقيقة الحرجة، تمتحن قوة السياسة روابط الصداقة، وتتبين الروح الانسانية كما تتبين اهمية النخوة وأولوية الشهامة. اذكر انني ذات يوم رأيت ديفيد في مطعم الجامعة، وقد بدا عليه الذعر. كان يخشى ان يكون هدفاً لاعمال ثأرية من قبل الطلبة العرب الساخطين؛ أسر إلي انه يريد ان يذهب الى فلسطين لكنه لا يعلم لذلك طريقاً مأمونا. تحدثنا فترة. أصغيت اليه يصف رؤيته للدولة اليهودية. قلت في نفسي: هنا نحن صديقان نحمل رؤيتين مختلفتين؛ كلانا عالق في مسار تاريخي محتم وربما لا خيار له فيه. ولكنه يمكنه ان يحتفظ بانسانيته في خضم الصراعات المحيطة.

أكدت لدايفيد انه سيصل الى فلسطين غداً. وفي وقت باكر من اليوم التالي، كانت تكسي تنتظر على بوابة الجامعة الرئيسية. صعدنا الى السيارة: أنا ودايفيد، وثلاثة طلبة عرب آخرين. واتجهنا جنوبا نحو الناقورة. هنالك عانقنا دايفيد مطولا، وسار هو نحو مصيره وعدنا نحن الاربعة الى مصيرنا. والطلبة الثلاثة الآخرون في التكسي هم من ابرز الطلاب الفلسطينيين في الجامعة في العمل السياسي الوطني. وهم، في الوقت الحاضر، بين القادة المعروفين في القيادة الفلسطينية. نظرت الى الجندي في برج الدبابة. وللحظة فكرت انه قد يكون ابن ذلك الطالب دايفيد.

ابتسمت قليلا وأكملت طريقي.

الايام الاولى في وزارة الخارجية

وصلت إلى وزارة الخارجية لحفلة التسلم في سيارتي القديمة التي ساقها لي،

بهذه المناسبة، بستاني صديق. واستقبلت بنظرات من التشكيك من قبل لجنة الاستقبال المؤلفة من كبار موظفي الوزارة. غير ان الامور سرعان ما تغيرت. فقد اقتضى منصبي الجديد ان يرافقني الحرس، وان اركب سيارة حكومية فخمة، وان تكون حولي حاشية من المرافقين.

تقع مكاتب وزارة الخارجية، كمكاتب غالبية الوزارات اللبنانية الاخرى، في عدد من المباني المصممة اصلاً لاستعمالات اخرى. وزير الخارجية ومعاونوه المباشرون يعملون في بيت قديم بمحلة سرسق التاريخية في بيروت. على ان هذا البيت، المبني لعائلة ثرية من خمسة افراد، غير صالح للاعمال الحكومية. ان المكاتب القليلة التي تتوافر فيه مكاتب كبيرة ذات سقوف عالية ـ جمال ولكن دون فائدة عملية.

من العقبات الاولى التي واجهتها، بعد تعييني وزيرا للخارجية، موقف بعض القادة الموارنة. كنت، بالنسبة للموارنة، انساناً دخيلا: انني اورثوذكسي، خريج الجامعة الاميركية في بيروت، ناطق باللغة الانكليزية وميال الى تشويه اللغة الفرنسية، أما القيادة المارونية فتتكلم اللغة الفرنسية، وخريجة جامعة سانت جوزيف اليسوعية، الناطقة باللغة الفرنسية، وترى في الجامعة الاميركية في بيروت معقلا للتحركات الفلسطينية وموئلاً للقومية العربية.

وحثني بعض الاصدقاء أن أقوم بزيارة للشيخ بيار الجميل «عمود» المارونية. الشيخ بيار رئيس حزب الكتائب، أكبر حزب سياسي ماروني القاعدة في لبنان؛ وإذا ما سارت الامور مع الشيخ بيار سيراً حسنا، فلا بد ان تتحسن صورتي عندهم.

استقبلني الشيخ بيار بالقول«يا ابني اود ان اكون صادقا معك. حين سمعت ان ابني عيّنك وزيراً للخارجية شعرت بانزعاج شديد. تلك الليلة لم أنم. لا شيء لدي ضدك، يابني، إلا أنك من الجامعة الاميركية في بيروت؛ اصدقاؤك فلسطينيون؛ كثيرون منهم في منظمة التحرير الفلسطينية، معرفتك باللغة الفرنسية ضعيفة. قلت لابني امين أخطأت في اختيارك. ثم سمعتك تتكلم في المجلس النيابي. غيّرت

رأيي كليا. ادهشتني فعلا. يظهر انك لبناني صميم. الله يوفقك». وهكذا اكتسبت شرعية ولو مؤقتة في أعين المؤسسة المارونية.

كان سلفي الاستاذ فؤاد بطرس وزيراً للخارجية طوال السنوات السابقة الست. وكان اقرب صديق ومستشار للرئيس الياس سركيس. وقبل ان يعيَّن وزيراً للخارجية، كان محاميا لامعا، وسياسيا بيروتيا يتصف بالاتزان، ودبلوماسيا. عرفته جيداً وقد اجتمعت اليه مرارا اثناء سنوات مهمته الصعبة. وكان الوزيربطرس يتوق الى الراحة. وحثّ على عقد الاجتماع للتسليم والتسلم في وقت باكر. كان فؤاد بطرس في منتهى اللطف والود في استقبالي. دعا جميع كبار المسؤولين في الوزارة للاجتماع بي، وعرض علي الوضع الخارجي، وتمنى لي الخير، ووعد بان يقدم لي ما يستطيعه من العون.

بعد عملية التسليم والتسلّم، جلست وحدي، ووضعت بعض الخطوط العريضة لسياستنا الخارجية. وكان ذلك ملحا لأن الرئيس الجميل أبلغني بأنه سيقوم بزيارة الى اميركا واوروبا قريبا.

وضعت الخطوط العامة التالية:

١ ـ يجب على اسرائيل أن تنسحب انسحابا كاملا من لبنان بموجب قراري مجلس الامن في هيئة الامم المتحدة. ٤٢٥ و٥٠٩ فوراً، وبدون قيد أو شرط انصياعا للشرعية الدولية وتخفيفاً للتوتر في لبنان وفي المنطقة؛

٢ ـ يجب اقناع الولايات المتحدة بصحة النقطة الاولى، وأن عليها المساعدة على تحقيقها.

٣ ـ يجب على لبنان، بدعم عربي عام ودعم سوري خاص، أن يؤمن الاستقرار في جنوب لبنان، ويمنع الهجمات من الجنوب على اسرائيل بعد انسحابها الكامل منه؛

٤ ـ اذا عجز لبنان عن إقناع الولايات المتحدة بصحة انسحاب اسرائيل بموجب

قراري مجلس الامن ٤٢٥ و ٥٠٩، كان على لبنان ان ينظر في اجراء محادثات في اطار اتفاقية الهدنة العامة بين اسرائيل ولبنان المعقودة في ٢٣ آذار/مارس ١٩٤٩، على اساس أن مثل هذه المحادثات ملحوظة في شروط اتفاقية الهدنة؛

٥ ـ ان المحادثات التي تؤدي الى انسحاب الجيش الاسرائيلي يجب ان تعقبها على الفور محادثات من أجل انسحاب كل القوات العسكرية غير اللبنانية من لبنان. ومن ثم تقوم الحكومة بحل الميليشيات ونزع الاسلحة منها.

٦ ـ ينبغي ان تكون للبنان علاقات واضحة وخاصة مع سوريا، على اساس الاعتبارات التاريخية الوثيقة، وعلى ان تكون علاقاتنا مع العرب علاقات ممتازة، ومع سوريا علاقات مميزة. وفي العالم العربي ينبغي ان نعمل بصورة وثيقة مع المملكة العربية السعودية التي تتمتع حاليا بنفوذ كبير في الشرق العربي وفي الغرب، ولا سيما في الولايات المتحدة؛

٧ ـ ان لبنان يؤيد القضية الفلسطينية، وأية ترتيبات تؤمن الحقوق القومية المشروعة للشعب الفلسطيني. على ان هذا الدعم للقضية الفلسطينية لا يجوز، في أية حال، ان يكون على حساب سيادة لبنان. وكجزء من مخطط عام شامل بالنسبة للاجئين الفلسطينيين، ان لبنان ملزم بالـ ٢٣٨٠٠٠ فلسطيني الذين قدموا الى لبنان سنة ١٩٤٨، وبالمتحدرين منهم حتى يتأمن لهم الرجوع إلى بلدهم وذلك لأن «توطينهم» في لبنان مرفوض. واذا كان لبنان ملزماً بحماية هؤلاء الفلسطينيين وتأمين الوضع الجيد لهم، فانه لن يقبل بعد الآن بوجود عسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية على أرضه، ولا بقيام هذه المنظمة بأعمال عسكرية من أراضيه ضد دولة اخرى. ان النقط التسع التي توصلت اليها المفاوضات بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية، بمساعدة المبعوث الاميركي الخاص، فيليب حبيب، تشكل خطوة كبرى في هذا الاتجاه.

٨ ـ ينبغي للسياسة الخارجية الفعالة ان تكون مدعومة بالاجماع الوطني حتى يتمكن لبنان من مخاطبة العالم بصوت موحد؛

٩ ـ بما ان سوريا حليفة للاتحاد السوفياتي واسرائيل حليفة للولايات المتحدة. فان على لبنان ان يحتفظ باتصال مباشر مع الدولتين العظميين، للمساعدة في عملية الفصل بين القوى الاقليمية المتشابكة في الصراع بلبنان؛

١٠ ـ نظراً الى نمو نفوذ اوروبا في الشؤون الدولية، ونظراً للروابط التاريخية بين العديد من الدول الاوروبية والشرق الاوسط، ينبغي للبنان ان يستكشف كل السبل لتأمين اسهام اوروبا ومساعدتها في تحقيق التسوية للنزاع اللبناني؛

١١ ـ يجب على لبنان ان يحمل قضيته الى عواصم الامم التي تتمتع بنفوذ في منطقة الشرق الاوسط. وانطلاقا من ذلك، يجب تعزيز اسهام لبنان في الجامعة العربية، وهيئة الامم المتحدة، وقمة دول عدم الانحياز: لأن هذه المنابر ستكون ضرورية لتعزيز الدعم الدولي للاهداف اللبنانية؛

١٢ ـ ينبغي للبنان ان يعمل من أجل تحقيق نظام سياسي مستقر ومضمون لدول الشرق الاوسط. ان لبنان لا يستطيع ان يعمل بصورة سليمة، وان يمارس ديمقراطيته بضرورة كاملة، الا اذا كانت البلدان المحيطة به مستقرة، وتعيش نوعاً من الامن الشرعي المعترف به. وعلى المجتمع الدولي ان يسهم في تحقيق هذا النظام.

١٣ ـ يجب على لبنان أن يكون ملتزما حقا بمبادىء الاستقلال، والسيادة، والوحدة، والمساواة، والعدالة. تلك مبادىء عمل لها لبنان كمبادىء ديمقراطية، وأقرها، تاريخيا. لكنها لسوء الحظ لم تكن تنفذ على الوجه الصحيح.

١٤ ـ يجب تركيز الاهتمام على الازمة اللبنانية بحد ذاتها حتى لا يصبح حل الأزمة اللبنانية مرهونا بحل مشكلة الشرق الاوسط.

وضعت هذه المبادىء العامة بشكل موجز، على انها منبثقة من حقائق لبنانية وليست مجرد آراء وأهواء. ولما عرضتها على رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، أكّد رئيس الجمهورية على أهمية الامم المتحدة كمنبر، وعلى دور الولايات المتحدة كوسيط بين لبنان واسرائيل. وأكدّ رئيس الحكومة على أهمية الوحدة الوطنية، وضرورة الدعم العربي، ومواصلة الاتصالات بسوريا، ولئن كان هذا الاجتماع هو

الأول لنا نحن الثلاثة بشأن المسائل السياسية، فقد كان الاتفاق بيننا كاملا.

ومن حيث التقليد، كانت السياسة الخارجية في لبنان ميداناً لرئيس الجمهورية يعمل فيها بصورة وثيقة مع وزير الخارجية. اما الآن، ولبنان ممزق تحت الاحتلال، فان مثل هذه المقاربة لن تكون كافية. ينبغي لرئيس الحكومة ان يكون معنيا بها بصورة وثيقة؛ كذلك ينبغي ان يكون مجلس الوزراء بكامله، ومجلس النواب والقادة اللبنانيون كلهم معنيين بالسياسة الخارجية لتوفير الاجماع اللازم.

الاعداد للزيارات الى الخارج

مساء يوم الاثنين ١١ تشرين الاول/اكتوبر، اتصل بي الرئيس الجميل، وطلب مني الاعداد لرحلته المقبلة الى الولايات المتحدة. كان يريد ان يسافر الى نيويورك في الاسبوع القادم، وان يجتمع بالامين العام للامم المتحدة خافير بيريز دي كويلار، ثم يلقي خطاباً في الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن، ويجتمع بالسفراء العرب المفوضين لدى هذه الهيئة الدولة. بعد ذلك كان يريد ان ينتقل الى واشنطن لاجراء محادثات مع الرئيس رونالد ريغن، ووزير الخارجية جورج شولتز، ووزير الدفاع كاسبار واينبرغر. وفي طريق العودة الى لبنان، كان يريد ان يتوقف في باريس وفي روما لاجراء محادثات مع الرئيس فرانسوا ميتران، والرئيس أليسندرو برتيني، ومع قداسة البابا. بدا أن الرئيس يريد ان يحرك شيئا ما وبسرعة. وكان يحب أن يفاجىء معاونيه، ويميل الى العمل الدراماتيكي.

اخذت انظم للرئيس جدول الاعمال، وأقوم بالعمل التمهيدي لاجتماعاته في الامم المتحدة، وواشنطن، واوروبا. كذلك اخذت افكر بصورة اكثر اتساعاً بخصوص ما يمكن ان تكون اهدافنا اثناء الرحلة، ثم بدأت اعدّ للتصريحات والخطابات التي سيلقيها الرئيس في الخارج، ولا سيما الخطاب الذي سيلقى امام الجمعية العامة.

وبين المهمات التي تتعلق برحلة الرئيس الى الخارج، يكون اشقها ما ينبغي ان يكون ابسطها، أي تحضير لائحة باسماء الوفد المرافق له.

وفي اليوم التالي اطلعت مجلس الوزراء بايجاز وتركيز على الرحلة الوشيكة، وعلى الاشياء التي ينوي الرئيس ان يغطيها بتصريحاته، وخطاباته، ومحادثاته، مع قادة العالم. كان رئيس الجمهورية يريد إقناع قادة العالم ان لبنان الآن بلد موحد، ان مساعدتهم ضرورة لازمة لإجلاء اسرائيل عنه، وإخراج جميع القوات غير اللبنانية منه، وحل الميليشيات ومباشرة عملية الاعمار. وبصورة خاصة، كان يريد اقناعهم بقيادته ونظرته الواضحة للامور. وبعد الحصول على موافقة مجلس الوزراء، توجه اهتمامنا نحو وضع تفاصيل الرحلة.

الزيارة الى الامم المتحدة

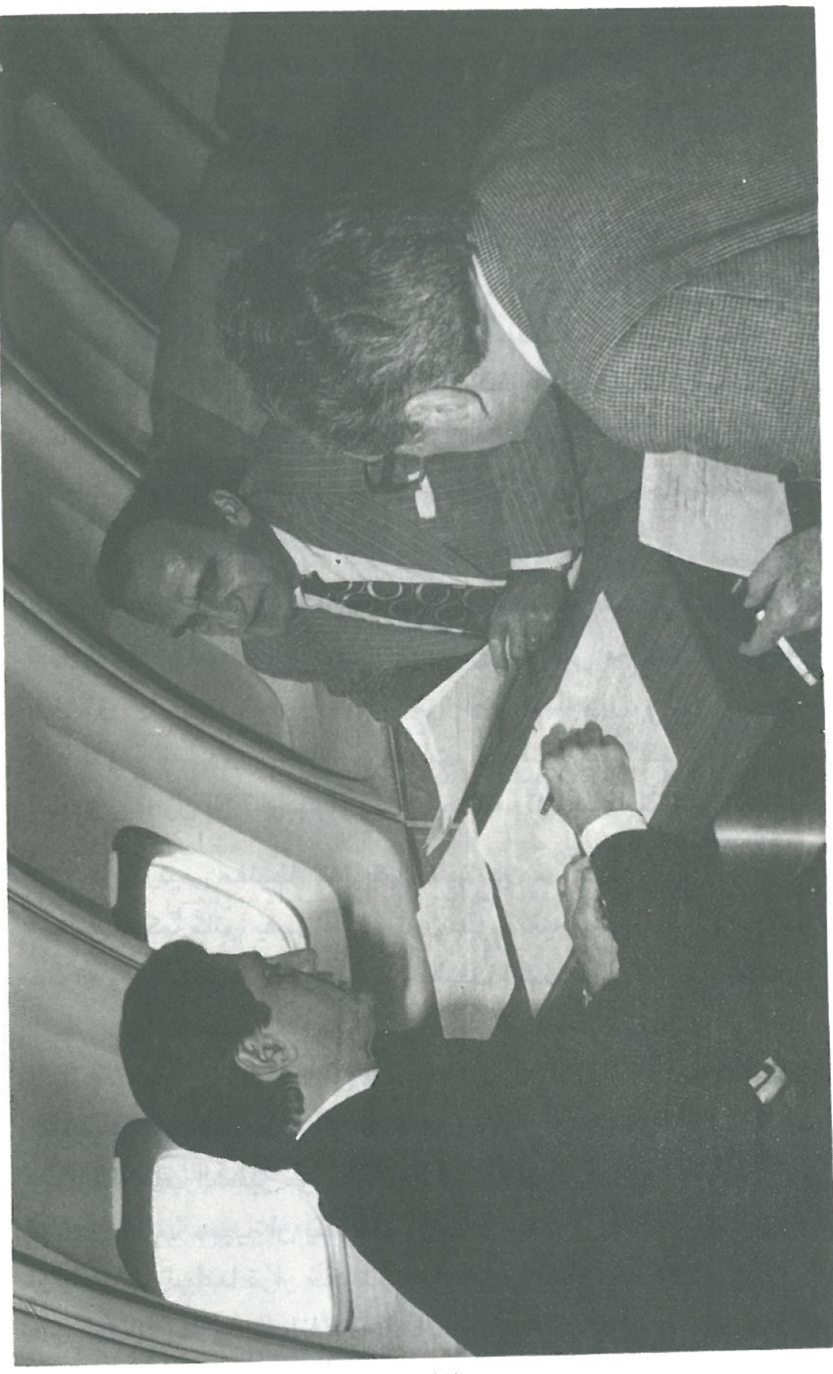
تشكل رحلات الرؤساء متاعب كثيرة للوزراء والمعاونين المعنيين مباشرة. وتزداد متاعبها عندما يكون الرئيس رئيس بلد مزقته الحرب طوال سبعة اعوام. لا بد من تخصيص طائرة خاصة وحراستها ليل نهار. لا بد لهيئات أمنية ان تنتقل الى البلدان المنوي زيارتها، وأن تنسق أمنيا مع قوات الامن المحلية. وينبغي تشكيل الوفد المرافق بدقة، وتأمين الخطابات والتصريحات، ومراجعتها مع كبار الزعماء في البلاد، لتأمين الدعم الواسع لها. اضف الى ذلك مشاكل البروتوكول التي لا تنتهي، والتي يبدو غالبا أنها غير قابلة للحل. وكان الرئيس قد دعا مؤسسة اميركية استشارية لمساعدته في كتابة خطابه الرئيسي الذي ينوي القاءه في الجمعية العامة للامم المتحدة. كان الرئيس يحب التشاور مع اخصائيين من الخارج في حقول كثيرة، كما كان يفعل في «بيت المستقبل» الذي أسّسه ورعاه. وارسلت المؤسسة مندوبين لها تجولوا في لبنان في محاولة منهم لتفهم الوضع المحلي، وتحسس سياسة البلاد وتقرير ما يجب ان يقوله الرئيس في المجتمع الدولي وعلى مسمع الشعب الاميركي. وهذه مهمة صعبة على اللبنانيين انفسهم فكيف على الاجانب؟ وبعد اسبوع من العمل الشاق، قدم المستشارون مسودة للرئيس. قرأها سريعاً باستياء واضح. لمس أنها تفتقر إلى الروح والتركيز، ثم أعطاها لصديقه الاستاذ غسان تويني فلم ترق له أيضا. وعندها طلب مني أن احاول كتابة الخطاب. حبست نفسي بضع ساعات وكتبت ما كنت اعتقد ان على رئيس الجمهورية ان يقوله

للجمعية العامة. وحين تلوته على الرئيس شعر بالابتهاج. لا لأنه وجد فيه الخطاب الذي احب، فحسب، ولكن لأنه، وهذا هو الاهم، شعر ان التنسيق بينه وبيني بخصوص الشؤون الخارجية سيكون سهلاً وتلقائياً.

الساعة الحادية عشرة، صباح يوم الاحد، السابع عشر من تشرين الاول/اكتوبر، شق موكب الرئيس طريقه ببطء من قصر بعبدا عبر ضواحي بيروت الجنوبية، الى المطار. وبطريقةٍ ما، كان الشرطة الذين يركبون الدراجات النارية والحرس الرئاسي في سيارات «الرانج روفر» يعرفون بالسليقة متى يرفعون مستوى ضجيج الموكب لتبرير جلال المناسبة وأهميتها، وكذلك وزعت وحدات من الجيش على الطريق بكاملها. خلال ذلك، كان الخطر قليلاً على الرئيس من الجماهير المحتشدة لمشاهدة الموكب، لأن الرئيس كان سياسيا معتدلا يميل الى مدّ الجسور بين الطوائف. وكان بالنسبة لهم مفضلا على اخيه بشير الذي عرف قبل انتخابه للرئاسة بمواقف فيها شيء من التحدي.

وكان الوفد الرسمي مؤلفاً من غسان تويني، وبهاء الدين البساط، وزير الاسكان، والسفير كسروان لبكي، الامين العام لوزارة الخارجية، والدكتور محمد عطا الله، رئيس مجلس الانماء والاعمار ومني. وبالاضافة الى الوفد الرسمي، اصطحب الرئيس عدداً من الصحفيين البارزين، وضباط الامن، والتقنيين، وأمناء السر. وطوال الرحلة المباشرة إلى نيويورك، كنا، أنا والرئيس وتويني، فضلاً عن عدد من المعاونين الآخرين، الذين ينضمون إلينا لفترات قصيرة، كنا نعمل باستمرار إلى مائدة صغيرة في الطبقة العليا من طائرة البوينغ ٧٤٧. كان الرئيس يحب العمل الشاق؛ كان يريد أن يراجع تفاصيل الزيارة بكل نواحيها. وفي نيويورك كان في استقبالنا السيدة سلوى روزفلت، رئيسة البروتوكول في البيت الأبيض، لاستقبال الرئيس من قبل الرئيس ريغن، وكان سفراؤنا وموظفونا في الامم المتحدة، والولايات المتحدة، وكندا.

بعد ذلك انطلقت بنا السيارات، في ظل تدابير امنية مشددة، الى فندق والدورف استوريا. كل واحد منا أعطي شارة أمن مميزة تعرّفه بقوة الامن الخاصة المرافقة



من اليمين: غسان تويني، ايلي سالم، أمين الجميّل في اجتماع على متن الطائرة لحضور اجتماع هيئة الامم المتحدة.

للرئيس. وكان الفندق غاصا بمئات اللبنانيين الذين كانوا يتوقون لملاقاة الرئيس، وتقديم مساعدتهم.

الرئيس رجل سياسي، والسياسيون يحبون الجماهير. وكثيراً ما اقلق الرئيس الجميل حراسه في نيويورك عندما يفلت من قبضتهم، ويختلط بجماهير اللبنانيين، واللبنانيين الاميركيين، الذين كانوا يملأون ردهات الفندق. المهاجرون اللبنانيون عاطفيون ويحتفظون بتعلق قوي ببلاد جدودهم وبالرئيس كرمز لبلاد الآباء والاجداد. في لبنان يمكن اما أن نحب الرئيس أو ان نخاصمه، اما في الخارج، فلا مجال للخصام. انه يظل بين المهاجرين اللبنانيين رمزاً للبنان؛ وكشعب تمرس بتقلبات التاريخ الغدارة اعتاد أن يهاجر ويستقر في سائر انحاء المعمورة. المهاجر بقي متعلقاً بالارض وبالوطن وبالذكرى.

في هذا الاحساس تكمن قوتهم وضعفهم معا. قوتهم كافراد تدفعهم إرادة لا تقهر للبقاء، وضعفهم كشعب لم يستقر بعد على مؤسسات تحميه من مخاطر الانزلاق. ولذا نجد شعورا بالذنب في قلوب المهاجرين، فان هؤلاء الذين كانوا في هذه الآونة يملأون القاعات والممرات، والمطاعم في الفندق، كانوا بصورة من الصور يكفّرون عن ذنوبهم أو ذنوب اجدادهم كشعب لم تكتمل لحمته بعد.

كان الرئيس مغتبطا. كان يقبل اللبنانيين من حوله؛ وكان يربت على اكتافهم، ويعانقهم، كما كانوا يقبلونه ويربتون على كتفيه، ويعانقونه. وفي آخر النهار فقد صوته وورمت يده اليمنى وأحس بالتعب الشديد، إلا أنه كان يستطيع مزيداً من التحمل. وكان ذلك جديدا علي. في حرم الجامعة، يعرف المرء متى ينام، أو متى يفيق. أما السفر برفقة الرئيس فيعني برامج متواصلة، لا انتهاء لها؛ نوم عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل؛ أو عقد اجتماع غير مبرمج في الخامسة صباحاً؛ مساء وصولنا، طلب السفير موريس درايبر والعضو المسؤول الأول في فريق المبعوث الخاص فيليب حبيب، أن يجتمع بنا بسرعة. كان وزير الخارجية جورج شولتز قد أوفد درايبر ليبلغنا قرار حكومة إسرائيل في العاشر من تشرين الأول/أوكتوبر، وليحاول معرفة ردة فعلنا عليه. كنا قد قرأنا نص القرار في الصحف. غير أننا كنا

نريد أن نعرف رسمياً مضمونه وموقف الولايات المتحدة منه.

كان قرار الحكومة الإسرائيلية مؤلفاً من النقاط الست التالية:

(١) إن إسرائيل تسعى إلى معاهدة سلام مع لبنان؛

(٢) إن حكومة إسرائيل تقترح المباشرة الفورية بالمفاوضات لسحب جميع القوات الأجنبية من لبنان؛

(٣) أول المنسحبين هم «إرهابيو» منظمة التحرير الفلسطينية الذين لا يزالون في وادي البقاع، وفي شمالي لبنان؛

(٤) ينسحب الجيش السوري وقوات الدفاع الإسرائيلية في وقت واحد؛

(٥) جميع أسرى الحرب الإسرائيليين، والجنود المفقودين أثناء المعارك، وجثث الجنود الذين سقطوا، يسلمون إلى قوات الدفاع الإسرائيلية قبل مغادرة هذه القوات للبنان؛

(٦) يصار إلى اتخاذ ترتيبات أمنية قبل الانسحاب للتأكد من أن لبنان لن يكون مرة أخرى قاعدة للأعمال العدائية ضد إسرائيل.

وظلت هذه النقاط تشغلنا طوال الأشهر التالية في محادثات شاقة مع الإسرائيليين والأميركيين؛ وقد أبلغنا درايبر أن الموقف الإسرائيلي غير مقبول، وسنعبر عن ذلك لريغن وشولتز. وأجاب درايبر أنه ينقل رسالة وأن أميركا بنقلها الرسالة لا تعني أنها تؤيدها.

في الخطاب الذي ألقاه الرئيس أمام الجمعية العامة طلب من الأمم المتحدة أن تساعد على إخراج إسرائيل، وأن تسهم في جهود الأعمار، وأن تدعم استقلال لبنان وسيادته ونظامه الديمقراطي. ولخص الرئيس أهداف الحكومة اللبنانية الجديدة وقوبل بالتصفيق الحاد وبالأخص من اللبنانيين الذين غصت بهم شرفات القاعة. وسارت الاجتماعات مع الأمين العام خافير بيريز دي كويلا، ومع رؤساء وكالات الأمم المتحدة المعنية بالمساعدات، سيرا مرضيا. وأمل الأمين العام أن تتقيد إسرائيل

بمقررات الأمم المتحدة، لكنه أعرب عن شكه في أن تفعل ذلك لأن أعمال إسرائيل السابقة كما قال، لم تكن مشجعة. كان قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٤٢٥ الصادر في ١٩ آذار/مارس، ١٩٧٨، أثناء الغزو الإسرائيلي الضخم للجنوب اللبناني يدعو إلى «الاحترام الدقيق لسلامة لبنان الإقليمية وسيادته، واستقلاله السياسي. في نطاق حدوده المعترف بها دولياً»؛ كذلك دعا القرار إسرائيل «لكي تسحب على الفور قواتها من كامل الأراضي اللبنانية»، وأنشأ قوات الأمم المتحدة المؤقتة لجنوب لبنان (يونيفيل) «بغية التثبت من انسحاب القوات الإسرائيلية، واستعادة السلام والأمن الدولي، ومساعدة حكومة لبنان في تأمين عودة سلطتها الفاعلة إلى المنطقة...» وأثناء وجود الرئيس الجميل في الأمم المتحدة اجتمع بالسفراء العرب المعتمدين في تلك الهيئة الدولية. وبعد أن أتم الرئيس تعريف الممثلين العرب بصورة دقيقة، موجزة، بالوضع في لبنان، رفع كل واحد من السفراء يده ليطرح سؤالا. لكنه بدلا من ذلك ألقى خطابا موجها للعاصمة التي يمثلها.

وحين جاء دور الممثل الليبي دعا السفير الرئيس الجميل إلى قيادة لبنان إلى الحظيرة العربية، وتعزيز هوية لبنان العربية. وتبين ان تلك كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فالرئيس الذي كان يصغي بهدوء ويدوّن الملاحظات ضرب الطاولة بيده، فطارت الأوراق شمالا ويميناً، والتفت إلى السفراء المشدوهين. هو، في العادة، لطيف ومهذب، لكنه لم يستطع هذه المرة السيطرة على غضبه الشديد. بدأ يلوم السفير الليبي والآخرين على توجيههم النصح للبنان. وقال بصوت مرتفع: «لبنان عربي أكثر من أي بلد من بلدانكم، عروبتنا طبيعية؛ هي جزء من حياتنا. هي ليست ايديولوجية نشتريها ونبيعها في السوق. نحن شعب نتمسك بالحرية. لعلنا نغالي بنظرتنا إلى كرامتنا وأهميتنا الذاتية، غير أننا لا نتدخل في شؤونكم. ينبغي أن لا تتدخلوا في شؤوننا. نحن لسنا في حاجة إليكم لتلقيننا دروسا في العروبة».

ذهل السفير الليبي. أصر على أنه لم ينو إهانة الرئيس، ولا أن يلقنه درساً. ولكن الرئيس كان في هذا الوقت يجمع أوراقه، ويلوّح لغسان تويني ولي بأن نذهب، كفانا شعرا، كما قال؛ لنذهب!

مفاوضات واشنطن

بعد إنجاز عملنا في الأمم المتحدة بنيويورك أرسل الرئيس ريغن طائرة خاصة لنقل الوفد اللبناني إلى واشنطن. وعند وصولنا إلى قاعدة أندروز الجوية استقبلتنا، ثانية، السيدة سلوى روزفلت، المسؤولة عن البروتوكول في البيت الأبيض، وهي التي سبق ان كانت في استقبالنا بنيويورك، ومما جعل استقبالها الحار أكثر معنى أنها من أصل لبناني، من عائلة شقير، ولم تزل تتمتع بكل الصفات اللبنانية. وسارت بنا السيدة روزفلت إلى طوافتين للبيت الأبيض نقلتانا إلى باحة نصب واشنطن في العاصمة، حيث استقبلنا وزير الخارجية جورج شولتز. وبعد احتفال قصير نقلنا إلى فندق ماديسون.

وكما في نيويورك جاء الأميركيون المتحدرون من أصل لبناني إلى الفندق لارشادنا في واشنطن. أصحاب الخبرة بالحكومة قدموا لنا معلومات حول كيفية التعاطي مع الرئيس رونالد ريغن وجورج شولتز، وكاسبر واينبرغر. آنذاك ساد أوساط اللبنانيين الأميركيين شعور عام بالنشوة لأنه سبق للرئيس ريغن ومعاونيه أن تكهنوا بنهاية سريعة للاحتلال الإسرائيلي للبنان. وفي هذا الإطار قام اللبنانيون الأميركيون بقيادة رجال ناجحين، أمثال نجيب حلبي ومايك حلبوتي، وداني توماس، بتنظيم الجهود لتحريك رأس المال الأميركي من أجل إعادة تعمير لبنان. وبقيادة الاستاذ عصام فارس، عمد رجال الأعمال اللبنانيون، الذين يعيشون في الولايات المتحدة، إلى تنظيم النشاطات لضمان نجاح زيارة الرئيس، ولتحريك الدعم للبنان.

في هذه الأثناء، كنا نستعد لاجتماعاتنا بالأميركيين. وباصرار من الدكتور وديع حداد، البروتستنتي الوحيد في فريقنا، والأكثر تنظيماً، كما كان يقول، وعن حق، دوّن الرئيس الجميل في بطاقات منفصلة، عناوين الموضوعات التي كان يود أن يثيرها مع ريغن. قلت تلك هي فكرة جيدة مادام الهدف منها تنظيم الفكر، وليس التحدث بالإشارة المستمرة إليها. وفي كل حال، كان رأيي أن ذلك غير ملائم أثناء تناول طعام الإفطار مع الرئيس ريغن في الصباح التالي. الغاية من الافطار هي

الإعداد للمحادثات الرسمية التي تلي. وفي الساعة الثامنة والنصف صباح يوم الثلاثاء، ١٩ تشرين الأول/أكتوبر، وصلنا، أنا والرئيس الجميل، إلى البيت الأبيض. لقينا عند المدخل نائب الرئيس جورج بوش، ووزير الخارجية جورج شولتز. سارا بنا إلى الدور الثاني، إلى الجناح العائلي في البيت الأبيض حيث رحب بنا الرئيس ريغن بحرارة.

كان الرئيس ريغن مرتاحا للغاية. وبقامته المديدة وعزمه، ونشاطه، كان يبدو عليه انه يستمتع بدوره كرئيس للولايات المتحدة. كان يبدو أن الأمور تأتي طبيعية بالنسبة له. كل حركة يأتي بها، وكل كلمة يتفوه بها كأنها مرسومة بوضوح في فيلم. والسياسة أيضاً فيلم، وهو يتقن دوره فيه. كان واثقا من نفسه، غير متكلف ولا متصنع. ودوره، كرئيس، هو دور موزع الادوار، يوزعها ثم يجلس ويستمع. بوش كان حذرا، يكثر الإبتسام، وينطق بكلمات مشجعة إلا أنه حرص أن لا يدخل في المباحثات الجوهرية؛ بدا كأنه يترك الأمر لريغن. شولتز كان لطيفا. وبدا محترفا، يأخذ وقته ويفكر قبل أن يدخل في أي نقاش.

أما الجميل، وهو رئيس بلاد زعزعتها الحرب، واقعة تحت الاحتلال، فكان متحفظا. وبدا بعكس مضيفه غير مرتاح. وزاد الفرق بينهما حدة عامل الثقافة واللغة. الجميل فرنكوفوني أما ريغن فهو ابن هوليوود وكليفورنيا.

وكان الجميل يولي اجتماعه بريغن أهمية فائقة لأنه راهن عليه، ولأن ريغن تكلم وتصرف بطريقة تبرر هذا الرهان. وكان الجميل يود النجاح، والنجاح السريع. وحيال تزايد مزاح ريغن، كان الجميل يزداد توترا. سار بنا الرئيس الأميركي إلى غرفة دافئة، فيها موقد وطاولة إفطار صغيرة. ولدى جلوسنا، نحن الأربعة إلى المائدة، أشار ريغن إلى صورة جدارية مقابل الجميل ترسم الأميركيين وهم يقاتلون الجيش البريطاني في حرب الاستقلال الأميركية سنة ١٧٧٦؛ وقال مازحا: هكذا تغلبنا على الجنود البريطانيين. ألا يدل هذا على قوتنا! كان ريغن يمزح. كان يريد للإفطار أن يكون غير رسمي، حراً؛ كان يريده للتعارف، أن يكسر الجليد، كما يقال، غير أن الجميل أراد أن يدخل ولو قليلاً في الموضوع اللبناني حتى يتأكد

من نوايا مضيفه. أراد أن تكون له صداقته مع دولة عظمى تساعده على دحر أعدائه، كما هزم المستوطنون الأميركيون البريطانيين. ثم أخذ يغوص في القضايا وفي التفاصيل. كان ريغن يفضل التعارف، لا الغوص في القضايا وهي المقرر تناولها في الاجتماع بعد الإفطار.

أكّد لنا ريغن أن بادرته في أول أيلول/سبتمبر لتحقيق السلام في الشرق الأوسط ستلاحق بقوة ونشاط، وأن السلام في لبنان خطوة أولى نحو السلام في الشرق الأوسط. ان الولايات المتحدة، كما قال، ستقدم للبنان مساعدة دبلوماسية كبيرة ومساعدة اقتصادية محدودة.

ولاحظ، في كل حال، أن هنالك أميركيين من أصل لبناني يشجعون الإستثمار الفردي في لبنان، بينهم صديقاه المقربان داني توماس ومايك حلبوتي.

أما ريغن فأبقى الجو غير سياسي تاركا السياسة والمباحثات الرسمية لاجتماعات جدية تلي الإفطار. في جلسة العمل، يأتي الرئيس ومعه الوزراء المختصون ومستشاروهم ومعاونوهم والمكلفون بتدوين الملاحظات، والمحاضر. في مثل هذه الاجتماعات تتحرك آلية الدولة كلها، وبفعالية. المسؤولون يعرضون مواقفهم لتسجل على الفور، كما هي، وبعد تسجيلها توزع على مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع، وعلى الوزارات الأخرى المعنية بالوضع في لبنان.

وأعقب الافطار على الفور اجتماع العمل مع الرئيس.

ضم الجانب الأميركي الرئيس ريغن، ونائب الرئيس بوش، ووزير الخارجية شولتز، ووزير الدفاع واينبرغر، ومستشار الأمن القومي وليم كلارك، ومعاونه روبرت (بوب) مكفارلين، ورئيس موظفي البيت الأبيض، ادوارد ميس، نائب وزير الخارجية كنيث دام، والمبعوث الخاص فيليب حبيب والسفير موريس داريبر ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا، نيكولاس فيلوتيس وسفير الولايات المتحدة في لبنان روبرت ديلون، ومدير وكالة التنمية الدولية،

بيترما كفرسون. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هنالك أعضاء من مجلس الأمن القومي ونحو ستة من المكلفين بتدوين الملاحظات والمحاضر.

وتمثل الجانب اللبناني بكامل أعضاء الوفد وبسفيرنا في واشنطن، خليل عيتاني.

رحّب ريغن بالوفد اللبناني، وتحدث عن الجو الطيب الذي كان له مع الجميل على مائدة الإفطار، ثم دعاه إلى الكلام.

وتكلم الجميل بثقة عائدا إلى ملاحظاته. تكلم مقدرا جهود فيليب حبيب في العمل على حل الأزمة الناشئة عن الاحتلال الإسرائيلي. واعترف كذلك بأهمية القوة المتعددة الجنسيات، وفرقة المارينز الأميركية العاملة فيها. وطرح أسئلة عن موقف الولايات المتحدة: هل يمكن للولايات المتحدة أن تنفذ؟ هل تستجيب إسرائيل لموقف الولايات المتحدة وتنسحب من لبنان؟ هل يسمح الاتحاد السوفياتي للولايات المتحدة أن تحقق مثل هذا النصر الدبلوماسي دون مشاركته، وبالأخص ونحن في ذروة الحرب الباردة؟ الرئيس أراد تطمينات كثيرة من أميركا.

هنالك مبادئ أساسية تحفز سياستنا وتحددها. الرئيس رأى أنه إذا كانت المحادثات مع إسرائيل ضرورية لتحقيق الانسحاب، فان هذه المحادثات، ينبغي لها أن تجري في إطار اتفاقية الهدنة اللبنانية الإسرائيلية العامة المعقودة في ٢٣ آذار/مارس، ١٩٤٩، ان لبنان بحاجة إلى دعم الولايات المتحدة المستمر لانسحاب الإسرائيليين عسكريا وسياسياً من الأراضي اللبنانية. ونحن نريد للولايات المتحدة أن تعلم بوضوح أن حكومتنا لن تقوم بأية خطوة تعرض للخطر علاقاتنا بالعالم العربي.

إن لبنان بحاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة من أجل إعمار لبنان وإعادة تجهيز الجيش. إن الجيش القوي يمكّن الحكومة اللبنانية من بسط سيادتها على جميع الأراضي اللبنانية في أعقاب انسحاب القوات الأجنبية. ويمكن للمساعدة من أجل الاعمار أن تأتي من مصادر كثيرة؛ إننا نقدر حاجتنا ببليون دولار أميركي

سنويا. وأول ما في الذهن مشروع إسكان واسع يقضي على حزام الفقر حول بيروت.

كنا، بالطبع، قد هيأنا الجانب الأميركي بشأن ما يتوقعه منا. كنت قد اطلعت درايبر في اجتماع والدورف استوريا على موقفنا من التصريح الإسرائيلي في العاشر من تشرين الأول/أكتوبر، وعلى ما نتوقعه من الولايات المتحدة من حيث الدعم السياسي والاقتصادي. كذلك كان ريغن قد أعلم بذلك بدقة وإيجاز. وترأس الاجتماع، وادار الاجراءات على أتم وجه. واضح أنه كان على معرفة كاملة بالنقاط القليلة الأساسية لاتخاذ المقررات على مستواه، فيما ترك التفاصيل لشولتز وواينبرغر وكلارك. أشار ريغن إلى مقدار تأثره بالجميل، بطريقته بعرض الوضع اللبناني، وبلهجته الواثقة هنا همس الجميل بأذني قائلاً: هل تصدق الآن أن البطاقات كانت مفيدة؟ ريغن أيضا يلجأ إلى بطاقاته الخاصة به لطرح الأسئلة ولتوجيه المحادثات.

وبعد الاصغاء إلى جميع وجهات النظر، حدد ريغن سياسة بلاده بالنسبة للبنان بالعبارات التالية: ان الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة لبنان لانهاء الحرب ولانهاء الاحتلال واستعادة استقراره. نريد أن نساعدكم بقدر ما نستطيع، الا اننا لا نستطيع الإبقاء على قواتنا في لبنان زمناً طويلاً، لأن ذلك يولد الانطباع باننا قوة محتلة؛ ان القوات الأجنبية يجب أن تنسحب بأسرع ما يمكن. ولا بد للانسحاب من الجنوب ان يتحقق على مراحل في ضوء ضرورات الأمن الإسرائيلية. نريد أن نساعد في الاعمار، غير أن مساعدتنا محدودة بالوضع الاقتصادي الخطير الذي تواجهه الولايات المتحدة.

وواصل ريغن القول: ان الولايات المتحدة تدرك تمام الادراك موقفكم من المفاوضات، وحاجتكم إلى الحفاظ على الإجماع الوطني ومصداقيتكم في العالم العربي. اننا ننصح إسرائيل بأن لا تضغط عليكم وتعرض وحدتكم الوطنية إلى الخطر، أو تسيء إلى علاقاتكم بالعالم العربي. وعندما تكلم ريغن عن الانسحاب الاسرائيلي استعمل عبارة «في ضوء ضرورات إسرائيل الأمنية». وقد أزعجتني تلك

العبارة، وعدت إلى تكرار موقفنا بشأن الانسحاب الإسرائيلي الكامل. هنا طمأننا ريغن بالنسبة لهذه النقطة وحثنا على مناقشة التفاصيل مع الوزير شولتز. لقد كان هاما بالنسبة لنا أن نتأكد أن ريغن يدرك قلقنا بالنسبة للحفاظ على الوحدة الوطنية، والمحافظة على علاقاتنا الجيدة مع العالم العربي. كان منظورنا مختلفاً عن المنظور الأميركي. ولعلنا كنا أكثر اهتماماً بالتفاصيل لأننا نحن المعنيون المباشرون.

وعقب اجتماعنا بريغن، اجتمعنا على الفور بالوزير شولتز. لقد كانت هنالك مشكلة أساسية في تعاملنا مع الأميركيين. وفيما كنا ننظر إلى لبنان كغاية في حد ذاته، كانت واشنطن تنظر إليه في إطار اوسع، سواء كوسيلة لسلام عام في المنطقة، أو كجزء من الصراع الأميركي السوفياتي في الشرق الأوسط. وإذا ما نظر الأميركيون إلى لبنان، فمنهم من ينظر إليه من ناحية الأصولية الاسلامية، ومنهم من ينظر بمنظار الأمن الإسرائيلي، ومنهم من يراه من ناحية النفط العربي واستراتيجية المنطقة. أما لبنان بالنسبة لنا فغاية بذاته وليس مجموعة مصالح إقليمية.

لقد قال جورج شولتز «ان الولايات المتحدة معنية بعملية السلام في الشرق الأوسط. وكل ما تفعله أميركا في لبنان يجب أن يسهم في هذه العملية. الولايات المتحدة تريد للبنان واسرائيل أن يعيشا بسلام. واذا كان لبنان لا يستطيع عقد معاهدة سلام الآن، فعليه أن يفعل ذلك في وقت لاحق. اخراج جميع القوى الأجنبية من أراضيه انجاز كبير، ولذلك ينبغي للبنان أن يقوم بتنازلات هامة لتحقيق هذا الهدف. على العرب أن يؤيدوا لبنان في تقديم هذه التنازلات». وتابع شولتز يقول: اذا كان لبنان يشعر أنه يستطيع تحقيق الانسحاب الإسرائيلي الكامل، على أساس قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بلبنان، فنحن لا نشارككم في هذا الشعور. اللجوء إلى هيئة الأمم لا يفيد، ونحن ننسحب من مبادرتنا اذا كنتم تفضلون اللجوء إلى هذه الهيئة غير الفعالة. وأنتم تدركون جيدا أن اسرائيل لم تنسحب حتى الآن من أي بقعة احتلتها على اساس قرارات هيئة الأمم. ان إسرائيل لا تنسحب إلا على أساس المحادثات الثنائية التي تقرر فيها وحدها مصلحتها القومية. وفي حالة سيناء، لم

تنسحب إسرائيل إلا لقاء معاهدة سلام مع مصر. بعد ذلك راح شولتز يوجز أهدافاً إسرائيلية معينة وكأنه يؤيدها. قال: ان إسرائيل لا تحب تورط اليونيفيل على حدودها. إسرائيل تريد منطقة أمنية تمتد من نهر الأولي إلى راشيا وأن ترابط قوات اليونيفيل عند هذا الخط، متجهة نحو الشمال، وليس نحو الجنوب. يمكن نشر لواء من الجيش اللبناني في تلك المنطقة الأمنية. لا حاجة إلى أكثر من ذلك لأن منظمة التحرير الفلسطينية قد انسحبت. وإسرائيل تريد لسعد حداد، قائد جيش لبنان الجنوبي، الممول من قبل إسرائيل، أن يعاد إلى مكانته السابقة في الجيش اللبناني، وأن يعطى مسؤوليات في الجنوب. ان إسرائيل تريد تطبيع العلاقات مع لبنان، مما يعني فتح الحدود وانتقال الناس والسلع. غاية إسرائيل، معاهدة سلام مع لبنان. واقترح شولتز أن نضع جدولاً بالأشياء التي يمكن القيام بها في هذا الاتجاه، وان ننطلق في تحقيقها. وكلما كان انسحاب إسرائيل أسرع، كان ذلك أفضل. وقدم أمثلة على ما فعله الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية، وفي غزة، ومرتفعات الجولان. وأضاف أن إسرائيل تخلق دائما واقعا جديدًا على الأرض ثم تفاوض على أساسه. والواقع هذا يتغير باستمرار لصالحها. وفي هذا الإطار يمكن للولايات المتحدة أن تساعد لبنان، ولكن على أساس عدم إضاعة الوقت، وقبل أن تغير إسرائيل طبيعة لبنان. كان شولتز صريحاً في عرضه؛ كان يريد أن يساعد لبنان على استعادة استقلاله؛ وكان يريد، في الوقت ذاته، أن يعمق ويشرّع وجود إسرائيل في المنطقة. كان يريد مفاوضات ناجحة، بين لبنان وإسرائيل برعاية الولايات المتحدة تكون نموذجاً لمفاوضات مقبلة بخصوص قضية الشرق الأوسط.

كنت أعرف، لا شك، ان المنتصر يفرض شروطه فيما يقوم صانع السلام بالوساطة. لقد كان شولتز يتوسط بين إسرائيل ولبنان، ومع أن لشولتز، باعتباره رئيساً سابقاً «لمؤسسة بكتل» علاقات واسعة بالعالم العربي، فإنه لم يكن يعي الحواجز النفسية العميقة التي تفصل بين العرب والاسرائيليين. ان منطق النصر والهزيمة لا ينطبق على الصراع العربي الإسرائيلي. وفي الحروب مع إسرائيل كان العرب يحتفلون بهزائمهم كما كانوا يحتفلون بانتصاراتهم. ان القادة العرب يُقدِّرون

ويُصنَّفون حسب مواقفهم ونواياهم لا حسب انجازاتهم. بخسارة حرب حزيران ١٩٦٧ أصبح جمال عبد الناصر بطلا شعبيا لأنه خسر وهو في عناد مستمر مع العدو عناد لا يهادن ولا يستسلم للواقع بينما بات السادات الذي حقق السلام وحرر سينا قائداً خائنا، واغتيل لأنه قبل الواقع وتعامل مع العدو.

وحين جاء دوري للكلام شعرت أن هنالك الكثير الكثير الذي يجب أن أقوله حتى يتفهم شولتز موقعنا وأكدّت مجدداً على بعض النقاط التي أوردها الرئيس الجميل في عرضه السابق للرئيس ريغن. ان موقف الحكومة اللبنانية هو أن الانسحاب الاسرائيلي الكامل يجب ان يتحقق وفقا لقرارات الأمم المتحدة. نحن نريد الدعم السياسي الأميركي وقد نجح هذا الدعم حتى الآن بتأييد انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، ولكن لا يمكن للبنان، منفردا، أن يعقد معاهدة سلام وتطبيع للعلاقات مع إسرائيل. إننا نعتبر علاقاتنا مع اسرائيل محكومة باتفاقية الهدنة العامة المعقودة في ٢٣ آذار/مارس ١٩٤٩، برغم موقف إسرائيل من هذه الاتفاقية. إننا لا نريد أن نفاوض إسرائيل خارج حدود لجنة الارتباط العسكرية الإسرائيلية اللبنانية القائمة. وقد نوافق على توسيع هذه اللجنة أو على شكل معدل لها، اذا لزم الأمر، شريطة أن تكون أميركا الطرف الثالث في هذه المفاوضات.

إن لبنان لن يدخل في أيّ مفاوضات مع إسرائيل يمكن أن تفسر بأنها قبول بتغييرات بالحدود، وتطبيع للعلاقات، أو بمعاهدة سلام وقلت: ان الاقتراح الإسرائيلي لاقامة منطقة أمنية تمتد من نهر الأولي إلى راشيا، على أساس نشر قوات «اليونيفيل» شمال هذا الخط، هو بمثابة تقسيم للبنان. يضاف إلى ذلك ان الحدود بين لبنان وإسرائيل ينبغي أن تغلق، لا ان تفتح. ينبغي السماح للحكومة اللبنانية بنشر جيشها في الجنوب لتأمين الاستقرار والحؤول دون التسلل عبر حدودنا المعترف بها دولياً بين إسرائيل ولبنان. ينبغي نشر «اليونيفيل» في الجنوب إلى جانب جيشنا، لضمان تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة.

بعد ذلك أوجزت الاعتبارات الاقليمية، فقلت:

قبل المحادثات، لا بد للحكومة اللبنانية أن تتشاور مع القادة العرب. وفيما

نفاوض الإسرائيليين بخصوص انسحابهم من لبنان، لا بد من أن نجري محادثات مع السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية لتحقيق انسحاب قواتهم، حسب جدولة متفق عليها بيننا وبينهم، مع العلم أن الاسراع في انسحاب كل القوات غير اللبنانية هو الأفضل. لقد أخطأ لبنان في السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بأن تعطي إسرائيل مبررات لمهاجمة لبنان. سنعنى بذلك في المستقبل، وسنقوم بتنفيذ دقيق لمواد اتفاقية الهدنة:

بدا على شولتز أنه قلق من كلامي، فحدق فيّ طويلا وقال «يا صديقي إيلي، اذكرك أن اسرائيل هي التي ربحت الحرب. وأنتم الذين خسرتموها.» فرددت بسرعة وعفوية: «أخي جورج، يظهر أنك لم تكن تصغي إليّ عندما شرحت لك الوضع اللبناني والوضع العربي.. سأعيد».

بعد ذلك أبلغنا السفير درايبر أن الرئيس حافظ الأسد أبلغ الولايات المتحدة أن القرار المتخذ في قمة فاس في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، بشأن الانسحاب السوري، ألمح ضمنا إلى ان الانسحاب السوري لا يتحقق إلاّ بعد الانسحاب الإسرائيلي. وكان المؤتمر قد اخذ علما بقرار الحكومة اللبنانية بانهاء مهمة قوات الردع العربية في لبنان، وأن على حكومتي لبنان وسوريا أن تجريا مفاوضات بشأن الترتيبات لانهاء مهمة الردع «على ضوء الانسحاب الإسرائيلي من لبنان.» ثم قال درايبر ان الأسد نفسه أضاف عبارة «على ضوء الانسحاب الإسرائيلي من لبنان»، وجعل الانسحاب الإسرائيلي شرطاً مسبقاً للمفاوضات بين بيروت ودمشق بشأن انسحاب الجيش السوري.

كان رأي درايبر أن الرئيس الأسد لن يعدل موقفه من الانسحاب: إسرائيل أولاً ثم سوريا. وفي النهاية اتفقنا مع الأميركيين على عدد من النقاط: اتفقنا على البدء بمحادثات استطلاعية بواسطة صيغة موسعة للجنة الارتباط العسكرية الإسرائيلية اللبنانية بحضور الولايات المتحدة كشريك كامل في المحادثات. رضينا بالمباحثات على أساس الشروط التالية: حدود لبنان غير قابلة للتعديل: لبنان لا يقبل بحل مفروض؛ لا ينبغي للمفاوضات أن تعرّض الاجماع الوطني الداخلي إلى الاهتزاز ولا

روابط لبنان الوثيقة بالعالم العربي إلى أي خطر؛ واذا كان للمفاوضات ان تجري فإن إطارها المتفق عليه هو البحث في ترتيبات انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان وإعادة سلطة الحكومة اللبنانية على كل أراضيها.

العودة عبر باريس وأوروبا

شعرنا أننا حققنا في واشنطن بعض التقدم بخصوص الخطوات الاجرائية. الولايات المتحدة هي مفتاح التعامل مع إسرائيل. ومع ذلك فقد شاء الرئيس الجميّل أن يتشاور مع المسؤولين في فرنسا وإيطاليا والفاتيكان قبل العودة إلى بيروت، لأنّ لكل من هذه الدول روابط تاريخية مع لبنان. ان فرنسا وإيطاليا عضوان بارزان في الأسرة الأوروبية؛ وهنا كان أحد أهدافنا ان نقيّم الدور الأوروبي الجديد المتزايد في الشؤون الدولية. يضاف إلى ذلك أن باريس والفاتيكان كانا يتوقان إلى معرفة سياستنا ومدى التزام الولايات المتحدة بمساعدتنا في تنفيذ هذه السياسة.

كان يجب علي أن أكون استرحت أثناء الرحلة الليلية إلى باريس، استعداداً للبرنامج المرهق في اليوم التالي. كنت متعبا إلى حد لم أستطع معه النوم. فصرفت الوقت كله، طيلة الطريق، أقرأ، أو أتحدث مع كل من كان يقظا. ولعلي كنت في اللاوعي، أعتمد على رئيسنا الفرنكوفوني، وعلى أعضاء الوفد الآخرين، وهم يتكلمون اللغة الفرنسية بطلاقة، وضليعون في الثقافة الفرنسية أكثر مني. وكنت مرتاح البال، وكنت أتوقع الوصول إلى باريس في وقت باكر يتيح لي فرصة أستريح فيها وأغير ملابسي.

لقد أخطأت التقدير، ودهشت لما علمت أن الرئيس الجميل ومعظم أعضاء الوفد كانوا قد ناموا، ثم حلقوا ذقونهم وارتدوا ملابسهم النظيفة على الطائرة. كانوا يعرفون البرنامج. وساروا بموجبه، أما أنا فيظهر أنني كنت في عالم آخر. ورأساً، ودون سابق اعداد، وجدت نفسي بسيارة تنقلني من المطار إلى قصر الأليزة. والآن وبعد مئتي سنة من الثورة الفرنسية، لم يزل هذا القصر يظهر وكأنه بلاط ملكي لملوك البوربون.

الفرنسيون فخورون بتاريخهم، بتقاليدهم ولغتهم. وقبل أن يستقل لبنان، كانت الارساليات التعليمية الفرنسية تعمل في لبنان؛ وفرنسا كانت المحرك الأول لقيام لبنان الحديث في نهاية الحرب العالمية الأولى. ومنذ عهد الصليبيين، كانت لفرنسا صلة خاصة بالمسيحيين اللبنانيين، لا سيما بالموارنة منهم.

كانت باريس تنظر إلى دور الولايات المتحدة الجديد في لبنان بشيء من الإرباك والارتياب. ماذا يعرف هؤلاء «اليانكيون» التجار من تعقيدات الشرق الأوسط ودقائق المشرق؛ والأسوأ من ذلك بالنسبة للفرنسيين: إننا توقفنا في باريس ونحن في طريق العودة من واشنطن، وهي، أي باريس، تفضل أن نذهب عبرها إلى واشنطن. ألم تكن فرنسا المنارة السياسية والاجتماعية للبنان؟ والمتوقع من اللبنانيين أن يأتوا إلى باريس أولا؛ بعد ذلك فقط يذهبون إلى واشنطن أو لندن أو موسكو. غير أن الزمن قد تغير ولكن العواصم القديمة لا تعترف كثيراً بالتغيير.

وبطريقة تتسم بالاسلوب «الديكارتي» لدى الرسميين الفرنسيين، جمع كل عضو من وفدنا بنظيره الفرنسي بسرعة. ووجدت نفسي في قاعة واسعة في القصر مع الوزير الفرنسي للعلاقات الخارجية كلود شيسون. وسرعان ما تبين أن شيسون يعلم بأن لغتي الفرنسية محدودة، اذ نظر إلي وسأل بالفرنسية: بأيّ لغة سنتحدث؛ وقبل أن ينتظر ردي، أضاف: طبعا، اننا سنتحدث باللغة الفرنسية. فأجبته بشيء من المزاح: طبعا، سنتكلم باللغة العربية. فنظر إلي غير مصدق، وغير عارف أجادٌ أنا أم ممازح. حافظت على الجدية وقتا كافيا حتى هزّ برأسه وتمتم:

سنتكلم باللغة الانكليزية، ولكن اذا دخل هذه القاعة أي شخص كان، سنحول الحديث إلى اللغة الفرنسية. رضيت بذلك. ثم رحت أعرض له موقفنا باللغة الفرنسية الخاصة بي وكان مرتاحاً جداً لذلك، وساعد هذا على كسر الجليد بيننا وكانت لغتي الفرنسية كافية لنقل الرسالة السياسية بوضوح ودقة مع الاستعانة من وقت إلى آخر بالكلمات الانكليزية. وفي هذا الاجتماع، وفي الاجتماعات الأخرى القادمة كلها، كنت باستمرار أتحدث إلى شيسون باللغة الفرنسية. وكثيرا ما كان يرد اللياقة بمثلها ويتكلم بالانكليزية، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك باللغة

العربية. أطلعت شيسون على محادثاتنا في الولايات المتحدة فأوضحت له إطار المحادثات الاستطلاعية مع إسرائيل، مضيفاً بأنها ستجري ضمن لجنة ارتباط عسكرية موسعة بمساهمة الولايات المتحدة، كشريك كامل. اكدّت لشيسون أن لبنان سينسق مع فرنسا، وسيعمل للحصول على نصحها بشكل مستمر. ان لبنان يقدر الاسهام الفرنسي في حياته السياسية والتربوية، لكنه الآن بحاجة إلى المساعدة الأميركية لتأمين الانسحاب الإسرائيلي. أكدت له أن لبنان سيعتمد على الدعم الفرنسي إلى حد كبير، وان العلاقات بين لبنان وفرنسا علاقات تاريخية وخاصة، ولذلك يجب تعزيزها، لا إضعافها. وانتهيت إلى القول إن ذلك هدف ألتزم به شخصياً التزاماً عميقا، وربما لأنني لست فرنكوفونيا ولكنني مقدر لدور فرنسا في لبنان ولأهمية العلاقات الحميمة في المستقبل بين بلدينا. ورد شيسون بأن فرنسا على استعداد لمساعدتنا سياسيا، واقتصاديا، وعسكريا، وفي مجال التربية وبسبب الوضع الدولي الدقيق، حاليا، فإن فرنسا لن تقوم بأيّ مبادرات تجاه لبنان لكنها ستستجيب بصورة إيجابية لأي مطلب يتقدم به لبنان. وهو اي شيسون على استعداد للمجيء إلى لبنان حين أدعوه لذلك، ثم طلب مني أن أتصل به، اذا اقتضت الحاجة، عبر صديقه الشخصي السفير الفرنسي في لبنان، بول مارك هنري، أو مباشرة. وأعطاني لائحة كاملة بأرقام هاتفية أستطيع أن أتصل به عبرها في أي يوم من أيام الأسبوع.

ثم استمر شيسون يقول: كما أنه يمكن للولايات المتحدة ان تقدم المساعدة بالنسبة لاسرائيل، كذلك يمكن لفرنسا ان تساعد بالنسبة لسوريا ولمنظمة التحرير الفلسطينية. وان له، شخصيا، علاقات ممتازة مع الرئيس الأسد، ومع السيد عرفات، وهو على استعداد لاستخدام هذه العلاقات لمصلحة لبنان. ان فرنسا مرنة بشأن العون الذي تستطيع تقديمه للحكومة اللبنانية عبر «اليونيفيل» أو القوة المتعددة الجنسيات وهي ستستجيب لطلبات استخدام هذه القوات لمساعدة لبنان في استعادة سيادته على أراضيه. لقد أحببت شيسون وأحببت التعامل معه وشعرت أن هنالك رابطة شخصية قوية قد نشأت بيننا منذ الاجتماع الأول به في قصر الأليزة.

وبما أنه كانت تنتظرنا في بيروت قضايا سياسية ملحة، فقد خصصنا يوماً واحدا لباريس ويوما آخر لروما والفاتيكان.

وللفاتيكان دور خاص في الشؤون اللبنانية. ان ارتباطاته المميزة بالاقليات الكاثوليكية في لبنان، لا سيما الموارنة، جعلت منه عبر التاريخ لاعبا ووسيطا هاما في الشؤون اللبنانية. ومنذ اندلاع القتال في لبنان سنة ١٩٧٥، كان الحبر الأعظم يتتبع الأحداث في البلاد عن كثب، عين على الطائفة الكاثوليكية وعين على صيغة العيش المشترك.

ولكن في هذه المرحلة الصعبة لا يمكن للفاتيكان ان يؤدي دوراً هاماً باستثناء التزامه بالسلام في لبنان ودعم الجهد الأميركي الهادف إلى انسحاب جميع القوات الأجنبية من أراضيه. وأتى تجديد هذا الالتزام بقوة من البابا بالذات. ثم ان لروما العلمانية دورها الخاص في لبنان. فلايطاليا فرقة في القوة المتعددة الجنسيات وفي «اليونيفيل».

وكان الرئيس أليسندرو بيرتيني يهتم بشكل خاص بالشرق الأوسط، وبلبنان. كان بيرتيني رجلاً مسنّاً، لكنه كان يقظا وديناميكيا؛ وقد أبدى معرفة عميقة بلبنان والشرق العربي، وبالعلاقات العربية الإسرائيلية. وكان مستعدا لتقديم العون ضمن صلاحياته الدستورية. كذلك أطلعت وزير الخارجية أميليو كولومبو. على أجواء زيارتنا إلى واشنطن. وبأسلوب سقراطي مميز طرح علي كولومبو أسئلة كثيرة وأكّد لي ان ايطاليا ستبقى معنية بلبنان عبر القوة المتعددة الجنسيات و«اليونيفيل»، وقبل وصولنا إلى روما بساعات قليلة انفجرت قنبلة أمام سفارة لبنان، مثيرة الرعب في الجوار. ومع أن الألوية الحمراء أعلنت مسؤوليتها عن الحادث، فلم نكن نعرف على وجه اليقين مَن الفاعل، ولا لأية غاية وضعت. وبناء على ذلك فقد فرضت تدابير أمنية مشددة في «الغراند أوتيل» حيث كنا نقيم، وحول موكبنا عند الانتقال في تلك العاصمة الرومانية الخلابة.

خلال السنوات السبع الماضية، كان قد نشأ عندي نوع من «التفاهم والتعايش» مع السلاح وحاملي السلاح وأَلِفْت المسدسات، والبنادق، والرشاشات، والمدافع،

وناقلات الجند، والدبابات، وأصبحت جزءا من حياتي اليومية، كما في حياة أي لبناني آخر. بدأت أعرف بصورة تلقائية متى تكون هذه الأسلحة خطرة، ومتى لا تكون. الا انني لم أكن، وأنا في روما، أملك مثل هذا الاحساس. من هنا كنت أقلق كلّما لوّح الجنود الايطاليون الشبان برشاشاتهم في وجهي. لم أكن واثقاً تماماً، مما أرى: هل يحرسونني كوزير للخارجية، أم يتعرضون إلي كدخيل على الوفد اللبناني؟

وكنت أظن أن رجال الشرطة في لبنان يبالغون بمظاهر الحراسة وبالعراضة، وربما «التشبيح» حتى رأيت الشرطة في روما. وكنت أراقب بكثير من الدهشة رجال الشرطة المخصصين لمرافقتي على دراجاتهم النارية. كان هؤلاء الشرطيون يثيرون الذعر في المشاة وكانوا يصرخون بسائقي السيارات ويشيرون عليهم بالابتعاد عن الطريق. واذا ما تردد السائقون، رفس رجال الشرطة سياراتهم، أو وجهوا دراجاتهم نحوهم، وهم يؤشرون ويهددون. ان السائقين كانوا هم بدورهم يصرخون بالشرطة ويهددونهم ويردون بمختلف الاشارات المتوسطية المشهورة. ومن حسن الحظ أنه لم يحدث بنتيجة ذلك أي اصطدام فعلي.

وعند عودتنا إلى بيروت، شعر الرئيس الوزان، ان الوقت ملائم لتقديم البيان الوزاري للبرلمان وتحديد سياسة الحكومة، وطلب الثقة على أساسه. وحدد الاجتماع في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر. وفي الاجتماع، أوجز رئيس الوزارة سياسة الحكومة، وطلب، صلاحيات استثنائية لمدة محدودة لاصدار التشريعات بمراسيم. مثل هذه الصلاحيات كانت تمنح في الماضي أثناء الفترات الحرجة في لبنان حين يقتضي الأمر أحداث تغييرات رئيسية في القوانين، ومع ذلك، ما كاد الوزان يصل إلى هذا القسم من بيانه حول الصلاحيات الاستثنائية، حتى أخذ النواب يتململون. بعضهم غادر القاعة احتجاجاً، وبعضهم صرخ برئيس الوزارة، فيما راح آخرون يتساءلون بصوت عال: لماذا لا تحلون البرلمان؟ لماذا لا تطلبون الصلاحيات القانونية لمنح وثائق الزواج، لا بل لمنح حق الطلاق. ومع مزيد من ارتفاع الصراخ، وسيادة جو الفوضى، عمد رئيس مجلس النواب الاستاذ كامل الأسعد إلى رفع الجلسة.

وكان الاجتماع التالي كالأول. وللمرة الثانية أرجىء الاجتماع. وفي التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر، بعد نقاش طويل نالت الحكومة الثقة بثمانية وخمسين صوتاً من أصل ٥٩ نائباً حضروا الاجتماع، ومنحت الصلاحيات الاستثنائية. والظاهر أن لا علاقة قط بين خطب النائب العنيفة وبين منحه الثقة. وبانجاز هذه الناحية الشكلية انصرفت الحكومة إلى العمل الطويل الشاق للمفاوضة في سبيل انسحاب القوات الاسرائيلية من البلاد.



إيلي سالم مع وزير العلاقات الخارجية الفرنسية كلود شيسون

الفصل الثاني

مفاوضات الانسحاب الاسرائيلي

كان الهدف الرئيسي لسياسة الحكومة اللبنانية الخارجية في نهاية ١٩٨٢، تحقيق الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من الاراضي اللبنانية. وكمراقب للصراع الاسرائيلي الفلسطيني، كنت أخشى ان تعمد اسرائيل الى ضم الاراضي اللبنانية المحتلة الى اسرائيل، او ان تلحقها بها رويدا رويدا، كما فَعلت بالاراضي التي احتلتها في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. كانت سياسة اسرائيل القائمة على خلق حقائق جديدة على الارض، ثم الانطلاق من هذه الحقائق، سياسةً تخيفني كثيرا، ولذلك كنا نسعى لاخراج اسرائيل من لبنان بسرعة للحؤول دون هذه «الحقائق الجديدة». وبالنسبة إلينا، كانت تلك هي الخطوة الاولى من اجل سحب جميع القوات المسلحة غير اللبنانية من لبنان.

والخطوة الاولى في هذا الاتجاه هي اتفاقنا، في واشنطن، على اجراء محادثات استكشافية مع اسرائيل، على اساس صيغة ثلاثية الاطراف تضم لبنان واسرائيل والولايات المتحدة كشريك كامل في المحادثات. غير ان اسرائيل، من جهتها، كانت مترددة في إشراك الولايات المتحدة بالمفاوضات. لقد ارادت التفاوض معنا وحدنا. دولة قوية في مواجهة دولة ضعيفة: على امل انتزاع شروط افضل. الا اننا، في كل حال، كنا نرى في الولايات المتحدة ضمانة لا غنى عنها للتوصل إلى اتفاقية عادلة.

كانت حكومتنا تدرك تمام الادراك مخاطر التفاوض مع اسرائيل، واتخاذ القرار بالتفاوض لم يكن بالسهل، لكنه فرض نفسه علينا فعلا حين ثبت ان جميع الخيارات الاخرى كانت غير وافية بمواجهة تحدي الاحتلال الاسرائيلي. السوفيات لا يستطيعون المساعدة لانهم قطعوا العلاقات الدبلوماسية باسرائيل، ولانهم لا نفوذ لهم إطلاقا على السياسة الاسرائيلية. وفرنسا وايطاليا والفاتيكان قد أقروا أن عليهم، بخصوص الانسحابات الاسرائيلية من لبنان، ان يحذوا حذو الولايات المتحدة. والامم المتحدة ليست بالهيئة الموثوقة: بسبب سياسة الحرب الباردة،

والشكوك الاسرائيلية بهيئة دولية خاضعة لدول لا تشارك اسرائيل في وجهة نظرها.

أما اولئك الذين كانوا منا معنيين بقرار التفاوض مع الاسرائيليين، الرئيس الجميل، ورئيس الوزارة الوزان، وغسان تويني، منسق المفاوضات، وكاتب هذه السطور، فكانوا يدركون الوضع السياسي في المنطقة، والجو الايديولوجي المسيطر عليها. وكانوا يعرفون ما هو ممكن وما هو غير ممكن. رئيس الجمهورية معروف بحساسيته لمقتضيات السياسة العربية، وحساسيته للتوازنات داخل الهيكل السياسي اللبناني؛ وكسنّي لبناني، كان لرئيس الوزراء، الوزان، من المصداقية الكافية في العالمين العربي والاسلامي، ما يحول دون اتهامه بالسعي الى عقد صلح منفرد مع اسرائيل. وغسان تويني سياسي ذو خبرة، ودبلوماسي مجرب، وصحفي معروف جيداً. أما أنا، فقد عشت الافكار العربية القومية في الجامعة، وعالجت القضايا الرئيسية التي واجهت العالم العربي منذ الحرب العالمية الثانية، كتابة وتدريساً. كنا نفهم العقل العربي فهما جيداً. كذلك كنا ندرك لماذا كان زعيم كعبد الناصر رجلاً شعبياً محبوباً في الهزيمة، وآخر كالسادات خائنا بعد زيارته القدس وعقْد معاهدة سلام مع اسرائيل. وفي الوقت نفسه كنا نعرف حدود الايديولوجية. كنا قد شهدنا نشوء الايديولوجيات في العالم العربي وسقوطها. كنا على اطلاع على السياسة السورية؛ كنا نقدر مخاوف سوريا. كذلك كنا قد تتبعنا دور اسرائيل المتنامي في المنطقة. كنا نعرف التاريخ، ونعرف معه شهوة الفاتح واغراءات المغلوبين.

وكان في لبنان اجماع عام على اتخاذ جميع الخطوات الضرورية لاخراج الاسرائيليين. حتى المتطرفون الذين تعاونوا مع اسرائيل لمرحلة محددة، كانوا يريدون الانسحاب الآن مثلهم مثل غيرهم. وكواقعيين، لم يكن اللبنانيون معارضين للتفاوض مع اسرائيل؛ قلة ضئيلة بينهم كانوا يريدون معاهدة سلام؛ وقلة كانوا يظنون ان القرار ٤٢٥ كاف لاخراج اسرائيل. كانت اكثرية اللبنانيين، كما تبين من التصويت في المجلس النيابي ،تأمل اخراج اسرائيل بنتيجة اتفاقية معقولة يجري التفاوض في شأنها بمشاركة الولايات المتحدة. آنذاك كان رئيس الجمهورية في اوج

قوته، وكانت جميع الاطراف على استعداد للتعاون معه ولدعم المفاوضات. قادة الميليشيات الجدد لم يكونوا في البداية معارضين لقرار الحكومة بالتفاوض. بعضهم كانوا على علاقات مكشوفة برئيس الجمهورية، فيما فضل آخرون ابقاء هذه الصلات خاصة لابقاء خياراتهم مفتوحة في حال اي تغير طارىء. كان هنالك اجماع على التفاوض، غير ان نقطة الضعف ربما كانت ان الاجماع مبني على الشعور بان النجاح وشيك. كنا نسير وراء هذا الاجماع بمقدار ما كنا نوجهه.

كان رئيس الجمهورية يتحرك بسرعة. في الاشهر الستة الاولى من رئاسته لم يكن يمشي، بل كان يركض. كان يتحرك على جميع الجبهات في لبنان، وفي المنطقة، ودوليا. وكان يؤمن ايمانا شديدا بانه يستطيع ان يكون المنقذ ويحقق الانسحاب الاسرائيلي بمساعدة الولايات المتحدة، ويعيد اعمار لبنان بعد سنوات سبع من الحرب. كان متفائلا بالدعم الاميركي وبالدول المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات. لقد كان مفهوم الرئيس الجميل للولايات المتحدة كمفهوم شقيقه بشير ملوناً بشيء من الاسطورة وشيء من الواقع. وبالفعل كان كل القادة في لبنان ينظرون الى اميركا باعتبارها مارداً جباراً يفعل ما يشاء، فيما كانت النظرة الى اسرائيل بانها دويلة صغيرة واقعة كليا في الفلك الاميركي. وفي النظرتين هاتين شيء من المبالغة. وحين ابلغ فيليب حبيب الرئيس سركيس، في صيف ١٩٨٢، أن جميع القوات الأجنبية ستنسحب من لبنان مع حلول عيد الميلاد، ظن سركيس، كبشير وامين من بعده، أن حبيب يتكلم باسم ريغن، وريغن يتكلم باسم الولايات المتحدة، والولايات المتحدة متى قررت لن تتوانى. لم يكن هنالك تقدير كاف لدور الكونغرس ودور الصراعات بين الدوائر الحكومية، ونفوذ الاعلام، ودور اللوبي في صياغة السياسة الاميركية. كانت كلمة حبيب، أو سواه من المندوبين الاميركيين، تؤخذ على انها التزام من قبل ادارة ريغن لا يمكن نقضه او الغاؤه، فيما كانت الدقائق الخفية في المصالح المتنافسة داخل الولايات المتحدة محجوبة كليا.

مخاوف... ومخاوف مقابلة

لقد صارت المسألة مسألة توصل إلى إطار يمكن من خلاله اجراء محادثات

تؤدي الى انسحاب اسرائيل. ومنذ الغزو الاسرائيلي للبنان، في حزيران ١٩٨٢، كانت الحكومة اللبنانية تتعامل مع الاسرائيليين عبر لجنة الهدنة الاسرائيلية اللبنانية المختلطة، وقد مثّلنا فيها الجنرال عباس حمدان، والكولونيل سعيد قعقور، تمثيلا بارعا.

ومنذ نهاية تشرين الأول، توصلنا الى اتفاق مع الاميركيين حول عدة نقاط:

(١) تحضر الولايات المتحدة كل اجتماعات لجنة الهدنة الاسرائيلية اللبنانية المختلطة الموسعة؛

(٢) تستمر المشاركة الاميركية على الاقل الى ان يتحقق انسحاب القوات الاسرائيلية بكاملها من الاراضي اللبنانية؛

(٣) تقوم الولايات المتحدة بترتيب الاجتماع الاول بين الطرفين؛

(٤) يدون كل طرف محاضره؛

(٥) تتدخل الولايات المتحدة لتسوية الاشكالات التي تطرأ اثناء المفاوضات؛

(٦) يقيّم دور القوة المتعددة الجنسيات باستمرار على ضوء انسحاب القوات الاجنبية من لبنان، وحاجات الجيش اللبناني اللوجستية.

أمّا المشاكل الاجرائية بشأن المكان، او الموعد، او الاطار الاجرائي للمفاوضات، فقد ظلت موضع بحث مع فريق الولايات المتحدة المفاوض. وكانت مسألة المكان، بصورة خاصة، مسألة مستعصية. ان اسرائيل، التي ارادت اضفاء صبغة سياسية على المفاوضات ،فضلت اتخاذ القدس وبيروت مكانين للمفاوضات. ذلك من شانه ان يعني الاعتراف الضمني باسرائيل، واعترافاً كذلك بان القدس عاصمة لها، وهو، بالتالي أمر غير مقبول. وبدورنا اقترحنا الناقورة، وهي بلدة لبنانية على الحدود اللبنانية الاسرائيلية، والمقر الاول للجنة الهدنة. غير ان اسرائيل عارضت ذلك. وفي المناقشات مع درايبر، اقترحنا عدداً من المواقع البديلة: الاجتماع في دولة محايدة؛ الاجتماع شرقي البحر الابيض المتوسط، على متن سفينة لدولة محايدة؛ او

التفاوض عبر فيليب حبيب، الذي يكون عليه، في هذه الحالة، ان يقوم برحلات مكوكية بين اسرائيل ولبنان، جيئة وذهابا. ولكن اسرائيل رفضت هذه المقترحات على الفور.

هنا اقترحنا على درايبر ان يعقد الطرفان اجتماعات استطلاعية حول المسائل الاجرائية وجدول الاعمال في «ليبانون بيتش أوتيل» في خلدة، إلى الجنوب من بيروت، على ان يصار بعد ذلك الى عقد الاجتماعات المقبلة في الناقورة. ورد درايبر باقتراح عقد الاجتماعات بالتناوب في بلدات لبنانية واسرائيلية صغيرة. وكان درايبر، قبل تقديم هذا الاقتراح، قد ابلغنا انه سبق له ان نال موافقة وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام على اقتراحه. وقد وجدنا الاقتراح هذا مقبولا. وفي الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر، نال درايبر الموافقة النهائية من اسرائيل.

كنا تواقين الى البدء بالمباحثات بسرعة، غير ان اسرائيل لم تكن مستعجلة، ولم تكن تواقة الى حضور الاميركيين؛ وكانت تحسب ان التأجيل يعزّز قبضتها على لبنان، ويضعف موقفنا. ثم انها لم تكن متفائلة بالحصول على ما تريده من المفاوضات. كان الاميركيون يعرفون هذا الموقف الاسرائيلي. وقد ألمح شولتز بذلك الى موشيه أرنز، السفير الاسرائيلي في واشنطن، إذْ ابلغه ان لبنان فعل أقصى ما بوسعه في شأن البدء بالمحادثات، وان الولايات المتحدة ترى الموقف اللبناني معقولا، وان المباحثات يجب ان تبدأ فورا.

في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر، ابلغني درايبر ان الحكومة الاسرائيلية غيرت موقفها، وهي تصر ثانية على مباحثات سياسية. ثم اضاف ان موقف اسرائيل قد تصلب بسبب المشاكل الكبيرة داخل الحكومة الاسرائيلية. واضاف ان هنالك من شكك في الحكمة من الغزو؛ هنالك من اراد انتزاع اكبر ثمن للخسائر الجسيمة التي تكبدها الجيش الاسرائيلي في الارواح؛ هنالك اتهامات متشددة للحكومة بانها دخلت الحرب بدون هدف واضح. ولكن بيغن وشارون أرادا ان يبيّنا أن حربهما محقة، وانها ستنتهي بمعاهدة سلام مع لبنان؛ ومن هنا كان الاصرار

على طلب المباحثات السياسية معنا. لقد ابلغنا درايبر ان بيغن وشارون يعارضان بشدة المباحثات مع فريق لبناني ذي طابع عسكري صرف، وقال ان الاسرائيليين يريدون اتصالات سياسية بنا، ويتعهدون بابقاء هذه الاتصالات سرية.

لم اندهش لمثل هذه الرسالة. الذي ادهشني هو توصية درايبر بوجوب النظر فيها بصورة جادة، واقتراحه بأن اتحدث الى الرئيس بشأنها. فقلت له بانه بامكان اسرائيل، اذا شاءت، ان تنقل وجهات النظر الينا من خلاله. اما موقفنا حيال المباحثات السياسية والمحادثات السرية، فهو موقف سلبي ونهائي. ولا حاجة للتشاور مع الرئيس في هذا الشأن.

اصر درايبر على أن الغاية من مثل هذه المحادثات ليست عقد معاهدة سلام، وانه واجه القادة الاسرائيليين بجميع الحجج المناسبة، ولكن الاسرائيليين مصرون على مباحثات سياسية. فاقلقني ذلك لان اميركا تقول لنا بواسطة مبعوثها الخاص ان الاسرائيليين سينسحبون من لبنان مع حلول عيد الميلاد. ثم يقول لنا درايبر بان حججه غير كافية لاقناع اسرائيل بالعدول عن المباحثات السياسية.

كان من الواضح، في تلك المرحلة، أن الولايات المتحدة كانت تعتمد على فيليب حبيب للخروج بصيغة مّا. ولكن فيليب حبيب لم يكن يملك عصاً سحرية. كان يؤمن بالمسار السياسي في المفاوضات، وبالتوفيق بين وجهات النظر. ولكن وجهات النظر كانت، على ما يبدو، متباعدة حقا. وفيما كنا نريد السرعة، كنا على استعداد لتكليف مدني، دبلوماسي متقاعد، برئاسة وفدنا، ولكن في اطار لجنة الهدنة المختلطة، وقد أيّد درايبر موقفنا بخصوص لجنة الهدنة الموسعة برئاسة الدبلوماسي المتقاعد الدكتور أنطوان فتال.

وبعد الاتفاق على صيغة المباحثات، أبلَغَنا الاميركيون ان الرئيس ريغن طلب تقريرا عن تطور المفاوضات يوما بيوم، وبانه مصمم على اخراج جميع القوات الأجنبية من لبنان، مع حلول عيد الميلاد، على أبعد تقدير. وبما ان الفترة الفاصلة عن عيد الميلاد كانت خمسة اسابيع فقط او ستة، فانه لم يكن لأحد ان يلوم اللبنانيين

على ما ساد الجو السياسي في ذلك الوقت من تفاؤل كبير. ثم ان المبعوث الخاص فيليب حبيب كان قد تنبأ بموعد نهائي قبل ذلك للانسحاب الاسرائيلي. غير ان التقارير اليومية عن تصلب الموقف الاسرائيلي كان يثير الشكوك في اذهاننا، حول احتمال تنفيذ الانسحاب في الموعد المحدد. وكنا ندرك، رغم الآمال، انه ليس لدى الولايات المتحدة اي حل إلا ما تأمل التوصل اليه عبر المباحثات الثلاثية. ثم اننا كنا قلقين من تفسيرات فريق الولايات المتحدة المختلفة لموقف اسرائيل. هنا أذكر ان فيليب حبيب كان يقول لنا ان بيغن يريد كذا وكذا، ولكن درايبر يرد عليه صارخا كلا! كلا! كلا! ليس هذا ما قاله بيغن. ويتضايق حبيب من ذلك وهو يضيف ان ذلك بالطبع هو ما قاله بيغن. إنني اعرف ما اقول. لم افقد رشدي بعد. ويرد درايبر بالنفي بصوت خافت للتخفيف من الحرج، فيما يقوم كريستوفر روس، الذي يدون المحاضر، بتسجيل أصوات اعضاء الفريق المختلفة. «بحق السماء!» يصرخ حبيب في وجه روس «توقف عن الكتابة». وأنتحي بحبيب جانبا لتهدئته، وانا أحاول أن أتبين ما يجري بالفعل. الولايات المتحدة لا تبدو كأنها الساحر الذي يستطيع أن يطلب من عفريته القيام بالمعجزات، لكنه لم يكن لدينا سواها. إن الولايات المتحدة، على الأقل، قد قطعت التزاما، ثم ان لها قوات في القوة المتعددة الجنسيات.

كنا، من البداية، نريد توسيع القوة المتعددة الجنسيات، واعطاءها طابعاً دولياً، لا أن تكون غربية الطابع فقط. بتزايد طابعها الدولي، يتزايد قبولها من الناحية السياسية. ان القوة المتعددة الجنسيات اذا اقتصرت على بلدان الميثاق الأطلسي فقط، فانها تكون عرضة للاعتراض عليها. كنا نريد قوة متعددة الجنسيات قادرة، في النهاية، ان تساعد جيشنا في السيطرة على كل الأراضي اللبنانية.

وفي أواخر سنة ١٩٨٢، كنا قلقين بصورة خاصة من التدخل الإسرائيلي في التركيبة الديمغرافية الدقيقة في الشوف، كذلك كنا قلقين لوصول الحرس الثوري الإيراني إلى وادي البقاع. وفيما كنا نفكر في توسيع القوة المتعددة الجنسيات، كنا كذلك نستطلع امكانية توسيع منطقة انتشارها. وفي إحدى المراحل، فكرنا في نشر القوة المتعددة الجنسيات على الطرقات الرئيسية في البلاد، ونشر قوات الطوارئ

الدولية في جوار المخيمات الفلسطينية، لا في الجنوب فقط. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمعت بسفراء المملكة المتحدة، واوستراليا، والبرتغال، وكولومبيا، والنمسا، وهولندا، والسويد، واسبانيا، وكوريا الجنوبية؛ وبحثت معهم في امكانية انضمام بلدانهم إلى القوة المتعددة الجنسيات.

وجاءت الاستجابات متنوعة: السفير البريطاني دايفيد روبرتس اقترح ان أبحث الموضوع مباشرة مع رئيسة الوزارة مارغريت ثاتشر، أثناء زيارة رسمية إلى لندن، والح السفير علي أن أقوم بها. والسويد آثرت المشاركة في بعثة عسكرية برعاية الأمم المتحدة. والنمسا أخبرتنا أنها ملزمة بموجب دستورها بألا ترسل جنودها إلى الخارج، الا تحت مظلة الأمم المتحدة. وجاء ردّ اسبانيا إيجابيا بالنسبة لمقترحاتنا، غير أن حكومتها المستقيلة لم تكن في وضع يسمح لها بالتنفيذ.

ورفضت استراليا الفكرة، وكانت، كما قال سفيرها، تفكر في سحب فرقتها من بعثة حفظ السلام في سيناء. وبالنتيجة سقطت فكرة توسيع القوة المتعددة الجنسيات. قليلة هي الحكومات التي كانت على استعداد للمجازفة بإرسال قوات إلى لبنان، ثم إن أملنا في أن تسهم اليابان بتمويل نفقات القوة المتعددة الجنسيات لم يتحقق.

وفي منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر كنا، نحن والفريق الاميركي، قد أخذنا نتململ من الموقف الإسرائيلي المتعنت. ورغم الزيارات العديدة التي قام بها فيليب حبيب إلى بيروت والقدس، لم يكن يشعر بتقدم. وفي هذه الحالات راح يعد بأن يكثف اتصالاته، ويهدد معاونيه ويتهمهم بالتغاضي. وفيليب حبيب شخصية، وعنده الكثير من «الكاريزما». وهو، بأسلوبه، أقرب إلى السياسي البارع منه إلى الموظف الدبلوماسي، وهو معروف بقسوته على معاونيه يوجه أوامره بصوت عال، يشكك في بعض النقاط، ويوضح نقاطا أخرى. ثم إن له نظرة متعالية وموقفا يتسم بالغطرسة للتخويف والترهيب. كذلك كان يشك في أيّ عملية لا يكون بنفسه الشخصية المركزية فيها. لقد جاء أسلاف حبيب من الجنوب اللبناني، وحافظوا على أسلوبهم اللبناني في الحياة. وكان للبنان مكان في قلبه، ولكنه لم يسمح له أن يؤثر

على ولائه الشديد لبلده الولايات المتحدة. وفي حين أنه كان يحب المأكولات اللبنانية، ويستمتع بتقاليد أجداده، فإنه لم يتردد في إثارة مخاوفنا من المطامع الإسرائيلية، آملا أن ينتزع منا القبول ببعض التنازلات.

كانت معرفتي بحبيب تعود إلى الأسابيع الأخيرة من عهد الرئيس سركيس. آنذاك كان منشغلا باستمرار بالتفاوض لعقد اتفاقيات وقف اطلاق النار بين الاسرائيليين والفلسطينيين والسوريين في بيروت وحواليها. ذات يوم، كنت في منزل السفير الأميركي، حين رأيته يتحدث مع البيت الأبيض على الهاتف. كان يبدو مُغْضَبا: كان يؤكد للشخص الذي يحادثه على الطرف الآخر من الخط أن اسرائيل هي التي خرقت وقف إطلاق النار. وكانت القذائف والصواريخ تتساقط على بيروت، وفي جوار القصر الرئاسي في بعبدا. ورغم ذلك كان محاوره على الخط في واشنطن يؤكد ان حبيب مخطئ، وأن وقف اطلاق النار مستتب، وان الاسرائيليين أكدوا له ذلك. عند ذاك أخرج فيليب حبيب السماعة من النافذة إلى الخارج. وصرخ به: إصغ جيداً إلى وقف اطلاق النار. الضجيج الذي في الخارج هو حرب. بحق جهنم ماذا تريدني يا صديقي أن أفعل؟ أن أضع الهاتف على السطح لتسمع بنفسك نيران جهنم التي اندلعت هنا؟ أبلغ ريغن أنه لا بد أن يكون هنالك أشخاص يكذبون عليه عندما يقولون له إن وقف النار ساري المفعول. العكس هو الصحيح. ثم أعاد السماعة إلى مكانها بقوة وعلامات الغضب على وجهه. والتفت إلي وقال: تلك هي واشنطن، كما ترى، الاخوان هناك لا يصدقون الا ما يقرأونه في التلكسات. من الذي اخترع الكلمة المكتوبة؟ هل أنتم الفينيقيون فعلتم ذلك وخربتم التاريخ؟»

أعجبت بما سمعت. وطالما أعجبت بالكلام الصريح وسرعان ما أصبحنا صديقين، وفهم واحدنا الآخر فهماً تاما، ولو أننا لم نكن نتفق على المواقف دائما. وأثناء زيارتي الرسمية الأولى إلى واشنطن، عرّفني بجورج شولتز، وهو صديق له، قائلاً: إيلي أستاذ جامعي يتحلى بمصداقية هائلة. استمع إليه جيدا حين يتكلم.

ومع بداية شهر كانون الأول/ديسمبر، أخذ القلق المتزايد بسبب التأخير يساورني. فسألت درايبر: هل تعتقد الولايات المتحدة أن لاسرائيل مطامع بجنوب

لبنان: ثم إذا كان الأمر كذلك، فما هي تلك المطامع؟ من أي نوع هي؟ هل يمكن للولايات المتحدة أن تؤكد لنا أنه ليست لاسرائيل أيّ مطامع في لبنان، وبأن المباحثات ستنجح قبل أن تكون الأرض من تحت أقدامنا قد تغيرت بفعل الحقائق الجديدة التي تخلقها إسرائيل؟ وهل يقصد بالتأجيل خلق المزيد من الحقائق على الأرض؟

فرد درايبر بالقول: انه يمكن لإسرائيل أن تتمسك بجنوب لبنان، كمحمية، حتى تتوصل إلى اتفاق معنا ولكن لا مطامع لاسرائيل في لبنان. وأضاف ان إسرائيل كانت في الماضي تعتقد أن لبناناً قوياً في ظل رئيس قوي هو شيء مستحب، لكنها قد غيرت رأيها في ذلك. بعض الاسرائيليين يريدون منطقة نفوذ في لبنان، ولا يمانعون بوجود سوري في وادي البقاع. وقد بدا واضحا في لهجة درايبر ان الموقف الاميركي ابتدأ يتغير، وتوقف الكلام كليا عن «الانسحاب الاسرائيلي قبل عيد الميلاد». وحين ألمح درايبر إلى أن بيغن سيقوم بزيارة إلى واشنطن بعد عيد الميلاد، عرفت ان هذا الموعد قد سقط في طيات التاريخ.

هنا قلت لدرايبر: «ان لبنان لا يستطيع ان يتقيد بالتوقيت الإسرائيلي للأمور، ولا يمكنكم أنتم أيضاً كدولة عظمى أن تفعلوا ذلك. واعترف درايبر في الحال أن اسرائيل تتبع اسلوب التسويف والتأجيل. كانت اسرائيل تخشى، كما قال درايبر، ان يؤدي نجاح الجهود الأميركية في لبنان إلى تعزيز موقف ريغن وتشجيعه على حل قضية الشرق الأوسط وأضاف قائلاً: «ان اسرائيل على استعداد لاجراء المفاوضات هذه إرضاء للولايات المتحدة، لكنها لا تريد للمفاوضات أن تشجع واشنطن للضغط على اسرائيل للقيام بتنازلات في تسوية سلام إقليمية. اسرائيل ليست على استعداد للسلام في الشرق الأوسط. وإذا كان الاسرائيليون يتخوفون من ربط تسوية الأزمة اللبنانية بالصراع الأوسع في الشرق الأوسط، فإننا نحن كذلك، ولو لأسباب أخرى مختلفة كل الاختلاف». هنالك تخوف جاد كان معلقاً فوق رؤوسنا كسيف ديموقليس، وهو أن يصبح الانسحاب من لبنان مرتبطا بحل قضية الشرق الأوسط. ان حل قضية الشرق الأوسط يتطلب سلما شاملا وتسوية اقليمية،



إيلي سالم مع السفير الأميركي روبرت ديلون (في الوسط) والسيد كريس روس مستشار المبعوث الرئاسي الخاص فيليب حبيب

وذلك يعني مباحثات متعددة الأطراف ولمدة طويلة من الزمن. ونحن لم نكن في هذا الوارد قط، اذ أن عاصمتنا ذاتها كانت تحت الاحتلال، وتركيبتنا السياسية مهددة. غيرنا ربما كان مرتاحا ويمكنه ان ينتظر. أما نحن، فلا.

في السابع من كانون الأول/ديسمبر وجهت إلى شولتز الرسالة التالية: «لا يجوز للمشكلة اللبنانية، في أي حال من الأحوال، ان تربط بقضية الشرق الأوسط. ان القضية اللبنانية مستقلة عن قضية الشرق الأوسط. ويمكن ان تحل سريعا، وبامكانها ان تولّد، عند حلها، دفعا كبيرا لعملية السلام في المنطقة. يجب على الولايات المتحدة ان توجه بيانا تقول فيه إنها لا تسمح بضم أي جزء من لبنان، أو بانشاء مستعمرات، أو إقامة مناطق خاصة أو محميات فيه، من شأنها أن تعرض للخطر، بأيّ صورة من الصور، وحدة لبنان، وسيادته، واستقلاله، ومؤسساته الديقمراطية». لقد أردت بمثل هذا الموقف، أن أقي لبنان من الاخطار التي تعرضت لها الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان بعد حرب ١٩٦٧.

وأكد لي درايبر وديلون بأن الولايات المتحدة متفقة مع الموقف الذي اتخذته في رسالتي، وان شولتز سيقدم الضمانات التي نريد. على أنهما كانا ، في كل حال، غير واثقين من مواقف وتصرفات اسرائيلية مثل لجوء اسرائيل لاثارة الصراعات الطائفية، أو مدى التسويف في المباحثات لخلق ظروف للتفاوض ملائمة لها. ولذلك اقترح درايبر وديلون علي، اذا شئت المزيد من الضمانات، ان أتحدث إلى شولتز مباشرة. فاغتنمت لذلك فرصة دعوة رسمية لزيارة لندن بين السابع والعاشر من كانون الأول/ديسمبر، للاجتماع برئيسة الوزارة مارغريت ثاتشر، ووزير الخارجية السير فرانسيس پيم، وتلك كانت أول زيارة يقوم بها وزير خارجية لبنان بصفة رسمية إلى بريطانيا. كان الهدف من مباحثاتي في لندن أن أقنع الحكومة البريطانية بالاسهام في القوة المتعددة الجنسيات.

وفي اجتماعي بـ «پيم» في الثامن من كانون الأول/ ديسمبر، أكّدت له أهمية مساهمة بريطانيا، ولو بصورة رمزية، في هذه القوة. ان الحكومة اللبنانية تعلم مسبقا أنه اذا كان لها أي احتمال في النجاح بإقناع رئيسة الوزارة مارغريت

ثاتشر بذلك، فإن تلك المساهمة البريطانية لا بد أن تكون رمزية، أي لا تزيد على مائة عسكري. هنا أعاد پيم التأكيد على دعم حكومته التام للاستقلال اللبناني، ولاحظ أن المساهمة البريطانية في القوة المتعددة الجنسيات هي قيد الدرس؛ وعلي، أنا، أن أقنع ثاتشر بذلك. وذكر لي أن ثاتشر ستطرح أسئلة كثيرة، وأنها هي التي تتخذ القرار عند اقتناعها بجدوى المساهمة البريطانية وأهميتها. يوم الجمعة، العاشر من كانون الأول/ديسمبر اجتمعت برئيسة الوزارة، وبرفقتي سفيرنا في لندن، خليل مكاوي، ومديرة مكتبي أمينة السر الانسة إيتمار دياب؛ وكان برفقة ثاتشر السير جون ليهي ومعاون آخر هو جون كولز. كان مقرراً للاجتماع ان يستغرق عشرين دقيقة، لكنه استمر ساعة كاملة. كانت مارغريت ثاتشر تجمع بين لباقة السيدة اللطيفة وصلابة السياسية المتمرسة. كانت تنتقل بين الحالتين بسهولة تامة. قدرتها على التركيز عالية جدا؛ أسئلتها السقراطية ثاقبة، عملية، دقيقة. كانت تحدق بي، ثم تسأل بصراحة: الصراع في بلادك، إلى أي حد يعتبر صراعا أهلياً؟ وإلى أي حد يعتبر صراعا إقليميا؟ وإلى أي حد هو دولي؟ من هم الذين يقاتلون في بيروت؟ ومن يقاتل في البقاع؟ لماذا انهار لبنان على هذا الشكل؟ هل كان يمكن الحؤول دون ذاك الانهيار؟ هل لأزمتكم نهاية؟ هل يمكن لاسهامنا ان يساعد في حل الأزمة؟ وإذا ما اشتركنا، فلا بد لنا أن ننجح. ما هو احتمال النجاح؟ وكنت أجيب عن أسئلتها بموضوعية: اذ أن لها الحق بأن تعرف الوقائع كما هي. وحين عرفت مني بوجود الحرس الإيراني الثوري في وادي البقاع، تغيرت ملامح وجهها، واتجهت نحو ليهي وسألته وأسنانها تصر: لِمَ لم تخبرني بذلك؟ لم يقل لي أحد ان في لبنان إيرانيين. ماذا يفعلون هناك؟ من أتى بهم؟ كم عددهم؟ لماذا تكون معلوماتنا عن وجودهم هزيلة إلى هذا الحد؟ مسكين ليهي! كان في حالة يائسة. نظر إليها بصمت وكأنه تمنى أن تنشق الأرض من تحته لتنقذه من هذا الارباك. في هذه اللحظة الحرجة، دخل خادم يحمل صينية شاي. غيرت ثاتشر لهجتها: أزاحت عينيها عن ليهي، ونظرت إلى الشاي مبتسمة، وتحولت رئيسة الوزراء الحديدية إلى «ست بيت»: إذْ أخذت تعد لي الشاي. وكادت احدى ركبتيها تلامس الأرض، وسألتني بهدوء: هل تريد بعض السكر أو الحليب في الشاي. دهشت لقدرتها في السيطرة على مزاجها؛

في جزء من الثانية فقط غيرت الاجواء من غضب سياسي إلى هدوء اجتماعي يتميز به تقليد شرب الشاي عند الانكليز.

بعد ذلك، واصلت الكلام قائلة: أنت تدرك سبب ترددي في إرسال جيش إلى لبنان. قواتنا موزعة في أماكن عديدة من أوروبا في اطار «الناتو»، في فولكلاند، في جبل طارق، في قبرص، في سينا. جنودنا جيدون والكل يطالبون بهم. في سينا، لم يكن لأحد أن يذهب إليها لو لم نكن نحن أول الذاهبين. مشكلتي هي التالية: إذا ما اشتركنا في القوة المتعددة الجنسيات، أصبحنا متورطين، في حين أنه ليس بامكاني أن التزم معكم للأمد البعيد. يصعب علي اتخاذ قرار لست واثقة من تنفيذه كليا. أريد أن أكون على يقين. أريد أن أتخذ قرارا اليوم. يجب أن أعرف منك أنني إذا ما أرسلت جيشا إلى لبنان، فهل بإمكاني أن أخرج منه بعد وقت قصير. قصتكم، على ما يبدو، قصة طويلة، الا انه كانت لديكم، كما قلتم، ديمقراطية قائمة، وفاعلة، وكنتم تنعمون بالاستقرار والحرية. أريد من كل قلبي أن أساعدكم على استعادة حريتكم واستقراركم. قسما بالله، انكم تواجهون مشاكل هائلة. الآن علمت أن ايران معنية. سأتخذ قراري اليوم. واذا ما جاء قراري ايجابيا، فإن مساهمتنا ستكون رمزية، ولفترة زمنية محدودة». كان ضمير المفرد المتكلم قويا بارزاً في عرضها، وكنت واثقا بأنها سترسل قواتها؛ لقد لمست أنها تريد المساهمة لأن قضيتنا محقة، ولأن الأمل بالنجاح جيد، وذلك عائد، بالدرجة الأولى، إلى ما يبدو من التزام أميركي كامل.

والتزاماً من ثاتشر بتعهدها، أرسلت فرقة صغيرة إلى لبنان، ومنحتنا التأييد المستمر في مفاوضاتنا. وبالتزام الولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا، ثم المملكة المتحدة أخيرا، حيال لبنان، عبر القوة المتعددة الجنسيات، نشأ تكتل سياسي قوي وموحد يدعم حكومتنا ويتدخل لدى الأطراف المعنية، ويوجه جهوده نحو اخراج الجيش الإسرائيلي من لبنان.

في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر، غادرت لندن إلى واشنطن، وبدأت المحادثات الرسمية في اليوم التالي مع مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق

الأوسط وجنوبي آسيا، نيكولاس فيليوتيس. وأبلغته مخاوفنا من التأخر في المفاوضات؛ وأكدت لفيليوتيس أنني لم أقصد واشنطن للقيام بحملة معادية لإسرائيل، ولكنني في سبيل حملة ملحة وإيجابية من أجل لبنان. وكان لا بد من اتخاذ هذا الموقف النفسي لتهدئة القوى العديدة داخل الحكومة الاميركية وخارجها، التي تؤيد الموقف الاسرائيلي بصرف النظر عن كون هذا الموقف سليما أو خاطئا. وتفهّم فيليوتيس مشكلتنا، وقدّر الحاحنا على السرعة، ووافق على ان التأخير يكوّن خطرا على لبنان. وكان في واشنطن شعور لدى البعض، وبالأخص في وزارة الخارجية، أن القضية اللبنانية تشكل امتحانا للمصداقية الأميركية، وأن على الولايات المتحدة أن تفعل كل ما يمكن لتحريك الأمور. وإذا كان لبادرة ريغن أن تفشل في لبنان، فهي في الغالب ستفشل في حل قضية الشرق الأوسط. وبهذا المعنى أكّد أن المشكلتين، مشكلة لبنان ومشكلة الشرق الأوسط، مرتبطتان بالنسبة للتكتيك والوضع النفسي. وبعد ذلك أدركت، في محادثاتي مع فيليوتيس، وكينيث دام، نائب وزير الخارجية، ان موقفهما كان، على ما بدا، متوقفا كليا، تقريبا، على مهمة حبيب وتقييم حبيب لفرص النجاح. آنذاك كان حبيب في إسرائيل، آملا أن يدفع بالعملية إلى أمام.

ثم اجتمعت كذلك بوزير الدفاع كاسبار واينبرغر، وأكدت له على الخطر الذي يمثله الوضع في لبنان على السلام والاستقرار في الشرق الأوسط. وقلت ان هذا الخطر لا يمكن التصدي له إلا اذا كان لبنان مستقلاً وسيداً بالفعل. ان ذلك لا يتحقق الا اذا قدمت لنا أميركا المساعدة لبناء جيش قوي: للتأكد من أن أرضنا لن تستعمل بعد اليوم من قبل الآخرين لشن الهجمات على آخرين، مما يثير الهجمات الاسرائيلية الثأرية علينا. نحن، في هذا الوقت، وفي أوائل ١٩٨٣، كنا نفكر في إنشاء جيش من أربعين الف جندي، ووحدة خاصة من عشرين ألفاً لحماية حدودنا. كما كنا نفكر في زيادة القوة المتعددة الجنسيات إلى عشرة آلاف جندي، وتوسيع قوات الطوارئ الدولية (يونيفيل) إلى أربعة عشر ألفاً، حتى تساعدنا هذه القوات في بسط سيادتنا على أرضنا.

وشرحت لواينبرغ الضغوط التي يمارسها الاسرائيليون على حكومتنا لتلبية طلباتهم. بين هذه الضغوط تسليح الأطراف المتنازعة، والتحريض على الاقتتال الطائفي، والتهديدات المباشرة لرئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ووزير الخارجية. مثل هذه الأساليب، كما قلت، تشد بالمفاوضات إلى الوراء، وتؤدي إلى ضياع الوقت. وأقر واينبرغ معي أن هنالك وقتا قد ضاع، لكنه كان واثقا بالتزام الرئيس ريغن بلبنان. ومن وجهة نظره كوزير للدفاع، كان يرى دعم لبنان كجزء من جهود الولايات المتحدة لوقف المداخلات السوفياتية في الشرق الأوسط. كان واثقاً بأن الولايات المتحدة تستطيع اقناع إسرائيل بالانسحاب، لكنه لم يكن واثقاً من التأثير الأميركي على سوريا. وقال انه وريغن يخالفان آريل شارون في إصراره في مطالبة لبنان بعقد معاهدة سلام مع إسرائيل. وأضاف واينبرغ أن لبنان يجب أن يكون آخر دولة عربية تعقد معاهدة سلام مع إسرائيل لا أولها ولا ثانيها. كذلك أعرب عن قلقه من سماح سوريا للإيرانيين بدخول لبنان. «الايرانيون في لبنان»، كما قال، «يمكن لهم أن يتصرفوا تصرفاً طائشاً متهوراً، وأن يشكلوا خطراً على الشرق الأوسط بكامله. آمل أن تدرك إسرائيل ذلك. واذا ما أدركته لا بد لها أن تنسحب، وهي بذلك تسهل انسحاب سوريا، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والايرانيين من لبنان».

ما قلته لفيليوتيس وواينبرغ، كرّرته للسيد وليم كلارك، مستشار الأمن القومي، ونقلته لمساعده روبرت مكفارلين. إن مفتاح حل النزاع اللبناني يكمن في الانسحاب الاسرائيلي وان استمرار الوجود الاسرائيلي في لبنان يفتح الباب على شتى الاحتمالات. اسرائيل تعبث بصيغة لبنان السياسية المعقدة، وتثير العنف الطائفي في جبال الشوف. ومثل ذلك قد يؤدي إلى مذابح تصبح مآسي صبرا وشاتيلا أمامها شيئاً ضئيلاً. ولا بد من الانسحاب اليوم، قبل الغد، وفي غدٍ قبل بعد غد؛ القضية قضية حق. وانعدام التقدم ينسف المصداقية الأميركية ويجهض مبادرة ريغن ويضعف جهود حكومتنا.

وأثناء محادثاتنا، دخل علينا الرئيس ريغن واستقبلني بحرارة ثم وضع يده

على كتفي وقال: «نحن معكم حتى النهاية لاخراج القوات الأجنبية من بلادكم، وإعادة السلام إلى بلادكم الجميلة. الآن اتصلت بالمبعوث فيليب حبيب وطلبت إليه أن يضع اطاراً عملانياً كاملاً لانسحاب جميع القوات الأجنبية من لبنان. سنساعدكم بالنسبة لاسرائيل. سنفعل ما نستطيعه بالنسبة للآخرين. الأمور تسير ببطء. وهذا لا يجوز. اننا مصممون وملتزمون أن نصل بهذه القضية إلى النهاية. أريد نتائج، وبسرعة. فإذا كانت لديكم أمور محددة، فالرجاء أن تذكروها لفيليب حبيب. انه يتمتع بثقتي الكاملة».

اغتنمت هذه المناسبة لاقدم للرئيس عرضا شاملا للوضع في لبنان وأهميته في المنطقة، واستحقاقه للدعم الأميركي. ومما قلته: نحن دولة صغيرة، لكننا دولة ذات طموحات كبيرة. لبنان ديمقراطية ليبرالية، تعددية في منطقة تسيطر عليها الأنظمة التقليدية والايديولوجية. لبنان المنتصر سيكون شهادة لانتصار العقل على العاطفة. نحن على استعداد للسلام في المنطقة عبر خطوات مدروسة وملائمة. نحن بحاجة إلى مساعدة أميركا لاستعادة سيادتنا وبناء لبنانٍ قوي بمؤسسات قوية لا تقع مرة اخرى ضحية الصراعات الاقليمية. لقد نجح لبنان في الماضي، وأصبح نموذجا للحرية والاستقرار، ويمكنه ان يكون ثانية ديمقراطية أفعل من قبل.

كان الرئيس ريغن يصغي إلي باهتمام. نظر إلي وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وقال: «أنا أعلم أنك استاذ جامعي، أنصحك أن تبقي ذلك في ذهنك حين تتحدث إلى شولتز. فهو استاذ جامعي مثلك. انني واثق من أنه سيصغي باهتمام لما تقوله؛ ومن أنه سيقدر وصفك للأمور، وأهمية الاسراع في عملية المباحثات.

وكان ما تبقى من زيارتي لواشنطن شيئاً محموماً. التقيت أعضاءً في لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، وأعضاء في الكونغرس من أصل لبناني، ومحررين في «واشنطن بوست»؛ ووجدت، إلى جانب ذلك، وقتا للقيام ببعض الزيارات، وعقد بعض الندوات، والتحدث في بعض مراكز البحوث في واشنطن، التي لها علاقات حميمة بالحكومة الاميركية، وبصياغة سياستها الخارجية. وكان لي في هذه المؤسسات أصدقاء كُثُر؛ وبما أنّ شولتز كان في لندن، فقد اتفقت معه

على الاجتماع به في السفارة الاميركية في لندن، وعند اجتماعي به هناك، لم يكن معنا لا سفراء ولا مستشارون ولا مدونون للمحاضر. جلسنا إلى نار مشتعلة في إحدى الغرف الكثيرة الأنيقة في القصر القديم الذي يسكنه السفير. وتكلمنا بحرية في مختلف نواحي القضية اللبنانية. استعدت مع شولتز تفاصيل زيارتي إلى واشنطن، وقمنا معا بتحليل ما قيل وبتوضيح نقاط غامضة. وساد اجتماعاتي مع شولتز جو من الثقة والصراحة. ولعل مرد ذلك إلى خلفية كل منا: كلانا استاذ أصبح رئيس دائرته؛ كلانا كان عميداً في جامعته قبل تحمل مسؤوليات حكومية.

وبالنسبة للاسراع في عملية الانسحاب، أكّد لي شولتز ان اهتمام ريغن بالقضية اهتمام بالغ. إن فيليب حبيب، كما قال، لا يذهب إلى اسرائيل للترفيه عن النفس. هو فيها لتحقيق نتائج. والغاية: اخراج جميع القوات الأجنبية، لا البحث في كيفية تحقيق ذلك، بل لتحقيقه وبسرعة. هنا لاحظ شولتز ان ريغن مثلنا يتعجل انهاء الأزمة اللبنانية. وأكّد لي انه ليس مسموحا لاسرائيل ان تعرض وحدة لبنان، واستقلاله، وتوجهه العام للخطر. وقال إن أميركا تهتم بلبنان، وبما يمثله، وبانها لن تتركنا وحدنا. وقال إن فيليب حبيب لا بد أن يأتي سريعا بمخطط عمل يعتمده.

ورقة شارون

عدت إلى بيروت يوم الجمعة ١٧ كانون الأول/ديسمبر، وتوجهت إلى مكتب الرئيس مباشرة. وما ان دخلت، حتى اتضح لي أن هنالك شيئاً ما خاطئا قد حدث. كان هنالك الرئيس الجميل، وحبيب، ودرايبر، وتويني، والدكتور وديع حداد. الجو كئيب واجم. حتى تويني الذي يشيع أجواء التفاؤل في حال اليأس، كان مكتئبا. وكعادتي دخلت بشيء من المرح والعجقة والهمشرية وصافحت الجميع، وهتفت: بحق المسيح، ماذا يجري؟ هل أنتم في جنازة؟ ماذا يجري هنا. ونظر الرئيس وهو في حالة انزعاج قصوى، إلى حبيب وقال له: «قل لإيلي كل شيء».

وكأن المبعوث الأميركي كان ينتظر هذه الفرصة. وباسلوب مسرحي وعيناه محدّقتان فيّ بتركيز، وفمه يرتجف بدأ ملوحا بيده بالهواء للتأكيد على ما يقول:

«لن تصدق ذلك يا إيلي. وصلت إلى اسرائيل لعرض قضيتكم. واجهت شارون وقلت له: ينبغي ان تنسحب من لبنان بسرعة. لبنان لا يستطيع أن يوقع معكم معاهدة سلام. ريغن يريد منكم أن تنسحبوا حتى تسهلوا انسحاب السوريين والايرانيين والمقاتلين الفلسطينيين. وكان، يا صديقي، كلما، أحرجته وألححت عليه، ينظر إلي، ويبتسم. شككت أن هنالك خدعة؛ لأن شارون خداع. فتركني أتكلم وأتكلم؛ ثم هل تعلم ماذا قال: لن تصدق، قال لي يا إيلي: لا حاجة إليك بعد الآن يا حبيب. لقد انتهت مهمتك. أنت تحاول ان تتوصل إلى اتفاقية بين لبنان واسرائيل من أجل انسحابنا. ها هي الاتفاقية دون حاجة لتدخلك. لقد توصلت إلى ذلك بمفاوضات سرية مع الرئيس الجميل بواسطة رجل اعمال صديق له. وعندها سلمني شارون هذه الوثيقة. إليك بها يا إيلي. اقرأها. هل أنت على علم بها؟ هل أنت موافق على محتوياتها؟»

صعقت لما سمعت. لم أكن على علم بأن الرئيس يقوم بمفاوضات جانبية وحده. والرئيس يعلم تماما مدى حساسيتي بموضوع التفاوض مع اسرائيل على أي شيء. هو يعلم أن السؤال الوحيد الذي طرحته عليه، عندما عرض علي منصب وزير الخارجية، كان بشأن الموضوع الاسرائيلي. تناولت الوثيقة وبدأت اقرأها بتمعن، بينما كان حبيب يمشي بعصبية، ينتظر ردة فعلي. ثم حدّق بالرئيس وقال: سيدي الرئيس؛ يبدو لي انكم لستم في حاجة إلي. وفقكم الله ، أنتم وشارون. أنا عائد إلى بلادي». وبما أن القدرة المسرحية لم تكن تنقصني فقد صرخت بحبيب ان يهدأ، وان يتيح لي فرصة قراءة الورقة.

تاريخ الوثيقة هو ١٤ كانون الأول/ ديسمبر١٩٨٢. قرأت فيها: يتفق الطرفان على التوصل إلى صفقة عامة حول ما يلي:

أ- تطبيع العلاقات؛

ب-الترتيبات الأمنية؛

ج- ثم انسحاب القوات الاسرائيلية.

وللتوصل إلى هذه الصفقة، يشكل وفدا لبنان واسرائيل لجنة خاصة تواصل اجتماعاتها حتى توقيع معاهدة سلام؛ وإلى أن يتحقق ذلك تكون الحدود مفتوحة بين لبنان واسرائيل أمام الناس والبضائع؛ وبموجب الترتيبات الأمنية تقيم اسرائيل مراكز انذار مبكر في لبنان، ويسمح لها بالقيام بطلعات جوية استكشافية فوق الأراضي اللبنانية مدى فترة يتفق عليها. وبالنسبة للانسحاب الاسرائيلي يتحقق ذلك بعد انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من لبنان، وبعد إعادة أسرى الحرب الاسرائيليين لدى السوريين والفلسطينيين. وبعد ذلك ينسحب الجيشان السوري والاسرائيلي في وقت متزامن.

هنا اتفاقية جرى الوصول إليها سراً بدون معرفة وزير الخارجية. تساءلت في نفسي، وقبل أن أتكلم، هل أستطيع الاستمرار في منصبي؟ هل تلك إشارة من الرئيس لي كي استقيل، وهل الرئيس مقرب من اسرائيل أكثر مما أظن! هذه الأفكار كلها كانت تساورني وأنا أقرأ بنود هذه الوثيقة. وبعد قراءة الوثيقة قلت لحبيب: ان ورقة شارون هذه مرفوضة بكليتها، بروحها، بنصوصها، بأهدافها، فهي تشير إلى وفدين لبناني واسرائيلي، فيما كنا نصر نحن على ثلاثة وفود أي على وجود الوفد الأميركي بجانبنا كشريك كامل.

ثم إن الوثيقة تذكر تطبيع العلاقات، وهذا مرفوض كليا. وهي تشير إلى معاهدة سلام، ونحن لسنا بوارد معاهدة سلام، ولا حتى للبحث بهذا الموضوع مستقبلياً، الا ضمن قرار عربي شامل، وفي اجواء غير هذه الاجواء. والوثيقة تشير إلى صيغة لوجود اسرائيلي مستمر فوق أراضينا، وذلك خرق لسيادتنا، وهو بالتالي غير مقبول. وبالنسبة لي، فان الورقة بكليتها مرفوضة. ولذلك ينبغي اهمال هذه الورقة واعتبارها خطأ خطيراً ارتكبه شخص لا صفة رسمية له ولا يتكلم باسم الرئيس ولا باسم الحكومة، ولذلك يجب أن نرجع إلى مسارنا الطبيعي وإلى اكمال مهمتك.

كنت منزعجا، ولم أكن أنوي إخفاء ذلك. وشعر حبيب بالارتياح عند سماع ما قلت. ثم تدخل الرئيس وقال ان الورقة هي فقط محاولة شخصية لتسريع عملية

التفاوض. وان لاصفة رسمية لها وانها لا تحظى بموافقته. وهذه ليست اتفاقية، قال الرئيس، انها مجمل نقاط للبحث وضعها وسيط بنفسه. وعندما سمعت كلمة «نقاط للبحث» قلت: ليس لدينا نقاط للبحث تحت هذه العناوين. نحن لسنا بصدد تطبيع للعلاقات، ولا بصدد معاهدة للسلام. ولن نسمح بانشاء مراكز للمراقبة فوق أراضينا. ضمّدت جراحي وتناسيت المشكلة وشعرت أن الرئيس كان هو ايضاً محرجا. وكان يقدر موقفي، فنظر إلي وقال: إيلي افعل ما تراه مناسباً لدفن ورقة شارون وانقاذ مهمة حبيب، وصرّح بما تريد لاعطاء فيليب حبيب الدعم السياسي الذي يحتاجه. واكد اننا لسنا بصدد مباحثات جانبية مع اسرائيل.

لقد ظلت تلك الحادثة تؤلمني لمدة طويلة. مثل هذه الاتصالات السرية تُحاوَل احياناً، ولكنها تحاول كتكتيك دبلوماسي، ومن خلال مجربين اذكياء، ومن ضمن المنحى السياسي المتفق عليه، وبموافقة المسؤولين المعنيين مباشرة.

كانت ورقة شارون خطأ كبيرا، وكان ضروريا ان نواصل العمل في اطار الخطوط العامة التي ناقشتها مع ريغن، وشولتز، ولكن شارون تجاهل موقفنا واخذ يصر على ورقته كأساس لمباحثات سياسية. وعندما رفضنا ذلك، أخذ يهددنا بدفع الدروز إلى مهاجمة بلدة الجمهور وهي تقع فوق القصر الجمهوري ووزارة الدفاع، وبتحريك الشيعة لمهاجمة قرى مسيحية جنوب بيروت. وظلت تهديدات شارون تتواصل، مهددا رئيس الجمهورية بأنه إذا لم يتبع ورقة شارون فان الرئيس سيجد نفسه رئيسا على القصر الجمهوري فقط، بدون أن تكون له سلطة حتى على حديقة القصر. وفي بعض الاحيان، كانت اسرائيل تهدد بارسال الرائد سعد حداد، قائد جيشها العامل بامرتها في جنوب لبنان إلى ضواحي صيدا. وكانت، في أحيان اخرى، تزيد من حدة التوتر بين المسيحيين والمسلمين بعرض افلام على الفلسطينيين تبين رجال الميليشيات المسيحية يرتكبون مجازر الفتك بالمسلمين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، حاذفة، بالطبع، دور اسرائيل في تلك المجزرة، وهو دور تبين مداه في تقرير لجنة كاهان الاسرائيلية التي كشفت الحقائق التي أحاطت بمجازر صبرا وشاتيلا في أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٢. وبعد تدخل جازم من واشنطن وافقت

إسرائيل اخيرا على التفاوض في اطار الصيغة الثلاثية. وحيال خيبة الأمل، أصر شارون على شرطين هما: عقد الجلسة الافتتاحية في اسرائيل، وامتناع الوفد اللبناني عن توجيه الشكر إلى الولايات المتحدة للجهود التي بذلتها في بدء المباحثات. وبما أننا كنا راغبين بالتحرك بسرعة. فقد وافقنا على عقد الاجتماع الأول في كريات شمونة في الجليل. وكان الاتفاق قد انعقد على أن تجري الاجتماعات بالتناوب بين كريات شمونة، (اسرائيل) وخلده (جنوبي بيروت). وألح إلينا الاميركيون بأن لا نوجه أي شكر لهم: لأنهم كانوا، بدورهم، يريدون بدء المباحثات دون اشكال. والواقع اننا لم نكن في مزاج نوجه فيه الشكر إلى احد.

المباحثات اللبنانية الاسرائيلية الاميركية

بدأت المباحثات اللبنانية الاسرائيلية الاميركية يوم الثلاثاء، ٢٨ كانون الأول/ديسبمر، أي بعد ثلاثة أيام من الموعد الذي كان متوقعا فيه ان تكون جميع القوات الأجنبية قد انسحبت من الأراضي اللبنانية. ذلك التفاؤل الذي كان قد ساد خلال تشرين الأول/اكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر، قد تلاشى تدريجيا. الاسرائيليون يريدون معاهدة سلام، اما نحن، فلم تكن لدينا مثل هذه الفكرة. كان شارون، كما وصفه الاميركيون انفسهم، قد أصبح «خطراً». وكانوا قد أمَلوا ان تسير الامور بسرعة. كانوا يأملون ان يمارسوا نفوذاً أوسع على اسرائيل، ويفكرون بأننا سنكون أكثر مرونة. ورغم أن عاصمتنا كانت محتلة، وصيغتنا السياسية مهددة، الا انه كانت لدينا خطوطنا الحمر التي لا يمكن ان نتجاوزها. كانوا يدركون ان اسرائيل ستكون صعبة، لكنهم توقعوا ان يكون لسحر ريغن اثره على بيغن. على ان بيغن كان «محشورا» في الزاوية بسبب سياسته التي دفعته إلى لبنان وكلفته خسائر كبيرة في الارواح. وكان بيغن يريد بالمقابل شيئا ما يبين لشعبه ان الاجتياح كان مفيدا لاسرائيل ولأمن الجليل على الأقل ولكن حسابات الاميركيين كانت خاطئة بالنسبة لنا وللاسرائيليين. كنا تواقين لاخراج الاسرائيليين، لكن ليس بأي ثمن كان. لقد أصررنا على أن تحضر الولايات المتحدة المباحثات كشريك كامل، وكضامن للتفاهم الذي يتحقق. أما اسرائيل فكانت بالمقابل تريد أن تقلل من الدور

الاميركي، وان تحشر الاميركيين بقدر الامكان. نحن ضعفاء، واسرائيل قوية؛ هي في وضع تستطيع معه ان تخلق أوضاعاً جديدة على الأرض؛ كانت تريد خلق الحقائق وحدها، غير مرئية. ومن غير ان تلجمها الدولة العظمى التي تعتمد عليها اسرائيل اعتمادا كبيرا.

الوفد المفاوض

وافقنا على مباحثات تجري في اطار لجنة الهدنة الاسرائيلية اللبنانية المختلطة الموسعة، المؤلفة من ضباط عسكريين ومسؤولين اداريين من وزارتي العدل والشؤون الخارجية. وشكلنا هيئة اشراف من رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، والمنسق العام ووزير الخارجية لنضع المبادئ التي أساسها يفاوض وفدنا. وكنا نتابع مباحثات هذا الوفد في الاجتماعات الثلاثية ساعة بساعة ويوماً بيوم. وطلب الرئيس الجميل من التويني أن يكون المنسق العام للعملية التفاوضية. وغسان تويني، صاحب صحيفة «النهار» اليومية النافذة، كان في شبابه عضوا في الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي اسسه انطون سعادة، ثم أصبح بعد ذلك صحفيا خبيرا، ورجل دولة، ووزيرا، ودبلوماسيا. وكسفير للبنان لدى هيئة الأمم المتحدة في عهد الرئيس سركيس، تمكن تويني من أن ينتزع من مجلس الأمن مقررات كانت، كما قال سفير آخر في وقت ومكان آخر، «لا تحتاج إلاَّ إلى التنفيذ». ورضي تويني بمسؤولية المنسّق الصعبة باعتبارها واجباً وطنياً. وتألف وفدنا المفاوض من أفراد ينتمون إلى النسيج اللبناني بكليته. وكان الفريق برئاسة انطوان فتال، وهو سفير متقاعد، وقانوني كبير، ومثقف واسع الاطلاع وضليع باللغة العبرية. لقد قصدنا ان يكون رئيس الوفد سفيرا متقاعدا للتأكيد على طبيعة المفاوضات التقنية، ولحصر المفاوضات في اطار لجنة الهدنة المختلطة. كان في الفريق عضوان مدنيان هما السيد انطوان بارود، والسفير ابراهيم خرما. اما الممثلون العسكريون فهم العميد عباس حمدان، والعقيدان سعيد قعقور ومنير رحيّم. وكان فريق الدعم اللوجستي مؤلفاً من العقيد فوزي أبو فرحات، (الاستخبارات). والاستاذ نبيل

معماري، (مستشار قانوني) والسيد داود صايغ، (ناطق بلسان الوفد)، والسيدة منى جريح،(مساعدة ادارية).

واخبرني السفير درايبر أن للاسرائيليين فريقاً ذا خبرة واسعة في المفاوضات المصرية الاسرائيلية أواخر السبعينات، كما اخبرني ان الفريق الاسرائيلي سيضم وزيراً، وان اسرائيل تتوقع للفريق اللبناني ان يكون برئاسة وزير كذلك. هنا كررت لدرايبر ان فريقنا مشكل وفق الخطوط العامة الموضوعة من قبلنا. لن نعين وزيرا في فريقنا، ولن نشترك في المباحثات اذا كان في الفريق الاسرائيلي وزير. المباحثات ليست سياسية. إنها تقنية، وهي في اطار اللجنة المختلطة لاخراج الجيش الاسرائيلي من لبنان. اما بالنسبة لحكومة بيغن، فالغاية من المفاوضات مع لبنان كانت، إلى حد ما، تحقيق مكاسب واقناع الإسرائيليين بان المكاسب هذه تبرر الحرب والخسائر الفادحة التي تكبدتها الدولة العبرية. واذا أمكن اضفاء صفة سياسية على المحادثات الاسرائيلية اللبنانية الاميركية، فانه يمكن للاسرائيليين، عند ذاك، ان يقولوا ان المفاوضات، بحد ذاتها ،تشكل اعترافاً بالدولة اليهودية. وبعد مبادلات مطولة عبر فيليب حبيب وموريس درايبر، جرى الاتفاق على ان يكون الفريقان غير سياسيين.

كان الفريق الاسرائيلي برئاسة السيد دايفيد كمحي، المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية، وضم أعضاء مدنيين وعسكريين كفريقنا. أما عضوية الفريق الاميركي، فكانت تختلف وفقاً لموضوع النقاش، المبعوث الخاص فيليب حبيب كان يشرف على العملية دون ان يشارك في الاجتماعات، فيما كان درايبر يترأس الفريق الاميركي أثناء المناقشات وذلك بمساعدة السفير ديلون، وكريس روس. كذلك ضم الفريق الاميركي عدداً كبيراً من التقنيين والعسكريين، وكان روس، المدوّن الذي لا يتعب، يلازم حبيب ودرايبر حاملا بيده دفترا صغيرا، ليسجل، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة، كل همسة أو كلمة، يتفوه بها أي شخص وتصل إلى مسمعه. كان يسجل كل شيء: من الهام الخطير، إلى الفكاهي؛ مما يتصل بالموضوع أولا يتصل به، من الشخصي إلى غير الشخصي. واذا ما دعا وجوده إلى الصمت، فانه كان يواصل الكتابة: ولعله يقوم آنذاك بوصف الجو السائد، أو الاشخاص المشاركين.

كالكاتب الفرنسي ڤولتير يكتب وقلمه فارط بالضحك، حتى انه كان، أثناء المحادثة المباشرة معه، يجد الوقت لتسجيل سؤالكَ، وجوابه هو عنه أيضا. ان قدرته على الكتابة قدرة هائلة يحسده عليها الباحثون الذين تهمهم التفاصيل.

جدول الأعمال

في جميع المفاوضات، يشكل الاتفاق على جدول الاعمال الخطوة الأصعب: لأن النقاط الواردة فيه تلزم مسبقا وتقرر مسلكية المحادثات. كنا شديدي الحرص على أن لا نخلق انطباعات خاطئة بالموافقة على جدول أعمال غير ملائم. ولأننا كنا الأضعف، كنا أيضاً الأصعب. ذات مرة اتهم ونستون تشرشل الجنرال ديغول بالتصلب، فردّ عليه الزعيم الفرنسي بقوله: «لا بد لي أن أكون متصلبا جداً لأني ضعيف جداً. القوي يمكن ان يعطي من عنده، اما الضعيف فيحتاج ان يأخذ من غيره». ذلك كان ينطبق علينا كل الانطباق. لم يكن بلدنا محتلاً مدمراً من حرب داخلية طويلة، وواقعا تحت الاحتلال الاسرائيلي فحسب، بل كان علينا أيضا أن نحسب حساب منطقتنا العربية ومواقف الدول المختلفة فيها. ومن يفاوض اسرائيل يأخذ بالاعتبار العالم العربي كله. واذا نجحنا فقد نتهم بأننا أعطينا أكثر مما يجب؛ وإن فشلنا، سنتهم بأننا أبقينا اسرائيل في عمق لبنان. ومن يحدد النجاح؟

النجاح مفهوم محدّد بالزمان والمكان، خاضع للعديد من الرؤى. هل التفاوض مع العدو هو الأفضل، أم محاولة المقاومة بالقوة؟ هل المصلحة الوطنية اللبنانية في قضايا الحرب والسلام مصلحة ذاتية منفصلة عن مصالح سوريا، والاردن، ومصر، والعربية السعودية والبلدان الاخرى في المنطقة؟ ثم: إذا ما كانت منفصلة، فهل تكمن معالجتها بذاتها دون اشراك الدول الاخرى؟ جميع هذه الأسئلة فرضت نفسها منذ أن بدأنا الحوار الصعب حول جدول الأعمال. ومنذ الاجتماع الثلاثي الاول في ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢، حتى منتصف كانون الثاني/ يناير١٩٨٣، كنا منهمكين بصياغة جدول الأعمال، وبالاطار القانوني الذي ستجري فيه المباحثات. كنا نصر على أن العلاقات باسرائيل محكومة باتفاقية الهدنة العامة الاسرائيلية اللبنانية في ٢٣ آذار/ مارس ١٩٤٩.

كانت الاتفاقية تكفل «حقوق كل طرف بأمنه وحريته من الخوف من الهجوم عليه بواسطة القوات المسلحة للطرف الآخر...» ثم ان تنفيذ الاتفاقية خاضع لاشراف لجنة الهدنة الاسرائيلية اللبنانية المختلطة، وهي مؤلفة من خمسة اعضاء برئاسة رئيس اركان منظمة مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة. ثم ان اتفاقية الهدنة تبقى نافذة المفعول حتى «انجاز تسوية سلمية بين الطرفين». كذلك ذكرت المادة الثامنة أنّ للطرفين، «بموافقة متبادلة، حق اعادة النظر بالاتفاقية أو بأي شرط من شروطها...» كان هدفنا من المباحثات الثلاثية تعديل اتفاقية الهدنة. أو اعادة النظر في ترتيباتها المتعلقة بالأمن. غير أن إسرائيل كانت ترى أن اتفاقية الهدنة اتفاقية لاغية، وأرادت أن تستبدل بها مُعاهدة سلام بعد حرب ١٩٦٧؛ لقد زعمت اسرائيل ان لبنان أعلن الحرب عليها، وأصرت لذلك بأن اتفاقية الهدنة أصبحت ميتة. ولكن لبنان لم يعلن الحرب على إسرائيل سنة ١٩٦٧. وبرغم ذلك، فقد سعى المفاوضون الاسرائيليون باصرار على تضمين جدول الأعمال موضوع تطبيع العلاقات بين بلدينا. وأخيرا اتفق الجانبان على البنود التالية لجدول الأعمال:

انهاء حالة الحرب؛ الترتيبات الأمنية؛ اطار العلاقات المتبادلة، وقف الدعاية المعادية؛ تبادل السلع والمنتوجات؛ تحرك الأشخاص؛ الاتصالات الخ؛ برنامج الانسحاب الاسرائيلي؛ الضمانات المستقبلية.

وفيما جاءت بنود جدول الأعمال تعكس اهتمامات الأطراف الثلاثة، لبنان وإسرائيل، والولايات المتحدة، فان الوفود إلى المباحثات اتفقت على مناقشتها بانفتاح وبدون أي التزام مسبق بأي بند من البنود، على أنه كان لكل فريق بالطبع موقفه من هذه البنود - أيَّها يقبل، أيها يرفض، أيها يؤجل للمستقبل البعيد؟

أساليب التفاوض

• كان من شأن هذه الصيغة أن أعطت كل وفد مرونة كافية لمناقشة أي موضوع في جدول الأعمال «بدون أي التزام مسبق». وفي وقت لاحق قدم الفريق الاسرائيلي جدول الموضوعات وفقاً للترتيب التالي: تطبيع العلاقات؛

الترتيبات الأمنية؛

ظروف انسحاب القوات الاسرائيلية.

اما جدول الأعمال اللبناني فأورد البنود على الشكل التالي:

جدولة الانسحابات؛

الاجراءات الفورية التي تتعلق بالانسحابات؛

الترتيبات الأمنية؛

اطار العلاقات العام؛

تحديد دور الولايات المتحدة.

وكانت النقطة الأساسية تطبيع العلاقات، ومن شأنها في الواقع استبدال اتفاقية الهدنة، بمعاهدة سلام. رفضنا مفهوم تطبيع العلاقات وجميع الصيغ والأشكال التي تقاربه.

وكثيرا ما كنت أتضايق من أعضاء في وفدنا يتصلون بي هاتفياً من كريات شمونا ليستوضحوا:

هل يقبل لبنان عبارةً كان من المفروض ان يرفضوها بأنفسهم على الفور.

وعلى سبيل المثال، اتصل بي فتال في ٢٠ كانون الثاني/يناير لمعرفة رأيي في صياغة المقترح الاسرائيلي التالي: «ريثما يصار إلى انشاء علاقات دبلوماسية بين لبنان واسرائيل، يجري تشكيل لجان ارتباط بين البلدين، ويتمتع اعضاء هذه اللجان بالحصانة الدبلوماسية». كان القسم الأول من العبارة بمثابة الاعتراف الدبلوماسي باسرائيل، فيما جاء القسم الثاني منها يؤكده. ومنذ اندلاع الحرب ساءت الاتصالات الهاتفية داخل لبنان إلى حد بعيد؛ ثم انها كانت أسوأ من ذلك بين لبنان واسرائيل. ولعل ذلك سبب صراخي عند اعطاء الجواب، أولاً لكي يسمع السفير فتال ثم لتهدئة غضبي الشديد وقلت: «هذا غير مقبول اطلاقا؛ أنت تعرف ذلك. لماذا تتصل بي؟ إنك، بذلك، تعطي الاسرائيليين، الذين يصغون إلينا ولا ريب، انطباعا بأن هذا الموضوع خاضع للمفاوضة. يبدو أنك متعب، وبحاجة إلى راحة. انني أنتظرك هذا المساء في المنزل.»

وفي مناسبة اخرى جرى الاتصال بي بشأن صياغة لغوية، كان تفسيرها مشحونا بالاحتمالات. كانت الصياغة الاسرائيلية انه «نظراً للعلاقات النامية بين البلدين، ينمي لبنان واسرائيل علاقات ايجابية. بما في ذلك وقف الدعاية المعادية». هنا ذكّرت الشخص الذي يتصل بي أننا كنا، أنا وهو، نتناول العشاء في مطعم «لوس» منذ فترة وجيزة؛ وكلمة «لوس» تعني بالفرنسية «العظم» أي المجرد، أي أقل شيء ممكن وان كلامك يجب أن يكون مختصراً، وما معنى التوسع بلغةٍ لا فائدة فيها للبنان، ولا فائدة حتى بالاستيضاح بشأنها لأنها بالأساس غير مقبولة. «أي علاقات نامية؟» صرخت عبر الهاتف: «أي علاقات ايجابية؟» عن أي شيء تتحدث؟ هل تعمل لاخراج جيش ام لادخال جيش»؟

ولا ريب أن «الإلفة»، التي تنشأ بنتيجة الاجتماعات المتكررة بين الفرقاء المتفاوضين، يمكن ان تطمس المواقف، وان تؤدي إلى بعض سوء الفهم بين الذين يفاوضون مباشرة وأولئك الذين يتخذون القرار في العاصمة. حذرت فريقنا من المخاطر التي قد تنشأ من الالفة مع الجانب الآخر. عليهم أن يتقيدوا بالتعليمات الحكومية، وان الكلمات، التي تقال مزاحا على كوب قهوة، قد تجد طريقها إلى المحاضر والمذكرات وإلى التأثير على الوضع السياسي برمته. وطلبت منهم ان تكون كل مواقفهم التفاوضية خاضعة للتشاور معنا قبل أن تصبح موقفا رسميا.

وما أن بدأت المباحثات حتى كان علينا أن نواجه تفاصيل لا نهاية لها. وما كنا نحسب أننا انتهينا من ورقة شارون، حتى كانت بعض شروطها تظهر هنا وهناك في المباحثات. ومثالا على ذلك، وفي اطار موضوع الترتيبات الامنية، أبلغنا فيليب حبيب أن الاسرائيليين يريدون ثلاث محطات للانذار المبكر على الأراضي اللبنانية: في النبطية، والباروك، وعلى رابية إلى الشمال الشرقي من صيدا. وكانت اسرائيل تفكر بمرابطة ٢٥٠ جنديا اسرائيليا لحماية كل محطة من المحطات الثلاث. وبالاضافة إلى ذلك أرادت التعاون بين الجيش الاسرائيلي والجيش اللبناني في الحفاظ على السلام، في «منطقة أمن» تغطي بوجه عام مساحة تقع إلى الجنوب من خط يمتد من صيدا على الساحل، حتى حاصبيا شرقاً. وتحت عنوان العلاقات

المتبادلة، أراد الاسرائيليون، تطبيع العلاقات. بعد ذلك، حدّق فيليب حبيب برئيس الجمهورية، ثم برئيس الوزارة، ثم بي. وسأل: حسنا، هذا هو الموقف الاسرائيلي، ما رأيكم؟ أجبته على الفور: أنتم تعلمون موقفنا بالنسبة لهذه الأمور، ولوكنا نقبل بهذه الشروط لكنا تفاوضنا مع اسرائيل مباشرة، ولم نكن بحاجة إلى دولة عظمى إلى جانبنا تساعدنا. وعدت فكرّرت موقفنا بالنسبة لهذه المسائل كلها، وأكدت على المخاطر الاقليمية التي تنشأ من الاستخدام الاستراتيجي لمرتفعاتنا من قبل أي دولة اخرى سوانا. ومن الباروك يمكن لاسرائيل أن تراقب جميع التحركات الجوية شرقي البحر الأبيض المتوسط، وأن تكسب تفوقا استراتيجيا اقليميا. نحن لن نقبل بذلك، ولن يقبله جيراننا العرب.

بعد ذلك طلبت من حبيب أن يرافقني، فاستأذنا الرئيس الجميل والرئيس الوزان وانتقلنا الى حديقة القصر. سألته: ما هذا الذي يجري؟ وما هذه الشروط؟ وكيف يمكن لك ان تنقلها إلينا؟ انت تعرف موقفنا جيداً، وبالاخص موقفنا من ورقة شارون. فرد فيليب حبيب بانه لم يكن له اي خيار غير ان يفعل ذلك. انه مفاوض وعليه ان يحمل الرسائل بدقة، ولكنه كان مسروراً لسماع موقفنا، وكان بالطبع يتوقع ان نرفض الموقف الاسرائيلي. على أنه اراد ان يسمعه منا مباشرة بحيث يتمكن من نقله الى الاسرائيليين وان ينطلق من ذلك. وقد جاء ردنا، كما قال، ليوفر له الدعم الذي يحتاج إليه في مباحثاته اللاحقة مع الاسرائيليين. ثم ابلغني انه ذاهب الى العربية السعودية لبحث الامر مع الملك فهد قبل العودة الى اسرائيل للاجتماع ببيغن. بعد ذلك يرجع الى الولايات المتحدة للتشاور مع الرئيس ريغن.

وكان يتبين لي، كلما طالت المباحثات، ان لبنان الموحد السيد المستقل ليس ذا اهمية بالنسبة لاسرائيل، وحين سألت حبيب: هل لبنان الموحد السيد المستقل ذو اهمية عند اميركا؟ اجاب دون تردد «اكيد، والله اكيد». وبرغم الاهتمام الاميركي بلبنان كانت مهمات حبيب في اسرائيل تتزايد صعوبة. من ناحية كان الاسرائيليون ناقمين على الوجود الاميركي في المباحثات وفي اللجان الفرعية المنبثقة عن المباحثات، ولم تكن اسرائيل تريد للاميركيين ان يقفوا بينهم وبين اطماعهم في

لبنان. وأخذ حبيب يلاحظ، في تقاريره من اسرائيل، أن بيغن يتزايد انكماشاً على نفسه. اما شارون، فكان يزداد عدوانية وسلبية. كان حبيب وشارون على طرفي نقيض بالنسبة للبنان؛ وكان حبيب الذي لا يقبل الهزيمة بسهولة مستاء من تصلّب شارون، ويخشى ان يؤدي هذا التصلب بشارون الى إفشال مهمته. وواصل شارون تكثيف اتصالاته بأصدقاء له داخل لبنان، ليضغط من خلالهم على الحكومة كي تكون اكثر طواعية مع الاسرائيليين. وفي كل مرة كنت اقف موقفا سلبيا من اي اقتراح اسرائيلي، كان يأتي اصدقاء شارون، داخل لبنان، إلى بيتي، او الى مكتبي، ويحثونني على اتخاذ موقف اكثر تساهلا من اسرائيل. ولم تكن تهدئتهم تتطلب الكثير من الجهد لانه كان واضحا ان اسرائيل تهدف الى خلق ثغرة في الدرع السياسية للطوائف اللبنانية. كانت رسالة شارون ان المفاوضات ستفشل، وعندها ستفعل اسرائيل ما تريد في لبنان، وحسب مصالحها الوطنية. القصد واضح: اذا لم يوافق لبنان على معاهدة سلام، فليكن الله بعون لبنان. والله لا يتدخل في السياسة. كان اصدقاء اسرائيل في لبنان يأتون الى مقابلتي «سرا»، ويعرضون علي خرائط لبنانات المستقبل اذا لم نتوصل مع اسرائيل الى معاهدة سلام. وكانت هذه اللبنانات تظهر لبنان مقسما الى دويلات صغيرة تابعة لاسرائيل، سيدة الشرق الاوسط الجديدة. وكنت استخف بهذه التهديدات ولكني كنت اتشاور مع سفراء الدول، وعلى الأخص مع سفير الولايات المتحدة الذي كان دائماً يؤكد لي ان هذه التصورات هي من احلام شارون وخياله، وما هي الا اساليب للضغط علينا وبانها لا تمثل تفكيرا اسرائيليا جديا، وان اميركا تعارض بقوة كل هذه التصورات.

كان واضحا، من المباحثات الباكرة في اللجنة الثلاثية، ان الإسرائيليين لا يثقون بقدرة لبنان على السيطرة على اراضيه في الجنوب. مع ذلك فانهم لم يكونوا يقبلون بقيام لبنانٍ قوي لحماية اراضيه في الجنوب، حماية فعالة. وبدلا من «الشريط الامني» الذي ظل الاسرائيليون يعملون له، اقترحت على حبيب ان يتحول لبنان بكامله الى منطقة امنية بتحويل لبنان نفسه الى دولة سيدة قوية تتمتع بدعم اقليمي ودولي، لها جيش قوي يمنع انطلاق اي نشاط معاد من اراضيه ضد اي دولة مجاورة. وعندها تعلن الحكومة اللبنانية حالة طوارىء لمدة ست سنوات لتوطيد

قبضة الجيش اللبناني على كل لبنان، دون أن تخرق بذلك حريات البلاد الاساسية او نظامها الدستوري الديمقراطي. بهذه الطريقة نكون قد وضعنا لبنان في غرفة العناية الفائقة، كما يقال. وكان حبيب مؤيداً لذلك وكان يصغي بعناية ولكنه اكد المرة تلو المرة تصميم اسرائيل على الحصول على اتفاقيةٍ مًّا نتيجة للاجتياح. هنا كان الموقف الاميركي واضحا: وهو انه لا انسحابات بدون ترتيبات أمنية. وفي اوائل شباط/فبراير، بدأنا نتلقى تقارير عن انسحابات اسرائيلية محتملة من منطقة الشوف، وعن احتمال قيام معارك دامية بين الميليشات الدرزية والميليشات المسيحية. ويوم الاحد، السادس من شباط/فبراير ١٩٨٣، صرح جنرال اسرائيلي ان الجيش الاسرائيلي عرض ان ينسحب من عاليه، وان يسلم السلطة هناك للجيش اللبناني. ولكن الجيش اللبناني رفض ذلك. لقد سمع الرئيس الجميل بذلك واتصل بي في الساعة العاشرة ليلا، وطلب مني ان اتصل بدرايبر، وان ابلغه ان الجيش اللبناني مستعد لدخول عاليه غدا، الاثنين، السابع من شباط، الساعة السادسة صباحاً، اذا ما انسحب الجيش الاسرائيلي من عاليه هذا المساء.

تمكنت من الاتصال بدرايبر عند منتصف الليل. واتصل بي درايبر مرتين بعد ذلك ليقول لي انه تعذر عليه الاتصال بالاسرائيليين. وفي محادثتنا الهاتفية الثالثة عند الساعة الثالثة صباحا، ابلغني درايبر انه اتصل بوزير الخارجية شامير، وان شامير قال له ان الجيش الاسرائيلي لا ينوي ان ينسحب من عاليه في الوقت الحاضر. كررت سياسة لبنان الثابتة: وهي ان الجيش اللبناني على استعداد لدخول أي جزء من لبنان تنسحب منه القوات الاسرائيلية، وأن الحكومة اللبنانية قلقة من الاقتتال الحزبي والطائفي في المناطق الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي، وذلك لان المشاعر الطائفية قابلة للاثارة من قبل المحتل لاسيما اثناء انسحابه.

ان اللعبة التي يلعبها الاسرائيليون لعبة واضحة. ان التهديد بالاقتتال الطائفي في المناطق التي يحتلونها سلاح فعال في فرض التنازلات على المفاوضين اللبنانيين. كان الاسرائيليون يريدون انتزاع تطبيع العلاقات منا: كانوا يلجأون الى الابتزاز لتامين الاتفاقية. ولكن موقفنا بقي ثابتاً بالنسبة لتطبيع العلاقات. أثرت هذه القضية

في ١٤ شباط / فبراير، في اجتماعي بالسفراء الاجانب المعتمدين في لبنان. قلت: ان اسرائيل تصر على العلاقات الطبيعية معنا. غير اننا لسنا في حالة طبيعية لاقامة علاقات طبيعية مع اسرائيل. لا بد للقضية ان تنتظر التطورات الاقليمية. نحن على استعداد للبحث في انهاء الاعلام الرسمي المعادي، وان ننتقل من عصر الشعارات الى عصر العقل. نحن على استعداد للاتفاق على تنفيذ الشروط الانسانية في اتفاقية الهدنة. لكننا لا نستطيع، وحدنا، ان نُطَبِّع العلاقات مع اسرائيل. لبنان ليس مصر. لبنان لا يحتمل قطع روابطه التاريخية مع عشرين دولة عربية لاقامة روابط مع دولة واحدة هي اسرائيل. وهو لا يستطيع ان يخسر سوقه التصديرية الى البلدان العربية، وهي تمثل نحو ٩٠٪ من مجموعها، ليكسب سوقا اسرائيلية محدودة. موضوع تطبيع العلاقات بالنسبة لنا موضوع كياني، انه يهدد وحدتنا الوطنية، وعلاقاتنا بالعرب، ووجودنا بالذات.

في هذه الاثناء ظل التقدم في المباحثات الثلاثية بطيئا. ثم ان المحادثات ظلت تغرق في التفاصيل. وظل حبيب يأمل في الوصول الى اتفاقية في نهاية شباط/فبراير. غير ان المشاكل كانت تتراكم باستمرار. كان العسكريون الاسرائيليون في الفريق المفاوض يريدون انتشار الجنود الاسرائيليين في الاراضي اللبنانية يومياً لضمان الامن في الجنوب. وحين علم رئيس الحكومة الوزان بذلك قال لي: الدوريات اليومية تعني بقاء الجنود ليلاً: والبقاء ليلا يعني ان الجنود يأتون بزوجاتهم، ثم ان الزوجات يأتين باولادهن؛ وسرعان ما تنتصب الخيام هنا وهناك، بعد ذلك، ثم تبنى المستعمرات، ثم، ثم... وافقته على ما قال. ليس الوجود الدائم خرقا لسيادتنا فحسب، بل اعتراف باننا لا نستطيع ادارة شؤوننا بدون الاعتماد المستمر على اسرائيل. وهو اعتراف يدخل اسرائيل الى بلادنا ويغير معالم البلاد السياسية والاجتماعية.

وفي الرابع من آذار/مارس، اجتمع درايبر بتويني وبي، وعرض لنا الموقف الاسرائيلي الاخير، وقال: اسرائيل تريد ما يلي: ينبغي السماح لسعد حداد ان يقود لواء الجيش اللبناني في المنطقة الامنية؛ ينبغي القيام بمناورات مشتركة بين الجيش اللبناني والجيش الاسرائيلي في المنطقة الامنية؛ ينبغي اعتبار قمة جبل الباروك

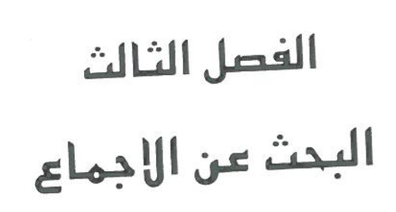
ضرورة هامة للامن الاسرائيلي؛ ينبغي اتخاذ خطوات ملموسة في مجال تطبيع العلاقات المتبادلة. مرة اخرى كان موقفنا سلبياً بالنسبة لهذه النقاط كلها. وكان درايبر متفهماً لموقفنا. المشكلة بيننا وبين اسرائيل هي، كما قال، مشكلة نفسانية، ومشكلة ثقة. وحثنا على ان نفكر بكلمات، ومفاهيم، او بلغة تخفف من مخاوف اسرائيل.

لم يسعني الا ان اسأل درايبر: «ماذا بالنسبة للغة تقضي على المخاوف اللبنانية؟ منذ بدء الاحتلال الاسرائيلي، اخذت بعض السلع الاسرائيلية تدخل لبنان؛ لقد فتحت اسرائيل حدودها مع لبنان، وهي تريد ابقاءها مفتوحة. وبنتيجة ذلك اخذت العربية السعودية والاردن، وهما اكثر الدول العربية اعتدالا وميلا الى اميركا، تقاطع البضائع اللبنانية على اعتبار ان بعضها اسرائيلي الصنع. واذا كان ذلك موقف الدول المعتدلة، فكيف تتوقع الولايات المتحدة ان يكون موقف الدول العربية المتطرفة؟»

الواضح ان الولايات المتحدة كانت تبذل جهدها، ولكنه لم يكن كافيا، كما توقعت هي، ولا كان ما كنّا ننتظره منها. كنا نفكر باننا سنتوصل الى اتفاق الا انه لن يكون بالضرورة مرضيا لكل الاطراف المعنية، وهو لذلك سيترك الجرح مفتوحا. لم يكن لدينا اي خيار مقبول الا انتهاج المباحثات الثلاثية او مواجهة الاحتلال الاسرائيلي وحدنا، مع كل ما يتأتى من حقائق ووقائع، من جراء استمراره.



إيلي سالم في جلسة ضمت: الرئيس أمين الجميل، الرئيس الوزان، وزير الخارجية الأميركية جورج شولتز، السفير فيليب حبيب.



الفصل الثالث

البحث عن الاجماع



الاتصالات العربية

فيما كنا نجري مفاوضات مع اسرائيل، سنة ١٩٨٢، وسنة ١٩٨٣، كنا، في الحكومة اللبنانية، نسعى لتامين الدعم العربي لجهودنا. لقد كان التأييد العربي العام ضروريا لأن اسرائيل قضية عربية، ولأن لأيّ تعامل معها مضامين عربية واسعة. وإذا كانت بعض الدول العربية بعيدة، من حيث الجغرافية والمخاوف، عن جغرافية الشرق العربي ومخاوفه، فان ذلك لم يكن ليؤثر اطلاقاً في مواقف الدول البعيدة، وعلى سبيل المثال: الجزائر وليبيا واليمن، وهي دول بعيدة عن اسرائيل، ولكن المشكلة الاسرائيلية العربية هي من صميم اهتمامات تلك الدول. لذلك صممنا، منذ البداية، ان نتشاور مع اكبر عدد ممكن من القادة العرب، وتمسكنا بابقائهم على اطلاع على سير المباحثات الثلاثية، والحصول على نصحهم ودعمهم لجهودنا.

قبل فترة التفاوض مع الإسرائيليين، واثناءها، نهجتُ خطة دعوة السفراء العرب الى اجتماعات دورية في وزارة الخارجية. وفي اجتماعنا الاول، قلت لهم: انني أنوي التشاور معهم بخصوص المباحثات، وأن اعطيهم كل المعلومات التي لدي، وكانوا يدونون كل كلمة اقولها لهم، ويتجنبون المناقشة، ويترددون في اتخاذ المواقف خشية ان يؤدي ذلك الى صراع مع السفراء والآخرين. وكثيراً ما جاءت مواقفهم المعلنة فارغة من اي محتوى. وإذا كانوا قد برعوا في مهاجمة اسرائيل، وهذا موضوع قابل، فانني لا اعتقد انني استطعت استخلاص اية فكرة نافعة من هذه الاجتماعات. على انني، برغم ذلك، واصلت عقد هذه الجلسات حتى توقيع اتفاقية ١٧ أيار/مايو.

وهنالك في العالم العربي، دول يشعر الرئيس الجميل حيالها بارتياح. هذه هي الدول العربية المحافظة والمعتدلة، امثال المغرب، وتونس، والعربية السعودية، ومصر، والاردن. ومن البداية، كان الرئيس يريد تطوير العلاقات الوثيقة مع هذه

الدول، وتأمين دعمها لمفاوضات الانسحاب مع اسرائيل. ثم ان لهذه الدول علاقات جيدة مع الولايات المتحدة، الشريك الكامل في هذه المفاوضات؛ وقد كنا بحاجة الى دعم الدول العربية المعتدلة لجهودنا، والى مساعدتها لنا لدى الولايات المتحدة.

وفي مستهل تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢، قمنا، أنا ورئيس الجمهورية، بزيارة الى المغرب. وكنا موفقين بوجود السفير عادل اسماعيل الضليع بسياسة المغرب. والواقع انه اندمج كليا في الحياة المغربية بحيث تحولت لهجته اللبنانية الى لهجة مغربية على الاقل عند التكلم مع القادة المغاربة.

وعلى المطار، استقبلنا ولي العهد الامير محمد، ولدى وصولنا الى قصر الضيافة تقدم منا نحو عشرة خدم مزركشي الملابس، يحمل كل واحد منهم صينية كبيرة عليها صحون التمر واكواب الحليب، وهو تقليد ذو مغزى يعود بعيدا الى تاريخ بدو الصحراء، الذين انتقلوا عبر شمالي افريقيا يحملون معهم رسالة الاسلام.

والملك الحسن الثاني، من حيث شخصه ومنصبه مزيج من خليفة راشدي ورئيس عصري؛ جميع كبار الموظفين في المغرب يتقيدون بالمراسم الخلافية القديمة، ويقتربون من الملك محنيّي الرؤوس، يقبلون يده او طرف كمه الايمن، وفقا لرتبتهم الاجتماعية. ومن ناحية اخرى مناقضة لذلك، كان الملك يستقبل ضيوفه الأجانب باقل ما يمكن من المراسم والتكلف. لقد عانق الرئيس وتبادل معه القبل. أما أنا، فقد صافحته بحرارة مفترضاً أن المراسم لا تفرض علي معانقته لأنني لست رئيس دولة.

اجتمعت بوزير خارجية المغرب، محمد بوستّة ووجدته بليغاً، ذكياً، وصريحاً. واستغل الاجتماع لانتقاد الوفد اللبناني في القمة العربية التي عقدت في فاس في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، وقبل تأليف حكومتنا، ملاحظاً أَنَّ الوفد لم يكن موفقا. واتهم رئيس وفدنا بانه كان متساهلا، وسمح باتخاذ قرار ضعيف بخصوص لبنان. على انه كان يأمل خيرا بالدعم الاميركي للبنان. وحثنا على اقامة علاقات طيبة مع واشنطن، واعرب عن شعوره بان منظمة التحرير الفلسطينية ستدعم

جهودنا وتسحب مقاتليها الستة آلاف الباقين من لبنان، وتوزعهم بين الاردن ومصر. وكان الرئيس ريغن قد اعلن مبادرته للسلام في الشرق الاوسط في ايلول/سبتمبر ١٩٨٢. وتناولت المبادرة الاسرائيليين والفلسطنيين واللبنانيين ونزع الفتيل من القضية الفلسطينية، واستقرار لبنان، ومقايضة الارض بالسلام. كان بوستة يثق بريغن وبمبادرته الشرق اوسطية، ثم وجه الينا بعض النصح حول كيفية التعامل مع سوريا، وهي بكل وضوح اهم دولة عربية بالنسبة للبنان في مفاوضاته مع اسرائيل.

المشكلة مع الرئيس الاسد، كما قال، مشكلة نفسية. هو لا يريد مساواته بالاسرائيليين. وقد يود عقد ترتيبات واتفاقات خاصة مع لبنان. لم يكن يعرف ما يدور برأس الاسد، ولكنه افترض ان هذه الترتيبات ستكون في مجال الامن، وهو الموضوع الأهم عند الرئيس الاسد، قلت له انني لا اعتقد ان لدينا مشكلة في هذا الخصوص. واضاف بوستة ان الوسيلة الوحيدة لاخراج الاسرائيليين هي التفاوض معهم عبر الاميركيين. ثم تابع يقول: انتم لا تعقدون سلاماً في الوقت الحاضر. كلنا نتجه نحو السلام على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢، حتى ولو كان لا بد من ادخال تعديلات عليه بالنسبة لحدود غزّة والضفة الغربية لاعتبارات أمنية. كما أكّد الملك للرئيس الجميل دعمه المستمر لابقاء ريغن مهتما بالأمر، ولتلطيف موقف العرب المتطرفين حتى يقبلوا جهود لبنان الدبلوماسية، لاخراج اسرائيل من عاصمة عربية بدون عقد معاهدة سلام.

أُحسّ أننا، اذا استطعنا ان نحقق ذلك، فان عملنا سيكون انجازا يعتز به المعتدلون والمتطرفون على السواء. ثم طلب الملك ان يبقى على اطلاع مستمر على تطور المباحثات الثلاثية، ودعانا الى تجنيده للقيام بمهام خاصة مع القادة العرب عندما تدعو الضرورة لذلك.

وفي الوقت الذي كان الرئيس الجميل يعوّل على الملك الحسن الثاني، كان يعوّل اكثر على خادم الحرمين الشريفين الملك فهد الذي اصبح، بفضل موقعه، الوسيط

الموثوق في الاشكالات العربية المتراكمة، واصبحت الرياض، بسبب التحولات الاقتصادية والاستراتيجية، المحور العربي الذي يلجأ اليه كل القادة العرب عند اختلاف وجهات النظر. لقد كانت حكومتنا، منذ البداية، حريصة على اشراك السعودية بجهودنا الجارية لتامين انسحاب اسرائيل من لبنان، وذلك من خلال تشجيعها للاميركيين، والضغط على اسرائيل وتلطيف المواقف العربية المعارضة.

كذلك للملك فهد علاقات خاصة مع معظم قادة العالم العربي، ومع الكثيرين من قادة الغرب، لاسيما مع الرئيس رونالد ريغن. وقد دعم الملك الجهود اللبنانية بسخاء. وبواسطة مبعوثه السيد رفيق الحريري كان الملك معنيا بالشؤون اللبنانية، وبالأخص على صعيد انساني. فكان من الطبيعي ان نتشاور معه قبل بدء المباحثات مع اسرائيل. ووصلنا، أنا ورئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، مصحوبين بوفد كبير الى الرياض في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢.

كيف استطاعت هذه المملكة الصحراوية، التي كانت منطقة منسية على اطراف الامبراطورية العثمانية، أن تبلغ مثل هذا التفوق الذي حققته في الشؤون العربية والعالمية؟ ذلك بالفعل انجاز كبير: إن توحيد قبائل شبه الجزيرة العربية، في ظل آل سعود، واكتشاف النفط، واستقرار العائلة المالكة ومؤسسات الدولة، اسهمت كلها في نشأة العربية السعودية كدولة رائدة في الشؤون العربية، وكقوة حاسمة في الاسواق المالية العالمية. حين كان جمال عبد الناصر، اواخر الخمسينات وخلال الستينات، يسيطر على المنطقة، لم تكن اية عاصمة عربية تجرؤ على تحدي سيطرة القاهرة. وكانت القاهرة تهاجم أنظمة الحكم المحافظة في الخليج باعتبارها رجعية ومناصرة للاميركيين. وبوفاة عبد الناصر سنة ١٩٧٠، وقيام معاهدة سلام بين مصر واسرائيل، تقلص دور القاهرة عربيا، وراحت العواصم العربية المتنافسة تؤدي الدور الوحدوي التي كانت تؤديه القاهرة. هنا برزت دمشق بمفهومها القومي العربي البعثي، وكذلك بغداد.

على ان العاصمة التي برزت ببطء، وبدون ضجيج، كمركز اهتمام اقليمي وعالمي، كانت الرياض. إنها العاصمة التي دعمت العرب بواسطة سلاح النفط سنة

١٩٧٣. وحيث لجأت الدول للقوة من اجل تحقيق التغيير، كان السعوديون، ولا يزالون، يفضلون سياسة الاقناع. وهم لا يملكون النزعة، ولا العدد السكاني للتحوّل الى قوة عسكرية في المنطقة. لكنهم يملكون الأموال لدعم موقفهم الدبلوماسي. ويمكن القول ان ضعفهم بالذات هو قوتهم. السعوديون لا يعملون بضجيج؛ هم لا يتنقلون في العالم العربي بحثاً عن مشاكل يحلونها. على العكس من ذلك، فان المشاكل هي التي تأتي اليهم سعيا وراء الحل. العربية السعودية هي التي تزعمت تشكيل مجلس التعاون الخليجي، في اطار جامعة الدول العربية. وبذلك نجحت في أن تجمع، بإشرافها، اغنى منطقة نفطية في العالم. على ان الدولة السعودية كانت قبل كل شيء، نتيجة تحالف بين الحركة الوهابية وآل سعود، بين رؤيا اسلامية إحيائية وعائلة قوية، بين ايديولوجية دينية وسلطة زمنية.

ولدى وصولنا الى الرياض، أطلع الرئيس الملك فهد على قرار لبنان أن يفاوض اسرائيل عبر صيغة ثلاثية. وبرغم أن الملك يولّد الانطباع بانه متحفظ وبعيد، فانه في الواقع انسان حار، ومحدث موهوب، وصاحب حس مرهف، هو حاد الملاحظة للناس والاحداث، صريح في حديثه عن الناس والاحداث، نابض بالحياة. تذكر ايامه الحلوة في لبنان اوائل الخمسينات، ووصف ببلاغة الجمال الفريد الذي منحه الخالق جبال لبنان واوديته.

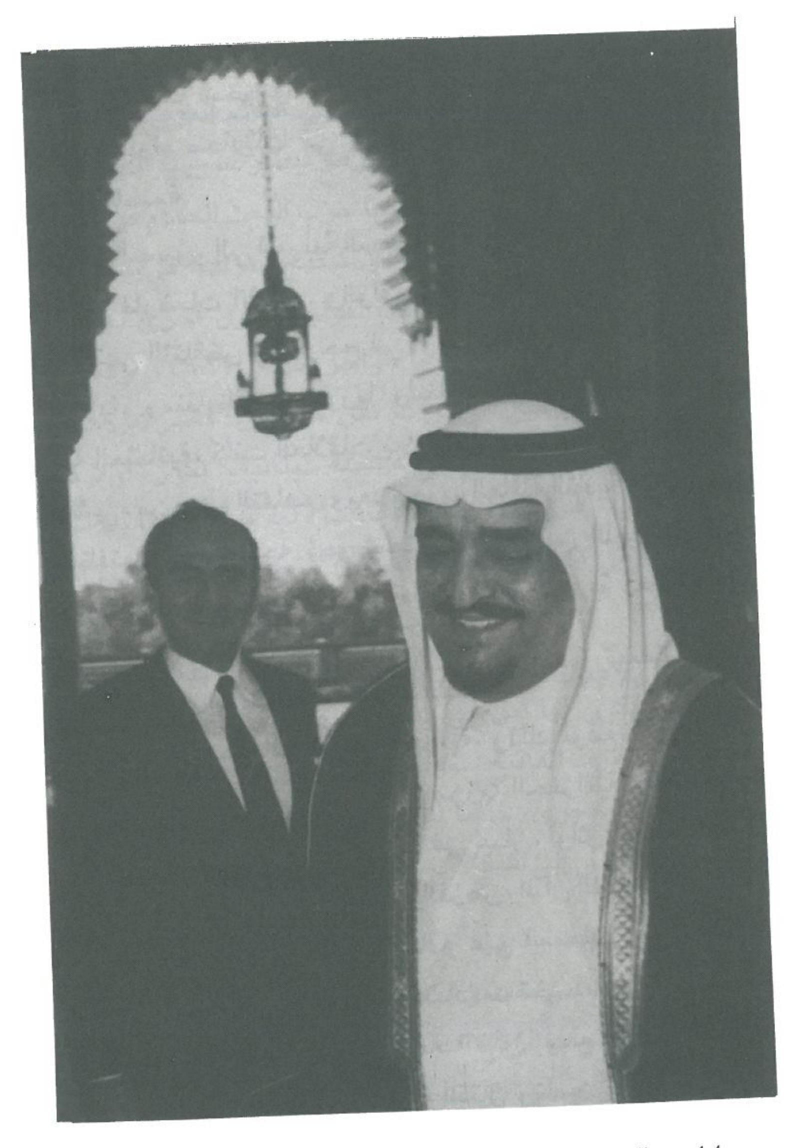
وقال الملك ان سياسة السعودية نحو لبنان هي تأمين انسحاب اسرائيل، ومساعدة الحكومة في اعمار لبنان، وأن العربية السعودية ستبذل ما في وسعها، على المستويين الاقليمي والدولي معا، لتحقيق هذين الهدفين. وأكدّ لنا انه ينبغي للبنان ان يمارس ارادته بحرية. وقال: ينبغي الحفاظ على استقلال لبنان، وأمنه وفرادة نظامه السياسي. وقال ان اسرائيل هي العدو، وهي تمثل تحديا كبيرا للعرب. كذلك اكّد الملك لنا أن العربية السعودية ستتعاون مع الاميركيين والدول العربية لمساعدتنا ولضمان انسحاب اسرائيل من ارضنا. قال الملك متابعاً: هنالك ما هو من صالح لبنان، وهنالك ما هو من صالح العرب، والواحد منهما يعزز الآخر. وفي جهودنا، لمساعدتكم، سنحاول أن نفهم المنظور اللبناني، وسوف نعمل لتعزيزه.

وحين يأتي دور اعمار لبنان سنكون اول المساهمين فيه. على اننا سنواصل مساعداتنا على الصعيد الانساني دون انقطاع.

وخلال الزيارة سنحت لي الفرصة كي التقي عدداً من المسؤولين السعوديين الآخرين الذين قدّموا، في وقت لاحق، مساعدة كبيرة في مباحثاتنا مع العرب والاميركيين على السواء. لقد تحدثت بصورة خاصة الى وزير الخارجية السعودي، الامير سعود الفيصل، ووطدنا بسرعة ثقة متبادلة كانت ضرورية لعلاقاتنا في المستقبل. وبما ان سعود درس في جامعة برنستون، فيما درست أنا في جامعة جونز هوبكنز، فاننا لم نكن نتابع برنامجاً جامعياً واحداً فحسب، بل كان لنا أصدقاء مشتركون كثيرون من ايام الدراسة. وفي معاملاتي المكثفة مع سعود، وجدته واضحا في الصورة السياسية الكبرى، دقيقا في التفاصيل، كما تعرفت على تركي الذي يُعنى بشؤون المملكة الامنية وهو، كأخيه سعود، رجل مثقف، دقيق، يتحلى بخصائل العرب وبمزايا الفكر العربي الحديث.

والشخصية الرابعة في الهرم السعودي، التي دعمت جهودنا، هي الأمير بندر ابن سلطان الذي كان في اواخر سنة ١٩٨٢ الملحق العسكري السعودي في واشنطن، ثم اصبح تباعا سفيراً للمملكة هناك. وبندر هو ابن سلطان بن عبد العزيز، وزير الدفاع، وحفيد الملك عبد العزيز، مؤسس المملكة. وقد تدرب بندر كطيار مقاتل في الولايات المتحدة. وبصفته أحد أفراد العائلة المالكة، كان بندر اكثر بكثير من ملحق عسكري في واشنطن. كان في الواقع مسؤولا عن جميع المسائل الحساسة بين العربية السعودية والولايات المتحدة، وكان من اقرب المقربين الى المسؤولين الكبار في واشنطن.

وفي زيارتي الاولى الى واشنطن، اخبرني بندر انه تلقى تعليمات من الملك فهد لمساعدتنا لدى الادارة الاميركية. وعقدنا اجتماعاً طويلاً كان بمثابة تعريف له بالازمة اللبنانية. وطبيعي ان يعتبر الوضع في لبنان بالغ التعقيد، بالغ التحدي معاً. وقدّم لي بندر، بدوره، نصحا عمليا حول كيفية التعامل مع الأعضاء البارزين في ادارة ريغن. وكانت معرفته بهم معرفة عميقة وحميمة في آن. وبنفوذه الواسع في



إيلي سالم مع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

البيت الأبيض، والكونغرس، ووزارة الخارجية والبنتاغون، لم يكن عونا للبنان فقط، بل عوناً للقضية العربية في عاصمة ينشط فيه اللوبي الصهيوني المعادي للعرب. ونادرا ما نجد له نظيراً في العواصم الغربية. بندر وحده فقط، وخلال يوم واحد، يستطيع ان يجمع شخصيات بارزة في واشنطن، بمن فيهم وزير الخارجية جورج شولتز لاجراء محادثات في العمق، بشأن المسألة اللبنانية، في قصره الوسيع وسط العاصمة.

ولم يكن مد الجسور إلى العربية السعودية، في كل حال، هو التحدي الرئيسي لنا في مراحل المفاوضات الأولى. والواقع أن البلد العربي الذي كانت للبنان به علاقات في منتهى التناقض والتأرجح في أواخر سنة ١٩٨٢، وفي سنة ١٩٨٣، إنما هو سوريا. ومنذ ظهور سوريا ولبنان كدولتين مستقلتين، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية، كانت العلاقات بين الدولتين تراوح بين التقارب والتباعد، ويتحكم بها شيء من سوء التفاهم. وبعد الحرب العالمية الثانية، اتجه لبنان وسوريا وجهتين مختلفتين: لبنان اتجه نحو سمته الخاصة من الليبرالية الديموقراطية المركنتيلية، فيما اتجهت سوريا نحو القومية العربية الثورية معبئة قواها البشرية والمادية للتصدي للتهديد الاسرائيلي.

وحين تسلّم الرئيس حافظ الأسد السلطة سنة ١٩٧٠، أخذ يولي سوريا الجغرافية الأولوية في تطلعاته القومية العربية، وذلك لموقع سوريا الاستراتيجي فيها، ولقيام دولة اسرائيل في منتصف سوريا الجغرافية، فاصلة، بين الشرق العربي والمغرب العربي. وكانت التطورات في لبنان، أوائل السبعينات، ذات أهمية خاصة للنظام السوري من حيث المخاطر والفرص، اذ ان الفوضى في لبنان تنعكس سلبا على سوريا. ومَن، غير سوريا، قادر على استعادة التوازن في هذا البلد التعددي، وتأمين الاستقرار فيه، وفرض معادلات تخدم سوريا، وتحد من التغلغل الاسرائيلي في النسيج اللبناني. وفي سنة ١٩٧٦، ومع اشتداد القتال في لبنان، دخلت القوات السورية إلى لبنان لاحتواء القتال وتأمين توازن القوى في البلاد. وكان للأسد، بالاضافة إلى ذلك، هدفان اقليميان، الأول هو: التأكيد على ان الحرب في لبنان لا تجاوز حدوده ولا تفرض على سوريا مواجهات جانبية؛ والثاني هو

توسيع النفوذ السوري وتعميقه في الشرق الأوسط من خلال معالجة المعادلات داخل لبنان.

وإلى جانب ذلك، كان هنالك، ولا يزال، عامل آخر يحرك سوريا باتجاه لبنان. لقد طالب الرئيس الأسد بدور بارز لدمشق، لا في العالم العربي وحسب، بل في سوريا تاريخية الجغرافية بصورة خاصة، وهو يعتبر سوريا الجغرافية المدماك الأهم في بناء الوحدة العربية التي يهدف إليها حزب البعث الحاكم في دمشق. ومن هذا المنطلق، لا يمكن لسوريا ان تُعزل، أو ان تسمح بعزلها، في معالجة القضايا الاقليمية، ولا يمكن ان تُعَرِّض موقفها هذا لقرارات دول أخرى. وكان واضحاً احتمال قيام توتر بين لبنان وسوريا أواخر سنة ١٩٨٢، ونحن نفاوض الاسرائيليين بمشاركة الاميركيين. ولكن لم نكن مخيرين: فاسرائيل موجودة في قلب العاصمة، والمشكلة بالنسبة لنا كانت مشكلة «لبنانية»: نكون، أولا نكون. ولا يجوز أن نلقي هذا العبء على دولة شقيقة. فالمسؤولية مسؤوليتنا بالأساس، ولم نرد أن نقحم سوريا في مفاوضات مع اسرائيل وتعدل بذلك موقفها المبدئي من المفاوضات. وكنا نشعر، سواء كنا على حق أو على خطأ، بأنه ليس من الضروري إشراك سوريا قبل تحقيق تقدم ملحوظ في المفاوضات. كذلك كنا نعلم أن أية اتفاقية تعارضها سوريا لن يكون لها أمل في النجاح. وفيما كنا نفاوض اسرائيل كانت عيننا على دمشق، وكنا نريد اتفاقية مقبولة سورياً. المباحثات مع السوريين لازمة، لا لابقائهم على علم بما يجري، وانما للتوصل كذلك إلى اتفاقات حول عدد من القضايا التي أدت في الماضي إلى اشكالات بين الدولتين الشقيقتين.

في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٨٢، ترأس رئيس الجمهورية اجتماعاً اشتركنا فيه أنا والجنرال عباس حمدان، والجنرال سامي الخطيب، وغسان تويني، وجان عبيد: الخطيب قائد قوات الردع العربية وصديق مقرب من القيادة السورية، وعبيد صحفي لبناني بارز صديق للرئيس الجميل، وصديق للرئيس الأسد والذين يحيطون به. لقد أراد الرئيس من عبيد أن يكون مبعوثه الخاص إلى سوريا. وبصفته صديقا للجميل والأسد، كان اختياره موفقا. كان عبيد واضحا، ذكياً، سريع الخاطر

ويتحلى بطرافة نادرة، كما كان صديقا لجميع القيادات في شتى جوانب النزاع اللبناني، وكانت آراؤه بالنسبة للبنان نابعة من خبرته ومن فلسفة خاصة به. فهو ماروني أصيل في لبنانيته ولكنه كذلك صاحب نظرة عربية واسعة. وبكون الخطيب وعبيد إلى جانبه أمل الرئيس أن يبدأ حواراً ايجابياً مع سوريا.

بعد هذا الاجتماع المطول اجتمعنا أنا وعبيد، في منزلي، واتفقنا على ان يقصد دمشق بعد أيام قليلة لوضع السوريين في أجواء المبادئ العامة التي التزمناها في المفاوضات. وذهب عبيد إلى دمشق يحمل عموميات، وعاد منها يحمل عموميات. ليس هنالك ما نختلف عليه. لم يكن لسوريا اعتراض أساسي على الدور الاميركي، ولا على عملية التفاوض كما حددناها نحن. وفي اجتماعات لاحقة مع السوريين، كان عبيد يأتي بردود فعل ايجابية بالنسبة لخطابات الرئيس، لا سيما الخطاب الذي ألقاه أمام الجمعية العامة، وبالنسبة لتصريحاتي الصحفية. وباعتباره مبعوثاً رئاسياً، كان عبيد يتلقى تعليماته من الرئيس مباشرة، ولكن الرئيس كان في طبعه يفضل العموميات على ما هو محدد، ويتجنب التفاصيل التي تضايق. وكثيراً ما كان عبيد يتذمر من قلة المعلومات.

وباشارة واضحة إلى أن سوريا عوضت عن خسائرها العسكرية في لبنان، سنة ١٩٨٢، أخذت المواقف السورية من المباحثات تتصلب بصورة تدريجية. وفي ٧ كانون الأول/ديسمبر تلقيت تقريراً من السفير اسماعيل في المغرب يخبرنا فيه، بناء على طلب الملك الحسن الثاني، ان الموقف السوري آخذ في التشدد بالنسبة لحل للصراع العربي الاسرائيلي. وكان الرئيس الأسد لا يرى ان التسوية النهائية لصراع الشرق الأوسط على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ تفترض الاعتراف باسرائيل. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى انهيار جهود اللجنة العربية السباعية التي كانت تفاوض عواصم العالم لحل عادل لقضية الشرق الأوسط على أساس القرار رقم ٢٤٢. يضاف إلى ذلك ان اسماعيل أبلغنا أن الملك الحسن الثاني تلقى، من الرئيس ريغن، خبرا بأن الولايات المتحدة أعطت نفسها فترة ستة أشهر فقط، لتسوية المشكلة اللبنانية، قبل أن «تسقط هذه المشكلة من اولويات السياسة

الاميركية الملحة». كنا نعرف الطبع الأميركي معرفة جيدة؛ وكنا ندرك ان المصلحة الأميركية باخراج اسرائيل من لبنان قد لا تستمر طويلا، وكنا تواقين كي نضرب الحديد وهو حام.

حيال مثل هذه الخلفية، واصلنا توسيع اتصالاتنا في اطار العالم العربي لضمان الوصول إلى حل قبل ان يؤدي التغيُّر في ميزان القوى الاقليمي إلى استحالة ذلك. وفي ظل هذه الأجواء قررنا أن نؤمن مساعدة مصر. كنا بحاجة إلى نصح مصر في ثلاثة ميادين: كنا نريد أن نستفيد من خبراتهم في التفاوض مع اسرائيل؛ وكنا نريد من مصر أن تتدخل لدى اسرائيل حين يلزم ذلك ولتخفيف الضغط علينا؛ وكنا نريد ان ننتفع من موقع مصر الايجابي في واشنطن. وإلى حد ما، عرفنا ان المصريين بحاجة إلينا كذلك. فنجاحهم بمساعدتنا في سبيل الوصول إلى حل للأزمة اللبنانية هو خطوة هامة في عودة مصر من عزلتها إلى الحظيرة العربية.

في سنة ١٩٨٢ وسنة ١٩٨٣، كانت «هبة النيل» هبة لا يريدها أي عربي. لقد خرج السادات عن الصف العربي ووقع معاهدة سلام مع اسرائيل، وهو العمل الذي رحّب به الغرب لما ينطوي عليه من شجاعة، واستنكره العالم العربي باعتباره تفرداً وخيانة. وفي مؤتمر القمة العربي في بغداد، سنة ١٩٧٩، جردت مصر من عضويتها في الجامعة العربية، وفي سنة ١٩٨١ اغتيل السادات. وقد خلفه حسني مبارك الذي أعلن تقيّده بالمعاهدة، لكنه ظل متحفظا في علاقاته مع اسرائيل. على أن تمسك مصر بالصبر مع تغير الاجواء الاقليمية والدولية اعاد مصر إلى الجامعة العربية، وإلى قمة السياسة العربية في أواخر الثمانينات.

ولعل الأهم من صفات الصبر عند المصريين هو دور مصر التاريخي في الشرق الأوسط، اذ كانت، منذ فجر التاريخ، اللاعب الرئيسي على المسرح السياسي في شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط. لعبت هذا الدور أيام الفراعنة، وأيام الخلفاء والسلاطين، والولاة، والملوك، والرؤساء. ومنذ ان هزم صلاح الدين السلطة الفاطمية في مصر بقيت مصر حصن الإسلام السنّي، وأصبحت القاهرة، بجامع

الأزهر وجامعته، معقل العِلم الاسلامي الرشيد، ومنارة فكرية وثقافية للعالمين العربي والاسلامي. ومع انحطاط الامبراطورية العثمانية، ونشوء القومية العربية، تحولت مصر إلى مركز للدعوة إلى الوحدة العربية وبلغت هذه الدعوة أوجها أيام الرئيس جمال عبد الناصر.

وبرغم الهزيمة المذلة التي لحقت بعبد الناصر في حرب حزيران ١٩٦٧، فقد بقي هذا الزعيم قوة رئيسية في السياسة اللبنانية حتى وفاته سنة ١٩٧٠. كان المسلمون اللبنانيون والكثيرون من المسيحيين معجبين به، مؤيدين له. وصورته، كرائد للقومية العربية، وتصويره من قبل وسائل الاعلام المصرية كمناضل بطولي، وربما مأساوي ضد الظلم، وتأثيره المغنطيسي على الشعب، وسيطرته بشكل سحري على اللغة العربية الدارجة التي يفهمها الشعب ويتجاوب معها، كل ذلك وطّد نفوذه في العالم العربي، وبالاخص في لبنان. وجاء اتحاد مصر وسوريا في فترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦١، بقيادة عبد الناصر خطوة أولى نحو الوحدة العربية تجاوب معها عدد كبير من مسلمي لبنان، وتخوف منها عدد كبير من المسيحيين تجاوباً وتخوفاً أدّيا إلى الحرب الاهلية سنة ١٩٥٨. ومع ان لبنان قطع علاقاته الدبلوماسية بمصر تنفيذاً لقرار قمة بغداد سنة ١٩٧٩، فان الاتصالات السياسية، على مستوى ما دون السفراء، بقيت هي إياها. ورغم ان ممثل مصر لم يكن يلقب «سفيرا» فقد كان في الواقع يتصرف وكأنه سفير. وكنت أجتمع به على حدة لاجتناب حرج حضوره الاجتماعات العادية مع السفراء العرب.

وكان لا بد للبنان ان يكون حذراً بعض الشيء في استشارة المصريين في تلك الفترة: لأن الاستشارات قد يساء تفسيرها بأننا نحاول اتفاقا شبيها باتفاق كامب دايفيد. وتقديراً لموقفنا، بقي القادة المصريون على مسافة منا. وكان الرئيس الجميل معجبا بحسني مبارك، وأراد التشاور معه. أما من جهتي، فقد وجدت الاجتماع ببطرس غالي، وزير الدولة للشؤون الخارجية، والأمين العام للأمم المتحدة حاليا، أمراً مفيداً جدا. وكانت تربطني به صداقة أكاديمية من مؤتمرات دولية كنا نحضرها سويا ونسهم فيها.

وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٢، وصل إلى بيروت أسامة الباز، المستشار السياسي للرئيس مبارك، هو وبطرس غالي. والغاية من ذلك معرفة كيفية مساعدتنا في المفاوضات. أنا ورئيس الجمهورية كنا متحمسين لهذه الزيارة، ولو ان رئيس الحكومة الوزان كان حذرا. وبعد الاجتماع بالباز وغالي، صرح للصحافيين بانه «فوجئ» بقدومهما. كان الوزان حريصا على مراعاة موقف سوريا التي كانت في ذلك الوقت اشد المقاطعين لمصر. وفي اليوم التالي، عندما كان اجتماع ثانٍ مقرراً فورا مع الرئيس الوزان، رفض الباز الدخول وقال لي «لا أريد أن أفاجئه مرة اخرى». فعقدت أنا وأسامة الباز اجتماعا على طريقة الرواقيين في رواق القصر الحكومي.

وأثارت زيارة هاتين الشخصيتين المصريتين قلقا في اسرائيل. وفي وقت لاحق قال الاسرائيليون لدرايبر: ان الصلابة التي أبداها اللبنانيون، أثناء المفاوضات معهم، عائدة إلى النصيحة التي وجهها الباز وغالي في كانون الأول. «هذان الاثنان سمّما اللبنانيين ضدنا»، كما قالوا. والواقع ان الباز وغالي كانا مفيدين من هذه الناحية. كانت لهما شهرتهما كمفاوضين صلبين، ولم يكن الاسرائيليون، كما عرفنا، يحبون التعامل معهما.

إشراك المجلس النيابي

وكعضوٍ سابق في المجلس النيابي، كان الرئيس حريصاً على أن تكون الهيئة التشريعية شريكة في حملتنا الدبلوماسية لتأمين الدعم للبنان في العالم العربي. واذا ما عملنا مع البرلمان منذ البداية، فان ذلك، كما قال الرئيس، قد يؤمن لنا الدعم الذي نحتاج إليه عند التوصل إلى اتفاقية. وبنتيجة ذلك رحت أعد الاستراتيجية البرلمانية مع الرئيس كامل الأسعد بصفته رئيسا للمجلس النيابي. والأسعد، بصفته سياسيا شيعيا من الجنوب، كان أهم هاجس له هو اخراج اسرائيل من الجنوب بأسرع ما يمكن. لم تكن لديه أيّ اعتراضات على التفاوض مع اسرائيل مباشرة. ما يريده هو النتيجة. لم يكن يخشى العواقب، وقليلا ما اهتم بالصراخ والغضب

المتصاعد من العرب المتطرفين. كان حريصا على التعاون مع الحكومة، واقترح بالتالي ايفاد ثلاثة وفود برلمانية إلى دول المغرب العربي، ودول الشرق العربي والدول العربية الجنوبية.

وعند تشكيل هذه الوفود، كان رئيس المجلس ملزما بأخذ التمثيل الطائفي والجغرافي بعين الاعتبار، واختيار رؤساء الوفود الذين يتمتعون بثقة جميع الأعضاء. وكان البرلمانيون الثلاثة الذين وقع الاختيار عليهم لرئاسة الوفود هم: لويس أبو شرف، وهو سياسي يميني ماروني بارز؛ أمين الحافظ، وهو رئيس وزراء سابق ونائب من طرابلس، معروف بسياسته المعتدلة؛ ورشيد الصلح وهو كذلك رئيس وزراء سابق، ونائب بيروتي.

وتبين ان ارسال الوفود النيابية إلى العواصم المحددة عملية دقيقة وصعبة. غالبية النواب في لبنان زعماء في مناطقهم. فهم ليسوا ممثلين لمناطقهم فحسب، بل قادة كبار يتحلون بصلاحيات واسعة. ولدى تحضير هذه الرحلات، كان للبروتوكول أهميته البالغة لدى أعضاء المجلس النيابي. كل شيء، من اعداد الاقامة حتى الانتقال، معرّض للمناقشة. احد رؤساء الوفود أصر على استدعاء سفيرنا في البلاد التي سيزورها لأنه «يكره رؤية ذلك الرجل». ورئيس آخر أصر على تقديم تقرير شفهي لأنه لا يعلم كيف ستكون الحالة السياسية بعد أشهر قليلة، ولا يريد بالتالي ان يلتزم خطيًا.

وبعد بضعة اجتماعات مع الوفود، قلت لرئيس الجمهورية: اطلب مني ما تشاء، ولكن اعفني من عذاب التعامل مع زملائك السابقين. الموارنة يريدون ان يعاملوا كأنهم رؤساء جمهورية مقبلون؛ الشيعة كأنهم رؤساء المجلس النيابي في المستقبل؛ السنة كأنهم رؤساء حكومة كذلك. فنظر إلي الرئيس ضاحكا وقال: ماذا بشأن الروم الارثوذكس؟ اناس طيبون جدا جدا، أجبت دون تردد.

وفي ٢٤ كانون الثاني ١٩٨٣/يناير، قدم الوفود تقاريرهم؛ اثنان منها خطيان، والثالث شفهي. وجاءت النتائج مرضية وداعمة لموقفنا.

نقل الوفد الذي زار دول المشرق ما يلي: الملك حسين يؤيد جهود لبنان، ويدعم كليا دور الاميركيين الوسيط. الولايات المتحدة وحدها، كما قال الملك، قادرة على التأثير على اسرائيل. كذلك كان يأمل ان تنسحب منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا من الأراضي اللبنانية حتى لا تتذرع بها اسرائيل للبقاء في لبنان وتغيير معالمه. وصدام حسين، رأى انه ينبغي ان تكون للبنان الكلمة الاخيرة بشأن قضية هامة كانسحاب الاسرائيليين، وأعرب العراقيون عن تأييدهم الكامل لنا في هذه العملية، فيما انتقد صدام الحركة الوطنية اللبنانية لأنها دفعت المسيحيين إلى حضن اسرائيل. لبنان لا يقوى على مواجهة اسرائيل عسكريا، ولا بديل لديه إلا اللجوء إلى الدبلوماسية. وليس لأيّ دولة عربية ان تتدخل بشؤون لبنان. ولو أن العراق لم يكن منهمكا في حربه مع ايران، لما تجرأت اسرائيل على مهاجمة لبنان. وتابع صدام يقول ان العالم العربي كله بما فيه العراق مسؤول عن المأساة التي حلت بلبنان.

كذلك أعرب أمير الكويت، الشيخ جابر الأحمد الصباح، عن استعداده لمساعدة لبنان بكل الوسائل الممكنة. وكان يقول انه لا يجوز للبنان ان يتحمل الضغط الاسرائيلي وحده. وشدد على أهمية الاسراع في المفاوضات.

وأضاف ان كل تأخير من شأنه ان يحمل معه تعقيدات جديدة. وقال الأمير انه سيتصل بالاميركيين والسوريين ليساعدونا، على انه واثق من ان القوات السورية سوف تنسحب «بعد ساعتين من انسحاب الاسرائيليين».

وكان موقف دول الخليج الاخرى مماثلا، أي أنه ينبغي للبنان ان يتحرك بسرعة لاخراج الاسرائيليين؛ ينبغي ان لا يترك وحده لمعاناة عواقب الصراع العربي الاسرائيلي. وفي جنوبي شبه الجزيرة العربية، سمع الوفد نغمة شبيهة بذلك. عُمان واليمن الشمالية مؤيدان تمام التأييد لسياسة الحكومة اللبنانية. موقفهما انه ليس لأيّ دولة عربية أي حق بفرض أي مسار غير المسار الذي يختاره اللبنانيون أنفسهم.

هنالك عدد من الموضوعات المشتركة التي برزت بين قادة الدول في القسمين الشرقي والجنوبي من العالم العربي: دعم للمفاوضات اللبنانية مع اسرائيل؛

وجوب محافظة لبنان على اجماع وطني في تعامله مع اسرائيل، وتأمين التعاون مع سوريا قبل اتخاذ أيّ خطوات رئيسية. وكثيراً ما ذكرونا باستمرار بان اللبنانيين هم الأدرى بأمورهم بقولهم «رب البيت أدرى بالذي فيه»، وبأنه علينا ان نتحرك بسرعة قبل ان يترسخ الاحتلال الاسرائيلي ويخلق حقائق جديدة على الأرض كما انه كان هنا ك دعم قوي للوساطة الاميركية في المباحثات.

وقام الوفد إلى المغرب بزيارة تونس ومقر جامعة الدول العربية فيها، بالاضافة إلى الجزائر وموريتانيا. ولم يكن تقرير الوفد إلى المغرب واضحاً كتقرير الوفدين الآخرين؛ هنالك دعم عام لسياسة لبنان حيال اسرائيل، الا انه كان يصعب الحصول على التزامات محددة من غالبية دول المغرب.

كان التكهن بموقف جامعة الدول العربية أمراً ممكنا. الأمين العام لجامعة الدول العربية، الشاذلي القليبي، رأى ان اسرائيل ساعية لتحطيم النموذج اللبناني للحكم، وقال انه ينبغي لاسرائيل ان تنسحب أولا، بعد ذلك يعقبها انسحاب سوريا. ثم أصر على ان جامعة الدول العربية تود ان تساعد لبنان، وهي باستمرار تدعو الآخرين لتقديم المساعدة. القليبي رجل لبق، بليغ وواضح حين يتناول العموميات، على أنه، كالمنظمة التي يمثل، لم يكن لديه وسائل عملية لمساعدة لبنان، فهو لا يدعم مفاوضاتنا مع اسرائيل علنا ولا يهاجمنا ويعالج القضية اللبنانية المصيرية بتجاهلها.

إلا انه لم ينس ان يبعث بأفضل تمنياته للرئيس الجميل الذي يقوم، كما قال، بمهمة صعبة؛ «وليكن الله في عونه!»

وفي تونس اجتمع الوفد بالرئيس الحبيب بورقيبة وبرئيس الحكومة محمد المزّالي. كلاهما أيّد جهودنا التفاوضية في الاطار الذي رسمناه، وأعرب المزالي عن تخوفه من أن اسرائيل تريد بلقنة لبنان. كذلك أمل التونسيون ان تتمكن الولايات المتحدة من إفشال سياسة اسرائيل. ثم ان الرئيس بورقيبة استدعى السفير الأميركي في تونس للاعراب له عن رغبة تونس في نجاح المباحثات الثلاثية. ولقد أدرك التونسيون ان الاحتلال الاسرائيلي لا يمكن انهاؤه بالوسائل العسكرية. وفي

رأيهم ان على لبنان ان يقوم بعمل سياسي دبلوماسي مكثف بالتعاون مع الدول العربية، لاخراج الاسرائيليين.

وفي الجزائر، اجتمع الوفد بالرئيس الشاذلي بن جديد بحضور مستشاره الأخضر الابراهيمي. أيد بن جديد جهودنا بحذر، وأعرب عن اهتمامه بالفلسطينيين في لبنان بقدر اهتمامه بلبنان بالذات، وطالب بمعاملة المدنيين الفلسطينيين معاملة منصفة. قال للوفد: «اننا ندعم لبنان. اننا نقول للبنانيين ما نقوله للفلسطينيين. اننا لا نريد ان نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين، ولا لبنانيين أكثر من اللبنانيين. أي مسار يختاره اللبنانيون نؤيده. اننا نحترم القرار اللبناني بالنسبة للشؤون اللبنانية الداخلية. اما بالنسبة للمقرارت التي تتعلق بالمنطقة ككل، فطبيعي ان نتوقع ان يأخذوا بالحساب مجمل المصالح العربية». في موقفه الكثير من التأويل. على أن تقييم موقف الجزائر على وجه أدق يظهر أن لبنان كان في مركز متدنٍ في الاولويات الجزائرية في المشرق. الجزائر أشد اهتماماً بالقضية الفلسطينية التي تجمع بالنسبة لها ايديولوجية مستحبة وتوقاً إلى وحدة عربية يسهل التغني بها، وقرابة دينية قوية ونزعة ثورية مشابهة للنزعة الثورية التي لم تزل تتأجج في العقل الجزائري.

وقد شكا رشيد الصلح، رئيس الوفد إلى المغرب، من المصاعب الجمة التي واجهها هو وزملاؤه عند الانتقال من عاصمة إلى أخرى في المغرب العربي. كل تحرك يقوم به الوفد كان، كما قال، يستلزم العودة إلى باريس أو روما، ثم الانتظار لتأمين الحجز على الطائرة. وقد أثر ذلك على معنويات الوفد، وعلى صبرهم الذي كاد ان ينفد كليا.

ولم تجر أي محاولة للقيام بزيارة إلى ليبيا. لأن الرئيس معمر القذافي كان، قبل فترة وجيزة، قد هاجم رئيس الجمهورية، وكان قبل ذلك بقليل قد دعا المسيحيين في لبنان لاعتناق الاسلام ولحل المشكلة حلا نهائيا. وعلى أثر هجومه على الرئيس، استدعيت الممثل الليبي في بيروت عبد القادر غوقة إلى مكتبي. هنا لا بد من القول ان ليبيا الغت التمثيل الدبلوماسي التقليدي في سفاراتها في العالم، واستبدلت بسفرائها رؤساء لجانٍ شعبية. وصل غوقة في الموعد: وهو يعرف بالطبع سبب

الدعوة مهيأ كليا لمعالجتها باسلوبه الدبلوماسي الأدبي، لا بل الشعري، اذ كان موهوباً واديباً مرموقاً. طلبت منه ان تتقدم ليبيا باعتذار خلال ٢٤ ساعة، والا كان لزاما علينا ان نتخذ تدابير دبلوماسية معينة.

وجاء رده في غاية اللباقة والكياسة. قبل ذلك لم أكن أدرك كيف يكون للأدب أوالشعر مثل هذه المقدرة في اللحظات الدبلوماسية الحرجة. لقد كان غوقة شاعراً حقاً. قال، وقد طرفت عينه طرفة جاءت أبلغ من كلماته، ان الزعيم القذافي قائد الثورة. هو لذلك يستعمل لغة ثورية. ثم انه يكرر القول، مرة بعد مرة، ان موقفه كقائد للثورة لا يمثل بالضرورة موقف الدولة الليبية. ان اللجنة الشعبية ليست بعثة دبلوماسية؛ هي ليست كالبعثات الدبلوماسية الأخرى. الأصح انها تعمل كمكتب اعلام. ثم إنه، أي غوقة نفسه، على استعداد لاصدار بيان من القصر الجمهوري، يؤكد فيه احترام ليبيا للرئيس الجميل. اما بالنسبة للانذار فانه يستحيل عليه الحصول على جواب من طرابلس خلال ٢٤ ساعة. لقد مضت أسابيع وهو يحاول الاتصال بليبيا بالهاتف أو بالتلكس دون جدوى. واخيرا اتفقنا على ان يصدر غوقة بيانا يعدل فيه موقف رئيسه، وينهي القسم الأكبر من الاحراج، فيما نقوم نحن باستدعاء سفيرنا في ليبيا.

لقد عاد وفدنا النيابي إلى المغرب مرتاحا لموقف الحكومة التونسية. ومع ان تونس لم تكن، على ما يبدو، ذات أهمية خاصة بالنسبة للبنان، فإن الرئيس الجميل كان يريد المحافظة على علاقات طيبة مع العاصمة التونسية. كان الرئيس يحب بورقيبة؛ ويحب اسلوبه المعتدل. ثم ان العاصمة التونسية حلت محل القاهرة كمركز جديد لجامعة الدول العربية، وهي المقر الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد ان غادرت المنظمة بيروت على أثر اتفاقية النقاط التسع التي توصل إليها فيليب حبيب مع الفلسطينيين. وكنت بدوري قد أقمت صلة طيبة بالسفير التونسي في بيروت، سعيد بن مصطفى. وكنت قد دعوت وزير خارجية تونس، باجي القائد السبسي إلى زيارة لبنان. وجاءت الزيارة في منتصف كانون الثاني/يناير، ١٩٨٣. لقد حثنا السبسي على زيارة تونس والاجتماع إلى الرئيس بورقيبة. وقال ان تقدم بورقيبة

في السن جعله حساساً للغاية. ولذلك يود أن يرى منشغلا بالشؤون العربية، وبالشأن اللبناني بشكل خاص. وتلبية لتلك الرغبة توجهنا، أنا والوزان، في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٨٣ إلى العاصمة التونسية. غادرنا بيروت على طائرة فخمة صغيرة كان السيد رفيق الحريري قد قدمها إلى رئاسة مجلس الوزراء. وكانت الطائرة في حالة من العطب وبحاجة إلى اصلاح بعد المعارك الاخيرة، كما ان الاسرائيليين كانوا قد عبثوا بها اذ جردوها من كثير من أجهزتها. وبعد إصلاحات سريعة قيل لنا إنها جاهزة. وانطلقنا، أنا والوزان، بشيء من التردد وبإيمان شديد بالله وبالقدر. وكنا أول من ركب هذه الطائرة بعد ما حل بها من إجحاف إبان الحرب؛ وفيما كانت الطائرة تتجه بنا نحو غربي البحر الأبيض المتوسط. كنا نتمازح بخصوص حظنا وبكوننا أول من يجرب هذه الطائرة بعد الاجتياح الاسرائيلي. على أن الوزان استطاع، بفكاهته المعروفة، ان يجعل الرحلة ممتعة جداً.

وفي تونس قدمنا عرضا مفصلا لرئيس الوزارة محمد المزالي ولوزير الخارجية السبسي عن المحادثات الجارية مع الاسرائيليين. لقد أصغيا إلينا، وطرحا الاسئلة، وأعربا عن الاعجاب بشجاعتنا وتمنيا لنا الخير.

من عادة الوزان، بصورة عامة، أن يتوسع في العرض باللجوء إلى القصة. وعند شرح مشاكل لبنان مع الفلسطينيين للتونسيين، أغمض الوزان عينيه وقال: كان شقيقان يسكنان احدهما بجانب الآخر. جاءهما ضيف؛ طلب إيواءه. احد الاخوين اغلق الباب دونه، ولكن الثاني كان اكثر تساهلا، ودعا الضيف إلى الدخول إلى منزله. وبقي الضيف أكثر مما كان متوقعا. ثم جاء بزوجته، ثم بأقاربه، بل جاء باصدقائه. وفيما كان في البداية يحتل زاوية صغيرة من المنزل المؤلف من ثلاث غرف للنوم، سرعان ما استولى على القسم الأكبر من المنزل، وراح يقرب باب الغرفة الرئيسية. تلك هي حكايتنا مع اخواننا الفلسطينيين. نحن مع قضيتهم كليا، ومع حقهم في أرضهم فلسطين ولكن لا بد من الفصل بين ما هو حق لهم وما هو حق للبنان واللبنانيين.

اعتبر المزالي ان المثل رائع، ثم تساءل بصوت عال: هل ستلقى تونس المصير

نفسه بعلاقاتها مع منظمة التحرير. وأثناء اجتماعي الخاص مع السبسي شرحت له جميع القضايا التي نشأت ـ أو يحتمل ان تنشأ ـ عن محادثاتنا مع اسرائيل. وطلبت منه رأيا، وموقفا في نقاط كثيرة، أردت، ولو لمرة، حوارا جوهريا يلقي الضوء على القضية. كنت على الاقل آمل ان القى موقفاً عربياً واضحا بشأن الازمة اللبنانية، لا العموميات المألوفة. قضيتنا في كل حال قضية أصرّ العرب أنفسهم على انها ذات أهمية كبيرة لهم. ولكن هذا الموقف المبدئي لم يترجم على الأرض. بعد محادثاتي مع السبسي سجلت في يومياتي: «عرضي لوزير الخارجية كان موسعا ومفصلا. أكدت على السرية. طرحت أسئلة محددة. طلبت رأيه حول بعض القضايا. مقابل ذلك حصلت على استقبال ودي؛ لم أسمع أي شيء ملموس. الظاهر ان المسؤولين العرب لا يريدون اتخاذ موقف محدد من عملية التفاوض. يقولون لك ان ما تقوم به جميل، رائع. ابقنا على اطلاع. ولا يقولون ابدا: افعل هذا، أو افعل ذاك. تجنب هذا الشيء؛ احذر هذا الامر الخ... لبنان في أزمته التاريخية مع اسرائيل كان بالفعل وحده. وكل ما يحصل عليه هو: ليكن الله في عونك؛ مشكلتك كبيرة. وبرغم ذلك، فان على لبنان، اذا ما فشلت المفاوضات الجارية، ان يواجه وحده غضب اخوانه العرب واتهامهم اياه بالتعاطي مع العدو؛ مسكين لبنان؛ مسكين الضعيف ولكن هل يمكن لقضية عادلة ان يكون المعبر عنها ضعيفا؟ كلا؛ كلا؛ كلا.»

وكان رئيس الوزراء السابق المغفور له رشيد كرامي يعبر عن مأزق لبنان في العالم العربي ببيت الشعر القائل:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له   إيـاك إيـاك أن تبتل بـالماء

وليس لأي زيارة إلى تونس ان تكتمل بدون زيارة مؤسس الأمة، المجاهد الأكبر، المحرر الحبيب بورقيبة الذي كان، على تقدم سنه وضعفه، لا يزال رئيس تونس وحاكمها. استقبلنا بورقيبة في معتزله الريفي في «نفطا» على مسافة نحو نصف ساعة بالطائرة من العاصمة، ورحّب بنا بحرارة شديدة، وتحدث ببلاغة عن جمال لبنان. بعد ذلك راح بورقيبة يتحدث عن حربه التحريرية ضد الفرنسيين. ذكر لنا كيف انه دعا الشباب التونسي إلى مهاجمة الجيش الفرنسي. وكيف ان المئات من

الشباب التونسيين سقطوا ضحايا النيران. هؤلاء هم أبنائي، قال باكيا، وقد انحدرت الدموع على خديه، وعبثا حاولنا بعد ذلك ان نعود به إلى موضوع زيارتنا. ولكن الرئيس بورقيبة كان غارقا في ماضيه العميق، ضائعا بين الواقع والحلم، تشده الذاكرة إلى قمم عالية في تاريخه المجيد، ثم تخونه الذاكرة فتتمسك به الهواجس. لقد كنا بالفعل محرجين. ولكن مضيفينا التونسيين لم يكونوا يبالون. وبين الوقت والآخر كانت زوجة بورقيبة تحاول ارجاع زوجها إلى الحاضر، ولكن ذلك كان مستحيلاً. والمؤسف انه ما من احد قد هيأنا لهذه المفاجأة. كان المحارب القديم قد شاخ حقا؛ كان قد أصبح محض وعاء لذاته السابقة الجامحة بالذكريات. لم يعد في وسعه السيطرة على أفكاره ولا على حركاته.

ان مأساة بورقيبة هي مأساة السياسة العربية التي لا تعرف طريقا للوصول إلى السلطة إلاّ بالقوة، ولا التخلي عنها الا بالقوة أو بمشيئة الخالق. لقد بلغ بورقيبة القمة، ولم يعرف كيف ينزل عنها ولم يجرؤ أي انسان، حتى ذاك الوقت، على تنحيته من سدة الرئاسة.

بعد هذا اللقاء بالرئيس، عدنا إلى العاصمة التونسية للاجتماع بالامين العام لجامعة الدولة العربية، الشاذلي القليبي، وبرئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات. ولم تأت تعليقات القليبي على الأزمة اللبنانية مختلفة كثيرا عما قاله للوفد النيابي في وقت سابق. كان يعرف المشكلة؛ كان يخشى توغل اسرائيل في العالم العربي عبر لبنان. كان يتمنى لو ان الدول العربية تتمكن من المساعدة. فقاطعته قائلاً: ان على جامعة الدول العربية، اذا أرادت ان تساعد لبنان، ان تغير اسلوبها كليا.

وكان القليبي ضعيفا لأن الوجود التونسي ضعيف في العالم العربي؛ ثم انه كان ضعيفا كذلك لأن اسلوبه ايضا ضعيف. وشعرت ان القليبي يتكلم ليسجل موقفا فقط، بدون أي قناعة حقيقية. وجاء اسلوبه الملطف وميوعة جامعة الدول العربية العامة يؤكدان لي شكي الغريزي بان المنظمات الكبيرة لا تحل المشاكل الكبيرة رغم انه يمكن اللجوء إليها كمظلة لبعض الدول الفاعلة حتى تحل المشاكل من خلالها اذا اقتضت الظروف الدولية ذلك.

وأثناء حديثنا مع القليبي، كان ذهننا موجها نحو ياسر عرفات. بوصولنا إلى تونس، نشأت أزمة بروتوكولية. عرفات يعتبر نفسه رئيس دولة؛ ولذلك توقع ان نزوره في مكتبه. على أننا كنا، من ناحية ثانية، نتوقع منه ان يزورنا في الفندق الذي ننزل فيه. نحن نمثل دولة؛ اما هو فيمثل حركة. قلق الوزان لذلك إلى درجة كبيرة؛ شعر انه أهين. هو الذي أجرى المفاوضات مع فيليب حبيب لتأمين خروج مشرف لعرفات ورجاله من بيروت. وهو الذي رافق عرفات حتى السفينة التي كانت تقله إلى خارج لبنان، وهو عمل يتسم باللياقة والشجاعة معا. كان يتوقع من عرفات ان يظهر امتنانه. وكلمة الوزان تعني المرء الذي يزن الامور. وكان الرئيس الوزان أمينا لاسمه. وكان باستمرار يزن كلماته وتحركاته بدقة. ولحل هذه المشكلة، أشار الوزان على مزالي اخيرا بأن يدعونا جميعا إلى منزله. وهكذا فعل.

آنذاك كانت علاقاتنا بالفلسطينيين تمر بمرحلة دقيقة. ولدفع المباحثات الثلاثية، كنا نأمل ان نقنع عرفات بان يسحب المقاتلين الفلسطينيين الموجودين في طرابلس ووادي البقاع. وكانت خطتنا ان نحقق انسحاب الفلسطينيين بالدبلوماسية. كذلك أردنا من جميع الفلسطينيين الذين دخلوا لبنان بصورة غير مشروعة ان يعودوا إلى البلدان التي كانوا مسجلين فيها بصورة شرعية.

وعيّن الجنرال نبيل قريطم الذي كانت له اتصالات واسعة بمنظمة التحرير، مفاوضاً من قبل لبنان مع منظمة التحرير؛ وطلب من جان عبيد الذي كانت له علاقات شخصية وثيقة بعرفات وسواه من قادة منظمة التحرير، ان يشارك في هذا الجهد بصفته مبعوثا خاصا من قبل رئيس الجمهورية. بعد ذلك انهمكنا في الضرورات اللوجستية لانسحاب منظمة التحرير: من أين يُسحب الفدائيون؟ كيف ينقلون؟ أيّ ترتيبات أمنية ينبغي اتخاذها لتوفير سلامة رحيلهم؟ ثم، كما هي الحال دائما، من هو الذي يموّل العملية؟ أجرينا اتصالات تمهيدية بالسودان واليمن الشمالي، والاردن، لنعرف: هل ترضى هذه الدول الشقيقة باستقبال مقاتلي منظمة التحرير الذين سينسحبون. وكانت ردود هذه الدول متحفظة ومترددة.

وصلنا في الموعد المحدد، مساء الثلاثاء الأول من شباط/فبراير، إلى منزل مزالي فاستقبلنا هو والسبسي. اما عرفات فوصل، كعادته، متأخراً، أنيق اللباس،

في زيه العسكري، يعتمر كوفيته المعهودة، وعلى جنبه مسدس. والمسدس إلى جنبه يرمز إلى الكثير لعرفات، ويعزز الهالة التي تحيط بزعيم منظمة التحرير وعرفات معروف في العالم العربي بشخصيته الناشطة المتأنقة، وبعناقه للرؤساء. لقد عانق الوزان بشدة، وبما أني لست بالطبيعة ميالا للعناق السياسي، فقد صافحته بحرارة. وبانجاز الشكليات الرسمية انسحب مزالي والسبسي، وتركانا وحدنا. ثم انطلق عرفات بالكلام، مجتنبا المجاملات الجانبية المألوفة. لقد شكا عرفات بمرارة من موقف الحكومة اللبنانية من الفلسطينيين. كان مستاء من الرئيس الجميل لأنه لم يرد على رسائله؛ واتهمنا بسجن نحو أربعة آلاف فلسطيني بمن في ذلك بعض الشخصيات الفلسطينية البارزة؛ أصرّ على ان قراره بسحب جميع مقاتلي منظمة التحرير من لبنان قرار نهائي، ولا علاقة له بكيفية معاملة الحكومة اللبنانية للفلسطينيين في لبنان. وبما ان مقاتلي المنظمة لا يشكلون جيشاً نظاميا منضبطا فان عليه ان يأتي شخصيا إلى وادي البقاع وطرابلس لاقناعهم واقناع عائلاتهم بالرحيل. ذلك لن يكون سهلا، كما قال. ولا بد له من التنسيق مع السوريين بشأن الانسحابات. بعد ذلك، عاد إلى الثناء على سياستنا الخارجية، وأعرب عن ارتياحه إلى تصريحاتي العلنية، غير انه انتقد تعاملنا مع الشؤون اللبنانية الداخلية. ثم ذكرني بان لنا أصدقاء مشتركين، بمن فيهم الأصدقاء من العهد الجامعي، كجورج حبش وهاني الهندي. وتمنى لنا الخير في المفاوضات، وتكلم بحرارة عن معاناة الشعبين اللبناني والفلسطيني. وفي هذا الاجتماع الذي امتد ساعتين، جرى تصحيح الكثير من سوء التفاهم ثم انتهت الجلسة باتفاق على الثقة والتعاون. وأراد عرفات ان يعرف وجهة مفاوضاتنا مع اسرائيل، وموقف سوريا. وبدا واضحا بانه يريد أن يربط موقفه بموقف سوريا. كان يراهن على الوقت. فهو سياسي مجرب، وتكتيكي ذو حنكة، ومستثمر بارع للوقت. ومن الواضح انه كان يؤجل التنفيذ، بانتظار التطورات، ولا سيما انجلاء الموقف السوري. وعند الوداع، عانقني عرفات بحرارة، وطبع ثلاث قبلات على خدي. وعندها قال الوزان: «يا صديقي إيلي. حظك كبير أنْ لا مصورين هنا والا فاليمين المسيحي في بيروت الشرقية سيصلبك بعد عناقك لأبو عمار».

وبهذه المناسبة، كان الاسرائيليون هم الذين غضبوا من الاجتماع مع عرفات وقالوا للاميركيين «اذا كان الوزان وسالم يجتمعان بالارهابيين فلماذا لا يجتمعان بالقادة الاسرائيليين؟» ولكننا اتكلنا على حبيب ودرايبر أن يعملا على إخماد مخاوف الاسرائيليين وعلى ازالة هذا الحاجز النفسي الجديد.

وبعد بضعة أيام من اجتماعنا بعرفات، اجتمع الجنرال قريطم بقائد منظمة التحرير مرة أخرى. هنا عرض عرفات موقفه من انسحاب المنظمة. كما يلي: ان منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة للانسحاب من لبنان انسحاباً كلياً على انه لا بد لجدولة هذا الانسحاب مع انسحاب سوري. وما ان يعقد الاتفاق على جدولة الانسحاب حتى تأخذ لجنة عسكرية لبنانية فلسطينية بوضع التفاصيل. وعلى الحكومة اللبنانية ان توفر فوق ذلك ضمانات للمدنيين الفلسطينيين الذين يبقون في لبنان بعد الانسحاب.

لقد كنا نأمل بان يكون الانسحاب الفلسطيني العسكري بمثابة حسن نية تساعدنا في المفاوضات ولكن هذا الامل لم يتحقق.

وفي اوائل شباط/فبراير قام الرئيس مبارك بزيارة واشنطن، فبعثنا إليه برسالة نطلب فيها ان يحث الاميركيين على تسريع عملية المفاوضات.

وفي وقت لاحق اخبرني فيليب حبيب، الذي كان في واشنطن آنذاك، ان مبارك قام بمسعى كبير خدمة للبنان. وفي الرابع من شباط/فبراير، ١٩٨٣، عرض السفير ديلون علي تفاصيل زيارة مبارك كما يلي: لقد أوضح الرئيس المصري للرئيس ريغن، وللوزير شولتز، ولقادة الكونغرس، ان انسحاب القوات الاجنبية من لبنان أمر حيوي بالنسبة إلى مصر، إذا كان لها ان تلعب دوراً في تحقيق التسوية السلمية في المنطقة. واذا لم تتمكن الولايات المتحدة من إخراج اسرائيل من لبنان، فان موقف مصر كصديقة للاميركيين، سيكون ضعيفا في عملية السلام. يضاف إلى ذلك ان العلاقات المصرية باسرائيل قد توترت بنتيجة الغزو الاسرائيلي للبنان؛ ان الامور لا يمكن ان تعود إلى حالة طبيعية بين مصر واسرائيل كما تشاء واشنطن،

مادام الاحتلال الاسرائيلي للبنان مستمراً. ان رسالة مبارك للاميركيين هي انه على الولايات المتحدة ان تنجح في لبنان، والا فقدت مصداقيتها في المنطقة.

وبعد أسبوع من زيارة واشنطن، بعث مبارك ببطرس غالي وأسامة الباز إلى بيروت للمرة الثانية خلال شهرين، ليؤكد لنا دعم مصر. التقيت غالي والباز في العاشر من شباط/فبراير، ثم توجهت بهما إلى القصر الجمهوري. وقال لنا غالي بأنه لن يستطيع أحد ان يحل محل مصر في العالم العربي؛ ليست لأية دولة أخرى مثل شجاعة مصر ورؤيتها. وشجّعانا على التوصل إلى اتفاقية لاخراج الاسرائيليين، لكنهما حذّرانا من توقيع معاهدة سلام، لأننا بلد صغير وتعددي لا يمكن ان يثبت امام التحدي العربي كما ثبتت مصر. هنالك أعين كثيرة جداً مصوبة إلى لبنان بانتظار ان يرتكب لبنان خطأ ما، وليس هنالك من يمد لنا يد العون. هذا هو الثمن الذي يدفعه المرء اذا كانت الايديولوجية هي التي تتغلب على العقل. لقد تخطت مصر، كما قالا، هذا الحاجز الايديولوجي، وعادت إلى ميدان العقل والسياسة.

ثم واصل المبعوثان القول: عندما زار الرئيس مبارك واشنطن انفق ٦٠ ٪ من وقته في بحث الازمة اللبنانية، لأن حلّها ينعكس ايجابا على مصر. المصريون يساعدون لبنان، لا لأنهم يحبون اللبنانيين فقط، ولكن لأن مصر وريثة أقدم حضارة في المنطقة، وهي الأنضج سياسيا ودبلوماسيا. مصر تدرك مصالحها، وتتمنى ان تبلغ الدول العربية النضج الذي بلغته مصر. إن غالبية العالم العربي متخلفة إلى درجة بعيدة؛ البلدان العربية تحتاج إلى مصر أكثر مما تحتاج مصر إلى البلدان العربية.

كذلك حثنا غالي والباز على ان نعمل مع أوروبا بصورة وثيقة. ثم حثّانا على حضور القمة القادمة لدول عدم الانحياز في نيودلهي، ووعدانا بمساعدتنا لاتخاذ القرار المناسب بشأن الأزمة اللبنانية. وكانت مصر، بعد عزلها عن المجموعة العربية، قد عززت دورها في قمة عدم الانحياز. لقد كان ذلك طبيعياً، لأن حركة عدم الانحياز جاءت منذ نحو ثلاثين سنة، نتيجة اتصالات مكثفة بين تيتو وجمال عبد الناصر.

قمة عدم الانحياز

كانت مصر تطمح إلى القيام بدور قيادي في قمة عدم الانحياز كالذي قامت به سابقاً في جامعة الدول العربية. أما لبنان فلم يسبق له ان نشط في حركة عدم الانحياز، وهي التي كانت اكثر ايديولوجية وأقل فعالية من جامعة الدول العربية. وحركة عدم الانحياز غنية بالبلاغة الخطابية، فقيرة بالانجاز؛ على انها كانت، في الواقع، توفر المناسبات لاجتماع قادة العالم واجراء مباحثات ثنائية.

وكانت الهند، بصورة خاصة، تنظر نظرة جدية إلى دورها في حركة عدم الانحياز. جواهر لال نهرو، كان إلى جانب عبد الناصر، وتيتو، وتشو إن لاي، احد قادة الحركة التاريخيين فيها. وبعد ذلك جعلت الهند غدم الانحياز جزءاً لا يتجزأ من سياستها الخارجية. كذلك عمدت رئيسة وزراء الهند، رئيسة مؤتمر نيودلهي، أنديرا غاندي، إلى حثنا على الحضور. وباعتبار الهند البلد المضيف لمؤتمر القمة، فقد عملت جاهدة لاعداد مقررات تتناول جميع القضايا التي تهم البلدان المشاركة في الدورة. وقبل انعقاد الدورة، ترسل هذه المقررات بواسطة سفراء الهند في الخارج، إلى البلدان المعَنية بها. والغاية من ذلك ضمان الموافقة على هذه المقررات مسبقا، تمهيدا لتبنيها بدون صعوبة عند التصويت عليها في نيودلهي.

في الثاني عشر من شباط/فبراير، سلّمني السفير الهندي في بيروت القرار المقترح بالنسبة للبنان. والسفير شخص ودود، صاحب ابتسامة لطيفة، سخية، مخلص في اعتقاده، يحمل مسودة قرار يساعد لبنان. وبرغم ذلك، فان وجهي كان، وأنا أقرأ النص، يعكس استيائي المتصاعد، وإذْ كانت ابتسامة السفير تختفي تدريجياً عن وجهه، فقد نظرت إلى السفير باستياء، ثم قلت له: هذا القرار غير مقبول من قبل لبنان؛ هو ليس قراراً يتعلق بلبنان؛ على العكس من ذلك، انه يعتبر لبنان ملاحظة هامشية بالنسبة للقضية الفلسطينية. هو يذكر نضال منظمة التحرير الفلسطينية، والاحزاب الوطنية في لبنان ضد اسرائيل، لكنه لا يعالج المسألة اللبنانية. انه يعالج مشكلات في لبنان وحوالي لبنان ولكنه لا يعالج مشكلة لبنان.

بعد ذلك سألته: هل يعتبر المسودة قراراً يتعلق بلبنان؟ وقلت مضيفاً: اذا كان

الامر كذلك، فاننا نعتبر هذا الموقف معاديا للبنان. وقلت من الواضح انه لا يتجلى في القرار أي اهتمام من قبل الهند بلبنان؛ كل ما في الامر انه نص يتناول الصراع العربي الاسرائيلي بصورة رومنطقية لا تظهر فيها سلامة لبنان ووحدته. لم يقل السفير أي شيء؛ عضلات وجهه أخذت ترتعش، وقد عجز عن السيطرة عليها. وواضح انه شعر بالانزعاج والحرج، فحاول ان يبرر موقف الهند، لكن حجته كانت غير مقنعة. قلت له اننا مستعدون لتأييد أقوى المقررات التي تتناول القضية الفلسطينية، أو النزاع العربي الاسرائيلي، لكننا نريد قراراً بالنسبة للبنان، يكتبه لبنانيون، ويذكر أهدافنا بوضوح. وإذا كان لنا ما نريد، حضرنا مؤتمر القمة. والا، فلن نحضره. وعد بأن ينقل جوهر مناقشاتنا إلى نيودلهي، وان يظل على اتصال بنا. ثم رجع بعد ذلك بوقت قصير وطلب منا ان نعدّ المسودة البديلة، واعداً بتأييد الهند لما نتقدم به. ففعلنا ذلك.

وبعد ايام قليلة ، قرر مجلس الوزراء الاشتراك في مؤتمر القمة: تقرر ان يترأس رئيس الحكومة الوزان الوفد الرسمي وان اكون برفقته وان يرافقنا السفراء والمسؤولون المعنيون.

ويوم السبت الخامس من آذار/مارس عقدنا انا والرئيس الوزان اجتماعا استراتيجيا للاعداد للقمة التي كان مقرراً لها ان تبدأ يوم الاثنين،السابع من آذار/مارس. وفي اليوم التالي،استدعاني رئيس الجمهورية الساعة العاشرة ليلاً، وابلغني ان غسان تويني اقنعه بحضور مؤتمر القمة في نيودلهي شخصياً: وعلينا ان نسافر جميعاً في منتصف الليل. ولأن الرئيس ادرك ان ذلك محرج لرئيس الحكومة ، لا سيما بعد الاعلان عن ترؤسه للوفد.فقد طلب مني ان اقوم بزيارة رئيس الحكومة، وان ادعوه الى مرافقته في الرحلة، اذا هو شاء ذلك. وفي مثل هذه الحالة يصدر رئيس الجمهورية مرسوماً يعين فيه الوزير بهاء الدين البساط رئيساً للحكومة بالوكالة.

وبادرت الى بيت الرئيس الوزان لنقل هذه الرسالة غير السارة. وكان كما توقعت، فغضب. لكنه قرر في النهاية ان يأتي الى نيودلهي بمرافقة رئيس

الجمهورية محرجاً بذلك نفسه لتخفيف بعض الاحراج عن الحكومة. وفي منتصف الليل كنا جميعاً في المطار: رئيس الجمهورية كعادته، مرح، دينامي، ورئيس الحكومة غاضب على ما حدث. وحاول الرئيس الجميل تهدئة الرئيس الوزان.

وفي الصباح التالي، حضرنا كلنا الجلسة العامة لمؤتمر قمة عدم الانحياز، فاستمعنا إلى خطابين لعرفات وكاسترو. كان عرفات، كما بدا، قد فقد الكثير من لمعانه، حتى ان التصفيق لخطابه جاء محدودا. أما كاسترو فاستمر ساعات يعيد صيغا و«كليشيهات»بالية، مللت إلى درجة كبيرة؛ نهضت لاخرج، الا ان الوزان رجاني ان لا أفعل ذلك لأنه بحاجة إلى رفيق، واعتبر خروجي عملا ديبلوماسيا غير لائق. أصررت على انني لم أعد أطيق ذلك، وأصررت على الخروج. وتنهد الوزان فيما كنت اخرج، وهو يتساءل كم يبقى من الوقت قبل ان يغادر كاسترو المنصة.

وبعد الظهر، كان لي أول اجتماع جدي مع وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام. سررت كثيراً للاجتماع إليه؛ قضينا الكثير من الوقت في مناقشة سياسة الشرق الأوسط. وجدته شخصا مرحا مرتاحا مع نفسه، واثقا من نفسه، ومن موقفه السياسي، سريع الخاطر في ايجاد النكتة المناسبة أو التعليق المناسب. عقله في بحث دائب عن الفكرة التي تضع محادثه في موقف المدافع. هو يحب للطرف الآخر ان يتصدى له ويدفعه إلى ذلك بحيث يتوافر له المزيد من الفرص للرد. وبامكانه كذلك ان يكون لغزاً يصعب ان تسبرغوره وفيما تجده منفتحا، يكون بالواقع متحفظا متكتما؛ وفيما يمتاز بالخطابات الايديولوجية، تراه كذلك براغماتياً، أي ذرائعيا. ومن الواضح أنه رجل طويل الاناة؛ كان يتمتع بصداقة الأسد، ويعرض موقف الرئيس الأسد باسلوبه الخاص وبراعته المعهودة معتمدا، باستمرار، الطريق الوعر حين يرى في ذلك حكمة، تاركا الطريق السهل للرئيس الاسد حتى يتحمل، هو لا الأسد، عبء القرار الصعب.

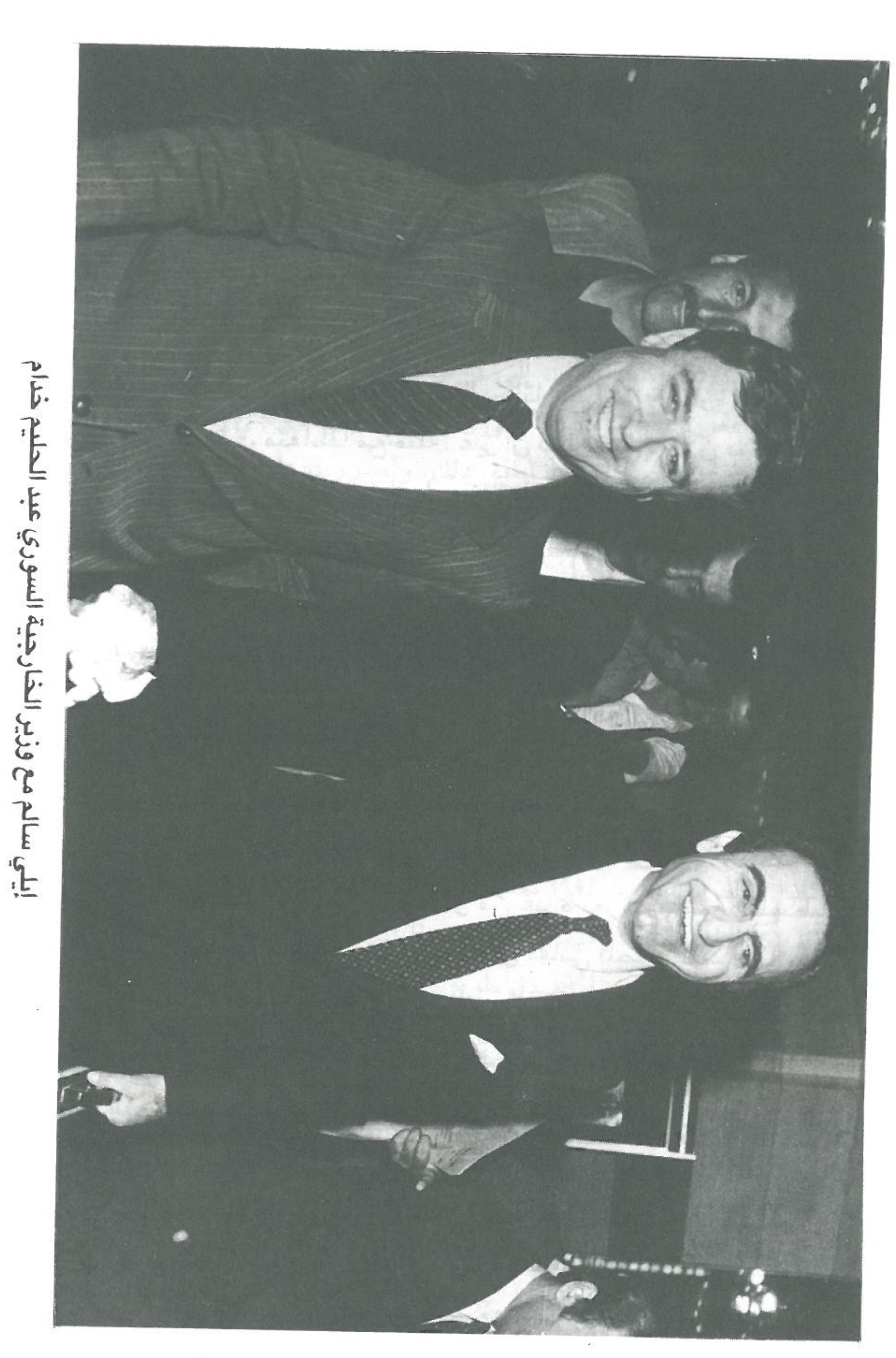
بدأ خدام الكلام بالقول: إنه تمنى لو أن لبنان اتبع درب النضال بوجه اسرائيل، لا درب المفاوضات. كان مستاءً من حبيب بسبب الترتيبات الأمنية التي يقترحها هو والاسرائيليون. شعر أن اسرائيل ستحاول أن تفرض على اللبنانيين شروطا غير

مقبولة، وقال انه يجب علينا ان نرفضها. وهاجم الجبهة اللبنانية لتعاونها مع اسرائيل بامل تحريرهم من السوريين والفلسطينيين. ثم قال: انهم والله سيفتشون عن رغيف الخبز، ولن يقدمه لهم احد. نصيحتنا لكم، كما قال، كانت ان تفاوضوا ولكن بصورة غير مباشرة. ثم ختم كلامه بالقول: في كل حال إننا نتمنى لكم النجاح شريطة ان لا تحقق اسرائيل أيّ مغانم. استعملوا سوريا عذرا لعدم قبولكم بأي تنازلات.

ومثل خدام تحدثت كثيرا، ومثله عدت إلى التاريخ لشرح المآزق القائمة؛ مثله كنت أعرف الفكر البعثي، متعاطفا مع مثله. غير أن لبنان يواجه الآن مشكلة معينة، هي كيف يخرج اسرائيل من أراضيه لا بل من العاصمة بالذات وقلت له: لقد دققنا في جميع الخيارات ووجدنا ان الوساطة الاميركية اكثرها مصداقية. لسنا واثقين من نجاحها، لكننا شعرنا أنها مجازفة تستحق ان تتيح لها فرصة النجاح.

«لسنا على استعداد»، كما قلت: لاتخاذ موقف ايديولوجي بحت، وبالتالي فقدان بلادنا. ليست لدينا القدرة العسكرية لاخراج الجيش الاسرائيلي بالقوة. نريد اخراجه بالدبلوماسية. اننا لا نريد ان نفقد لبنان. فرد خدام: وكذلك نحن، وأضاف: نحن معكم ونريد تقديم المساعدة». لعله ينبغي لكم ان تنظروا في خيارات اخرى فقلت: إنني على استعداد لاختيارات اخرى. أعطني خياراً واحداً. فرد: «جامعة الدول العربية» فقلت له: انه بذلك غير جاد. هو اكثر من غيره يعرف مصير الفلسطينيين حين اعتمدوا على الجامعة العربية. هل يريد لنا ان نعاني المصير نفسه؛ قال خدام: «أخي إيلي تعلّم من محمد علي كلاي. تحرك بطريقة تخلق معها فرصاً جديدة. ينبغي الخروج من هذه المفاوضات دون ان تقدموا إلى اسرائيل اي شيء».

وعدت إلى الخيارات امام لبنان؛ مرة أخرى أصرّ خدام على جامعة الدول العربية. لولا وجود سابقة فشل وذل في المسألة الفلسطينية، لكنت وافقت. قلت: «لست وزير خارجية دبلوماسيا. لن أخدعك. جامعة الدول العربية ليست خياراً في اخراج اسرائيل من لبنان. لم يبد أن خدام كان متحمسا للدور العربي؛ انتقد الكثير من الدول العربية التي تكلمت ضد الصهيونية لكنها لم تفعل شيئاً لاحتوائها.



إيلي سالم مع وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام

وكبديل لجامعة الدول العربية، اقترح خدام تعزيز الجبهة اللبنانية الداخلية، والقيام بنضال مكثف، ولو طويل، ضد اسرائيل. قلت له إنني لا أعتقد ان النضال وحده يخرج اسرائيل. نحن بحاجة إلى دولة عظمى لمساعدتنا في التوصل إلى اتفاقية تخرج اسرائيل وتضمن سلامة حدودنا والاستقرار في بلادنا. ثم أنهيت كلامي قائلاً: ثقوا بالحكومة اللبنانية، امنحوها ثقتكم الكاملة. لبنان بلد معقد، واللبنانيون فقط يعرفون كيف يتعاطون مع هذا الوضع. سنحاول حل أزمتنا بالدبلوماسية. طريقتنا بتنفيذ الامور مختلفة عن طريقتكم. قد نختلف معكم بالوسيلة ولكن لن نختلف حول الأهداف. اطلب منكم ان تتفهموا وضعنا. نريد ان تخرج اسرائيل. اقبلوا السياسة التي نتبعها لاخراجها. لبنان محطم. وجوده أصبح محفوفاً بالمخاطر. اعطوا الحكومة الدعم الذي تحتاج إليه ثم حاسبوها في وقت لاحق.

قال خدام: لا مشكلة في ذلك، اننا ندعمكم. بالنسبة لابني الشيخ بيار، أحببنا أمين، ولم نحب بشير. أردنا لأمين ان يكون رئيسا للبنان، وان يكون رئيسا قويا. الرئيس الضعيف يخلق المشاكل لكم ولنا. وإذا كنتم تريدون التفاوض، فهذه مشكلتكم. منظورنا مختلف عن منظوركم». لقد اختلفنا كثيرا في لقاءات لاحقة، غير أن العلاقات الشخصية التي نشأت بين خدام وبيني في هذا الاجتماع الأول لم تفتر أبداً على مر الأيام.

وقد دعانا الرئيس الأسد لتناول الغداء في جناحه، وكغالبية القادة العرب، كان الاسد قد أتى معه بطباخه، طعامه الخاص ومرطباته. لقد جلسنا وتمتعنا بوجبة دمشقية في فندق غربي أنيق بنيودلهي غير المنحازة. وجدت الاسد مرحاً للغاية، حريصا دائما على الاستمتاع بضحكة جيدة. رحّب بنا ترحيباً بالغاً، ثم قال وهو ينظر إلي: «نعرف الكثير عنك من اصدقائك الثوريين في الجامعة الاميركية في بيروت؛ وهم أصدقاؤنا كذلك». ثم واصل الكلام وهو يلمّح بلطف إلى حزب الكتائب، ومنه الرئيس. متسائلاً: «أنت، بقدر ما نعلم عنك، عربي جيد: ماذا تفعل مع الانعزاليين». ولكي لا يساء فهم ذلك من قبل الجميل، ضحك الأسد عالياً. وطمأن

الرئيس إلى انه يمزح، لا غير. الواقع انه يمزح. والأسد في ارتياح بصورة دائمة، والنكتة جزء لا يتجزأ من دبلوماسيته. بالنكتة يوصل ما يريد إلى الطرف الآخر، ويطيبها كذلك. يحب لضيفه ان يكون مرتاحاً، وان يتكلم. الاسد يلعب أوراقه بسخاء، اما الورقة الحاسمة فيحتفظ بها لنفسه بحرص شديد جدا.

ثم استدار الأسد إليّ ثانية، وقال: «اننا نقدر تصريحاتكم العامة وسياستكم. الظاهر أن منطقة الكورة (وأنا من أبنائها) تنتج رجالاً عظاماً. لا، لا، ليس ذلك دائما. دعني أذكر. لقد أنتجت شارل مالك؛ كان فيلسوفا جيدا، لكنه كان سياسيا سيئاً: كذلك أنتجت انطون سعادة (وهو ارثوذكسي المذهب، لكنه ليس من الكورة). لقد كان قائداً عظيماً وله أتباع كثيرون في سوريا، غير أنه لم يفهم القومية العربية حق الفهم».

لاحظت ان الأسد يحب ان يتكلم. بدا لي انه يتمتع بمناقشة أي شيء، وليس بالضرورة القضية المطروحة. كان يعير اهتماماً كبيراً للأمور العرضية، للنوادر، فكأنه سبق له ان اتخذ قراره بالنسبة للقضايا الكبيرة؛ ويفضل أن لا يناقشها. أدهشتني معرفته التفصيلية بالشؤون السياسية اللبنانية. كان، هو وخدام، يتذكران الأسماء والأحداث كأنهما يقرآن كتاباً من وضعهما. ثم انهما لم يحاولا اخفاء دورهما في هذه الأحداث.

كان الأسد تواقاً لمعرفة انباء مفاوضاتنا مع الإسرائيليين. وأكد مرة اخرى انه يريد اتفاقية لا تسيء الى سيادة لبنان واستقلاله. قال انه تواق الى مغادرة لبنان فور التوصل الى الاتفاقية المناسبة. ولقد أبدى اهتماما عميقا بلبنان، بتوازن القوى فيه، وبوقع التطورات في لبنان على سير الاحداث في الشرق الاوسط في المستقبل. ان الانطباع الذي ولّده فيَّ هذا الاجتماع هو ان مضيفنا السخي قائد مجرب، ذو خبرة واسعة، وسياسي محنك من الطراز الاول، ولاعب بارع على مسرح الشرق الاوسط، وربما كان شبيهاً بمحمد علي في فجر القرن التاسع عشر.

وبين السابع والتاسع من آذار/مارس، اجتمعنا بالممثلين الفلسطنيين في قمة نيودلهي. لقد اجتمع الفريق اللبناني، المشكل من الجنرال نبيل قريطم والكولونيل

نبيه فرحات، بالفريق الفلسطيني المشكل من محمود اللبدي، والدكتور احمد صدقي الدجاني والسيد شفيق الحوت. ومن جانبنا حضر غسان تويني وجان عبيد بعض هذه الاجتماعات. كان تويني وعبيد معاً مقربين من الفلسطينيين، متعاطفين الى حد كبير مع قضية منظمة التحرير. كذلك كان عبيد وثيق الصلة بعرفات حتى إنه كثيراً ما لامه على أخطائه في لبنان. لقد قال له ذات مرة: «حين جئت لبنان، يا سيد عرفات، كانت لك قضية وكان لنا بلد. ولكنك مع الوقت اورثتنا القضية «ولطشت» البلد».

وقام وفدنا باطلاع الممثلين الفلسطينيين على سير المفاوضات. وجدّد التأكيد على الاهمية الدبلوماسية التي ستكون للانسحاب الفوري لبضعة ألوف من مقاتلي المنظمة، من طرابلس بصورة خاصة، على تطور هذه المفاوضات. إلا أن هذا الإصرار، فشل في تأمين الردود المطلوبة من الفلسطينيين. كان يصعب تقييدهم بالتفاصيل. كان عرفات قد اتخذ القرار بالانسحاب، وكان ما نطلبه الآن إعداد جدول انسحاب لإضفاء المصداقية على قراره. كنا نريد ان نعرف من الفلسطينيين عدد رجالهم في طرابلس والبقاع بالضبط. كذلك كنا بحاجة الى المناقشة في موضوع البلدان العربية التي كانت على استعداد لاستقبال المقاتلين، وفي اطار الانسحاب، وفي لوجستية النقل والامن.

قدرت منظمة التحرير عدد مقاتليها في طرابلس والبقاع بما يراوح بين سبعة آلاف وتسعة آلاف رجل. كذلك ذكرت ان العملية، تتطلب، بعد اتخاذ القرار بالانسحاب، ثلاثة اسابيع لانجازها. ولم تعط أية اجابات معينة بشأن الامور اللوجستية والتوقيت. ثم ان المنظمة لا تعرف بالتأكيد اية بلدان عربية ستستقبل رجالها، وطالبت بالتعاون بين لبنان والمنظمة والاميركيين لتحديد البلدان التي تستقبل هؤلاء المقاتلين. وذكر ممثلو المنظمة لنا انهم يعتبرون اسرائيل وحدها مسؤولة عن مذابح صبرا وشاتيلا، وحثوا على التعاون اللبناني الفلسطيني لحماية المدنيين الفلسطينيين الباقين في لبنان.

على انه كان لمحادثاتنا مع الفلسطينيين جانب آخر اكثر ايجابية. كانوا يدعمون جهودنا بقوة لاخراج اسرائيل بواسطة المفاوضات. لم يحدث قط ان دعانا احد من

الممثلين الفلسطينيين الى وقف المفاوضات واعتماد النضال المسلح. على العكس من ذلك، كان هنالك تعاطف عميق مع معاناة الشعب اللبناني، والكثير من الكلام حول الحاجة الى السلام والاستقرار في البلاد.

ومن اللقاءات الغريبة التي كانت لنا في نيودلهي، زيارة عبد السلام جلّود، الرجل الثاني في ليبيا، وهو رئيس الوفد الليبي الى القمة. بين السياسيين العرب الذين التقيتهم، يبدو جلود نموذجاً قائما بذاته. يبدو انه صارم، وقور، غامض، وبعيد. لكن كلمة وابتسامة لطيفتين كفيلتان، على ما يبدو، بتغييره. يبدأ بالضحك العميق، بحيث يكاد يشبه الطفل، ويتحدث بحرية عن اي شيء وعن كل شخص، كاشفا بذلك عن شخصية حارة مرحة وراء مظهره الصارم. وفي اجتماعه مع الرئيس الجميل، بدأ الكلام باتهام الجميل بسبب التفاوض مع اسرائيل. وعند انتهاء الاجتماع كان جلود موافقا تمام الموافقة على الموقف اللبناني. ثم انه عرض الإسهام في شرح موقف لبنان في البلاد العربية التي تجهل مخاطر الازمة اللبنانية وتعقيداتها. ورد الرئيس بان العرب قد اقتنعوا بالموقف اللبناني، وان الشخص الوحيد الذي يحتاج جلود إلى اقناعه هو القذافي. وعلق الرئيس الوزان على التحول في موقف جلود وشبّهه بتحول شاوول وهو في طريقه الى دمشق.

وحين انتهى مؤتمر قمة عدم الانحياز، وزعت الامانة العامة نسخة من القرار بالنسبة للبنان، وهي مخالفة للنسخة التي وضعت ونقلت إلى المؤتمر. قبل ذلك نشأت مشاكل بالنسبة للقرار حين حاول ممثلو منظمة التحرير تعديله. وكنت قد اجتمعت بممثلي المنظمة، وبعد حوار مطول، أقنعتهم في النهاية ان يتخلوا عن تعديلاتهم، وان يقبلوا بصيغتنا، وحين سألت موظفي الامانة العامة عن القرار المعدل الذي اذاعوه، ادّعوا الجهل. كنت في ريبة من ان في الامر تلاعبا، فاصررت على وجوب توزيع القرار الصحيح. ولعدم ترك اي مجال للمجازفة، ارسلت قرارنا الى كل سفاراتنا، وطلبت منها ان توزعه على نطاق واسع باعتباره القرار الرسمي الذي تبنته قمة عدم الانحياز بالاجماع.

الفصل الرابع

اتفاقية الانسحاب الاسرائيلي

جورج شولتز يتوسط

لما كانت مفاوضاتنا مع اسرائيل تسير ببطء، فقد اصبح وزير الخارجية جورج شولتز قلقاً على مصيرها. وبما انه كان سيجتمع بوزير خارجية اسرائيل شامير، يوم الاحد ١٣ آذار/مارس، فقد اتصل جورج شولتز بواسطة السفير الاميركي في نيودلهي، حيث كنت احضر قمة دول عدم الانحياز، وسأل: هل بإمكانه ان يجتمع بي في واشنطن على الفور. قلت للسفير: إنني مستعد للذهاب الى واشنطن إذا كان شولتز لا يفكر بعقد اجتماع مشترك مع شامير. ولما تأكدت بان شولتز لا يفكر بذلك، قررت الذهاب الى واشنطن.

اجتمعت بشولتز في ١٢ آذار/مارس، بحضور فيليب حبيب وموريس درايبر. كررت لوزير الخارجية موقفنا بخصوص عدد من القضايا المتنازع عليها، والتي نشأت في مفاوضاتنا مع الاسرائيليين ومنها: مستقبل سعد حداد، والمناورات المشتركة بين الجيشين الاسرائيلي واللبناني، ومواقفنا بخصوص وضع الباروك، وتطبيع العلاقات بين اسرائيل ولبنان. قلت له ان مشكلة سعد حداد مشكلة لبنانية، نحلها كما نريد نحن، وقلت اننا لا يمكن ان نفكر بإجراء مناورات مشتركة بين الجيشين اللبناني والاسرائيلي، لاننا لسنا في سبيل عقد معاهدة سلام؛ ولسنا بالطبع ايضا حلفاء لنقوم بنشاطات مشتركة لاسيما في قضايا حساسة كالتعاون العسكري والأمني. ولا يمكن لنا ان نستجيب لرغبة شارون بانشاء ابراج مراقبة على أراضينا، لا في الباروك، ولا في اي مكان آخر: لأننا، بذلك، نعرض سلامتنا وسلامة اشقائنا العرب، وبالاخص سوريا، للخطر. والتطبيع، كما قلت، غير وارد ابداً. ولا يمكن له ان يتحقق إلا في إطار سلام شامل بين اسرائيل والدول العربية. إن أيّ محاولة لتطبيع العلاقات مع اسرائيل، قبل تسوية شاملة، ستعرض المجتمع اللبناني للخطر والتفكك، ولكنني أردت ان اترك لدى شولتز انطباعا ايجابيا، وقلت له

ان ينقل الى شامير أنّ لبنان لن يسمح بعد الآن بان تكون اراضيه قاعدة عمليات موجهة ضد اسرائيل، لا من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، ولا من قبل اي تجمع آخر. وشرحت لشولتز كيف اننا ننوي تعزيز الجيش اللبناني بحيث يستطيع، بدعم من «يونيفيل»، ان يحافظ على الامن في البلاد. وقد شعرت ان مثل هذه التطمينات قد تمد محادثاتنا مع الإسرائيليين بدفع إضافي. وفي وقت لاحق قال لي شولتز بان الاسرائيليين وجدوا ارتياحا في تاكيدي على عدم السماح باستعمال الاراضي اللبنانية لعمليات ضد اسرائيل.

ورغم ان شولتز قد اكد لي أنه لا ينوي ان يجمعني بشامير، فقد اشار اليَّ، باسلوب ملطف، بان اجتماعا بيني وبين شامير قد يحل مشكلات عدة، وقد يعطي الاسرائيليين الثقة التي يحتاجون إليها للتوصل الى اتفاق. فقلت له ان ذلك غير وارد بتاتاً ولاسباب عدة شرحتها له مطولا.

وفي اليوم التالي، قال لي بوب باسيل، وهو رجل أعمال أميركي من أصل لبناني، وثيق الصلة بالاسرائيليين، إن الاسرائيليين يعجبون كيف اني، وانا الذي عملت مع بشير لمرحلة معينة، أعارض سياسة إسرائيل، بمثل هذه القوة، وارفض الاجتماع بهم. كذلك أبلغني ان دايفيد كمحي، رئيس فريق المفاوضات الاسرائيلي في محادثات الانسحاب مع لبنان. شكا له من ان اسرائيل بسبب مواقف الرئيس الوزان ومواقفي انا، تعامل من قبل لبنان كعشيقة لا يحب الرجل المتزوج ان يُرى معها علناً. واسرائيل، كما قال كمحي لباسيل، حسَّاسة بالنسبة لهذه الصورة. فهي لا تحب ان تعامل كعشيقة او كمنبوذة. اسرائيل تريد ان تقبل بالمنطقة، وان يكون التعامل معها علنيا. فقلت لباسيل انه لا يمكن للبنان ولا أي دولة عربية اخرى ان تسلك المسلك الذي يتوقعه كمحي قبل ان تسوي اسرائيل نزاعها التاريخي العميق مع جيرانها العرب، لا دولة دولة بل معهم جميعا في حل شامل وعادل.

وفي المباحثات مع شولتز، نوقشت مسألة التعاطي مع سوريا في هذه المرحلة. وكان الاميركيون منقسمين حول كيفية التعامل مع الرئيس الأسد. إن شولتز الذي يميل للنظر الى السياسة السورية في لبنان من منظور دولي، ومن ناحية الصراع

الاميركي السوفياتي، كان يشعر انه يجب ان يكون بيدنا شيء ما مع اسرائيل قبل التوجه نحو سوريا، غير انه كانت لفيليب حبيب نظرة مغايرة. لقد اراد حبيب ان يكون على اتصال منتظم بالسوريين حتى تستبين مواقعهم من بنود المباحثات، ولا يقولوا في وقت لاحق انهم كانوا غير مطلعين على المباحثات. وبصراحة، قال حبيب، انني لا اعرف كيف اتعامل مع السوريين، إلا انني اعرف انكم لا تفعلون ما يكفي في هذا المجال.

لقد كان جان عبيد، بصفته مبعوثا رئاسيا، يقدم لهم الصورة العامة التي يطلعه عليها رئيس الجمهورية، وكان هنالك إجماع في حكومتنا على عدم اقحام السوريين بصورة تفصيلية، لاننا قدّرنا، خطأ او صوابا، ان سوريا تفضل ان لا تدخل في تفاصيل المباحثات حتى لا تصبح بشكل غير مباشر طرفاً فيها. وفي كل حال كنا ننوي التشاور مع سوريا علنا، وبصورة كاملة، فور اقترابنا من الاتفاق على التفاصيل. كذلك ساد في أوساطنا اعتقاد بأن وضع سوريا النهائي بشأن اي اتفاقية بيننا وبين اسرائيل سيتقرر بناء على نظرتها الإقليمية، وتقييمها الخاص للوضع الاستراتيجي في المنطقة اذ ان لسوريا اعتبارات اقليمية تقررها هي لا لبنان، وبالاخص من ضمن موقعها في النزاع الاميركي السوفياتي في منطقة الشرق الاوسط.

وعندما كنت في واشنطن وصل اليها غسان تويني ودولة رئيس الوزراء السابق صائب بك سلام، لتقوية الموقف اللبناني في واشنطن. وكانت الغاية من وجود صائب بك في واشنطن آنذاك ان ينقل الى الاميركيين مدى الاجماع الواسع في لبنان على الموقف الذي اتخذناه في المباحثات الثلاثية.

اجتمع شولتز بشامير يوم الاحد في ١٣ آذار/مارس، ثم اجتمع بي ثانية في اليوم التالي، بحضور صائب سلام هذه المرة. وسأل شولتز صائب سلام عن مشاعر المسلمين نحو منظمة التحرير. فرد صائب بك عليه بان المسلمين ملتزمون بالقضية الفلسطينية، ويدعمون منظمة التحرير في نضالها ولكنهم لا يدعمون قيام المنظمة بنشاط عسكري في لبنان يعرّض وحدة لبنان وأمنه للخطر. ثم ذكر لشولتز

اسباب معارضته لتطبيع العلاقات مع اسرائيل، وقال ان لبنان سيقوم بتطبيع العلاقات مع اسرائيل بعد ان تفعل الدول العربية الأخرى ذلك، لا قبله. وكان شولتز متفهما لموقفنا ونقله الى الاسرائيليين، ليس فقط كموقف لبنان، بل كموقف تدعمه اميركا. ويوم الاربعاء، ١٦ آذار/مارس، اجتمعنا، أنا وصائب سلام، بالرئيس ريغن في المكتب البيضاوي، بحضور كينيث دام، وفيليب حبيب، وموريس درايبر، ونيكولاس فيليوتس. رحّب بنا ريغن بحرارة، وقال لنا انه اجتمع بشامير، وان وزير خارجية اسرائيل اعرب عن قلقه من أمن حدود اسرائيل الشمالية. ثم واصل يقول ان شامير يريد ترتيبات محددة، وهو محق في ذلك شرط أن لا تؤثر هذه الترتيبات على سيادة لبنان. ان المشاكل بين لبنان واسرائيل مشاكل معقدة؛ وحلها، كما قال، يبدو صعبا، غير انني رجل عنيد، وقد التزمت بحلها ولا اقبل الفشل. وحين سأل صائب سلام: هل الولايات المتحدة على استعداد للمتابعة برغم الصعوبات الكثيرة التي تعترض المباحثات، ابتسم ريغن وقال بثقة: ليس لدي جهاز عودة الى الوراء. بعد ذلك حدّق بي طويلا وقال: هل تعرف، يا حضرة وزير الخارجية بمن تذكرني؟ أجل، قلت، بداني توماس. حقا، اجاب. ثم بدأ يروي لنا الاقاصيص عن صديقه داني، كيف اتى الى هوليوود، وكيف واجه الصعوبات هناك... ثم اضاف: لا تنزعج للتشبيه؛ داني سياسي ذكي، ومقتدر جدا. ثم انه «شبابلك». اما صائب بك فكان قلقا لتحول الحديث من جدية المعضلة اللبنانية الى هوليوود، وحاول تكملة الحديث عن المصاعب التي نواجهها في المباحثات الثلاثية. واستمر ينظر بريبة الى ريغن وإليَّ خشية ان ينحرف الحديث ثانية الى اصدقاء الرئيس في هوليوود. الواقع ان ريغن الممثل كان يقوم بدوره باتقان تاركا للفكاهة مكانا محددا في المباحثات الجدية. كان ريغن يتكلم في العموميات، لكنه لم يترك شكا لدينا بان المباحثات الثلاثية ستنجح، وبان لبنان سيستعيد سيادته في نهاية المباحثات.

عند ذاك اجتمعنا بنائب الرئيس جورج بوش؛ عرضنا عليه كذلك وجهة نظرنا بالازمة اللبنانية. بدا لنا بوش سياسيا محترفا لبقا، سريع اللجوء الى العاطفة والكلام الجميل المنمق. لم يكن حسن الاطلاع على الأزمة ولكنه كان مستعدا ليفعل



إيلي سالم مع نائب الرئيس الاميركي جورج بوش، دولة الرئيس صائب سلام، الانسة ايثمار دياب امينة السر.

شيئاً ما. سألَنا: هل في اعماق قلوبكم اي شيء تريدون من رئيسنا ان يفعله او ان يعلنه؟ قولوا ذلك لي؛ أنا أنقله إليه. الرئيس ملتزم التزاماً عميقاً. واسم الولايات المتحدة مرتبط دائما باسم لبنان، وذلك بسبب تاريخه السلمي وعلاقاته التجارية المنفتحة، وديمقراطيته، وبسبب الجامعة الاميركية في بيروت. لبنان في ذهن رئيسنا، وفي ذهني ايضا. نريد لبنان ان يعيش بسلام ضمن حدوده المعترف بها دوليا.

كان صائب بك مرتاحا لما سمعه من ريغن وبوش. وحين سأله الصحفيون، عند خروجنا من البيت الابيض: «ماذا قال ريغن لكم؟» ردّ سلام «قال لي انه لا جهاز للعودة لديه» واضاف لتوضيح هذا الوعد للصحفيين العرب، شارحا الكلمة الانكليزية لجهاز العودة، بمرادفتها بالفرنسية. هنا قلت مازحا: صائب بك، لقد صرت كالشيخ بيار الجميل تخلط بين العربية والفرنسية. وابتسم صائب بك ابتسامته العريضة المشهورة واشعل سيغاره، وانصرفنا.

كان هذا الاسبوع في واشنطن أسبوعاً مفيدا: استطعنا ان ننقل وجهة نظرنا الى الاميركيين، ثم الى الاسرائيليين بصورة غير مباشرة. على ان شولتز حذرنا، اثناء عشاء في دار الأمير بندر بن سلطان، من ان الاسرائيليين مفاوضون في منتهى الصعوبة، وانهم يحاولون انتزاع كل شيء يمكن من لبنان، غير أننا نقف الى جانبكم لحماية حقوقكم.

وبعد العشاء مع الامير بندر، يوم الخميس ١٧ آذار/مارس، رجعت معه بطائرته الخاصة الى لندن، وكان ذلك خطأً ارتكبته: لأن الأمير بندر المحدث اللبق، وصاحب النكتة، أبقاني مستيقظا طوال الليل وهو يروي لي خبراته كطيار مقاتل وانا احاول عبثا ان أختلس بضع دقائق للراحة وربما للنوم.

ولدى وصولنا الى لندن، كانت لي استراحة قصيرة قبل الاجتماع الى الملك حسين عاهل الاردن، وقد كان آنذاك في احدى زياراته السياسية والطبية المتكررة الى العاصمة البريطانية. كان الملك ودياً، كعادته، لكنه بدا متعبا، وعلى غير عادته، متشائما. قال الملك: اذا كان العرب يعجزون عن اخراج الجيش الاسرائيلي من لبنان،

فعليهم ان يتركوا لبنان يتوصل الى اتفاقية تحقق له هذا الهدف. واذا ما عجزت الولايات المتحدة في هذا المجال، فانها بذلك تفقد قدرتها على تحقيق التسوية لقضية الشرق الاوسط. وقال انه مسرور للتقدم الذي توصلنا اليه في مباحثاتنا، لكنه حث على الوصول بسرعة الى تسوية، قبل ان تنشأ اية تطورات جديدة تهدد بنسف هذا المجهود برمته. كذلك عرضت على وزير خارجية بريطانيا السير فرانسيس بيم أجواء مباحثاتنا في واشنطن. وبدوره كان كذلك قلقا لبطء المفاوضات، والح علينا بوجوب الوصول الى اتفاقية «في الاسبوع القادم او الاسبوع الذي يليه على ابعد تقدير». وتحدث مطولا عن العبء الهائل الذي تلقيه الولايات المتحدة على الملك حسين للتوصل الى تسوية سلمية في المنطقة، ثم لاحظ ان الاميركيين يتوقعون من الملك اكثر مما يجب ان يتوقعوا ولا يقدرون تماما الظروف الصعبة التي يعيشها الملك، وقال بيم: إن الولايات المتحدة تريد الانتقال بسرعة من تسوية لبنانية الى تسوية اقليمية، وهي لذلك تضغط على الملك حسين لاتخاذ خطوات سابقة لاوانها. وتطوع بيم لمساعدتنا في تسريع سير المفاوضات، ثم وعد بدعم الموقف اللبناني الذي اعتبره معقولا.

وكان الاجتماع الاهم في لندن مع السيد عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السوري. اجتمعت به في ١٩ آذار/مارس؛ وأبلغته وجهات النظر في واشنطن. قلت: إن الاميركيين واثقون من أنّ المفاوضات ستؤتي ثمارها رغم التعنت الاسرائيلي؛ وقد نصح الوزير خدام ان تكون مباحثاتنا الجدّية مع جورج شولتز لانه رجل مسؤول ومعقول. ولكن، اضاف خدام، للرجل مشكلة واحدة وهي انه يصغي اكثر مما يتكلم. فقلت له مازحاً: «يا عبد الحليم انت ما عندك ها المشكلة» ثم حثني خدام على إطلاعه خطيا على ما يجري في المفاوضات. ان جان عبيد، كما قال، لا يذكر لنا الآن إلا ما ترفضونه اثناء المفاوضات. هذا جيد ولكننا نريد ان نعرف ماذا قبلتم به. جان عبيد يتكلم ويخبرنا بالعموميات. ولكني اريد ان اعرف التفاصيل وبصورة خطية. نحن في لبنان لمساعدتكم. استعملوا وسيلة ضغط على الاسرائيليين، وحين تتوصلون الى اتفاقية خالية من التنازلات مع اسرائيل، تعالوا الى دمشق، وخلال

نصف ساعة نتفق على سحب قواتنا من لبنان، الاميركيون يسألوننا دائما: «متى ستنسحبون»؟ ماذا يريدون مني؟ هل يريدون ان اسجل لهم شريطا؟ طيب؛ سأفعل ذلك واقول فيه سننسحب، سننسحب، سننسحب!.

وابلغت الوزير خدام اننا قلنا للاسرائيليين، بواسطة الاميركيين، بان الجيش اللبناني الجديد قادر على حفظ الامن في جنوب لبنان وتأمين الاستقرار فيه ومنع التسلل عبر حدودنا للقيام باعمال عدائية ضد اسرائيل. سأل: هل قبلنا بتطبيع العلاقات؟ قلت: لا: لن نفتح حدودنا مع اسرائيل ونغلقها بالتالي مع شقيقاتنا الدول العربية كلها. حاولت ان احصل من خدام على تعهد بجدولة الانسحاب السوري من لبنان. ولكنه اصر على ان ذلك امر تقني خارج عن صلاحياته. سالته هل ستقبل سوريا بعض مقاتلي منظمة التحرير الذين سينسحبون من لبنان؟ فاجاب بانه يجب ان يذهبوا الى الجزائر، او المغرب، او العربية السعودية. ثم إن الذين يبقون في لبنان يجب، كما قال ايضا، ان يجردوا من اسلحتهم.

وأخيرا سألني: هل توصل لبنان حقا الى اتفاقية مع اسرائيل، على حد ما قيل له من قبل السفير الفرنسي في نيودلهي. فاجبته باننا، حين نقترب من الاتفاق مع الاسرائيليين، وقبل التوقيع عليه، سآتي الى دمشق وأقدم له نسخة من المسودة ونبحثها سوياً وسيكون هو اول من يعلم بها، لا سفير هذه الدولة او تلك. على انني اكدت له، ان عقد الاتفاقية قرار لبناني نتحمل مسؤوليته نحن لا سوريا ولا دولة عربية اخرى لان هذا، في الأساس، «صليبنا» ولا نريد لاحد غيرنا ان يحمله. وقلت اننا في مباحثاتنا مع اسرائيل نأخذ المصالح القومية اللبنانية أولا بعين الاعتبار، ثم المصالح القومية السورية لأنني مؤمن بان أمن سوريا من أمن لبنان، وكذلك أمن لبنان من أمن سوريا. وقلت إن مشكلتنا مع اسرائيل هي، إلى حدّ مّا، غير مشكلة سوريا بالنسبة لاحتلال مرتفعات الجولان. فاحتلال اسرائيل للجولان لم يؤثر على استقلال سوريا او وحدتها. أما احتلال اسرائيل لبيروت والمناطق المجاورة، فيهدد الكيان اللبناني كله، وقد يقسم البلد وينهي معالم الدولة اللبنانية. ونحن بأمس الحاجة الى مساعدة سوريا لإنهاء الاحتلال.

وأكد لي خدام أن سوريا ستبذل جهدها لتحقيق هذا الهدف. لبنان دولة مستقلة، كما قال، وطبيعي ان تفعل ما هو لمصلحتها. أما سوريا، فتنظر الى القضية من منظور الصراع العربي الاسرائيلي. ثم ختم قائلا: إننا ندعم جهودكم، لكننا كذلك مقيدون بمنظورنا. آمل ان لا يصطدم الامران.

اتضح، من اتصالاتنا المباشرة وغير المباشرة مع السوريين، ان احتمالات الخلاف قائمة. الموقف السوري تمليه مجموعة من اهتمامات إقليمية ودولية. صعب على السوريين ان يقبلوا باننا نفاوض لعقد اتفاقية يمكن لها ان تؤثر على مصالح سوريا القومية، لكننا لم نكن، برغم ذلك، نشاورهم بصورة مفصلة. وكان من الواضح ان السوريين المتحالفين مع السوفيات كانوا غير مرتاحين للدور الاميركي في لبنان وفي المنطقة، وقلقين من مفاوضاتنا مع اسرائيل. وفي تلك المرحلة كان التقارب السوري السوفياتي في اوجه، وكان السوفيات قد عوضوا للسوريين خسائرهم في حربهم مع الاسرائيليين في لبنان في صيف ١٩٨٢. وكانت الحرب الباردة بين الدولتين العظميين على أشدّها. وسرعان ما تحول الشك السوري في الدور الاميركي بلبنان الى خصومة مكشوفة، وربما كان الرئيس سليمان فرنجية الوحيد في لبنان الذي كان متفهما في العمق موقف الرئيس الأسد من المفاوضات، وحذراً جداً من الدور الاميركي. وكان الرئيس فرنجية يحتقر وزير خارجية اميركا السابق هنري كيسنجر، ويعتبره مسؤولا عن الحرب اللبنانية. وبالنسبة للرئيس فرنجية، كان كيسنجر «عميلا للصهيونية الدولية». اتهم كيسنجر بمحاولة حل مشكلة الشرق الاوسط على حساب لبنان. واتجه الى العمل على تقسيم لبنان بحيث يمكن توطين الفلسطينيين في أراضيه، لتخفيف الضغط عن الضفة الغربية وغزة المحتلتين. واتهمه بمحاولة إضعاف لبنان وتقسيمه على أسس طائفية بحيث تتحول كل طائفة دينية الى دويلة، وبذلك تنشأ دويلات للموارنة، والشيعة، والدروز، والسنة. كان فرنجية يؤمن ايمانا يقيناً بهذه النظرة. وعلى هذا الاساس، عارض بشدة دور اميركا في لبنان. كذلك أحس ان كيسنجر يريد تقسيم سوريا الى دويلات سنية، وعلوية، وكردية، ثم يقوم كذلك بتقسيم العراق ايضا على اسس عرقية

طائفية. ان كيسنجر اراد، كما قال، دولا طائفية صغيرة تحيط باسرائيل لتمويه وجود الدولة الاسرائيلية اليهودية، والتي كان فرنجية يشير اليها دائما بالعدو الصهيوني.

وكان يروق لي كثيرا ان اجتمع بالرئيس سليمان فرنجية، فهو من شمالي لبنان، وبلدتانا متجاورتان. والاكثر من ذلك ان شقيقي الدكتور انطون سالم هو طبيبه الخاص. وسليمان فرنجية قائد لبناني عريق، مجبول بتراث الجبل، محب للضيف، مكرّم له، سواء اتفق معه في الرأي ام لا. وكان دائما صريحا يقدم النصح رغم اختلافه مع سياستنا.

كان الرئيس سليمان فرنجية صديقا للرئيس حافظ الأسد. وفي أحد اجتماعاتنا، قال لي فرنجية: «كبّر عقلك. ان الاسد لا يقبل باي اتفاقية بين لبنان واسرائيل مهما كانت. عقد اتفاقية مع العدو سيؤدي على الفور الى اغلاق سوريا لحدودها معنا». واصر فرنجية على انه سيقود بنفسه حركة مقاومة وطنية ضد الاتفاقية اذا ما أثرت على سيادة لبنان واستقلاله. فقلت للرئيس الأسبق: إن الاسد يقبل اتفاقا مع اسرائيل شرط ان لا يمس سيادتنا، ولا يؤدي الى تنازلات سياسية من قبلنا. عندها قال فرنجية: «لا تضيع وقتك. أي اتفاقية ستعني تنازلات. لا سبيل آخر غير النضال الوطني. ينبغي ان نحارب».

وكان تقييم الرئيس فرنجية مهمّاً لان موقعه من الرئيس الأسد كان مهمّاً. وبعد اجتماعي بالوزير خدام في لندن، اخذ تقييم فرنجية يسترعي انتباهنا يوما بعد يوم، وكنا نتوقع موقفاً سوريا صلبا بالنسبة لاية اتفاقية تاتي نتيجة التفاوض مع اسرائيل.

وبعد لندن، توقفت في باريس لاجراء محادثات مع كلود شيسون، قبل العودة بسرعة الى بيروت للاجتماع بفيليب حبيب. لقد أراد حبيب أن يجتمع بي بعد زيارته الى اسرائيل. كنا نأمل في تحقيق تقدمٍ ما بعد المحادثات المكثّفة في واشنطن، ولكن تبين أن الموقف الاسرائيلي أخذ يزداد تصلباً. بقي الاسرائيليون متصلبين بالنسبة لسعد حداد. كانوا يريدون لقوته ان تكون اساس لواء برّي ينتشر في الجنوب

اللبناني، وارادوا لكبار ضباط اللواء ان يعينوا بالتشاور مع لجنة عسكرية مشكلة من ضباط لبنانيين واسرائيليين. لقد أراد الاسرائيليون ان يصار الى التشاور بين عسكرييهم وعسكريينا في الجنوب، كما ارادوا ان نمنح القوات الإسرائيلية المسلحّة حق المطاردة عبر الحدود اللبنانية. واخيرا، اراد الاسرائيليون تدريب وحدات لبنانية خاصة لضبط نشاطات الفدائيين في الجنوب. ومثل هذه المطالب تشكل بالطبع خرقا لسيادتنا وكانت بالتالي مرفوضة كليا. قلت لحبيب إنه يعرف موقفنا بالنسبة لمثل هذه المسائل، فلماذا ينقلها الينا؟ ولماذا لا يرفض تسلمها منهم، فرد على ذلك بانه وسيط، عليه ان ينقل المقترحات الإسرائيلية والردود اللبنانية عليها. اما آراؤه فسيتقدم بها في الوقت الملائم. قلت له: هذا هو الوقت الملائم. ولا بد لنا ان نتحرك. أجواء المباحثات غير جيدة. وقد كنا نتلقى من فريقنا المفاوض ان المفاوضين الاسرائيليين كانوا يزدادون صلابة وعنفا. وقد اصبح الفريق الاسرائيلي يسخر من السيادة اللبنانية، ويهزأ بجيشنا، ويتهكم على مُفاوضينا.

أبلغت درايبر أن على الاسرائيليين ان يغيّروا أسلوبهم في الكلام معنا، وإلا قطعنا المفاوضات. وقلت له: يظهر ان الشهية الاسرائيلية تتزايد، ودوركم كشريك يبدو فاترا وغير فعّال. ان الجنوب يواجه المصير ذاته الذي تواجهه الضفة الغربية وغزة. ينبغي ان نتحرك قبل ان تنشأ حقائق جديدة على الأرض. وفسّر درايبر التهكم الإسرائيلي بانه قد يكون نتيجة «عُقد نفسية»، وربما كان من موقع الدفاع عن النفس. ثم قال: انت يا ايلي مطلع على الثقافات المقارنة، وعلى حساسيات الاسرائيليين، ومطلع على الضغوط التي يتعرض لها المفاوضون الاسرائيليون من حكومتهم. انهم يشعرون بخيبة امل. انهم يريدون الكثير منكم، وانتم لا تعطونهم ما يطلبون. انهم يتساءلون: من أنتم لترفضوا؟ هم يودون ان يكونوا أصدقاء لكم. وأنتم لا تريدون ذلك؛ هذا صعب عليهم ولا يفهمونه جيدا. هذه الأجواء السلبية هي محض اجواء نفسية. لا بد لها ان تنتهي. أريد منكم ان تعرفوا ان دايفيد كمحي، وهو رجل متمدن، متفهم لأوضاعكم ومنزعج من الاجواء السلبية المخيمة على فريقه المفاوض ويعمل جهده لتغييره. أعطه بعض الوقت». وصرخت بدرايبر: «الوقت»، هو

أقل ما لدي حتى اعطيه. مشكلتي هي الوقت وخوفي من القضم الاسرائيلي».

في أوائل نيسان/أبريل، لوحظ تغير قليل في الموقف الاسرائيلي. ولعل مرد ذلك إلى تصريح لريغن يوقف فيه تسليم طائرات إف/١٦ حتى تنسحب اسرائيل كليا من لبنان. ان تصريح ريغن هذا صدر بناء على طلب من فيليب حبيب. وفي آخر آذار قال لي حبيب انه سئم من تقديم الجزرة، وهو الآن بحاجة إلى العصا، والعصا بيد ريغن. فطلب إليه ان يوقف تسليم طائرات إف/١٦. كذلك كانت اسرائيل في نهاية آذار/مارس قد سبرت أعماق الوضع اللبناني، وتوصلت إلى الاستنتاج باننا لن نذهب اكثر مما ذهبنا.

مسودة الاتفاقية

في الثالث من نيسان/ابريل كانت مسودة الاتفاقية جاهزة. اجتمعنا أنا وغسان تويني بالرئيس الوزان، ودققنا في النص مادة مادة، مدخلين عليه التعديلات المناسبة. ابلغنا درايبر ان المسودة مقبولة لدى الفريق الاسرائيلي المفاوض. غير ان هنالك اعتراضات عليها من قبل الساسة الاسرائيليين، وبالأخص من بيغن وشارون. بيغن كان يتزايد انكماشا على نفسه، ويلوم نفسه على خسائره وأخطائه في الحرب اللبنانية. وشارون كان يتزايد في مطالبه، ويريد المزيد من لبنان لتبرير حربه المكلفة فيه. ثم ان لجنة كاهان التي شكلها «الكنيست» للتحقيق في مجازر صبرا وشاتيلا تحت أعين الاسرائيليين، كانت قد حمّلت شارون مسؤولية خاصة في هذه المجازر مما زاد في تشدده ضد لبنان واللبنانيين وفي إصراره على اتفاقية تبرر الغزو الاسرائيلي. كان في المسودة ألغام كثيرة منها مصير سعد حداد، ووضع جبل الباروك، وتمركز «اليونيفيل» وغيرها.

وكان واضحاً ان متابعة البحث في هذه الموضوعات قد تستغرق وقتاً طويلاً. والثقة بدور الولايا ت المتحدة أخذت بالتدهور، وحكومتنا بدأت تواجه معارضة من بعض السياسيين الذين كانوا يأملون ان تجلو جميع الجيوش غير اللبنانية عن لبنان في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٢، وها نحن الآن في سنة ١٩٨٣ ولم يحدث أي

تقدم، حتى ان هنالك من طالب باستقالة الحكومة. ثم ان عناصر معينة في الوسط المسيحي بدأت توجه المزيد من الانتقاد لي شخصياً بسبب موقفي المعلن من العرب، وتلقيت عدداً من التهديدات عبر قنوات مختلفة. ووعد الرئيس الجميل بالتدخل لدى أصدقائه في الوسط المسيحي لتخفيف حدة الانتقاد ولوضع حد للتهديدات المتتالية. على أنه اقترح ان أزيد عدد الحرس والمرافقين لتدارك كل الاحتمالات. واخبرت حبيب ودرايبر بالجو السائد في البلاد، وبالحاجة للتوصل إلى نتيجة، فوعداني بتكثيف جهودهما. هما ايضا كانا مستاءين من بطء المفاوضات. والواقع ان حبيب كان مستاءً جداً من الاسرائيليين وبالاخص من شارون وآرنز. كذلك كان صبر رئيس الجمهورية بدأ ينفد بسبب مطالب الاسرائيليين من جهة، والضغوط الداخلية من جهة ثانية. وفي اجتماع للرئيس مع حبيب في ١٤ نيسان/ابريل، صب غضبه على حبيب بدون تحفظ. كان يصرخ بحبيب وينظر إلي ليتأكد: هل خرق الاعراف الدولية، او لا، وكنت أنا مسرورا لغضب الرئيس، وأشجعه ولكن بالفعل لم يكن حبيب بحاجة إلى المحاضرة. كان يعلم بأجوائنا على حقيقتها. إلا انه كان هاماً بالنسبة لنا ان نعبّر عن موقفنا بحيث يمكن له ان ينقله بحيوية الطبيعية واحساسه بالعجلة إلى ريغن وشولتز، وبيغن، وآرنز، وشارون.

ومما قاله الرئيس الجميل له: «ينبغي ان اكون صريحا معك، فأقول لك: ان الدور الاميركي في المفاوضات لم يكن كما توقعناه. لقد اكد لنا الرئيس ريغن ان المبادئ الثلاثة التي بدأنا المفاوضات على أساسها، وهي سيادة بلدنا، والاجماع الوطني، والعلاقات مع العالم العربي، لن تمس، ولكن في المفاوضات كان الضغط الاميركي علينا متواصلا لتلبية مطالب الاسرائيليين مما يوشك ان يعدل من هذه المبادئ الثلاثة.

ويظهر ان اميركا تضغط على لبنان اكثر مما ضغطت على اسرائيل وقد تنازلنا في هذه الاتفاقية إلى أبعد مما كنا نفكر به، ولا يمكن ان يزداد تنازلنا. فاما ان تكون الاتفاقية بحسب النص اللبناني، او لا تكون. لا أريد أن أكون الرئيس الذي يوقع اتفاقية تخرق سيادة لبنان وتمس كرامته. انني مستعد ان اغامر وأقود حملة من

نوع آخر، اذا لزم الأمر، لتحرير بلادي. ان الشروط الاسرائيلية تتحول تدريجياً إلى شروط تعجيزية. لا بد لشهيتهم ان تنتهي عند حد. ويجب عليكم، انتم الاميركيين ان تضعوا ثقلكم وراء كلمتكم. اننا نضيع وقتنا في الحجج التافهة. طريقتكم في المفاوضة تؤدي بنا إلى تقديم تنازل بعد تنازل. ولقد كان ذلك بمثابة تجربة مرة. لم نكن نتوقع منكم ان تكونوا على هذا المستوى المتدني من الفعالية واسرائيل تواصل تدخلها في شؤوننا الداخلية. وأنتم لا تفعلون أي شيء. لقد كانت وراء مجزرة وحدتنا العسكرية في عالية؛ وهي تبني مطارا في الدامور. ومطار طوافات في عين زحلتا. لماذا يفعلون ذلك؛ هل ينوون البقاء؛ ماذا تقولون لهم؛ هل تنفذون تعليمات ريغن؛ أريد أن أتعاون معكم ولكنني لا ألقى الاستجابة الصحيحة منكم. وها انتم تثيرون مسألة سعد حداد للمرة العاشرة. لقد سئمت هذه المسألة. حداد مشكلتنا. حداد ضابط صغير في الجيش اللبناني. اتركوه لنا. انني اقول: انها المرة الاخيرة التي أسمح بها لكم أو لأي انسان آخر أن يثير قضية سعد حداد معي. هذا الموضوع مقفل».

آنذاك كان حبيب يبحث عن كلمات يقولها فلا يجد. هو نفسه كان مستاء. ابتلع هذا التعنيف بصعوبة. كان غضبه واضحا، لكنه حافظ على مراسم مبعوث بحضور رئيس آخر. ووعد بان لا يثير مثل هذه القضايا مرة ثانية. ثم راح ينتقل من موضوع إلى آخر من غير ان يحقق أي نتيجة أفضل. على أنه، لدهشتي، طرح على الرئيس سؤالا حول الاعتراف باسرائيل. مرة اخرى انفجر الرئيس في وجهه: «أي اعتراف؟ هل نحن نوقع معاهدة سلام؟ أفضل ان اوقع معاهدة سلام، وان اواجه جميع المشاكل علنا لا أن أمرّر اتفاقية تضم الاعتراف ومواد اخرى شبيهة بها. الاعتراف غير وارد».

وبعد هذا الاجتماع العاصف، التقينا، أنا والسفير ديلون، في منزلي وتحدثنا مطولا عن هذا الاجتماع وعن استياء الرئيس. قلت لديلون إنني مع الرئيس كليا بشأن موقفه، وبالنسبة لخيبة أمله. لقد توقعنا، من دولة عظمى أن تكون أكثر فعالية مع دولة أخرى تابعة لها. لقد قلتم لنا انكم تفهمون وضعنا، وأنكم لن تضغطوا

علينا، ولكنكم للأسف تضغطون علينا دائما. قال ديلون: صدقني، اننا نضغط على الاسرائيليين اكثر مما نضغط عليكم. وبرغم ذلك فقد كان ديلون يتعاطف معنا تعاطفا كليا. هو أحد السفراء القلائل الذين احتفظوا لأنفسهم بحق التمسك بآراء قوية حول ما هو صواب وما هو خطأ.

وأحسست انه كان يشعر شعوراً قوياً باننا على حق. على أنه كان، في كل حال، سفير دولة عظمى عليه أن يزن كلماته وأفعاله بدقة وبانسجام مع التعليمات الواردة من واشنطن. قلت لديلون اننا وصلنا إلى الحد الأقصى؛ ولا يمكن ان تضيف كلمة واحدة إلى نص المسودة. يمكن لهذه الاتفاقية ان توقع اليوم، او في السنة المقبلة، لكننا لن نغير موقفنا من أيٍّ من النقاط المطروحة. وأضفت: بعد ذلك أشعر أننا ندخل في حلقة مفرغة. وتذكرت هنا قول نيتشه عن «سنّة التكرار في التاريخ». هنا قلت للسفير ديلون ان العبرانيين القدماء رفضوا نظرية التكرار في التاريخ، التي كان يعتنقها الوثنيون، وآمنوا بالتقدم من صفر البداية إلى نهاية التاريخ في يوم الدينونة. التاريخ بالنسبة للعبرانيين يسير قدما إلى الأمام لا تكرار فيه، ولكن يظهر ان العبرانيين الجدد لا يؤمنون بالتقدم، بل يعتنقون فلسفة التاريخ عند الوثنيين حيث كل شيء يعاد ويعاد ويعاد، دون معنى، دون هدف، دون نتيجة. حدّق بي ديلون طويلا، ولم يقل أي شيء. وخطر لي ان ممثل الدولة العظمى لا يستطيع دائما ان يقول ما يمر في ذهنه، حتى ولو كان مع أقرب أصدقائه.

انفجار في سفارة الولايات المتحدة

في الثامن عشر من نيسان/ابريل، حين كنا، أنا ورئيس الجمهورية، نراجع تعديلات جديدة في نص المسودة مع فيليب حبيب، دخل علينا ضابط من الحرس الجمهوري وأبلغنا ان سيارة مفخخة انفجرت في السفارة الاميركية. وقال ان عدد الاصابات كبير، بينها السفير ديلون، على ما يعتقد. هنا تحرك درايبر، وقد كانت زوجته روبرتا في السفارة. وقفز مذعورا، وهرع باتجاه بيروت. وقرر حبيب ان يتصل بوزير الخارجية شولتز على الفور ليبلغه أنه لم يصب بأذى، اذ خشي ان يدرج الاعلام اسمه بين الاموات، ويفرح بذلك الكثيرون.

فاتّصل حبيب بشولتز من القصر الجمهوري وطمأنه إلى أنه بخير. ثم همس حبيب باذني قائلاً «اتمنى ان يكون شولتز قد سر بخبر نجاتي. ولكنني لست متأكداً». مع ان حبيب وشولتز في الواقع صديقان شخصيان.

بدأنا نتلقى المزيد من الأنباء عن التفجير. تبين أن احد الاشخاص في مهمة انتحارية اقتحم مبنى السفارة في شاحنة صغيرة محملة بالمتفجرات. ونجا ديلون باعجوبة، مع ان مكتبه انهار عليه وانهار من حوله. كان يدير عمليات الانقاذ من خارج السفارة، وكان على اتصال مستمر بنا.

كذلك بدأنا نتلقى اسماء القتلى، والجرحى والمفقودين. الكثيرون منهم اصدقاء لنا عملنا معهم عن كثب خلال الاشهر القليلة الماضية. وعندما قصدت موقع الانفجار، رأيت القسم المركزي من المبنى منهاراً انهياراً كليا، ساحقاً من كان في الداخل. وعلم حبيب بموت سائقه سيزر، وحزن لهذا النبأ حزنا شديداً. ثم عرفنا من درايبر ان زوجته روبرتا قد نجت وانه عائد معها للانضمام إلينا.

وبعد ان قام ديلون بكل ما في استطاعته ان يقوم به في السفارة، عاد إلى دار السفارة حيث كنا في انتظاره. كان يبدو هادئاً في المظهر، ولكنه كان محطماً في الداخل؛ ولقد فقد العشرات من اصدقائه ومعاونيه، ومساعديه. ثم إنه هو نفسه نجا من الموت بعناية إلهية فائقة.

على أثر الانفجار، شعرت انه علي أن أواجه الصحافة بخصوص قضية السفارة. وقد فعلت ذلك في ٢٠ نيسان/ابريل. قلت في تصريحي:

«ان لبنان يأسف للأرواح الكثيرة التي سقطت في هذه الفاجعة. ومن المؤسف ان لبنان، أياً كان هدف القتل والتفجير، يبقى هو الضحية. وليس هذا بوقت استغلال هذه الفاجعة. ينبغي التحقيق في الفواجع، لا استغلالها. والفاجعة تفرض علينا التشديد على الناحية الأمنية، للتثبيت من انها لن تتكرر. ان لبنان لا يستطيع أن يكون مسؤولا كليا عن امنه حين تقوم على أراضيه جيوش أجنبية تمارس امنها الخاص. ان الطريقة الوحيدة لضمان الامن هي اخراج جميع القوات الأجنبية من

لبنان، وترك اللبنانيين وحدهم يتحملون مسؤولية السلام والأمن في بلادهم، واعتبارهم عندئذ مسؤولين عمّا يحدث على أرضهم. اسرائيل تحارب منظمة التحرير، والضحية الفعلية هي لبنان؛ إيران تحارب اسرائيل، والضحية الفعلية هي لبنان؛ الميليشيات تقتتل فيما بينها، والضحية الفعلية هي لبنان؛ الاجانب يحاربون على أراضينا، ونحن الذين ندفع الثمن. ومما يدعو إلى الأسف ان تكون اسرائيل استخدمت هذه الفاجعة، امس واليوم، للقول إن جيشها يجب أن يبقى في لبنان. انني أسأل الاسرائيليين: هل استطاعوا، في ما يسمونه «منطقتهم الأمنية»، ان يحولوا دون حدوث مثل هذه الحادثة؟ هل يمكن لي ان أسألهم كم عسكرياً فقدوا منذ دخولهم إلى لبنان؟ انه لمفجع حقاً ان تستغل الفاجعة لاغراض سياسية.»

وارسلت الولايات المتحدة لورنس إيغلبرغر، ونيكولاس فيليوتس، وروبرت ماك فرسون لمرافقة نعوش الاميركيين الذين سقطوا في هذا الحادث.

وأبلغني ديلون انه سيقام احتفال تشييع خاص وقصير للضحايا في المطار، وانني مدعو مع زوجتي لحضور هذا الاحتفال. قبلت الدعوة مدركاً انها مناسبة لتقديم تعازينا الرسمية للاميركيين.

وصباح يوم السبت، ٢٣ نيسان/ابريل، اتجهنا إلى المطار بالسيارة، أنا وزوجتي الاميركية المولد فيليس سل.

وفي الطريق إلى المطار، قالت لي: كم هو صعب عليها ان تساهم في احتفال من هذا النوع: ان الحزن الذي تشعر به عائد إلى انها مواطنة لبنانية وزوجة وزير خارجية بلاد تعاني عذابا عميقا. فهي تحزن كلبنانية على الاميركيين الذين قتلوا، كما تحزن على اللبنانيين الذين قتلتهم الحرب.

كانت مع السنوات قد أصبحت لبنانية، عميقة المشاعر اللبنانية، حتى انها لم تعد تهتم بالمشاكل التي تقع في أميركا، أو للاميركيين. كان البعد اللبناني للأزمة قد طغى على كل ما عداه. وبصورةٍ ما، ضل سائقنا الطريق الصحيح إلى مكان الاحتفال، ودخل إلى مدرج المطار الرئيسي حيث موقع الفرقة الاميركية في القوة المتعددة

الجنسيات. وكان جنود «المارينز» في حالة توتر، على ما هو واضح؛ واتجهت نحونا دبابتان هادرتان وقد صوبتا مدافعهما علينا ووراءهما عشرات «المارينز» في تشكيلة قتالية. أمرت السائق أن يعود إلى الوراء ولكن تبين ان رجوعه زاد الارتياب بنا، وأدى إلى بروز المزيد من الدبابات من وراء التلال الرملية. امام هذا المأزق، قفزت من السيارة وصرخت: أنا وزير الخارجية قادم لحضور حفل تشييع ضحايا السفارة. دلوني على الطريق الصحيح. عند ذاك صرخ بي مدفعي في الدبابة الامامية: «بالله عليك وزير أنت أم ارهابي؟»

ولحسن الحظ ترجل احد الضباط، وتثبت من هويتنا، واعتذر، ثم ارشدنا إلى الاتجاه الصحيح. وكان الحفل عسكرياً بسيطاً، ومؤثراً، وكانت النعوش تنقل من سيارات الاسعاف، واحداً واحداً وسط مراسم التشييع، إلى الطائرة المنتظرة. وكانت الدموع تنهمر بغزارة من أعين الرسميين الاميركيين قدمنا تعازينا ورجعنا. وإذا كانت هذه السيارة المفخخة واحدة من آلاف الاحداث على الارض اللبنانية منذ ١٩٧٥، فهي، من ناحية اخرى، تختلف عن تلك الاحداث لأبعادها الدولية.

ولقد جاء هذا الهجوم على السفارة الاميركية يثير اسئلة كثيرة في أذهاننا. فاذا كان لمثل هذه الحادثة ان تتكرر، فهل يمكن لسياسة الولايات المتحدة في لبنان ان تستمر؟ وهل يستمر الرأي العام الاميركي بدعم ريغن في سياسته في لبنان؟

ولا شك أن الاسرائيليين والايرانيين والسوفيات والاطراف الأخرى المعنية بالأزمة اللبنانية كانوا يطرحون الأسئلة ذاتها. لقد بدأ الموقف الاميركي قويا، ثم أخذ يضعف. والسؤال الآن: كم يمكن للأميركيين ان يتحملوا من الضحايا قبل ان يعتبروا لبنان معقداً لدرجة لا تسمح بالحل ويتركوه وحده يجابه الاحتلال الاسرائيلي.

دبلوماسية شولتز

في ٢٨ نيسان/ابريل، تلقى الرئيس الجميل من الرئيس الأسد، بواسطة مبعوث خاص، بياناً مكتوباً بخط اليد، غير موقع وغير مؤرخ هذا نصه:

«نص الرسالة الحرفية الموجهة من السيد الرئيس حافظ الأسد إلى فخامة الرئيس أمين الجميل.

أبلغنا الجانب الأمريكي ما يلي:

- لا نريد أن يكون هناك أيّ لبس بالنسبة لموقفنا، ونريد أن نتحدث معكم دائماً بصراحة. ورغم أننا أكدنا موقفنا سابقاً من الوضع في لبنان، وحرصاً منا على أن لا يساء فهم موقفنا كما يبدو أحياناً من بعض التصريحات، فنحن نوضحه مرة أخرى:

- إننا نعتبر أية مكاسب يحققها الغزو الاسرائيلي للبنان تشكل خطراً على أمننا الوطني والعربي مما سيفرض علينا بقاء في لبنان مستمراً ما استمرت هذه المكاسب ومن الطبيعي أن نتمسك لمقتضيات الأمن خاصة وأن اسرائيل تبحث وتخطط لأعمال توسعية متتالية بين وقت وآخر».

واجتمعنا، أنا والوزان، وتويني، وحداد، بالرئيس الجميل وفكرنا طويلا بشأن رسالة الرئيس الأسد. من الواضح انها كانت اشارة قوية بان لا نتابع العمل للتوصل إلى اتفاقية. غير اننا كنا أنجزنا المسودة. ولم تبق سوى نقاط ثانوية بحاجة إلى حل. وقف العملية صعب. وكان أملنا ان يغير الأسد رأيه حين يرى النص ويسمع حجتنا للمضي فيه. وكان بيننا من رأى أن الأسد بعث بهذه الرسالة لاجبار شولتز على الدخول في حوار بالعمق مع سوريا حول مسألة الشرق الأوسط، ولذلك ليست سببا لوقف العملية. والواقع ان الرسالة لم تزد شيئاً إلى ما كان الأسد قد قاله لنا من قبل - لا تنازلات، ولا تعرّض للسيادة الوطنية، ولا اجراءات امنية يمكن بنظر سوريا ان تشكل تهديدا لسوريا او للامن العربي. كذلك كان خدام قد أوضح ذلك في لقائنا بلندن. غير أن لتوقيت الرسالة معنى خاصاً شعرنا انها موجهة إلى الاميركيين بقدر ما هي موجهة إلينا. وبما ان شولتز هو في طريقه إلى بيروت، فقد ساد الشعور بان محادثات عالية المستوى بين شولتز والأسد امر مرغوب فيه، لا بل ضروري اذا كان لا بد من تحقيق التقدم المنشود.

وصل شولتز إلى بيروت بعد ساعات قليلة من تسلم رسالة الأسد. استقبلته في مطار بيروت وكان فيليب حبيب برفقتي. وكان شولتز قد قرّر ان يكرّس المزيد

من وقته للتوصل إلى اتفاق. كان يقوم برحلات مكوكية بين بيروت والقدس ودمشق والرياض وعمان والقاهرة لتأمين الدعم الكافي للاتفاق.

وفي طريق العودة من المطار، انضم إليّ حبيب في سيارتي. فيما كان موكب شولتز ينطلق منفرداً. كانت هنالك امور كثيرة يجب بحثها مع حبيب قبل الاجتماع بشولتز في ذلك المساء. وراح سائقي يتجول متمهلاً في شوارع الضاحية والتي يعرف حبيب انها منطقة خطرة على الاميركيين. فنظر إلى الوراء ولم ير سيارة أمن خلفنا. وصرخ: يا سيد إيلي، يا معالي وزير خارجية لبنان، يا صديقي، هل تريد أن تقول لي انك تنتقل بالسيارة في هذه المدينة العنيفة والخطرة، بدون قوة أمن وراءك؟ هل تعرف من يجلس بجانبك في هذه السيارة؟ هل تعرف كم من الناس يريدون رأسي؟ أدعو ربي ان لا تكون انت واحداً منهم!

وهدأت من روع حبيب. وحثثت السائق ان يسرع، وهذا كان كل ما ينتظره الشاب السائق حتى «يطير» بالسيارة. وسرعان ما تساءل حبيب: أي الشرين اهون؟ رصاصة في الرأس ام اصطدام بحائط تجلبه لنا سرعة ١٢٠ كيلومترا بالساعة؟ ثم خيم عليه، وعلى غير عادة، الوجوم والصمت حتى وصلنا إلى القصر الجمهوري. وعلمت، لدهشتي، أن حبيب عندما يخاف يصمت كليا ولا يجد ما يقوله. وبعد هذه التجربة مع فيليب حبيب قررت ان تسير ورائي سيارة أمن. ولكن سرعان ما تبين بأن هذه السيارة الامنية كانت، عوضا عن ان تحميني، تلتطم بمؤخرة سيارتي بسرعة فائقة بشكل مستمر حتى استهلكت ما تبقى لديّ من أعصاب. ومن شأن الحرس عادة ان يتمتعوا بالاسراع، وهم ميّالون، اذا سمحت لهم، باطلاق النار في الهواء لفتح الطريق، ويصرخون بالناس كي يتفرقوا يمينا ويساراً وأعتقد ان همهم الاساسي ليس الحماية، بل الوقوع في مشاكل حتى يخلصوك منها ويظهروا بمظهر الأبطال.

وفي محادثاتنا مع الوزير شولتز، قلنا له اننا نريد اتفاقية تؤدي إلى الانسحاب وتكون مقبولة من سوريا. فرد شولتز بانه يشعر ان الاتفاقية التي توصلنا إليها تؤمن ذلك وقد سبق له ان اجتمع ببيغن رئيس وزراء اسرائيل، وان بيغن قال له انه

هو ايضا يريد التوصل إلى اتفاقية، وانه يريد ان يسحب قواته كلها من لبنان. ثم قال ان السوفيات لا يريدون للولايات المتحدة ان تنجح في الوصول إلى اتفاقية مع لبنان تؤدي إلى اتفاقية أشمل بشأن التسوية في الشرق الأوسط. والسوفيات، كما قال شولتز، «جماعة مفسدون. هم قادرون على خربطة الامور ولكنهم غير قادرين على التوصل إلى اتفاقات بين اسرائيل والدول العربية. اما اميركا، فبامكانها ان تفعل ذلك. انهم سيحاولون تفشيل مهمتنا ولكننا لن نسمح لهم بذلك. قال شولتز: إن للسوفيات نفوذاً قوياً في سوريا، غير ان الرئيس الاسد رجل مستقل، ويتخذ القرار الذي يجده مناسبا دون ان يتأثر بالموقف السوفياتي. وبالامكان اقناعه بان الاتفاقية جيدة. كان شولتز واثقاً بان الرئيس الاسد سيقبل بالاتفاقية، ولكننا نحن لم نكن واثقين ابدا. ومن الواضح ان امامنا صعوبات غير انه علينا ان نضع الصيغة النهائية للمسودة ليكون لدينا ما نبحثه مع الاطراف المعنية.

راجعت باسم الجانب اللبناني، مسودة الاتفاقية مع شولتز، بندا، بندا، شارحا له ما يمكن، وما لا يمكن ان نقبل به. ليس بوسعنا ان نقبل توقيع الاتفاقية من قبل وزراء الخارجية، اذ اننا لسنا في صدد توقيع معاهدة، بل وضع ترتيبات امنية. ان الاتفاقية يجب ان توقع من قبل رؤساء الوفود.

ثم اننا نعارض الاعتراف. واذا ما استعملنا هذه التسمية نكون قد عقدنا معاهدة سلام. فرد شولتز على ذلك بان الحكومة الإسرائيلية قد تقول لأغراض سياسية داخلية بانها عقدت معاهدة سلام مع لبنان، فاذا قالت الحكومة الاسرائيلية ذلك فهل تعترضون؟ فرددت عليه: «اننا دائما نقول الحقيقة لشعبنا. لقد سمع الشعب اللبناني الكثير من الأكاذيب فاذا قال بيغن انه حصل على معاهدة سلام، سأقول لشعبنا ان الاسرائيليين يكذبون». وهز شولتز برأسه، ولكنه لم يكن شديد الارتياح.

بعد ذلك ناقشنا النواحي الاكثر تقنية في الاتفاقية من أسماء اللجان، واللجان الفرعية، وأعضائها، وصلاحياتها، ودور «اليونيفيل» والموضوعات الشائكة التي تقع تحت عنوان العلاقات المتبادلة. لقد أراد الإسرائيليون منا ان نوافق على العلاقات

المتبادلة عند توقيع الاتفاقية أما نحن، فأردنا تأجيل المباحثات حول العلاقات المتبادلة فترة ستة أشهر بعد الجلاء الاسرائيلي الكامل عن الاراضي اللبنانية. وكنا مستعدين للدخول في بحث العلاقات المتبادلة بعد ستة أشهر من الانسحاب، ولكننا كنا نهدف إلى مباحثات فقط وليس التوصل إلى نتائج، لأن موقفنا هو انه لا علاقات متبادلة مع اسرائيل الا من ضمن سلام شامل وعادل مع كل الدول العربية المعنية.

وفي ٣٠ نيسان/ابريل عقدنا اجتماعا آخر مع الأميركيين، وفيه قرأنا نص المسودة مرة اخرى، مادة مادة، وعدلناه كما يجب وكان الفريق اللبناني مؤلفا من الرئيس الوزان، وتويني، وفتال، واللواء حمدان، والعقيد رحيم، ومني. وكان الفريق الاميركي مؤلفا من الوزير شولتز، وحبيب، ودرايبر، وفيليوتيس، والموظفين التقنيين الداعمين للوفد.

آنذاك كان الجو السياسي العام مشوباً بالتخوف من ان لا تنسحب اسرائيل من لبنان، او من احتمال قيامها بانسحاب جزئي فقط. بدأنا نشعر ان عقد اتفاقية انسحاب لم يعد بالضرورة أولوية من أولويات اسرائيل، وان الاسرائيليين أخذوا يميلون إلى بدائل أخرى. وحين حل آرنز محل شارون كوزير للدفاع، بدأ هذا التوجه في اسرائيل يَزداد. أخذنا نشعر به في الكثير من الاحداث الصغيرة. استوضحنا ذلك من الاميركيين، فأكدوا لنا أن لا تغيير في السياسة الاسرائيلية ولكن تبين، في ما بعد، أن الاميركيين مخطئون. وفي اجتماع ٣٠ نيسان/ابريل الطويل اكدت انه اذا لم يتحقق الانسحاب، فلن يكون هنالك من اتفاق، اذ لا يمكن لنا ان نقبل باتفاقية لا توفر الانسحابات الكاملة. وافَقَنا شولتز على ذلك وطلب منا ان نحدد خطياً ما نريده من الاميركيين. فأكد الرئيس الوزان اننا نعمل من اجل صفقة كاملة، وان المسار أمامنا ضيق. كثيرون سيهاجموننا، مع اننا نفعل ما في وسعنا لتحرير لبنان من الاحتلال. ثم حث شولتز على تقدير وضعنا الصعب وان لا يثقلنا باكثر مما نستطيع ان نحمل.

وبعد الاجتماع طلب رئيس الجمهورية من شولتز وحبيب ومني أنا أن نلتقيه تحت صنوبرة في حديقة القصر. جلسنا، وتناولنا القهوة، وكان شولتز في حالة متفائلة بعد ما اعتبره زيارة مثمرة إلى اسرائيل.

لنفترض، كما قال، أننا توصلنا إلى اتفاقية. نحن الآن نريد ان نناقش معكم كيف يجري تنفيذها على الأرض.

الاسرائيليون يحبون التفاصيل. هم يريدون ان يعرفوا منا كيفية تنفيذ الاتفاقية على أساس يومي. إنهم يريدون نماذج من ذلك. هنالك في الاتفاقية شروط ينبغي توضيحها وتفسيرها في ملحق.

وكان شولتز متفائلاً بالنسبة للموقف السوري. وكان قد تسلّم دعوة لزيارة دمشق. وقال ان هنالك أشياء كثيرة يريد الأسد ان يبحثها معه، والولايات المتحدة مستعدة أن تدخل في حوار معه بالنسبة لقضايا إقليمية تهمه. قلت لشولتز إن لدينا أسئلة دولية واقليمية يجب معالجتها قبل توقيع الاتفاق. ووضعت ستة أسئلة في هذا المعنى وقدمتها لرئيس الجمهورية. قلنا لشولتز اننا لن نوقع على الاتفاق قبل الحصول على ردود مطمئنة. بعد ذلك تلاها الرئيس الجميل لشولتز فيما راح حبيب يسجلها، وهي:

١ - إذا ما عجزنا عن التوصل إلى اتفاقية مع اسرائيل بشأن الانسحابات الكاملة، فأيُّ مسار آخر يمكن للولايات المتحدة ان تدعم فيه لبنان؟

٢ - اذا ما توصلنا إلى اتفاقية ورفضت سوريا الانسحاب على أساس ان الاتفاقية تمنح اسرائيل مكاسب في لبنان، فما هو مصير الاتفاقية؟

٣ - اذا ادى عقد الاتفاقية إلى مقاطعة البلدان العربية لبضائعنا، فكيف يمكن للولايات المتحدة ان تساعد؟

٤ - اذا تجاهلت اسرائيل الاتفاقية وانسحبت جزئيا، وعززت موقعها في اية منطقة لبنانية تعتبرها منطقة أمنية لها، فكيف يمكنكم مساعدتنا على اخراج اسرائيل من تلك المنطقة؟

٥ - حيال وجود النفوذ السوفياتي في المنطقة، والمعارضة السوفياتية لبادرتكم في الشرق الأوسط، فهل أنتم واثقون من أن هذا النفوذ لن يهزم جهودكم في التوصل إلى اتفاقية بين لبنان واسرائيل؟



إيلي سالم ووزير الخارجية الأميركية جورج شولتز

٦ - في حال حصول ما هو غير متوقع، وكانت حرب بين اسرائيل وسوريا، فكيف يمكن لنا أن نحمي لبنان واللبنانيين من هذه الحرب خصوصا اننا نعرف سلفاً ان هذه الحرب ستدور رحاها على ارضنا؟

وقلت لشولتز إن الاجابات عن هذه الأسئلة هي بأهمية الاتفاقية نفسها، إن لم نقل اكثر.

وافقني شولتز على ذلك، واعتبر الاسئلة هامة وصعبة، وقال انه سيقوم، هو وحبيب، بالتفكير فيها وبالتشاور بشأنها مع الرئيس ريغن. ثم أضاف ان بعض أجوبتنا يتوقف على الاتفاقية، في حين ان منها ما يتوقف على الدول العربية المعتدلة، ومنها ما يتوقف على ما ستفعله الولايات المتحدة.

كذلك أضاف: كان الرئيس ريغن قد قال ان الولايات المتحدة ستمد يد العون للبنان للخروج من الازمة، وهي ستفعل ذلك. نحن لا نملك عصا سحرية، ان لدينا النفوذ وسنستعمله. نحن لا نريد لهذه الاتفاقية ان تكون رباعية الاطراف. اننا نواجه ما يكفي من الصعوبة باطرافها الثلاثة. اعتقد ان سوريا ستنسحب حين تدرك ان لدينا اتفاقية لاخراج اسرائيل من لبنان. ذلك هو بمثابة انجاز كبير لم تحققه أيُّ دولة عربية بدون معاهدة سلام. هنا شرحت له ان الرئيس الأسد عارض معاهدة السلام بين مصر واسرائيل؛ وهو دائما معارض للمحادثات الثنائية مع اسرائيل. ثم ان مذكرة الرئيس الأسد لنا تشير إلى انه سيعارض الاتفاقية. واعترف شولتز ان سوريا لن تكون سهلة، ولكن اذا ما توصلنا إلى اتفاقية جيدة تخرج اسرائيل من قلب لبنان، فاننا سنحصل على الدعم العربي العام بما في ذلك دعم السوريين. وأقر أنه لا بد لذلك من عملية دبلوماسية طويلة، إلا انه كان واثقا من النتيجة. البديل من ذلك، كما قال، هو احتلال اسرائيل لا لمنطقة في لبنان، بل للعاصمة نفسها بكل ما يعنيه ذلك من مخاطر. نحن في مأزق حاد، لكن ذلك ليس جديدا. نحن في هذا المأزق منذ زمن بعيد.

وفي اليوم التالي، نهار الأحد في أول أيار/مايو، اجتمع هذا الفريق الصغير نفسه تحت شجرة الصنوبر نفسها. وقال لنا شولتز انه فكّر في الأسئلة، واستشار

ريغن بشأنها، وهو على استعداد لتقديم الاجوبة عنها. بالنسبة للاتفاقية، انه لا يجوز لنا ان نفكر في احتمال الفشل. ان عواقب الفشل ستكون سيئة بالنسبة للبنان، ولاسرائيل وللولايات المتحدة. ينبغي ان ننجح لأن البدائل ستكون خطرة وتزيد الوضع تعقيداً. وفي أفضل الحالات ستثبت الاحتلال الاسرائيلي، وفي اسوأها قد تؤدي إلى المزيد من الحروب في المنطقة.

وبالنسبة لسوريا، علينا ان نحصل على موافقتها على الاتفاقية. سنفاوض سوريا، ولدينا بعض النفوذ في دمشق واكثر مما هو ظاهر. واذا كان للسوفيات نفوذ، فلا نفوذ لهم يُذكر بالنسبة لحرية الرئيس الاسد باتخاذ القرار. الأسد يتصرف باستقلالية تامة. واذا كان يخضع لأي نفوذ، فهو لا يتأثر الا بالجو العربي العام. سنعمل من هذه الزاوية. سأجتمع بالرئيس الاسد قريبا. وأظن أنني أستطيع التعامل معه. انني أعرف مخاوفه. هو قومي وأعتقد ان هذه الاتفاقية تخدم الهدف القومي على أفضل وجه. وبالنسبة لقضية المقاطعة، أظن ان لكم الحق في ان تقلقوا. سنحاول ان نساعدكم في هذا المجال. انتم لا تتاجرون مع اسرائيل. لقد اتفقنا أن العلاقات المتبادلة متروكة للمباحثات المقبلة. سنشرح ذلك للسعوديين، وسيساعدونكم. انهم لن يعاقبوكم على ما لا تفعلونه.

وبخصوص الانسحاب الاسرائيلي الجزئي، فاننا نتوقع للاتفاقية ان تكون هدفاً لهجوم شديد. ان اسرائيل تريد معاهدة سلام، لا مجرد اتفاقية امنية. ان الحكومة الاسرائيلية ستواجه معارضة شديدة، وعليها عند ذاك ان تبرر الحرب وما نتج عنها من خسارة في الأرواح. وأمام حكومة اسرائيل وقت صعب، سوف تواجهه، غير انها ستتقيد بالاتفاقية. ان الانسحاب الجزئي، من قبل اسرائيل، ليس مقبولا لدينا. اننا نتفاوض من أجل الانسحاب الكامل، وسنبقى معكم إلى ان نضمن حصول الانسحاب الكامل. كما هو مذكور في الاتفاقية.

اننا نشاطركم التخوف من اندلاع حرب بين سوريا واسرائيل على الاراضي اللبنانية. الوضع متفجر. السوفيات موجودون في سوريا، وهم يعملون على بعض الاسلحة المتطورة التي قدموها لسوريا. وفي حال اندلاع أي نزاع بين سوريا

واسرائيل، يحتمل ان ينجر إليه السوفيات. وذلك امر خطير اذ لا يمكننا ان نبقى مكتوفي الأيدي. اننا نفكر فيه باستمرار، على أنني أعتقد انه بامكاننا ان نحل المشكلة بدون انفجار النزاع. سنحله باقناع السوريين بأهمية الاتفاقية. الأسد رجل واقعي، وهو غير مأخوذ بالايديولوجية رغم انه يستفيد منها بذكاء هائل، ولا شك ان الرئيس الاسد سيغير موقفه بعد اربعة اسابيع على الاكثر.

أصغيت إلى تأكيدات شولتز، غير أنني لم أكن مقتنعا بها كل الاقتناع. ومن الواضح أن شولتز يبذل جهده. هو لا يتحكم بكل الاوراق؛ ولدينا نحن بعض الاوراق، ولكن ليس أهمها. الورقة الكبيرة التي نملكها هي القبول بالاتفاقية أو رفضها. القبول بها يحمل معه مخاطرة، ورفضها يحمل خطر الاحتلال، وهو الاكبر. هكذا بدت لنا القضية في أيار/مايو ١٩٨٣. وكان طبيعياً من منظور تلك الفترة ان نقوم بمغامرة التوصل إلى اتفاقية تعد بالانسحابات الكاملة. ولقد كان التوصل إلى اتفاقية عملية طويلة.

ولم تكن الولايات المتحدة بمثل القوة التي تصورناها من قبل، ولا كانت اسرائيل تلك الحليفة الاميركية الطيّعة التي تصورها العرب. ثم اننا لم نكن نحن بالمفاوضين المرنين وكنّا قد وضعنا خطوطاً حمرا عدة لا يمكن تخطيها. واذا كان شولتز لم يضمن لنا النجاح، فانه أعطانا من التشجيع ما يكفي للمضي في المفاوضات. وكنا في أي حال، ميّالين إلى ذلك بفعل منطق الاوضاع. هنالك فوق إرادة الأفراد ونزواتهم قوة خفية أو قدرٌ ما يتحكم بتصرف الامم. مثل هذا القدر كان يسيطر على مناقشات المجموعة الثلاثية واللجان واللجان المتفرعة عنها. ولقد كان هؤلاء يناقشون الحقائق القائمة على الأرض وطرق التعامل معها؛ والحقائق صلبة، فظة، تستدعي معالجة من منطق الاحداث. والآن، وبعد أن باتت لدينا مسودة تقارب النص النهائي في صيغتها، أصبح بامكاننا ان نطلع الاطراف المعنية عليها وان نحصل على وجهات نظرهم.

في أوائل أيار/مايو، كنا مستعدين لاعطاء الرئيس الاسد عرضا مفصلا للتقدم الذي تحقق حتى الآن. قصدت إلى دمشق في الثاني من أيار/مايو وقدمت للرئيس

السوري عرضا كاملا للاتفاقية المقترحة؛ وبرفقتي كان المبعوث الرئاسي جان عبيد واللواء عباس حمدان؛ وقاد ابن عمي العقيد عبد الله سالم الطوافة العسكرية التي أقلتنا من وزارة الدفاع في بعبدا إلى العاصمة الاموية.

وكانت رحلة جوية استغرقت ثلاثين دقيقة، حلقنا فيها اولا فوق جبل لبنان الذي تكسوه غابات الصنوبر وأشجار السنديان وبساتين الفاكهة. تحتنا قرى قائمة على التلال، أو جاثمة بين رؤوس الجبال، او رابضة بهدوء ووقار في الوديان المسالمة، وسطوحها القرميدية الحمراء تسطع في الشمس. بعد ذلك حلقنا فوق وادي البقاع، وهو الممرّ التاريخي للجيوش الامبراطورية في تحركاتها جنوباً أو شرقاً عبر المنطقة، والخاضع في الوقت الحاضر للجيش السوري. وهنالك بالفعل مئات المدافع السورية مصوبة إلى الفضاء؛ وقد بدت من الطوافة الصغيرة وكأنها مصوبة إلينا. ثم حلقت الطوافة بنا فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية الجرداء، المنتصبة بتحد للسهل الصحراوي اللامتناهي الذي يمتد إلى أعماق الشرق العربي. وبدا لي ان هذه السلسلة الجبلية التي وقت لبنان الخصب من تأثير السهل الصحراوي، عبر التاريخ، قد استسلمت هي بنفسها للصحراء وأصبحت بكل معنى الكلمة جرداء.

وبعد جبال لبنان الشرقية، نطل رأساً على سهل مرتفع قد حوّله الرئيس الأسد إلى قلعة من الصواريخ والدبابات والمدافع. والواقع ان كل تلة من وادي البقاع الى دمشق هي حصن وبرج مراقبة. وكل شيء فيها يذكرك بان مسار سوريا السياسي مختلف عن مسارنا. فهي فعلا دولة مواجهة معبأة كليا لمواجهة التحدي الاسرائيلي العسكري

وفي كل مرة كنت أقوم بهذه الرحلة الجوية، من بعبدا إلى مطار المزّة في دمشق، كان تاريخ هذه المنطقة يتبادر إلى ذهني بكل وضوح. كيف يمكن للأمر ان يكون غير ذلك، وأي رحلة في العالم تستغرق نصف ساعة تمر فوق تراث بشري أغنى وأعمق وأوسع من تراث هذه البقعة الصغيرة من الأرض. ولكن التاريخ لا يرحم، ولا يسهل المهمة الدقيقة الموكلة إليك. التاريخ يسير بخطى واسعة، اما الدبلوماسية فتسير ببطء، وبتفاصيل لا تكشف عن مضمونها الا بعد مرور العقود

والاجيال. لقد كان هيغل على حق حين قال ان التاريخ يعلمنا درساً واحداً هو انه لا يعلّم أي درس. وبشكل من الاشكال، فان اتساع العمل السياسي من شأنه ان يولّد وميضاً يعمي البصر ويَحُول دون أي معرفة تراكمية، الا ما كان منها مترسخاً في النفس بصورة لا شعورية. وفي مطار المزّة، كان الوزير خدام وبضعة عشر من كبار المسؤولين في استقبال وفدنا. ونقلني خدام بسيارته الخاصة، وهي سيارة مرسيدس مصفحة ضد الرصاص. وكان فيها رشاشات وكأن في ذلك تذكيراً بانه لا يمكن الفصل بين الشرعية والقوة. بعد اندريه غروميكو، والشيخ صباح الاحمد الصباح في الكويت، كان خدام من أقدم وزراء الخارجية في العالم.

أوصلني الوزير خدام إلى مقر الرئيس الأسد. والرئيس الأسد، كعادته، كان ودياً إلى أقصى حد على الصعيد الشخصي، متشدداً على الصعيد السياسي. قدمت له عرضا مفصلاً لجميع القضايا التي نشأت اثناء المفاوضات. أبلغته شتى نواحي الاتفاقية، واوجزت المطالب الاسرائيلية التي رفضناها. كذلك رويت له بتفصيل وقائع اجتماعاتنا المطولة بشولتز. وذكرت له ان النصوص المقترحة للاتفاقية هي قيد الاعداد والدرس من قبل الجانبين، وأننا نتوقع التوصل إلى نص موحد خلال أسبوع أو أسبوعين. وشرحت له مقدمة الاتفاقية المقترحة التي تنهي بها حالة الحرب بين لبنان واسرائيل. ووصفت الترتيبات الأمنية، ومدى تشابهها بالترتيبات الأمنية المذكورة في اتفاقية الهدنة المعقودة سنة ١٩٤٩. كذلك وصفت مهمة لجنة الاتصال المشتركة التي كان عليها ان تشرف على الاتفاقية وعلى تنفيذ الترتيبات الأمنية. وشرحت كذلك الترتيبات في المنطقة الامنية وانواع الاسلحة فيها.

أصغى الاسد بانتباه، واستوقفني مرات عدة مستوضحا عن تفاصيل بعض القضايا العسكرية والأمنية. لقد كان الأسد طياراً مقاتلاً ذا خبرة؛ كان، بصورة خاصة، مهتماً بكل نواحي الاتفاقية المتعلقة بالسلاح الجوي. استوضح عن الترتيبات الامنية على مقربة من الحدود السورية، وحين قلت له ان الاتفاقية المقترحة تنهي حالة الحرب بين لبنان واسرائيل، سأل: هل لبنان، نتيجة لذلك، ملزم بالانسحاب من معاهدة الدفاع العربي المشترك، قلت: كلا.

وحين شرحت له مهمة اللجان المشتركة للتحقق من تنفيذ الاتفاقية تساءل:

هل يؤدي ذلك إلى تأليف مئات من هذه اللجان فأكدت له ان عددها لن يتجاوز الستّ. كذلك تساءل:

هل المقررات في لجنة الاتصال المشتركة تتخذ بالاجماع؟ فقلت نعم.

وأبدى الأسد استغرابه لرفض اسرائيل السماح لقوات «اليونيفيل» بان تنتشر في المنطقة الأمنية. كذلك سأل: هل تعطي الاتفاقية السلاح الجوي الاسرائيلي حق الطيران فوق الأراضي اللبنانية. فأكدت له ان التنفيذ الدقيق للاتفاقية يمنع القوات المسلحة الاسرائيلية من اختراق أراضينا، واجوائنا ومياهنا الاقليمية.

ثم إن ذلك الارتياح العابر أثناء الاستقبال انتهى حين عمد الأسد إلى عرض موقف سوريا بصدد الاتفاقية المقترحة. بدأ بالقول اننا نتعاطف مع موقف القادة اللبنانيين، ونقدر الظروف الصعبة التي يجدون أنفسهم فيها. غير ان وجهة نظرنا مختلفة عن وجهة نظركم. وفي نيودلهي قال لي الرئيس الجميل ان سوريا تستطيع ان تعيش بدون مرتفعات الجولان، ومصر بدون سيناء، اما لبنان فلا يستطيع البقاء بدون العاصمة والمنطقة الواقعة للجنوب منها. ذلك غير صحيح. لكل بلد مشاكله الخاصة به، وأثناء الحرب يتكتل الناس ويتحدون. أسلافنا فعلوا ذلك وطردوا الأجنبي. لقد أدركوا هذه الحقيقة حين كانوا فقراء، وغير متعلمين. أما الآن، فهم متعلمون، وبوسعهم ان يكونوا اكثر فعالية. انا لا أصدق ان اسرائيل تستطيع ان تقسّم لبنان وتنشئ دويلات طائفية صغيرة. ان الاعتبارات الاقليمية والدولية تجعل نشوء مثل هذه الدويلات أمراً مستحيلاً. مجرد فكرة تقسيم لبنان يمكن ان تؤدي إلى حرب اقليمية لها عواقب دولية خطرة. إنني قلق على لبنان بقدر ما انا قلق على سوريا. اللبنانيون، اذا ما اتحدوا، يستطيعون ان يخرجوا اسرائيل. النضال فقط هو الذي يحرر الأمم. نحن حررنا سوريا من العثمانيين ثم من الفرنسيين ولم يكن لنا جيش كبير. الآن لدينا جيش قوي، وبوسعنا ان نفعل اكثر. التحرير عمل الشعب؛ انه يستغرق وقتا ويتطلب تضحيات. اسرائيل عدو ذو صفات خاصة. حدودها لا يحتمل ان تتوقف عند نهري الزهراني أو الليطاني؛ اسرائيل تطمع في بناء



إيلي سالم مع الرئيس حافظ الأسد

امبراطورية. ان الاتفاقية المقترحة تثبت قيادة بيغن، وهي تكافئه على مغامرته في لبنان. اسرائيل لن تستطيع ان تبقى في لبنان إلى ما لا نهاية. انتشار قواتها في لبنان مُكْلف، واقتصادها على حافة الافلاس. وانسحابنا من لبنان ليس مشكلة، على انه لا صلة له بالانسحاب الاسرائيلي باية صورة من الصور؛ وقد عبرت عن ذلك لفيليب حبيب بوضوح. القضية بينكم وبين اسرائيل قضية «عض على الأصابع». اسرائيل تؤلمكم وانتم تؤلمونها. انتم تعانون، وهي تعاني، ينبغي ان تصمدوا للألم. العرب كلهم معكم. لا ينبغي لكم ان تتعاملوا مع اسرائيل. حسني مبارك نفسه لم يقبل ان يزور اسرائيل. هو انسان طيب؛ انني أعرفه جيدا. وهو ليس مسؤولا عن كامب دايفيد.

ثم تابع الأسد سائلا: لماذا يكون على لبنان ان يتوصل إلى اتفاقية مع اسرائيل؟ موقف لبنان جيد؛ والحكومة متمتعة بدعم وطني واسع، وهي محترمة في العالم العربي.

لماذا أردنا ان نضعف موقفنا بخطب ود العدو؟ إن لبنان، برغم كونه محتلاً، هو في وضع أقوى من سوريا واسرائيل. اسرائيل لم تأت لمحاربة لبنان، فلماذا يكون على لبنان ان يدفع الثمن؟ وواصل الأسد كلامه ينتقد الولايات المتحدة لدورها غير المجدي في التوصل إلى هذه الاتفاقية. ينبغي، كما قال، ان يكون الانسحاب في اطار قرار الأمم المتحدة رقم ٤٢٥ فقط. واذا ما حققت اسرائيل بعض المكاسب في لبنان، فان الجيش السوري لن ينسحب. وهنا أوضح الأسد انه غير قلق لوجود الجيش الاسرائيلي في لبنان؛ فهو يعرف كيف يدافع عن سوريا. واذا ما شاءت الولايات المتحدة ان يخرج الاسرائيليون من لبنان، فان ذلك شيء حسن. هكذا ينبغي ان تسير الامور. والقول بان خروج القوات المسلحة الاسرائيلية يخفض الضغط على سوريا في لبنان، لا يجوز ان يثار. ان الجيش الاسرائيلي في لبنان لا يخيفني. لذلك لا ينبغي استعمال انسحابه كوسيلة لاقناعي بالموافقة على اتفاقية لا أؤيدها.

واستمرّ الأسد يقول: ان الذي يفعله لبنان في هذا الاتفاق هو أسوأ من كامب دايفيد. انهاء حالة الحرب يعني السلام. وقد قطعنا علاقاتنا مع مصر، لأنها عقدت

معاهدة سلام مع اسرائيل. لا يمكن ان نختلف مع مصر، وان لا نختلف معكم. ولقد جاءت حجة الأسد بليغة ومقنعة، على أنها كذلك مبدأ قومي اكثر مما هي موقف سياسي لمواجهة مشاكل وقنابل موقوتة تنفجر تحت أقدامنا... لقد لجأ إلى عدد من الاشارات التاريخية لدعم موقف له كان قد قرر اتخاذه.

وحاولت، تكراراً، أن أشرح نقاطا اساسية كان قد صرف النظر عنها، لكنها كانت هامة بالنسبة لنا، وقد استهلكت أشهراً من المفاوضات الشاقة مع اسرائيل. ولئن كانت هذه التفاصيل هامة بالنسبة لنا فانها لم تكن كذلك بالنسبة للرئيس الأسد. مفهومه مختلف؛ وضعه مختلف؛ اولوياته مختلفة؛ وهو لن يتساهل بالنسبة لموقفنا. وعبقرية حافظ الأسد انه ينقل إليك أسوأ الانباء بألطف الوسائل. وبالبسمة الواسعة. وقد ذكرني بقول المتنبي

اذا رأيت نيوب الليث بارزة،   فلا تظننّ ان الليث يبتسم.

والواقع ان الرئيس الأسد يبتسم كثيرا، ويضحك اكثر ولكن كلما ازداد ضحكه ازداد تصلبه.

وتحسّباً لمعارضة سوريا للاتفاقية المقترحة أعلنت للصحافة في دمشق، في وقت لاحق، اننا اذا كان ثلث بلدنا محتلاً، بما في ذلك العاصمة، فإننا لا نملك الخيار بين التفاوض أو عدمه. لقد كنا نفاوض في اطار مبادئ استقلالنا، ووحدتنا، وسيادتنا. مسؤوليتنا الأولى اخراج جميع القوات الأجنبية من بلادنا. نحن نفاوض من موقع القوة الأدبية. لقد اتينا إلى دمشق للتشاور مع الرئيس الأسد، وسنأخذ موقفه بعين الاعتبار، الا انه علينا أن نضع نصب اعيننا دائما ان البلد المحتل هو لبنان، وان البلد الذي يعاني، والذي يتعرض وجوده للخطر هو لبنان. والمفاوضات، بالتالي، واجب علينا، وقد اخذنا في مفاوضاتنا مصالح الآخرين، ولاسيما سوريا، بعين الاعتبار.

وفي اليوم التالي ابلغت شولتز بموقف الاسد. ولكن شولتز ظل يأمل بان يغير الاسد رايه، لاسيما وهو واثق من ان الرئيس السوري لن يتأثر بالسوفيات كثيرا.

وباستمرار كان ريغن وشولتز يريان الأيدي السوفياتية في كل صغيرة وكبيرة في لبنان وفي الشرق الاوسط، مع ان شولتز كان يعترف بوضوح باستقلالية الاسد وبحريته في اتخاذ القرار الذي يجده هو مناسباً لسوريا باستقلالية تامة. قلت لشولتز انني اعتقد ان موقف الاسد نهائي. وكان شولتز قلقاً لما سمعه مني عن زيارتي للرئيس الاسد، وسألني: هل أثار الاسد موضوع استقباله لي في دمشق؟ اجل، قلت له. انه يتطلع الى استقبالك في دمشق قريبا. واتفقنا كلنا على ان لهجة الأسد كانت تصعيدية. اعتبر الاميركيون ان وجود شولتز في المنطقة هو الذي كان، على ما يرجح، وراء هذا التصعيد. ولكن بعض الاميركيين شعروا بأن الاسد سيفاوض، ومنهم من شعر انه سيبقى متشددا الى فترة، ثم يخفف معارضته في وقت لاحق.

وفي الثالث من أيار/مايو ابلغنا شولتز بان هنالك تقدما مفاجئا حصل في المحادثات مع الاسرائيليين، وبأنه يمكن لنا ان نعقد اتفاقية بسرعة... في اليوم التالي. غير ان ذلك، كما اضاف، يقتضي ان يكون لدى اللبنانيين من الشجاعة لاتخاذ قرار بالموافقة على اجتماع بين شامير وبيني. مثل هذا اللقاء، قال شولتز، ضروري لمنح الاسرائيليين الثقة اللازمة للسير قدما بالاتفاق. هم بحاجة الى التكلم مع مسؤول لبناني كبير، لا مجرد عضو في بيروقراطية، للتوصل الى تفاهم شفهي حول كيفية تنفيذ تفاصيل الاتفاقية. ثم ان هذا الاجتماع سيكون سراً؛ ويمكن له أن يُعقد في لبنان، او اسرائيل، او على سفينة اميركية، او في اوروبا. ولنا نحن الخيار في ذلك. ونظر الرئيس الجميل إليَّ وهو عارف مسبقا ما هي ردة فعلي. وقلت لشولتز إنني لا استطيع الاجتماع بشامير، لا سرا ولا علنا. واذا ما كنت سأجتمع به، فانني افضل الاجتماع ان يكون علنا، اذ اننا لا نحن نجيد كتم الاسرار، ولا أنتم، ولا الاسرائيليون. لن ارضى بذلك، قلت، لان مثل هذا اللقاء يضفي على الاتفاقية طابعاً سياسياً، وهذا غير وارد.

وكاد حبيب، الذي نشأت بيني وبينه صداقة وثيقة، ان يقفز الى السقف وهو يصيح: ايلي، يا صديقي، انت على وشك عقد اتفاقية تاريخية تخرج اسرائيل من لبنان كليا، وهي حقيقة ليس لها ما يوازيها في تاريخ الشرق الاوسط، وها انت

ترفض القيام بمثل هذه اللفتة البسيطة ولكن الحيوية لتحقيقها. هي كلها بين يديك. ولك الخيار في ذلك. ولكنني تمسكت بوقفي اذ كنت اعتقد صادقا ان أذى مثل هذا الاجتماع سيكون اشد من نفعه: لانه يولد الانطباع الخاطىء باننا نتجه نحو تطبيع العلاقات. كان حبيب يستشيط غضبا، كما هي عادته حين يفشل في الحصول على ما يريد. وبرغم التوتر الذي نشأ عن رفضي للاجتماع بشامير، فقد وضعنا بعض اللمسات الاخيرة على عدد من التفاصيل الاخرى. ومن الامور التي ناقشناها: تزويد سعد حداد، اذا لزم الامر، بتأشيرة دخول الى الولايات المتحدة لاخراجه من البلاد.

وطوال هذه الاجتماعات، كان رئيس الوزراء الوزان ناشطا الى اقصى حد، مدققا في كل نقطة، وحث الولايات المتحدة على ممارسة ضغط اقوى واشمل، على اسرائيل وكثيراً ما فقد الوزان هدوءه واستخدم كلمات قاسية مع شولتز. وبما انه انسان لطيف اساساً، فقد كان يجد باستمرار الكلمة المناسبة لتخفيف وقع انتقاده. ذات مرة، قال الرئيس الوزان، بعدان هاجم السياسة الاميركية، مخاطبا شولتز: «أود ان اعتذر لكلامي القاسي. وكثيراً ما يوجه المريض اهانة الى طبيب الاسنان الذي ينتزع له ضرسه الذي يؤلمه. هكذا انظر إلى الأمر يا حضرة الوزير».

كان الرئيس الوزان يتكلم عن حكمة هي خلاصة خبرته الطويلة. وكان يشرح نقاطه بواسطة الامثلة التاريخية، والحكايات التي ينسبها الى والده. ولم يكن علينا ان نترجم ما يقوله الرئيس الوزان فقط؛ بل كان علينا، في حالات الامثلة والحكايات، ان نشرح ما يرمي اليه. وطالما سرّ تويني بذلك، مضيفاً النكهة الملائمة وفق ما يراه، فيما ينظر إليه الرئيس الوزان بشيء من الريبة. وحين اتفقنا مع شولتز على مسودة الاتفاقية النهائية، وقف الرئيس الوزان لتوجيه الشكر الى الوزير على جهوده. وطلب مني ان اترجم كلامه، فقلت له: سيدي، رئيس الوزراء، ما زلت اترجم لزوجتي الاميركية منذ ٢٩ سنة، وقد قررت أن لا اقوم بالترجمة بعد ذلك ابدا. صديقنا غسان تويني مستعد لذلك. واعلن غسان موافقته، لكنه، وهو السياسي المحنك، خشي ان يعدل نص حديثه لاعطاء الوقع الذي يراه. ولذلك كان الوزان يتكلم ويصغي الى ترجمة غسان ليتأكد انه لم يخرج عن المقصود ولا يتوسع في تأويله.

وتكلم الرئيس الوزان ببلاغة وبشجاعة قائلاً: هذه ليست بالاتفاقية التي اردتها. لقد كنت اتوقع ان احصل على اتفاقية افضل من هذه من خلال وساطة الولايات المتحدة. وليس هذا باليوم السعيد بالنسبة لي. وينبغي كذلك ان لا يكون اليوم السعيد بالنسبة للولايات المتحدة. كان يجب على الولايات المتحدة، وهي الديمقراطية الكبرى في العالم، ان تبذل المزيد لمساعدة لبنان المغلوب على أمره. على انني، برغم ذلك، سأدعم هذه الاتفاقية واتحمل النتائج لانها، في الظروف القائمة حاليا، هي الاداة الوحيدة لدي لتحرير بلادي.

ولم يبد شولتز اي استياء. الواقع انه اظهر تأثراً. ولم يكن رجلا عاطفيا، ظاهر المشاعر، ولكنني أحسست انه كان عميق التعاطف مع هذا الرجل الوطني الشجاع. ثم عاد شولتز الى اسرائيل، فيما انصرفت بدوري إلى برنامج مكثف لاطلاع الشخصيات السياسية اللبنانية والحصول على نصائحهم. وبين هذه الشخصيات كبار اعضاء المجلس النيابي، ورؤساء الجمهورية والوزارة السابقون، والقادة الدينيون. وكان هنالك شبه اجماع على تاييد الاتفاقية، وتقدير للدور الاميركي في هذه العملية، واحترام للفريق الذي قام بالتفاوض. ومثل هذا الموقف كان ظاهرا حتى بين الاشخاص الذي انقلبوا بقوة على الاتفاقية في وقت لاحق.

ومساء السبت، السابع من ايار/مايو، تلقى الرئيس الجميل اتصالا هاتفيا من الرئيس ريغن يؤكد له فيه دعمه المستمر لتحرير لبنان. واعرب عن امله بان يصادق مجلس النواب على الاتفاقية، وبان يستمر الاجماع الوطني حولها. ثم اكّد للجميل انه، هو والوزير شولتز الذي كان يزور دمشق آنذاك، سيفعلان كل ما في وسعهما لاقناع سوريا بالموافقة على الاتفاقية. واضاف ريغن بانه يعتقد بان شولتز سيحقق النجاح في مسعاه. ودعا الرئيس لزيارة واشنطن بعد تنفيذ الاتفاقية تنفيذا كاملا للاحتفال بما سمّاه «نصرنا» وختم المحادثة بقوله: «ليباركك الرب، يا حضرة الرئيس. نحن معك؛ لا تقلق».

وكان الرئيس الجميل في نشوة. واعتبر الاتصال الهاتفي بالغ الاهمية، وان الرئيس ريغن قد ألزم نفسه بدعم الاتفاقية. وبذلك كان ريغن باتصاله الهاتفي قد

اكد ما قاله لرئيس الوزراء السابق، صائب سلام، اي انه ليس لديه جهاز عودة الى الوراء. ولم يكن يسهل علي ان اخفف من حماس الرئيس. هنا استشهدت بهاملت الذي كان يقرأ كتابا فاعترضه بولونيوس سائلا ماذا تقرأ يا سيدي هملت؟ فاجاب «كلمات، كلمات، كلمات». وشعرت أن شولتز نفسه، وهو السياسي الحذر عادة، كان شديد التفاؤل في تصريحاته بالنسبة لقبول سوريا باتفاقية الانسحاب. وحاولت ان اقلل من احتمال النجاح، وان أؤكد على المصاعب التي تنتظرنا. وفي الثامن من أيار/مايو، ابلغنا شولتز ان الاسرائيليين وافقوا على الاتفاقية، رغم معارضة آريل شارون وبعض قادة المعارضة في اسرائيل. ثم اضاف شولتز ان جميع القادة العرب، باستثناء الرئيس الاسد، يؤيدون الموقف اللبناني، وذكر ان الملك حسين سيوفد قريبا جدا مبعوثا خاصاً الى لبنان للتعبير عن دعمه. وقال حسين لشولتز ان اسوأ شيء هو طرح الاتفاقية للمناقشة في جامعة الدول العربية. من شأن ذلك أن يؤدي إلى مناقشات لا جدوى منها، والى مقررات خاطئة. اما شولتز فقال ان الاسد يعارض الاتفاقية كما يفسرها هو ولاحظ ان الاسد لم يوصد الباب بوجه الاتفاقية. لقد بدا انه قلق بخصوص أمن سوريا، ولاسيما الاجراءات التي ستتخذ في لبنان على مقربة من الحدود السورية. مثل ذلك القلق شيء مشروع، قال شولتز، وهو قابل للبحث مع الاسرائيليين وبالاضافة الى ذلك، كان شولتز يفكر بعملية جديدة مع سوريا تؤدي بالنهاية الى تسوية شرق اوسطية.

بعد ذلك نقل الينا شولتز موقف الملك فهد، وهو بوجه عام موقف داعم. لكنه لاحظ ان الاتفاقية هي في الاساس مسؤولية لبنانية.

وطوال المباحثات الثلاثية، كان الملك فهد يقدم المساعدة عبر النصح بانتهاج خطة عمل تحفظ الاجماع اللبناني والعربي.

واعتبر الملك فهد ان الاتفاقية مسؤولية لبنانية بالدرجة الاولى؛ وهو يميل إلى تأييد ما يؤيده اللبنانيون. كذلك هو لن يتخذ موقفاً غير مقبول من قبل سوريا. وهكذا فان عدم دعمه العلني للاتفاقية جاء بمثابة تلميح إلى المسافة التي سيتخذها القادة العرب بالنسبة للاتفاقية اذا ما عارضها الرئيس الأسد.

وبعد الاصغاء إلى شولتز، هتف الرئيس الوزان: «ألم نقل لك سابقا ان مخاوفنا لها ما يبررها». ثم تحول النقاش إلى معالجة الموقف السوري. كان شولتز يعتقد ان الاسد يريد ان يفاوض من خلال الاتفاقية وفي أمور أخرى أهم، وكان يأمل أن يؤدي الدعم العربي، لا سيما السعودي، إلى دخوله في حوار جدي مع الولايات المتحدة. غير ان المعارضة السورية للاتفاقية أخذت تظهر على الأرض. والقذائف راحت تتساقط على القصر الجمهوري من المناطق التي يسيطر عليها حلفاء سوريا. والواقع ان الاتفاقية المقترحة بدأت تتعرض للنيران.

وحين أصبحت الاتفاقية في شكلها النهائي، اتصل الرئيس الجميل بالرئيس الاسد وابلغه انه سيوفدني إلى دمشق لعرض المسودة النهائية للاتفاقية عليه ورحب الاسد بزيارتي لدمشق.

قصدت دمشق في الثاني عشر من ايار/مايو: اصطحبت الكولونيل سعيد قعقور، احد أعضاء فريقنا المفاوض؛ اذ ان الأسد قد يطلب توضيحات بشأن بعض المسائل الأمنية. لقد كان واضحا من زيارتي الاخيرة إلى دمشق ان الأسد لن يرفض الاتفاقية فحسب، بل سيسعى جاهدا لمقاومتها. غير انني لم اكن واثقا هل هذه المعارضة نهائية، ام انه يمكن ادخال تعديلات عليها ترضي جميع الاطراف المعنية بها.

لا حاجة إلى القول انني قمت بهذه الرحلة وأنا قلق مسبقاً من النتائج. وفيما كانت الطوافة تحلق باتجاه العاصمة السورية، تلقيت اتصالا من الرئيس الجميل يطلب فيه أن أعود إلى الاجتماع به في مكتبه. آنذاك كان الوزير خدام بانتظارنا في المطار؛ والعودة إلى بعبدا تعني التأخر ساعة على الاقل، واحتمال الاتصال هاتفياً بخدام خلال ساعة، لإعلامه بما حصل، أمر مستحيل. والذي جرى هو ان الرئيس قرر في اللحظة الاخيرة ان يبعث برسالة ودية إلى الرئيس الاسد لتسهيل مهمتي. وهي رسالة ذكرتني بما قاله كاهن كاثوليكي لعائلة علمانية بعد عمادة احد اولادها: «هذا، يا أصدقائي، لن يؤذي. ولكن ربما تكون فيه فائدة».

وحين وصلت إلى دمشق، كان واضحاً أن خدام بدا منزعجاً، لكنه شعر

بالارتياح حين اخبرته بما حدث. وذهبنا بالسيارة إلى مكتبه في وزارة الخارجية حيث عقدنا اجتماعا، بحضور وزير الدولة للشؤون الخارجية، فاروق الشرع وكاتب اختزال. قلت لخدام انني قادم لعرض الاتفاقية عليه. يمكننا ان نقرأها معاً بدقة، واشرح له بندا بندا، ثم ننتقل بعد ذلك إلى مناقشتها. وكان كاتب الاختزال لدى خدام، حسن التدريب؛ وفيما كان خدام يقرأ مسودة الاتفاقية بسرعة عادية، راح الكاتب يسجلها كلمة، كلمة، من غير ان يهمل أيّ فاصلة. دهشت لهذه المهارة؛ ولم أكن أعلم انه يمكن التوصل إلى مثل هذه البراعة في اطار اللغة العربية. وهنا أكّد لي خدام مفاخراً ان النظام قد طوّر، قبل زمن، مثل هذه المقدرة لدى كتاب الاختزال العاملين لديه، وان لدى دمشق عدداً منهم بلغوا هذا المستوى من الكفاءة، الا انه ليس بينهم من توصل، مثل هذا الكاتب، الى هذه الدرجة العالية. ووعد بارساله لتدريب امناء السر لدينا اذا ما الغينا هذه الاتفاقية. ان النكتة عند خدام هي الجوهر. والواضح منذ اول كلمة ان الموقف السوري هو الغاء الاتفاق واعتباره كانه لم يكن.

ثم راح خدام حين بدأ القراءة يهز براسه. وحين بلغ في المقدمة تلك الفقرة التي تتناول انهاء حالة الحرب صرخ: رباه! انهاء حالة الحرب! ماذا فعلتم؟ هذا اسوأ من كامب دايفيد. ولم تتحسن الحالة بعد ذلك. وكان له وهو يتابع قراءة الاتفاقية تعليق سلبي بشأن كل بند من بنودها. وكنت قد أعطيته النص العربي الذي أعد بدقة نقلاً عن النص الانكليزي الاصلي، لأن المفاوضات جرت باللغة الانكليزية. وفيما كان يقرأها، كنت اتابعه عبر النص الانكليزي، شارحا له، حيث يلزم، بعض الأجواء. وكانت النسخة الانكليزية التي كنت أقرأ منها خاصة بي، وقد وضعت عليها بعض الملاحظات، حتى انني أدخلت بعض الأبيات الشعرية التي اعتبرتها ملائمة للمناسبة. وظناً منه بان لدي وثيقة سرية، فقد اراد الشرع ان ينسخها، فقلت له انها النص الإنكليزي؛ وأريته ملاحظاتي الشخصية المدونة عليها، وهي السبب الوحيد الذي من أجله احتفظت بها. ووعدته بأن أرسل له سريعا نسخة إنكليزية واضحة. ولما راح كاتب الاختزال ينسخ المسودة العربية كلمة، فكلمة، قلت لخدام: إليك بالنص، صوّره واحتفظ بنسخة واشفق على كاتب الاختزال. فقال: اننا سنقوم بالامرين معا. ثم

اضاف ان قيادة الحزب ستجتمع، وتناقش الاتفاقية، ثم يعطيني رد القيادة. بعد ذلك ذهبت الى فندق شيراتون للاستراحة على ان أتسلّم الرد السوري في اليوم التالي.

وفي اجتماعي بخدام، في الصباح الباكر من اليوم التالي، ابلغني ان القيادة السورية عقدت اجتماعها طوال الليل، وراجعت مسودة الاتفاقية بدقة، ورفضتها لاعتبارات لبنانية وسورية وعربية. وقال:

اولا: ان لبنان تحت الاحتلال الاسرائيلي، ولذلك فانَّ أيَّ اتفاقية مع العدو لن تكون في مصلحة لبنان. ثم إن الحكومة ليست متوازنة، لأن القادة المسلمين البارزين غير ممثلين فيها حق التمثيل.

ثانيا: ان اساس العلاقة التي قامت بين لبنان وسوريا سنة ١٩٤٣، وهي ان لبنان لن يكون مصدر اعمال عدوانية على سوريا، لم يحترم في هذه الاتفاقية. ان سوريا في حالة حرب مع اسرائيل، ومن شأن هذه الاتفاقية ان تهدد العلاقات المتبادلة القائمة بين سوريا ولبنان منذ الاربعينات.

ثالثا: ان اطماع اسرائيل أطماع اقليمية، وقد اعلن المسؤولون الاسرائيليون ان حدود اسرائيل محددة في التوراة. لذلك فإن النزاع مع اسرائيل نزاع اقليمي. واذا كان لا بد من اتفاقية، فيجب ان تكون اتفاقية شاملة. ولذلك عارضت سوريا اتفاقيات كامب دايفيد من قبل وتعارض هذه الاتفاقية الآن.

وقال خدام: واذا ما نفذ لبنان هذه الاتفاقية نَشأَ تناقض بين التزام لبنان نحو اسرائيل بموجب الاتفاقية، والتزام لبنان نحو سوريا. والاتفاقية هي في الواقع معاهدة سلام. انها تعترف باسرائيل؛ انها تُعَرِّض سيادة لبنان للخطر: انها تُطبِّع العلاقات مع العدو. يضاف الى ذلك ان اللبنانيين، بهذه الاتفاقية، اخضعوا مصيرهم للقرار الاميركي.

وتابع خدام قائلاً: ان شولتز أبلغني ان الانسحاب الاسرائيلي يتوقف على انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين اولا. هل تعلم بماذا أجبته؟ قلت له: «في هذه الحالة يا سيد شولتز لا توجد اتفاقية. لا تضيع وقتك».

وبعد حوار مطول تناول الاتفاقية نقطة نقطة، انهينا الاجتماع في وزارة الخارجية. وتوجهنا الى الاجتماع بالرئيس الاسد. وبصورة ودية، وارتياح كامل، رحّب بي الاسد. وبدأ يسترجع ذكريات حلوة مع اصدقاء مشتركين. مما دل بوضوح على معارضته المطلقة للاتفاقية. وكان الذي سمعته من خدام لا يقارن من حيث اللهجة الشديدة بما سمعته من الرئيس الاسد. استعاد رحلة السادات الى القدس، وخيانته للعرب. وروى من التاريخ القديم كيف أن الأبطال قاوموا امبراطوريات، ثم انتقل الى التاريخ السوري الحديث حين تحدى الشعب السوري الجيش الفرنسي، وانتصر. واستمرّ الاسد، طيلة ساعتين، بدون انقطاع تقريبا، مستفيضاً بمعرفته للتاريخ والسياسة والحرب، وكأن كل هذه المعرفة موجهة الآن ضد الاتفاقية.

وحاولت ان ادافع عن الاتفاقية بندا بندا، ولكن الحوار بشأن الاتفاق كان غير مجد. الاسد يتكلم من منظور وانا اتكلم من منظور. ولا مجال للجمع بين المنظورين. وحين أدركت انني لا اصل الى أيّ نتيجة، التمست اجتماعاً خاصا. وعلى الفور قبل الاسد. تلك كانت فرصتي الاخيرة والوحيدة في محاولة الجمع بيننا. تكلمت مطولا، وبحرارة واقتناع، وبصراحة مطلقة، عن مأزق لبنان وضرورة تأمين الانسحاب الاسرائيلي. قلت له انني مدرك لموقفه، وسياسته، واسلوبه الثوري، غير انني أكّدت أن ذلك لا ينطبق بالضرورة على لبنان. نحن الآن امام فرصة لإخراج الاسرائيليين من بلادنا من غير عقد معاهدة سلام. نحن بحاجة الى مساعدة سوريا. وبتفصيل شرحت اخطار الوجود الاسرائيلي في لبنان، بالنسبة لنا ولسوريا معا. واعربت عن رغبة حكومتنا بالعمل مع سوريا بصورة وثيقة جدا. ثم ان الاتفاقيات، كما قلت، معرضة باستمرار للتفسير وفقا للظروف المتغيرة. واذا ما كان لبنان قويا، ومستقلا وسيدا، فانه ينفذ الاتفاقية بطريقة تتفق مع استقلاله وسيادته. اما اذا كان منقسما، فمن شان ذلك ان يؤدي الى اقتحامات من قبل اسرائيل مما يهدد باستمرار استقلال لبنان وسيادته.

ثم تابعت القول: قلتم، يا سيادة الرئيس، ان هذه الاتفاقية تحدّ من حريتنا

بالحفاظ على علاقات طيبة مع سوريا. انا اخالفكم الرأي. نحن بلاد حرة؛ نحن نريد علاقات طيبة معكم: نحن تواقون الى تجاوز المجاملات الدبلوماسية وتطوير العلاقات الثابتة معكم. اننا سنوقع هذه الاتفاقية؛ وبعد ذلك سنقوم بزيارتكم لنبحث في العمق مستقبل العلاقات اللبنانية السورية.

وردَّ الأسد بقوله: اذا شئتم التوقيع، فليكن الله معكم. لكنني لا اقول ذلك من قلبي. انني اعتبر هذه الاتفاقية بمثابة معاهدة سلام مؤذية للبنان وسوريا والعالم العربي. واذا كنتم تريدون العلاقات الطيبة معنا، فان هذه العلاقات ينبغي ان تحدد في اتفاقيات مكتوبة، لا بكلمات حلوة متبادلة بين حافظ الاسد وامين جميل، او بين الاخ إيلي واخوانه في سوريا. الاشخاص يأتون ويذهبون، اما النصوص المكتوبة فتبقى.

وتناول البحث عدة موضوعات حساسة. ولقد حذّرني الأسد من ان الاتفاقية ليست في مصلحة سوريا. وان سوريا ستقاومها. وكان ذلك منتظرا الا اذا كانت الاتفاقية وسيلة تفاوضية بين سوريا واميركا في شؤون اقليمية.

الاتفاقية امام المجلس النيابي

في الرابع عشر من أيار/مايو، وافق مجلس الوزراء على الاتفاقية. كذلك قرر ايفاد الوزير بهاء الدين البساط واللواء حمدان الى تونس، والجزائر، والمغرب، والوزير ابراهيم حلاوة واللواء قعقور الى دول الخليج لاطلاعها على الاتفاقية. وفي هذه الاثناء، وفيما كان المجلس النيابي سينعقد قريبا للمصادقة على الاتفاقية، كنت اعد خطابا القيه امام البرلمان أشرح فيه الاتفاقية والاسباب التي ادت اليها.

وقبل ذلك، اجتمعت أنا ورئيس الجمهورية بالرئيس السابق الياس سركيس، ليستمع الى ما لديه بخصوص الاتفاقية. ثم تبين ان ما قاله لنا كان بمثابة نبوءة. لقد تكلم سركيس بمرارة نابعة من خبرة السنوات الست الصعبة بصفته رئيساً للبنان. قال لنا ان الاطراف كلها ستكون صعبة حين يتعلق الامر بالاتفاقية. كان يخشى ان لا يتمكن للبنان من استعادة السيادة التي بدأ يفقدها سنة ١٩٦٩، حين تحدت منظمة

التحرير الفلسطينية الحكومة اللبنانية، ووقعت اتفاقية القاهرة. ويمكن للعربية السعودية ان تساعدنا، ولكن الى حد، اذ ان السعوديين ملتزمون بالفلسطينيين. ينبغي للولايات المتحدة ان تساعد لبنان، مع السوفيات، لا مع السعوديين. وبدلا من ذلك نرى الاميركيين يتوددون للسعوديين ويهملون السوفيات. ونصحنا بألاّ ندعو المجلس النيابي الى الاجتماع قبل السعي للحصول على موافقة مسبقة من سوريا على الاتفاقية. لقد احس ان كثيرين من أعضاء المجلس يغيرون رأيهم اذا ما عارضت سوريا الاتفاقية، ثم ختم الرئيس السابق كلامه بقوله: «لديكم اتفاقية جيدة، هي افضل ما يمكن في ظل الظروف القائمة. اسمحوا لي ان اقول: ان اسرائيل لن تتقيد بها؛ ان سوريا ستقاومها؛ ثم ان الدول العربية المعتدلة ستغير رايها فيها. سوف تواجهون أوقاتا عصيبة. لقد بذلت جهدي في عهدي، وانتم تبذلون جهدكم. هذا هو قدرنا. لا بديل لنا عن هذه الاتفاقية. أعانكم الله، وباركم. وليحالفكم الحظ في الطريق الصعب التي تسلكون».

وتأثرنا جميعاً برؤية هذا الرجل العظيم وشجاعته وهو في الايام الاخيرة من حياته يحاول ان يقدم لنا افضل ما يستطيعه من النصح. لقد فعل ذلك ببلاغة وبحرارة. وحين ودعناه، احسسنا اننا جميعا في صراع تقوم فيه هوّة بين جهودنا وآمالنا. والسؤال هو: «هل نستسلم للقدر ام نقاوم التيار؟ أم أن السؤال مطروح بصورة خاطئة؟ اليس الصراع بوجه التيار هو القدر نفسه، أو القدر الاسمى على الاصح؟»

وفي السادس عشر من أيار/مايو التأم المجلس النيابي للنظر في الاتفاقية. وقبل الاجتماع دعاني رئيس المجلس، كامل الاسعد، الى مكتبه حيث كان اربعة من اكثر النواب نفوذا في لبنان، وهم الرئيس الاسبق كميل شمعون وبيار الجميل، وصائب سلام، وجوزف سكاف، وبحثنا، نحن الستة، الوسائل التي يمكن بها ان نحظى بما أمكن من التاييد للاتفاقية. رأى سلام أنَّ علينا انتهاج الطريق العام وتجنب ان يتخذ النقاش طابعا حزبيا. ووافق الآخرون على ما قاله. كانوا، كلهم، يريدون ان يضمنوا مشاركة اكبر عدد من النواب في الجلسة، حتى ان الزعيم

الدرزي، الامير مجيد ارسلان، الذي كان مريضا ويعاني الالم الشديد، حضر الجلسة. هو احد ابطال استقلال لبنان القلائل الباقين، وقد قال ان هذا الاجتماع يمكن له ان يحقق للبنان استقلاله الثاني بعد ان ضاع الاستقلال الاول في المعارك التي تفجرت منذ سنة ١٩٦٩.

وفي بياني أمام المجلس النيابي، حثثت النواب على دعم الاتفاقية. وشرحت لهم ما قبلناه وما رفضناه. ثم اشرت الى مخاطر ترك الامور تسير من غير وثيقة ملزمة تحكم الانسحابات الاسرائيلية. وشرحت الاتفاقية كما يلي:

تتألف الاتفاقية من مقدمة، و١٢ بنداً، وملحق يتناول الترتيبات الأمنية، وذيل، ومحاضر تفسيرية متفق عليها حول تفسير بعض نقاط الاتفاقية، وخريطة مربوطة بها.

كانت المقدمة مكتوبة بروحية قراري مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨، اللذين يتمتعان بدعم عربي واسع. ومبادئ هذين القرارين وأهدافهما هي العمل على تحقيق سلام عادل ودائم في المنطقة، مما يسمح لكل دولة في الشرق الاوسط ان تعيش بسلام وأمن، وانهاء حالة الحرب واحترام سيادة جميع دول المنطقة ووحدتها واستقلالها، واحترام الوحدة الاقليمية لكل دولة من دول المنطقة بواسطة ترتيبات امنية، بما في ذلك الترتيبات المتعلقة بالاسلحة والمناطق الحرة.

وكانت بنود الاتفاقية قائمة، بالدرجة الاولى، على بنود اتفاقية الهدنة الموقعة بين لبنان واسرائيل في ٢٣ آذار، ١٩٤٩. والبنود الأساسية في اتفاقية الهدنة تدعو الى: الامتناع عن استخدام القوة،

الامتناع عن القيام باعمال (عدائية) عسكرية، ضد الطرف الآخر، من قبل القوات النظامية اللبنانية او الاسرائيلية، او من قبل القوات شبه النظامية،

حق كل من الطرفين معاً بالعيش بسلام،

منع العمليات العسكرية من اراضي اي الطرفين ضد الطرف الاخر،

اقامة منطقة أمنية محدودة الاسلحة،

إنشاء لجنة هدنة مختلطة من خمسة اعضاء، منهم اثنان من كل طرف، برئاسة ممثل عن منظمة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة،

عقد اجتماعات اللجنة في لبنان واسرائيل بالتناوب،

حق اللجنة بتعيين مراقبين عسكريين من الطرفين للاشراف على الترتيبات الامنية،

حق اللجنة بتفسير اتفاقية الهدنة وتنفيذها،

حق اعضاء اللجنة والمراقبين العسكريين بحرية التحرك في المناطق المحددة بالاتفاقية،

وجوب انهاء الاوضاع التي تهدد سلام الطرفين وأمنهما، والتشجيع على اقامة اوضاع جديدة تسمح بالانتقال من حال الهدنة الى وضع أفضل.

تلك هي الشروط، كما قلت، وقد رضينا بها سنة ١٩٤٩ حين كان جيشنا يحارب الجيش الإسرائيلي على حدود فلسطين الشمالية. نحن الآن نوقع اتفاقية لاخراج الجيش الاسرائيلي من بيروت؛ ونحن، في رأينا، نعمل في اطار القرار رقم ٢٤٢ والمبادئ العامة لاتفاقية الهدنة. ولقد كان علينا ان نذهب الى أبعد من ذلك في بعض البنود، وان نقبل بنوداً جديدة، بسبب الوضع المختلف جذريا في الآونة الحاضرة، لكننا لم ننحرف الى حد كبير عن نص اتفاقية الهدنة وروحيتها.

ينص البند الاول على عدم انتهاك الحدود بين لبنان وإسرائيل. وهذا شرط لبناني بقدر ما هو شرط اسرائيلي. والحقيقة اننا غالبا ما كنا الطرف الذي تنتهك حدوده. وبسبب هذه الاعتداءات المستمرة على ارضنا، اصبحنا الخاسر الاكبر في الصراع العربي الاسرائيلي.

وينص البند الاول ايضا على انهاء حالة الحرب بين الطرفين، بعد أن تنسحب القوات الاسرائيلية كليا من لبنان. ان إعلان انهاء حالة الحرب، لا يعني ابدا إعلان

حالة السلم، فهاتان نظريتان مختلفتان، إذْ يمكن لدولة عربية محتلة من قبل إسرائيل ان تعلن انهاء حالة الحرب معها اذا انسحبت اسرائيل من ارضها، بالمقابل. اما حالة السلام فهذا قرار تتخذه الدولة عندما تكون بكامل سيادتها وبكامل استقلالها غير خاضعة للاحتلال. مثل هذا القرار لانهاء حالة الحرب مبدأ قبلت به بعض الدول العربية واعلنته. نحن لم نعلن قيام سلام بيننا، ولم نعلن قيام علاقات طبيعية مع اسرائيل. السلام والتطبيع خاضعان للاجماع العربي.

وتابعت قائلاً: إن مبادئ البند الرابع هي في الاساس مبادئ اتفاقية الهدنة. وقد رأينا كيف أن الهجمات التي شُنت على اسرائيل من الارض اللبنانية دمرت لبنان. وقد كان لبنان البلد العربي الوحيد الذي اعطى منظمة التحرير الفلسطينية فرصة اختيار تكتيك الحرب المباشرة مع اسرائيل، من اراضيه، ففشل هذا التكتيك وادى بالتالي الى فشلها هي والى خراب لبنان.

ويمتنع كل من الفريقين، حسب البند الخامس، عن القيام بحملات إعلامية ضد الآخر. ان التزامنا بهذا البند هو التزام حكومي؛ وهو ليس التزاما من قبل الصحافة، ولا الاحزاب، ولا الافراد فهم لهم، في لبنان، كبلد ديمقراطي حرية القول والنشر كما يشاؤون. ثم تابعت قائلاً ان لبنان غير مستعد بموجب البند السادس أن يكون ساحة للصراعات، وممراً لخلافات الغير مع الغير. ذلك البند هو ضمان للبنان بقدر ما هو ضمان لاسرائيل والماضي القريب اثبات واضح على مدى معاناة لبنان من ذلك.

ثم إِن الاتفاقية أوجدت لجنة اتصال مشتركة على غرار لجنة الهدنة المختلطة التى انبثقت عن اتفاقية الهدنة. والفارق هو ان الطرف الثالث في لجنة الاتصال المشتركة هو الولايات المتحدة لا الامم المتحدة. ان الامم المتحدة لم تثبت فعّاليتها في الماضي، ولعل الحضور الاميركي أن يكون اكثر فعالية. وكما في اتفاقية الهدنة، فان لاعضاء اللجنة الجديدة حرية التنقل في منطقة تحددها الاتفاقية. وبعد ستة أشهر من انسحاب الاسرائيليين، تلتئم لجنة الاتصال المشتركة لدراسة إمكانية عقد اتفاقية بالنسبة لتحرك الاشخاص والبضائع عبر الحدود اللبنانية الإسرائيلية. ولقد

أصررنا دائما في مفاوضاتنا على ربط تطبيع العلاقات باسرائيل بتسوية سلام شاملة في الشرق الاوسط تتناول جميع الدول العربية المعنية.

لقد قبلنا شروطا كنا نفضل ان لا نقبلها. وذاك هو الثمن الذي كان علينا ان ندفعه لتحرير لبنان. ولكن عندما يعافى لبنان ويتعزز استقلاله يمكن ان يعدل هذه الشروط لمصلحته. ولفترة قادمة، لا بد لبلادنا ان تكون في حالة مفاوضات متواصلة لنستعيد بالروية والدبلوماسية ما خسرناه بالطيش واللامبالاة.

ويشرح البند الحادي عشر الاجراءات التي يجب اتباعها عند الاختلاف على تفسير محتويات الاتفاق. وتحدد المحاضر التفسيرية دور الولايات المتحدة في مساعدتنا على حل الخلافات في التفسير. وفي حال فشل الولايات المتحدة في حل الخلاف، يُحال الخلاف الى فريق ثالث كمحكمة العدل الدولية أو غيرها من المؤسسات الدولية ذات الاختصاص، ويكون قرار هذا الفريق ملزما.

ثم ان نظام الأسلحة المحدد في الملحق يمثل تطويراً لبنود الهدنة. وفي الموافقة على تحديد الاسلحة، كان لا بد لنا من أخذ الاحتلال الاسرائيلي الواسع لاراضينا بعين الاعتبار. والخريطة المرفقة بالاتفاقية تحدد منطقة أمنية تكون الدولة اللبنانية وحدها، في ظروف معينة، هي التي تتحمّل مسؤولية الأمن بدون الاستعانة بقوات الطوارئ او القوة المتعددة الجنسيات. ويكون عدد الجنود اللبنانيين في المنطقة الامنية نحو ١٢٠٠٠ بالمقارنة مع ١٥٠٠ جندي فقط كما كان في اتفاقية الهدنة. أما عدد قوات الامن الداخلي والشرطة والأنصار في المنطقة الامنية، فهو غير محدد.

ويشرف على الترتيبات الامنية في منطقة الحدود، وضمن لجنة الاتصال المشتركة، لجنة الترتيبات الامنية التي تضم ممثلين من لبنان والولايات المتحدة واسرائيل. وتشرف لجنة الترتيبات الامنية على لجان مشتركة للتحقق تعمل برا وبحرا وجوا من اجل التأكد من سلامة الترتيبات الامنية.

ولا يختلف اثنان على ان وجود اسرائيليين في اللجان المشتركة للتحقق هو شيء غير مستحب ولكن الخيار هو بين وجود ٥٠ ألف جندي اسرائيلي محتل،

وبالتالي ضياع الجنوب، وبين وجود ٥٠ مراقباً منهم يعملون مع ٥٠ مراقباً لبنانياً تحت قيادة لبنانية ولمدة سنتين فقط.

ولقد حاولنا تحديد منطقة أمنية داخل اسرائيل تحدد فيها القوات العسكرية، فرفضت اسرائيل هذه المحاولة بقوة. ثم تمكنا بعد مشادة كلامية طويلة من وضع بند في الملحق يخول لبنان ارسال لجنة تحقيق الى شمال اسرائيل للتاكد من انه ليس هناك حشود عسكرية او اي عمل من شانه ان يهدد سلامة الاراضي اللبنانية. وطالبنا بالحاح بابقاء قوات الطوارئ الدولية في جنوب لبنان. وتمكنا من التوصل الى نص يؤمن وجود بعض قوات الطوارئ الدولية في ضواحي صيدا، مع حقها بقيام دوريات في ضواحي المخيّمات الفلسطينية في صيدا وصور. وبموجب الاتفاقية، تتعهد القوات الإسرائيلية بالانسحاب كليا من الاراضي اللبنانية في فترة اثني عشر أسبوعا. ثم تابعت قائلا ان اسرائيل، برغم المباحثات المطولة حول بعض الشروط الاسرائيلية، وجّهت مذكرة الى الولايات المتحدة تطلب فيها وجوب انسحاب الجيش السوري والمقاتلين الفلسطينيين من لبنان، قبل انسحابها من الاراضي اللبنانية. ان مثل هذه الشروط ليست جزءا من الاتفاقية وهي تهدد تنفيذها. غير أنّ الاميركيين يأملون أن يتغلبوا على هذه الصعوبة. وسنوجه كذلك رسالة الى الاميركيين نؤكد فيها موقفنا ونصر على الانسحابات وفق اطار بنود الاتفاقية.

وتابعت قائلا: لقد استمعنا، منذ بدء المفاوضات، الى بدائل تجنبنا عقد اتفاق جديد مع اسرائيل الا انه من واجبنا ان نصارحكم، من موقع المسؤولية، باننا درسنا جميع البدائل. واليكم على سبيل المثال ما اعتبره البعض بدائل:

اقترح البعض أن يعلن الحكم المقاومة الشعبية المسلحة في الجنوب. ان هذا البديل يفترض مسبقا تهيئة سياسية وعسكرية تخلق وحدةً فعّالة نتجاوز بها ما خلفته ثماني سنوات من الحرب الداخلية. ولا شك عندنا بأنه، إذا قرر الحكم المقاومة المسلحة ضد اسرائيل، فانَّ هذا القرار يكون بمثابة حجة تتذرع بها اسرائيل بآلتها الحربية المتفوقة للسيطرة على الاراضي اللبنانية.

واقترح البعض الآخر اللجوء الى مجلس الامن. والواضح، لدى الجميع، ان مجلس الامن لا يمكن ان يكون فعالا الا اذا كان هنالك توافق تام بين اميركا والاتحاد السوفياتي. وكلكم يعلم ان مثل هذا التوافق غير قائم حاليا. وكفانا في لبنان ما تعلمناه من امثولة الآخرين ولا نريد ان نزيد عليها امثولة اخرى فنخسر وطنا ونربح قضية. أو ان تكون في حوزتنا عشرات القرارات الصادرة عن مجلس الامن وعن الجمعية العمومية تؤيد حقنا ونحن بالمقابل بلا وطن ولا ارض ولا مأوى. نحن عمليون ونعرف كيف نعالج كل معضلة بالدواء المناسب لها. ومعروف ان المؤثر الاقوى على اسرائيل هو الولايات المتحدة الاميركية. ومعروف ايضا ان حروب العرب واسرائيل لم تؤد الا الى احتلال المزيد من الاراضي العربية. ونحن اليوم في لبنان باشد الحاجة الى تضميد الجروح ولملمة النتف والى الاستقرار والسلام.

واقترح علينا البعض ان نحيل القضية اللبنانية الى جامعة الدول العربية اوالى قمة عربية مستعجلة. وأسارع فأصارحكم بان هذا ليس بديلا. لقد حاولت القمم العربية السابقة معالجة القضية اللبنانية وفشلت فشلا ذريعا. كما اصارحكم بانني استشرت كل وزير خارجية عربي لقيته منذ تسلمي مسؤولياتي وبحثت معه في امكانية اللجوء الى قمة عربية فكان جواب كل واحد منهم سلبيا. ولبنان يأسف بان تكون جامعة الدول العربية، التي كان يعقد عليها الآمال الكبار، قد تناسته، لا بل عاملته، في كثير من الاحيان، وكأنه عضو غريب فيها. ولكن لبنان يبقى رغم هذا التجاهل وهذا الصمت العربي الرهيب، مؤمناً بالافكار الاساسية التي تجسدها الجامعة، ويتطلع الى وقت قريب يمكنه فيه ان يلعب الدور الملائم الذي من شانه ان يقوّي الجامعة ويعزز دوره فيها.

واقترح علينا آخرون استعمال الورقة الاوروبية لأن لأوروبا، بنظرهم، علائق طيبة مع اسرائيل تمكنها من التاثير الفعال عليها. ولما ذهبنا الى الدول الاوروبية وتباحثنا معها في هذا الامر قالت لنا، هي نفسها، ان اميركا هي الدولة الوحيدة التي يمكنها ان تؤثر في النهاية على اسرائيل.

واقترح البعض الآخر ان نعمل مع الاتحاد السوفياتي لاخراج اسرائيل من


وزراء الخارجية السابقون في جلسة تشاور في سياسة لبنان الخارجية

لبنان على اساس انها الدولة الكبرى التي تدعم النضال العربي ضد اسرائيل. وقد يذكر بعضكم ان الحكومة اللبنانية طلبت، عند بدء الاجتياح الاسرائيلي للبنان، من الاتحاد السوفياتي التدخل السريع لوقف العدوان وكان رد السوفيات أنه ليس في استطاعتهم التأثير على اسرائيل.

وقيل لنا بانه لا يمكن لاسرائيل ان تنسحب من لبنان لان اسرائيل معسكر متحرك يهدف الى ضم جميع الدول العربية المتاخمة له، وان المشكلة القائمة هي مشكلة تاريخية خطيرة. ولا بأس، حسب هذا الزعم، من ان نضطر في هذه المرحلة الى ان نخسر مناطق واوطانا، ولوقت طويل، ولكن المهم ان لا نخسر الكرامة ولا الارادة ولا التصميم على استعادة الحق الذي هو بجانبنا. ونحن في لبنان لسنا مستعدين ان نضحي بالجنوب لعشرين سنة، او لخمسين سنة، على امل ان نستعيده الى وطن لا يعلم عندها الا الله ما هو اسمه وما هي حدوده، ما هي معالمه وما هي مقوماته. ماذا يفيدنا ان نربح كرامة فارغة ونخسر الجنوب؟ ماذا يفيدنا ان نضحي بالجنوب ونخسر معه البقية الباقية من لبنان؟ ماذا يفيدنا ان نعرض الجنوب للسيطرة الاسرائيلية فنعرض المجتمع اللبناني كله للاحتلال والاقتتال والزوال؟

وقيل لنا ان اسرائيل لن تنسحب من الجنوب لانها في الاساس دولة توسعية. فاذا كان الموقف كذلك فماذا ينتظر منا هؤلاء البعض ان نفعل، ان نبقى مكتوفي الايدي ونقول: إسرائيل لن تنسحب لأنها دولة توسعية؟ ام ان نتقبل هذا الواقع وننتظر التطورات السياسية الكبرى إن في آخر هذا القرن، أو في القرن القادم، على امل ان يختل ميزان القوى العالمي فتزول دول وتقوم دول اخرى وتتغير المقاييس، على امل ان نكون نحن، او ما تبقى منا، من الرابحين؟ نحن لا يمكن، من موقع المسؤولية، ان نقبل بالحتمية السياسية. بل، كبلد عاقل ومتحضر، سنلجأ دائما إلى العقل، إلى السياسة، إلى الدبلوماسية، إلى الاقناع، إلى تعبئة مصادر القوة، عندنا وعند أصدقائنا، لاستعادة الحق، وتأمين وحدة لبنان، واستقلال لبنان، وسيادة لبنان.

فنحن لم نفاوض من اجل استرجاع منطقة من لبنان فحسب، بل استرجاع كل لبنان. فلذلك، عندما يكون الكل هو الهدف، فلا يجوز لنا ان نؤخر أو نماطل أو نغامر. لقد دخلنا هذه المفاوضات وامامنا خبرة ستين سنة بين الحركة الصهيونية وبين الفلسطينيين، بين اسرائيل وبين الدول العربية المجاورة لها. فأصبحنا نعرف الكثير عما يحدث لأرض تحتلها اسرائيل، وأصبحنا نعرف الكثير عن الشهية الاسرائيلية بعد الاحتلال، كما حدث في الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان.

بعد ذلك، تناولت المشاكل التي واجهناها في المفاوضات. قلت: «لقد كانت مسيرة المفاوضات في الستة أشهر الماضية مسيرة صعبة للغاية. حيث كانت اسرائيل تعرض علينا شروط الغالب على المغلوب، وكان المفاوض الاميركي يحاول تقريب وجهات النظر واقناع الطرفين بتقديم التنازلات. لولا التدخل الاميركي، لما تمكنا من التوصل إلى اتفاق يؤدي إلى الجلاء الاسرائيلي الكامل دون عقد معاهدة سلام، ودون اقامة علاقات طبيعية، ودون بقاء اسرائيلي عسكري مكثف على أراضينا. فكثيرا ما كنا نجد انفسنا بين مطرقتين، ولكننا صمدنا وحافظنا على خطوطنا الحمر رغم اننا لا نملك من القوة سوى قوة الحق، وقوة الموقف، وقوة الرفض.

ولا يمكننا ان ننسى أن المفاوضات كانت تجري في ظل الاحتلال، وتجري معها احداث على الأرض، واقتتال ومذابح. فكان المفاوض اللبناني عينه على الموقف وعينه على شعب يُقتل، وبلد يتفكك، ووطن على شفير الهاوية.

لقد حرصنا، منذ بداية المفاوضات، ان نضعكم ونضع الدول العربية المعنية، وجميع الدول الصديقة، في جو تطور هذه المفاوضات. وقد عقدت، كما تعلمون، اجتماعات دورية مع السفراء العرب وأطلعناهم على كل ما نفعل وتباحثنا معهم في البدائل، ويجب ان نقول أمام اللبنانيين، وامام جميع الشعوب العربية، بأننا ما كنا نسمع، بعد عرض مسهب، وبعد تدارس البدائل، الا التأكيد الكامل للموقف اللبناني المفاوض. كما يجب ان نذكر العالم العربي اليوم بأن الوفود البرلمانية التي زارت

الملوك والرؤساء العرب، شارحة موقفنا، عادت كلها بالتأييد الكامل وغير المشروط للمنهجية التي يتبعها لبنان من أجل جلاء الجيش الاسرائيلي عن أراضيه، خاصة وأننا احترمنا المبادئ الاساسية التي انطلقنا منها في مفاوضاتنا مع اسرائيل وهي: الاجماع الوطني، والانسحاب الكامل، والسيادة اللبنانية، وعلاقات لبنان العربية.

والآن، وقد قطفنا ثمار هذه الجهود المكثفة، وحصلنا على أفضل ما يمكننا الحصول عليه، فاننا ننتظر اجماعا عربيا داعما، لاننا في صدد تحرير ارضنا من الاحتلال، وفي صدد إبعاد وطننا عن مخاطر الضم والشرذمة، وفي صدد انقاذ شعبنا من مخاطر مقبلة أشد هولاً وإيذاء.

فإذا كان للبنان، العضو المؤسس في جامعة الدول العربية، حق مثل باقي الدول الاعضاء في هذه الجامعة، فهو حق تأييده في وقفته المصيرية من قبل الدول العربية الشقيقة.

نحن لسنا أول دولة في العالم العربي تستعين بالولايات المتحدة لاجلاء القوات الاسرائيلية عن ارضها. ان كل دولة عربية حاربت اسرائيل اضطرت، منذ اوائل السبعينات، للتعاون مع الاميركيين من اجل فك ارتباط الجيوش، أو من أجل تأمين انسحابات معينة، او من أجل تأمين انسحاب كلي. ونحن لسنا أول من يطلب من أميركا وجودا معينا على أراضينا بواسطة لجنة ترتيبات أمنية، من أجل تأمين التنفيذ الكامل للترتيبات الأمنية المعقودة مع اسرائيل وبينها.

ان كل الدول العربية، التي تحاربت مع اسرائيل، قبلت بقيام ترتيبات امنية على أرضها ذات الخصائص التالية:

(١) مناطق محدودة السلاح؛

(٢) مناطق عازلة؛

(٣) مراقبون دوليون او اميركيون؛

(٤) اتفاقات أمنية ثنائية؛

(٥) تبادل رسائل مع الاميركيين بالنسبة لبعض التفاصيل العائدة للترتيبات الأمنية؛

(٦) تعهد علني او ضمني بابعاد المنظمات العسكرية الفلسطينية مسافات معينة عن الحدود الاسرائيلية.

اننا ندرك ان هذا الاتفاق ليس نهاية مآسي لبنان ولكنه، ومن دون شك، بداية استعادة لبنان لسيادته ولوحدته. وعندما يتحرر لبنان كليا من جميع الجيوش والقوات غير اللبنانية المتواجدة على أرضه، تبدأ عندئذ المسيرة لتحرير المواطن اللبناني من رواسب الحرب، وإعادة بناء الوطن اللبناني الواحد الموحد غير القابل للانتكاسات الجديدة، رغم العواصف السياسية التي تهب من هنا وهناك».

وصفق المجلس النيابي للخطاب تصفيقاً حاداً وحاراً. وهرع النواب يعانقونني ويصافحونني. وطلب صائب سلام حق الكلام، وحث على منح الحكومة دعما كاملا في جهودها لاستعادة استقلال لبنان وسيادته. وقوبل هذا الاقتراح بالتصفيق الحاد. بعد ذلك استدعاني الرئيس الجميل إلى مكتبه. قال انه كان قد عزم على توجيه خطاب إلى الامة بشأن الاتفاقية، لكنه، بعد سماع خطابي، واستقبال المجلس النيابي له، قرّر ان لا يفعل. وطلب مني، بدلا من ذلك، ان اظهر على شاشة التلفزيون والقي الخطاب نفسه الذي القيته في المجلس النيابي. فعلت ذلك. وأثار الخطاب دعما شعبيا في النهار، وقصفا حادّا في الليل، فالأمور بالنسبة للاتفاقية ليست على ما يرام.

وقبل مباشرة المفاوضات بين لبنان واسرائيل، كانت اسرائيل قد وضعت شرطا لانسحابها الكامل يفترض الانسحاب المسبق الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية، والانسحاب المسبق الكامل للجيش السوري، وتسليم الاسرى الاسرائيليين الموجودين في حوزة الفلسطينيين والسوريين، وتسليم جثث الجنود الاسرائيليين الذين سقطوا في القتال. ثم اثيرت هذه المسائل أثناء المفاوضات، لكنها رفضت من قبلنا. قلنا انه لا سيطرة لنا على منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين، وان مفاوضاتنا مع اسرائيل هي شأن مستقل. هذه مسائل ننوي، نحن

والاميركيون، ان نبذل جهدنا لمواجهتها لكننا لا نعتبر الاتفاقية مشروطة بها. ولذلك وجهت الى الاميركيين الرسالة التالية:

صاحب السعادة السفير فيليب حبيب،

الممثل الشخصي لرئيس الولايات المتحدة الاميركية،

١٧ أيار/مايو، ١٩٨٣

عزيزي السيد السفير،

جئنا بهذه الرسالة لنؤكد ان موقف لبنان، اذا لم يتحقق الانسحاب الاسرائيلي وفقا لشروط الاتفاقية، هو انه سيكون له الحق بوقف تنفيذ التزاماته بموجب الاتفاقية. وفي هذه الحالة، يقوم لبنان والولايات المتحدة واسرائيل بمشاورات مستعجلة.

أما اذا ما بقي الامر غير مبتوت فيه، فان للبنان الحرية باعلان الاتفاقية لاغية وكأنها لم تكن؛ ان لبنان سيواصل العمل على استعادة سيادته وانسحاب جميع القوات الاجنبية بجميع الطرق المتوافرة لديه.

إيلي سالم

نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الخارجية

وكان يوم السابع عشر من أيار/مايو يوما حافلا، ومصيريا. الاتفاقية التي عرفت باتفاقية ١٧ أيار وقعت يومذاك من قبل رؤساء الوفود الثلاثة. انطوان فتال، ودايفيد كمحي، وموريس درايبر. وفيما بعثت برسالة إلى حبيب أعرب فيها عن تحفظي، كان الرئيس الجميل يتسلم رسالة من الرئيس ريغن يعيد فيها تأكيد دعمه له. وفيما يلي رسالة ريغن.

عزيزي السيد الرئيس،

١٧ أيار/مايو، ١٩٨٣

استنادا إلى علاقات الصداقة القديمة بلبنان، قامت الولايات المتحدة بمشاركة كاملة في تحقيق اتفاقية بين لبنان واسرائيل ووقعتها كشاهدة لها. ولذلك فان الولايات المتحدة ستأخذ جميع التدابير المناسبة لتعزيز التقيد التام بالاتفاقية.

ان الولايات المتحدة تؤيد سيادة لبنان، واستقلاله السياسي، ووحدة أراضيه تأييدا تاماً. وفي هذا الاطار، ستواصل الولايات المتحدة دعمها للبنان بهدف انسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان بصورة نهائية. وفي حال عدم انسحاب هذه القوات، فان الولايات المتحدة تجري مشاورات عاجلة، وتتخذ خطوات اخرى تراها ملائمة لتحقيق انسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان.

وفي حال الخرق الفعلي للاتفاقية، او التهديد بالخرق، تقوم الولايات المتحدة، بناء على طلب الطرفين، او احدهما، بالتشاور مع الطرفين، بشأن ذلك، في اطار لجنة الاتصال المشتركة او لجنة الترتيبات الامنية المنبثقتين عن الاتفاقية، او عبر الاقنية الاخرى المتوافرة، وفقاً لما هو مناسب. وعند التثبت من حصول الخرق، او التهديد بالخرق، للاتفاقية، تجري الولايات المتحدة مشاورات مع الطرفين بخصوص التدابير التي تتخذها الولايات المتحدة، او يتخذها الطرفان لحل الخلاف، او التهديد به، او لمنعهما، او لتصحيح الوضع ومعالجته. لضمان التقيد بالاتفاقية، وفقا لما تراه



مع الرئيس رونالد ريغن: الرئيس أمين الجميل، الرئيس أمين الحافظ، الوزير علي الخليل، الوزير شولتز والوزير إيلي سالم.

مناسباً. وفي هذا الاطار، تعترف الولايات المتحدة أنَّ لبنان عقد هذه الاتفاقية على أساس ان لبنان حر في تعليق تنفيذ التزاماته بموجب الاتفاقية في حال عدم حصول جلاء القوات الاسرائيلية المسلحة وفقا لشروط الاتفاقية.

ان الولايات المتحدة ستبذل أقصى جهودها لاجتناب حدوث اعمال من قبل دول أخرى في المنطقة، لها علاقة بالولايات المتحدة. بهدف الحؤول دون تنفيذ الاتفاقية، او الإضرار بلبنان، بأي شكل. وستقوم الولايات المتحدة، ضمن الحدود والشروط التي يضعها الكونغرس، بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية للبنان. وبهذا الخصوص، ستقدم الولايات المتحدة الدعم، بالاساليب المناسبة، لإعمار لبنان اقتصادياً، وتطوير قواته المسلحة لمساعدة حكومة لبنان على القيام بمسؤولياته بموجب الاتفاقية.

ووفقا لشروط الاتفاقية، توافق الولايات المتحدة على المشاركة في لجنة الاتصال المشتركة وفي اجتماعات لجنة الترتيبات الأمنية التي تدعى إليها من قبل أي من الطرفين. وفي هذا الاطار ستساعد الولايات المتحدة على تفسير النقاط التي توصل إليها الطرفان أثناء مفاوضات الاتفاقية، بما يخص التفسير والتنفيذ.

باخلاص

ريغن.

ولكن هذه الخطوات الرسمية كانت مصحوبة بشعور متنام بان اتفاقية السابع عشر من أيار تواجه مشاكل كبيرة. ان تصرفات اسرائيل على الأرض، ورسالتها إلى الاميركيين، ومقاومة سوريا للاتفاقية، كلها عقبات كبيرة، لا بد لازالتها من جهود دبلوماسية مكثفة. وقد بذلنا وسعنا في دمشق من غير ان نحصل على موافقتها. واذا كانت هنالك قضايا اقليمية تهم دمشق، فلا ريب انها كانت تفضل ان تبحثها مع الدول العظمى، والدول ذات النفوذ في المنطقة، لا معنا. على أننا كنا، نحن والاميركيون، لا نزال نأمل امكان تعديل الاتفاقية لتبديد مخاوف السوريين.

لقد كنا ما نزال مستمرين في اتكالنا على الولايات المتحدة وحلفائها لانجاز العملية التي انطلقنا بها.

قصدت روما في التاسع عشر من آيار/مايو. وهناك، في السفارة الاميركية في روما، كانت لي محادثة هاتفية مطولة مع الوزير شولتز. أردت ان أعرف كيف يمكنه ان يساعدنا في تنفيذ الاتفاقية. فرد علي بانه يعقد اجتماعات منتظمة مع السفير السوفياتي في الولايات المتحدة اناتولي دوبرينين، لنزع فتيل الخلاف بين الدولتين العظميين، وانه قد وجد الموقف السوفياتي مشجعاً، لكنه كان مستاء من رفض الرئيس الأسد استقبال حبيب في دمشق. وهنا لا بد ان نذكر ان الاسد رفض استقبال حبيب لأنه اعتبره قد كذب عليه حين وعده بان لا يدخل الاسرائيليون بيروت بعد خروج الجيش السوري منها. على ان شولتز ظل يأمل ان يستقبل الاسد حبيب في وقت لاحق. ولقد كان شولتز مصمماً على ان يعمل معنا للحفاظ على اجماع عربي حول الاتفاقية. وقد نشطت الولايات المتحدة في تامين الدعم للبنان في مجلس التعاون الخليجي. كذلك دعم شولتز اتصالاتي بوزير الخارجية الإيطالي اميليو كولومبو، وبوزير خارجية المانيا الغربية هانس ديترش غنشر، وبوزير خارجية فرنسا كلود شيسون، وهو سيلتقيهم كلهم في قمة وليمسبرغ. كان واثقاً من تحقيق تقدم مع سوريا خلال اسابيع قليلة. فقلت له انني بكل تاكيد آمل ذلك لأن الاتفاقية، بدون الموافقة السورية، تعتبر ميتة. وفي روما اعلن وزير الخارجية كولومبو عن دعمه القوي للموقف اللبناني ووجه رسالة الى الوزير خدام يحثه فيها

على القبول بالاتفاقية. لقد كانت معرفة كولومبو بلبنان واسعة جداً حتى انه ادهشني كسياسي لامع، مختص بحوض البحر الابيض المتوسط وبمصالح ايطاليا فيه. ومنذ اللقاء الاول اصبحنا على علاقة جيدة؛ وكثيراً ما تناولت محادثاتنا مناطق اوسع من لبنان والشرق الاوسط. آنذاك احس كولومبو ان الكرة هي في الملعب العربي، وعلى العرب ان يقرروا هل يستمر احتلال لبنان ام لا. وشعر ان للدول الاوروبية دوراً تقوم به في تنفيذ الاتفاقية. واعتقد انه يمكن للأسرة الاوروبية ان توفد احد وزراء خارجية دولها الى بيروت ودمشق والرياض للمساهمة في تحقيق تنفيذ الاتفاقية. شجعت هذا الاقتراح.

واغتنمت فرصة بقائي في روما للاجتماع بالمسؤولين في الفاتيكان. ولقد كانت الحكومة اللبنانية على اتصال دائم بالمبعوث البابوي في بيروت المونسينيور لوسيانو انجيلوني: وفي زياراتنا المتكررة الى روما دأبنا على الاجتماع برئيس وزراء الفاتيكان الكاردينال كازورولي، وبوزير الخارجية المونسينيور سيلفستريني. في الفاتيكان لا يجتمع بك احد في مكتبه ولكن جميع الاجتماعات تجري في قاعة بجوار المكتب. ولعل ذلك يقصد به تعزيز الغموض، وبالتالي تدعيم الهيبة التي تتمتع بها هذه الدولة العالمية الصغيرة. هنا يصغي كازورولي، صاحب الذهن الحاد والعينين الثاقبتين، بدقة وانتباه إلى ما اقوله. ويطرح الاسئلة العديدة. ثم يقول لي ان الفاتيكان سيفعل لنا شيئاً مّا لمساعدتنا. على ان ما يفعله الفاتيكان عادة هو الاتصال بالحكومات المعنية بلبنان. ونادراً ما يذكر لك المسؤولون في الفاتيكان بمن اتصلوا او يذكرون ما قالوه، او ما ينوون القيام به. ان دبلوماسية الفاتيكان دبلوماسية بالغة التكتم ولكن موقف الكنيسة الكاثوليكية من لبنان لا تكتم فيه ولا غموض. فهو قائم على التزام الحوار بين المسيحيين والمسلمين، وعلى استمرار لبنان دولة ديمقراطية تعددية حرة. ثم هنأ كازورولي لبنان بالاتفاقية وتمنى لنا النجاح في تنفيذها .

ولحفظ الموعد المتفق عليه مع وزير خارجية المانيا، هانس ديترش غنشر، في إطار الوقت الضيق المتاح لي، أخذت طائرة صغيرة لتقلني مع امينة السر إيتمار

دياب الى كولون ومنها بالسيارة الى بون. آنذاك كان غنشر رئيس المجموعة الأوروبية، وكانت لمثل هذا الاجتماع اهمية كبيرة لادخال المجموعة الاوروبية في المحادثات بشأن تنفيذ الاتفاقية.

وكانت الطائرة التي أقلتنا طائرة صغيرة، ذات اربعة مقاعد، لا تسهيلات فيها غير بار صغير يضم مجموعة كبيرة من المشروبات، وقد استفدت منه استفادة كبيرة. وكان الطقس قاسيا راعدا وكانت الرحلة كثيرة المطبات، مما دفعني الى تناول المزيد من الويسكي. وفي هذه الرحلة، كما في رحلات اخرى، قمت بها اثناء عملي الدبلوماسي، ازداد ايماني بالقدر. ولعل ذلك هو السبيل الوحيد لتبرئة العقل من أيّ مسؤولية في اتخاذ قرارات التنقل من بلد الى آخر في احوال طقسية لا تسمح بالسفر ابداً.

بين غنشر وكولومبو فارق كبير. كولومبو مثال الإيطالي: انفعالي، عاطفي، كثير الكلام؛ أما غنشر، فهو مثال الألماني: صامت، متأمل، مدقق. ومع كولومبو سرعان ما نشأت بيننا علاقة شخصية، مباشرة، فيما كانت صلتي بغنشر عقلية فكرية بحتة. وبما أنني مطّلع في العمق على الفلسفة الألمانية، وعلى اللاهوت الألماني، وفلسفة السياسة والتاريخ عندهم، فانني سرعان ما وجدت أرضية مشتركة مع غنشر. كنا متفقين على الدور المركزي الذي تؤيده الافكار في التاريخ، وفي اهمية العلاقات العربية الغربية. وكان غنشر على اطلاع لهدف زيارتي وكان على استعداد للمقترحات الملموسة.

قال غنشر: إننا حصلنا على اتفاقية جيدة، وقال انه لو كان مكاننا لوقّعها. والقضية الآن هي: كيف تنفذ. يمكن للموقف السوفياتي ان يكون مفيداً، كما قال، لان السوفيات لا يريدون وقوع نزاع في المنطقة. وبصفته رئيساً للدول العشر، فانه، كما قال، كان على استعداد للتكلم مع السوفيات والأميركيين. ثم واصل القول ان الدعم الالماني للبنان، عائد الى احترام المانيا للتقليد الديمقراطي عندنا، والى الاهتمام الألماني بنجاح الجهد الاميركي. وشعر غنشر ان فرنسا قد تكون أكثر تأثيراً على السوريين من ألمانيا، وأعلن عن استعداده للتكلم مع شيسون بخصوص

ذلك. وقال انه مستعد للمجيء الى سوريا بشان هذا الموضوع باعتباره رئيسا للدول العشر، اذا لمس ان ذلك يمكن ان يكون مجديا.

وكان مفهوم غنشر لمسؤولية المجموعة الاوروبية إزاء لبنان كالتالي: ينبغي للمجموعة الاوروبية ان تقف موقفا حاسما وداعما بالنسبة للبنان؛ وينبغي أن يكون لها موقف اوروبي مستقل بالنسبة للبنان، على أن يكون منسقاً مع الولايات المتحدة. ينبغي للمجموعة الاوروبية أَنْ تدعم جهود الولايات المتحدة لتنفيذ اتفاقية ١٧ أيار. وينبغي لها ان تنشئ اتصالات مباشرة مع الدول العربية، لاسيما دول الخليج والمغرب، لمساعدة لبنان؛ وبالنسبة لغنشر، كانت المملكة العربية السعودية والجزائر أكثر الدول العربية نفوذا في هذا المجال. ويمكن للولايات المتحدة أن تقدم المساعدة مع المملكة العربية السعودية، فيما تقدم فرنسا مساعدتها مع الجزائر.

ويوم السبت، ٢١ أيار/مايو، قصدت باريس بالطائرة لتناول الغداء مع عائلة شيسون في احدى ضواحي باريس، في قصر موضوع بتصرف وزير الخارجية. وللقصر جنائن واسعة يمكن التجول فيها، وقد احسنا، أنا وشيسون، استغلالها اثناء هذه الزيارة. وقدّمني لزوجته واولاده كوزير خارجية لبنان الذي يتكلم لغة فرنسية خاصة به. قال لزوجته ان ايلي اخترع لغة فرنسية خاصة مليئة بالاخطاء وبالكلمات الانكليزية، لكنها مفهومة بسهولة؛ وخوفي: أن تحل هذه اللغة المخلوطة محل اللغة الفرنسية التي عرفناها.

وحين بدأنا مباحثاتنا، ذكر شيسون علاقاته الجيدة بالأسد وخدام. قال ان الاسد شجع ابناءه على دراسة الفرنسية، ثم لاحظ ان هنالك نحو ٢٥٠ طالبا سورياً يتابعون الدراسة في فرنسا لنيل الدكتوراه. كذلك تكلم شيسون عن علاقاته الجيدة بالاتحاد السوفياتي، لاسيما يوري اندروبوف الذي حرص على اقامة العلاقات الطيبة مع فرنسا برغم ان فرنسا أقدمت مؤخرا على طرد الجواسيس السوفيات العاملين في باريس. وكان شيسون قلقاً حين علم، اثناء زيارته لموسكو ان السوفيات يعودون لتوسيع نفوذهم في الشرق الاوسط، لا ان يحصروه بسوريا والعراق فقط. وفي اعتقاده ان هذا التوسع قد يكون في مصلحة لبنان، لانه قد

يخفف الدعم السوفياتي للدول العربية الراديكالية. ثم نصح الحكومة اللبنانية بالحفاظ على إجماع وطني حول الاتفاقية، وبمتابعة الاتصال بسوريا، والمباشرة باتصالات مستقلة مع السوفيات مباشرة عبر السفير السوفياتي سولداتوف في بيروت، والسفير دوبرنين في واشنطن، وبصورة غير مباشرة عبر السفير الروماني في بيروت. كذلك نصحنا بالاتصال بالجزائر التي اثبتت انها وسيط فعال في النزاعات الدولية. وهنا من المفيد ان اذكر ان السفير سولداتوف زارني بعد توقيع اتفاق ١٧ ايار وقال لي ان هذا الاتفاق جيد ويندر ان تخرج دولة عربية اسرائيل من ارضها دون معاهدة سلام. وهذه ليست معاهدة سلام ولكن مهمتي في بيروت هي افشال السياسة الاميركية في لبنان والشرق الاوسط.

واقترح شيسون ارسال مبعوث خاص الى دمشق في مهمة تحرٍ للحقائق، وقال شيسون ان فرنسا، خلافا للدول الاوروبية الاخرى.، لم تنسق مع الولايات المتحدة او الدول الاوروبية الاخرى بالنسبة للبنان، ولكننا نطلعها فيما بعد على تحركاتنا. اراد بذلك التأكيد على استقلالية السياسة الفرنسية نحو لبنان، والتنويه بمكانة لبنان المميزة في التفكير الفرنسي.

وعاد شيسون مرة أخرى فألحّ على الاتصال به ساعة أشاء، وقال: «بالنسبة للبنان يمكنك ان توقظني من نومي حين تشاء».

لقد كان غنشر وكولومبو وشيسون وبيم وشولتز يدركون مصالح سوريا الاقليمية ادراكا تاما. ويدركون ايضا ان دورها في لبنان جزء لا يتجزأ من دورها الاقليمي. وبنتيجة ذلك كانوا مهتمين بفتح حوار مع سوريا لمعالجة اهتماماتها الاقليمية التي لا يمكن للبنانيين ان يعالجوها.

وفي زيارتي لأوروبا، شرحت الاتفاقية والمشاكل التي تواجهها وطلبت الدعم الاوروبي لحلها. والواقع اننا كنا في الأسابيع القليلة الماضية على اتصال عميق بالولايات المتحدة، فيما كانت الدول الاوروبية خارج العملية. أما الآن، فاننا نعود الى اشغال اوروبا، ولاسيما دولها التي كانت معنية مباشرة بلبنان عبر قوات الطوارئ والقوة المتعددة الجنسيات.

ولدى عودتي الى بيروت، وجدت ان حبيب قد اتصل بالملك فهد وبالرئيس مبارك فاقترحا عليه توجيه رسائل إلى الرئيس الاسد تشرح الاوضاع التي ادت الى الاتفاقية. وفي الوقت نفسه اوفدت واشنطن الجنرال فيرنون والترز الى المغرب والجزائر وتونس لحث قادتها على المساعدة على تنفيذ الاتفاقية.

وفي هذه الاثناء، أبرم الاسرائيليون الاتفاقية وكانوا بانتظارنا كي نبرمها بدورنا.

وفيما كان رئيس الجمهورية يتمتع بصلاحية دستورية لابرام اتفاقية ١٧ أيار، فانه فضل إحالتها الى المجلس النيابي للحصول على دعم المجلس وتوثيق موقف الرئيس. وكان الرئيس حذراً في تحركه بالنسبة للاتفاقية، فهو لا يريد أن يبرمها الا عندما يتاكد من انها ستنفذ؛ وكان يخشى أنه إذا لم يبرمها، فقد يزداد الغضب الاسرائيلي على لبنان، علما أن اسرائيل، في تلك المرحلة، كانت تعمل على إشعال الفتنة بين الموارنة والدروز كجزء من عملية ضغط على الرئيس حتى يراعي الموقف الاسرائيلي.

وحين دعا رئيس الجمهورية الفريق اللبناني المفاوض الى حفلة كوكتيل في ٢٦ أيار/مايو، كان جو الحفلة كئيبا، فعوضا من ان نفرح لولادة الاتفاق، كنا وكأننا نعد انفسنا لجنازة. كانت الثقة ضعيفة بحصول الانسحابات فعليا. وبالتشاور مع غسان تويني، كانت وزارة الخارجية قد اعدت كتابا ابيض حول المفاوضات، ووزعت منه نسخا على جميع المدعوين. ووقع رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة، ووقعت انا، بالاحرف الاولى، جميع النسخ التي قدمت لاعضاء الفريق. لقد شعرنا ان الكتاب الابيض لا بد منه كوثيقة تاريخية لمرحلة خطيرة من تاريخ لبنان. وعندما سأل الرئيس الجميل غسان تويني اين اضع هذا الكتاب، اجابه غسان على الرف الاعلى من المكتبة التي وراء كرسيك. هكذا تحتاج الى سلم طويل للوصول اليه. ولكنك، على الارجح، لن تحتاج لا الى السلم ولا الى الكتاب.

الفصل الخامس

من اتفاقية الانسحاب الاسرائيلي إلى مؤتمر جنيف

تقديرات أميركية

في اواخر أيار/مايو بدأ فيليب حبيب يقول علنا ان الاتفاقية مهددة بالفشل. ونحن أصبحنا نتخوف من ان يتحول الاهتمام الأميركي من القضية اللبنانية إلى قضايا اخرى أسهل منها. والولايات المتحدة، كما قال فيليب حبيب، تحبّ النجاح. فاذا ما شعرت ان قضية لبنان تتزايد تعقيدا، فانها قد تتخلى عنها. «عليكم ان تبقوا ريغن مهتما بصورة شخصية. للرجل مشاغل كثيرة وعليكم ان تذكروه بلبنان. ولبنان، بحد ذاته، لا يحتل موقعا هاما في سلم أولويات أميركا كما تعلمون». وألح علي بان اتوجه إلى واشنطن لأُبقي ريغن، وكذلك شولتز، ملتزمين بازالة العقبات التي تعيق تنفيذ الاتفاقية على أنني تخوفت من أن تثير المقابلة مع ريغن آمال اللبنانيين بان حل المشكلة وشيك.

غير أننا كنا، نحن والاميركيين، قد بذلنا الكثير من الوقت للتوصّل إلى الاتفاقية، وعلينا ان نعمل لتنفيذها على الأقل بعد تعديلها لازالة الاعتراضات عليها. الاتفاقات ليست هدفاً. الهدف هو إخراج اسرائيل من لبنان، وقد كنا على استعداد لاستعمال أيّ وسيلة تحقق هذا الهدف. آنذاك فكرنا ان اجراء التعديلات للحد من مخاوف السوريين مسار معقول. ومن اجل ذلك كنا بحاجة إلى دعم الولايات المتحدة، لدى اسرائيل، أولا، للقبول بهذا التوجه، ثم لدى سوريا، ثانيا، للحد من تحفظاتها الناتجة عن اعتبارات اقليمية. وهنالك خطوات لا بد من اتخاذها. لقد حصلنا على موافقة المجلس النيابي لتوقيع الاتفاقية. وبالتالي وقع الاتفاقية رؤساء الوفود الثلاثة في ١٧ أيار/مايو، ١٩٨٣، رغم اننا لم نكن على استعداد لابرامها الا بعد أن نتأكد بانها ستنفذ بدقة وبجو يضمن المحافظة على الاجماع الوطني وعلى استمرار التأييد العربي لها. وكنت أظن ان التعديل ممكن رغم الصعوبات الهائلة التي تعترضه.

والخطوة الأولى قبل التعديل هي اقناع اسرائيل بسحب رسالتها الجانبية. على انني لم أكن واثقاً أبداً بان سوريا ترضى بالتعديل. ان المؤشرات الصادرة عن دمشق تعارض التعديل، لكننا كنا في بعض الأحيان نلمح استعدادا لاعادة النظر في الأمر اذا ما حذفت بعض البنود. ولعل ذلك كان من قبيل التمني من جهتنا، الا انه لم يكن لدينا أي خيار آخر غير القيام بالمحاولة. لقد كنا جميعا نريد مساراً يؤدي إلى الهدف المنشود، وفيليب حبيب نفسه، وهو مفاوض كثير الشك، واسع التجربة، ظنّ ان موقف الأسد تكتيكي. كذلك كان شولتز واثقا من أن الأسد سيغير رأيه حين يشرح له الفوائد الإقليمية المنبثقة عن الاتفاقية. وبحسب شولتز، فان جهوده ستستغرق نحو أربعة أسابيع. وبما ان فيليب حبيب لم يعد المبعوث الموثوق لدى دمشق، بسبب اعتقاد الأسد بان حبيب وعده بان اسرائيل لن تدخل بيروت ولكنها دخلت فأخلّت بوعدها وبالتالي اعتبر حبيب بانه اخل بوعده. ولابقاء الولايات المتحدة على اطلاع تام على المشاكل التي كنا نتوقعها، توجهت إلى واشنطن في أوائل حزيران/يونيو، وعقدت اجتماعاً خاصا مع الرئيس ريغن في حزيران/يونيو، حين ردّد ما كان قد قاله لصائب سلام، وقاله لي في وقت سابق، من ان الولايات المتحدة لن تتراجع عن سياستها بالنسبة للبنان.

قال ان لبنان سيظل بين اولوياته إلى ان تحل الأزمة اللبنانية، وأكدت للرئيس ريغن اننا على استعداد لركوب المخاطر، شريطة ان يكون لهذه المخاطر هدف واضح يؤدي إلى الانسحاب الاسرائيلي.

وفي اجتماع مع جورج شولتز في ١١ حزيران/يونيو، قال لي بان الاتفاقية يجب ان تنفذ، وقال انه تحدث مع السوفيات عن تنامي خطر الارهاب في لبنان. واذا بقيت الاتفاقية غير منفذة، فان الفراغ الناشئ عن ذلك سيؤدي إلى المزيد من الارهاب والفوضى، مما لا يمكن لا للسوفيات ولا للاميركيين ان يتحملوه. وقال انه لمس ان السوفيات يقدرون التخوف الاميركي، وابلغني ان المجموعة الاوروبية ستوفد، في وقت قريب جداً، وزير خارجية المانيا، هانس ديتريش غنشر، إلى

دمشق، لتلطيف معارضة سوريا للاتفاقية. وكان شولتز يؤمن بان لسوريا، كبلد مستقل، نقاطاً مشروعة في الاتفاقية يمكن ان تبحثها مع لبنان؛ والأرجح ان تكون هذه النقاط نقاطاً أمنية. والولايات المتحدة مستعدة أن تتدخل وتُطَمْئِن سوريا بالنسبة لهذه النقاط. ثم تابع قائلا ان السوريين يريدون تحسين صورتهم مع الولايات المتحدة، وأن الولايات المتحدة مستعدة أن تدخل في حوار مع سوريا يؤدي إلى تفاهم أكبر بين الدولتين. وكذلك تود الولايات المتحدة ان تعرف ما الذي يشغل بال السوريين. وفي هذا الاطار، يعتمد الأميركيون على السعوديين كي يساعدوهم على تفهم الموقف السوري فيما يقومون بدورهم، وفي الوقت ذاته، بالتشاور المستمر مع السوفيات لتجنب أيّ مجابهة اقليمية بينهما. كان شولتز يثق بان السفير السوفياتي في واشنطن، دوبرينين، لا يريد للفوضى ان تتمادى في الشرق الأوسط وهذا برأيه مشجع جدا.

قلت لشولتز اننا لن نبرم الاتفاقية إلا اذا كنا متأكدين من تنفيذها. نحن لا نريد اتفاقية بدون انسحابات. وكان شولتز متعاطفاً مع موقفنا، إلا انه، للأسف، بدا مقتنعاً بأن اسرائيل لن تنسحب قبل انسحاب السوريين والمقاتلين الفلسطينيين. قال ان اسرائيل تسعى لتحقيق امنها، واذا ما سمحت للسوريين ولمنظمة التحرير الفلسطينية بالبقاء في لبنان، فان اجتياحها للبنان يكون قد فشل، ولن يحقق شيئا، وهذا ما لا يمكن لأيّ حكومة اسرائيلية ان تتحمله.

واغتنمت فرصة زيارتي الرسمية إلى الولايات المتحدة لحضور حفلة تخرج ولديّ. وكان ابني البكر أديب قد انهى دراسته في جامعة جورجتاون، فيما كان ابني الأصغر، بول، قد اتم دراسته في هارفارد. وجاءت زيارتي إلى هاتين الجامعتين توقظ حنيني الشديد إلى الحياة الاكاديمية، وتتيح لي فرصة مناقشة الأزمة اللبنانية مع زملاء سابقين لي في الجامعة الاميركية في بيروت. آنذاك كان حنا بطاطو في جامعة جورجتاون يضع دراسته عن سوريا، كتلك التي وضعها عن العراق، فيما كان وليد خالدي، في هارفارد، منشغلاً بالقضية الفلسطينية وبتأثير الحرب اللبنانية على مستقبل العلاقات اللبنانية الفلسطينية.

وفي احاديثي مع حنا بطاطو ووليد خالدي، كنت أبحث عن رأي جديد، وعن توجهات جديدة، بشأن المأزق الذي وقع فيه لبنان. ولكن السياسية الملحة التي تتطلب معالجة يومية لا يمكن ان تقيَّم بالشكل الذي نتمناه من الزملاء الجامعيين اذ ان للمشكلات السياسية الملحة منطقها الخاص، منطقها القائم على القوة والمصالح المتداخلة وليس على العقل. وليس القصد بذلك التقليل من دور العقل في السياسة. والواقع ان سياسة القوة نفسها، بدون ضوابط العقل والوسيلة العلمية التي ينتهجها الاكاديميون، تأتي مجردة من البعد الخلقي، ومن العمق التاريخي.

ولدى عودتي إلى بيروت، علمت ان ريتشارد فيربانكس، المبعوث الرئاسي السابق للتداول في عملية السلام في الشرق الأوسط، قد كلف من قبل الرئيس ريغن الانضمام إلى حبيب، ودرايبر وديلون للبحث عن طرق للخروج من المأزق اللبناني. وفيربانكس رجل ذكي، ولطيف، يعمل على سجيته، وهو محام في واشنطن، سريع البديهة. وصل فيربانكس إلى بيروت يحمل معه التقرير التالي للوضع:

أ - إن سوريا لن تنسحب في إطار الاتفاقية؛

ب - ان موقف سوريا قد تعزز بنتيجة الغزو الاسرائيلي؛

ج - ان سوريا تتلقى المزيد من الدعم السوفياتي، كما ان دورها الاقليمي قد تعزز مؤخراً؛

د - ان سوريا لن تجازف بمواجهة مع اسرائيل، لأنها لم تحقق بعد التعادل الاستراتيجي معها، من ناحية، ثم لأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يحثان اسرائيل وسوريا على ضبط النفس.

ان السوريين، برأي فيربانكس، مرتاحون. ولذلك يمكنهم ان ينتظروا. الوقت يعمل لصالحهم. لعل الأسد يريد تعديل الاتفاقية والولايات المتحدة مستعدة في مثل هذه الحال لمناقشة الموضوع معه. واذا لم تكن الولايات المتحدة الوسيط الصالح للقيام بذلك، فلا مانع من أن تكون المملكة العربية السعودية هي الوسيط. ثم ان سوريا قد ترضى بالاتفاقية كما هي اذا انسحبت اسرائيل انسحاباً كاملا من لبنان.

ان الشيء الذي يصعب على سوريا قبوله، برأيه، هو عقد اتفاقية لبنانية اسرائيلية أثناء وجود القوات السورية في لبنان. وأخذ الأميركيون يقتنعون في هذا الوقت ان الاسرائيليين يريدون انسحابا جزئيا لتقصير خطوط مواصلاتهم، ولتسهيل الامور، يمكن للولايات المتحدة ان تحقق الانسحاب الاسرائيلي اولا، على ان يعقبه الانسحاب السوري على الفور. ولتجنب الربط بين الانسحابين السوري والاسرائيلي، يمكن ان يتحقق الانسحاب السوري بموجب اتفاقية منفصلة مع لبنان.

المنظور السعودي

وأثناء البحث عن مخارج للأزمة في تنفيذ الاتفاقية، كان اعتمادنا على الوفد السعودي كبيرا. والاستنتاج الذي توصل إليه شولتز هو أن السعودية تريد من لبنان توقيع اتفاقية معدلة. هي تريد التزاما من قبل اسرائيل أولا بالانسحاب الكامل، على ان ينظر بعد ذلك في ما يجب تعديله في القسم المتعلق بالعلاقات المتبادلة. وكان حبيب قد اجتمع بالملك فهد وناقش معه اعادة التفاوض بشأن الاتفاقية، غير انه لم يكن متأكداً من أن اسرائيل تقبل بذلك. واذا لم تنسحب سوريا، كما قال حبيب للملك، فان اسرائيل لن تنسحب. وارتأى الملك فهد ان مسألة انسحاب سوريا يجب ان تناقش بين لبنان وسوريا، بوساطة سعودية اذا كان ذلك مجدياً. ووعد الملك ان يتصل بالرئيس للتباحث في الخطوات المقبلة التي يمكن ان تساعد لبنان على استعادة سيادته. كذلك قال بانه قد يوفد ولي العهد الأمير عبد الله للتباحث مع الأسد.

لقد شعر الوزير شولتز ان الولايات المتحدة قامت بما عليها للتوصّل إلى اتفاقية بين لبنان واسرائيل تؤمن الانسحاب الكامل للقوات المسلحة الاسرائيلية من الأراضي اللبنانية. والآن بات على العرب، بقيادة سعودية، كما قال، ان تحمل سوريا على الانسحاب. وبوسع الولايات المتحدة ان تسهم في ذلك بالطبع، لكن دورها في هذا المجال ليس بأهمية دورها كوسيط مع اسرائيل. وفي كل حال كان الاميركيون واثقين من ان سوريا التي ترغب في حوار مع واشنطن بخصوص لبنان

أولا، وقضايا الشرق الأوسط ثانيا، قد تكون على استعداد للتوصل إلى تسوية بشأن الاتفاقية والقبول بسحب قواتها من لبنان.

ولكن هذه المرونة التي كان يتصورها شولتز وبعضٌ من فريقه لم تتطابق مع التصريحات السورية في هذا الشأن. ولم أرَ أيّ دليل على ذلك في اجتماعاتي بالرئيس الأسد في أوائل أيار/مايو. كنت بنفسي قلقا من الوقائع التي تنكشف على الأرض، ولم يكن بوسعي أن أقول ما قاله البروفسّور فون ميزس حين قيل له ان نظريته لا تتفق مع الوقائع. قال: «إن الحق على الوقائع!» ولكن الوقائع تقتل الناس، وتهدد المناطق بالأخطار، وتقسم البلاد، وتقرر مسار الشعوب. لقد كان واضحا بالنسبة إلي، ان سوريا تريد إبطال الاتفاقية، ولا شيء دون ذلك. وذكرت مخاوفي لشولتز، وقلت إن اسرائيل ستبقى في لبنان، وقد تتوسع إذ أبطلنا الاتفاقية؛ واذا لم نبطلها، فان سوريا ستواصل محاربتها لها. ثم إن الاجماع الوطني وراء الاتفاقية قد ينهار إذا لم تنفذ، والاجماع وليد امكانية النجاح، فكلما ازداد الشك في الاتفاقية انهار الاجماع. وفي الواقع كان شولتز قلقا؛ فهو بذل الكثير من الجهد من أجل التوصل إلى هذه الاتفاقية، ويريدها ان تنجح. ولعل هذا التمني بالذات هو الذي دفعه إلى الاعتقاد بان قبول الاتفاقية هو في مصلحة سوريا، وإلى أن الموقف السوري لا بد ان يتغير بالتالي، وذلك خلال أسابيع معدودة. لقد كان شولتز يعوّل كثيرا على العربية السعودية لتحقيق هذا التحول الكبير في السياسة السورية.

وكنت في الواقع على اتصال وثيق بالعربية السعودية وأبقيت الملك فهد ووزير الخارجية الأمير سعود الفيصل في جو الاطلاع على التطورات، سواء مباشرة، او بواسطة السيد رفيق الحريري الذي كان بمثابة مبعوث الملك إلى لبنان. والحقيقة انني قصدت واشنطن في أوائل حزيران/يونيو عبر الرياض للحصول على ارشاداتهم بشأن الإشكال الذي رافق ولادة الاتفاقية.

وفي اجتماعي بسعود الفيصل، وجه وزير خارجية العربية السعودية الكثير من الأسئلة حول الاتفاقية وموقف القادة اللبنانيين منها. فأعطيته عرضا صريحا لما كنا نواجهه. قلت له ان سوريا هي بالتأكيد ضد الاتفاقية. وسعود بدوره قرأ لي

موجز رسالة تلقاها من الوزير خدام في اليوم السابق، يشجب فيها الاتفاقية باسلوبه المعروف والخاص به. وكان رأي سعود ان معارضة سوريا للاتفاقية تعني أنَّ لسوريا خياراً آخر لاخراج اسرائيل من لبنان.

قلت إن سوريا تريد تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ أو الكفاح الوطني. هذان هما الخياران بالنسبة لدمشق. وعما يتعلق بمقررات الامم المتحدة، قلت لسعود: اني لم أر حتى الآن ان هيئة الامم قد نجحت في تنفيذ أي قرار من قراراتها المتتالية بشأن فلسطين وبشأن لبنان. أما بالنسبة للنضال حتى يكون فعالاً ويخرج اسرائيل كليا فيفترض وحدة شعبية وقدرة غير متوافرة تماما الآن.

ثم سأل سعود عن العلاقات المتبادلة. لقد جاء في الاتفاقية أن اسرائيل ولبنان ستتباحثان في العلاقات المتبادلة «بنية طيبة» بعد ستة أشهر من الانسحاب الاسرائيلي الكامل. وكان رأي سعود انه لا وجود «لحسن النية» بين الغالب والمغلوب. كان يريد ضمانات بان هذه المناقشات «بالنية الطيبة» لن تؤدي إلى تطبيع العلاقات. هنا أكدت له أن التطبيع غير وارد، وان لبنان لن يفتح سوقا واحدة مع اسرائيل ليغلق ٢١ سوقاً مع الدول العربية الشقيقة. وقلت إننا وقعنا الاتفاقية لاخراج اسرائيل من لبنان، لا لادخالها إليه وبعبارة «النية الطيبة» عنينا اننا سنتباحث في العلاقات المتبادلة مع اسرائيل، إلا أننا لن نقوم بخطوة واحدة في هذا الاتجاه الا في اطار اتفاقية عربية شاملة مع اسرائيل تشترط تحقيق سلام عادل وشامل بعد تسوية الاشكالات العالقة بين اسرائيل وكل من فلسطين وسوريا والأردن ولبنان.

وأثرتُ مع سعود احتمال الدعوة إلى قمة عربية لاتخاذ موقف من الاتفاقية. فاذا ما رفضت القمة الاتفاقية كان عليها عند ذاك ان تقدم لنا بديلا معقولا. فلم يبد الأمير سعود حماساً لمؤتمر القمة فهو يفضل التوصل إلى حل الاشكال بالمباحثات المباشرة مع سوريا. وفي هذا الاطار تتعهد العربية السعودية بتقديم المساعدة. ثم ختم سعود كلامه بالقول «انك ستجتمع بالملك فهد وهو يحدد في اجتماعك معه الموقف السعودي». واجتمعت بالملك فهد بحضور ولي العهد الامير عبد الله، وسعود

الفيصل، وسفير لبنان في الرياض، الدكتور ظافر الحسن. وبدا الملك مطلعا أتم اطلاع على الاتفاقية، لكنه كان قلقا بعض الشيء للقسم المتعلق بالعلاقات المتبادلة. ولم ينتظر عرضي حتى يبدأ بالبحث بل دخل في صلب الموضوع مبدياً أسفه الشديد بانه لا الولايات المتحدة ولا المجموعة الأوروبية ضغطت الضغط الكافي على الاسرائيليين لاخراجهم من لبنان بأقل ما يمكن من الشروط.

اما بالنسبة للرئيس الأسد، فقال الملك يجب ان نكون صريحين معه وإقناعه بالحجة المبررة. ينبغي للرئيس الجميل أن يبعث إلى الرئيس الأسد برسالة ودية يشرح له فيها الظروف التي أدت إلى عقد الاتفاقية، ويجب ان تذكر الرسالة ان لبنان بلد محتل، وان الذين يقعون تحت الاحتلال يكونون في وضع صعب. على لبنان ان يخرج المحتل؛ ان هذه الاتفاقية تحقق هذا الهدف. واذا كان في الاتفاقية بنود من الأفضل ان تحذف، فان الشيء الهام هو اخراج الاسرائيليين من لبنان. واذا ما تحقق ذلك، يمكن اعادة التفاوض بشأن هذه البنود او تفسيرها بصورة تضمن مصالح لبنان وسوريا. ثم ان المملكة العربية السعودية ستعمل إلى جانب الولايات المتحدة لاجراء التعديلاتَ اللازمة. ثم عاد فشدد على أهمية توجيه رسالة كهذه إلى الرئيس الأسد ولا بد أن تأتي بالفائدة. أرسلوا الرسالة ثم ننتظر الرد. وفي ضوئه نبحث الخطوات المقبلة. واذا كان الرد ايجابيا، فانه من المناسب ان يناقش معه انسحاب قواته بصورة تساعد لبنان، وفي الوقت ذاته تحمي مصالح سوريا.

وأبلغني الملك فهد كذلك أن الملك الحسن الثاني اتصل بالأسد، وأعرب له عن دعم أيّ اتفاقية تلزم الاسرائيليين بالانسحاب من لبنان. وكان ولي العهد الأمير عبد الله قد ذهب إلى ليبيا، ثم انه سيسافر قريبا إلى الأردن، والعراق، وسوريا، سعيا وراء اجماع عربي يساعد لبنان للخروج من محنته. قال الملك: إن ما هو صالح للبنان صالح للعرب. اما موقفه بالنسبة لعقد قمة عربية بشأن الاتفاقية، فكان سلبيا للغاية. ورأيه أن قمةً كهذه تعقّد الامور ولا تحلها.

وبعد مباحثاتي مع الملك فهد، أخذني رفيق الحريري بسيارته إلى قصره الذي كان في المرحلة الاخيرة من البناء. وكانت هذه بداية زيارات عدة إلى رفيق في

قصره بالرياض أو في شقته في باريس أو في مطار دولة ما بحثا عن مخرج للمأزق اللبناني. ورفيق الحريري هو أحد قلة من اللبنانيين الذين عملوا في العربية السعودية وعملوا بجد ومثابرة ليبلغوا الذروة . وهو من صيدا، حيث كان والده يعتني ببساتين البرتقال. ولما أصبح ثريا جدا، يملك ست طائرات خاصة، طلب منه والده نقل البرتقال بإحدى هذه الطائرات إلى جدة والرياض، حيث يتمكن من بيعه باسعار مرتفعة. وتم له ذلك، وسرّ الوالد بالمكاسب، ولكن ابنه لم يذكر له قط ان كلفة النقل كانت أكثر بكثير من الأرباح التي حققها الوالد من بيع البرتقال.

وحين قَدِم رفيق الحريري إلى المملكة العربية السعودية، ركّز جهوده على المقاولات. وحقق بذلك انجازا كبيراً؛ وكسب ثقة الحكومة السعودية التي منحته شرف الحصول على المواطنية السعودية، التي لا تعطى الا لمن يحوز ثقتهم الكلية. وباعتباره مواطنا سعودياً موثوقاً، ولبنانياً أصيلاً، أخذ الملك فهد يعوّل عليه كمندوب خاص له في لبنان، وللقيام بمشروعات انسانية فيه. ولقد كان الحريري، حتى في أوقات القلق الشديد، يؤمن بمستقبل لبنان، ووظّف الأموال بسخاء في اعادة إعمار بيروت، وأعاد بناء أقسام رئيسية في المنطقة المهدمة من المدينة. ذات يوم جاء بسيارته إلى القصر الجمهوري، ووراءه شاحنة، وفاجأنا جميعا حين افرغ عماله حمولة الشاحنة، وانشأوا، في احدى قاعات القصر نموذجاً لوسط مدينة بيروت الجديدة كما يتمناه، لا بل كما يحلم به. لقد كان الحريري، كغيره من اللبنانيين المؤمنين، يحلم كثيرا بفعل شيء ما ولكنه، على عكس غيره، كان يحقق على الأقل بعض ما يحلم به.

وحين زرت الحريري في مسكنه الجديد، بدا لي انه يعيش في بيروت وصيدا، اكثر مما يعيش في الرياض. هو هنا احد اكثر رجال الأعمال انشغالاً في العالم، لكنه كان يتابع سير السياسة اللبنانية المعقدة بشغف شديد. وقد بدا له ان حل الأزمة اللبنانية أشبه ما يكون بمشروع يمكن له ان يعتمده ويخطط له، ويجند طاقاته له وينفذه في الموعد المحدد. ثم قال لي انه سيتولى شخصياً متابعة مباحثاتي مع الملك فهد والأمير سعود، لأن مجيئه إلى بيروت أسهل من مجيء أحد أفراد العائلة المالكة، خصوصاً في تلك الظروف الصعبة.

وبينما كنت في فندقي، تلقيت مكالمة هاتفية من الأمير سلمان، شقيق الملك فهد، وحاكم الرياض. اتصل بي ليقول لي انه قرأ الخطاب الذي القيته في المجلس النيابي اللبناني دفاعاً عن الاتفاقية، وأنه اعجب به، وانه يقترح على كل القادة العرب ان يقرأوه بتمعن ويفكروا فيه. وقال لي انه استأذن الملك فهد كي ينشر الخطاب في جريدة «الجزيرة»، وان الملك وافق على ذلك، وان الخطاب نشر كاملا. وقد شعر الامير سلمان ان نشر الخطاب يعزز جهد المملكة العربية السعودية، لتأمين تنفيذ الاتفاقية بعد تعديلها بطريقة ترضي الاطراف المعنيين.

وودعني الامير سعود على المطار وأكّد لي ان المملكة العربية السعودية سترسل سفيرها إلى بيروت للحلول محل القائم بالأعمال، الذي كان يمثل المملكة في لبنان. إن هذه الخطوة ستكون بمثابة رمز للدعم السعودي للحكومة اللبنانية، وتشجيع للبلدان العربية الأخرى على إعادة سفرائها إلى بيروت، وتجديد للتأكيد على التزاماتها نحو لبنان. ومن الواضح أن زيارتي إلى العربية السعودية، والموقف السعودي من الاتفاقية، أسهما في تأمين التأييد الساحق للاتفاقية في المجلس النيابي؛ والواقع ان التأييد تجاوز اكثر توقعاتنا تفاؤلا. وفور عودتي إلى بيروت، جرى، كما اقترح الملك فهد، اعداد رسالة ودية، أرسلت من قبل الرئيس الجميل إلى الرئيس الأسد في ١٤ حزيران/يونيو. وتلقينا رداً غير مباشر من السعوديين الذين قالوا لنا ان الرئيس الاسد قال أثناء محادثاته مع الأمير عبد الله انه يريد حوارا مع الولايات المتحدة، وانه على استعداد للتحدث مع اللبنانيين. ولكن الأسد لم يشر إلى رسالة الرئيس. لقد قال للأمير عبد الله انه لا يستطيع قبول الاتفاقية بصورتها الحالية. ورداً على ذلك، ألح الأمير على الأسد ان لا يرفض الاتفاقية بكليتها فورا، بل ان يواصل التفكير فيها، وان يستخدمها لمساعدة لبنان لايجاد طريق لتأمين الانسحاب الاسرائيلي.

واقترح الملك فهد أن ننظر إلى الاتفاقية على أنها قسمان: الأول يتعلق بالترتيبات الأمنية، والثاني بالعلاقات المتبادلة. ويمكن للقسم الأول الذي يتناول الترتيبات الأمنية ان ينفذ أولا، بحيث يتحقق الانسحاب الاسرائيلي، على ان يصار إلى اعادة التفاوض بشأن القسم الذي يتعلق بالعلاقات المتبادلة.

ومع ذلك فان الاميركيين كانوا مسرورين لاستمرار اهتمام الملك فهد بالقضية اللبنانية. وقد شعروا ان التعديلات التي اقترح الملك فهد إدخالها على الاتفاقية قد تساعد في تبديد المخاوف السورية. كذلك اعتبر الاميركيون موقف مصر المؤيد للبنان أمراً مشجعاً. ان الاقتراح الوحيد الملموس الذي لدينا هو الاقتراح السعودي لتعديل الاتفاقية. وفي هذا الاطار، أكّد لنا فيليب حبيب ان اسرائيل سترفضه بشكل مطلق.

موافقة مجلس النواب

أبدى الرئيس الوزان عدم الارتياح حين ناقشت معه احالة الاتفاقية إلى المجلس النيابي، كخطوة أولى نحو ابرامها. لقد أحس انه قام بما يمليه عليه واجبه الوطني، وأنه من الأنسب الآن كسب الوقت آملا بان يتغير الموقف من الاتفاقية. وكنت اتفهم موقفه كليا، واتعاطف معه. وهنا دعانا رئيس الجمهورية إلى تناول الغداء معه، وأقنع رئيس الحكومة باحالة الاتفاقية إلى المجلس النيابي. ووافق الرئيس الوزان بشيء من التردد، وهو يعلم ان مثل هذا العمل قد ينعكس سلباً عليه اذا لم تنجح الاتفاقية. وفي اليوم التالي، كان عليه ان يقصد باريس في مهمة رسمية فألححت عليه، مداعبا، ان يقضي بعض الوقت في أوروبا ممتعا نفسه بعض الشيء، وأن يتيح لي بذلك مجال القيام بأعمال رئيس الوزراء بالوكالة. ولكن الرئيس الوزان، وهو المرح عادة، كان قلقا من سير الأمور.

واجتمعنا، أنا ورئيس المجلس النيابي كامل الأسعد، بضع مرات لدرس الخطوات اللازمة للعمل على تأمين موافقة المجلس النيابي على الاتفاقية.

وفيما كنا نخطط للترتيبات الاجرائية راحت الحكومة اللبنانية تنظر في الخيارات التالية:

أ ـ تعديل الاتفاقية للتخفيف من مخاوف سوريا؛

ب ـ الغاء رسالة اسرائيل الجانبية التي تربط الانسحاب الاسرائيلي بالانسحاب السوري؛

ج ـ تعليق البند الثامن الذي يتناول العلاقات المتبادلة؛

د ـ اعادة التفاوض بخصوص البند الثامن بعد ستة أشهر من الانسحاب الاسرائيلي الكامل؛

هـ ـ اضافة بند يقول انه ليس في الاتفاقية ما يتعارض مع مقررات جامعة الدول العربية؛

و ـ الغاء الاتفاقية، كما ذكرنا في رسالتنا إلى الاميركيين في ١٧ أيار/مايو، اذا لم تحقق الهدف الذي من أجله وضعت.

وحين بدأ النقاش في المجلس النيابي، كان قد مرّ على أعضاء المجلس أسبوعان كاملان لدراسة الاتفاقية، والتفكير ملياً بدفاعي عنها، واعداد مواقفهم بشأنها. وجرى النقاش يومي الاثنين والثلاثاء، ١٣ و١٤ حزيران/يونيو، ١٩٨٣؛ وكان الحضور كبيرا، كما كان الجو حاميا جدا.

وألقى ثلاثة نواب بارزين خطابات مطولة وبليغة لتأييد الاتفاقية؛ وهم نصري المعلوف، ومخايل الضاهر ولويس أبو شرف. نصري المعلوف نائب عن الكاثوليك، من زحلة، ومحام بارز، وخطيب لامع، وسياسي مجرب. ومخايل الضاهر ماروني من منطقة عكار، ومحام ناجح. وفي سنة ١٩٨٨، برز كمرشح للرئاسة، مفضل من قبل سوريا والولايات المتحدة. ولويس أبو شرف عضو قديم في حزب الكتائب، وشاعر، وخطيب، ووطني لبناني شديد الحماس وقد قتل بشظية قنبلة أثناء قصف بيروت في نيسان/أبريل، ١٩٨٩.

وعارض اتفاقية ١٧ أيار نائبان هما نجاح واكيم، الارثوذكسي الناصري من بيروت، وزاهر الخطيب السني الاشتراكي من جبل لبنان. وركز نجاح واكيم هجومه علي وتساءل عاليا: كيف يجوز لوزير خارجيتنا ان يحمل الجنسية الاميركية؟ رددت عليه قائلا: لا أحمل الجنسية الاميركية. كلا! صرخ في مجيباً. لقد درست في الولايات المتحدة، وتزوجت من اميركية؛ وعشت هناك. أنت مواطن اميركي! مظبوط؟ قلت ردا عليه. لقد عشت هناك، وتزوجت من اميركية، وهي

أصبحت لبنانية، اما انا فلم أصبح أميركيا. أنت تحمل بطاقة خضراء، قال هادرا صوبي. وبابتسامة عريضة، رددت عليه: كلا، انني لا أحمل بطاقة خضراء. وعندها حدّق بي غير مصدق، قبل ان يسأل بما يشبه الهمس تقريباً: هل هذا صحيح؟ والله صحيح، قلت له هامساً. ولكن رغم الهمس، وربما بسببه، انفجرت القاعة ضحكا، وبذلك انتهى هذا الحوار الجانبي.

وكثيراً ما عارضت نجاح واكيم وزاهر الخطيب، إلا أنني أحببتهما شخصياً واحترمتهما لأن اندفاعهما من أجل الاصلاح لم يكن مغايراً لاندفاعي.

وحين أعلنت نتيجة الاقتراع كان عدد المؤيدين ٦٥ نائبا، من أصل ٧١ نائبا حضروا الجلسة، فيما عارضها نائبان، وامتنع عن التصويت أربعة نواب. وكان كل واحد من هؤلاء الأربعة، قد اخبرني مسبقا بالاسباب التي دعته إلى عدم التصويت أو إلى التغيّب

وحاولت، طوال الحوار، ان احتفظ بالهدوء ونجحت في ذلك إلى أن اتهم أحد النواب الحكومة بإحالة الاتفاقية على المجلس النيابي نزولا على الحاح الولايات المتحدة. وهنالك نواب أملوا ان يظلوا خارج النزاع، اذ ان حدوث النزاع كان جلياً في الافق. لقد احسوا انهم صفقوا لخطابي مؤيدين منذ نحو أسبوعين، فلماذا دعوتهم الآن للتصويت على الاتفاقية تأييداً أو رفضاً. لا بد ان في ذلك مؤامرة اميركية. هنا شعرت ان موقف ذلك النائب ذلك موقف غير وطني، وقلت له ذلك مما جرح شعوره، واراد ان يخرج احتجاجا. الا ان زملاءه قطعوا عليه طريق الخروج ليبقى في القاعة، لأنهم بحاجة إلى صوته. ولا حاجة بنا إلى القول انه صوّت مؤيداً الاتفاقية. وهكذا عرفت انه ليس للعضو في الحكومة، حين يواجه ممثلي نواب الشعب المنتخبين، ان يفقد أعصابه بل عليه ان يصغي، ان يكون مهذباً، أن يراعي شعور النواب، وله بعد ذلك ان يفعل الكثير مما يشاء.

ويعود هذا الدعم الواسع للاتفاقية في المجلس النيابي إلى قناعة النواب بانها أحسن ما يمكن للبنان ان يتوصل إليه لاخراج اسرائيل من لبنان في الظروف الحاضرة بقدر ما يعود إلى ثقتهم بقدرة الولايات المتحدة على تنفيذها. وحين اخذت

ثقتهم بالولايات المتحدة تضعف، اخذ هذا التأييد الكبير للاتفاقية يضعف كذلك. يبدو ان القول المأثور «بأن لا شيء ينجح كالنجاح» قول صحيح.

المخاوف اللبنانية

لقد اقتضى التوصل إلى الاتفاقية جهداً كبيراً من جانبنا. وقد نجحنا في تأمين اجماع كبير على تأييد الاتفاقية لكن هذا الاجماع اخذ يتصدع مع نهاية شهر حزيران/يونيو. الشائعات عن التقسيم راحت تنتشر في البلاد؛ الاسرائيليون اخذوا يتحدثون عن انسحاب من جانب واحد إلى صيدا، حيث ينشئون منطقة أمنية تحت السيطرة الاسرائيلية تغطي الجنوب اللبناني كله. كانوا يقولون ذلك للاميركيين. واذا لم ينسحب السوريون والمقاتلون الفلسطينيون أولاً، فان اسرائيل ستعود إلى نشر قواتها في لبنان حسب مصلحتها الوطنية هي دون اخذ الموقف اللبناني بعين الاعتبار. وكان الاميركيون ينقلون هذه المواقف الاسرائيلية بشيء من البرودة والموضوعية، فلبنان طبعا بالنسبة لهم دولة من الدول فهو ليس اميركا ليعطوه ما كنا نتمنى عليهم ان يعطوه. وبدا لنا ان اميركا اخذت تتكل كليا على السعودية. غير ان السعودية ليست دولة عظمى لتؤثر على اسرائيل او لتطمئن سوريا اقليميا.

ثم ان توقعاتنا المتناقصة لرؤية الجيوش الاجنبية تنسحب من لبنان بدأت تثير قلقنا، وتزعجنا، وتفقدنا الصبر. وأخذ الرئيس الجميل يتذمر من فيليب حبيب. وفيليب حبيب المفاوض الصلب كان ايضا يتذمر بلطف من الرئيس، ويطلب منه المزيد من الجهد، للحفاظ على الاجماع اللبناني، ولايجاد أساليب جديدة لاقناع الاسد بالوقوف إلى جانب الاتفاقية، وبأن لا يتوقع من الولايات المتحدة ان تأتي بالعجائب. غير ان الرئيس يود ان يسمع كلاما غير هذا الكلام، وان يتلقى مواقف اميركية أقوى من هذه المواقف. لقد أصبحنا في هذه المرحلة كالفقراء: شديدي الخلافات، تواقين للاتهامات. كان الرئيس يريد شيئا مؤكدا. كان يعتقد ان هذا الشيء المؤكد هو شيء منتظر من الدولة العظمى. كان مستاء من فيليب حبيب ورفض ان يجتمع به.

وسعيت جاهدا كي ابدد هذا التوتر بين فيليب حبيب والرئيس. وكان فيليب حبيب ينفعل انفعالاً شديداً في بعض الاحيان. «ما هي القضية يا إيلي؟»، يسألني. «لماذا لا يريد الرئيس الاجتماع إلي؟ أنا أعمل جهدي لمساعدته». ومن حسن الحظ ان هذه الحوادث لم تكن تدوم طويلاً، ولو أنها كانت لسوء الحظ تتكرر كثيرا. كان من شأن الفشل ان يؤدي إلى نزاعات شخصية، كما كان من شأن هذه النزاعات الشخصية ان تؤثر على المسار السياسي ذاته. ان جميع الذين عرفتهم آنذاك تقريبا ممن كانوا على صلة بالعملية السياسية كانوا يتمنون لو أنهم كانوا في وظائف اخرى، ومسؤوليات اخرى. كذلك أقر بدوري أنني كنت أحسد زملائي الاكاديميين على هدوئهم. ذات يوم، كنت أتمشى في حرم الجامعة الاميركية حين ناداني أحد زملائي الاكاديميين يسألني، بشيء من السخرية، قائلاً: متى ستخرج الاسرائيليين يا إيلي؟ أحسست بالغضب الشديد. ماذا أستطيع ان أقول؟ كنت أريد ان أقول له شيئا، لكنني لم أقله. وهو انك ستدهش يا صديقي حين تعرف كم هو محدد مجال تحركي. وفي تلك اللحظة تذكرت كلمات أحد رفاق صفي الثوريين في الجامعة بعد التخرج، وبعد عدد من الانقلابات، وبعد محاولة رئيسية لتحقيق الوحدة العربية، وبضع عمليات لاختطاف الطائرات، وأعمال اخرى بارزة له، جاءني ذات يوم في مكتبي بالجامعة وقال: أريد يا أستاذ ان أتسجل في برنامج للدراسات العليا، وأن أعود إلى عالم الكتب. بعد عشرين سنة من النضال الوطني، أدركت انني لا أستطيع ان أفعل أي شيء. كان يبالغ، بالطبع. وكذلك كنت، بدوري، أعتقد اننا، نحن الاثنين، قصدنا بهذا القول ان القضايا في الشرق العربي شديدة التعقيد والتداخل في السياسة الدولية، وهي بذلك تخضع لمقتضيات الحرب الباردة، حتى ان اللاعبين القوميين، المحليين، كانوا في الواقع، مهما بلغ حسن النية عندهم يشعرون وكأنهم حجارة في لعبة طاولة الزهر.

وبالنسبة لنا، على سبيل المثال، فقد بذلنا جهدنا. ثم كانت لنا اتفاقية؛ لكنها لم تكن تتحرك. وفي السياسة ما لا يتحرك إلى الامام يتقهقر إلى الوراء. كنا بحاجة إلى بدائل قابلة للحياة، مقبولة لدينا، ولدى السوريين، ولدى الاسرائيليين، وكذلك لدى

الاميركيين والسوفيات الذين كانوا وراء الستار ووراء كل شيء. وبما ان الولايات المتحدة لم تكن تعطي السوفيات دوراً في الواجهة، فان السوفيات كانوا يحاربونها من الخطوط الخلفية. ولقد كانت الولايات المتحدة مستعدة للمساعدة، وتأمين الدعم السعودي، حتى ان شولتز قابل الملك فهد، ثم جاء الى بيروت للاجتماع بنا في الخامس من تموز/يوليو.

وبعد الاصغاء الى عرض كامل للوضع من قبلنا، قال لنا شولتز ان للولايات المتحدة ثلاثة اهداف:

أ - اخراج جميع القوات الاجنبية من لبنان؛

ب - تامين سيادة لبنان ووحدته؛

ج - الاتفاق على ترتيبات أمنية تضمن ان لبنان لن يكون ثانية منطلقا لنشاطات معادية لجيرانه.

ثم قال ان الاتفاقية تلزم اسرائيل بالانسحاب الكامل، ان شامير لم يكن يريد ان ينسحب من لبنان ابدا، ولكن ريغن اصر عليه بالانسحاب والظاهر ان ذلك الكلام ترك اثره فيه. ثم ان الولايات المتحدة على استعداد لدخول حوار واسع النطاق مع الرئيس الاسد كما يريد. كما ان الملك فهد على استعداد لإيفاد الأمير بندر بن سلطان للتوسط بين بيروت ودمشق. واضاف انه، اذا اراد الرئيس الاسد اعادة التفاوض بشأن الاتفاقية، فالاسرائيليون لن يقبلوا بذلك. فاذا فتح لبنان باب التفاوض مع اسرائيل من جديد بشان الاتفاقية، فانه سيفقد ما كان قد كسبه من اسرائيل، اي مبدأ الانسحاب الكامل. وقال انه يريد ان يبحث مع الرئيس الاسد وسائل تؤدي الى الانسحاب الاسرائيلي الكامل.

وانطلق شولتز وفريقه الى دمشق بعد الظهر. وفي اليوم التالي كنت اقود سيارتي ولا بد ان عقلي قد شطَّ عن الطريق الى مشاكل الاتفاق والمباحثات بين الاسد وشولتز، فوجدت نفسي في حادث اصطدام سيارة رهيب، وسرعان ما قفز الحرس الشبان وهم متخوفون من محاولة اغتيال او ربما تخيلوها حتى يفعلوا

شيئا «يحرز»، فقفزوا من سياراتهم وبأيديهم رشاشاتهم مصوبةً يمينا ويسارا؛ وتلك هي ردة فعل آلية. وكان علي أن أهرع من شاب الى شاب من الحرس مانعاً إيّاهم ان يطلقوا النار كي لا نزيد الوضع تعقيدا. ولتهدئة شاب منهم توترت اعصابه الى درجة عالية، كان لا بد لي من مساعدة ثلاثة من زملائه حتى لا يقتل واحدا او اثنين على الاقل. وقد تجمهر الناس من كل صوب. وفي تلك الايام العاصفة كان الجميع يعتقدون بانها مؤامرة اغتيال. الا انها لم تكن غير حادث. وعلى الفور نقلت محطات الاذاعة والتلفزة هذا النبأ، ومنها ما الح الى انها محاولة اغتيال. وحين بلغت المنزل، اخذ الهاتف يرن بلا انقطاع، مما دفعني الى تسجيل شريط بصوتي يصف ما حدث. واذيع البيان تكراراً من محطات الاذاعة والتلفزة للتخفيف من التوتر الذي يرافق الاغتيالات السياسية في لبنان.

واتصل بي الرئيس الوزان لتهنئتي بسلامتي. وبعد دقائق قليلة من ذلك، اتصل بي الرئيس الجميل هاتفياً لابلاغي ان الرئيس الوزان نجا من انفجار سيارة مفخخة بجوار مكتبه. لقد تعطلت القنبلة فانفجرت بعد جزء من ثانية على مرور سيارته، وبذلك نجا الرجل الوطني الشجاع. ومثل هذه التهديدات بالاغتيال غير جديدة على أيّ منا. كان علي ان اعتادها منذ الاسابيع الاولى من تسلمي منصبي. وكنت قد تعرضت منذ الاسابيع الاولى إلى تهديدات منها ما هو صوري ومنها ما هو واقعي.

ولقد كانت التجربة الاولى هامة، لا لشيء الا لانها الاولى. ذات صباح اثناء الاسبوع الثاني من تسلم منصبي، كنت اقرأ الرسائل السرية التي تبعث يوميا الى رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية. قرأت: ان مجلس قيادة احد الأحزاب التأم وقرر اغتيال وزير الخارجية الدكتور ايلي سالم. وبما انني كنت اقرأ الرسائل بسرعة لان غالبيتها محلية، ذات طابع محدود، فانني لم اتنبه الى هذه الرسالة التي تشير إليّ الا بعد لحظات من قراءتها. توقفت عن القراءة، واخذت افكر بهذه الرسالة. لم اخف. بل غضبت. ها انا ابذل وسعي، قلت في نفسي، لانقاذ بلادي، فيما يريد الآخرون ان يغتالوني. كنت اغلي من الغضب. فحملت الرسالة وذهبت الى رئيس الحزب المعني وقلت له «ها انا هنا، اقتلني». فضحك وقال: ماذا

تقول؟ فاخبرته بالبرقية، فازداد ضحكه وقال لا شك ان هذه من صنع مخابراتكم، فهم يفعلون ذلك حتى يخيفوكم، ثم يقدمون لكم المساعدة فتصبحون مدينين لهم.

وفي الثامن من تموز/يوليو، أطلعني درايبر على نتائج اجتماع شولتز بالأسد: لقد كان الاسد منسجما مع نفسه، اذ ابلغ شولتز ما كان قد قاله لي من قبل. ولم يترك السوريون، في محادثاتهم مع ممثل أقوى دولة في العالم، اي مجال للشك او التأويل، ولم يقولوا لشولتز شيئا مما قالوه لي من قبل، ثم ذكر درايبر ان الأسد قال، قبيل ان يغادر وزير الخارجية مكتب الرئيس انه ينبغي للحوار ان يتواصل بين سوريا والولايات المتحدة.

وحرصاً على تحقيق شيء ملموس من هذا الاجتماع، اغتنم شولتز هذه الفرصة ليقول: اننا سنواصل الحوار معا. ان فيليوتيس سيمثلني فيه. ووافق الاسد على ذلك، وكان درايبر يظن ان قبول الاسد قد ادخل سوريا في مسلك عملي مع اميركا قد يؤدي الى تنفيذ الاتفاقية، ولكنني خالفته الرأي. وقد حاول فيليب حبيب ان يظهر اجتماع شولتز بالاسد بمظهر حسن لكنه كان في الواقع غاضبا لان الاجتماع كانَ فاشلا.

ولم يحقق شولتز في اسرائيل نتيجة افضل. وقد قال له الاسرائيليون انهم سيعيدون انتشار قواتهم وفقا لما تقتضيه مصالحهم، وانهم لن ينسحبوا بموجب مخطط انسحاب كامل يبحثونه معنا. ولم يكن ذلك ما كنا نتوقعه. كنا نريد شيئا ندعم به اجماعا حول الاتفاقية الذي اخذ بالانهيار داخل لبنان، وفي الشرق الاوسط على السواء، حتى دولة المغرب نفسها، المؤيدة القوية للاتفاقية، قد هاجمتها في بلاغ مشترك مع ليبيا باعتبارها اتفاقية ضارة بمصالح لبنان الوطنية، وكان ذلك من ملك اتصل بالرئيس الاسد منذ نحو شهر فقط، وحثه على الموافقة على الاتفاقية لانها جيدة وخير ما يمكن للبنان ان يحصل عليه.

وفي منتصف تموز/يوليو، كانت المواقف السورية نحو الاتفاقية ونحو فيليب حبيب، الذي ظل الرئيس الأسد يرفض الاجتماع به، قد اخذت تثير القلق في صفوف الوفد الاميركي في بيروت. فيليب حبيب تحدث إلي عن عزمه للتخلي عن مهمته؛

وكذلك فعل درايبر. لقد أحس الوفد بالإحباط، وكان كل من افراده يقول: يجب ان يكمل غيرنا ما بدأناه. نحن بحاجة الى وجوه جديدة. كنت استمع اليهم من غير ان اتدخل. وفيما كنا نعمل مع الاميركيين، كنا في الوقت ذاته نحاول ان نبقي المجموعة الاوروبية والمملكة العربية السعودية معنيَّتين بشؤوننا.

دور المجموعة الاوروبية

في هذا الوقت، علمنا أن زيارة دمشق، المقرر أن يقوم بها هانس ديتريش غنشر، ممثلا للمجموعة الاوروبية، لن تتحقق. والظاهر ان الفرنسيين وقفوا في وجه هذه المبادرة الألمانية خشية ان يعطي ذلك لالمانيا دورا بارزا في الشؤون اللبنانية. وهذا الدور محجوز لفرنسا وحدها في المجموعة الاوروبية. اما الآن، وقد كانت اليونان رئيسة المجموعة الاوروبية، فقد قررت ان اتكلم مع القادة اليونانيين وحثهم على مبادرة اوروبية. ولم تكن لنا أيّ صلة خاصة باليونانيين، كما ان اهتمام اليونان بالشؤون اللبنانية كان اهتماماً محدوداً. والواقع ان الحكومة الاشتراكية في اثينا كانت تميل الى منظمة التحرير الفلسطينية، وتتعاطف مع الدور الفلسطيني في لبنان، لا مع الحكومة اللبنانية. وبدا للحكومة اليونانية ان منظمة التحرير منظمة ثورية حقا؛ ولقد كان اليونانيون حريصين على دعم ذلك الدور. ثم ان الفلسطينيين كانوا في وضع جيّد في أثينا، متمتعين بنفوذ واسع جدا فيها، فيما لم يكن للبنانيين دور مماثل في عاصمة الإغريق.

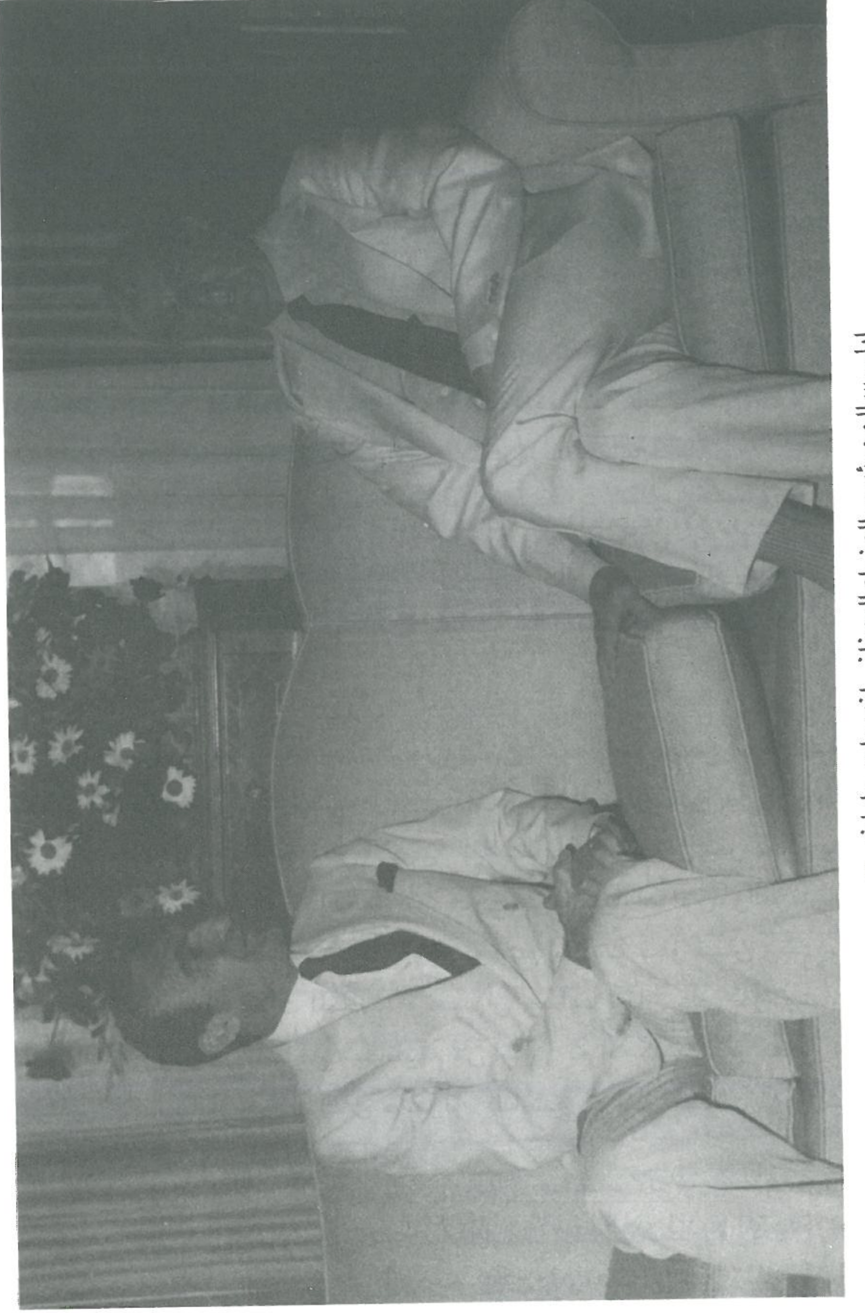
وبالاضافة إلى هذه الأسباب المباشرة، كانت لزيارتي إلى أثينا أهمية كبيرة بالنسبة لي. فأنا من المتأثرين بالفلسفة والشعر والتاريخ والسياسة الكلاسيكية. وفي الفترة التي تلت العهد الكلاسيكي، اعتنقت اليونان المذهب الارثوذكسي الذي أنتمي إليه، ثم وضعت لاهوتا ومؤسسات كنسية هي جزء من حياتي الدينية. فاذا كانت هنالك ثقافة واحدة في العالم أشعر أنني راسخ فيها مطمئن إليها، فهي الثقافة الاغريقية.

وصلت إلى أثينا يوم الثلاثاء ١٢ تموز/يوليو ١٩٨٣، فاستقبلني مسؤولون

يونانيون، وسفيرنا في اليونان شوقي شويري، الذي هو صديق قديم لي. ولقد كان الهدف من زيارتي التأكيد للمسؤولين اليونانيين على أهمية ايجاد حل للأزمة في لبنان، وحث المجموعة الأوروبية على دعم جهودنا لتحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي.

وكان اجتماعي الأول بالرئيس قسطنطين كارامنليس، وهو رجل مثقف وقور. وكان كارامنليس قد قطع اجازته ليجتمع بي، ويغتنم المناسبة لينوه بدور اليونان في المجموعة الأوروبية. وكان مكتبه المزين بالكتب مكتباً دافئا مريحاً، وقد قلت له ذلك، فانفجر ضاحكا وقال ان الكتب لمجرد الزينة. ولم يكن قد قرأ أيا منها. أحببت تواضعه. وكان حاد الذهن، كثير الأسئلة، وشعرت ان هذا الوريث لسقراط معني حقا بالحرية والديمقراطية اللتين تمتع بهما لبنان قبل نكسته. على ان كارامنليس اعترف بان السلطة السياسية منوطة برئيس الحكومة وهو كما قال، استاذ مثلك، ولا بد انك ستتكلم معه بحرية الجامعيين. هل أنت اشتراكي؟ لا، قلت له، أنا فردي. وحتى الاحزاب في لبنان هي فردية، كما ان الافراد هم بانفسهم احزاب سياسية وربما كانوا دولاً في بعض الاحيان.بل ربما كانوا مؤسسات دولية. وهنا رد ضاحكا: يظهر أن وضعكم كوضعنا.

ظل كارامنليس يشير إلى الأزمة اللبنانية باعتبارها مأساة، أي تراجيديا، وللكلمة مغزى كبير عند اليونان، وهو يتكلم بلغة تحمل ثقل الفكر اليوناني بالنسبة لكينونة الانسان. ثم واصل يردد انه سيبذل وسعه لمساعدتنا. بعد ذلك اجتمعت بوزير الخارجية كارامبوبولس، وهو ذو شاربين كبيرين كشاربي الامير بشير الشهابي. وكان واضحا انه يهتم كثيراً بمنظره وهو محب للحياة ومحب للسلطة التي يتمتع بها كوزير للخارجية. لقد تحدث مطولا عن خبراته في الحرب العالمية الثانية، وذكر دوره البطولي فيها. لقد قضى بعض الوقت في السجن، وعانى من الحرب. فجعله ذلك متعاطفاً مع الفلسطينيين. ثم انه متعاطف مع لبنان الذي زاره في أيام صباه ولكنه كان متشائما بالنسبة للتطورات في لبنان وفي المنطقة، ووصف التطورات بأنها «متفجرة» بسبب تنافس الدولتين العظميين.



إيلي سالم ورئيس الوزراء اليوناني اندرياس باباندريو

وعلى أثر ذلك ويوم الخميس ١٤ تموز/يوليو، اجتمعت برئيس الوزارة اندرياس باباندريو كان بغليونه وباسلوبه أستاذاً جامعيا بكل معنى الكلمة. ومن الواضح انه كان ذا اطلاع جيد على القضية اللبنانية، وكان له من المعلومات عني ما أضفى على الاجتماع جوا من الود بعيدا عن الرسميات.

قال لي: «أنت قادم من باريس الشرق الأوسط»، فرددت عليه، مصححاً، :«لا انني قادم من أثينا الشرق،» فسره ذلك كثيراً.

اغتنمت هذه البادرة، لأصف لباباندريو بيروت المثالية، التي تعكس النموذج الذي كانت تتحلى به أثينا. واعتبرت هذا اللقاء مناسبة للثناء على مجد الاغريق واسهامهم في الحضارة العالمية. كنت اتحدث عن ذلك بقناعة كاملة.

وطلبت من باباندريو ان يؤدي دورا قياديا في المجموعة الاوروبية لمساعدتنا. قلت له: مشكلتنا مشكلة ملحة، معقدة وخطرة. واذا لم تحل سريعا فان الشرق الاوسط قد يتعرض لخضات كبيرة شبيهة بالخضة التي نجمت عن القضية الفلسطينية.

ووعد باباندريو أن يعد خطة للعمل، وأن يعمل بالتنسيق مع الولايات المتحدة لتحقيق الانسحاب الاسرائيلي، وأقر بأنه ليست لليونان سياسة نحو القضية اللبنانية، ولكن لها سياسة نحو القضية الفلسطينية. واليونان تعرف الجهد الذي تبذله الولايات المتحدة، الا انها تحس انها خارج اللعبة كليا. اما الآن، واليونان تترأس المجموعة الأوروبية، فقد وعد بابا ندريو بوضع سياسة نحو لبنان وتقديم الدعم الأوروبي لجهود الولايات المتحدة، وتعهد ان يساعد لبنان على حل مشاكله مع الفلسطينيين، ويسهل انسحاب مقاتليهم من لبنان. ثم انه كان يشعر بعامل الوقت. وبتأخير الانسحابات يزداد الحل صعوبة. هنا شعرت انني أحدثت تغيرا محدودا في تفكير اليونان السياسي نحو لبنان.

ومن أثينا توجهت إلى نيويورك، لاطلاع الأمين العام للأمم المتحدة، خافيير بيريس دي كويلار، مباشرة على الوضع، وكان قد بعث إليَّ، قبل ذلك، أنْ اتوقف

في نيويورك لهذه الغاية، لأن الاميركيين لم يكونوا يطلعونه على التطورات. لقد عرف بصورة غير مباشرة موقفنا من الشروح المتواصلة التي كنت أتقدم بها إلى قوات الطوارئ. هنا منطقة فيها أزمة ذات مضامين دولية، ولكنّ دولة عظمى كاميركا اختطفت دور هيئة الأمم منه. هكذا كان يشعر، ولم يتردد في التعبير عن استيائه من الموقف الاميركي اللامبالي بدور هيئة الامم. كان دي كويلار يود ان يقوم بمبادرة، وأن يزور بيروت ودمشق لكنه يدرك أن اميركا لن تتعاون، وبدون تعاونها لا فائدة ترجى من جهوده.

ومن نيويورك، توجهت إلى واشنطن للاعداد لزيارة يقوم بها رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. كلاهما كان توّاقاً ليعرف المواقف الاميركية من مصدرها. وفي واشنطن، ناقشت الخيارات المحتملة مع الوزير شولتز في حال عدم تنفيذ الاتفاقية. أبلغته ان لبنان سيعلن أن الاتفاقية لاغية، اذا لم تؤد إلى الانسحابات. وشرحت له ان سياستنا قائمة على إخراج اسرائيل من لبنان بواسطة الاتفاقية. واذا ما تعذر ذلك، ستلغى الاتفاقية، وسنرجع إلى مجلس الامن، ونطالب بتنفيذ القرار ٤٢٥، ونلجأ إلى المقاومة. وقلت له اننا مدركون لمخاطر هذا المسلك البديل. غير أنه مسلك مشرّف، ومن المرجح ان تكون معاناتنا أشد؛ عند ذاك نعتمد على عنصر الزمن، على من يستطيع مزيداً من تحمّل الاحتلال: اسرائيل ام نحن؟

وكان شولتز منزعجا من ذلك. وأكّد لي ان ريغن لن يغير موقفه. أقرّ بالصعوبات، لكنه رأى فرصة لاقناع اسرائيل بالانسحاب التدريجي. وعارضت الانسحاب التدريجي خشية ان يَعْني ذلك الانتقال من حدود مؤقتة إلى حدود ثابتة ضمن لبنان. لكنه قال ان الانسحاب التدريجي سينفذ في اطار خطة انسحاب كاملة كان على استعداد لارسال السفن والطائرات لاجلاء مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، اذا ما شاء عرفات ان ينسحب. ثم إنه سيعمل بالتعاون مع العربية السعودية لاقناع سوريا بالانسحاب. وأمّل ان يكون للجيش اللبناني قدرة على المحافظة على الامن في المناطق التي تنسحب منها القوات الاجنبية، ثم أبدى، هو ومعاونوه، ارتياحهم للتقدم الذي أحرزته القوات المسلحة اللبنانية في العدد والعدّة.

كان موقفي مع شولتز أننا، اذا لم نحرز تقدماً سريعاً، فاننا سنواجه صعوبات فائقة فيما بعد: لأن الناس يفقدون الأمل. ثم اذا ما رأى النواب ان الاتفاقية امام طريق مسدود، فانهم يتخلون عنها وينكرون انهم أيدوها سابقا. وأجاب شولتز انه يدرك ذلك جيّدا، لانه يحضر أمام الكونغرس الاميركي باستمرار ويعرف بالضبط كيف يتصرف ممثلو الشعب.

كان شولتز يبذل أقصى الجهد ولكن دون تقدم. ثم طلب بعض الوقت للتفكير في القضية وبحثها مع معاونيه والتشاور بشأنها مع الرئيس ريغن، آملا ان يتمكن من تزويدنا بردود محددة. وفي واشنطن اجتمعت كذلك بالامير بندر الذي كان على وشك ان يعين سفيرا للسعودية في واشنطن، وحضر الاجتماع روبرت مكفارلين، معاون مستشار الأمن القومي، وليم كلارك؛ وقد أبلغني أنه عقد اجتماعاً سريا استمر سبع ساعات مع الرئيس الأسد. وكان مكفارلين يظن أنه حصل على عدة أشياء من الرئيس السوري. منها ان الأسد يعتبر حكومة الجميل حكومة شرعية، وكذلك يعتبر المجلس النيابي مجلسا شرعيا، كما انه صرح ان للبنان الحق في توقيع اتفاقية تخدم مصالحه. وكان مكفارلين سعيداً جدا لهذا الانجاز، ويعتبره اختراقاً للوضع المجمد. فرددت عليه ان الاسد قال لي الشيء ذاته. ولكنني أدرك ان الرئيس الأسد مستعد أن يضع هذه الاعتبارات الثلاثة جانبا إذا كانت في نظره تؤثر سلباً على مصالح سوريا القومية، فما أعطاك إياه يا مستر مكفارلين يمكن أن يسترجعه. ولذلك لم تحصل على شيء جديد. وانفجر بندر ضاحكا. وهتف: هذا صحيح! هذا صحيح! مسكين مكفارلين! تلك كانت خبرته الاولى في دبلوماسية الشرق الاوسط.

وفي يوم الثلاثاء ١٩ تموز/يوليو، وصل الرئيس الجميل ورئيس الوزراء الوزان إلى واشنطن للتأكيد على دفع عملية الانسحابات إلى الأمام. وعند وصولهما قصدت رأساً شقة الرئيس الوزان في فندق ماديسون، فوجدته في حالة قنوط، معكور المزاج، وإحساسه: ان جهده الجبار بكليته قد يكون ذهب سدى.

في السياسة، على ما قال لي، ينبغي للمرء ان ينجح. ثم تابع كلامه إلي قائلا: «أنت لا يمكنك ان تقدر ما أقوله لك. لقد دخلت السياسة فجأة «بالبراشوت». لقد

جئت رأساً من الجامعة إلى الحكومة: اما انا، فقد أتيتها ماشيا. بذلت جهداً كبيرا في حياتي حتى توصلت إلى رئاسة مجلس الوزراء، وكل هدفي في السياسة ان أخدم بلادي، وأؤمن الانسحاب الاسرائيلي. ولكن يظهر أن الاحتلال الاسرائيلي مستمر. ان أعظم دولة على الأرض لا تستطيع ان تساعدنا. الواقع انه كلما عظمت الدولة ازداد عجزها. إن الاجماع، الذي عملنا له جاهدين، أخذ في الانهيار. اليوم سمعت ان بيروت تعرضت للقصف العنيف. وان الكثيرين من الناس قتلوا».

وفي حديث الرئيس الوزان مع شولتز، شدد على أهمية الانسحاب الاسرائيلي وأولويته بالسرعة الفائقة فرد عليه شولتز قائلاً: «لا تخف، هناك عدة طرق لنتف شعر الهر»؛ ولما ترجمت العبارة للرئيس الوزان نظر إلي مشككا وقال لي: قل له يا إيلي: «نأمل بأن لا تكون طريقته على أساس شعرة فشعرة».

وأثناء وجود الرئيس الجميل في واشنطن، عقد مؤتمرا صحفيا في النادي الوطني للصحافة. وخلال انعقاد المؤتمر، كانت بيروت تتعرض للقصف الشديد، وكانت المعارضة اللبنانية المتحالفة مع سوريا تتحرك بقوة ضد الاتفاقية، وقد بدأت تستخدم القوة العسكرية التي لديها للضغط على الحكومة. وكان بين الذين يحضرون المؤتمر أعضاء من القوات اللبنانية. وقف احدهم وسأل الرئيس: يا صاحب الفخامة، الجميع يعلمون ان دمشق تقصف بيروت. فما هو موقفك من ذلك؟»

ورد الرئيس الذي كان يميل إلى الرد على التحدي بتحدٍ منه قائلا: «اننا سنرد هذه القذائف إلى العاصمة التي تنطلق منها». ولئن قوبل الرد بتصفيق حاد هادر من أعضاء القوات اللبنانية في المؤتمر، فانه جاء خطوة خاطئة في وقت كنا نحاول فيه ان نفاوض سوريا ونبدد مخاوفها. هنا كتب غسان تويني الذي كان يجلس إلى جانبي على المنصة شيئاً ما على ورقة ومرّرها إلى الرئيس. فقرأها الرئيس، ثم دفعها إلي، من غير أن يبتسم، كما يفعل عادة بعد ان يقرأ ملاحظات غسان الكثيرة، كانت ملاحظة غسان تويني كما يلي: «كلامك قوي، يا صاحب الفخامة؛ أي مطار تتوقع ان نهبط فيه لدى عودتنا إلى بيروت؟» وغسان تويني عبقري في ايجاد الكلمة

المناسبة. كذلك هو سياسي حذق. وقد عرف ان رد الرئيس سيصعد الازمة، بين الحكومة وسوريا، وبين الحكومة والمعارضة.

ولم يستطع الرئيس الوزان، وهو السياسي الحكيم، الحذر، أن يصدق أذنيه، قال لي بانفعال انه قرر ان يستقيل. فألححت عليه أن يعيد النظر في قراره، وان يحافظ على الجبهة الموحدة التي نحن بحاجة إليها في واشنطن. ولزيادة الوضع السيّء سوءاً، كان المقرر ان يعقد الرئيس الوزان مؤتمراً صحفياً بعد ذلك بقليل؛ وكان يتوقع أن يوجه إليه سؤال حول التهديد الذي وجهه الرئيس ضمناً إلى سوريا. وصمم ان يعقد المؤتمر الصحفي، وبالطبع كان السؤال الاول الذي وجّه إليه بخصوص التهديد الذي وجهه الرئيس الجميل.

وبدون ان يرف له جفن، رد الرئيس الوزان: «أي تهديد؟ لقد عنى الرئيس ان الدول العربية كلها كتلة واحدة متراصة. واذا ما تعرضت إحداها للخطر، تعرضت الدول الاخرى إلى الخطر كذلك. وسوريا دولة عربية شقيقة، والرئيس يعمل ما في وسعه لوضع مخطط بالتعاون مع سوريا لاخراج اسرائيل من لبنان». لقد أعطى الرئيس الوزان ردّاً مطولاً حرَّف السؤال وأربك السائل. ثم نظر إلي بابتسامة غامضة وقال: «ما رأيك بهذا الرد؟ إنه غير صحيح، ولكنه مفيد». بعد ذلك حدق فيّ وقال: الله يخليك قل لصديقنا ان يتبع النهج المفيد ولا يزيد الطين بلة.

ويوم الجمعة، ٢٢ تموز/يوليو، اجتمعنا بالرئيس ريغن. لقد جدّد ريغن التزامه نحو لبنان بعبارات عامة. ثم أبلغنا ان فيليب حبيب قد استقال من منصبه كمبعوث خاص. وانه عين روبرت مكفارلين بدلا منه، وان ريتشارد فيربانكس سيبقى مساعداً له.

ولم نحصل في واشنطن على أي ضمانات جديدة، وكنا غير واثقين من نتائج الجهود الجارية لتأمين الاجماع حول الاتفاقية. ثم عرضنا مع الاميركيين الخيارات المفتوحة أمامنا، وهي خمسة.

أولا: كان الاقتراح الاميركي ان تنسحب اسرائيل من كل المناطق اللبنانية

باستثناء سهل البقاع. بعد ذلك ينسحب السوريون. وعندما ينسحب السوريون انسحاباً كاملا، ينسحب الاسرائيليون من البقاع انسحابا كاملا، وأثناء فترة الانسحابات. تعلق الاتفاقية، ثم تنفذ، او يجري التفاوض بشأنها صورياً، خلال أسبوعين، لتثبيتها، كما هي من دون أي تعديل.

ثانياً: كان الاقتراح السعودي ان تنسحب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان؛ أما البند الذي يتناول العلاقات المتبادلة فيعلّق، على ان يصار إلى التفاوض بشأنه بعد ستة أشهر من انسحاب القوات غير اللبنانية. واما الترتيبات الأمنية فيبدأ تنفيذها مع تنفيذ الانسحابات.

ثالثاً: وهنالك أيضا اقتراح لشولتز؛ قال انه اقتراح سوري صاغه هو بعد محادثاته مع الرئيس الأسد؛ وهو يدعو إلى انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية أولا. بعد ذلك تنسحب اسرائيل وسوريا. وبعد الانسحاب الكامل يصار إلى استفتاء بشأن الاتفاقية تحت اشراف الأمم المتحدة. ذلك يعني انسحاب اسرائيل بدون أي اتفاقية، والعودة الى اتفاقية الهدنة. وقلت لشولتز انني اشك في أن هذا هو الموقف السوري واظن انك أسأت فهم الرئيس الأسد في هذا الموضوع الدقيق. ولكن شولتز أكد لي ان ذلك هو ما فهمه.

رابعاً: اقترح الاسرائيليون انسحابات تدريجية. فهم ينسحبون من منطقة، ثم يرون: هل الجيش اللبناني أهلٌ للحفاظ على الأمن فيها حتى اذا ما كان ذلك مُرْضيا لاسرائيل، قامت بعد ذلك بالانسحاب من منطقة اخرى، وهكذا على التوالي. اما الانسحاب النهائي، فيتوقف على انسحاب سوريا ومنظمة التحرير، والتنفيذ الكامل للاتفاقية.

خامساً: وهنالك أيضا خيارنا وهو الغاء الاتفاقية واعتبارها باطلة وكأنها لم تكن اذا لم تحافظ على الاجماع الوطني ولم تؤد إلى الانسحابات الكاملة. وعندما سمع الاميركيون خيارنا قالوا لنا ان ذلك لن يؤدي بنا إلى أي نتيجة. وقالوا: ذلك يساعدكم مع سوريا ولكن وضعكم مع اسرائيل سيزداد سوءاً.

لقد كان على فريق مكفارلين/فيربانكس ان يواصل العمل مع الاطراف المعنية

على أساس هذه الخيارات، فيما يواصل نيكولاس فيليوتيس مباحثات مع فاروق الشرع، من اجل تحسين العلاقات بين واشنطن ودمشق. وكان لا بد من تنشيط عمل الممثلين الأوروبيين، أمثال وزير الخارجية الفرنسي كلود شيسون، ووزير خارجية ايطاليا اميليو كولومبو، ورئيس وزارة اليونان اندرياس باباندريو، لدعم النشاط الدبلوماسي الاميركي الجديد. وكان من المتوقع ان تواجه هذه الخيارات صعوبات كبيرة اذ أن لكل منها من يؤيدها ومن يهاجمها. واستنادا إلى مواقف اسرائيل اثناء المفاوضات، والمواقف السورية المعلنة، شعرت اننا في طريق طويل، لا يمكن التكهن بنتائجه، وان مجال المناورة فيه مجالٌ ضيق. لقد كنا تواقين لاخراج لبنان من حبائل قضية الشرق الأوسط المعقدة، ولكنه يظهر بان فرص النجاح أمامنا محددة. وكنت أخشى ان يسجل التاريخ اننا قمنا بمحاولة كبرى وبذلنا جهوداً مكثفة ولكن «الوقت السياسي» كان ضدنا.

امتحان خيارات واشنطن

وصل الفريق الاميركي الجديد إلى بيروت في أول آب/أغسطس، وهو مؤلف من روبرت مكفارلين، وريتشارد فيربانكس وكرس روس، وفيليب دور، وهاورد تايشر؛ وهو فريق عالي المستوى برئاسة أحد اقرب المقربين من الرئيس ريغن. كنت أعرف مكفارلين عندما كان مساعدا للسيد كلارك في الأمن القومي في البيت الأبيض. ووجوده على رأس الفريق الجديد يبدو كأنه التزام مباشر بالبيت الأبيض لاخراج لبنان من المأزق. وبحث الفريق الاميركي معنا اقتراحهم وسألونا كيف يمكن ان نملأ الفراغ الناجم عن الانسحاب الاسرائيلي من منطقة الشوف/عاليه. قلنا لهم ان لدينا ثلاثة ألوية يبلغ عددها ١٢٠٠٠ جندي على استعداد للتحرك إلى المنطقة؛ كما اننا نود ان نرى القوة المتعددة الجنسيات موزعة على الطرقات الرئيسية بصورة داعمة لقواتنا.

وتوجه الفريق إلى اسرائيل لعرض الاقتراح الاميركي، والحصول على برنامج انسحابات اسرائيلية يمتد بين ثمانية أسابيع و١٢ أسبوعاً، على ان تكون المرحلة

الاخيرة، اي الانسحاب من وادي البقاع، متوقفة على الانسحاب السوري. وكان الفريق الاميركي واثقا بان اسرائيل مستعدة للبحث في مشروعه بروح ايجابية، ولكنها لن تقدم برنامجا كاملا لانسحابها. كانوا على استعداد للانسحاب من منطقة الشوف/عاليه والسماح للجيش اللبناني بدخول تلك المنطقة؛ أما الانسحابات اللاحقة، فمشروطة بقدرة الجيش على الحفاظ على السلام في الشوف/عاليه.

هنا نبهنا الفريق الاميركي إلى ان اسرائيل كانت تسلح الدروز والقوات اللبنانية معا، وكانت تهيّئ الاجواء في الجبل لانفجار النزاع الطائفي فيه، وما ان ينفجر النزاع، حتى تعلن اسرائيل انها لا تثق بالجيش اللبناني، ثم تعيد نشر قواتها كما تشاء ودون مداخلة من أحد. إننا نخشى الفخ الذي يُعد. قلت لمكفارلين ان على الاسرائيليين ان ينسحبوا كليا، وبصورة «نظيفة»، لا ان يتركوا وراءهم قنابل موقوتة. وقد عمدنا إلى تكرار هذه النقطة مرة بعد مرة، وزودنا الاميركيين بالاثباتات الوفيرة على اساس التطورات التي كنا نشهدها على الأرض يوما بعد يوم.

وفي أوائل آب/اغسطس، بينما كان مكفارلين يتردد ذهابا وايابا في محاولة منه لتأمين الحصول على الموافقة على الاقتراح الاميركي، قام جان عبيد بزيارة قصيرة إلى دمشق للاجتماع بالرئيس الأسد. وفي هذا الاجتماع طلب الرئيس الأسد الغاء الاتفاقية، وأضاف انه يرفض الاجتماع بي للتباحث في أي موضوع قبل الغاء الاتفاقية. وقال للسيد عبيد انه يرغب في الاجتماع بي في دمشق اذا جئت لاعلان الغاء الاتفاقية فقط. وبما أنني كنت أظن أني أعرف موقف الرئيس الأسد، فقد دهشت حين سمعت شولتز يقول في واشنطن: إن الأسد يوافق على إجراء استفتاء بشأن الاتفاقية في ظل اشراف الأمم المتحدة.

وحين اجتمع مكفارلين وفيربانكس بالأسد، أدركا كذلك أن الأسد لا يتزحزح عن موقفه، وأنه، هو لا غيره، يريد ان يقرر الاولويات ا لعربية، وانه واثق بان الحرب بينه وبين اسرائيل غير واردة الآن: لأن الشعب الاسرائيلي معارض للحرب. ووزير الدفاع الجديد موشيه آرنز غير آريل شارون، وهو غير ملتزم بالحملة الاسرائيلية

على لبنان. ثم ان آرنز لا يخشى قيام اسرائيل بانسحاب من طرف واحد من لبنان. ولذلك يمكن لسوريا ان تستثمر عامل الوقت وان تنتظر.

وفي هذا الوقت، كان الانتباه يتحول، بصورة مفاجئة، وبارزة، إلى ما يجري من أحداث في الشوف وعاليه حيث كان الزعيم الدرزي، وليد جنبلاط يعارض دخول الجيش اللبناني إلى هذه المناطق بعد الانسحاب الاسرائيلي منها، ووضعَ، للتعاون مع الحكومة، شروطا عدة منها ما هو غير قابل للتنفيذ. وفي ١٥ آب/اغسطس، وصل الحريري إلى بيروت يحمل رسالة من الملك فهد في محاولة للتوفيق بين الرئيس الجميل وجنبلاط. وحمل الحريري معه شروط جنبلاط، ومنها اجراء إصلاحات سياسية وعسكرية وادارية. وكان الحريري نفسه، وربما جنبلاط كذلك، يعلمان ان هذه الشروط غير عملية، لا سيما وان عددا من شروط جنبلاط يتطلب القبول المسبق بشروط أخرى موضوعة في أوائل الحرب من قبل الدروز، ومن قبل الحركة الوطنية اللبنانية.

آنذاك كان الحريري يخوض تجربته الأولى في سوق السياسة اللبنانية التي لا مثيل لها. لقد اجتمع بالرئيس الجميل في محاولة منه لوضع صيغة توفيقية بينه وبين جنبلاط. وفي هذه الأثناء، كان الزعيم الدرزي في دمشق يستمع بقلق إلى شائعات، ثبت بطلانها في وقت لاحق، مضمونها ان قصره في المختارة قد أحرق، وان الدروز قد هجّروا من قراهم، وان الكبار والصغار قد قتلوا. وأدى ذلك إلى تصعيد التوتر في الجبل، وقضى على جميع محاولات التوفيق بين جنبلاط والرئيس.

وفي الحادي عشر من آب/اغسطس، بين تزايد القلق والارتباك وعجز الجهود المبذولة لمواجهة أزمة الجبل، كتبت في سجل يومياتي: «اليوم يبدو ان الوضع في لبنان أكثر تعقيدا منه في أي وقت مضى. اعتقد انه لا بد من جهود جبارة تمتد سنوات، لا أشهراً، وتحتاج إلى الكثير من العقل والتصميم، لبناء بلادنا كما نريد لها ان تبنى»: وقد كتبت ذلك وفي النفس، من الحزن، اكثر مما فيها من الأمل والتوقع.

السوريون يريدوننا ان نلغي الاتفاقية، والاسرائيليون يريدوننا ان نتصرف كأننا وقعنا معهم معاهدة سلام. ونقل إلينا السيد داني شمعون ان الاسرائيليين

مستاؤون منا. انهم يريدون الاجتماع بالقادة اللبنانيين، ويريدون لهذه الاجتماعات ان تنقل على شاشات التلفزيون. هم يريدون ان يبينوا لشعبهم انهم حقّقوا شيئا ما في لبنان. وهم يهددون بأنهم، اذا لم نتعاون معهم، سيجعلون حياتنا جحيما بدءاً من الشوف. وقال لي داني شمعون ان اسرائيل تلعب لعبة غير التي تلعبها الولايات المتحدة، وان الاميركيين يصدقون بسذاجة ما يقوله لهم الاسرائيليون.

وفي لقاءاتي بروبرت مكفارلين، اكدت على ضرورة معرفة ما تنويه اسرائيل حقاً بالنسبة للشوف، حين تقرر الانسحاب. ولم يتمكّن مكفارلين من تزويدنا بأيّ تفاصيل محددة عن مثل هذه العملية، أو بأي برنامج زمني. وعوضا عن ذلك، أرسل الرئيس ريغن إلى الرئيس الجميل رسالة ذكر فيها ان اسرائيل ستنسحب من لبنان انسحابا كاملا، وان انسحاب القوات الاسرائيلية إلى نهر الأوّلي بجوار صيدا ليس غير المرحلة الاولى من خطة انسحاب شاملة. ولم يكن ذلك كافيا لنا، لكنه كان، لسوء الحظ، افضل ما كنا نستطيع الحصول عليه في هذه الآونة.

ومع تزايد عجز الاميركيين عن تأمين الانسحاب الاسرائيلي، كانت المعارضة للدور الاميركي تتزايد، والمجلس النيابي الذي أيد الدور الاميركي بقوة في أيار/مايو، أصبح الآن مشككا في هذا الدور، وابتدأ يتحول تدريجيا إلى معارضة. وفي هذه الأثناء قام الرئيس الأسبق، سليمان فرنجية، والرئيس السابق للحكومة، رشيد كرامي، ورئيس حركة «أمل» نبيه بري، ورئيس الحزب الاشتراكي وليد جنبلاط، بتشكيل جبهة الانقاذ الوطني بهدف اسقاط الاتفاقية.

ورافق ولادة جبهة الانقاذ قصف شديد، مما جعل حياتي بمنزلي في بعبدا مهددة بشكل مستمر بالقذائف التي تتساقط باستمرار، وجعل انتقالي من المنزل إلى المكتب، أو إلى القصر الجمهوري، في منتهى الخطورة. وذات يوم، أثناء انتقالي بسيارتي إلى القصر الجمهوري، خلال ما لا يتجاوز ثماني دقائق، عددت القذائف التي تساقطت إلى يسار السيارة ويمينها، واذا بها ٢٣ قذيفة. وكثيرا ما فكرت خلال هذه الرحلات القصيرة انني ربما كنت الوحيد بين وزراء الخارجية في العالم، الذي يقوم بعمله في مثل هذه الظروف. كذلك ينبغي لي ان اذكر هنا ان منزلي كان

يتعرض للقصف بصورة متواصلة؛ ولقد كنّا باستمرار منهمكين في ترميم جدار، او استبدال نافذة، أو تغيير بلاط، أو تركيب ألواح زجاج بحيث ان هذه العمليات باتت امرا روتينياً. من شأن الحرب ان تجعل الناس أشد صلابة، وان تضع معايير جديدة، وان يصبح الحد الادنى هو ان تبقى بين الاحياء فقط لا غير، وكل شيء بعد ذلك يعتبر زيادة، ويقبل بسرور. لذلك تكتسب الاشياء الصغيرة في الحروب معاني كبيرة وتتعمق الفلسفة الوجودية في النفوس عن قصد او غير قصد، وبينما كان مكفارلين يحصل على تاكيدات من بيغن وشامير بان اسرائيل تريد لبنان موحداً ومستقلاً، بحكومة مركزية قوية تمتلك السيطرة على الجنوب، كان هنالك لبنانيون يحملون لنا من اسرائيل رسائل مغايرة لذلك. احد المبعوثين قال لي انه سمع وزراء في الحكومة الاسرائيلية يقولون انه ينبغي للبنان ان يقسم كنتونات. ينبغي ان يكون للمسيحيين كنتون في قلب الجبل. وسيفعل الاسرائيليون ما يستطيعونه لضم زحلة إلى الكنتون المسيحي، ولو انهم لا يستطيعون ضمان ذلك. وسيكون للشيعة كنتون في الجنوب، فيما يسيطر السنة على مناطق حول طرابلس وفي عكار. اما وادي البقاع فيبقى بايدي السوريين. وبناء على ما نقله المخبرون، كان الاسرائيليون قد فكروا بذلك مليا. وفي كل مرة اسمع مثل هذه الاخبار، كنت اعود الى مكفارلين وفيربانكس وديلون للوقوف على تقييمهم لهذه الشائعات. وكانوا في كل مرة يؤكدون لي ان المواقف الاسرائيلية الصحيحة هي المواقف التي ينقلها الفريق الاميركي الينا. كذلك كان السفراء الاوروبيون يؤمنون بالتفسير الاميركي للموقف الاسرائيلي، الا انهم لم يكونوا واثقين من ذلك دائما. هم لم يسقطوا احتمالات التجزئة ابدا حتى ان البعض شك، كما فعل الرئيس الاسبق سليمان فرنجية، بان تقسيم لبنان مخطط له من قبل وزير الخارجية هنري كيسنجر في عهد ريتشارد نيكسون.

معركة سوق الغرب

انفجر التوتر الذي كان قد تراكم، منذ توقيع الاتفاقية في اواخر آب/اغسطس وخلال ايلول/سبتمبر ١٩٨٣. وفي مثل اجواء المخاوف والمشاحنات القائمة بين

المجموعات السكانية اللبنانية خلال الحرب، لم يكن اشعال فتيل النار شيئاً صعباً.

حادثة واحدة ترمز الى مثل ذلك الوضع «السوريالي» الذي كان قائماً آنذاك: في أول ايلول/سبتمبر، راح شخص لا حاجة لذكر اسمه يتجول في شوارع بيروت الغربية الاسلامية ناشراً شائعة تقول ان المسيحيين يقتلون المسلمين في حي اللجا في القسم الغربي من بيروت. واذاع راديو ميليشيا «المرابطون» هذه الشائعة باعتبارها حقيقة مما حمل مئات المسلمين على الاحتماء بالجيش. واتصل الرئيس صائب سلام بالرئيس لابلاغه بما يجري. وابيض وجه الرئيس، خوفا ووجلا مما سمع وطلب مني ان اتصل بقائد الجيش اللواء ابراهيم طنوس وان اطلب منه وقف تلك المجزرة. وقبل ان يتسنى لي الوقت كي افعل اي شيء، كان الرئيس قد اتصل بطنوس مباشرة. ورد عليه اللواء بان الشخص المعني قد اعتقل وبان لا صحة ابداً للشائعة التي اطلقها. ثم قال ان الرجل عميل مأجور. لدينا كثيرون منهم. وفي هذا الاطار يسهل علينا ان نفهم كيف ان الانسحاب الاسرائيلي من الشوف، وهو الذي يجب ان يكون الخطوة الاولى في اعادة توحيد البلاد، قد تحول الى مشكلة رئيسية.

كان وليد جنبلاط، برغم المداخلات على المستوى العالي، متمسكا برفض دخول الجيش اللبناني الى عاليه والشوف. لقد كان جنبلاط يخشى ان يقف الجيش، وهو بقيادة مارونية الى جانب الكتائب والقوات اللبنانية، وان يقمع الدروز. ولمخاوفه جذور تاريخية عميقة، ولا يمكن تلطيفها بسهولة، او تجاهلها. ثم انه كانت له آراؤه الخاصة بلبنان. لقد اراد ان يكون الشوف قاعدة ثابتة للدروز حتى يتمكنوا من لعب دورهم التاريخي في لبنان وفي الشرق العربي. وكانت لجنبلاط صلات وثيقة بدمشق وموسكو. وقد كانت هاتان العاصمتان تريدان القضاء على الدور الاميركي في لبنان. اما الحكومة اللبنانية، فكانت مصممة على بسط سلطتها على جميع الاراضي اللبنانية. وقد اجرينا مفاوضات على هذه الاسس لعقد اتفاقية مع اسرائيل ونحن نواصل البحث عن تعديلات في الاتفاقية تؤدي الى انسحاب سوريا. وفي اول ايلول/سبتمبر، ١٩٨٣، وجه الرئيس جميل رسالة الى الرئيس الاسد طالبا اليه سحب القوات السورية من لبنان. لقد اراد لرسالته ان تكمل الشكليات القانونية لانسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان. ولم يتوقع الرئيس الجميل من الاسد

ان يوافق على رسالته. كان يعلم الاعتبارات الاخرى التي تؤثر في قرار الرئيس الاسد، غير انه كان يريد ان يقوم بكل الخطوات الرسمية للتأكيد على عزمه لتأمين انسحاب كل القوات غير اللبنانية من لبنان.

وفي ما يلي نص الرسالة.

الجمهورية اللبنانية

الرئيس

بعبدا في ١ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣

سيادة الاخ الرئيس حافظ الاسد المحترم

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق

ابعث لسيادتكم بأطيب التحيات مع تمنياتي لشخصكم بالسعادة والتوفيق ولشعب سوريا العزة والتقدم.

وبعد،

اود ابلاغكم ان الحكومة اللبنانية وجهت بتاريخ اليوم بواسطة نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية والمغتربين كتابا الى حضرة الامين العام لجامعة الدول العربية تؤكد فيه قرارها وطلبها بجلاء الجيش الاسرائيلي عن الاراضي اللبنانية وبانسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان، واذ اودع سيادتكم صورة عن هذه الرسالة اشعر باليقين بأنكم ستستجيبون لمضمونها الذي تجسد في اطار مؤسسات لبنان الدستورية والذي عبرت عنه انا شخصيا في المحافل الدولية، فضلا عن انه سيرفع الذريعة عن استمرار الاحتلال الاسرائيلي كما سيأتي ترجمة لما اعلنتم عنه دائما من حرص على استقلال لبنان ووحدته وسيادته، وتقديم كل عون في هذا السبيل.

واني، اذ أنتظر من سيادتكم اصدار الاوامر اللازمة لتأمين انسحاب قواتكم من

لبنان، اتطلع الى مستقبل مشرق بين سوريا ولبنان اللذين تجمعهما روابط التاريخ والجغرافيا والمصالح المشتركة كما اني مطمئن الى غد يسوده السلام والمحبة ويعم فيه الخير بلدينا وشعبينا.

واقبلوا يا سيادة الاخ الرئيس اخلص مشاعر المودة والاحترام.

امين الجميل

وفي اليوم نفسه، وجه الرئيس الجميل رسالة مماثلة للسيد ياسر عرفات. على انه لم يتلق أي رد، لا من الرئيس الأسد، ولا من السيد عرفات.

وفي أوائل أيلول/سبتمبر، انسحبت اسرائيل، من جانب واحد، من منطقتي الشوف وعاليه بدون ان تنسق في هذا الاطار مع الجيش اللبناني. ولقد كانت تعلن عن عزمها على الانسحاب بموجب مصالحها الوطنية الخاصة، وإقامة خطوط جديدة كنا نخشى ان تكون ثابتة في مكانٍ مّا الى الجنوب من بيروت. ان ذلك التنسيق الذي أمل الاميركيون تحقيقه للحؤول دون حدوث فراغ يجتذب الاطراف المتواجهة إلى دوامته، لم يتحقق. وبهذه العملية ترك الجيش الاسرائيلي وراءه حقلا من الدم بين المقاتلين الدروز، ومقاتلين من القوات اللبنانية. وراح الدروز والمسيحيون يتذابحون، ولم يستطع الجيش ان يفعل أي شيء لتلافي المجزرة. وهو لا يستطيع ان يدخل مناطق القتال بدون اتفاق سياسي؛ واذا ما فعل، فان ذلك يعرض بيروت لخطر اكبر، كما انه يزيد الوضع في منطقة الشوف ـ عاليه، خطراً وتعقيداً.

وبرغم ذلك، فان المجلس النيابي تبنى في الثالث من أيلول/سبتمبر قرارا يعطي الجيش اللبناني الضوء الاخضر لدخول أي منطقة تجلو عنها القوات المحتلة. اما توقيت الانتشار، فيتوقف على الحكومة التي تتخذ القرار على ضوء الظروف السياسية السائدة.

وفي المساء، عقد الرئيس اجتماعاً اشترك فيه الرئيس الوزان وقائد الجيش اللواء طنوس، وأنا، واتفقنا على نشر الجيش في منطقة بيروت فقط. وانتهينا إلى ان

نشر الجيش خارج بيروت، في الشوف وعاليه، مثلا، يتطلب اتفاقا سياسيا مسبقا من قبل الاطراف المعنية. وجرى تدوين هذا التفاهم، وحفظت نسخ منه مع رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة.

وفي الرابع من أيلول/سبتمبر اندلع القتال على أشده في الجبل. وراحت القذائف تتساقط على القصر الجمهوري بعنف كاد يحول دون التنقل بين المكتب والآخر داخل القصر، وانحصرت اجتماعاتنا في الملجأ. وعلى مدى أيام ظللنا أنا والرئيس، ومعاونوه لا نستطيع مغادرة ملجأ القصر بسبب القصف المكثف الموجه إلينا. وذات مرة غامرت بالذهاب إلى مكتبي لآتي باحد الملفات، ولولا انني رأيت حقيبتي بين الزجاج والحطام، لما تسنى لي ان اتعرف إلى الغرفة التي كانت مكتباً لي.

وذات مساء، حين كانت القذائف تدفعنا أكثر فاكثر إلى زوايا الملجأ، قال لنا بعض الحرس ان مقر السفير الاميركي يتعرض للقصف ايضا، وان الفريق الاميركي قادم للاحتماء في القصر الجمهوري. آنذاك لم يكن لمقر السفارة ملجأه الخاص به. عند ذاك غامرنا، أنا والرئيس بالخروج، وشاهدنا مكفارلين، وفيربانكس، وديلون، وبقية افراد الفريق الاميركي، بمن في ذلك امناء السر، بخوذهم وجاكيتاتهم المضادة للشظايا، قادمين للجوء معنا، فرحبنا بهم.

وبصورة عامة، كنا حوالي الثالثة أو الرابعة صباحا، نتلقى على الهاتف تقارير من اللواء طنوس الذي كان في جبهة سوق الغرب الاستراتيجية. وسوق الغرب مشهورة كمصيف ذي مشهد رائع، وفنادق جميلة على أنها تشرف على بعبدا وتهددها عسكريا. واذا ما فقد الجيش اللبناني مواقعه في سوق الغرب، فان ذلك يعني، كما نعلم، ان الطريق إلى بعبدا تصبح مفتوحة، وكذلك الطريق إلى بيروت. ومن شأن ذلك ان يهدد لا سيطرة الحكومة على المنطقة المحدودة التي تحت حمايتها فحسب، بل يعرض للخطر مناطق خاضعة للقوة المتعددة الجنسيات بجوار مطار بيروت، مما يؤدي بالتالي إلى ردود فعل دولية قد تزيد الوضع تعقيدا.

وفي الساعة الثالثة من صبيحة يوم الأحد ١١ أيلول/سبتمبر، اتصل بي اللواء

طنوس ليقول ان الجبهة على وشك الانهيار، وارتأى ان نخرج، كلنا مع الرئيس، من القصر الجمهوري بواسطة دبابة أو اكثر باتجاه منطقة كسروان وادارة الحكومة من هناك ووصف اللواء الهجوم على مواقعه، وقال ان وحدات كبيرة من جيش التحرير الفلسطيني والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، استطاعت اختراق بعض النقاط. فقلت له ان يصمد في موقعه بأي ثمن، وباننا نحن في القصر الجمهوري، لا ننوي الرحيل. ان انهيار سوق الغرب، كما قلت له، له مضامين تتجاوز الصراع المحلي. حيال ذلك، تشجع لكنه ظل قلقا. واعتبر مكفارلين ان سقوط سوق الغرب يعرض السفارة الاميركية في اليرزة والكتيبة البحرية في المطار للخطر، وطلب من البيت الأبيض إذناً بقصف نقاط استراتيجية من مواقع البحرية الاميركية للحؤول دون سقوط سوق الغرب وكنت أخشى ان تتطور معركة سوق الغرب الناجمة عن صراع بين المعارضة والحكومة إلى صراع بين الولايات المتحدة وحلفائها في القوة المتعددة الجنسيات من جهة، وسوريا وحلفائها السوفيات من جهة ثانية. في اوائل أيلول/سبتمبر، كان الوضع بالغ الدقة حتى انني كنت على اتصال بمكفارلين ساعة فساعة لحصر المعركة قدر الامكان.

وفي هذه الأثناء كانت القوات اللبنانية التي انتشرت في الشوف على أثر الغزو الاسرائيلي، تتعرض للهزيمة. كان قادتها يتصلون بالرئيس الجميل، وهم في حالة صعبة ولكنه لم يتمكن من مساعدتهم فهو لا يستطيع ارسال الجيش الى الشوف وعاليه بدون اتفاق مسبق بين الاطراف. والواقع ان الجيش نفسه كان يرفض دخول الشوف بدون تفاهم سياسي مسبق. لقد كان جنبلاط ينظر إلى الجيش بانه جيش ماروني وكأداة بيد «الرئيس الكتائبي» كما يسميه، وكان الرئيس شاحب الوجه، عميق القنوط امام عجزه عن التعامل مع المطالب المتشددة المتناقضة من حوله. كذلك كان الرئيس الوزان في حالة مماثلة. وقد احس الوزان عجز الحكومة وعدم فعالية الالتزامات العربية والدولية، وقال لي، «سجل في مذكراتك، يا أخي إيلي ان الدول العظمى قد اتخذت قرارا حاسما بتحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي، وطلبت من قداسة البابا ان ينفذ هذا القرار».

وخيال الوضع المستجد، عمدت الولايات المتحدة إلى زيادة كتيبتها في القوة



إيلي سالم مع رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات ودولة الرئيس شفيق الوزان في اجتماع في تونس

المتعددة الجنسيات، وعززت وجودها البحري على مقربة من الشواطئ اللبنانية. لقد كانت واشنطن تفكر على نطاق عالمي. كانت تنظر إلى سوق الغرب وترى موسكو وراءها. واعتبرت تنامي القوة السورية في لبنان كسباً للاتحاد السوفياتي. وقد آلمنا مثل هذا الوضع لأنه وضع لبنان إلى جانب الولايات المتحدة في المواجهة الاميركية السوفياتية، وهو آخر ما كنا نريده. ولكن للحرب الباردة منطقها الخاص أردنا ذلك أم لم نرد.

ومع اشتداد معركة سوق الغرب، راحت دبلوماسيتنا تتركز على قضايا جديدة؛ أولاها وقف اطلاق النار في الشوف، على ان يتبعه اتفاق على من يحافظ على الامن في تلك المنطقة ـ الجيش ام قوات الامن الداخلي؟ كذلك بدأنا نبحث في عقد مؤتمر حوار وطني، يتناول مصير الاتفاقية، ويسعى لاقرار تفاهم وطني جديد بين الفئات اللبنانية المختلفة وبمساعدة جميع الاطراف، أخذنا نحاول ايجاد حلول لهذه المشاكل. وزادت هذه النشاطات الدبلوماسية المحمومة حدة وكثافة بسبب تصاعد المأساة على الأرض. رجال الميليشيا من القوات اللبنانية يتراجعون مصحوبين بألوف اللاجئين المسيحيين، إلى بلدة دير القمر المسيحية الرائعة القديمة في الشوف، والقوات الاشتراكية تحاصر البلدة وتهدد باجتياحها. وللحؤول دون مذبحة كبرى، ولتخفيف الضغط على دير القمر، بوشرت الاتصالات المباشرة وغير المباشرة بين جميع الاطراف المعنية بالأزمة وبينها سوريا، واسرائيل، والسوفيات، وفرنسا، والولايات المتحدة، والفاتيكان، ثم المملكة العربية السعودية بصورة خاصة وهي التي كانت في الاسابيع الماضية قد أخذت تنشط عبر السيد رفيق الحريري في بذل الجهود المكثفة لانهاء مأساة الجبل.

وأدى هذا العنف الذي داهمنا جميعا إلى تحطيم الاجماع المحدود الذي كان قد بقي على أثر الغزو الاسرائيلي. وكان لكل واحد تفسيره الخاص لانهيار الوضع. ومع الوقت، أخذت القضايا الداخلية تحل محل القضايا الخارجية. وفي هذه الأثناء راحت اسرائيل تعزز وضعها في الجنوب بما يلائم مصالحها الخاصة، ودعم السوريون المعارضة في وجه حكومتنا؛ فيما راحت الولايات المتحدة تعمل يائسة،

محاولة إنقاذ سياسة كانت، على ما يبدو، تتحطم على صخرة واقع جديد. وبوقوع المبعوث الأميركي روبرت مكفارلين بين أبناء يعقوب وأبناء اسماعيل، فانه كاد يشرف على اليأس. وقد علق بين قيادة لبنانية باتت أكثر انتقاداً للولايات المتحدة من ناحية، وقوى اقليمية معادية للمبادرة الاميركية، ثم ان الحكومة اللبنانية نفسها كانت ضعيفة بالنسبة للجيوش الاجنبية والميليشيات المسلحة المدعومة دوليا واقليميا. إلا أنّ مكفارلين كان بدوره بحريا عنيدا. ولكن سرعان ما أدرك تعقيدات مشكلتنا ومضامين حربنا بالنسبة للعلاقات السوفياتية الاميركية.

وحين تسلم مكفارلين مهمة المبعوث الخاص، كان عليه ان يساعد الحكومة اللبنانية لتحقيق انسحاب جميع القوات الاجنبية من أراضيه بواسطة الدبلوماسية. ولكن لبنان عاد في أيلول/سبتمبر إلى الاقتتال مما أوجد منظوراً جديداً لمهمته. لقد اكرهنا ذلك كلنا على تغيير مسارنا من دبلوماسيين وسياسيين إلى «جنرالات». واذا كان يقال ان الحرب لا يجوز ان تترك «للجنرالات»، فمن المؤسف ان رجال السياسة لم يكونوا أفضل في هذا الاطار. هنا أصبحت الدبلوماسية ضحية القوة العسكرية، وصارت السياسة تتقرر على أساس القوة على الأرض.

وفي ايلول/سبتمبر، كشفت الحرب ان حكومتنا، وهي حكومة شرعية، لا قوة لها على الأرض. وبالتالي حدث تغير أساسي في سياستنا اذ باتت تخضع للوضع السائد خضوعا كليا. هنا قررنا ان مسألة الانسحابات لا بد ان توضع الآن جانبا، فيما نحاول إعادة توحيد لبنان. عند ذاك يعود لبنان الموحد إلى التفاوض من اجل الانسحابات. ان سياستنا السابقة القائمة على تحرير لبنان أولا، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تحقيق اجماع حول الإصلاح الداخلي، قد فشلت. إن القتال في الشوف على أثر الانسحاب الاسرائيلي كان قتالاً بين الدروز والمسيحيين، بين المعارضة والحكومة، وتحوّل إلى صراع كبير بين الولايات المتحدة وحلفائها في القوة المتعددة الجنسيات، من جهة، وسوريا وحلفائها في الداخل والخارج معا، من جهة ثانية. وهكذا تحولت الاتفاقية إلى مشكلة، إلى منطلق لصراعات جديدة؛ ان الاجماع الذي قام حولها في وقت من الاوقات أخذ يتفكك؛ كذلك كان الضغط على رئيس الوزراء

كي يستقيل ضغطا كبيرا. استأذنته لتلبية اجتماع لي مع شيسون في باريس. وما ان وصلت إلى باريس حتى تلقيت مكالمة مستعجلة منه للعودة. أتيت في أول طائرة إلى قبرص؛ وصلتها ليلا؛ وبما ان طوافاتنا التابعة للجيش لم تكن مجهزة للطيران ليلاً، فقد كان علي ان آتي بطوافة اميركية للشحن. ودخلنا، أنا ومديرة مكتبي إيتمار دياب، إلى الطوافة، ووجدنا اننا محاطان ببضعة عشر بحاراً من المارينز. وفي وقت لاحق، فيما كنا نقترب من باحة الهبوط في وزارة الدفاع في اليرزة، قامت الطوافة بمناورة حادة، أرهبتنا قبل ان عادت إلى التحليق باتجاه البحر.

وخلال دقائق معدودة، وجدنا، انفسنا على ظهر بارجة إيوجيما الاميركية. كان القصف البري المكثف قد حال دون هبوطنا، وكان علينا ان ننتظر حوالي ساعة على متن البارجة. ثم بعث بنا على متن طوافة اخرى صغيرة وفيها أربعة مدفعيين جلسوا وراء مدافع من ٤٠٠ ملم مصوبة نحو المدينة المظلمة من تحتنا. وانطلق بنا الطيار على ارتفاع بضع يردات عن الأرض، من غير ان يشعل أية أضواء؛ وكان عليه ان يشق طريقه، بين الشوارع الضيقة خلسة لتنقلنا إلى الوزارة. كان القصف لا يزال كثيفا، غير اننا استطعنا ان نصل إلى الوزارة.

وفور وصولي اجتمعت بالرئيس الوزان، فابلغني انه قرّر ان يستقيل، ويريدني ان أدعم موقفه.

وكان الامير بندر والحريري يبحثان في ايجاد مخرج للأزمة الجديدة. وبعد مباحثات كثيفة في بيروت ودمشق، واتصالات دبلوماسية مكوكية قام بها الحريري، تقرر عقد مؤتمر حوار وطني يدعى إليه جميع القادة في النزاع اللبناني. وكان الامير بندر ورفيق الحريري يبحثان، معنا ومع السوريين، جدول أعمال هذا المؤتمر واسماء القادة الذين سيشاركون فيه. واحتجت المعارضة على اشراك الرئيس الوزان في المؤتمر وحاول رئيس الجمهورية ان يشركه في الحوار، لكنه فشل. فازداد تصميم رئيس الوزراء على الاستقالة.

واحترم الرئيس قرار الرئيس الوزان، لكنه طلب منه ان يعلق الاستقالة إلى وقت لاحق في المستقبل. وقبل الرئيس الوزان. وفي الوقت نفسه سمعنا بحدوث تقدم في

المباحثات في دمشق بين الاميركيين والسعوديين والسوريين. لقد جرى التوصل إلى اتفاق على وقف اطلاق النار في لبنان كله، والدعوة إلى مؤتمر حوار وطني.

ان السياسة المكوكية، بين الخامس والخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر، أعطت نتيجتها. لقد لعب الامير بندر دوراً هاماً في هذه الفترة، من غير أن يأتي إلى بيروت. كان الحريري فقط هو الذي جاءها. كان المبعوثان السعوديان يركزان جهودهما على وقف القصف ووقف تدهور الوضع. كانا يخشيان ان يؤدي التدهور إلى مكاسب يحققها الاتحاد السوفياتي، ويزيد تصلب اسرائيل.

ولم يكن الامير بندر، بصفته أحد أفراد العائلة المالكة، حراً في التحرك كالحريري. وفي أي حال، فان الحريري لبناني كذلك، يعرف جميع اللاعبين جيدا، ولا يشعر بأي خوف من أي جهة، ولو ان مجيئه وذهابه لم يكونا خاليين من الخطر. ثم أحسسنا الحاجة إلى الامير بندر في بيروت. وفي ١٥ أيلول/سبتمبر بعثت إليه برسالة الح فيها عليه ان يأتي شخصياً إلى بيروت ليناقش معنا القضايا الكثيرة المعقدة التي كان يعالجها. وافق على ذلك وجاء مع الحريري حاملا معه سلسلة مقترحات. كان القتال الكثيف لا يزال جاريا؛ كان واضحا ان الامير بندر يجازف بقدومه إلى بيروت. ولكنه كان حيوي المزاج؛ وباعتباره طياراً مقاتلاً، لم يهتم بالقتال الدائر، الا انه، بصفته مبعوثاً من قبل الملك فهد، كان لا بد له ان يكون حذراً.

وبعد مباحثات مكثفة، قرّرنا ان نعيد صياغة المقترحات التي حملها الامير بندر من دمشق، وان نبعث بها إليه في اليوم التالي، في ١٦ أيلول/سبتمبر. وبعد مشاورات اجراها الحريري، جرت الموافقة على المذكرة السعودية في دمشق وبيروت في ٢٥ أيلول/سبتمبر. وبذلك بدأت عملية جديدة تؤدي إلى عقد مؤتمرين حول الحوار الوطني والغاء الاتفاقية. وكان الاقتراح السعودي من أربع نقاط:

١ ـ وقف اطلاق النار في الأراضي اللبنانية كلها وعلى جميع الجبهات، ويشرف مراقبون حياديون على وقف اطلاق النار. ثم ان جميع اللبنانيين، الذين هجروا من منازلهم منذ سنة ١٩٧٥، يعادون إلى مساكنهم وقراهم؛

٢ ـ تشكل لجنة تمثل الجيش والجبهة اللبنانية، وجبهة الانقاذ الوطني، وحركة «امل»، لمراقبة وقف اطلاق النار؛

٣ ـ يدعو رئيس الجمهورية على الفور الى مؤتمر حوار وطني تحضره: جبهة الانقاذ الوطني (سليمان فرنجية، ورشيد كرامي، ووليد جنبلاط)؛ والجبهة اللبنانية (كميل شمعون، وبيار الجميل)؛ وحركة أمل (نبيه بري). وبالاضافة الى ذلك يضم المؤتمر صائب سلام، وعادل عسيران، وريمون إده؛

٤ـ يدعو رئيس الجمهورية ممثلا عن سوريا وممثلا عن المملكة العربية السعودية الى حضور المؤتمر المقترح. والمفهوم ان الوفد الرسمي يضم، بالاضافة الى رئيس الجمهورية، ممثلين عن المجلس النيابي والحكومة. ويبدأ تنفيذ وقف اطلاق النار من السادسة صباح الاثنين، ٢٦ ايلول/سبتمبر، ١٩٨٣.

ويبقى المؤتمر مفتوحاً. وعليه ان يناقش قضايا تشمل مصير الاتفاقية، وطبيعة الاصلاحات السياسية والعلاقات مع سوريا، ووضع الميليشيات، وجميع المسائل الاخرى التي نشأت عن الحرب. وقد ارادت المعارضة الغاء الاتفاقية على أن الهدف الرئيسي هو في كل حال استعادة الاجماع الوطني والوحدة الوطنية، واذا كان ذلك يتطلب اصلاحات سياسية والغاء الاتفاقية، فلا بأس.

وبإعلان وقف اطلاق النار وتطبيقه والبدء بإعداد مؤتمر الحوار الوطني، ذهبت الى نيويورك للمشاركة في مناقشات الجمعية العامة وللاجتماع بالمسؤولين في واشنطن.

وفي نيويورك اجتمعت بالسيد فيربانكس الذي كان كعادته دينامياً، سريع الكلام. كان قد التقى الوزير خدام، وكان مقتنعا بان سوريا ستقبل بتعديل الاتفاقية. وأن سوريا معنيّة بالمنطقة الامنية في الدرجة الاولى. واذا ما امكن تقليص المنطقة الامنية بنسبة معيَّنة، فربما ادى ذلك الى تخفيف المخاوف السورية. كذلك كان يعتقد بان مؤتمر الحوار الوطني سيكتفي بتعديل الاتفاقية رغم إصرار المعارضة على الغائها. وقلت ان سوريا تريد الالغاء. وقلت ان مسألة الإلغاء هي الآن في متناول

المؤتمر المقترح. وقد اجتمعت في واشنطن بالرئيس حسني مبارك الذي كان في زيارة رسمية.

وجرى الاجتماع بالرئيس المصري في السفارة المصرية في الثالث من تشرين الاول/اكتوبر، بحضور وزير خارجية مصر، كمال حسن علي. والرئيس حسني مبارك، الذي لم يسبق لي ان اجتمعت به من قبل، متحدث لبق يتحلى بحضور مسرحي جذاب وفعال. روى قصصاً ونكاتاً، وراح يذكرني بان مصر، في ظل المقاطعة، او عدمها، هي محور العالمين العربي والاسلامي. إن جميع القادة في الشرق الاوسط حريصون على العمل معه لكنهم، كما قال، خائفون احدهم من الآخر. ثم تابع يقول إنه والاسد صديقان، برغم ما بين سياستهما من خلاف. كلاهما طيار، وقد حافظا على اتصالات شخصية تجاوزت الخلافات السياسية:

وقال الرئيس مبارك انه يبذل وسعه لدى الولايات المتحدة واسرائيل لاخراج الاسرائيليين من لبنان. ان اسرائيل، كما قال، لا تريد ضم جنوب لبنان، غير ان العرب يوفرون لها الذريعة تلو الذريعة لتفعل ذلك. وقد نفذ صبر السادات على العرب، ولذلك عقد اتفاقيات كمب دايفيد.

واعربت عن خيبة املي بعدم التقدم بخصوص مسألة الانسحابات، واثرت معه مسألة الدعوة الى قمة عربية لمواجهة الازمة اللبنانية. غير انه احس ان مثل هذه القمة لا يمكن ان تكون ذات جدوى. أشار مبارك إلى استعداده لمساعدتنا وقال: إن الولايات المتحدة وحدها تستطيع تقديم العون في هذا المجال. وتكلم ببلاغة عن دور لبنان في الشرق الأوسط ووصفه بانه محور كل النشاطات الثقافية والسياحية، وجنة الله على الارض. هذا اذا ما تركه العرب وحده. واذا لم يعد مسرحا لاختبار اسلحة المغامرين. وارتأى ان نبقى على اتصال بالملك فهد بواسطة رفيق الحريري، وأمل لمؤتمر الحوار الوطني ان يحقق النجاح ويؤدي الى الانسحابات.

وعند عودتي الى بيروت، وجدت ان الاحداث السياسية الداخلية اصبحت الشغل الشاغل. لقد كان الساسة اللبنانيون يتصدون للتوجّه الجديد، ويركزون على الحوار الوطني، وعلى تشكيل الحكومة الجديدة التي لا بد ان تلي مؤتمر الحوار

الوطني. وطبيعي ان يكون كثيرون من الساسة رأوا في تأليف حكومة جديدة فرصة جديدة لهم لدخول الحكم.

فاخذنا نعمل، من جديد، لمعالجة الاوضاع المستجدة، ومنها مكان المؤتمر واسماء المشاركين، وبنود جدول الاعمال، وانتقال الدور من واشنطن الى دمشق، واثر ذلك كله على قضية الانسحابات. تلك كانت مسائل صعبة، ربما بدت بسيطة ولكن كل خطوة في اتجاه اي من النقاط محفوفة بالمخاطر.

وأحد المشاكل الاولى التي اثيرت هو: هل الرئيس هو الذي يترأس المؤتمر ام لا. وقد كان الرئيس متهما من قبل خصومه بانه حزبي، وبانه فاوض العدو وعقد اتفاقية مع اسرائيل، كما انه متهم بالتحيز الى الموارنة وحماية القوات اللبنانية، وبملء الادارة باعضاء من حزبه الكتائبي. والاتهامات بطبيعتها اقوى من الحقائق فهي التي تقرر المواقف وتصبها في قوالب حديدية. ومن الاتهامات ما هو صحيح، ولكن صحته تجلو عنه صفة الاتهام. لقد كان مثلا عضواً في حزب الكتائب، ولكنه لم يكن مسؤولا عن الكثير من نشاطات الحزب، المصيب منها والخاطئ. وكانت صورة الرئيس عند المعارضة صورةً سلبية للغاية. وهذا كان له اثره على فشل التوصل الى اتفاق في الداخل. وبعد اسبوعين من الاتفاق على النقاط الاساسية التقيت الأمير بندر في واشنطن، وناقشت معه مشكلة مكان الاجتماع. كان كل مشارك في المؤتمر يريد عقد المؤتمر في مكان يختلف عن الموقع الذي يريده المشارك الآخر. ومن الامكنة التي طرحت: القصر الجمهوري، جدة، باريس، جنيف، لوزان، مطار بيروت الدولي، وحتى كنيسة الديمان في شمالي لبنان. واتفقنا، أنا والامير بندر على ان الخيارين الأوَّلين بالنسبة لنا هما القصر الجمهوري في بعبدا، وجدة في المملكة العربية السعودية.

ورفض وليد جنبلاط أن يأتي الى بعبدا: لانه لا يطمئن الى الحرس الجمهوري وقال: «ما بدنا ناكلها رصاصة في بعبدا». ثم رحنا، أنا ورفيق الحريري، نبحث موضوع المكان يوميا مع سعود الفيصل الذي كان يتصل بنا من الرياض بانتظام ويدعونا الى التعجيل قبل ان تزداد الاوضاع تدهورا. وسرعان ما ادرك سعود

الفيصل ورفيق الحريري ان الامر الذي يجري الاتفاق عليه يوم الاثنين لا بد ان يتغير يوم الثلاثاء، حتى ان الحريري اسرّ إليّ مرة ان كلاً من المشاركين في المؤتمر يتكلم معه لغتين: لغة للابلاغ، ولغة للمفاوضة.

اما مشكلة من سيشارك، فكانت ايضا محور بحث طويل. السوريون اعترضوا على حضور الرئيس الوزان. كذلك استثني الرئيس كامل الاسعد. وكان الرئيس الاسعد مستاء من اجواء المؤتمر لان التركيز كان على منافسه الشيعي الاستاذ نبيه بري، رئيس حركة أمل. وانقلب غضب الرئيس الاسعد على رئيس الجمهورية لانه قبل بنبيه بري في المحادثات، وقرر مقاطعة رئيس الجمهورية الذي لم يكن نفسه في وضع افضل من وضع الرئيس الاسعد. لقد كان رئيسا للوفد الرسمي؛ وكان له ان يترأس المؤتمر، لكنه كان عاجزا عن تأمين موافقة المعارضة على ادخال رئيس الوزارة في الوفد، او اي عضو في الحكومة، ولا اي عضو في البرلمان. ولذلك اقتصر الوفد الرسمي على الرئيس ومعاونيه الاداريين الذين لا دور سياسياً لهم.

وبعد مباحثات مكثفة، أشرف عليها رفيق الحريري، انعقد الاتفاق على ان يكون المشاركون في المؤتمر العتيد هم: رئيس الجمهورية باعتباره رئيسا، وبيار الجميل، وكميل شمعون، وسليمان فرنجية، ونبيه بري، وعادل عسيران، ووليد جنبلاط، وصائب سلام، ورشيد كرامي. ودعي ريمون إدّه، وهو قائد ماروني من منطقة جبيل، يعيش في باريس، للمشاركة في المؤتمر. ولكنه رفض المشاركة على اساس ان المؤتمر غير مجدٍ ما دامت البلاد خاضعة للاحتلال. ان نصف المشاركين في المؤتمر كانوا ضد رئيس الجمهورية. ومنهم من دعا باستمرار الى استقالته. بيار الجميل، رئيس حزب الكتائب، وكميل شمعون، رئيس حزب الاحرار، عضوان في الجبهة اللبنانية ذات التوجه المسيحي اليميني، مؤيدان للرئيس؛ وسليمان فرنجية، الزعيم الماروني من شمال لبنان، عدو متشدد لبيار الجميل، ونبيه بري رئيس حركة امل كان النجم الصاعد في الطائفة الشيعية؛ وعادل عسيران زعيم شيعي من صيدا، وسياسي مستقل وعضو في المجلس النيابي؛ ووليد جنبلاط زعيم درزي ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي. وصائب سلام زعيم سنّي من

بيروت، وسياسي بارز ومستقل، ورئيس وزراء سابق. لقد كان فرنجية، وبرّي، وجنبلاط، وكرامي اعضاءً في جبهة الانقاذ الوطني المتحالفة مع سوريا المعارضة للرئيس ولاتفاقية ١٧ أيار.

واتفق على ان يكون لكل مشارك في المؤتمر مستشاران يحضران المؤتمر ولكنهما لا يشاركان في المناقشات، وبما ان اختيار المشاركين جرى على اساس سياسي، وطائفي ايضا، فإن بعض الطوائف الكبرى، الروم الارثوذكس، والروم الكاثوليك، والارمن، غير ممثلة، وهي مجموعات كبيرة لها ممثلوها في جميع المؤسسات الوطنية اللبنانية. ولكنها لم تكن معنية مباشرة بالصراع العسكري في لبنان كباقي المجموعات الاخرى، مثل الموارنة والسنة والشيعة، والدروز.

ولما كانت المملكة العربية السعودية وسوريا هما الوسيطين الناشطين في تنظيم المؤتمر، فقد جرى الاتفاق على حضورهما معا كمراقبين: سوريا يمثلها وزير خارجيتها النشط السيد عبد الحليم خدام؛ والمملكة العربية السعودية يمثلها مسؤول هادئ المزاج هو الامين العام لوزارة الخارجية السيد محمود مسعود. والغاية من وجود المراقبين هي التوسط بين الاطراف المتطرفة. آنذاك كانت الهوة بين الجبهة اللبنانية وجبهة الانقاذ الوطني تتسع، وكانت الحاجة ملحة الى توسط مراقبين لهم دورهم ونفوذهم.

والآن، بعد الاتفاق على المشاركين، كان لا بد لنا من العمل على وضع جدول الاعمال. وطلب من السيد خليل مكاوي، وهو سفير في وزارة الخارجية ان يترأس لجنة تحضيرية للمؤتمر مؤلفة من مندوب عن كل مشارك في المؤتمر. وفي اواسط تشرين الاول/اكتوبر اتفقت اللجنة على جدول الاعمال التالي:

- هوية لبنان وعلاقاته العربية؛
- اتفاقية ١٧ أيار اللبنانية الاسرائيلية؛
- انسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان، باستثناء القوات التي في البلاد بناء على طلب الحكومة اللبنانية؛

- الاصلاحات السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والمالية، والاعلامية.
- العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بين جميع اللبنانيين، والتنمية العادلة المتوازية في مختلف المناطق اللبنانية؛
- المؤسسة العسكرية؛
- سيادة الدولة على جميع اراضيها؛
- موضوعات أخرى.

وبعد مضي ايام قليلة على التوصل الى اتفاق حول جدول الاعمال، جرى الاتفاق على عقد مؤتمر الحوار الوطني في فندق انتركونتننتل في جنيف. وفي ١٩ تشرين الاول/اكتوبر، اتصلت بالقائم بالاعمال السويسري في بيروت وابلغته عزمنا على عقد المؤتمر في جنيف، وطلبت منه توجيه دعوة من الرئيس السويسري الى الرئيس اللبناني لعقد مؤتمر الحوار الوطني في جنيف. وفي ٢١ تشرين الاول/اكتوبر ابلغني القائم بالاعمال ان الرئيس السويسري السيد بيير أوبير، سيدعو بكل سرور الرئيس الجميل الى عقد مؤتمر الحوار الوطني في جنيف. وفي ٢٩ و٣٠ تشرين الاول/اكتوبر يكون الرئيس ضيفا على الرئيس اوبير في برن، ثم يفتتح المؤتمر يوم الاثنين في ٣١ تشرين الاول/اكتوبر. ويوم السبت، ٢٢ منه كان السفير الاميركي الجديد ريجينالد بارثولوميو قد وصل الى بيروت. وقبل اسبوع، كان السفير السابق روبرت ديلون قد غادر لبنان الى منصبه الجديد في النمسا. كان ديلون حزينا لانه عند مغادرته كان قد فقد الكثيرين من زملائه بانفجار السيارة المفخخة في السفارة الاميركية في نيسان/ابريل، ثم ان جميع جهوده، كعضو في الفريق الاميركي، لتأمين انسحاب اسرائيل من لبنان قد باءت بالفشل.

وكان بارثولوميو شخصاً متفائلا، ومتحمساً لدوره الجديد، رغم ان سياسة بلاده نحو لبنان كانت آخذة في التراجع. واليوم الثاني من وصوله الى بيروت حمل له نبأ سيئاً حطمّ القليل الذي تبقى من نفوذ الولايات المتحدة في لبنان. في ٢٣ تشرين الاول/اكتوبر، أقدم رجل في مهمة انتحارية، بشاحنته المزنرة بالمتفجرات، على اقتحام مقر البحرية الاميركية بجوار مطار بيروت، مما ادى الى مقتل ٢٤١

جنديا من البحارة. فيما اندفع آخر بشاحنة مماثلة الى المبنى الذي يؤوي المظليين الفرنسيين، وقضى على ٥٨ مظليا منهم. وبعثت هاتان العمليات موجات من الصدمة والرعب في بلدان القوة المتعددة الجنسيات، كما انهما كانتا بداية مشؤومة للسفير بارثولوميو.

وارسل الرئيس مبارك وزير الدولة السيد بطرس غالي حاملا الرسالة التالية: «ان مؤتمر جنيف سيكون حدثا اعلاميا على صعيد دولي، وسيتابعه بدقة سفراء الدول المعنية بشؤون الشرق الاوسط وسيتابعه الاعلام الاميركي بدقة. ومن المهم ان يبقى الرئيس ريغن ملتزما بلبنان بعد العملية الانتحارية على مقر «المارينز» واذا ما نجحت الولايات المتحدة في لبنان، فانها تتشجع بالتالي الى الانتقال الى حل مشكلة الشرق الاوسط. ينبغي ان يكون الرئيس الجميل مرنا، وان لا يسمح بأيّ ذريعة قد تُفَشّل المؤتمر وتحول دون الانسحاب الاسرائيلي. والمصريون يراقبون ما يجري باهتمام ويتمنون لكم الخير. ثم انهم سيكونون حاضرين في جنيف لتقديم أي مساعدة ممكنة».

وكان الاعتقاد ان العمليتين الانتحاريتين جرتا على ايدي الأصوليين وفي هاتين العمليتين، كما في تفجير سفارة الولايات المتحدة في نيسان/ابريل، اقدم القائمون بالعمليتين طوعا على الانتحار الى جانب ضحاياهم. وكثرت التساؤلات في عواصم دول القوة المتعددة الجنسيات. كيف لهذه الدول ان تؤمن سلامة فرقها في القوة المتعددة الجنسيات في بيروت؟ هل تتواصل مثل هذه التفجيرات الانتحارية؟ هل يجب تعزيز القوة المتعددة الجنسيات، ام تخفيضها؟ هل يجب ان يعاد انتشارها بصورة تجعل وقايتها افضل؟ هل يجب اخذ الثأر للعملية، وبذلك تجازف هذه الدول في تعميق تورطها في هذا النزاع، ام يجب عليها أن تنسحب؟

لكل سؤال من هذه الاسئلة مردوده السياسي. وكانت ردة الفعل الاولى إما الثأر للعملية او الانسحاب. ولكن الانتقام بالنسبة لدولة عظمى معنية في الصراع اللبناني يعني في الواقع مطاردة الاشباح: اذ من تضرب؟ واين؟ وكيف؟ وباي ثمن؟ ثم ان مثل هذه العملية تؤدي الى احتمال قتل ابرياء. ومن ناحية اخرى، اذا كانت

مطاردة الاشباح عملية مستحيلة، فكيف يمكن للقوة المتعددة الجنسيات ان تنسحب من غير ان تتخلى عن التزاماتها، ومن دون ان تترك انطباعات سلبية.

هنا اخذت المملكة العربية السعودية وسوريا تتصلان بجميع الاطراف للتأكد من الاستمرار في عملية الحوار، والاعداد لحضور مؤتمر الحوار الوطني. وكنت قد اتصلت بالدولتين واكدت لهما عزمنا على المضي في المؤتمر. وطلبت من رفيق الحريري ان يحضر الى بيروت لمساعدتنا في تذليل العقبات اللوجستية المتبقية. وبهذا الخصوص كان الرئيس على صلة بالملك فهد وبالرئيس الاسد. وآنذاك كان الرئيس الاسد، الذي رفض في السابق التحدث الى الرئيس الجميل، كان ودياً مع الرئيس لانه توقع من مؤتمر الحوار الوطني ان يلغي الاتفاقية مع اسرائيل.

واستعدادا لمؤتمر جنيف، قام جان عبيد بوضع مسودة خطاب الرئيس، ثم قرأناه، أنا وهو، عدة مرات لادخال التعديلات اللازمة. وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة، ٢٨ تشرين الاول/اكتوبر، ابلغني الرئيس انه سيجتمع الى الرئيس الاسد في اليوم التالي. وكان ذلك خبراً هاماً ومفاجئاً. بعد ان كانت العلاقات بين بيروت ودمشق بالغة البرودة منذ توقيع الاتفاقية في أيار. قال لي الرئيس ان العقيد سيمون قسيس ذهب الى دمشق، واجتمع برفعت الاسد، وأن رفعت يهيّئ للاجتماع. وكان الاتفاق مع رفعت، كما يقول العقيد قسيس، ان يأخذ الرئيس الطوافة الى اللاذقية ومنها الى دمشق بالطائرة. وهناك يستقبله الرئيس الاسد استقبالا رسميا.

وكان الرئيس في نشوة، ورأى ان يتصل بالملك فهد ويجتمع به ايضا قبل السفر الى جنيف. ووافق السعوديون على الفكرة ووجهوا إلى الرئيس دعوة لزيارة الرياض ذلك المساء. فاذا حصل الرئيس الجميل على دعم الرئيس الاسد والملك فهد، فلا بد ان يكون سيد الموقف والمفاوض الأقوى في جنيف. وكان الرئيس يحب فن المفاجأة، ويحب بالاخص ان يفاجىء اخصامه. ان مقابلة الاسد قبل المؤتمر ضربة معلم تجرد المعارضة من سلاحها.

وفيما كنا، أنا ورئيس الجمهورية، نبحث تفاصيل الزيارتين الى الرياض

ودمشق، دخل علينا العقيد سيمون قسيس، وهو كئيب مضطرب، وقال ان رفعت اتصل به هاتفيا لتأجيل الزيارة لان القادة السوريين منشغلون بامور طارئة. واذا ما شاء الرئيس ان يزور دمشق فعلا، فما عليه الا ان يلغي الاتفاقية ويكون له ما يريد.

وكان ذلك بمثابة صدمة كبيرة للرئيس. طلب قسيس ان يتصل برفعت وسيتفهم منه ما حدث بالضبط. واتصل قسيس بمكتبه فقيل له ان رفعت ليس في المكتب ولكن بدا في الكلام التلفوني ان رفعت موجود في مكتبه، وانه كان يعطي تعليماته بواسطة معاونه، وبطريقة مفضوحة، وسأل سيمون قسيس: هل يستقبل الرئيس الاسد مبعوثا من قبل الرئيس الجميل في ذلك النهار؟ ثم يتقرر، في ضوء ذلك اللقاء: هل سيزور الرئيس دمشق ام لا؟ وتم الاتفاق على ذلك. وعلى هذا الاساس غادر جان عبيد بيروت الى اللاذقية عند الساعة الرابعة بعد الظهر، معتقداً أنه على موعد مع الرئيس الاسد. وفي اللاذقية قيل له ان الموعد هو مع رفعت، وأن «الجميع يعلمون ان الرئيس الاسد لن يجتمع الى الرئيس الجميل قبل ان يلغي الاتفاقية».

وعاد جان عبيد صفر اليدين، فأخذ الرئيس يتكهن عن سبب إلغاء الموعد. عند تحديد الموعد كان سليمان فرنجية، ورشيد كرامي، ونبيه بري في دمشق. والمرجح انهم علموا بالموعد، وانهم حثوا الأسد على عدم الاجتماع بالجميل خشية ان يضعف مثل هذا الاجتماع موقفهم في جنيف. وتكهن البعض الآخر ان يكون السوفيات التقطوا اتصال الرئيس بالملك فهد وابلغوا الرئيس الاسد بان الرئيس الجميل ينوي زيارة دمشق ولكن عن طريق الرياض. لذلك قرَّر السوريون الغاء الزيارة خشية ان تسلب زيارة الرياض زيارة دمشق بعضاً من أهميتها وفرادتها. واضطررنا ان نتصل بالرياض لالغاء الاجتماع بالملك فهد:

وكان الوفد الرئاسي الذي توجه الى اثينا، ثم الى جنيف في ٢٩ تشرين الاول/اكتوبر، في حالة من اليأس والارتباك. وقد ذهبت انا مع الرئيس، لا كمشارك، لان الدعوة لم توجه الى اي عضو من اعضاء الحكومة، بل كمستشار للرئيس، خارج قاعة الاجتماع.

وأنهى الرئيس زيارته الرسمية الى بيرن في ٣١ تشرين الاول/اكتوبر، ووصل إلى جنيف عند الخامسة بعد الظهر قبل موعد افتتاح مؤتمر الحوار الوطني. ان المؤتمر يستحق معالجة كاملة بذاته، لا كجزء من مذكرات، لاسيما وأنني لم اكن في الداخل أراقب، واسجل الملاحظات. لقد كنت ولم ازل أؤمن بان احداً لا يستطيع ان يعطي الحرب اللبنانية حقها الا اذا كان روائياً أو قصصياً على مستوى دوستويفسكي وتولستوي. وكان الشاعر الاميركي روبرت فروست قد لاحظ ان الرواية العظيمة لا يمكن ان تكتب الا في روسيا، لان المعاناة الشعبية هناك هي على نطاق واسع، ونحن بحاجة الى روائي لوصف صراعات المؤتمر في الداخل والمتدخلين من الخارج، والمتربصين حوله، والطفيليين، ممن لا مبرّر لوجودهم في جنيف الا ليشهدوا لحدث هام في تاريخ لبنان، ويقولوا لاولادهم واحفادهم انهم كانوا هناك. وبين اللاعبين الكبار في الخارج كان الاميركي رمسفيلد، وفي الداخل كان الحريري.

وكان رفيق الحريري موجوداً في كل مكان، ويتحدث، ويحث، ويقنع، ويهدّئ، ويهدد. والاميركيون والبريطانيون والفرنسيون والإيطاليون والسوفيات والمصريون، كانوا هنالك بقوة، يتتبعون الأحداث ويتدخلون عند كل منعطف. كذلك كان السويسريون هناك، كخبراء في التهدئة وحل النزاعات، على استعداد لتقديم المساعدة عند الحاجة. ثم ان النواب اللبنانيين الاثرياء قصدوا جنيف ايضا ليكونوا في الصورة. والمهاجرون اللبنانيون الذين كانوا يتجولون في اوروبا جاؤوا الى جنيف مجموعات كبيرة لينظروا الى اسياد الحرب، ويعجبوا كيف ان هؤلاء الاسياد تحولوا بين ليلة وضحاها الى صانعي سلام. وكانت مهمتي ان اجتمع ببعض هؤلاء وان اطلعهم على ما يجري، وان أتلقى نصائحهم وانقلها الى الرئيس.

وكانت التدابير الأمنية السويسرية تدابير متشددة. كان على المشاركين في المؤتمر ان يمروا وسط كاشفات شبيهة بتلك التي تستخدم في المطارات. وبما ان بعض المشاركين في المؤتمر يحملون مسدساتهم، فقد كان يطلب منهم بكل لطف، ولكن بحزم، بان يسلموها الى البوليس قبل دخول قاعة الاجتماع. وبما ان اسياد

الحرب كانوا غير معتادين أن يطلب منهم نزع مسدساتهم، فكثيرا ما كانوا يتضايقون حتى ان منهم من هدد بالخروج من المؤتمر. إن الرئيس الأسبق سليمان فرنجية، مثلاً، رفض تسليم مسدسه، وغادر المؤتمر؛ فهرع الرئيس الجميل اليه، وعانقه، واعتذر للحادثة، وعاد به الى المؤتمر حاملا مسدسه معه. وكان التوتر بين المؤتمرين على اشده. كل ينظر الى الآخر بعداوة عقد من الخلافات والحروب.

وقبل افتتاح المؤتمر، كان لا بد من مرافقة كل مشترك للتأكد من حضوره الاجتماع على الوقت وباللياقة المطلوبة. وقد تأخر الرئيس رشيد كرامي في جناحه وهو ينتظرمن يأتي لمرافقته، حسب البروتوكول؛ فغضب، وصرخ بمن كان بجانبه: «لقد قلت لك انني لا اريد ان آتي الى جنيف؛ الإنسان خارج بلاده يهان».

وكان أعضاء الجبهة اللبنانية يتفحصون المصاعد للتأكد من انهم لا يلتقون فيها بافراد جبهة الانقاذ الوطني. والواقع انهم كانوا، اذا ما التقوا في المؤتمر، يتظاهرون بان الواحد منهم لا يرى الآخر.

أما الوزير عبد الحليم خدام، فكان وديا ومتعاونا مع كل المشاركين. كان يعانق كل فرد على مرأى من الجميع. وكأنه يؤكد لهم بذلك بان عهد الحرب قد انتهى وبدأ عهد الحوار والوفاق. وكان الرئيس الجميل يحيي الرئيس سليمان فرنجية، ويحييه الأخير بلطف واحترام، ولكنه كان ينظر بغضب الى والده الشيخ بيار. ويصل وليد جنبلاط برفقة الكثير من الحرس. ولقد خصه السويسريون بطريق خاصة به، لكنه كان يفاجئهم باتخاذ طريق آخر، مبتهجا بانه استطاع التغلب على افضل جهاز شرطة في اوروبا. كذلك كان يضفي جواً من المرح في المؤتمر حين يأخذ علما صغيراً للحزب الاشتراكي التقدمي ويضعه امامه. وكان يغمز بعينه، ويبتسم للرئيس في الوقت الذي استمر فيه بهجومه العنيف عليه وبطلب استقالته.

وجاء خطاب الرئيس الجميل التمهيدي خطاباً توفيقيا، جاء فيه: «لقد أتينا الى هنا لانقاذ لبنان، لتوحيد شعبه، لاستعادة سيادته، لتعزيز الروابط الأخوية بين اللبنانيين انفسهم، وبين اللبنانيين واخوانهم العرب. نحن نريد لهذه الروابط ان تقوم

على أساس العدالة والمساواة، والكرامة الانسانية». لقد تقيد في خطابه بالموضوعات العامة، متجنّباً النقاط المحددة التي يمكن ان تثير الجدال.

وكان النقاش الذي دار خلال الايام الاربعة الاولى نقاشاً هادئاً نسبيا، اذا اخذنا العلاقات العدائية التي كانت سائدة حتى الآن بعين الاعتبار. وبالاضافة الى ما اقترحته اللجنة التمهيدية، كان جدول الأعمال مفتوحاً: ايُّ مشارك في المؤتمر له ان يضيف اي بند، وفي اي وقت. وكثيرا ما كان هذا المشارك او ذاك يضيف الموضوع المحبب اليه بصرف النظر عن جدول اعمال ذلك اليوم.

كان فرنجية يريد ان يضمن منذ البداية بأن لا يناقش موضوع سوريا واسرائيل معا. الاولى دولة صديقة، والثانية عدوة. وشعر وليد جنبلاط ان جدول الاعمال غير ملزم لاحد.

وكان رأي الشيخ بيار ان مناقشة هوية لبنان العربية فيها شيء من الاذلال للبنان. ان لبنان عربي بالطبع، كما قال، ولكن لماذا يثار ذلك؟ من هو الذي يحدد للبنان من هو عربي ومن هو غير عربي؟ ثم اعلن بعصبية «ان لبنان هو الذي ابتدع العروبة». فاحدث تصريحه ضجة بين مرافقيه ومحازبيه. وقال نبيه بري انه لن يناقش الاصلاحات ما دام الجنوب تحت الاحتلال. ودعا رشيد كرامي الى تجميد الاتفاقية، مما اثار مناقشة حامية حول التجميد ومعانيه. والتجميد، كما قال لي، هو تعليقها على امل سقوط هذا التجميد مع الوقت وسقوط الاتفاقية، وقلت له ان التجميد يعني تبريد ما وصفته بأنه حام. ورد كرامي بحدة بأن الحماوة والبرودة جانبان لشيء واحد.

ولم يكن خدام، وهو المحاضر الموهوب، يستطيع ان يبقى صامتا. وتساءل: هل للمراقبين ان يشاركوا في المناقشات، ثم قال، قبل ان يرد عليه احد، بان لهم الحق في ذلك للتوفيق بين الآراء، وانتقل بعد ذلك الى مهاجمة الاتفاقية. وألحَّ على الغائها. ومن ثم يضع المشاركون ميثاقاً وطنيا جديدا على اساس المساواة والعدالة، لا كذلك الميثاق الذي وضع سنة ١٩٤٣. على اللبنانيين، كما قال، ان يحرروا لبنان من الاحتلال الاسرائيلي بالنضال والمقاومة، وأن سوريا لن تنسحب شبراً واحداً ما

دامت الاتفاقية قائمة. أما المندوب السعودي فنادرا ما تكلم الا للتهدئة. وكثيرا ما انحدر الحوار الى مهاترات شخصية. والحقيقة ان الشؤون الشخصية الخاصة والعامة كثيرا ما تداخلت اشد تداخل، مما أدى الى استمرار التوتر الذي خيّم على كل جلسات المؤتمر. وتوسل الرئيس الى المشاركين ان يحتفظوا بسرية المباحثات حتى ينتهي المؤتمر. غير أنَّ المشاركين كثيراً ما هرعوا إلى الصحافة بعد الجلسات لإعلان ما صرحوا به، او ما ينوون ان يقولوه، او لقول ما لم يقولوه قط. وكانت بعض هذه الأقوال المسرَّبة تؤدي إلى اندلاع القتال في لبنان، كما ان القتال كان يندلع في لبنان في احيان اخرى للتأثير على محادثات المؤتمر، وكأن المقاتل في بيروت مشارك في جلسات الحوار يؤثر بها، وتؤثر عليه.

وقد تمحورت المناقشات حول ثلاث قضايا رئيسية هي الاتفاقية، والاصلاحات، وانهاء القتال. القضايا الثلاث متشابكة، متداخلة، ويصعب فصل الواحدة عن الاخرى واذا ما تحدث الواحد عن الاتفاقية ومصيرها، كان لا بد له على الفور من معالجة مسألة إنهاء القتال، وهي بدورها تعتمد على الإصلاحات. ولقد تقدم المشاركون بمقترحات خطية معدة للمناسبة، وهي تغطي جميع الموضوعات المطروحة بالعناوين الثلاثة المشار اليها اعلاه. بالنسبة للاتفاقية، هنالك من أراد الحفاظ عليها، فيما اراد آخرون تعديلها او تجميدها، او إلغاءها. وكانت فوائد كل وضع أو سيئاته من هذه الاوضاع تعرض بحماس شديد. وكان الاصلاح موضوعاً واسعاً، يغطي في الواقع كل نواحي الدولة من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وتربوية واعلامية. اما القضايا الشائكة التي ركّز عليها المشاركون، فهي:

- هوية لبنان التي اثارت تاريخ لبنان وعلاقاته الثقافية بالنسبة للمجموعات المتعددة التي تشكل لبنان؛
- صلاحيات رئيس الجمهورية واهتمام المعارضة بتقليصها؛
- المجلس النيابي، من حيث زيادة عدد اعضائه وتحقيق المساواة في التمثيل بين المسيحيين والمسلمين وتمديد مدة رئيس المجلس؛
- مجلس الوزراء لتحويله الى الهيئة الفعلية لصنع القرار وتحديد صلاحياته في الدستور؛

- رئيس الوزراء من حيث تعزيز منصبه وتحديد صلاحياته في الدستور؛

- اللامركزية من حيث نقل بعض المسؤوليات الادارية من العاصمة الى القضاء والمحافظة، او الى اكثر من ذلك؛

- التنمية بضمان انفاق الاموال على المناطق النائية لا حصر انفاقها ببيروت والمناطق المجاورة لها؛

- الطائفية السياسية من حيث التوصل الى المساواة بين الطوائف في كل اولويات الدولة، ودعوة البعض الى الغائها كلياً.

كذلك كان موضوع انهاء الاقتتال أمراً واسعاً ومتداخلا؛ ولقد أدَّى إلى إثارة موضوع الجيوش والميليشيات غير اللبنانية. فاسرائيل، برغم وجود الاتفاقية او عدم وجودها، كانت تصرّ على انسحاب الجيش السوري والمقاتلين الفلسطينيين قبل أن تنسحب هي. اسرائيل هي العدو، وسوريا هي الدولة العربية الشقيقة، إلا انها لا تنسحب قبل انسحاب اسرائيل، لانّ لها اعتباراتها الاستراتيجية الخاصة. والفلسطينيون اشقاء، لكنهم يسببون لنا المشاكل في البلاد. والايرانيون يدينون بالمذهب الديني الذي يدين به قسم كبير من اللبنانيين؛ والظاهر ان كل لاعب غير لبناني قد وجد لنفسه موقعا في الفسيفساء اللبنانية المتنوعة. وفي الموضوعات الأمنية تركزت المناقشات حول الأمور التالية:

- انسحاب القوات غير اللبنانية؛ من هي وكيف، وباي ترتيب؛

- حل جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية (الفلسطينية والايرانية)؛

- تعزيز الجيش وقوى الامن، واعادة تحديد مهمة الجيش؛

- عودة اللبنانيين المهجرين، وهم بنسبة واحد الى اربعة، الى بيوتهم وقراهم، وتامين المساعدة الخارجية لهم لاعادة بناء المنازل والمؤسسات المهدمة؛

- بسط سلطة الدولة على جميع الاراضي اللبنانية.

ويتضح، من نظرة سريعة على النقاط المذكورة اعلاه، ان كل واحدة منها هي

مفهوم عام مشحون بالتاريخ، والتأويل والمخاوف. وما يبدو معقولا لطرف ما، يبدو خطراً بالنسبة للطرف الآخر. وهنا ينبغي أن نذكر أن الحوار في جنيف يجري بين قادة تقاتلوا، لا بالكلام، بل بالاسلحة، خلال ثمانية اعوام، وان كل واحد منهم كان يصرخ ويهدد من خندقه في لبنان كما انه كان يحاور من مقعده في القاعة.

وفي كلامي مع المشاركين في المؤتمر بعد كل جلسة كنت أعجب وأتساءل: هل يستطيع المؤتمر ان يتوصل الى اي شيء؟ وكان لا بد من رفع الكثير من الركام قبل التمكن من معالجة القضايا بشكل معقول يحقق المصلحة الوطنية. لقد كان الموقف الفردي والطائفي والحزبي هو المسيطر على اجواء الحوار في جنيف، وكان الفرق شاسعا بين الاوراق المعتدلة نسبيا التي قدمها المشاركون، وبين المواقف المتحجرة التي يأخذونها في قاعة الاجتماعات. فكأن الأمزجة كانت تتغير بمحض تواجد المشاركين في مواجهة الواحد منهم للآخر على مسافة أقدام قليلة.

وبرغم التوزيع الطائفي في المؤتمر، فقد كانت التوجهات معادية للرئيس. فهو لم يكن يستطيع ان يعتمد إلا على والده الشيخ بيار، وعلى كميل شمعون، وهما مسنّان، ومستقلان، واحدهما عن الآخر، صريحان الى حد بعيد حتى انهما كادا يضايقانه ويحرجانه. وكثيراً ما أوفدني الرئيس في المهمة الصعبة لحمل والده على الاعتدال، آملا ان «اكون، أنا الغريب» اكثر نجاحاً من ابنه في تغيير رأي «الصخرة» كما كان يعرف الشيخ بيار. وكان صائب سلام وعادل عسيران سياسيين مستقلين عاملين في سبيل لبنان الموحد، لكنهما كانا في الغالب يؤيدان المعارضة. وظل سليمان فرنجية معارضا حتى طرحت قضية صلاحيات الرئاسة. وبالنسبة لهذه القضية لم يرض باي تساهل. وكان نبيه بري ووليد جنبلاط ورشيد كرامي يشكلون معارضة قوية تضاعفت مرات كثيرة بفعل هالة الوزير عبد الحليم خدام. اما ممثلا الجبهة اللبنانية والرئيسُ فكانوا محافظين. وبوجه عام آثروا الابقاء على الاتفاقية، وتعديلها اذا لزم الامر، وتخوفوا من الغائها خشية ان يعرض الالغاء لبنان لمخاطر أكبر. اما بالنسبة للهوية، فلبنان في رأيهم هو لبناني وربما عربي بشكل عام. ولكنهم كانوا يتخوفون من المزج بين العروبة والاسلام، بين العروبة والوحدة

مع سوريا. ولقد أرادوا علاقات طيبة مع سوريا، ولكنهم كانوا حذرين تجاه نوايا سوريا وقد حذّر كميل شمعون من ذلك مرارا. كانوا حريصين على ابقاء منصب الرئاسة قوياً وناقشوا الاصلاحات في البرلمان، وفي مجلس الوزراء، وفي رئاسة الوزارة، من منظور رئاسي. واتجهوا إلى معارضة التدابير الآيلة إلى قبول ما اعتبروه تحديدا لصلاحيات الرئيس الماروني. الواضح ان رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش هما الدعامتان اللتان تستند إليهما بنية السلطة المارونية. كانوا مهتمين باللامركزية، حتى ان البعض منهم اقترح الفدرالية مما أثار حفيظة المعارضة. كانوا يريدون اخراج القوات غير اللبنانية بأسرع ما يمكن، وهم يوافقون على حل الميليشيات بدءاً بالمنظمة العسكرية الفلسطينية. كانوا يريدون جيشاً قوياً بقيادة مارونية، وبايديولوجية لبنانية خالصة. كذلك كانوا تواقين إلى اعادة المهجرين لأن المسيحيين كانوا الضحايا الاساسيين للتهجير. إن تهجير المسيحيين من الشوف وعاليه اوجد، في اعتقادهم، خللاً استراتيجياً ينبغي إصلاحه. ومن ناحية أخرى كانت المعارضة تطالب بالغاء الاتفاقية واللجوء إلى المقاومة الشعبية لتحرير الجنوب. كانت تريد تحقيق الاصلاحات الواسعة. إن هوية لبنان ينبغي ان تكون بكل وضوح هوية عربية، لا فينيقية ولا متوسطية ولا لبنانية. ينبغي ان تكون عربية في العمق. وعلى لبنان ان يقيم علاقات مميزة مع سوريا، الدولة العربية الشقيقة. والرئاسة ينبغي ان تكون مفتوحة امام جميع اللبنانيين. اما اذا بقيت محصورة في الموارنة، فان صلاحياتها يجب ان تحد، وأن تتقلص مدة الرئاسة من ست سنوات إلى أربع واما المجلس النيابي فينبغي رفع عدده من ٩٩ إلى ١٠٨، وله ان يختار رئيس الوزراء. ومدة رئيس المجلس يجب تمديدها من سنة إلى سنتين، أو إلى أربع سنوات.

ويجب منح مجلس الوزراء سلطات واسعة، أو منح مجلس الوزراء ورئيس الجمهورية معاً مثل هذه السلطات، وعدم حصر هذه السلطات في رئيس الجمهورية وحده، كما في الدستور. كذلك ينبغي تقوية صلاحيات رئيس الوزراء، وتحديدها في الدستور بوضوح. ويجب للامركزية ان تواجه بحذر، كما ان مناقشتها ينبغي

ان تجري على صعيد اداري فقط. كانت المعارضة تشك في ان الجبهة اللبنانية تريد الفدرالية وتهدف إلى التسلل إليها من خلال اللامركزية. كذلك كانت المعارضة تريد اعتماد مشاريع التنمية للمناطق النائية، أي عكار والبقاع والجنوب، وهي الفقيرة نسبيا، والمهملة إلى حدٍّ مّا من قبل الدولة؛ وتؤيد الغاء الطائفية السياسية وفتح جميع وظائف الدولة امام جميع المواطنين. واذا تعذر تحقيق ذلك على الفور، فالواجب عندئذ وضع مخطط محكم لتحقيق هذا الهدف.

لقد تناولت أعلاه بعض العناوين القليلة التي تعرض لها المشاركون. والواضح ان القضايا واسعة جدا؛ ولكل من المشاركين أولوياته، ومخاوفه. الرئيس صائب سلام، على سبيل المثال، كان منزعجا من السيطرة المارونية على الدولة. ومن نشوء الميليشيات التي اغتصبت صلاحيات الدولة وحقوقها. والرئيس سليمان فرنجية واضح صريح بالنسبة لأمرين هما العداء لاسرائيل والصداقة مع سوريا. ولقد أراد إلغاء الاتفاقية ودعا لبنان إلى التنسيق مع سوريا، وطالب بتحقيق الإصلاحات الموسعة، لكنه أراد إبقاء الرئاسة قوية، والحفاظ على الطائفية السياسية على مستوى المناصب السياسية والمراكز الادارية العليا. وشاء نبيه بري الغاء الطائفية، وإلغاء الاتفاقية، وتمديد مدة رئيس المجلس (وهو منصب وقف على الشيعة) من سنة واحدة إلى أربع سنوات. وطالب وليد جنبلاط بايجاد مجلس شيوخ، يكون، على الأرجح برئاسة درزي.

لقد كانت مسألة الاتفاقية تثار عند طرح أي قضية للمناقشة. وقد شعرت انه لا مجال لتحقيق اي تقدم بالنسبة للاصلاحات قبل التوصل إلى اجماع حول الاتفاقية. كان التمسك بالاتفاقية دلالة واضحة على عدم تحقيق أي تقدم في مجال الاصلاح، وان القتال في البلاد مستمر. وحيال هذا المأزق، اعلن رئيس الجمهورية للمشاركين ان الاتفاقية هي المشكل. انه سيحاول حل هذا المشكل على الصورة التي ترضيهم؛ انه سيتصل بريغن ويجد بالتعاون معه حلاً لهذا المشكل. ورحب المشاركون، الذين كانوا تواقين إلى حصول أعجوبة، بقرار الرئيس. وصفقوا له، وعلى الفور، وافقوا على تأجيل المؤتمر، وحزم كل منهم أمتعته وأخذ يتجول في أوروبا بانتظار إعادة

عقد المؤتمر، بعد ان يحقق الجميل وريغن «الاعجوبة» بشأن الاتفاقية، على أمل ان لا يطول التجول والانتظار اكثر من اسبوع.

وقبل انتهاء المؤتمر، كان المؤتمرون قد اتفقوا على بند واحد هو هوية لبنان العربي، كما يلي:

«لبنان بلد سيد حر مستقل وواحد ارضا وشعبا ومؤسسات في حدوده المنصوص عنها في الدستور اللبناني والمعترف بها دوليا، وهو عربي الانتماء والهوية، وعضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية وملتزم بكل مواثيقها، على ان تجسد الدولة هذه المبادئ في كل الحقول والمجالات من دون استثناء».

وانصرف مؤتمر جنيف في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر، على أمل ان يعود الى الاجتماع في الرابع عشر منه، بعد ان يكون الرئيس الجميل قد اجتمع بالرئيس ريغن. لقد افترض المؤتمرون ان القضية اللبنانية تتمتع، باولوية في السياسة العالمية، تكفل تحديد الاجتماع بين ريغن والجميل في فترة قصيرة. ووافق المؤتمرون على لجنة فرعية منبثقة عن المؤتمر، مؤلفة من مستشاري المشاركين، برئاسة السيد محمد شقير مستشار الرئيس الجميل، للاجتماع في هذه الفترة، لوضع ملخص لنقاط المقترحات وتقديم توصياتها لمناقشتها في المؤتمر حين يعود إلى الاجتماع في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر.

وبعد اجتماعات مكثفة، حددت اللجنة الفرعية موقفاً من كل النقاط الهامة. وكثيرا ما كان احد المستشارين، او اثنان منهم يعبران عن بعض التحفظات التي تسجل. وكان المفهوم ان جميع هذه النقاط يجب ان ترفع إلى المؤتمر لتبنيها او لرفضها حين يعود إلى الاجتماع. وقد تبنت اللجنة الفرعية خمسا وعشرين نقطة اذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، النقاط التالية:

- اعادة التأكيد على توزيع الرئاسات الثلاث (الجمهورية، المجلس النيابي، مجلس الوزراء)، وفقا للميثاق الوطني؛
- التمثيل النيابي مناصفة بين المسيحيين والمسلمين؛

- انتخاب رئيس مجلس الوزراء من قبل مجلس النواب؛
- انشاء مجلس أعلى لمحاكمة الرؤساء والوزراء؛
- تعزيز اللامركزية الادارية؛
- انشاء مجلس للتخطيط والتنمية؛
- انشاء مجلس شيوخ؛
- انشاء منصب نائب رئيس الجمهورية؛
- تمديد مدة رئيس المجلس النيابي إلى أربع سنوات؛
- عودة جميع المهجرين اللبنانيين إلى قراهم ومدنهم.

لقد ظن رئيس الجمهورية انه سيعود إلى لبنان ويحدد موعدا مع ريغن ويتوجه رأسا إلى واشنطن، ليعود بعد ذلك إلى جنيف، لمتابعة أعمال المؤتمر. ولكن الذي تبين بالتالي ان مؤتمر جنيف قد انتهى، بل فشل فشلا ذريعا.

الفصل السادس

الطريق إلى لوزان

التنسيق مع سوريا

عند عودتي من جنيف، وجدت السفير السوفياتي في بيروت، اليكسندر سولداتوف، مستاءً جداً من الحشد البحري الأميركي في شرقي البحر الأبيض المتوسط. كان متخوفا من جو ريغن الانتقامي. آنذاك كان الرئيس ريغن، على أثر نجاحه في غرينادا، يهدد بالثأر من المسؤولين عن مهاجمة المارينز في بيروت. قال لي سولداتوف ان للاتحاد السوفياتي مصالح في المنطقة، وهو مستعد أن يدافع عنها، ثم طلب مني ان أشرح له الموقف اللبناني من هذا الحشد الاميركي. فقلت له انه من المحتمل ان يكون هذا الحشد جزءاً من استراتيجية تتجاوز لبنان، وان السوفيات هم بالتأكيد أعرف مني بهذا الخصوص. على أن هنالك شيئاً واحداً أردتُ أنْ أؤكد عليه، وهو أن اللجوء إلى القوة، سواء من قبل الاميركيين، أو السوفيات، او الاسرائيليين، سيكون حتما على حساب لبنان، واننا، بالتالي، نعارضه، بل ننبذه بقوة.

وفي كل حال، كان العنف، في ذلك الوقت، هو المسيطر على أجواء البلد، اذ كان مؤيدو ياسر عرفات ومعارضوه من الفلسطينيين يتحاربون في ضواحي طرابلس؛ وانصار عرفات قد لجأوا إلى طرابلس، فيما راح معارضوه يقصفون مواقع عرفات في المدينة، فاشتعلت النيران في مصفاة طرابلس، وهددت السكان بانتشار الغاز السام. وفي هذه الاثناء كانت المفاوضات الدولية تجري لسحب القوات المؤيدة لعرفات من طرابلس.

وفي الجنوب، كان رجل انتحاري قد أقدم على نسف مقر للقيادة الاسرائيلية في صور، قاضيا بذلك على العديد من الجنود الاسرائيليين.

وردت اسرائيل على ذلك بقطع الجنوب، من نهر الأولي جنوباً، عن بقية البلاد. كذلك طرد الاسرائيليون موظفي الحكومة اللبنانية من مكاتبهم في صيدا. واستبدلوا

بهم آخرين هم أتباع لهم. وكانوا في منطقة سيطرتهم، يطلقون النار على كل من يشتبهون به.

وكانت حكومة الرئيس الوزان قد تقدمت باستقالتها؛ ولئن استمرت في تصريف الأعمال، فانها فقدت أي فعالية. لقد أراد الرئيس الوزان ان يخرج من الحكم كلياً، أو ان يشكل حكومةجديدة تضم قادة المعارضة حتى تؤمن له بعض الغطاء السياسي في هذه الأزمنة المضطربة. واحساساً مني أنّ الرئيس الوزان يحبذ الاستقالة فعلا، فقد اقترحت على الرئيس تعيين رفيق الحريري. وإذا كان رفيق «صاروخاً» يصعب توجيهه، فانه لا شك رجل دينامي له اتصالات واسعة في لبنان، وفي العالم العربي، وفي عواصم الغرب الكبرى.

لقد شعرت ان اسمه يعزز مصداقية الجهود التي يبذلها رئيس الجمهورية لادخال الاصلاحات، وتوسيع قاعدة الحكومة، وإطلاق مسيرة الإعمار. ولم يكن رئيس الجمهورية معارضا للفكرة، الا انه لم يكن في وارد تغيير الحكومة. كان يدرك ان تشكيل حكومة جديدة يتطلب مساومات كثيرة، وهو في الآونة الحاضرة يود الانتظار ريثما يقوى موقعه، ويزداد تحكُّماً بتأليف الحكومة المقبلة.

بعد مؤتمر جنيف، أحس الرئيس ارتياحاً وكأنه، بصورة من الصور، أعيد انتخابه. لقد التقى من عارضوه؛ ومنحوه التفويض للعمل مع الرئيس ريغن على ايجاد حل للأزمة التي ولدتها الاتفاقية. كذلك رأى الجميل في تعيين دونالد رمسفيلد مبعوثا خاصاً لريغن في لبنان مؤشراً ايجابياً. وكان مكفارلين قد عين مستشاراً لريغن للأمن القومي. ورمسفيلد وزير سابق للدفاع، وسياسي معروف، ومفاوض قوي. وقد توقع الرئيس ان يصل رمسفيلد حاملا حلا؛ الا انه كان قد تعهد في جنيف بان يجتمع بريغن وان يجد الحل بنفسه. ولا بد لرمسفيلد، في مثل هذه الحالة، أن يكون في وضع يمكنه من مساعدة الرئيس.

دعوت سفير الولايات المتحدة ريجينالد بارثولوميو ان يقابلنا، أنا ورئيس الجمهورية، في القصر الجمهوري. فاجتمعنا في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر. وطلب الرئيس إليه ان يعد له مقابلة مع الرئيس ريغن. سأل بارثولوميو: ولماذا تريد

المقابلة؟ ماذا يمكن لريغن ان يقول لكم؟ الاتفاقية معقودة بين ثلاثة اطراف، كما قال، ولن يستطيع ريغن ان يفعل اي شيء بدون موافقة اسرائيل. ثم لاحظ ان المناقشات ينبغي لها ان تجري في اطار الصيغة الثلاثية، لا مع الرئيس ريغن. واذا ما شئتم البحث مع ريغن في شؤون اخرى، فلكم ذلك، على الرحب والسعة، ولا ريب. غير ان ريغن مشغول، واشك في إمكان الاجتماع به قبل نهاية الشهر. وصرخ الرئيس: في نهاية الشهر؟ هنالك أعضاء المؤتمر ينتظرونني في أوروبا. علينا ان ننهي عملية جنيف. ورد باثولوميو يقول انه آسف وانه سيبذل جهده، الا انه يشك في امكان ترتيب اجتماع في الوقت الذي يريده الرئيس الجميل.

وشعر الرئيس بقلق عميق لهذا الرد. لقد قطع في جنيف عهداً بالاجتماع إلى ريغن، وهو يَنْوي أن يفي بالعهد. وبعد حوار طويل، رتب الاجتماع بين الجميل وريغن في أول كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٨٣، وهنا انتهت مرحلة جنيف. ولكن كان في ذهن الرئيس اجتماع آخر كذلك: لقد سبق له أن حاول إقناع السوريين بالقبول بالاتفاقية. ففشل، الا انه كان واثقا من نفسه، ويؤمن باللقاءات الشخصية وقدرته على اقناع محدثه. وكان يود الاجتماع بالرئيس الأسد: لعرض وجهة نظره والتوصل إلى صفقة معه لتعليق الاتفاقية، او تعديلها، أو إيجاد البديل المقبول لها. كذلك أدرك الرئيس انه لن يتمكن، بدون الرئيس الأسد، من تحقيق اجماع وطني لدعم جهوده، ولن يستطيع كذلك ان يؤلف حكومة اتحاد وطني. ان ميزان القوى في لبنان قد تحول لصالح سوريا؛ وقد عرف الرئيس انه لا بد له من التكيف مع هذه الحقيقة.

وعين الاجتماع مع الرئيس الأسد يوم الاثنين ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر. وكانت نظرة الرئيس الأسد تجاه الرئيس قد تغيرت بعد مؤتمر جنيف. كان الرئيس الأسد متأكدا من ان الرئيس الجميل سيلغي الاتفاقية أو انه، على الأقل، سيبحث جدياً عن بديل لها، أو عن صيغة مرضية لسوريا.

ولكن سرعان ما تبدل الوضع. ففي ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر، اتصل السيد عبد الحليم خدام بالرئيس ليقول له ان الرئيس الأسد مريض، وأنه نقل إلى

المستشفى، وانه، وهو في الطريق إلى المستشفى، طلب الأسد من خدام أن يؤكد للجميل انه كان يود الاجتماع به، ولذلك طلب من السيد خدام ان يحضر شخصياً إلى بيروت، ويشرح له سبب التأجيل: للحؤول دون تفسيرات خاطئة لهذا التأجيل.

وعرض عبد الحليم خدام ان يأتي إلى بيروت للاجتماع بالرئيس الجميل، يوم الاربعاء ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر. واتفقنا على ذلك. والتقيته بعد ثلاثة أيام في ضهور الشوير. ورافقته، عبر المنطقة الخاضعة لسلطة الحكومة، الى القصر الجمهوري. وهنا شرح لنا خدام انه اجريت عملية جراحية بسيطة للرئيس الأسد، وانه يتماثل للشفاء في الوقت الحاضر. ثم اكّد لنا خدام ان الاسد سيعود إلى مزاولة مهامه بعد أسبوعين، وأن زيارة الرئيس الجميل له ستكون الأولى على جدول أعماله. والواقع ان مرض الرئيس الأسد آنذاك أحدث بلبلة في دمشق، وصراعا حول السلطة. لقد كانت بادرة طيبة جدا من الرئيس الأسد أن يوفد، في هذه الساعات الحرجة، مبعوثا رفيع المستوى كالوزير خدام لشرح الوضع.

والغاية التي توخاها الرئيس الأسد، من زيارة الوزير خدام إلى بعبدا، هي تعزيز العملية التي بدأت في جنيف. وبدأ عبد الحليم بالقول إن هنالك الكثير من سوء التفاهم بشأن اتفاق ١٧ أيار. لقد حمل الاميركيون السوريين على الاعتقاد بان اسرائيل لن تنسحب إلا على أساس ترتيبات أمنية، وبانها لن تحقق أي مكاسب اخرى من الاتفاق. وتابع الوزير خدام فقال: لكن اسرائيل وجهت رسالة جانبية ربطت فيها انسحابها من لبنان بالانسحاب السوري. وعلى لبنان وسوريا بعد الآن، كما أضاف، ان يتعاونوا معا لحل كل مشاكلهما، بما في ذلك ما يتعلق بالاتفاقية. ونصح الوزير خدام الرئيس الجميل ان يمر بدمشق في طريقه إلى واشنطن للاجتماع بالرئيس ريغن، وان يتوقف بها كذلك في طريق العودة، فنؤكد بذلك التنسيق الكامل بين سوريا ولبنان. وسر الرئيس بما سمعه: لأنه كان حريصا على مثل هذا التنسيق.

والواقع انه كان يعلم ان اي تفاهم مع الرئيس ريغن، لا يحظى بدعم الرئيس الأسد، لن يكون قابلا للتنفيذ. لقد أدركنا ان التنسيق مع الرئيس الأسد ينبغي ان

يكون مباشرا وكاملا. على ان مثل هذا التنسيق وحده لن يكون كافياً للرئيس الأسد، ولكنه يكوِّن خطوة هامة، بين خطوات اخرى، منها خطوات من قبل الولايات المتحدة والسوفيات. وكان الجو بين خدام وبيننا جواً وديا إلى درجة ان الرئيس شعر ان الوقت مناسب لاجراء مصالحة بين الرئيس الوزان والوزير خدام.

ودعا الرئيس الوزير خدام، كما دعاني أنا ايضا، إلى تناول الغداء على مائدته، واشار إلى انه سيدعو الرئيس الوزان كذلك. وبعد حوار مطول بين الرئيس ومبعوث الرئيس الأسد، طلب إلي الرئيس ان اتصل بدولة الرئيس الوزان، وأدعوه إلى تناول الغداء. فاتصلت به وأكدت له ان الاجتماع مع الوزير خدام سيكون اجتماعاً وديا رغم الكلام العنيف الذي سبق عقد مؤتمر جنيف. وخلال نصف ساعة، وصل الرئيس الوزان إلى القصر، وتعانقا هو وخدام، كصديقين فرّق الزمن بينهما.

وكانت زيارة خدام اشارة لطيفة لتبريد الأمور حتى يستعيد الرئيس الأسد صحته. ولا حاجة بي إلى القول هنا ان التكهنات حول حالة الأسد الصحية ملأت لبنان والعالم العربي. ومن شأن أي حدث، مهما كان صغيرا في الدول التي يحكمها حزب عقائدي واحد، ورئيس قوي كالرئيس الأسد، أن يخلق جوّا من البلبلة ويولّد تكهنات لا حصر لها. غير ان قبضة الرئيس الأسد على السلطة كانت قوية إلى درجة خففت نوعا ما من حدة هذه التكهنات.

وفي ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر، قصدت دمشق بالطوافة العسكرية والتقيت الوزير خدام في مطار دمشق؛ كان الرئيس الأسد لا يزال في مرحلة النقاهة. واستحال تحديد زيارة رسمية للرئيس إلى سوريا قبل اجتماعه بالرئيس ريغن في أول كانون الأول/ديسمبر. ونصح خدام بأن نستخدم المعارضة السورية للاتفاق حجةً في واشنطن لالغائه. لذلك لاحظ ان الاتفاق مخالف تماما لرسالة بعثت بها الولايات المتحدة إلى سوريا في ١٠ حزيران/يونيو، ١٩٨٢، تقول فيها ان اسرائيل ستنسحب من لبنان مقابل ترتيبات أمنية لا أكثر. وتكلم خدام بلهجة عقلانية مدروسة، وبطريقة دبلوماسية منضبطة، وكأنه يريد توجيه رسالة إلى شولتز بواسطتي.

قال: ان الولايات المتحدة تنوي استخدام اسرائيل لمهاجمة سوريا؛ ذلك خطأ؛ مثل هذا التحرك يعزز الوجود السوفياتي في المنطقة، ويؤدي إلى قيام موجة عربية عدائية ضد اميركا. ان سوريا تؤثر الحفاظ على حرية تحركها، وعلى استقلالية قرارها، وان آخر ما تريده هو ان تقع تحت النفوذ السوفياتي. اما اذا اضطرت للاختيار بين اسرائيل والاتحاد السوفياتي، فهي لن تتردد باختيار الاتحاد السوفياتي. ثم لاحظ خدام ان القيادة السورية تحترم جورج شولتز، وتتمنى عليه ان يبقى على اتصال بالسوريين واللبنانيين، للعمل على ايجاد اجماع جديد في لبنان. وانطلاقا من هذا الاجماع، يمكننا، بعد ذلك، ان نتابع حل المشاكل القائمة، واحدة تلو الاخرى. هذا هو عبد الحليم خدام، الدبلوماسي البارع يتحدث. لقد عبّر عن موقف سوريا المتصلب بايجاز. لهجته معتدلة، ولكنه لم يتنازل قيد شعرة.

في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ذهبنا، أنا ورئيس الجمهورية إلى الولايات المتحدة على طائرة صغيرة خاصة من أوتوستراد حالات المعروف «بمطار» حالات. وبما ان مطار بيروت الدولي قد أصبح بالغ الخطورة للمسافرين الرسميين، فان الرئيس كان قد طلب من اللواء طنوس، قائد الجيش، ان يعد منطقة هبوط في مكان ما تحت سلطة الحكومة. ووجد طنوس مثل هذه البقعة الصغيرة على طريق بيروت طرابلس. وحوّلها إلى مدرج. عند ذاك جرى تحويل السير، وانشىء هذا المهبط بطول كاف يسمح لطائرات هوكرهنتر، من القوة الجوية اللبنانية، وللطائرات المدنية الصغيرة، أن تقلع منه او ان تحط فيه. وفي الوسط خط أبيض يشير إلى المكان الذي يفترض على الطيار ان يتجه إليه في هبوطه.

وخبرتي مع مطار حالات خبرة طويلة. ففي الشهر السابق استقلّيْت الطائرة الحكومية الصغيرة من هذا المطار، وعند العودة لاحظ الطيار ان الخط الأبيض يبدو أقصر مما كان عليه عندما أقلعنا منذ بضعة أيام. وبين الشك واليقين، بالنسبة للموقع الذي يجب ان تلامسه الطائرة على الأرض، قرّر الطيار ان يهبط عند بداية الخط. وخلال ثوان، وجدنا انفسنا نسرع إلى نهاية المدرج، ومنه إلى طريق ضيق مرتفع وإلى كرم من الفاكهة. وكنا بالفعل معرضين للخطر، حين تمكن الطيار من

السيطرة على الطائرة وايقافها قبل بضعة أقدام من حائط الكرم. والشيء الذي لم نعرفه هو انه، اثناء غيابنا، فرش الخط الأبيض بالاسفلت بشكل خطير من اللامسؤولية، ودون ان يبلغ احد الطيار ان المدرج قد فقد بضع مئات من الأقدام.

وفي هذه المرة، كان الطياران سويسريين والطائرة سويسرية. وقد قاموا، في اليوم السابق، بتجربة هبوط للتعرف إلى المطار. ولكن، عندما وصلنا، كان الطياران منفعلين بعض الشيء. كانوا قلقين لأمرين: هنالك رابية على كل جانب من جانبي المدرج؛ ثم ان المدرج يمتد فوق جسر خطر. كذلك كانوا قلقين بالنسبة للهواء وكيفية اتجاهه في هذين الموقعين، فقلت لهم اننا لو كنا، نحن في لبنان، نأخذ في الحسبان مثل هذه الاحتمالات البعيدة، لما كنّا نغادر منازلنا ابدا. وبعد تردد وكثير من هز الرأس والتفوه بكلمات لم افهمها، اتخذ الطياران أماكنهم. وفيما كانت محركات الطائرة تستعد للسرعة اللازمة، دعاني الربان إليه، وقال لي ان الطائرة مصنوعة لنقل ثمانية اشخاص، فقط، لكنه عدّنا فوجدنا ١٢ شخصا، وهذا مخالف للقانون ولا يمكنه ان يقلع. فقلت له: اتكل على الله، وأَقلع. والقانون السويسري لا ينطبق على الاوضاع في لبنان، ومن المؤكد انه لا ينطبق على مطار «حالات». فهز رأسه ثانية وتفوه بكلمات لم أفهمها، وهذا من حظي وحظه.

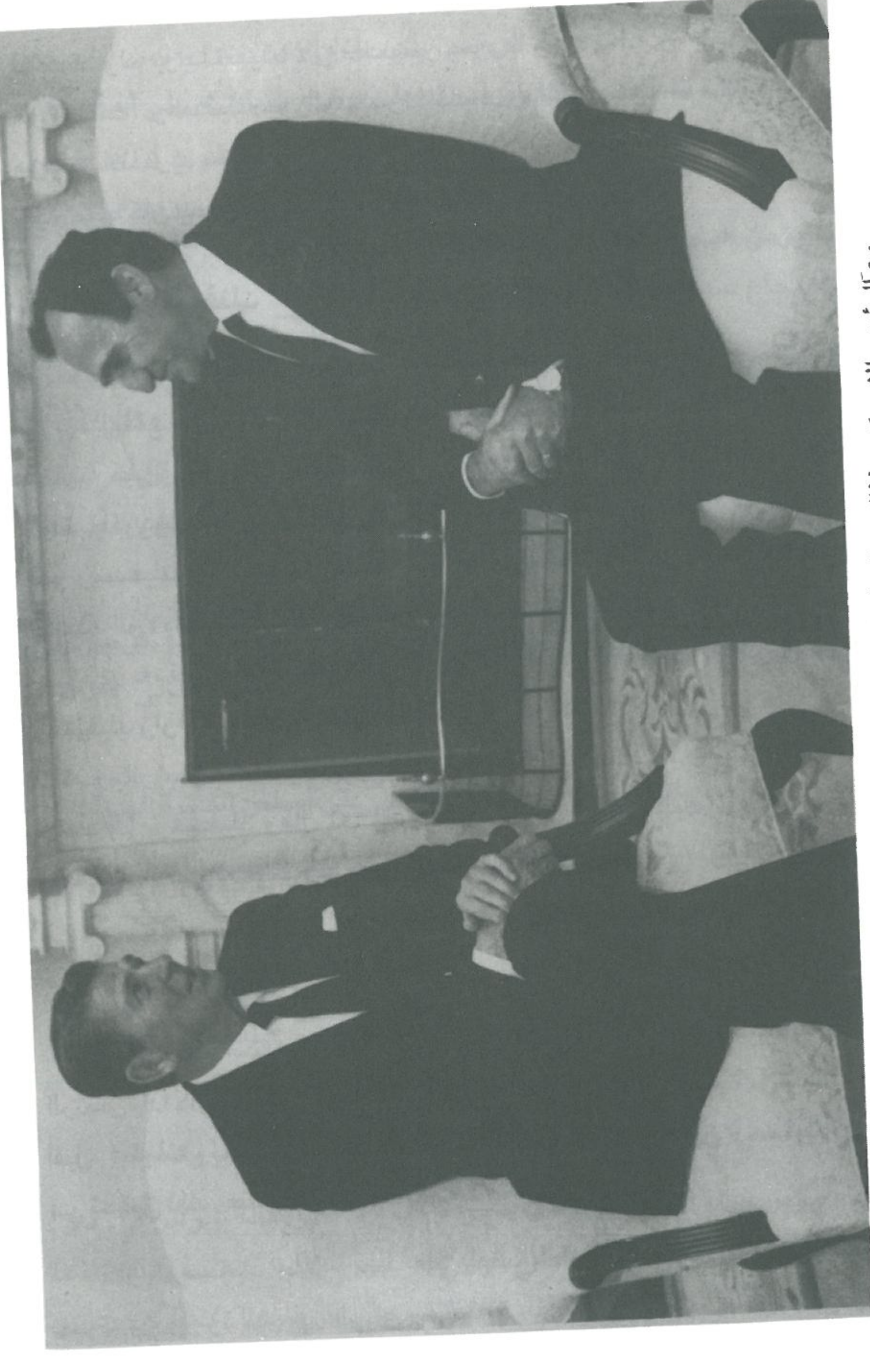
توقفنا في روما للاجتماع بالرئيس الايطالي برتيني، ورئيس الوزراء كراكسي، ووزير الدفاع سبادوليني، ووزير الخارجية اندريوتي. وكان من المثير حقاً ان ترى الرئيس برتيني، ابن الثمانين، يعانق الجميل ابن الثلاث والأربعين، وان يعرب له عن حبه للبنان، وعن التزامه بالبقاء إلى جانبنا حتى النهاية. غير أن موقف الحكومة الايطالية لم يكن حاسما نهائيا إلى هذا الحد. وأبلغنا سبادوليني ان ايطاليا، اذا ما تدهور الوضع في لبنان، ستسحب فرقتها من القوة المتعددة الجنسيات. ان ايطاليا شاركت في القوة حين كان يبدو ان هنالك حلا وشيكا. اما الآن، فان المسألة تزداد تعقيدا. وبصفته استاذا سابقا للتاريخ، تذكر الحروب الايطالية والدماء الكثيرة التي اريقت في سبيل توحيد ايطاليا. ثم اعرب عن امله بان تكون محنتنا أقصر من محنة بلده في القرن السابق. ثم تمنى الخير لمحادثات الجميل مع ريغن.

وقبل الاقلاع، طلب إليّ ألاّ أنسى انه لا يزال استاذاً يواصل البحث العلمي ونشر الكتب، وقدم لي آخر ما نشره وهو كتاب عن فلورنسا. وعنوانه «فيرنزي، ميل أنّي» (فلورنسا: ألف عام). كذلك كان كراكسي في جو الانسحاب من القوات، وقال أريد «الخروج من هناك». وكان يريد أن يعيد نشر قواته على سفن ايطالية، مقابل الساحل. فاستنتجت من كلامه ان ذلك هو موقف الدول الاخرى المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات، ولو أنها كانت كلها قد أكدت لنا، بعد اقتحام مراكز المرينز والمظليين، ان موقفها السياسي والعسكري لن يتغير بسبب هذه الحادثة. حتى ان الايطاليين ترددوا ببيعنا ٨٠ ناقلة جند مصفحة، كان متفقاً عليها سابقاً. ان الشعور بالثقة، الذي كان يخيم على البلدان المشاركة في القوة المتعددة الجنسيات، اخذ يتبدد، ورحنا، ونحن نغادر روما نتساءل: كيف تكون الحالة في واشنطن؟

وفي واشنطن، تناولنا طعام الغداء مع الرئيس ريغن، بحضور نائب الرئيس بوش، ووزير الخارجية شولتز، وروبرت مكفارلين. وكان سفيرنا في واشنطن الدكتور عبد الله بوحبيب قد حذرنا من ان لا نتوقع الكثير. قال لنا: ستلقون، الدعم العام، ولا تلقون دعماً لمسائل محددة. تلك الاعجوبة التي أملنا وقوعها، ونحن في جنيف، لن تحدث.

كان ريغن كعادته مرتاحاً، وقد يكون قرر ان لبنان، بعد حادثة المرينز، لا يستحق الكثير. وكان ما حصلنا عليه منه على الغداء هو كل ما حصلنا عليه في واشنطن. لا وجود لحل، لكنّ هنالك تصميما على البحث عن حل. وقال ريغن: نحن مسرورون لما حدث في مؤتمر جنيف. لقد فهمنا المشاكل التي تواجهها سوريا بالنسبة للاتفاق. ونحن نعتبر الاتفاق مجمدا. ان المبعوث الخاص الجديد، دونالد رمسفيلد سيعمل معكم ومع السوريين، وبالتنسيق مع العربية السعودية، لايجاد المخرج من الاشكال. رمسفيلد في المنطقة في الوقت الحاضر، ومعه دفاتره الصفراء المشهورة لتدوين الملاحظات، ووضع الخيارات، وبذل الطاقة للخروج بحل.

وتحدث بوش وشولتز عن سرورهما لما حدث بجنيف، وعن تلاقي اللبنانيين لحل مشاكلهم. لم يريدا الغاء الاتفاق. لأن ذلك يثير اسرائيل وينسف جهود الولايات



مع الرئيس الاميركي رونالد ريغن في المكتب البيضاوي في البيت الابيض

المتحدة؛ ولم يريدا تنفيذه لأن ذلك يثير سوريا ويؤذي لبنان. ينبغي لنا البحث عن خيار ثالث. رمسفيلد هو الشخص المناسب لذلك؛ أعطوه الوقت. وكررنا عرض موقعنا. اننا نريد صيغة تخرج اسرائيل من لبنان. عرضنا الخيارات الممكنة ولكن كل خيار منها كان يحمل في طياته بذور إفشاله.

بعثة رمسفيلد

وصل رمسفيلد إلى بيروت منتصف تشرين الثاني/نوفمبر وكان قد عمل وزيراً للدفاع في ادارة الرئيس جيرالد فورد، ثم عمل منذ ذلك الحين رئيساً لمؤسسة تجارية كبيرة. كان في الخمسينات من العمر، ولكنه كان يبدو أصغر من ذلك؛ كان رياضياً، وديناميأ ورجل أعمال. واذا كان لأحد ان يقال عنه انه الاميركي النموذجي، فهو رمسفيلد. إنه سياسي يهمه النجاح، ويتحدث علنا عن عزمه ليترشح لمنصب رئاسة الولايات المتحدة، وقد قبل مهمة المبعوث الخاص لأنه وجد فيها تحدياً سيؤدي به، في حال النجاح، إلى البيت الأبيض. وقد ذكرت لي ابريل غلاسبي ان رمسفيلد زار دمشق حين كانت هي لا تزال في السفارة الاميركية في دمشق، وانه اجتمع بالرئيس الأسد بحضورها. وبعد مناقشة صعبة بين الاثنين، نظر الرئيس الأسد إلى رمسفيلد وقال له: لماذا ينبغي لي ان استمع إليك؟ وبدون تردد، أجاب رمسفيلد: لأنني سأصبح يوما ما رئيسا للولايات المتحدة.

ولدى وصول رمسفيلد إلى بيروت، جاء إلى منزلي للتحدث معي مطولا في كل جوانب الأزمة. قال لي انه تردد في قبول المهمة، الا ان ريغن ألحّ عليه. اتصل به في شيكاغو، حيث مكتبه، وحثه على قبول التحدي. ورد رمسفيلد بقوله: سيدي الرئيس، اذا كان تكليفي المهمة بمثابة ورقة التين لسحب «المرينز» من لبنان، فانني لن أقبل. فطمأنه ريغن ان لديه النية الكاملة للنجاح، وانه يريد من رمسفيلد ان يساعده في تحقيق ذلك. عند ذاك قبل رمسفيلد المهمة.

كان لرمسفيلد اطلاع جيد على أهمية الشرق الاوسط الاستراتيجية بفضل خبرته في وزارة الدفاع. على ان معرفته بلبنان وسوريا كانت معرفة محدودة. وفي

أول اجتماع لي معه، عرضت عليه الوضع الذي سيواجهه. كان حسن الاصغاء، دؤوبا في البحث عن الحقائق، واثقا من قدرته على وضع سياسته على أساس هذه الحقائق. الا ان مهمته كانت، برغم ذلك، مهمة صعبة حقا. لا بد له ان يوفق بين متناقضات لا يمكن التوفيق بينها بسهولة. هو طرف مفاوض يريد الحل لأنه بالنسبة له يؤمن النجاح. أما الاطراف الاخرى، فلم تكن بالضرورة مهتمة بالحل. وقد يكون النجاح عندها بافشال الحل او بتأجيله.

وعند عودتي من واشنطن، اتصلت بالوزير خدام وبالامير سعود الفيصل، لمتابعة الاشكالات الناتجة عن الاتفاق. اجتمعت بالوزير خدام في دمشق في ٩ كانون الاول/ديسمبر، وقال لي ان الرئيس الأسد، الذي كان لا يزال في طور النقاهة، يبعث إلي بتحياته. وانه كان يود ان يستقبلني بنفسه، ويتمنى ان يفعل ذلك قريبا عندما ينتهي من مرحلة النقاهة.

قلت للوزير خدام اننا ناقشنا جميع الخيارات في واشنطن، لكننا لم نتوصل إلى الحل المنشود، وانه يمكن لرمسفيلد ان يأتي إلى دمشق في الاسبوع التالي. بعد ذلك عرضت عليه الخيارات التي ناقشناها:

(أ) الغاء اتفاق ١٧ أيار وانسحاب اسرائيل الكامل على اساس اتفاقية الهدنة؛

(ب) تعليق اتفاق ١٧ أيار واعادة التفاوض بخصوص الاقسام التي تتناول العلاقات المتبادلة؛

(ج) اضافة فقرة إلى الاتفاقية تنص على انه في حال نشوب خلاف بين الالتزامات اللبنانية بموجب الاتفاق والتعهدات اللبنانية ضمن جامعة الدول العربية، فان الالتزامات بموجب الاتفاق تعتبر لاغية وكأنها لم تكن؛

(د) ادخال تعديلات على الاتفاق بصورة مرضية للبنان وسوريا واسرائيل.

وقلت للوزير خدام انه علي ان انقل بموضوعية وبدقة ما قاله شولتز لي. قال: إن الولايات المتحدة تعتقد ان مشاكل لبنان ليست مع اسرائيل، بل مع سوريا. واذا ما ألغينا الاتفاق، فان اسرائيل تكون غير ملزمة بالانسحاب من لبنان. الاميركيون غير

مرتاحين إلى الموقف السوري، ويعتبرون ان سوريا قد حشرتهم في الزاوية، وان اميركا عندما حشرت في الزاوية عززت علاقاتها مع اسرائيل. وقال شولتز ان سوريا تضع العقبات في المنطقة وان التقدم في المحادثات الثنائية بين واشنطن ودمشق محدود جدا وقد يكون معدوما. تلك هي رسالة شولتز. غير أن رمسفيلد سيعمل جاهدا مع دمشق لازالة هذه العقبات. وأصغى الوزير خدام بعناية، وبروية، لكنه كان ساخطاً لأن الطائرات الاميركية كانت قد هاجمت المواقع السورية في لبنان مؤخراً. وكانت الولايات المتحدة تعتبر سوريا وايران مسؤولتين عن اقتحام ثكنات المرينز، وبذلك كانت هذه الغارات الجوية انتقاما للعمليات الانتحارية. وهنا أراد الوزير خدام للولايات المتحدة ان تدرك ان سوريا لا تتأثر باستعمال القوة، ثم لاحظ انه حتى الدولة العظمى لا تستطيع ان تتحدى سوريا في ما تؤمن سوريا بانه حق. ثم ذكر ان سوريا تصر على إلغاء الاتفاق قبل الاجتماع المقبل لمؤتمر الحوار الوطني، او اثناءه.

ومن دمشق، توجهت الى الرياض للاجتماع بوزير خارجية المملكة العربية السعودية، الامير سعود الفيصل. واستقبلني الامير سعود ورفيق الحريري في قصر المؤتمرات حيث كنت اقيم. ولقيت عزاء في حديثي الى سعود لانه يدرك تماماً الحلقة المفرغة التي يدور فيها لبنان. كانت خيبة املي تتزايد يوميا. وكان ذلك واضحاً في محادثاتي بالرياض. لدينا اتفاق، ونحن لا نعلم هل ننفذه ام نعدله ام نلغيه؟ البدائل صعبة، على انه علينا ان نتوصل الى اجماع بخصوص احدها. كنا قلقين من ان اسرائيل، في حال الغاء الاتفاق، ستثبت وجودها وتوسعه وتعمقه في الجنوب. اما التعديل، فليس ممكنا دون موافقة سوريا وموافقة اسرائيل. كذلك لا يجوز ان نصر على التنفيذ بينما الوضع السياسي الداخلي والاقليمي لا يسمح بنجاح الإصرار.

وكان سعود الفيصل يميل إلى تعديل الاتفاق، وكان يشعر بان سوريا ايضا تريد التعديل. ولكني اكدت له ان سوريا تريد الالغاء لا التعديل. كلمة التعديل لم يسبق لي ان سمعتها، لا من الرئيس الأسد، ولا من الوزير خدام. عند ذاك اقترحت

أن نستهدف الغاء الرسالة الاسرائيلية الجانبية وان نعلق الاتفاق، على أساس ان هنالك بنودا يصار الى اعادة التفاوض بشأنها في ظل الصيغة الثلاثية، بعد الانسحاب ا لاسرائيلي الكامل. مثل هذا الاقتراح قد يحظى بقبول السوريين. كذلك قد يحظى بموافقة الاسرائيليين اذا ما وضعت الولايات المتحدة ثقلها وراءه. وشرحت لسعود الفيصل انه لا يمكن لأي اتفاق بين لبنان واسرائيل ان يصمد امام الرفض السوري. واقترحت ان نقنع رمسفيلد بالاقتراح الذي تقدمت به. غير ان سعود الفيصل ارتأى الاخذ بنصيحة الملك فهد اولا.

وقبل مقابلة الملك، انطلق بي الحريري الى قصره الجديد في الرياض. وهو مبنى عظيم رائع، عظيم الى حد يظهر معه أن الحريري سعودي صميم، يخطط للبقاء في الرياض ولتوظيف الاستثمارات فيها. على انه لم يكن يقصد به ان يكون عظيما الى حد ينافس به قصور الامراء السعوديين. وحين وصلنا، كانت زوجته نازك، وهي حامل، منشغلة في اختيار السجادات العجمية. مئات السجادات كانت مفروشة في قاعات القصر، فيما راحت نازك، وهي متعبة، تتنقل من مجموعة الى اخرى، لتختار باشد ما يكون من العفوية عشرات السجادات من مختلف القياسات، من غير ان تستشير زوجها. وحين اشرت مازحاً الى حريتها الكبيرة باتخاذ المقررات، رد الحريري بانه لا يهتم الا بشيء واحد، هو بركة السباحة الداخلية. كبسة زر كافية كي ينفتح السقف، ويظهر الفضاء. وبذلك، كما قال، يستطيع ان يستحم في ضوء النجوم. وقلت في نفسي: هل يعقل ان رجل الاعمال هذا هو بالفعل رومنطيقي؟

نهار الاحد، ١١ كانون الاول/ديسمبر، اجتمعت بالملك فهد بحضور ولي العهد الأمير عبد الله، وسعود الفيصل، ووزير الإعلام، علي الشاعر. بدا الملك مهتماً جداً بدقائق الوضع اللبناني؛ فاستعرض الوضع العربي العام وانعكاس هذا الوضع على لبنان، وتكلم عن الحرب العراقية الايرانية، وخطر استغلال الدين وتحريفه لمصالح سياسية، فقال إن الاسلام دين الحب، والعطف، والأخلاق. وهو يحترم الأديان الأخرى، ويحترم القادة الأفراد. غير أن إيران تريد ان تضعف العالم العربي. ومن

شأن ذلك ان تكون له نتائج تاريخية خطيرة، في اعتقاده، لانه يؤدي الى تعزيز موقف اسرائيل وتقوية ارتباطها بالغرب. إن الاجماع العربي أمر لازم لاخراج اسرائيل من لبنان. والاجماع العربي هو الذي دفع الولايات المتحدة للضغط على بريطانيا وفرنسا للانسحاب من السويس سنة ١٩٥٦. الاجماع العربي، بالنسبة للبنان، أمرٌ مضمون اذا كان الاتفاق مقتصرا على الترتيبات الامنية. ولا بد لاخذ المنظور السوري بعين الاعتبار لان سوريا قوية، قادرة على الدفاع عن سياستها. ولاحظ ان الرئيس الجميل كان حكيما عندما رفض ان يبرم الاتفاق. على اسرائيل ان تنسحب، وبعد ذلك يمكن للبنان ان يعيد التفاوض بشأن نقاط الخلاف في الاتفاق.

ثم ان انسحاب اسرائيل من لبنان يشكل نصراً كبيراً للامة العربية، لانه يعني ان اسرائيل ستنسحب من غزة والضفة الغربية. واذا لم تنسحب اسرائيل من لبنان، فمعنى ذلك ان الجنوب اللبناني سيضاف الى الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان كاجزاء من اسرائيل الكبرى. هنا شعر الملك ان الكرة الآن في الملعب الأميركي. على انه أعرب عن استعداده للاتصال بسوريا، وايجاد المخرج الملائم من الازمة. وحين تقدمت باقتراحي، وافق عليه فوراً. وكان الملك يعتبر الرسالة الجانبية غير عادلة. لماذا اقحام سوريا؟ ينبغي تعليق الاتفاق. ثم اذا انسحبت اسرائيل استؤنف التفاوض بشأن الاتفاق على اساس الترتيبات الأمنية فقط. بعد ذلك، استرسل الملك ببحث الاوضاع السياسية والايديولوجية السائدة في العالم العربي واستعرض المراحل التاريخية التي ادت الى هذه الاوضاع. وانتقد الرئيس عبد الناصر والقائد العراقي عبد الكريم قاسم. ولم يكن استعراضه يخلو من الطرافة. ذكر خطابا لعبد الكريم قاسم بمناسبة افتتاح مستشفى للمعتوهين في بغداد، قال فيه: «هذا المستشفى هو لكم ولنا». ثم نظر الي مبتسما وقال ان الرجل، بموجب الأحوال المنطقية، معتوه.

وبعودتي إلى بيروت، وضعت رئيس الوزراء شفيق الوزان في أجواء المناقشات. ووجدت انه منهمك في المشاكل الداخلية وفي اوضاع استقالته. آنذاك كان الوزان في وضع سياسي لا يحسد عليه. كان قد تقدم باستقالته كرئيس

للوزراء، وهو لذلك لا قدرة له على تسيير السياسة، كما انه، في الوقت نفسه، رئيس حكومة تصريف أعمال ريثما يصار إلى تشكيل حكومة جديدة. كان ينتقد خصومه وعدم استعدادهم للتعاون معه. كذلك شكا الوزان من ان خصومه كانوا غير راضين مهما فعل. وقد ذكّره ذلك بحكاية جحا وحماره. كان جحا وابنه يركبان الحمار، فقال الناس من حولهما: ما أسوأ سلوكهما. اثنان يركبان حماراً مسكيناً. عند ذاك أنزل جحا ابنه ليمشي، وبقي وحده فوق الحمار. فقال الناس: ما أسوأه من رجل، يركب الحمار ويترك ابنه يسير على قدميه. وترجل الاب وأركب ابنه الحمار وراح يمشي بجانبه. عند ذاك اخذ الناس يسخرون منه لانه أركب ابنه الحمار، ولم يركبه هو. واخيراً قرر الاب وابنه السير على القدمين ليمشي الحمار بغير راكب، فضحك الناس منهما وقالوا إن لديهما حماراً ولكنهما مع ذلك يسيران. ذاك هو وضعي، كما قال الرئيس الوزان متذمرا؛ لقد نفدت لدي الخيارات ومع ذلك فانني لا أرضي احدا.

وفي ٢ كانون الاول/ديسمبر، قرر رئيس الجمهورية رفض الاستقالة، ولكنه أصر على الرئيس الوزان ان يصرف الاعمال، بينما يواصل هو استشاراته لتشكيل حكومة جديدة.

وفي ١٤ كانون الأول/ديسمبر، اتصل بي السيد رفيق الحريري من الرياض يبلغني ان سعود الفيصل سيكون في دمشق في ١٨ منه، وان الوزير خدام سيدعوني آنذاك لاجراء محادثات معهما بشأن الاتفاق. وقال ان النقاش في هذا الاجتماع سيكون مفتوحاً. انت، كما قال لي، تشرح الخيارات التي عرضتها في واشنطن ثم أضاف، وهو الدائم التفاؤل:

ان الجو سيكون ودياً. علينا ان نواصل التحرك وندعو مجدداً لعقد مؤتمر الحوار الوطني. وتشجع رئيس الجمهورية باتصال الحريري، وشعر بضرورة دعم عملية التفاوض الجديدة بالحصول على الدعم العربي لها. واستناداً إلى ذلك، اتصل بالملك الحسن الثاني وطلب منه ان يجتمع به سريعا، ثم توجه وحده إلى المغرب يوم الخميس في ١٥ منه. وكان الرئيس الجميل يكنّ للملك المغربي مودة شخصية، ويشعر بالارتياح إليه؛ وطالما وجد الأسباب الموجبة للتوقف في الرباط والتباحث مع

الملك بما يجري. كان الحسن الثاني يُعتبر سياسيا مجرباً، ذا تأثير على القضايا السياسية في الشرق العربي. وكنا نتوقع عودة الرئيس إلى بيروت في المساء التالي.

وبعد ظهر يوم الجمعة، تلقيت اتصالا هاتفياً من العقيد سيمون قسيس يسأل فيه عن مكان الرئيس. قال لي سيمون قسيس: إن الرئيس غادر الرباط في الصباح الباكر من ذلك اليوم، لكن الاتصال بطائرته منقطع منذ الساعة التاسعة والنصف صباحا. ولم تكن لديه أيّ فكرة عن المكان الذي يقصده الرئيس. ودخل الدكتور وديع حداد، مستشار الامن القومي للرئيس، إلى مكتبي وهو في حالة اضطراب شديد. كان قد سمع من الاذاعة الاسرائيلية للتوّ أن طائرة الرئيس حطت في طرابلس، بليبيا. ولما كنا قد قطعنا العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا، آنذاك، فقد تساءل الدكتور وديع حداد: هل أجبرت الطائرة على الهبوط؟. وعلى الفور اتصلت برئيس الوزراء ورئيس المجلس النيابي، وزوجة الرئيس، والملك الحسن الثاني، بهذا الترتيب. وغضب الرئيس الوزان، وراح يصرخ على الهاتف قائلا: «أنتما، أقنعتماني، أنت وهو واقنعتما مجلس الوزراء بوجوب قطع العلاقات مع القذافي، لأنه هاجم الرئيس بقسوة، وها انت الآن تبلغني ان الرئيس هناك الآن يشرب القهوة مع القائد الليبي. ماذا اقول للشعب؟ ماذا اقول للشيعة الذين يعتقدون ان الامام (موسى الصدر) اختفى في ليبيا؟» استمعت اليه مقدرا موقفه: وقلت ان كل ما اعرفه: انه كان في الرباط. لم يقل لي قط انه سيذهب الى ليبيا. حسنا، رد الرئيس الوزان؛ إتصل بكامل الاسعد (الرئيس الشيعي للمجلس النيابي) واسمع كلاماً منه اقسى من كلامي. وكان تكهن الرئيس الوزان صحيحا بالنسبة للرئيس الأسعد. ثم كلمت الملك الحسن الثاني واكّد لي ان الرئيس في حال سليمة. لقد رتب الاجتماع بين الرئيس القذافي بنفسه. ولضمان سلامته، أرسل مستشاره الشخصي احمد بن سوده برفقته. وبعد ساعة اتصل بي الملك ليقول ان الرئيس والقذافي مجتمعان منذ خمس ساعات، وان الرئيس سيتوجه بعد ذلك إلى باريس. وسيصل إلى بيروت غدا.

كنا جميعا، أنا والرئيس الوزان، والرئيس الاسعد، وسيمون قسيس، ووديع

حداد، في حالة غضب: لأن الرئيس أقدم على هذه الخطوة بدون تشاور مسبق. ولبضع ساعات قليلة، ساد الاعتقاد في العواصم الكبرى في العالم ان رئيس جمهورية لبنان مخطوف. يضاف إلى ذلك ان الاجتماع بالقذافي، بعد ايام قليلة من قطع العلاقات الدبلوماسية بليبيا، لم يكن تصرفاً حكيما. وحين وصل الرئيس إلى بعبدا بادرته بالقول بانني آسف لزيارته إلى ليبيا في الوقت الحاضر، من ناحية: ان وقع الزيارة داخليا وقع سلبي، لاسيما بين الشيعة الذين يتهمون الليبيين بانهم خطفوا الامام موسى الصدر، أو قتلوه، أو أخفوه. ومن ناحية ثانية: أثار الرئيس مشكلة دولية لغيابه المجهول يوما كاملا. وقلت له بانني كنت محرجا كوزير للخارجية عندما اتصلت بالملك الحسن الثاني لاعرف منه عن تحركات رئيس جمهوريتي.

ولكن الرئيس الذي كان يحب المفاجآت، وأشدها أحبها إليه، لم يشعر قط بانه ارتكب هفوة سياسية. العكس هو الصحيح: لقد شعر انه حقق اختراقا رئيسياً للمعسكر الراديكالي. كانت صرعة ولكنها مفيدة برأيه. كان في اعتقاده انه ترك بعض الاثر علىَ القذافي. وأمل ان ذلك سيقنع الزعيم الليبي بوقف تمويل المعارضة داخل لبنان. ثم رحنا، أنا ورئيس الجمهورية، ورئيس الوزارة، والرئيس الأسعد، نسعى لايجاد صيغة نقدمها إلى المجلس النيابي نفسر بها هذه الزيارة. وقررنا ان نفسرّها في نطاق مؤتمر جنيف. وبما انه كان لليبيا مقاتلون في لبنان، فقد قلنا ان الرئيس الجميل زار طرابلس للبحث مع القذافي في سحب هؤلاء المقاتلين الليبيين من لبنان. والواقع ان الرئيس أثار هذا الموضوع في لقاء طرابلس، فرد عليه القذافي متسائلاً: «الا يزال لدي ليبيون هناك؟ لقد أرسلت بعض المدربين لمساعدة الميليشيات الوطنية: الا يزالون هناك؟ جماعتي لا يقولون لي أي شيء. انهم يبقونني في الظلام في امور كثيرة. وبالمناسبة: اقرأ كتابي الأخضر؛ انه افضل مقالة سياسية في هذا العصر. اقرأه وطبق تعاليمه. فهو يحل كل مشاكل لبنان».

وفي المجلس النيابي قلت للمستمعين المحنكين بأن زيارة الرئيس إلى ليبيا كانت ناجحة. وكان ألطف جواب سمعته: «هل عاد معه الامام؟»

وفي محادثاتي مع الامير سعود الفيصل والوزير خدام في دمشق، في اليوم التالي، أرسل الوزير خدام أول اشارة أو ربما شبه اشارة بانه يمكن قبول تعديل الاتفاق. وموقفه: أن سوريا تنسحب من لبنان على الفور اذا ما حذفت اشياء معينة من الاتفاق. في رأي خدام أنَّ مقدمة الاتفاق تشكل اعترافاً باسرائيل لأنها تعلن انهاء حالة الحرب بين اسرائيل ولبنان. واضاف: هنالك كذلك مكاسب قدمت لاسرائيل في كل بند تقريبا. القيود المفروضة على لبنان باسم الترتيبات الأمنية غير مقبولة؛ وجود فرق الرقابة المشتركة، ولو لمدة محدودة، غير مقبول؛ وبعد ان انتهى من عرض ما سماه تعديلاته، قلت له يا عبد الحليم انك تقترح الالغاء. اجاب الوزير خدام: نعم. ثم قال: لنواجه الحقيقة. هذا الاتفاق رديء، ويجب ان يلغى. اقترحت ان نقوم نحن الثلاثة بمراجعة الاتفاق ونقترح تعديل البنود التي تعتبرها سوريا فعلا مهمة، والتي، برأيها، قد تؤثر على موقعها الاستراتيجي، ومن ثم نطلب من رمسفيلد ان يناقش التعديلات المقترحة مع الاسرائيليين. اما الوزير خدام، فاقترح أن يدعى مؤتمر الحوار الوطني للاجتماع مجدَّداً، وأن يحدد الخطوات التي بموجبها ينبغي ان تنسحب اسرائيل من لبنان في اطار وحدة لبنان واستقلاله وسيادته، والتزامه نحو العالم العربي. عندها قلت له: يا صديقي انت أدرى من غيرك بما يحدث عندما تبحث مجموعة كبيرة مثل هذا الموضوع ـ لا يحدث شيء سوى الفوضى والبلبلة.

المؤتمر لن يستطيع التوصل إلى حل. وهكذا رفضت اقتراحه كما رفض هو اقتراحي. لقد كان الوزير خدام يريد الالغاء. وكان يريده صادرا عن اجماع. كان يلمح إلى التعديل، ولكنه يعني الالغاء. الا اننا اتفقنا على كل حال ان نواصل المباحثات في هذا الامر، ودعانا الامير سعود لعقد الاجتماع المقبل في الرياض في ٨ كانون الثاني/يناير، ١٩٨٤.

وبينما كنت انقل لرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وقائع اجتماع دمشق، تلقيت من الامين العام لوزارة الخارجية، السفير فؤاد الترك، اتصالا هاتفيا، قال فيه ان الرئيس ريغن اعلن للتو أن «المارينز» باقون في لبنان حتى يستعيد لبنان قوته أو

ينهار. وفؤاد الترك سفير حكيم، ودقيق جدا. فسألته ثانية: هل أنت متأكد بانه قال «أو ينهار؟» فأكد لي ثانية صحة هذه العبارة على لسان ريغن. الواقع ان الاشارة إلى الانهيار بالغة الأهمية. فاتصلت بالسفير بارثولوميو طالبا تفسيراً للعبارة. فوعد ان يستشير واشنطن ويبلغني. وكانت ردوده على تساؤلاتي المتكررة بشأن هذه العبارة غير مرضية، مما يؤكد بان ريغن قد استعملها، وبان تصميم ريغن الذي كنا نسمعه منه بالذات، ومن شولتز، ووينبرغر ومكفارلين، ورمسفيلد، كان بالفعل محدودا ومرحليا. فالموقف الاميركي الحاضر يعبر عنه السفير بارثولوميو كما يلي: اذا لم يعد مؤتمر الحوار الوطني إلى الانعقاد ويتوصل إلى نتيجة مرضية، واذا لم تتشكل حكومة وحدة وطنية تحظى بالاجماع، فان الولايات المتحدة ستسحب فرقتها من القوة المتعددة الجنسيات.

كذلك كان الفرنسيون يتحدثون عن إعادة انتشار فرقتهم في القوة المتعددة الجنسيات على ظهر سفن حربية، مقابل الساحل. ثم قال لنا الفرنسيون، وبشكل سري، بان الولايات المتحدة قررت فعلا سحب قوتها من لبنان. اما الايطاليون، فكانوا يخفضون عدد فرقتهم. وانكر السفير الايطالي فرانك اوتييري ان يكون للتخفيض اي مغزى سياسي. قال إن عدد الفرقة الايطالية كبير لأن الايطاليين يركضون وراء الاجور العالية، والخدمة في بلد هو في حالة حرب تؤمن لهم هذه الاجور، ولذلك تضخم عدد الفرقة ووجب الحد منه.

وكان الوضع الأمني في بيروت يتدهور يوما بعد يوم؛ واخذت ميليشيات المعارضة تتحدى الجيش في العاصمة. كذلك كان الاجانب يتعرضون للتهديد. وبدا ان الشرعية تتقهقر والمعارضة تقوى. وكان علينا، أنا والوزير سعود الفيصل، والوزير خدام، ان نجتمع مرة اخرى لايجاد مخرج مرضٍ لجميع الاطراف. كذلك كنا حريصين على دعوة مؤتمر الحوار الوطني للاجتماع مجدداً. ولكن الاجتماع يجب ان ينعقد على اساس اتفاق مسبق.

وكنت على اتصال يومي بسفيرنا في بيرن، العقيد جوني عبده، نتكلم عن موعد المؤتمر القادم ومكانه. نظرنا في جنيف أو مونترو، ثم قررنا نهائيا ان يكون في

لوزان، على ان يحدد الموعد بعد اجتماعي بالوزير خدام والوزير سعود الفيصل في الرياض.

وصلت إلى الرياض يوم السبت ٨ كانون الثاني/يناير واستقبلني سعود الفيصل وسفيرنا الدكتور ظافر الحسن. وانتظرنا، أنا وسعود الفيصل، في المطار إلى ان وصل الوزير خدام، حتى اذا وصل صعدنا جميعا في سيارة سعود الفيصل التي كان يقودها بنفسه وبدون حراسة. وما ان بدأنا نتحرك حتى اخذ الوزير خدام بمهاجمة الجيش اللبناني، واصفا اياه بالميليشيا، متهما اياه بترقية سعد حداد، وزرع السيارات المفخخة في وادي البقاع ضد الجيش السوري.

ولما وصلنا إلى قصر المؤتمرات، كان واضحا ان الجو ملبد. قلت لسعود بصورة خاصة انني على استعداد للعودة إلى بيروت على الفور دون ان ازيد الوضع تعقيداً. ولكنه الح علي بالبقاء، وقال ان الملك فهد سيجتمع بالوزير خدام بعد ظهر ذلك اليوم. بعد ذلك نعقد نحن الثلاثة، اجتماعا في منزله، وفي جو عائلي. وقد أمل ان يوفر دفء منزله العائلي نجاح الاجتماع.

اجتمعنا في منزل الامير سعود الفيصل الساعة السادسة مساء. وكان برفقتي سفيرنا في الرياض ومعاوني في وزارة الشؤون الخارجية السيد اليزا علم. وكان لكل من الوزير خدام والامير سعود فيصل معاونوه. كذلك حضر الاجتماع السيد رفيق الحريري. والمنزل متواضع حسب المقاييس السعودية. وهو بالفعل بيت عائلي مليء بالأطفال الذين كانوا يدخلون غرفة الاجتماع ويخرجون مترفعين فوق الغيوم الملبدة والسوداء التي كانت تسيطر على تلك الغرفة. محادثات الوزير خدام مع الملك فهد لم تلين موقفه. وقد بدا اجتماعنا ملبداً كما كان في السيارة ولم يعرب عن أي اهتمام بالنقاط التي بحثناها في دمشق. واصر على وجوب انسحاب اسرائيل من لبنان بدون قيد او شرط، وعلى وجوب الغاء الاتفاق، وتشكيل حكومة وحدة وطنية يرئسها رئيس من المعارضة ويكون نصف أعضائها من المعارضة أيضا.

واخيرا، قلت لسعود باللغة الانكليزية، وانا يائس: لا فائدة من الاستمرار في هذه الاجواء. هذه مضيعة للوقت. اذا ما بقينا على هذا المنوال، سنزيد الوضع سوءاً.

لماذا هذه الخطابات؟ فلندخل نحن الثلاثة وحدنا إلى غرفة خاصة ونتحدث بصوت هادئ دون محاضر ودون خطابات. أريد نتائج، لا مواقف.

ولكن الوزير خدام الذي يفضل ان يعرف عنه انه لا يتكلم الانكليزية صرخ: لماذا تقول ان هذا غير مجد؟

لماذا نذهب إلى غرفة اخرى؟ انا باقٍ هنا. فقلت لسعود انني متعب، وانني أريد العودة إلى الفندق لأنام. وعندها صرخ الوزير خدام: وأنا تعبان اكثر منك. ثم غادر الاجتماع.

عند ذاك دخلنا، أنا وسعود، والحريري، مكتب سعود ورحنا نراجع ما جرى، متسائلين: لماذا كان الوزير خدام عنيفا إلى هذا الحد. وكانت لكل منا نظريته في تفسير حالات «أبو جمال».

واقترح سعود على الحريري ان يدعوني والوزير خدام، في وقت باكر من صباح اليوم التالي، لتناول طعام الافطار، لتغيير الجو السيّئ الذي سيطر على اجتماعات اليوم. وحين التقينا، أنا والحريري بخدام في وقت باكر من صباح الاحد، وجدناه مرتاحاً للغاية، ودياً كعادته، مضيافا من الطراز العربي الأول. وبدلا من تناول طعام الافطار في بيت الحريري، أصر الوزير خدام على ان نتناول الطعام في جناحه. وفعلنا ذلك. قال لنا بكلمات هادئة، ورزينة بان القيادة السوريا قيّمت الالتزام الاميركي نحو لبنان فوجدته ناقصا. نَفَس الاميركيين، كما قال، قصير. واميركا ستترك لبنان عن قريب.

ان سوريا لن تسهل الامر للولايات المتحدة في لبنان؛ وهي تريد ان تثبت ان الاميركيين فشلوا هناك. وقال خدام: ان سنة ١٩٨٤ هي، في أي حال، سنة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، وذلك سيجمد السياسة الاميركية في لبنان. وقال ان الولايات المتحدة تحاول ان تعمل مع الاردنيين والفلسطينيين لوضع حل للقضية الفلسطينية. انها تسعى لعزل سوريا بتقوية مصر، والاردن، وياسر عرفات. غير ان سوريا تعرف كيف تتعامل مع الاميركيين في لبنان، او الاردن، او بالنسبة للقضية الفلسطينية. ان سوريا تعرف كيف تحمي نفسها وكيف تفشل

التحركات الاميركية. سوريا على استعداد لمساعدة لبنان بامنه الداخلي واقتصاده. الاتفاق يجب ان يلغى لا ان يعدل، وبعد ذلك فقط تشكل حكومة وحدة وطنية. ان سوريا ليست متحمسة لعقد مؤتمر الحوار القادم. واذا اراده حلفاؤها اللبنانيون، فليكن لهم ذلك، لكنه يشك في مسألة حضوره هو بنفسه. تلك مسألة نبحثها معا، أنا وهو، أثناء القمة الاسلامية في الدار البيضاء في الاسبوع التالي.

وبعد الفطور، اجتمعنا، أنا وفيصل، بالملك فهد، بحضور ولي العهد الامير عبد الله، وعلي الشاعر. وكان الملك قد اطلع تمام الاطلاع على الاجتماع الصعب الذي عقد مساء اليوم السابق، وأكد لي دعمه المستمر في ايجاد المخرج من هذا المأزق. كذلك عبّر عن ثقته بقدرة رمسفيلد على وجود مخرج من المأزق. وكان الملك مهتما بتحقيق وقف اطلاق النار في لبنان وإعطاء اللبناني، في ذلك الوقت، قسطا من الراحة من اصوات المدافع والرشاشات وكان السيد رفيق الحريري قد كلف التوصل إلى وقف اطلاق النار. ثم نصحني الملك بالصبر وقال لي انه ورث الصبر عن والده عبد العزيز، مؤسس المملكة العربية السعودية. قال لي ان على الحاكم ان يكون صبورا وحكيما. وانه يعتقد ان الرئيس الاسد صبور وحكيم في الوقت ذاته. واعرب عن امله بان يستعيد الرئيس الاسد عافيته في الاسبوع التالي، لانه يريد ان يبعث بولي العهد الامير عبد الله إلى دمشق، ليناقش الوضع اللبناني معه.

كان واضحا ان الاوراق كلها تقريبا بيد سوريا. وبغياب الرئيس الاسد في مرحلة النقاهة، اثبت الوزير خدام قدرته على التحدث بثقة، وتغيير اساليبه وفق ما يراه مناسبا. ثم انه لم يضعف قط بفعل الصراع القصير على السلطة في دمشق، أثناء مرض الرئيس الاسد. وجاء ولاؤه للرئيس الاسد يؤْتي ثماره. إنه كان الصوت الموثوق للرئيس الاسد.

وكان الملك فهد ورمسفيلد يسعيان للتوصل إلى حل لأن انعدام الحل يشل الحكومة ويشعل ساحة القتال ويزيد في عملية القتل والدمار. مسكين المسؤول عندما لا تكون مقاليد السلطة في يده، وهنيئا للباحث الذي يدرس ويعلق وينتقد. حكومتنا كانت فعلا محطمة. الوزراء المسلمون يحافظون على مسافة بعيدة من

الرئيس الذي يزداد ضعفا، يوما بعد يوم، ثم ان اولئك الذين كانوا، حتى وقت قصير يتغنون بحسنات الاتفاق وإنجازاته، اخذوا يشجبونه وينعتونه بأسفل الالقاب. وكان الاميريكيون يتكلمون عن مبادىء عامة لا علاقة لها بما يحدث على الارض. ثم ان الدول العربية المعتدلة، التي كانت تدعمنا جهرا اصبحت تتجنب، بقدر الامكان، البحث في قضيتنا.

واذا كنت قد عجزت، في الرياض، عن التوصل الى تفاهم مع الوزير خدام، فقد احسست أن الفرصة لتحقيق هذا التفاهم في القمة الاسلامية بالدار البيضاء لن تكون احسن. وكان وفدنا الرسمي الى القمة برئاسة رئيس الوزراء الوزان، وطلب إليّ ان انضم اليه لنعرض معا جبهة موحدة. ووصلنا الى الدار البيضاء يوم الاحد، ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٨٤. وكان المؤتمر، لمثلي، بمثابة مناسبة لمواصلة المباحثات مع الامير سعود الفيصل والوزير خدام. وفي ذلك الجو كان جدول اعمال القمة قليل الاهمية للبنان. ولان القمة الاسلامية كانت منظمة فوق القوميات، فقد كانت تلفت انظار المنظمات الاقليمية والامم المتحدة. وحضر الشاذلي القليبي وخافيير بيريز دي كويلار قمة الدار البيضاء، والقيا خطابين، واجريا محادثات جانبية. وقالا اشياء جميلة عن لبنان، واعربا عن اسفهما للمأزق الذي نحن فيه، وحثا على المزيد من التعاون. كلام جميل لا ترجمة سياسية له. وعقدنا، نحن الثلاثة، انا وسعود الفيصل وخدام، اجتماعين. ولم نتوصل فيهما الى نتيجة. ولم يكن الوزير خدام مستعدا للتكلم عن الاتفاق ولم يكن مستعدا لمساعدة رمسفيلد للتوصل الى حل، واي حل على يده يعزز دور الولايات المتحدة في لبنان والشرق الاوسط. كان يريد ان يؤجل كل شيء الا التوصل الى وقف اطلاق النار حتى يخفف معاناة الشعب اللبناني.

وفي الدار البيضاء، كان لنا، انا والرئيس الوزان، متسع كبير من الوقت للبحث في مصير الاتفاق. وبسرعة راح كل منا يتجه نحو الالغاء. وبدا واضحا لنا ان الخيار هو الالغاء او الحرب. ومع تزايد اتضاح هذين الخيارين لنا، بدأت اطالب بإلحاح بإلغاء الاتفاق.

وعند عودتي أعربت للرئيس عن قناعتي بوجوب الغاء الاتفاق. ووافقني الرئيس على ذلك لكنه اراد من الاميركيين ضمانات ضد اي عمل عدائي من اسرائيل. اما بارثولوميو، فكان يعمل لكسب الوقت. وراح يؤكد تكراراً التزام ريغن بلبنان والتوصل الى حل بواسطة رمسفيلد. وقال ان ريغن ليس ذلك السياسي الذي يغير رايه بسبب التغير في الراي العام. وطالب بارثولوميو بمهلة ثلاثة أشهر بحيث يتسنى لرمسفيلد ان يجري مفاوضات بشان البدائل. ولكني في تلك المرحلة العصيبة، كنت أشكّ في امكانية الرئيس الجميل ان يبقى شهرين او ثلاثة اشهر في وجه المعارضة المتنامية.

الحزب الاشتراكي يتلقى السلاح والمال من ليبيا والاتحاد السوفياتي: و«امل» وجبهة الانقاذ الوطني تتمتعان بدعم عسكري قوي من سوريا: وبيروت في حالة فوضى واضطراب. وساد الشعور في الحكومة ان المعارضة ستحاول قريبا الاستيلاء على القسم الغربي من العاصمة. وفي الثاني من شباط / فبراير، ابلغني السفير الفرنسي ان الحزب الشيوعي اللبناني قسم بيروت الى مناطق، وعين افراداً من الحزب مسؤولين عن هذه الاقسام للاستيلاء عليها عندما يطلب منهم ذلك. وفي الثالث منه استقال الوزراء المسلمون من الحكومة بضغطٍ من اوساطهم. كل واحد منهم اتصل بالرئيس سرا يعتذر عن خطوته هذه شارحاً التهديدات والمخاطر التي تواجهه ان هو بقي في الحكومة. حتى الرئيس الوزان، وهو المعروف بشجاعته، لم يعد يستطيع ان يقاوم الضغط عليه. واتصل بالرئيس وقرأ له كتاب الاستقالة، ثم تقدم به خطياً يوم الاربعاء في الرابع منه.

وفي هذه الاثناء كان القتال بين الجيش اللبناني وميليشيا حركة «امل» في ضواحي بيروت الجنوبية يتزايد كثافة. وفي الخامس من شباط/فبراير طالب نبيه بري، قائد حركة «امل»، باستقالة الرئيس. وفي اليوم التالي جرى الاستيلاء على بيروت الغربية. وخلال ساعات سيطرت قوات الميليشيا المعارضة (حركة «امل»، والحزب القومي الاجتماعي، والحزب التقدمي الاشتراكي، والحزب الشيوعي) على العاصمة، فيما قام اللواء السادس في الجيش اللبناني، المسؤول عن امن العاصمة،

وهو شيعي في غالبيته، والمناصر لحركة «امل»، بإعلان انضمامه الى المعارضة. وعبثاً حاول رئيس الجمهورية تشكيل حكومة جديدة. ولكن لم يرض اي زعيم سني ان يترأسها، ولم يرض اي مسلم ان يشترك فيها. وكانت سوريا لا تزال تصر على الغاء اتفاق ١٧ أيار قبل تشكيل أي حكومة جديدة، او دعوة مؤتمر الحوار الوطني الى الاجتماع. وبسقوط بيروت بيد المعارضة، اصبحت القوة المتعددة الجنسيات اكثر تعرضا من ذي قبل، للهجمات عليها، واشتد الضغط لسحب هذه القوة من العاصمة. وفي الثامن من شباط/فبراير، اثناء ذهابي بسيارتي باتجاه الشمال الى جونية، التقيت الفرقة البريطانية الصغيرة في القوة المتعددة الجنسيات تتجه نحو الشمال فتوقفت، وطلبت العقيد المسؤول، وسألته عما يجري، فرد بان رجاله لا يغادرون البلاد، لكنهم تلقوا الاوامر بالتوجه الى بارجة حربية بريطانية في اطار عملية اعادة انتشار. عند ذاك اتصلت بالسفير البريطاني، فابلغني ان امرا عسكريا صدر يقضي بوجوب ابعاد القوات البريطانية عن الاجواء الفوضوية والخطيرة، التي خيمت على بيروت.

وفي هذه الاثناء استدعى الوزير خدام ثلاثة زعماء سنيين من بيروت الى دمشق، وهم تقي الدين الصلح، ورشيد الصلح، وسليم الحص، وجميعهم رؤساء وزراء سابقون، في محاولة لجمع الدعم لمقاومة الاتفاق، ولتشكيل حكومة وحدة وطنية. ولدى عودتهم، التقيت على الفور الدكتور سليم الحص، فنصح بالغاء الاتفاق فورا، وتحقيق تغيير جذري في اسلوب الحكم المتبع من قبل الرئيس الجميل. ونقلت نصيحته الى الرئيس.

صيغة النقاط الثماني

ونصح غسان تويني الرئيس بتشكيل حكومة انتقالية. مؤقتة، برئاسة السفير اللبناني السابق، نديم دمشقية. على ان تكون مهمتها الاعداد لمؤتمر الحوار الوطني الثاني الذي سيحدد بدوره المسار السياسي في المستقبل. ووافق نديم دمشقية من حيث المبدأ، على ان يكون اعضاء حكومته مقبولين من قبل دمشق. وغادر لندن، حيث كان يقيم، الى قبرص بانتظار اتصال هاتفي من غسان تويني.

واتصلت بسعود الفيصل ورفيق الحريري، وابلغتهما بالعواقب الخطيرة التي تترتب على استيلاء قادة الميليشيا على بيروت. وحثني سعود الفيصل على ان اذهب الى الرياض، وبعث الحريري بطائرته لانتظاري في لارنكا، في قبرص. وفي وقت متأخر من مساء الثامن من شباط/فبراير، اجتمعنا نحن الثلاثة، انا وسعود والحريري، ودرسنا خياراتنا كلها. وخرجنا من هذا اللقاء بصيغة من ثماني نقاط هي:

١ـ تنفيذ الخطة الامنية؛

٢ـ الغاء اتفاق ١٧ أيار؛

٣ـ وضع ترتيبات أمنية في الجنوب تنسحب اسرائيل بموجبها انسحابا كاملا من لبنان؛

٤ـ ادخال اصلاحات سياسية؛

٥ـ التوصل الى اتفاقية مع سوريا بخصوص انسحاب قواتها من لبنان؛

٦ـ اعتماد مبدأ الانسحاب المتزامن لجميع القوات غير اللبنانية من لبنان في فترة لا تتجاوز ثلاثة اشهر، بعد التوصل الى اتفاقية انسحاب اسرائيل من جنوبي لبنان؛

٧ـ تعتبر هذه الصيغة صفقة متكاملة، وتتعهد سوريا بتنفيذ البنود التي تتعلق بها، والمساعدة بتنفيذ البنود الاخرى. وتتعهد المملكة العربية السعودية بالمساعدة في تنفيذ كل هذه البنود.

٨ ـ تشكيل حكومة وحدة وطنية لتنفيذ النقاط الثماني.

كانت صياغة النقاط الثماني على الورق أمراً سهلاً، ولكن هذه النقاط تتعلق باطراف متعددة، لكل منها نظرته الخاصة واولوياته. ولم يكن رمسفيلد متحمساً لاتفاق لا يد له فيه، وابلغنا انه لن يساعدنا مع الاسرائيلين في الشأن الذي يتعلق بهم.

وعلى الارض، كانت جداول الاعمال المتناقضة تدفع باللبنانيين الى المزيد من التباعد. وبينما كان الاستاذ نبيه بري يشدد قبضته على القسم الغربي من بيروت، كان السيد وليد جنبلاط يتوسع باتجاه البحر. وفي تلك اللحظة الحرجة، بعثت اسرائيل برسالة الى رئيس الجمهورية، بواسطة احد اصدقائه اللبنانيين، تقول فيها انه اذا ما اجتمع الرئيس علنا الى وزير الدفاع الاسرائيلي موشيه آرنز وطلب مساعدته، فان اسرائيل تضمن له سيطرة الشرعية اللبنانية على منطقة محددة يتفق عليها بين الجميل وآرنز. وطبعا رفض الرئيس الاقتراح على الفور. مثل هذا الاقتراح يعني التقسيم في افضل حالاته، وهو يمثل انعكاسا كاملا لسياسة الحكومة الهادفة الى اخراج اسرائيل وبسط سلطة الدولة على جميع الاراضي اللبنانية.

وفي العاشر منه، اعلنت واشنطن انها ستسحب قوات «المارينز» من بيروت خلال ثلاثين يوما. كان هذا القرار مناقضا للوعود التي قطعها لنا رمسفيلد وبارثولوميو، وكان كلاهما محرجا لهذا التغير في سياسة واشنطن.

والحت على رئيس الجمهورية ان يقبل صيغة النقاط الثماني. وفي الوقت نفسه اجتمع الحريري بمفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، وبنائب رئيس المجلس الشيعي الاعلى، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وبالاستاذ نبيه بري، وبقادة السنة في بيروت داعيا اياهم لدعم صيغة النقاط الثماني. ولم يكن المسلمون معارضين لها؛ ووعد رمسفيلد وبارثولوميو باستشارة شولتز في هذا الشأن، فيما يقوم الرئيس الجميل بالشيء نفسه بالنسبة للجبهة اللبنانية.

وقبل توجيه الرئيس رسالة الى الملك فهد يبلغه فيها قبوله بصيغة النقاط الثماني، اراد ان يحصل على تاكيدات من الولايات المتحدة بان قبوله بهذه الصيغة لن يشجع اسرائيل على اتخاذ خطوات انتقامية ضد لبنان. الا ان رمسفيلد وبارثولوميو لم يكونا على استعداد لاعطاء هذه التأكيدات. وبدلا من ذلك، راحا يقولان لنا، تكراراً، ان الغاء الاتفاق قرار لبناني، وان لبنان وحده يتحمل مسؤولية هذا القرار.

وقلت للاميركيين: اذا كانت سياستهم دعم لبنان، فانهم يستطيعون أن يروا بانفسهم انه، بدون الغاء الاتفاق، لا يمكن استعادة الاجماع الوطني وانهاء القتال.

وتشاور بارثولوميو مع رؤسائه في واشنطن مرارا عديدة، واخيرا جاءنا بالرد التالي: «اننا ندرك الاسباب التي أدت بكم الى قبول النقاط الثماني. انه يهمكم كما يهمنا ان تبقى المملكة العربية السعودية مهتمة بكم. ونحن نتفهم وضعكم ونستمر في دعمكم».

وارتضينا بالرد، وتسلحنا به. والتقيت الرئيس كميل شمعون، واقنعته بتاييد الصيغة. وبعد اقناعه قضيت الساعات الطوال لاقناع الشيخ بيار الجميل الذي اعرب اخيرا عن موافقته، لكنه الح على تكليف من له علاقة باسرائيل أن يبلغها سلفا. وكان لا بد من معركة اخرى للتأكد من انه لن يجعل من ذلك شرطا لقبول الصيغة. لقد كان رئيس الكتائب يتخوف من الغاء الاتفاق ومن ردة الفعل الاسرائيلية.

واعد الرئيس رسالة الى الملك فهد يعلن فيها قبوله بصيغة النقاط الثماني. وسلمت الرسالة باليد الى سعود الفيصل نهار الخميس ١٦ شباط/فبراير. عند ذاك اتصل سعود بالوزير خدام وقال له: ان لدي اقتراحا نعتقد انه يسهم في حل الازمة. واصغى الوزير خدام لسعود وهو يقرأ صيغة النقاط الثماني، ثم طلب وقتا للتفكير. ثم اتصل بعد مرور أربع ساعات ودعا سعود الفيصل والحريري الى دمشق في اليوم التالي.

ويوم الاحد ١٩ منه، اتصل بي الحريري ليقول ان السوريين موافقون على صيغة النقاط الثماني. على انهم اشترطوا شطب النقطتين، الخامسة والسادسة اللتين تتناولان الانسحاب السوري. ان سوريا لا تريد ان يشار اليها البتة في اي ترتيب يتناول اسرائيل. قال الحريري تكراراً: واذا ما شطبت هاتان النقطتان، فان الرئيس الاسد يدعم جهود الرئيس الجميل لاعادة عقد المؤتمر وتشكيل حكومة الوحدة الوطنية.

وبينما كنا نجري المفاوضات بشأن صيغة النقاط الثماني، كان القتال مستمرا بحدّة على جبهات سوق الغرب، وبكفيا وكفرشيما. وتحولت هذه البلدات الى جزء من عملية التفاوض. وكان رجال استخباراتنا يقولون لنا ان الجيش قد ينهار في أي لحظة. الضباط السنيون الذين خافوا على عائلاتهم في المناطق الخاضعة لسيطرة

المعارضة، كانوا يغادرون الجبهات جماعات جماعات. ولما كان الضباط الشيعة والدروز قد سبق لهم ان غادروا ايضاً، فقد برز الخوف بان لا يبقى في الجيش غير ضباط مسيحيين. وهذا مخل بتركيبة الجيش ومصداقيته. لا بد من ايجاد حل سياسي لهذه المشكلة، وبسرعة.

وواصل الحريري اتصالاته بانتظام لمعرفة مصير صيغة النقاط الثماني. طلبت منه ان يأتي الى بيروت بحيث نعمل معا لتعديل الصيغة بشكل يؤمن تنفيذها. ووصل في ٢٠ منه، حاملا رسالة من سعود الفيصل تقول: ان الحريري مخول مناقشة النقاط التالية معنا:

انعقاد مؤتمر الحوار الوطني مجددا؛

التزام مسبق من الرئيس الجميل للملك فهد بانه يلغي الاتفاق اثناء مؤتمر الحوار الوطني؛

تشكيل حكومة وحدة وطنية؛

اعتماد اصلاحات سياسية.

وهكذا حلت الرياض محل واشنطن في رعاية حل للازمة اللبنانية. الآن باتت المبادرات تنطلق من الرياض، فيما يأتي تصرف واشنطن بمثابة رد على ذلك وقبلنا برسالة سعود قبل التشاور مع احد. وقام ولي العهد عبد الله وبندر بن سلطان بنقل قبولنا للاسد.

وفي ٢٢ منه عاد الحريري الى بيروت، حاملا الاقتراح السوري الذي اطلقه الرئيس الاسد على شكل تعهد لولي العهد الامير عبد الله: «يقوم الرئيس الجميل باعطاء الحريري بيانا خطيا غير موقع، يذكر فيه انه يريد اتخاذ خطوات دستورية لالغاء الاتفاق، فور عودته من زيارة رسمية لسوريا.

ولدى تسلّم هذا البيان يوجه الرئيس الاسد دعوة للرئيس الجميل لزيارة دمشق. وبعد الغاء الاتفاق، يقدم الرئيس الاسد العون للرئيس الجميل لتشكيل حكومة وحدة وطنية والاسراع في عقد مؤتمر الحوار الوطني».

وفي الثالث والعشرين منه، استدعى الرئيس الجميل الرئيس كميل شمعون، والشيخ بيار للحصول منهما على دعم قرار كان قد اتخذه وهو قرار الغاء الاتفاق. ووافقا على ذلك لكنهما أرادا تاكيدات من الولايات المتحدة بان لبنان لن يتعرض نتيجة ذلك للخطر. وفي هذه الاثناء كنا، أنا والحريري، نعمل في مكتب جانبي لاعداد نص الرسالة غير الموقعة التي سيوجهها الرئيس الى الرئيس الاسد. وعندما انتهينا، استدعيت السفير بارثولوميو الى القصر الجمهوري وابلغته بحضور الرئيس الجميل اننا اتخذنا القرارات التالية:

اننا سنلغي الاتفاق؛ اننا سنبعث الى الرئيس الاسد رسالة غير موقعة بهذا الخصوص، وحصلنا، بموجب ذلك، على تعهد من الرئيس الاسد بمساعدتنا في تشكيل حكومة وحدة وطنية، ودعوة مؤتمر الحوار الوطني للانعقاد مجددا لاكمال العمل الذي بوشر في جنيف. وسيشمل جدول اعمال المؤتمر: الاصلاحات، انسحاب القوات الاسرائيلية، انسحاب جميع القوات المسلحة غير اللبنانية من لبنان. ثم تابعت القول اننا اتخذنا هذا القرار بعد اخذ كافة الخيارات الاخرى بعين الاعتبار. لقد قمنا بذلك لمصلحة لبنان، ونحن الآن بصدد طلب الدعم الاميركي لقراراتنا.

ورد بارثولوميو بان ذلك قرار لبناني، وأن علينا بالتالي ان نتحمل مسؤولية هذا القرار. ان الولايات المتحدة ستواصل دعم حكومة لبنان. وهنا أصر الرئيس على ان يسمع من بارثولوميو تصريحا يفيد ان الولايات المتحدة تفهمت القرار اللبناني لالغاء الاتفاق، فرد بارثولوميو بانه لا يستطيع ان يفعل ذلك قبل استشارة واشنطن. وفي اليوم التالي، قال لنا انه استشار واشنطن وأن «واشنطن تتفهم قرار لبنان بالغاء الاتفاق، وان الولايات المتحدة ستواصل دعم حكومة لبنان من اجل ضمان استقلال لبنان ووحدته وسلامة اراضيه».

ذاك هو الموقف الدبلوماسي الذي كنا في حاجة اليه آنذاك. لم يكن يعني الكثير، ولكنه افضل لنا ان نفعل ما فعلناه والى جانبنا دولة عظمى.

واكملنا، أنا والحريري، نص الرسالة التي كان على الرئيس الجميل ان يبعث بها الى الرئيس الاسد. ثم اضاف الرئيس الفقرة التالية الى النص الذي وضعناه: «ان

لبنان يتوقع ان يتلقى من سوريا الدعم اللازم لتعزيز قرار الغاء الاتفاق في وجه الضغوط والاعمال التي يحتمل ان تنجم عن الالغاء».

وفيما كان الرئيس يمسك بالنص، ادركت ان قرار الغاء الاتفاق كان القرار الاصعب بالنسبة له. لقد بذل جهدا شاقا للوصول الى الاتفاق، وها هو الآن يلغيه، ويقفز في المجهول. واذا ما فشل، فان اسرائيل وسوريا قد تبقيان في لبنان، وان البلاد تظل منقسمة. قبول الاتفاق او الغاؤه هو بالنسبة للآخرين موقف سياسي. اما بالنسبة للرئيس فهو قضية انقاذ البلاد او تعريضها للخراب. ادركت ما كان يجول في ذهن الرئيس. ولعله كان يتساءل: اين هي الدولة العظمى التي قدمت له النصح والدعم؟ اين هم قادة جميع بلدان القوة المتعددة الجنسيات، وقد جازفوا بالكثير من اجل نشر قواتهم في لبنان؟ اين هم القادة اللبنانيون الذين أيدوا الاتفاق في الماضي. اين هي تلك الدول «الشقيقة»، و«الاخوات» في تلك المجموعة الضبابية المعروفة باسم جامعة الدول العربية؟ كل هؤلاء ايدوه حين كان قويا، لكنهم غيروا موقفهم حين اصبح ضعيفاً.

وحمل الرئيس النص وكأنه لا يريد ان يفارقه. قلت له: فخامة الرئيس، انكم تتخذون القرار الصحيح؛ وبوسعي ان أؤكد ذلك. انني اعرف الوقائع. القديس اوغسطين عرّف الحرية بانها حتمية قبول المسيح. وحريتكم، كرئيس، هي في حتمية قبول الوقائع، والغاء الاتفاق؛ ارجو فخامتكم ان تسلموني النص.

وقد مددت يدي وسحبت الرسالة من يده، وهو يفكر ويتأمل. وخرجت من مكتبه وسلمتها الى رفيق. عند ذاك خرج الحريري من القصر وهو يفتش عن وسيلة سريعة توصله الى دمشق، فالتقى السيد جان عبيد وذهبا سويا.

في هذه الاثناء اتصل الامير بندر من دمشق لمعرفة القرار الذي اتخذ، فقلت ان الرئيس وافق على توجيه الرسالة الى الرئيس الاسد، وان الحريري سيصل إلى دمشق بعد قليل. وفي صباح اليوم التالي عاد جان عبيد وابلغنا ان السوريين كانوا راضين عن النص. غير انهم يودون ان يعرفوا ماذا يقصد الرئيس بقوله: «ان لبنان يتوقع ان يتلقى من سوريا الدعم اللازم لتعزيز قرار الغاء الاتفاق...» كتبنا لهم أننا

نقصد بذلك اننا في حاجة الى الدعم السوري السياسي لمواجهة المعارضة التي ستنشأ عن اعلان الغاء الاتفاق. كنا نتوقع معارضة من اسرائيل ومن القوى التي تتأثر بها في الداخل والخارج، ومن اولئك الذين يعارضون الاتفاق، والذين يقصفون القصر الجمهوري، ومحيطه، قصفاً مستمراً.

ثم تلقينا انباء سرية تقول ان اسرائيل قد تغتال رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، اذا ما الغينا الاتفاق. كذلك كانت هنالك رسائل اسرائيلية موجهة بواسطة مبعوثين، تهدد وحدة لبنان اذا ما الغينا الاتفاق وتحالفنا مع سوريا. طلبت من بارثولوميو ان يتصل بالاسرائيليين للتثبت من صحة هذه الشائعات، ولابلاغهم ان قرارنا هذا اتخذ لمصلحة لبنان العليا، وانه حائز على «تفهم» الولايات المتحدة. كذلك طلبت منه ان يبلغ المتطرفين في الاوساط المسيحية حقيقة الموقف الاميركي من الالغاء. لقد كان هؤلاء المتطرفون يعتقدون اننا نعمل وحدنا وبان الولايات المتحدة ستشجع اسرائيل على الانتقام من لبنان.

وجاءت المقاومة الداخلية لالغاء الاتفاق من قبل والد الرئيس وعائلته، وحزب الكتائب، والقوات اللبنانية والاوساط المارونية الاكليريكية. واذا كان الشيخ بيار والرئيس شمعون، قد أيّدا سياستنا بتردد، فان استياءهما كان واضحا، وقد عبّرا عنه في كل المناسبات. كانا قلقين حقا بالنسبة لمستقبل لبنان بدون تفهم اسرائيلي ودعم اميركي. ثم ان بعض الاعضاء المؤيدين للاسرائيليين في القوات اللبنانية اتهموني شخصيا بتدبير الغاء الاتفاق.

وتلقيت الرسائل المناسبة منهم. غير ان الاتفاق كان في رأيي ميتا. ان الاجواء التي ادت اليه في سنة ١٩٨٢ واوائل سنة ١٩٨٣ قد تغيرت تغيرا جذريا في شتاء ١٩٨٣. لقد فشلنا في تامين الموافقة السورية عليه. ثم ان اسرائيل تصرفت باستقلال تام عنه، فيما كانت الولايات المتحدة تأمل امكان تنفيذه بعد تعديلات طفيفة. كذلك انهار الاجماع من حول الاتفاق. وبإلغائه كنا في الواقع ندفن جثة هامدة. وعندما ادركت ان الاتفاق اصبح مشكلة بحد ذاته عوضا عن ان يكون وسيلة لحل المشكلة، قدت حملة في القصر الجمهوري لالغائه. وكان جوزيف ابو خليل

معي كليا في هذا الموقف. لم يكن الاتفاق في نظري اتفاقا سيئا وربما قد يسجل التاريخ انه افضل اتفاق وقع بين العرب والاسرائيليين، لاخراج اسرائيل من ارض عربية، كي لا نقول اخراجها من عاصمة ذلك البلد ومن عمقه السياسي والحضاري.

اتفقنا مع السوريين على ان تعقد قمة الاسد/الجميل يوم الاربعاء، ٢٩ شباط/فبراير، وبعد عودة الرئيس من دمشق تعلن حكومة الرئيس الوزان الغاء الاتفاق، ثم ينعقد مؤتمر الحوار الوطني ويتبع ذلك تشكيل حكومة الوحدة الوطنية.

وبذلنا جهدا شاقا للاعداد لقمة الاسد/الجميل. كان الرئيس يتوجه الى دمشق باعتباره الطرف الضعيف. والمتوقع له برغم ذلك ان يخرج من الاجتماع مع الاسد قويا. وبمساعدة من السوريين، كان الرئيس يأمل باستعادة الاجماع الوطني وايقاف القتال، وتشكيل حكومة الوحدة الوطنية. لقد كانت البلاد بلا حكومة فعلية منذ بضعة اشهر.

كان برفقة الرئيس الى دمشق: جان عبيد، واللواء عثمان عثمان، قائد قوات الامن الداخلي، وانا. توجهنا من بعبدا في موكب سيارات، في عمق المنطقة المارونية الى مطار حالات. وبذلك اراد الرئيس ان يظهر انه لا يخشى المتطرفين في الاوساط المارونية، وهم غير مرتاحين لزيارته الى دمشق. وركبنا أنا والرئيس، في سيارتين، متماثلتين، لا تكريما لشخصي بل لتضليل من يريد للرئيس السوء، فان اخطأوه اصابوني.

وعند وصولنا الى مطار المزة بدمشق، كان الرئيس الاسد يتصدر المستقبلين، ومنهم أعضاء الحكومة السورية واعضاء الهيئة الدبلوماسية العربية. وكان يبدو شاحبا، ولكنه بدا نشيطا ومرحا كالمعتاد. واستقبل الرئيس الجميل بكل مراسم التكريم. وبعد المراسم انتقلنا في موكب الى قصر الضيافة.

جاء الرئيس إلى دمشق مصمّما أن يصادق الاسد ويتعاون معه، غير أنه لا يعلم مدى استعداد الرئيس الاسد لمصادقته والتعاون معه، اذ لكل منهما اولوياته ومشكلاته. وأقام الرئيس الاسد حفل عشاء تكريما للرئيس الجميل وحضره نحو ٣٠٠ شخص. وباستثناء الوزيرة نجاح العطار، لم تكن أيّ امرأة اخرى بين

الضيوف. وكان على الضيوف، وهم يضمون جميع السفراء المفوضين في دمشق، ان ينتظروا نحو ثلاث ساعات قبل وصول الرئيسين. وجاء هذا المساء يؤكد صواب موقفي بانني لا يمكن ان اكون سفيراً في أي بلد ولأي كان، كما قلت للرئيس في اول اجتماع لنا. مساكين هم هؤلاء السفراء! كم هي الاعباء التي يتحملونها لتلبية شروط البروتوكول الذي لا يرحم. ولفت نظري، خلال هذه الحفلة، أن المجموعة التي تشعر بالاسترخاء في هذا الحشد الكبير هي تلك التي تضم الرئيس الأسد وجان عبيد وتضمني انا. وعزوت ذلك الى جان عبيد الذي كان محرضا كبيرا، ومحدثا لبقا موهوبا، وسيد الكلمة الملائمة. نظرت إلى حذائي، وكان قذراً، فقلت لجان عبيد: اسف لقد كان علي ان المع حذائي ورد جان عبيد على ضحك الرئيس الاسد العالي: «إن الذي يفاوض الرئيس الأسد ينبغي ان يلمع افكاره لا ان يلمع حذاءه». ثم ظل الرئيس الأسد يحث جان عبيد على رواية هذه النكتة لكل من يمر بقربنا. وكان الضيوف يجلسون الى موائد منفصلة في وقار وهدوء واعينهم مسمرة على الرئيس الاسد الذي يندر ان يلتقوه شخصيا، وبالاخص منهم السفراء.

ويوم الخميس، الاول من آذار/مارس، اجتمع الرئيسان بحضور الوزير خدام، وجان عبيد، وحضوري وفي هذه الاجتماعات كان الوضع اللبناني، كما عبر عنه الرئيس الجميل هو كالتالي: اننا اردنا إلغاء الاتفاق والتعاون مع سوريا لتقليل الاخطار الناشئة عن الالغاء. نحن بحاجة الى العون السوري لعقد مؤتمر الحوار الوطني وتشكيل حكومة الوحدة الوطنية. نحن بحاجة الى وقف حقيقي لاطلاق النار. وفي عقب الغاء الاتفاق، نحن بحاجة الى صيغة تؤدي الى التفاوض مع اسرائيل بواسطة الولايات المتحدة، بهدف وضع ترتيبات امنية تضمن لنا الانسحاب الاسرائيلي الكامل من لبنان. ثم اننا نريد إعادة انتشار الجيش السوري في مناطق محددة داخل لبنان، كخطوة اولى نحو الانسحاب الكامل. ونحن نريد للحكومة السورية ان تدعو القادة المسيحيين، وبصورة خاصة اولئك الذين عارضوا الالغاء الاتفاق، الى دمشق، ومباشرة الحوار معهم. ثم اننا مصممون على مواصلة صداقتنا مع الولايات المتحدة، كما ان سوريا مستمرة بصداقتها مع الاتحاد

السوفياتي. إننا مستمرون في اعتقادنا أن الولايات المتحدة دولة عظمى مستعدة لمساعدتنا في جهودنا لتحرير بلادنا.

شكر الرئيس الاسد الرئيس الجميل على خطواته ولكنه أضاف ان الاتفاق على كل حال ميت، لا اسرائيل ولا الولايات المتحدة تعلقان أهمية عليه. وبهذا القول شعرت ان الرئيس الاسد لا يعتبر الالغاء عملا كبيراً يستحق المكافأة. كل ما قد نحصل عليه هو الشكر لقيامنا بمراسم الدفن. لا بد لاحد الناس ان يقوم بذلك، ولكن لا شكر على ذلك ولا اعجاب. وعرض الرئيس الاسد موقف سوريا بان الالغاء يجب ان يسبق اي مؤتمر حوار وطني، ويسبق تأليف أي حكومة جديدة. ثم ان الحكومة الجديدة يجب ان تكون برئاسة رشيد كرامي. واضاف الرئيس الاسد ان المعارضة اللبنانية ترفض المشاركة في الحكومة الجديدة الا بعد اتفاق مسبق على مبادئ معنية من الاصلاح السياسي. على انه وعد ان يتكلم الى قادة المعارضة لتشجيعهم على المساهمة في تنفيذ وقف اطلاق النار، والاشتراك في حكومة تلتزم ببنود اصلاحات دستورية معينة.

بعد ذلك حدّد لنا الرئيس الاسد ما يقصده بالترتيبات الامنية مع اسرائيل. مثل هذه الترتيبات الامنية ينبغي ان تكون ترتيبات تتخذها الحكومة اللبنانية في اراضيها. وتكون مقبولة من قبل اسرائيل. ولا يجوز لهذه الترتيبات ان تمس سيادة لبنان. ثم ان سوريا ستدعم لبنان في اعادة بناء مؤسساته، بعد التوصل الى اتفاق على صيغة سياسية عادلة. وقال لنا ان الرئاسات الثلاث، التي اتفق عليها في الميثاق الوطني سنة ١٩٤٣، ستبقى كما هي بحيث تبقى رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة المجلس النيابي للشيعة، ورئاسة مجلس الوزراء للسنّة. ثم ان اعادة انتشار الجيش السوري في لبنان موضوع نبحثه مع حكومة الوحدة الوطنية، وعملية اعادة الانتشار تجري في إطار الاعتبارات الاستراتيجية السورية في صراعها مع اسرائيل والولايات المتحدة. وقال متابعاً: معنى ذلك ان على اسرائيل ان تنسحب اولا لان وجودها في لبنان يهدد امن سوريا القومي. واتفقنا على ان ننطلق في المؤتمر أولا، وان ننجز الاصلاح الذي يشمل كل القضايا تقريبا، بما في ذلك السياسة

ايضا، ثم ان تشكل حكومة قوية تضع هذه الاصلاحات في حيز التنفيذ.

واضاف الأسد: إنه من المستحب اعادة حكومة الوزان بصورة شرعية لكي تقوم بنفسها بالغاء الاتفاق. ثم يحال هذا القرار الى المجلس النيابي.

انتهينا من الاجتماعات في دمشق في وقت متأخر من ذلك اليوم، وغادرنا سوريا في مثل ما استقبلنا به من الحفاوة، وكانت التدابير الامنية على الطريق الذي سار فيه الموكب مشددة فوق العادة بسبب الصراع على السلطة الذي رافق مرض الرئيس الاسد. ان السيارة التي كانت تقل الرئيسين كانت محاطة بعشرات الدراجات النارية، وبما يقارب من مائة من الحرس المسلحين بالرشاشات. وفي الطريق التي سار فيها الموكب منعت السيارات الاخرى. ولقد سبق لي في الاشهر الاخيرة أن رأيت اشكالا متعددة من التدابير الامنية، لكن هذه التدابير كانت فعلا لا مثيل لها. وعند مغادرة دمشق كان الظلام يشتد بحيث يتعذر الهبوط في مطار حالات، ولذلك قرّر الرئيس ان نتوجه الى رودس. ودعانا الرئيس الى عشاء في مطعم هادئ، هو مطعم ألكسيس المعروف بمآكله البحرية الشهية. وعرف رواد المطعم الرئيس، وحيّوه، وانضموا الينا لتناول المشروبات. ومع ان هذا التوقف الذي لم يكن مقرراً اثار التكهنات حول مكان وجودنا، فاننا كنا مسرورين بالاستمتاع بهذه الوقفة القصيرة في الجزيرة.

ولدى وصولنا الى بيروت في اليوم التالي، اتصلت ببارثولوميو وسلمته رسالة اطلب فيها من الولايات المتحدة ان تدعو لجنة الاتصال المشتركة الى اجتماع يعقد في ٣ أو ٤ آذار/مارس وقلت فيها ان طلبي هذا هو «بموجب رسالتي الى السفير فيليب حبيب، المبعوث الخاص للرئيس ريغن في ١٧ أيار/مايو ١٩٨٣، وان الغاية من الاجتماع هي بحث الغاء الاتفاق والبدء بمحادثات جديدة تؤدي الى ترتيبات امنية».

تسلم باوثولوميو الرسالة، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وقال انه سينقلها الى واشنطن. وبدا لي من ابتسامته ان الولايات المتحدة مستعدة «لتفهم» مسارنا، لكن ذلك لا يترجم بالضرورة الى «استعداد» لتسهيل هذا المسار. والولايات المتحدة،

في أي حال ليست صديقة لسوريا، فهي تعتبر سوريا موالية للسوفيات. والاسوأ من ذلك انها تعتبرها دولة ارهابية حتى ان في واشنطن من يظن بان لسوريا يداً في «مجزرة المارينز» التي اصبحت، في الواقع، مجزرة لسياسة ريغن في لبنان. فلا هو ولا الرجل الذي «لا جهاز للتراجع لديه» على استعداد لمكافأة الرئيس الاسد. كذلك طلبت من العقيد سيمون قسيس ان يتصل بالاسرائيليين عبر «إيلماك»/ILMAC» ويبلغهم بأمر الاجتماع المقترح. وفي اليوم التالي ابلغني بارثولوميو ان الولايات المتحدة لن تحضر الاجتماع المقترح للجنة الاتصال المشتركة. وسرعان ما ابلغني العقيد قسيس بعد ذلك ان اسرائيل ايضا لن تحضر الاجتماع، الا اذا كان هنالك اتفاق مسبق على جدول اعمال. والواضح انه لا اسرائيل ولا الولايات المتحدة مسرورتان بنهجنا الجديد. واذا كان الاتفاق يدعو الى التشاور الفوري بواسطة لجنة الاتصال المشتركة عند نشوء أي مسألة تتعلق بالاتفاق، فالواقع انه لا نيّة لديهما للتقيد بالشكليات لعلهما كانا يحسبان ان الاتفاق قد انتهى فلماذا التقيد بشروطه!

ولتجنب أيّ سوءٍ من التفاهم في هذه المرحلة الدقيقة، اردت التشاور مع الوزير خدام بشأن نص البيان الذي يلغي الاتفاق. والذي كنت قد عملت على وضعه بمساعدة الاستاذ نصري المعلوف، وهو نائب بارز، ومحام لامع. ثم قمنا، أنا وجان عبيد بمراجعة النص بضع مرات، حتى اذا ما شعرنا بالرضى عنه، اتصلنا بالوزير خدام واتفقنا على الاجتماع في دمشق، يوم الاحد ٤ آذار/مارس ١٩٨٤.

في الصباح الباكر من يوم الاحد، ركبنا، أنا وجان عبيد، طوافة عسكرية متوجهين الى دمشق. وما ان حلقنا فوق الجبال، حتى وجدنا فجأة ان الطوافة محاطة بالغيوم الكثيفة، من كل جانب. ولما كان ملاحو الطوافة غير مدربين على الطيران ليلا او في الغيوم، فقد طلبت منهم بالحاح ان يعودوا الى القاعدة فورا. كذلك كان الملاح متوتر الأعصاب، وقال انه لا يستطيع تعديل مساره لانه غير واثق من طبيعة الارض تحته. ولدقائق قليلة، ساد الصمت الكثيف، الى ان انجلت لنا فتحة في الغيوم اتاحت للملاح ان يتأكد من اتجاهه. وعدنا بسرعة الى القاعدة، وقررنا الذهاب الى دمشق برا.

وتوجهنا الى مكتب الوزير خدام رأساً، وبحثنا النص الذي اقترحناه. وبعد مناقشات موسعة قال الوزير خدام انه يريد ان يستشير القيادة السورية. والاشارة «إلى القيادة» مألوفة في الدبلوماسية السورية؛ وهي تحتمل معاني مختلفة في المناسبات المختلفة؛ هي قد تعني اجتماع قيادة حزب البعث، او مناقشات بين الكبار الثلاثة او الاربعة المولجين بالمسألة اللبنانية، او الاتصال الهاتفي بالرئيس الاسد. وفيما كان الوزير خدام يقوم باستشاراته، عدنا، أنا وجان عبيد، الى الفندق للارتياح قليلا. على انه كان لنا، بدلا من ذلك، لقاء ودي، غير مدبر، مع قادة المعارضة، وليد جنبلاط، ونبيه بري، وعاصم قانصوه، وكانوا جميعا يقصفوننا بلا رحمة خلال الاشهر القليلة الماضية. لكن العناق والقبلات المتبادلة كانت اقوى واثبت وأرحم من أصوات المدافع. هم مثلنا تواقون الى معرفة البداية الجديدة: ماذا سيناقش المؤتمر؟ هل يصار الى تعديل المشاركين فيه؟ متى يكون تشكيل الحكومة الجديدة؟ ومن هم اعضاؤها؟ وكان النقاش مرحاً في الظاهر، حذراً في الباطن.

ثم رجعنا الى مكتب الوزير خدام. وبعد المزيد من المحادثات، اتفقنا على النص التالي:

«ان مجلس الوزراء بعد اطلاعه على نص المادتين ٥٦ و٥٧ من الدستور اللبناني الذي يلزم رئيس الجمهورية بنشر القانون المرسل من المجلس النيابي خلال فترة محددة او اعادته؛ وحيث ان رئيس الجمهورية لم يصدر القانون الذي اجاز المجلس النيابي ابرامه بتاريخ الرابع عشر من حزيران/يونيو ١٩٨٣ المتعلق باقرار المجلس للاتفاق الموقع بين ممثلي الحكومة اللبنانية واسرائيل وبمشاركة الولايات المتحدة الاميركية بصفتها شاهدا على الاتفاق؛ ولم يقم رئيس الجمهورية برد القانون إلى المجلس النيابي خلال المدة المحددة لذلك، قرر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة بتاريخ ٥ اذار/مارس ١٩٨٤ برئاسة رئيس الجمهورية ما يلي:

١ ـ الغاء قرار مجلس الوزراء المؤرخ بتاريخ ١٤/٥/١٩٨٣ والقاضي بالموافقة على الاتفاق المشار اليه الموقع بتاريخ ١٧ ايار/مايو ١٩٨٣ بين ممثلي الحكومة اللبنانية واسرائيل وبمشاركة الولايات المتحدة الاميركية بصفتها شاهدا،

كما قرر الغاء هذا الاتفاق غير المبرم واعتباره باطلا وكأنه لم يكن والغاء كل ما يمكن ان يكون قد ترتب عليه من آثار.

٢ ـ ابلاغ هذا القرار إلى الفرقاء الموقعين على الاتفاق.

٣ ـ قيام الحكومة اللبنانية بالخطوات اللازمة التي تؤدي إلى وضعها ترتيبات وتدابير امنية تؤمن السيادة والامن والاستقرار في جنوب لبنان وتمنع التسلل عبر الحدود الجنوبية وتحقق انسحاب القوات الاسرائيلية من جميع الاراضي اللبنانية».

وجاء البند الثالث من النص نتيجة مناقشة حادة، مكثفة بين الوزير خدام وبيني. كنت اريد نصا يمكننا استعماله، مع الاميركيين والاسرائيليين، لمباشرة عملية تؤدي الى الانسحاب على أساس ترتيبات امنية جديدة. وأدّى جان عبيد دورا هاما في سد الفجوة بين الوزير خدام وبيني بالنسبة لهذه النقطة. وقد صار هذا البند اساس سياسة جديدة ادخلت في البيان الوزاري للحكومة التي تلت والتي شكلها رشيد كرامي.

وعدنا الى بيروت في ذلك المساء، وعرضنا النص على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، فاعربا عن ارتياحهما اليه. واتفقنا على عقد اجتماع مجلس الوزراء في اليوم التالي لتبني النص المذكور. اتصلت بالوزراء فرداً فرداً وقلت لهم ان حكومة الرئيس الوزان قد عُوّمت وعادت الى مزاولة الاعمال الحكومية هذا النهار، لاتخاذ قرار الغاء الاتفاق، وطلب الوزراء المسلمون الذين كانوا قد استقالوا، وكانوا متوتري الاعصاب بشأن القدوم الى بعبدا والاجتماع بالرئيس، ان يعرفوا بالتفصيل اسباب دعوتهم، وما حدث في دمشق بالضبط، وسألوا: «هل انت واثق من انه لا بأس بالاجتماع؟» فقلت لهم «أجل»؛ وقلت: «لن يحدث لكم اي شيء خلال ثلاث ساعات». وجاؤوا جميعا الى الإجتماع.

وفي هذه الفترة، مرّ كلود شيسون وزير خارجية فرنسا ببيروت، في زيارة قصيرة. وجاء الى منزلي في بعبدا للتعبير عن دعمه للخطوة التي كنا على وشك اتخاذها. وقال ان فرنسا مستعدة لمساعدة لبنان اذا تعرض لاخطار جديدة من قبل اسرائيل بنتيجة الغاء الاتفاق. وكان قد اجتمع بشامير قبل مروره ببيروت؛ وأكد له شامير أنّ إسرائيل تتفهم الخطوة التي اتخذها لبنان؛ وقد وعده شامير بان اسرائيل

لن تقوم باعمال ثأرية نتيجة هذه الخطوة. ولبنان، كما قال شامير، بلد ضعيف ومقسم، وكل خياراته سيئة أو اكثر سوءاً.

ويوم الاثنين، الخامس من آذار/مارس، وصل الرئيس الوزان، والوزراء الى القصر الجمهوري في الساعة التاسعة والنصف صباحا. وكان الرئيس الجميل، والرئيس الوزان، والدكتور جوزيف جريصاتي، المدير العام لرئاسة الجمهورية، يعملون لايجاد صيغة قانونية لتمكين الحكومة من الاجتماع كمجلس وزراء. كان الاجتماع سيئاً. كل شيء وكل كلمة من قبل المجتمعين كان يساء تفسيرها، او يساء فهمها. كانوا في الواقع في حالة مزاجية سيئة. الرئيس قضى ليلة صعبة مع اشتداد الضغط عليه عائليا وحزبيا ومارونيا، والرئيس الوزان كان منزعجا من اسئلة الوزراء الذين كانوا يطرحون الاسئلة كأنهم لم يكونوا أعضاء في الحكومة. على سبيل المثال، سأل أحد الوزراء: «لماذا وقعنا اتفاقاً نضطر الآن لالغائه؟» وانفجر الوزان فيه: «من اين انت آتٍ! من القمر؟» وسأل وزير آخر: «هل علينا ان نوقع اتفاقا مماثلا مع سوريا؟» مرة اخرى صرح الرئيس الوزان: «هل انت آتٍ من الصين؟».

عند الظهر اتخذ قرار الالغاء باجماع الاصوات ثم اذيع القرار الساعة الرابعة بعد الظهر. وفور اعلان القرار، اتصل الرئيس الاسد بالرئيس الجميل، وهنأه على شجاعته، ووعده بالدعم الكامل في المستقبل.

وكانت الخطوة التالية هي الاعداد لاستئناف مؤتمر الحوار الوطني، في لوزان، هذه المرة، يوم الاثنين في ١٢ آذار/مارس. وشاء الرئيس ان يلقي خطاباً تاريخيا في جلسة الافتتاح، وشاء ان يقوم الدكتور شارل مالك باعداد الخطاب، ان شارل مالك احد مفكري لبنان وساسته البارزين، إلاّ انه كذلك يصعب التكهن بتوجهاته. هو أرثوذكسي المذهب، لكنه، برغم ذلك، كان احد اشد المتصلبين في الجبهة اللبنانية. ولم يكن الرئيس على وفاق تام معه، لانهما لم يكونا متفقين سياسيا. ومع ذلك، فقد كان الرئيس يحترم له ذكاءه وطلب مني ان اتصل به بشأن الخطاب.

وحين بحثت الاقتراح مع الدكتور مالك، ردّ علي بان القرار ليس سهلا. واذا ما كان لخطاب الرئيس ان يكون تاريخيا، فان تقرير كتابته هو تاريخي أيضاً. لذلك

ليس بوسعه ان يتخذ هذا القرار وحده. عليه ان يستشير. تستشير من؟ سألته. اجاب: استشير يسوع المسيح. ولذلك اراد ان يختلي بنفسه ساعات للصلاة. كنت اعرف الدكتور مالك معرفة جيدة، ولو انه كان في كل مرة يفاجئني. كنت على يقين بانه سيقبل المهمة. لكن املي خاب. المسيح، على ما يبدو، رفض الفكرة. وقال لي مالك: «انا لا استطيع ان اكتب الخطاب لانني لست على صلة مباشرة بالحكومة، ولست مطلعا على المسائل الرئيسية التي كانت الحكومة تواجهها. ولوزان ليست بنظري المناسبة التاريخية التي تتطلب موقفا مني». ويظهر لي ان الدكتور مالك لم يكن راضيا عن التقارب اللبناني السوري الجديد، ولا عن موقف الرئيس الجميل منه.

وحاولنا توسيع التمثيل في المؤتمر بضم ممثلين عن الروم الاوثوذكس، والروم الكاثوليك، والارمن. واتصلت بالوزير خدام لهذا الشأن؛ لقد كان تقرير اسماء المشاركين في مؤتمر جنيف قد اتخذ بعد عملية دبلوماسية طويلة ودقيقة اشترك فيها السعوديون والسوريون. وقال الوزير خدام انه لا اعتراض لديه على اشراك ممثلين آخرين اذا لم يكن للمعارضة اي اعتراض على ذلك. ولكن بعد مشاورات واسعة، جرى الاتفاق ان يبقى المشاركون بمؤتمر لوزان محصورين باولئك الذين شاركوا في مؤتمر جنيف، وذلك لاجتناب المزيد من التأخّر.

مؤتمر لوزان

وصلنا، أنا والرئيس الجميل الى لوزان، نهار الاحد ١١ اذار/مارس، قبل يوم واحد من افتتاح مؤتمر الحوار الوطني في فندق بوريڤاج.

وعند وصولي الى لوزان، اتصل بي السفير السوري لدى الامم المتحدة في جنيف، اديب الدواودي، وابلغني ان الوزير خدام عين الآن نائبا لرئيس الجمهورية للشؤون السياسية. ويترتب على منصبه الجديد تدابير بروتوكولية جديدة. وقدم السويسريون المهيأون لمثل هذه الامور، كل مساعدة في هذا المجال. اشاروا بان نلتقي معا، أنا والداودي، ثم ان ينضم الينا، نحن الاثنين، مسؤول سويسري عن البروتوكول لاستقبال السيد خدام عند مدخل الفندق. وفعلنا ذلك. وبينما كنت

اهنّىء خدام بمنصبه الجديد، قال ممازحا: ان اسفه الوحيد، في منصبه الجديد، انه لن يواجهني ويتحداني كوزير للخارجية بعد اليوم.

وكان الاهتمام العالمي بمؤتمر لوزان اهتماماً كبيرا. وقد ارسل كلود شيسون، وجفري هاو، وجورج شولتز، ممثلين خاصين لهم لمراقبة اعمال المؤتمر. وبعث حسني مبارك ممثلا الى لوزان لمساعدتنا بالنسبة للمشاركين من السنّة، فيما ارسل رئيس وزراء ايطاليا بيتينو كراكسي سفيراً سابقاً الى لبنان لمساعدتنا في تعاملنا مع «صديقه السيد وليد جنبلاط». وكعضوين في الاشتراكية الدولية، كان جنبلاط وكراكسي صديقين. غير ان وليد جنبلاط شخصية مستقلة كوالده، ولا يمكن لاحد ان يؤثر عليه. وكوالده ايضا، اصبح لاعبا ماهرا على المسرح اللبناني والعربي. ثم ان مزاجيته زادت نفوذه كما أن الغموض فيه عزّز قوته. وقد جلب معه الى مؤتمر جنيفُ آلة تصوير لالتقاط صور المشاركين المسنين. «هذه مناسبة نادرة لالتقائهم كلهم في مكان واحد»، كما قال. «قريبا يصبحون قطعا في متحف».

وأقام الرئيس حفلة على شرف سيادة نائب الرئيس خدام بمناسبة تعيينه في المنصب الجديد. ودعي اليها جميع المساهمين وزوجاتهم ومعاونوهم. واذا كان السلم لم يستتب حتى الآن، فقد كان عليهم جميعاً ان يدخلوا من باب واحد، وان يصافحوا المضيف، وربما ان يقبلوه، على أن ينتقل كل رجل او امرأة الى المائدة المخصصة له. وكان من المثير ان نشهد الرئيس وخصومه يتبادلون القبل والعناق بالطريقة اللبنانية التقليدية. وليد جنبلاط الذي عرفته جيداً من أيام الجامعة، اخبرني انه لم يقبل الجميل لانه كان، حين عانقه، يفكر بشخص آخر او بشخصة. ونبيه بري اخبرني ان الرئيس عانقه بقوة وكانه امرأة ولذلك هرع الى المرآة ليتأكد: هل تحول إلى امرأة.

وكان جميع المشاركين في حالة مزاجية جيدة، اثناء الاحتفال؛ كانوا يعلمون ان حكومة الوحدة الوطنية ستشكل، وانهم سيكونون جميعا اعضاء فيها.

وبدا ان التوتر في مباحثات لوزان كان عاليا كما كان في جنيف. المباحثات اثناء المؤتمر كانت خطابات طنّانة عن موضوعات متنوعة: كالاصلاحات السياسية،

والامن، والعلاقات بين لبنان وجاراته. كثيرون من المشاركين تقدموا باوراق حول هذه المسائل. ومن ابرز المسائل في ميدان الاصلاحات كان مصير الطائفية السياسية التي حكمت لبنان منذ نظام المتصرفية في اوائل الستينات من القرن الماضي؛ وقد تبين أنها مسألة شائكة كأيّ مسألة اخرى هامة. ثم ان جميع المسائل كانت عرضة للتأثر بروح الخلاف الذي كان يسود الاجواء السياسية المخيمة على ارض لبنان.

وكانت لي جلسة طويلة مع الأستاذ نبيه، اقوى المتمسكين بالغاء الطائفية. كان نبيه بري يريد الغاء الطائفية بمرسوم. ان القرار الوحيد الذي يطلبه، كما قال، ان يلغي المؤتمر الطائفية. وبعد الكثير من النقاش وافق اخيرا على ان اقل ما يمكن قبوله هو الاتفاق على مبدأ إلغاء الطائفية السياسية. اما العملية نفسها فانها، كما قال، تستغرق وقتا، ولا بد من تحقيقها على مراحل. ولم يكن نبيه بري يريد ان يعود الى جماعته ويقول لهم انه استطاع الحصول على هذا المركز الوزاري او ذاك. لقد اراد ان يعود وفي يده مبدأ ما أكثر ما سعى إليه، وهو: ان اللبنانيين متساوون، وان الطائفية في طريقها الى الزوال. غير ان نبيه بري هو ايضا رجل سياسي: وبينما كان يناضل لالغاء الطائفية السياسية كان يناضل ايضا من اجل الحصول على المكاسب في اطار الصيغة القائمة الى ان تلغى. وما ان طرحت فكرة نيابة الرئاسة، حتى عارضها السنة والموارنة. الموارنة رأوا في ذلك خدعة؛ الرئيس الماروني يقتل اغتيالا، ثم يحل نائب الرئيس الشيعي محله على الفور. والسنة رأوا في ذلك اضعافا لمنصب رئيس الوزراء. كذلك عارضوا اضافة نائبين آخرين لرئيس الوزراء، الى جانب نائب رئيس الوزراء الاورثوذكسي الحالي، لإرضاء الشيعة والروم الكاثوليك. كانوا يخشون ان يؤدي ذلك الى اضعاف رئاسة الوزارة ايضاً. كان لكل مشارك موقف علني للاستهلاك العام، وموقف خاص آخر لتحقيق المكاسب الخاصة في اطار نظام سياسي طائفي مع تعديلات متواضعة.

وبوجه عام، كانت المعارضة تريد الحد من صلاحيات رئيس الجمهورية وتعزيز صلاحيات مجلس الوزراء. كانت تريد السلطة في ايدي مجلس الوزراء الذي يمثل جميع الطوائف، لا بيد الرئيس الماروني.

المؤتمر

التأم مؤتمر لوزان في ظروف ليست احسن من ظروف مؤتمر جنيف. القتال في بيروت مستمر بين المعارضة والحكومة، ومستمر بين الميليشيات. ومما يزيد في حدة أجواء لوزان: ان المشاركين كانوا يناقشون مشاكل الامن في بيروت بقدر ما يناقشون توصيات موضوعات الاصلاح. وفي هذا الجو الحامي اقترح كميل شمعون انشاء «جمهورية لبنانية فدرالية»، فعارضه سليمان فرنجية ورشيد كرامي بقوة. واقترح وليد جنبلاط تسمية لبنان «جمهورية لبنان العربية». قال فرنجية ان الفدرالية ستاتي بشيطان اسرائيل الجديد بالاضافة الى الشيطان الاميركي. وقال نبيه بري ان اقتراح شمعون اقتراح كونفدرالي اكثر مما هو اقتراح فدرالي؛ والاثنان مرفوضان. واراد فرنجية ان يعرف: «هل تكون اسرائيل عدوا ام لا؟» واتهم نبيه بري الرئيس الجميل بقصف ضاحية بيروت الشيعية. واتهم وليد جنبلاط الرئيس بانه قصف منطقته قصفا اشد. وناشد خدام المشاركين ان يرتفعوا الى مستوى الازمة، وان يتكلموا كلاما معقولا. «سوريا» كما قال، «بلد صغير، لكنها كبيرة الايمان». هكذا كان لبنان قبل ١٩٧٥. وبما ان جميع المشاركين قد تقدموا من هذا المؤتمر، او من المؤتمر السابق في جنيف، بمقترحات خطية إصلاحية، فقد الح كل واحد منهم على ان تتخذ ورقته اساساً للنقاش. عند ذاك اقترح شمعون ان يكون لبنان دولة علمانية «في كل شيء»، ورد عليه كرامي: «اننا نقبل العلمنة في كل شيء إلا بما يتناقض مع الاسلام».

وفي ١٩ منه، كان المؤتمرون لا يزالون يتناقشون من غير ان يتوصلوا الى اي اتفاق. وكان نائب الرئيس خدام قد أعدّ ورقة على اساس المباحثات الجارية في لوزان، تتبنى موقف المعارضة اجمالا. ولتسهيل الامور، طلب الرئيس مني ان اجتمع بمروان حمادة وان نعيد صياغة ورقة خدام، ونُعَدِّلها بشكل تكون معه مقبولة لجميع الاطراف. والسيد حمادة مستشار للسيد جنبلاط ورجل معتدل له علاقات حميمة بالقيادات السياسية في لبنان وسوريا. وقمنا بمراجعة ورقة خدام - المعارضة. قرأناها، أنا ومروان حمادة، بدقة وادخلنا عليها تغييرات كثيرة. كان

مروان حمادة يتفهم المعارضة جيدا، وهو احد قادتها. كذلك كان يفهم دمشق ومخاوفها. وكذلك كنت أعرف الرئيس معرفة جيدة، وكنت، بوجه عام، مطلعاً على وضع القادة المسيحيين.

وقدمت الوثيقة المنقحة الى الرئيس لكي يتقدم بها الى المؤتمر باعتبارها تمثل الاجماع العام في المؤتمر. وهي ما اسميه بوثيقة لوزان. وفي ما يلي اذكر عناوينها الرئيسية:

- هوية لبنان كدولة مستقلة ذات سيادة كما انعقد الاتفاق عليه في مؤتمر جنيف؛

- يتبنى المؤتمر القرار المتخذ من قبل مجلس الوزراء في ٥ آذار/مارس، ١٩٨٤، لالغاء اتفاق ١٧ أيار،

- ان الحكومة اللبنانية تتخذ الترتيبات الامنية اللازمة في الجنوب بما يضمن سيادة لبنان، ويمنع التسلل عبر حدوده الجنوبية، ويؤدي الى الانسحاب الاسرائيلي من كل الاراضي اللبنانية؛

- ان المؤتمر يدعو الى زيادة عدد قوات الطوارىء الدولية (اليونيفيل) وتعزيز فعاليتها؛

- تقوم حكومة الوحدة الوطنية الجديدة بدعوة اعضاء اللجنة الممثلة لكل الاطراف للانعقاد، وإعداد مسودة دستور جديد للبلاد في غضون سنة. ويتبنى المؤتمر الاصلاحات التالية:

- الطائفية تلغى في جميع المراكز الادارية باستثناء مراكز الفئة الاولى (اي فئة المديرين العامين وما يوازيهم) التي توزع بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين؛

- مع اخذ الصلاحيات الممنوحة للرئيس في الدستور، تناط السلطة الاجرائية بمجلس الوزراء ويحدد مجلس الوزراء السياسة العامة للدولة في شتى الميادين، ويضع مشاريع القوانين ويراقب مؤسسات الدولة، ويعين موظفي الفئة الاولى، ويعلن حالة الطوارىء، الخ...

- ان المجلس النيابي ينتخب رئيس الوزراء؛ ويقوم رئيس الوزراء المنتخب ورئيس الجمهورية معا بتشكيل الحكومة؛
- يتمتع رئيس الوزراء بجميع الصلاحيات التي يمارسها عرفاً؛
- ينتخب رئيس المجلس النيابي لمدة سنتين؛
- يتالف المجلس النيابي من ١٢٠ نائبا، موزعين بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين؛
- تشكل المحكمة العليا لمحاكمة الرؤساء والوزراء؛
- يشكل مجلس دستوري لمراقبة دستورية القوانين وصحة الانتخابات النيابية؛
- يشكل مجلس اجتماعي واقتصادي؛
- يجب تعزيز اللامركزية الادارية وجعلها اكثر فعالية؛
- الحفاظ على نظام المبادرة الحرة، وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية، وتنمية المناطق التي كانت مهملة؛
- حل الميليشيات؛
- تعزيز قوات الامن، وإنشاء لجنة وزارية ذات صلاحيات واسعة لمراقبة إعادة دراسة الجيش، وقوات الامن الداخلي، والامن العام؛
- عودة المهجرين اللبنانيين منذ سنة ١٩٧٥؛
- تنشيط الخدمات التي تقدمها الدولة وتسهيل الاتصالات بين منطقة وأخرى في البلاد؛
- عند انتهاء المؤتمر، تشكل حكومة وحدة وطنية لتنفيذ الاصلاحات الواردة في هذه الوثيقة.

وفي يوم الاثنين، ١٩ منه، قدم الرئيس وثيقة لوزان الى المؤتمر. وهاجمها الرئيس سليمان فرنجية على أساس انها تحد من صلاحيات رئيس الجمهورية، بنقل السلطة التنفيذية فعلا من الرئيس الى مجلس الوزراء. وعارض موقف فرنجية

هذا الرئيسان السابقان للوزارة، رشيد كرامي وصائب سلام، كما عارضه كذلك افراد المعارضة الذين كانوا متحالفين معه، على ما يبدو، الا بالنسبة لصلاحيات رئيس الجمهورية. بالنسبة لهذا الموضوع ظل الرئيس فرنجية مارونيا متشدداً، وتدهور النقاش حول وثيقة لوزان الى درجة ميئوس منها، فعمد الرئيس الى تأجيل الاجتماع حين وجد ان الوثيقة معرضة للخطر. ثم تفرق المندوبون، وكلٌ يضع اللوم على سواه.

وكان الوقت آنذاك منتصف الليل. وخدام قد يئس فذهب الى جناحه في الفندق. وبعد منتصف الليل بقليل اتصل بي الرئيس ليقول ان المؤتمر قد فشل، وان المندوبين لا يستطيعون ان يتوصلوا الى اتفاق بشأن الوثيقة. اتيت الى جناحه؛ فوجدته في حالة من القنوط. قال لي ان وليد جنبلاط ونبيه بري كانا مسرورين لفشل المؤتمر: لانهما، في رأيه، لم يحصلا على شيء في الوثيقة المقترحة، ثم ان الموارنة منقسمون، وليس منهم من يوافق على ما يقترحه الآخر. وحثني على الاتصال برفيق الحريري، وأن نعمل معا للحصول على مساعدة نائب الرئيس خدام لانقاذ المؤتمر. وقصدنا، أنا ورفيق، جناح نائب الرئيس عبد الحليم خدام، وايقظناه من النوم للبحث عن طريقة ننقذ بها المؤتمر. كان خدام متعبا، واشار علينا بالنوم، لكنه قال لي ان اتحدث الى الرئيس سليمان فرنجية؛ ثم اضاف: لا تحاول ان تتحدث الى السنة والدروز. انهم يحترمونك. دع الامور تتوقف هنا. سأحاول ان اتحدث اليهم؛ ثم اردف يقول: بصراحة، أنا لا اريد ان اضغط عليهم اكثر مما ضغطت حتى الآن. وختم كلامه قائلا انه، في كل حال، سيغادر عند ظهر اليوم التالي.

وعدت الى جناح الرئيس، حيث كان هو وجوني عبده يتحدثان. وباستسلام تام، تناولنا بعض الكونياك، ثم اغفينا على كراسينا. وفي الصباح الباكر اجتمع الرئيس فرنجية بخدام، وقال انه لا يجوز في أي حال اضعاف صلاحيات الرئيس. ثم أضاف انه سيقابل الرئيس الاسد بخصوص هذه المسألة. ولم يتقبل خدام ذلك تقبلاً حسنا، وبادر عائدا الى دمشق. كذلك كان نبيه بري ووليد جنبلاط يستعدان للمغادرة: لانهما فضّلا عدم الاتفاق على وثيقة ليست على مستوى توقعاتهما.

وبينما رحت، في وقت لاحق، أفكر في الاسباب التي أدت إلى فشل مؤتمر لوزان، توصلت الى النتيجة التالية، وهي ان كل واحد من المشاركين كان يشد الى جهته محافظاً على مصالحه المحلية. اما لبنان الدولة، والمجتمع، والخبرة المشتركة، فلم يكد يكون ممثلا في المؤتمر. واليمين المسيحي الوثيق الصلة بالرئيس، كان يتجه اكثر فاكثر إلى اليمين، في هذه الفترة العصيبة، بحيث صعب على الرئيس ان يتحرك. والمسلمون كانوا، في هذه الفترة، في القمة، الا انهم كانوا غير موحدين. كان لكل منهم جدول اعماله الخاص.

وقبيل انتهاء المؤتمر في العشرين منه، اتخذ قراران، وربما كان ذلك من قبيل انقاذ ماء الوجه، كانا، على ما بدا، هامين، غير ان كل مشارك كان يعلم انهما لا قيمة لهما لانهما خاضعان للتطورات على الارض.

القرار الاول: تشكيل لجنة امنية تتمثل فيها الميليشيات المتحاربة لمراقبة وقف اطلاق النار. ولإعطاء اللجنة مظهر الاهمية فقد كانت برئاسة رئيس الجمهورية.

أما القرار الثاني، الذي جاء في الواقع قراراً لتأجيل العمل بالنسبة للاصلاحات، فقضى بانشاء لجنة من الشخصيات البارزة للمباشرة باعداد مسودة دستور جديد. وتقرر ان تكون هذه اللجنة من الخبراء، ذات طابع غير سياسي، على ان تاتي باصلاحات منطقية ليتبناها المجلس النيابي في ما بعد.

وبرغم هذين القرارين الطنّانين، او ربما بسببهما، كان الرئيس بالغ الاحباط، لا يتكلم. وقال لي خدام انه لا جدوى من المشاركين في المؤتمر، وان غالبيتهم لا تمثل لبنان الجديد. وفي رأيه ان الافضل هو الجمع بين قادة «امل» والحزب التقدمي الاشتراكي والقوات اللبنانية، وهم الشباب الذين افرزتهم الحرب من اجل التوصل إلى اتفاق شامل.

مشاكل ما بعد لوزان

يوم الأربعاء، ٢١منه، غادر المشاركون لوزان إلى المجهول. وكان القتال قد اندلع في غربي بيروت، بين حركة «أمل»، والحزب التقدمي الاشتراكي من جهة،

وميليشيا «المرابطون» السنة من جهة ثانية. وكان هذا القتال دليلا على مدى تحول توازن القوى في المناطق الاسلامية في العاصمة من السنّة الى الشيعة والدروز. وفي هذه الاثناء، راح الاسرائيليون يبعثون بالرسائل التي تشير الى ان ذلك من شانه فرض اعادة انتشار قواتهم في جنوب لبنان، وفقا للمصالح الوطنية الاسرائيلية. كذلك اعلنوا انهم يعدّون لتنظيم جيش بديل في جنوب لبنان بقيادة الجنرال انطوان لحد الذي حل محل حداد. ويتالف هذا الجيش الجديد في جنوب لبنان من نحو اربعة آلاف مقاتل مجندين من المناطق اللبنانية الخاضعة للسيطرة الاسرائيلية.

ثم إن استياء الاميركيين من تطورات الأحداث كان يتزايد؛ كانوا قلقين من تنامي النفوذ السوري في لبنان، ومن النفوذ السوفياتي في المنطقة. وابلغني بارثولوميو ان الولايات المتحدة ستسحب «المرينز» من القوة المتعددة الجنسيات خلال اسبوع. كذلك قال لي انه لن يكون بعد ذلك مبعوث خاص الى لبنان، وان رمسفيلد سيعين بدلا من ذلك، مبعوثا خاصا لعملية السلام في الشرق الاوسط، وان السفارة الاميركية ستتسلم مهام رمسفيلد بالنسبة لما يتعلق بالشؤون اللبنانية، غير ان رمسفيلد قد يزور لبنان في المستقبل اذا كان لمثل هذه الزيارة ان تسهم في دفع عملية السلام.

وجاء كلام بارثولوميو هذا يذكرني بشيء كان رمسفيلد قد قاله لي في وقت سابق. قال: لا يسعنا يا إيلي ان نقدم لكم مساعدة كبيرة. تعلمون ان في كرة القدم الاميركية لاعبين ضخام الاجساد يعرفون بالمدافعين عن المرمى، ولاعبين خفافاً سريعي الحركة يعرفون بالمهاجمين. المدافعون هم اللاعبون الضخام الذين يفتحون الثغرات في الدفاع بمجرد قوتهم، واللاعبون الخفاف الحركة يحملون الكرة ويركضون. وفي السياسة الدولية تمثل اميركا ذلك المدافع الضخم. ونحن ابرع ما نكون في مواجهة المشاكل الكبيرة. وانتم بلد صغير ذو مشاكل صغيرة معقدة. أزقتكم، على سبيل المجاز، أزقة ضيقة جدا بالنسبة لنا. انتم بحاجة الى لاعبين رشيقين، خفاف الحركة. ثم لم يزد أي تفصيلات بعد ذلك. واعتبرت ذلك منه محاولة

نقد ذاتي، ونقداً لعجز لبنان عن الخروج من شرك النزاعات التي اوجدها لنفسه او سمح بنشوئها بسبب جموده.

لقد قررت اميركا ان تنهج نهجا ملطفا بالنسبة للبنان. وتبين ان ريغن، عكس ما اكّد، قادر على الرجوع الى الوراء بسرعة. ولان الوضع في لبنان بدا معقداً، ولان امكانات النجاح اضحت ضئيلة، ولانه لا نفط لديه، ولا اهمية استراتيجية كبرى، فقد قررت اميركا الانسحاب منه، وعجز لبنان عن الحفاظ على الاجماع الوطني واخذ ينزلق من ازمة الى ازمة.

وبعد عودة الرئيس من لوزان دعا اللجنة الأمنية للاجتماع بقصد تنفيذ المخطط الامني الذي استهدف، بالدرجة الاولى، التوصل الى وقف فعلي لاطلاق النار، ولكن حركة «أمل» رفضت التخلي عن سيطرتها على اللواء السادس ومطار بيروت الدولي. ورد الرئيس على ذلك بانه لا يمكن تسليم لواء في الجيش الى الميليشيا، غير ان حركة «أمل» لم ترض بالتنازل عن نحو خمسة آلاف جندي يكونون دعما عسكريا هاما لها. ولم تكن أيّ ميليشيا مستعدة للتخلي عن سيطرتها في منطقتها: لان جو انعدام الثقة كان لم يزل سائدا. ولم تؤد الاجتماعات الى أي نتيجة. كذلك حاول الرئيس ان يشكل لجنة لوضع مسودة دستور جديد في ضوء النقاط التي طرحت في لوزان. ولكنه اراد تأجيل ذلك الى ما بعد اجتماع يود عقده مع الرئيس الاسد.

وفي ١٨ نيسان/ابريل، عشية مغادرتنا الى دمشق للاجتماع بالرئيس الأسد، دعاني بارثولوميو الى منزله. وأراني انشاءات واسعة تحت الارض، وشرح لي أن سفارة الولايات المتحدة بحاجة الى ملجأ يقي من القنابل، ثم اضاف الى ذلك ان الولايات المتحدة، حين قررت انشاء مثل هذا الملجأ، وانما تفعل ذلك وفق مواصفات دقيقة، ومتشددة. سألته: هل يحاول توجيه رسالة بان الحرب في لبنان ستطول، وتطول، بسبب التغير في سياسة الولايات المتحدة، وبسبب التوجه الجديد للحكومة اللبنانية. وكان بارثولوميو يحب مثل هذه الاسئلة لانها تعطيه فرصة القيام بدور الناطق الغامض باسم دولة عظمى؛ وقال بايجاز وغموض: من يدري؟ من يدري؟

وحين اطلعت الرئيس، وغسان تويني، وجان عبيد على نبأ الملجأ في وقت لاحق، كان ذلك في رايهم دلالة خطيرة. وبادر غسان تويني الذي يميل الى المنحى التشكيكي في نوايا البشر الى تفسير ذلك بان الحرب اللبنانية لا بد مستمرة. والقضية، بالنسبة له، هي: هل الولايات المتحدة مرتاحة الى ذلك. هل هي ناقمة بعد فشلها في لبنان؟ ام ان الاميركيين لا يزالون يريدون تقديم المساعدة؟ ويبقى السؤال بلا جواب.

ويوم الخميس، ١٩نيسان/ابريل، توجهنا، أنا والرئيس وجان عبيد، والمستشار الرئاسي محمد شقير، الى دمشق. والزيارة هي زيارة عمل ولكنها اعتبرت رسمية. الرئيس الاسد يتماثل للشفاء بسرعة؛ كم هو نحيل، ولكنه قوي، مرتاح في وضعه. وكانت لدينا مجموعة من المشاكل الملحة نناقشها مع السوريين، وهي كلها متشابكة مترابطة. وكانت وثيقة لوزان بمثابة اطار لحل هذه المشاكل. منذ سنة ونصف السنة، كنا نتبع نهجا لعبت فيه الولايات المتحدة دوراً مركزيا. اما الآن فاننا نفتش عن عملية بديلة تتطلب تعاونا وثيقا بين بيروت ودمشق. على أن هذا المسار الجديد كان، على ما يبدو، يفتقر الى التركيز الذي اتسم به المسار الاول، ثم ان هنالك عقبات كثيرة لا بد من تجاوزها. في الداخل، علينا أن نتفق اولا على الاصلاحات، وان تشكل حكومة لتنفيذها، ثم ان نحاول اخراج اسرائيل بواسطة ترتيبات امنية مقبولة، او عبر الامم المتحدة، او عبر النضال الوطني. الترتيبات الامنية، بدون مشاركة الولايات المتحدة المباشرة، بعيدة المنال، على ما يبدو، صعبة التحقيق. والامم المتحدة والنضال الوطني، لم يسبق لهما، وفق معرفتنا، حتى الآن، ان كانا فاعلين في تحرير الارض العربية.

اجتمع الرئيس الجميل والرئيس الاسد على انفراد طوال ساعتين، فيما اجتمعنا، أنا وجان عبيد، بخدام وبوزير الخارجية الجديد فاروق الشرع. عرضت لهما المشاكل التي تواجهنا في الجنوب، والوضع الامني المتدهور في بيروت، والنزاع بين حكومتنا وحلفاء سوريا في لبنان، والوضع الاقتصادي المتدهور، واضعاف الجيش بنتيجة المنشقين عنه. كل هذه القضايا، قلت، تستلزم العمل الملح لتشكيل حكومة وحدة وطنية. عند ذاك فقط نستطيع ان نعالج مسألة الاصلاحات، وعملية إخراج

اسرائيل من الجنوب، والعلاقات الجديدة مع سوريا. وكان خدام والشرع يدونان الملاحظات، وقد آثرا عدم الالتزام بموقف قبل اجتماعنا بالرئيس الاسد. بعد ذلك انضممنا الى الرئيسين في منزل الرئيس الاسد المتواضع.

وكلما دخلت مكتب الرئيس الاسد، وقد اخذ ذلك يحدث مرات متكررة، كنت اتساءل دائما عن وضع المكتب وترتيب الكراسي فيه بحيث يضطر الزائر عند التكلم مع الرئيس الاسد الى ادارة رقبته تسعين درجة. ثم انني كنت اعجب باستمرار كيف ان الرئيس الاسد يستطيع ان يجلس الساعة تلو الساعة، محدثا ضيوفه، وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال. الاجتماعات بالرئيس الاسد متواصلة. الزائرون لا يقال لهم مسبقا كم هوالوقت المحدد للزيارة. والزائر يشعر بانه يستطيع ان يبقى بقدر ما يرغب، وكأنه ليس لدى الرئيس الاسد اي شغل آخر غير محادثته. والرئيس الاسد يمنح ضيفه الوقت الكافي وهو يحدثه في كل المواضيع دون اظهار بوادر التعب او الضجر وفي الاجتماعات التي كانت لنا معه، والتي كانت تدوم ساعات طوالا يتخللها بشكل مستمر تقديم القهوة والشاي، كنت باستمرار استأذنه لبضع دقائق استجابة لفرضيات القهوة، اما هو فيبقى جالساً مرتاحا مبتسما. وقد اتصلت بآخرين صرفوا لديه ٥ـ ٦ ساعات في جلسة واحدة معه في ظروف مماثلة، فأكدوا لي هذا الانطباع.

ولدى دخولي الغرفة، ومشاهدة الرئيسين معا، خطر لي ان الفارق بين الاثنين فارق كبير، لافت للنظر. الرئيس الاسد منشرح، فيما الرئيس الجميل مضغوط. وليس في ذلك ما يثير الدهشة. خلال السنة الماضية حدثت مواجهة بين الرئيسين وربح الرئيس الاسد. عندها وجد الجميل نفسه امام ثلاثة خيارات اولها: تجاهل تكتي للدور السوري والاراضي اللبنانية الخاضعة له، وترسيخ موقعه كماروني على المنطقة الشرقية في بيروت بانتظار التطورات. وهنالك رأي ماروني محافظ قوي يدعو الى مثل هذا الخيار. وثانيها: عقد صفقة مع اسرائيل، وتوسيع سلطة الحكومة في المناطق التي ينسحب عنها الاسرائيليون، واتخاذ موقف علني مكشوف ضد السوريين والعرب. وكانت هنالك اقلية صغيرة جداً في الاوساط المارونية تحث

على انتهاج هذا الخط. وثالثها: التعاون الوثيق مع الرئيس الاسد، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، والعمل بواسطة الدبلوماسية والتفاهم لتوسيع سلطة الحكومة وتعميقها في المناطق الخاضعة لها وللسيطرة السورية، وانتظار الظروف الملائمة التي تؤدي الى الانسحاب الاسرائيلي. وكنا، أنا والكثيرون من مستشاري الرئيس ندعو بقوة الى مثل هذا النهج. وقد بدا لنا ذلك انه الخيار المنطقي الوحيد. المنطقة المسيحية، او الصفقة مع اسرائيل، ليسا خيارين الا لمن اقترحهما.

كنا نعلم ان خيارنا ايضا يواجه صعوبات؛ فالرئيس الأسد يفكر استراتيجيا ولبنان في تصوره جزء من صورة جيوبوليتيكية اكبر تشمل الاسرائيليين والفلسطينيين والايرانيين وسواهم. وهو مرتاح في موقعه يستطيع أخذ وقته وترك التناقضات الاقليمية تتفاعل لمصلحته. اما نحن فلم يكن بوسعنا ان ننتظر كما ينتظر هو.

رحّب بنا الرئيس الاسد في الاجتماع وبدأ يستعرض بنود وثيقة لوزان التي كان قد بحثها مع الرئيس الجميل وقال لنا: انا والشيخ أمين ناقشنا العلاقات بين لبنان وسوريا واتفقنا انه ينبغي ان تكون مبنية على مصالح البلدين العليا. وناقشنا الاجراءات التي تؤدي الى تحقيق هذا الهدف. وبالنسبة لصلاحيات رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، فإن الرئيس سليمان فرنجية عارض وثيقة لوزان لانها، بنظره، تجعل رئيس الجمهورية «باش كاتب». وبحسب الدستور اللبناني يتمتع رئيس الجمهورية بجميع الصلاحيات، ويكاد هذا الدستور اللبناني ان لا ياتي على ذكر رئيس الوزارة ومجلس الوزراء. اما التقاليد فتعطي رئيس الوزراء ومجلس الوزراء صلاحيات واسعة، وهي ما يجب تحديدها في الدستور. اعتقد ان رئيس الجمهورية هو رئيس السلطة التنفيذية، غير انه ينبغي للدستور ان يذكر بوضوح انه يتولى هذه السلطة بالتعاون مع رئيس الوزراء ومجلس الوزراء. وفي الوثيقة الدستورية التي اصدرها الرئيس سليمان فرنجية سنة ١٩٧٦: أن رئيسَ مجلس الوزراء يجب ان ينتخب من قبل المجلس النيابي. انا لا اعتقد ان ذلك ضروري. انا والشيخ امين نعتقد ان اختيار رئيس الوزراء بالتشاور هو الافضل.

وتحدثنا عن الجيش: لا مشكلة هنا. مجلس الدفاع الوطني هو الذي يشرف على الشؤون العسكرية. وعند تشكيل الحكومة الجديدة ينبغي اخذ ذلك بعين الاعتبار، بحيث ان الوزراء الذين يشكلون مجلس الدفاع الوطني يكونون متوازنين طائفيا. واقترح الشيخ أمين حكومة موسعة يكون فيها «الاقطاب» وزعماء الميليشيات وزراء دولة لمعالجة القضايا الاساسية فيما يترأس وزراء تقنيون الوزارات، لاسيما وزارات الخدمات. وجود الاقطاب لا شك يسبب مشاكل، على ان دخولهم في الحكومة الجديدة أفضل من بقائهم خارجها. وبين هؤلاء مشكلة بروتوكولية. هناك المسنون، وهناك الشباب. المسنون لهم سمعتهم وكرامتهم والشباب لهم السلطة الفعلية على الارض. من يتقدم على الآخر؟ يجب ان نفكر في ذلك. انتم تدركون ان هناك شرعية دستورية وشرعية ثورية، والذين يملكون السلطة على الارض عندهم السلطة الثورية والسلطة الفعلية. هنا تدخل الرئيس الجميل وطالب بان يمثل كامل الاسعد لانه احد الاقطاب. والواقع ان الرئيس الاسد لم يكن متحمسا لحكومة تضم الأقطاب. لقد عارضها لبرهة وقال للرئيس الجميل: هل يمكنك ان تتخيل والدك في الحكومة؟ كيف تدعوه الى الالتزام بالنظام؟. «التزام النظام؟»، قال خدام، هل يمكن تصور كميل شمعون والشيخ بيار يستجيبان للدعوة الى التزام النظام؟ تمسك بالشبّان، يا حضرة الرئيس».

وتابع الرئيس الأسد: بالنسبة للادارة، اتفقنا على عدم حصر أي مركز اداري بأيّ طائفة معينة، وأن المراكز في الفئات الادارية العليا، كالفئة الاولى، والمديرين العامين، والسفراء، ومن يعادلهم في الادارة توزع مناصفة بين المسيحيين والمسلمين. وقد علمت انه اتفق في لوزان على تشكيل لجنة لوضع مسودة دستور جديد. وعلى هذه اللجنة ان تعمل على الاسس التي اتفقنا عليها اليوم. ثم انني اوافق الشيخ امين على عدم صدور أيّ وثيقة عن هذا الاجتماع كي لا يشير اليها الناس كوثيقة دمشق. الاصلاح قضية لبنانية، وأيّ بيانات في هذا الاطار يجب ان تصدر من بيروت. سنطلع المعارضة على ذلك يوم السبت ولكم انتم ان تبلغوا الجبهة اللبنانية كما ترونه مناسبا. وهنا اقترح الرئيس الاسد ان يدعو الشيخ امين جميع

الذين شاركوا في مؤتمر لوزان وان يطلعهم على ما جرى في هذا الاجتماع. عند ذاك قاطعه خدام فقال: «ومن يضمن سلامتهم؟» فنظر اليه ثم نظر الى الجميل وابتسم ابتسامة عريضة وكأنه غير مسؤول عن اللذعات الصادرة عن «ابو جمال».

وقال الرئيس الجميل للرئيس الاسد: الحكومة تعمل الآن بصرف النظر عن النصوص الدستورية على اساس المشاركة في السلطة، وان لرئيس الوزراء بالفعل صلاحيات واسعة كصلاحيات رئيس الجمهورية. وارتأى الرئيس ان تنحصر اللجنة المعنية بالدستور بتقديم التوصيات فقط. ووافق الرئيس الأسد على ذلك. وكان الرئيسان قد اتفقا على ان يختار رئيس الوزراء بالتشاور بين الرئيس والمجلس النيابي. وينبغي تعديل وثيقة لوزان تبعا لذلك. كذلك قالا لنا انهما ادخلا تعديلات طفيفة على وثيقة لوزان، وان على خدام وسالم وعبيد أن يضعوا هذه التعديلات بصيغتها النهائية. ثم تكلم الرئيسان الجميل والاسد عن الحكومة الجديدة.

كان الاسد يعتبر الجميل ممثلا للجبهة اللبنانية، واراد بالتالي موازنته برئيس وزراء من جبهة الانقاذ الوطني. وبصفته السني الوحيد في جبهة الانقاذ الوطني، فقد كان رشيد كرامي الخيار الحتمي بالنسبة للاسد. ورحب الرئيس الجميل به، وطالب خدام بأن يجري اختيار جميع الوزراء المسلمين من قبل المعارضة، واراد بالاضافة الى ذلك اعطاء المعارضة حق اقتراح بعض الوزراء المسيحيين. وحين قام خدام بذكر اسماء معينة، استاء الجميل وعارض اقتراحات خدام بشدة، فقابل ذلك الأسد بابتسامة واسعة دالاً على ان لخدام مجالاً واسعا للتحرك. وكان يلذ للاسد ان يشاهد عبد الحليم يهاجم ويشاكس ويصول ثم يتدخل الاسد من برهة الى برهة ليلطف اقتراحات نائبه. وعلى سبيل المثال، اكّد الرئيس الأسد أن الجميل رئيس له صلاحيات معينة يجب ان يمارسها «آخذاً بالوقائع على الارض، بالطبع، بعين الاعتبار».

وحين اجتمعنا، أنا وجان عبيد بخدام لمراجعة التعديلات، رأينا انها طفيفة جدا وان الوثيقة التي اعدها خدام في لوزان، وعدلتها انا مع مروان حمادة، ثم عدلناها قليلا مع خدام بعد مباحثات الجميل مع الأسد، اصبحت فيما بعد البيان الوزاري لحكومة الرئيس رشيد كرامي.

وعند انتهاء القمة تمنى الرئيس الجميل على الرئيس الاسد ان لا يصحبه الى المطار. ولكن الرئيس الاسد رفض ذلك، قائلا انه اذا لم يشيع الجميل بمثل ما استقبل به من مراسم التكريم، فانه لا بد ان يقال بالتالي ان القمة قد فشلت. ولدينا ما يكفي من المشاكل، ولا حاجة بنا للمزيد منها. وغادر وفدنا دمشق بعد منتصف الليل باتجاه لارناكا، حيث نزلنا في فندق «ساندي بيتش». وبما ان طائرتنا الصغيرة لا تستطيع ان تهبط سالمة في الليل بمطار حالات، فقد بقينا في ردهة الفندق حتى الفجر قبل ان نقلع الى حالات.

حكومة الوحدة الوطنية

بعد راحة يوم واحد، بدأ الرئيس استشاراته لتشكيل حكومة جديدة. وكان مستشارو الرئيس قد هيأوا له ست لوائح تعكس كل لائحة منها ميول واضعها. ولقد كان الرئيس يتمتع باشغال مستشاريه بمثل هذه المسؤوليات رغم انه كان قد قرر ان يفعل ما في ذهنه. وكثيراً ما كان جوزيف ابو خليل الذي عمل مع الشيخ بيار الجميل، وشبّه أمين بوالده، يضحك كلما رأى مستشاراً يعمل جاهداً لاعداد لائحة حكومة جديدة. كان يقول له لا تضيع وقتك، ان الحكومة جاهزة في ذهن الرئيس. اما هذه المرة، ومنذ الآن، فان الرئيس لم يعد يقرر وحده كيف تشكل الحكومة اللبنانية. لقد كانت لدمشق وجهة نظرها بالنسبة للشخص الأنسب كرئيسٍ للوزراء، ولمن يكون من حلفائها عضواً فيها، وللمنصب الذي يجب ان يحتله. ثم ان رئيس الوزراء ازداد قوة وثقة في تأليف الحكومات كما ازدادت ايضا قوة رئيس مجلس النواب في تقرير هيكلية الحكومة العتيدة.

واجتمع رشيد كرامي بالرئيس يوم الاربعاء، ٢٥ نيسان/ابريل، مما اثار التكهن بان الرجلين قد اتفقا على حكومة جديدة برئاسة رشيد كرامي. ويوم الجمعة، ألمح لي الرئيس ان رشيد كرامي يريد ان يكون وزيرا للخارجية بالاضافة الى رئاسة الوزارة. وليس من غير المألوف ان يتسلّم رئيس الوزراء منصباً وزاريا او اكثر. منهم من كان يفضل وزارة الداخلية، فيما كان آخرون يفضلون وزارة

المالية. غير أن الرئيس أكّد أنني سأستمر وزيراً للخارجية برغم رغبة رشيد كرامي باشغال ذلك المنصب.

وحين سمعت اسماء الوزراء من الاذاعة يوم الاثنين، ٣٠ منه، لم يدهشني ان يكون رشيد كرامي رئيسا للوزارة، ووزيراً للخارجية ايضا.

وما ان اذيع بلاغ تشكيل الحكومة، حتى اتصل بي الرئيس ودعاني اليه على الفور. وما ان وصلت إلى القصر الجمهوري حتى ابلغني انه طالب بي بشدة، غير ان رشيد كرامي اراد وزارة الخارجية لنفسه. ثم اضاف ان رشيد كرامي يقدرني تقديرا عاليا ويريد أن يعمل معي بأي صفة. ثم استعرض الرئيس الجميل ورئيس الوزراء كرامي المراكز المناسبة واستقر رايهما بالنتيجة على ان اكون مستشارا للرئيس للشؤون الخارجية. وبما ان الشؤون الخارجية هي ميدان الرئاسة إلى حد كبير، فانني بذلك ابقى، كما قال الرئيس، بمثابة وزير للخارجية بالفعل. ولما كنت في اجازة من الجامعة الاميركية في بيروت، وكان هنالك الكثير من العمل، فانني لم اتردد في قبول عرض الرئيس.

وضمت الحكومة المندوبين الذين شاركوا في مؤتمري الحوار الوطني في جنيف ولوزان، باستثناء الرئيس السابق سليمان فرنجية الذي مثّله صهره عبد الله الراسي، وصائب سلام الذي حل سليم الحص محله. وجيء بفكتور قصير، وهو تاجر بيروتي، لتمثيل طائفة الروم الارثوذكس التي لم تكن ممثلة في مؤتمر الحوار الوطني. وقال لي الرئيس انه، هو ورشيد كرامي، فضّلا حكومة مصغرة، كالتي اعلنت، على حكومة من ٢٦ عضوا، كالتي كان قد تحدث عنها هو والرئيس الاسد في الاجتماع الاخير. كان يأمل ان تُنهي الحكومة القتال، وان تدخل الاصلاحات، وان تعمل على انسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان. وفي ايامي الاولى في الحكومة كان صائب سلام قد علمني ان لا اتكلم كثيرا، وان لا اتوقع كثيرا. انه رجل حكيم!

وكان الرئيسان الجميل وكرامي يراهنان على الجمع بين قادة الميليشيات

الشبان والقائدين المسنين الشيخ بيار الجميل وكميل شمعون. وجاءت الحكومة من حيث التاليف والبرنامج، استمراراً لعملية جنيف/لوزان. واعتمد بيانها الوزاري وثيقة لوزان كما عدلت في قمة الرئيسين الجميل والأسد في ١٩ ـ ٢٠ نيسان/ابريل. وفي هذه الحكومة ظل منصب نائب رئيس الوزراء شاغرا. وقد قضت التقاليد ان يشغل هذا المنصب وزير من الروم الاورثوذكس، وقد شغلته بين ١٩٨٢ و١٩٨٤. وهو يعطي شاغله مرتبة بروتوكولية هي الرابعة في الدولة بعد الرئيس، ورئيس مجلس النواب، ورئيس الوزراء. اما الآن، بوجود كميل شمعون في الحكومة، وهو رئيس سابق للجمهورية، فقد ترك منصب نائب رئيس الوزراء شاغرا، مراعاة للرئيس السابق حتى يأتي في الترتيب البروتوكولي عند اجتماع مجلس الوزراء الثالث بعد رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة.

كان علي، في الظروف العادية، ان اتصل برشيد كرامي، واتفق معه على مراسم التسلم والتسليم لوزارة الخارجية، على ان الحرب اوجدت، لسوء الحظ، حواجز سياسية ـ نفسية حالت دون مجيء رشيد كرامي الى القسم الشرقي من بيروت حيث مقر الوزارة. وبدلا من ذلك، توجهت الى مكتب رئيس الوزراء في غربي بيروت وقدمت له عرضا مفصلا لسياستنا الخارجية، واجبت عن اسئلته العديدة حول الشؤون الخارجية.

كان الرئيس رشيد كرامي، لسنوات كثيرة، يعيش في طرابلس بعيدا عن تفاصيل سياستنا الخارجية، الا انه كان يعلم ما يريده بالنسبة لاسرائيل. كان معارضا للمفاوضات المباشرة مع الاسرائيليين. واذا كان لا بد للمفاوضات ان تجري للتوصل الى ترتيبات امنية في الجنوب، فانه كان يؤثر ان تقوم دولة اوروبية، كفرنسا مثلا، بدور الوسيط. واذا تعذر ذلك، فعندها قد يطلب لبنان مساعدة الولايات المتحدة. وقد استأذنته بالاجتماع الى جورج شولتز حين أزور الولايات المتحدة في وقت لاحق من الشهر، واكون في واشنطن بناء على التزام سابق. وعلى الفور وافق على ذلك. كذلك كلفني ان انقل رسالة شفهية لشولتز هي: «ان لبنان صديق للولايات المتحدة وللديمقراطيات الغربية، انه يتمسك بالنظام

الديمقراطي والسوق الحرة، انه كذلك بلد عربي له روابط قوية مع سوريا، ان لبنان يحتاج الى الولايات المتحدة باستمرار لمساعدته لاخراج اسرائيل، وأننا بالغاء الاتفاق، لا نلغي ارتباطاتنا بالولايات المتحدة، وأن علينا، نحن وشولتز، ان نتطلع الى فرص جديدة». لقد تحدث رشيد كرامي في العموميات، وجاءت رسالته عامة، لكنها كانت صادقة. كنت شديد التوق الى تبليغ هذه الرسالة، مع انها عامة، لانني كنت اريد مناسبة لتحسين صورة كرامي في واشنطن، وقد كانت سلبية الى حد كبير.

الفصل السابع

التحولات السياسية

مستشار في الشؤون الخارجية

منذ شهر تشرين الاول/اكتوبر ١٩٨٢ حتى شهر نيسان/ابريل ١٩٨٤، اي خلال الفترة التي شغلت فيها منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، كان النشاط السياسي اللبناني يتمحور حول انسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان. وكنا واثقين، عندها، انه، عندما يتحقق الانسحاب الاسرائيلي يمكن تصويب الانظار إلى الاصلاحات الدستورية.

ما كنا نشك قط في أهمية الاصلاحات الدستورية، ولكننا كنا نؤمن ان الاحتلال الاسرائيلي يعرض وحدة البلاد للخطر ويجب معالجته اولا. إننا، بكل بساطة، كنا نخشى ان تستغل اسرائيل الانقسامات بين اللبنانيين لمصلحتها الذاتية، لذلك كلما كان انسحابها اسرع كان ذلك افضل. ولكن تبيَّن لنا ان مسألة الانسحابات باتت اصعب واكثر تعقيدا مما كنا نتوقع.

حينما باءت بالفشل سياستنا باخراج اسرائيل من لبنان، تحول موضع اهتمامنا لينصب على المشاكل الداخلية. فتجلى عندها اطار عمل جديد: كان يتوجب علينا، بادئ بدء، تعزيز الوضع الداخلي للبلاد، والمطالبة بتطبيق قراري مجلس الامن ٤٢٥ و٥٠٩، وترقب التطورات. ولكن دبلوماسية لبنان في هذا الاطار كانت شبه مجمّدة.

لقد تمحور الجدال الجديد، حول المسائل التالية: لبنان يعاني من حرب اهلية، المسيحيون يتمتعون بسلطة اكبر مما يستحقون، الطائفية وضرورة الغائها، ضرورة تعزيز البرلمان ومجلس الوزراء، ضرورة اعادة صياغة الدستور على ضوء التغيرات على الارض، اسرائيل هي العدوّ وعليها ان تنسحب دون قيد او شرط،

تصاعد اصوات تنادي بنضال وطني ضد اسرائيل، سوريا دولة عربية شقيقة وستبقى جيوشها على الارض لمساعدة لبنان على استعادة سيادته. كانت كل عناصر هذا الاهتمام الجديد صحيحة. ولكنّ بعضها كان مضخّما: فنظريا، هذه الامور تبدو سهلة وبسيطة، ولكنها في الواقع معقدة وذات خلفيات عميقة. وتلت بعد ذلك مسألة الاولويات التي هي، بحد ذاتها، سياسية ومتقلّبة كما يتجلى ذلك بوضوح من مسألة الانسحابات: فمن سينسحب اولا؟: السوريون ام الاسرائيليون؟ الاسرائيليون يفرضون انسحاب سوريا اولا. وسوريا ترفض ان يجري النقاش في شأنها داخل اطار اسرائيلي، رغم تأكيدها بانها ستنسحب فقط بعد جلاء جميع القوات الاسرائيلية. ولكن المثير للقلق الشديد: ان الطوائف اللبنانية كانت تختلف حول تفسير هذا الاتجاه الجديد. فعوضاً من توحّد اللبنانيين بعضهم مع بعض، بدت هذه العناصر وكأنها تهدد بتقسيمهم اكثر فاكثر.

بينما كنا، في البداية، نحاول حل اشكال الاحتلال ومن ثم ادخال الاصلاحات، اصبحنا الان نحاول الاصلاح اولا، ومن ثَمَّ حل اشكال الاحتلال. تأقلمنا بسرعة مع التوجه الجديد. لقد تغيرت امور كثيرة بشكل جذري منذ خريف ١٩٨٢. لم يستطع الرئيس الجميل المحافظة على الاجماع الوطني، فاصبحت مسألة الجيوش مسألة معقدة، ولم تتمكن الولايات المتحدة من اقتراح حل، ولم يكن اهتمام العرب بلبنان سوى اهتمام مرحلي. كان الاعتماد على قرارات الامم المتحدة، والاعتماد على المقاومة الوطنية لطرد اسرائيل، لم يزل من بين خياراتنا، رغم ان هذا الخيار لم يكن الاول بالنسبة لنا اذ كنا نعتبره أقل فعالية من التدخل الاميركي.

كان الرئيس حريصا على التعاون مع سوريا وحلفائها في لبنان. وكان مجمل هؤلاء الحلفاء يشغلون حينها مناصب حكومية: فرشيد كرامي كان رئيسا للوزراء، ونبيه بري وزيرا للعدل، ووليد جنبلاط وزيراً للاشغال العامة. وكان الرئيس الجميل يأمل تحقيق بعض الاهداف بالتعاون مع سوريا، وهذه الاهداف طرحت نفسها بشكل اسئلة: كيف ستنسحب اسرائيل؟ من سيضغط عليها؟ اي نظام جديد ستفرضه اسرائيل في جنوب لبنان؟ هل سينجرّ لبنان بتيار التقسيم؟ هل اصبحت

المعضلة اللبنانية جزءا لا يتجزأ من قضية الشرق الاوسط، واذا كان الامر كذلك، فهل علينا ان نتحلى بالصبر وان ننتظر حلول تسوية اقليمية قبل ان يعود الاستقرار من جديد الى لبنان؟ وكانت: كلما كبرت الشكوك: ازدادت التساؤلات، وتلاشت الاجوبة.

في الثالث من شهر ايار/مايو ١٩٨٤، انتقلت الى القصر الجمهوري بصفتي مستشار الرئيس للشؤون الخارجية. وكنت قد قمت في السابق بهذه المهمة بشكل غير رسمي عندما كنت وزيراً للخارجية. أراد الرئيس حينها، في خريف ١٩٨٢، أن يكون لي مكتب في وزارة الخارجية، ومكتب اخر في القصر الجمهوري، وذلك من اجل تنسيق افضل، وان اوفق بين الاثنين. ولكنني اثنيته عن هذه الفكرة لان ذلك من شأنه ان يثير الشكوك وسوء التفاهم. ذلك ان رئيس الوزراء لم يرض يوما بتوسع صلاحيات الرئيس من خلال التعاقد مع مستشارين. وبشكل متواز، كان الرئيس يشتكي من صلاحيات رئيس الوزراء المتزايدة. وكان كل منهما يحرص في ذلك الوقت على المحافظة على التوازن.

عندما انتقلت اخيرا الى القصر الجمهوري، وجدت نفسي داخل فريق من المستشارين من بينهم محمد شقير، بيار دي صعب، غسان تويني وجان عبيد.

كان شقير مستشار الرئيس لشؤون الإعلام، وهو من كبار الصحافيين السنيين يتمتع بعلاقات وثيقة مع ابناء طائفته. وكان رجلا لطيفا، رزينا وحكيما. كانت تربطه صداقة حميمة برياض الصلح، احد مؤسسي لبنان الجديد، وتقي الدين الصلح اكبر السياسيين سنا في عائلة الصلح العريقة.

كان بيار دي صعب مستشار الرئيس للشؤون المالية، وكان عديله أيضاً، وتعود صداقتهما إلى أيام المدرسة، وكانت عائلته قد حصلت على الحرف «دي» الذي يسبق شهرته اللبنانية من الفرنسيين وطالما اعتبرت هذا الامر غريبا، ولم أناده يوما كذلك الا اذا أردت المزاح. وكان صعب مصرفيا، وفي الحقيقة كان يعد بفارغ الصبر الايام التي تفصله عن عودته إلى القطاع الخاص. وكان بيار يعتبر الرئيس الجميل ضعيفاً

جداً في الأمور المالية على عكس ما يظن الناس. فرغم صداقته الشخصية والوطيدة بالرئيس، كان يشعر ان تأثيره ضئيل جدا عليه وكان يهيئ نفسه للاستقالة.

كان شقير وصعب مستشاري الرئيس الرسميّين الوحيدين، وقد وقعا معه عقودا خطية. أما أنا، فلم أوقع شخصيا على عقد مماثل، بل كنت أعمل بموجب اتفاق شفهي مع الرئيس. وكان كل من غسان تويني، وجان عبيد، وجوزف أبو خليل، وجوزف الهاشم، ولفترة من الزمن ميشال سماحة، مستشارين غير رسميين لم يتقاضوا اجرا ولم يكن لديهم مكاتب في القصر الجمهوري، فكانوا يجتمعون عادة في مكتبي. كان تويني يتمتع بنفوذ كبير لدى الرئيس وغالبا ما كان يجتمع به ليبحث معه الشؤون الداخلية والخارجية. فكان يبرع في المجالين. وبصفته صاحب جريدة رائدة، وهي «النهار»، كان يبدي اهتماما بكل الميادين وغالبا ما كان يحظى بمعلومات أفضل من تلك التي كانت تتوافر للرئيس.

كان عبيد يهتمّ بالشؤون السورية والعربية. وكان على معرفة جيدة بالرئيس حافظ الأسد وأعضاء حكومته، كما كان على علاقة بشخصيات بارزة في العالم العربي. اختلف عبيد مع بشير بينما دعم امين حينما التفّ القليل القليل من حوله. كان يتوقع ان يؤثر على الرئيس، ولكن سرعان ما خاب امله. لقد اعتبر ان الرئيس كان يغربل له المعلومات ولا يبلغه الا القليل منها، الامر الذي كان في نظر عبيد غير كاف لاعطاء فعالية لدوره كمبعوث للرئيس إلى سوريا. كان عبيد يقدم نصائحه للرئيس ويحذّره بصراحة من الخطر الذي كان يشكله اليمين المسيحي، ويلفته الى ضرورة بسط سلطته على المنطقة المسيحية قبل بسطها على المناطق الاخرى. لكن، مع الوقت، شعر عبيد بان وجوده غير مجد، فغادر منصبه.

كان جوزف أبو خليل مستشاراً مقربا من الشيخ بيار الجميل، وعضوا رائدا في حزب الكتائب، ورئيس تحرير في صحيفة «العمل». عندما تولى بشير قيادة الحزب العسكرية، وسعى إلى تبوُّؤ سدة الرئاسة، كان ابوخليل من أقرب مستشاريه، كما كان وسيطا بين الشاب الثائر ووالده المسن الشيخ بيار. تريث الرئيس الجميل طويلاً قبل ادخال ابو خليل معنا، في حين أنني، أنا الغريب عن

سياسة الكتائب المارونية، أديت دورا في اقناع الرئيس بصواب ادخال ابو خليل في فريق عمله. ولحسن الحظ، كانت نصائحي مجدية، لأن أبو خليل عاش ورأى الكثير من الامور منذ اندلاع الحرب، وتوصل إلى قناعات ثابتة وصحيحة. فكان يحبذ الحوار الصريح بين المسلمين والمسيحيين، ويرى لبنان في المخيم العربي، تربطه علاقات قوية وصحيحة مع سوريا، واخيراً كان يتطلع إلى حكومة ذات كفاية تقدّم الخدمات للشعب. وسرعان ما أصبحنا صديقين حميمين نحضّر سويا التحليلات المتعلقة بمختلف ميادين الدولة، ولا سيما التي تتطرق إلى العلاقات العربية، والعلاقات السورية بشكل خاص. وكان أبو خليل وسيطا بين الرئيس من جهة، وقادة الكتائب والقوات اللبنانية والزعماء المارونيين من جهة أخرى. فالذي كان مساعدا مخلصا للوالد بقي إلى جانب الابن في السراء والضراء.

كان جوزف الهاشم، شأنه شأن أبو خليل، عضوا في حزب الكتائب وخطيباً وكاتباً ضليعاً في اللغة العربية بمعانيها وأبعادها. كتب اكثر من خطاب للرئيس، وفي أغلب الاحيان اثار معارك لغوية ضارية مع أبي خليل.

بعد وفاة الشيخ بيار عيّن الرئيس الجميل جوزيف الهاشم وزيراً مكانه وأدّى في هذا المنصب دور الوسيط ليس لدى القادة المارونيين فحسب، بل لدى قادة المعارضة ايضا لا سيما حسين الحسيني ونبيه بري.

شغل ميشال سماحة منصب مستشار الرئيس لفترة وجيزة. وكان من حزب الكتائب ومن القوات اللبنانية. وكان أيضاً على علاقة قربى بالسوريين، وعلى المام كبير بالسياسة السورية، ويعرف كيف يتعامل مع القادة السوريين. ساعدنا مرارا، أنا وأبو خليل، في صياغة المواضيع لتطرح على الرئيس، تمهيدا لاجتماعاته بالرئيس الاسد. لكن اهتمامه الاساسي بقي بالقوات اللبنانية، وبشكل خاص بالسيد إيلي حبيقة. وبعد قليل ترك سماحة الرئيس الجميل ليعمل مع ايلي حبيقة في القوات اللبنانية.

وبما ان فريق عمل الرئيس لم يكن لديه طابع او لون خاص، فقد كان كل عضو

من اعضائه يتصل بالرئيس مباشرة دون أي هيكل نظامي يشجع على العمل النظامي داخل الفريق. وبرغم ان الرئيس كان يتباهى للغاية ببيت المستقبل، وهو مؤسسة فكرية انشأها في السبعينات، وبالابتكارات الادارية والتقنية التي ادخلها إلى القصر الجمهوري، فلم يكن في الحقيقة تواقاً للعمل مع فريق عمل، بل كان لاعباً «منفرداً»، على غرار اغلبية السياسيين اللبنانيين، يرتاح لشخص او لأكثر، ولكن لا يرتاح إلى فريق يجتمع معه بشكل مستمر.

أما أنا، فخبرتي الاكاديمية، واهتمامي بالابحاث والكتابة، وكذلك ميلي الطبيعي إلى عدم الظهور في الواجهة، كل هذه الامور ساعدتني كثيرا لأتكيّف بسرعة مع دوري كمستشار. عملت بشكل خاص في الشؤون الخارجية، ولكن بما ان نواحي متعددة من السياسة الداخلية في لبنان نواحٍ في طياتها بعد خارجي، فغالبا ما وجدت نفسي مضطلعا بمهمة ذات طابع داخلي.

واجهت حكومة الرئيس كرامي مشاكل شتّى من ساعة تشكيلها، وطلب مني الرئيس المساعدة في حل هذه التعقيدات. فكان الرئيس السابق سليمان فرنجية يطالب باستقالة الشيخ بيار وفكتور قصير وأن يُستبدل بهما وزيران يسميهما هو شخصيا. اما وليد جنبلاط، فرفض حضور الاجتماعات في القصر الجمهوري في بعبدا رغم قبوله بمنصبه الحكومي. فبالنسبة إليه، كانت الطريق غير آمنة، وخشي ان يحاول مسيحيون ناقمون اغتياله في طريقه إلى القصر. ونبيه بري رفض المشاركة اذا لم تنشأ حقيبة وزارية جديدة لشؤون جنوب لبنان تناط به. أما صائب سلام، احد أهم زعماء لبنان، فلم يُدْعَ للمشاركة في الحكومة ولم يُمَثَّل فيها، رغم انه كان فريقاً اساسياً في مؤتمري جنيف ولوزان.

كانت بعض المشاكل مستعصية، فكان فرنجية يريد الحصول على ضمانات سياسية على مستوى مقامه في السياسة اللبنانية. فقمت أنا ومحمد شقير بزيارته مرارا. واخيرا قبل على مضض بعدم عرقلة الامور. ورضي جنبلاط بحضور اجتماعات مجلس الوزراء في بكفيا، بلدة الرئيس، بعد ان أصبحت الطريق من المختارة (بلدة جنبلاط) إلى بكفيا سالكة وآمنة، كما حصل بري على وزارة الدولة

لشؤون جنوب لبنان. كانت أغلب المشاكل الامنية المتعلقة بالذهاب والاياب من بكفيا قد سوّيت من خلال استعمال الطوافات العسكرية لنقل الوزراء وحرّاسهم. ونعني بالحراس ميليشيا صغيرة مدججة بالسلاح لكل من زعماء الميليشيات الكبار.

وكان جنبلاط، المعروف بروح الدعابة وطبعه المرح، يخرج احيانا من اجتماعات المجلس ويقترب من الحرس الجمهوري ليستعلم عمّن منهم ينوي الغدر به، الامر الذي كان يخيف فريق حرسه الخاص.

رغم أن أهداف الرئيس كانت ترمي إلى انشاء علاقات ودية جداً مع سوريا، فقد كلّفت شخصيا المحافظة على الروابط بالولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. فكنا على علم ويقين انه، عاجلا ام آجلا، سنحتاج إلى مساعدة اميركا والسعودية لتحقيق الانسحاب الاسرائيلي من أراضينا. ومع ان الاميركيين كانوا قد حذفوا اسم لبنان من لائحة الاولويات، فقد بقي بلدنا على شيء من الاهمية بالنسبة إليهم لأسباب مختلفة، فكانوا يتخوفون أن يصبح لبنان مرة ثانية ساحة قتال تتجابه فيه سوريا واسرائيل، في حين أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت لا تزال متواجدة فيه. بالإضافة إلى ذلك، كان لبنان يتحول، يوما بعد يوم، مركزا للاصولية الاسلامية، الامر الذي يستدعي اهتماماً دولياً. وإذا ما بقي لبنان فوضويا، فقد يكون ذلك بمثابة تهديد للمصالح الاميركية في المنطقة، كما قد يهدد عملية السلام في الشرق الاوسط. وربما كانت الولايات المتحدة تحاول ان تنسى المحنة التي عاشتها في لبنان. ولكن سرعان ما ادركت ان الدول العظمى لا يمكن ان تنسى المحن الكبيرة او تتجاهلها.

كانت للاميركيين نظرة ثانية لا تقل اهمية عن الاولى لاهتمامهم المتواصل بلبنان، وهي نظرة ثقافية واقتصادية. فقبل دخول الاميركيين إلى حلبة الشرق الأوسط، على أثر الحرب العالمية الثانية، كانوا قد أنشأوا في لبنان وجودا ثقافيا في غاية الاهمية من خلال الجامعة الاميركية في بيروت ومؤسسات ثقافية اخرى، كما انشأوا مصالح تجارية. فمن خلال الجامعة الاميركية في بيروت، مثّل لبنان دوراً ثقافيا اقليمياً مهما اذْ أخذ يستقطب المفكرين والطلاب العرب، ويؤثر على التيارات

الثقافية والسياسية في المنطقة. بعد استقلال لبنان عام ١٩٤٣، أصبحت بيروت، بفضل نظامها السياسي المنفتح، عاصمة العالم العربي الاقتصادية والثقافية. فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، جذب النظام الاقتصادي الحرّ في لبنان الاستثمارات الاميركية، وأضحت بيروت القاعدة الاساسية لعدد كبير من الشركات الاميركية العاملة في العالم العربي، وحتى في منطقة الشرق الأوسط ككل. فما كان من صالح الولايات المتحدة الاميركية، ولا من صالح لبنان، ان يقطعا بشكل جذري الروابط التي نمّاها الاثنان سويا خلال عقود طويلة من الزمن. وحتى حكومة الرئيس كرامي، رغم تهجّمها على الولايات المتحدة، لم تكن ضد الاميركيين. فكان الرئيس كرامي رجلا عملياً، أراد الحصول على المساعدات أيّاً ما كان مصدرها. ودمشق أيضا لم تكن ضد فكرة ادخال الولايات المتحدة في مجالات سياسية لبنانية خاصة، اذ انها أرادت، هي أيضا، المحافظة على درجة من المصداقية في الشؤون الدولية. لقد سرّ كرامي ذات يوم عندما التمست رأيه في الذهاب إلى واشنطن، وحثّني على السفر وهو يفصح لي عن ليونته، واستعداده لاختبار افكار جديدة، ورغبته في التعاون مع الرئيس الجميل. وكانت صورة كرامي في واشنطن في امس الحاجة إلى تنميق، فكان الاميركيون يعتبرونه قديماً في تفكيره وكانوا يلقبونه «باستاذ البلاغة».

في ربيع ١٩٨٤، وجدتُ واشنطن مختلفة عما كنت أعرفه عنها. فالخوف من «الارهاب الاسلامي» كان قد تغلغل إلى عمق النظام الحكومي الاميركي. حتى ان البيت الابيض كان محاطاً باكياس من الرمل، وكذلك المنطقة المحيطة به. وهذا يذكرك رأساً بالمتاريس والخنادق القائمة في بيروت الاقتتال.

كان الامير بندر قلقا للغاية من التهديد الذي كانت تشكله ايران للملكة العربية السعودية، وكان يتكلم عن نيته بمغادرة منصبه الدبلوماسي والانضمام إلى القوات الجوية السعودية.

اما واشنطن، فكانت تعادي ايران وحزب الله وسوريا.

استمع الرسميون في واشنطن إليّ بكل تهذيب. ولكن الواضح ان شغلهم

الشاغل كان طهران. فكانوا يعتقدون ان رسالة كرامي غير واقعية. وقال مكفارلين ان كرامي يبدو وكأنه يريد اخراج اسرائيل من لبنان بالكلام، ولكن اسرائيل لا تنوي ذلك. اما شولتز، فأبدى خيبة امله بعد كل الجهود والمساعي التي قام بها، وأشار إلى ان حكومة كرامي عليها ان تبرهن عن مصداقيتها. واذا ما اختار كرامي ان يتجه إلى السوفيات، فلن يلقى تجاوبا في واشنطن واذا ما اتجه الى الامم المتحدة، فلن يلقى أي نتيجة. وقد اخبرني بارثولوميو لاحقا ان شولتز كان متوتر الاعصاب قبل اجتماعي به. فكان يخشى ان تكون جلستنا جلسة صعبة، فقد سأل بارثولوميو «ماذا يريد مني إيلي؟ هل سينهمر علي بمئات الاسئلة منتظراً مني اجوبة شافية امام تسعة اشخاص يدونون محاضر؟» كان لا بد يعود بفكره إلى المفاوضات الصعبة التي سبقت اتفاقية ١٧ أيار. فبالطبع طرحت عندها اسئلة صعبة ومحددة وذلك لأنني كنت أمثل الطرف الضعيف وكنت أبحث عن ضمانات. وكان لدي امينة سر واحدة تدون المحاضر هي إيتمار دياب. اما الطرف الاميركي، فكان دائماً لديه تسع سكرتيرات يدونّ المحاضر ويوزعنها فوراً على عشرات الدوائر في النظام البيروقراطي الاميركي الضخم. وغالبا ما شكوت لشولتز انزعاجي من هذا العدد الهائل من «مدوني» المحاضر، وكان رده ان البيروقراطية الاميركية، تحب الاوراق والملفات وكثيراً ما تكون مشغوفة بها.

اما في وزارة الدفاع، فسمعت كلاماً «قاسياً» عن الرئيس كرامي قاله المسؤولون عن قضايا الشرق الأوسط. لقد اتهموه بالبلاغة البعيدة كل البعد عن السياسة، وشبهوه بالزعماء الفلسطينيين الذين احسنوا واكثروا الكلام دون نتيجة على الأرض، حتى انهم خسروا بهذه الطريقة جزءاً كبيرا من فلسطين. ولكنهم كانوا يجهلون شخصية كرامي الحقيقية الذي كان، في الواقع، معتدلاً ورجل دولة. وقد قدمت لمحدثي فكرة ايجابية عن كرامي الذي كنت اكن له كل احترام ولكن الانطباع السلبي عنه في واشنطن كان متأصلاً. علاوة على ذلك، كانت واشنطن وقد تعذبت كثيراً في لبنان تعض على جرحها، فلم يكن الوقت ملائماً ابداً للتكلم عن كرامي او الخوض في عملية دبلوماسية جديدة في لبنان.

في نهاية زيارتي إلى واشنطن، بدا لي واضحا أن الولايات المتحدة لم يعد لديها اهتمام كبير بالقضية اللبنانية. فالرسميون الاميركيون الذين التقيتهم كانوا غير ودّيين، وقضوا وقتهم بالتهجم على كرامي. وبالرغم من الموقف الرسمي القائل بان الولايات المتحدة تدعم استقلال لبنان وسيادته ووحدته، لم يكن متوقعا ان يدخل الاميركيون، ذلك الوقت، في مسار جديد لتحقيق هذه الاهداف. كان علينا ان نتكل على انفسنا. فكانوا «يتفهمون» موقفنا ولكن لا يدعمونه بالضرورة.

كانت الرسالة الاميركية رسالة واضحة: «الغيتم اتفاقية ١٧ ايار، فتدبروا الامر الآن مع سوريا». رغم توقع الرئيس الجميل لهذه الرسالة، فإنه لم يكن مسرورا. قال لي: ان الولايات المتحدة لم تكن تسلك الطريق الصحيح، واضاف بمرارة انه، من الآن فصاعدا، سيعمل تماما عكس ما تريده الولايات المتحدة، عندها سيكون اكيدا انه على الصراط المستقيم.

اعلمني كرامي انه سيحاول تعزيز التدابير الامنية من جهة واحدة في الجنوب، فاذا نجحت الخطة كان به، والاّ فانه سيعتزل السياسة ويعود الى طرابلس. اقلقني للغاية كلامه هذا.

كنت انا وكرامي نتحدث لغتين مختلفتين، وكان لكل منا تطلعات مختلفة. هو ينظر الى الداخل وانا انظر الى الخارج، كان يتكلم للمدى الطويل، بينما كنت اتكلم للمدى القصير، كان درس طريقة لاخراج الاسرائيليين، وقرر انه سينسحب من السياسة اذا لم تنجح، وكنت اود اختبار عدة طرق وشعرت انه لا يمكنني الانسحاب. كنت احب كرامي واكن له اعجابا كبيرا لوطنيته ونزاهته وكنت آسفا جدا لعدم مشاطرته الرأي. ولكن اسلوبينا كانا مختلفين كل الاختلاف ولسوء الحظ قد حالا دون ان يتفهم كلٌّ منا موقف الآخر.

إن الرئيس الجميل، الذي كان يحب دائماً ان يبقى مقربا من الولايات المتحدة، بدأ يبتعد عن واشنطن. ووفقا لتعليماته، لم تأت الصحف يوما على ذكر الزيارات التي كان يقوم بها بارثولوميو الى القصر الجمهوري: لان الرئيس اراد ان تكون هناك مسافة واسعة بينه وبين الاميركيين. فقد حذا هذا الحذو لمدة سنتين بدون نتيجة.

وكان بارثولوميو مغتاظا لتغير الموقف هذا، واعلم الرئيس ورئيس الوزراء بان انسحاب اسرائيل من لبنان غير وارد دون مساعدة اميركا.

في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة بعيدة جدا عن الساحة اللبنانية، شعرت ان بارثولوميو هو الذي كان يصنع السياسة الاميركية بنفسه، وهو الذي ابقى واشنطن معنية بالشؤون اللبنانية، ففي حين أنه، في الماضي، عندما اطرح عليه سؤالا محرجا، كان يؤجل الجواب حتى تصله التعليمات من واشنطن، لاحظت الآن انه كان لديه جواب عن كل سؤال، كان يعتمد بذلك على تفهمه لمنطق الحالة السياسية الراهنة. وكان يبرع في الارتجال والعموميات الملائمة للوقت حينذاك. وكان يعرف حدوده ويعمل بموجبها.

في ٢٦ تموز/يوليو، أعلم بارثولوميو الرئيس عن نيته لنقل مكاتب السفارة من المركز المؤقت في السفارة البريطانية غربي بيروت، حيثما انتقلت السفارة اثر انفجار سيارة مفخخة، الى مركز معهد الصناعة في الجوار، وفتح فرع آخر للسفارة في منطقة عوكر شرقي بيروت. اعترض الرئيس الجميل على هذا الاقتراح، ونصح السفير بعدم الافشاء عن نيتهم بنقل مقرهم، إذْ ان الامر سيترجم كاعتراف صريح بتقسيم البلاد. وأصر بارثولوميو، من جهته، على ضرورة الاعلان عن ذلك لاعلام الشعب عما كان يحدث. ان انعدام التنسيق بيننا وبين الاميركيين حول موضوع بهذه الاهمية كان خير دليل على العلاقة المتشنجة التي نشأت بين بيروت وواشنطن.

اتجاهات جديدة

رغم مشاكلنا الخارجية المختلفة، كان اهتمام الدولة بشكل عام منصبا، في هذه المرحلة، على الشؤون الداخلية. فالقتال لم يكفّ رغم تشكيل حكومة الاتحاد الوطني. وقد توصلنا الى الخطة الامنية بعد ان كان اتفاق لوزان ينتهك يوميا. وان الخطة لتشكيل «مجلس» يضم ٣٢ عضوا لصياغة دستور جديد لم تكن تسير على ما يرام. كذلك، فشلت كل الجهود الرامية الى تحسين العلاقات بين الرئيس وزعماء المعارضة، اوبين الرئيس وابناء طائفته المارونية الاكثر تصلبا منه.

كان الرئيس يتوقع ان تساعده سوريا في علاقاته مع فرنجية، وكرامي، والحص، وبري وجنبلاط. ولكن اغلبية هؤلاء الزعماء كانوا قد جمّعوا ميليشيات ضخمة، وانشأوا علاقات اقليمية ودولية واصبحوا حاكمين مستقلين بكل معنى الكلمة. فلم يكن باستطاعة سوريا ان تقنعهم بسهولة لدعم الجميل. وبالاحرى، كانت سوريا غير مبالية كثيرا في تقوية علاقاتها مع الجميل على حساب علاقاتها مع حلفائها الموثوق منهم.

ويجدر التذكير هنا ان الاسد لم يبتهج للغاية عندما الغى الجميل اتفاقية ١٧ ايار، اذ أنها بنظره كانت اتفاقية ميتة من قبل. فلم يفتأ الاسد يذكر الجميل بانه كان يدفن جثة هامدة، وما دوره فيها الا تدبيرمراسم الدفن، في حين ان الجميل كان يظن ان الغاء الاتفاق خطوة مهمة تستحق تقدير دمشق له ودعمه سياسياً.

كان الذين دعموا الرئيس في داخل الحكومة يشيخون في السن، او يفتقرون الى قاعدة نفوذ قوية. فلم يعد لكميل شمعون وبيار الجميل النفوذ الذي تمتعا به داخل الطائفة المارونية من قبل، اذ تسلم السلطة بعدهم قادة شبان اكثر طموحا وهم ثمرة الحرب: فادي افرام، ايلي حبيقة وسمير جعجع. اما فكتور قصير وهو تجاري يفتقر الى الخبرة السياسة فكانت مساعدته محدودة جدا داخل مجلس الوزراء، وكان كلما تفوه الوزير قصير بكلمة، نصحه جنبلاط بالعودة الى متجره «لبيع الشراشف والمناشف»، الامر الذي كان يغيظ التاجر المتواضع.

وفكر الرئيس باستبدال كل من شمعون والشيخ بيار وقصير، ولكنه كان يخشى مردود القرار وقال لي: «اعتقد ان والدي قد يموت اذا ما طلبت منه ان يستقيل». رغم ان الشيخ بيار كان مريضاً وكان في آخر ايامه، فقد ظلّ يتردد الى الاجتماعات الوزارية ويلقي محاضرات طوالا ويتكلم عن لبنانٍ لم يعد موجودا الا في مخيلته.

في غضون ذلك، كانت اسرائيل تعزّز موقعها في الجنوب، وكنت قد التقيت سياسيين لبنانيين من الجنوب وصفوا لي النشاط الاسرائيلي هناك واخبروني ان الاسرائيليين باقون في المنطقة للمدى الطويل، وحتى اذا ما انسحبوا، فقد يعودون

مجددا عندما يرتأون ذلك. وكان الاسرائيليون يحثّون الزعماء الجنوبيين على انشاء ادارات محلية، وكانت اسرائيل تسوّق السلع الاسرائيلية في كل المناطق. وبدت اسرائيل وكأنها تنوي توسيع سوقها في الجنوب، وتطبيع علاقاتها في المناطق المتواجدة فيها. فالسوق المنفتحة، التي طالبوا بها في الاتفاقية ولم يحصلوا عليها تسنت لهم في ظروف الامر الواقع، وكانت السلع الاسرائيلية تهرّب من «الحزام الامني» الى كل المناطق اللبنانية. وكان نظام المراقبة في البلاد ضعيفا للغاية ليضبط تدفق البضاعة هذا. واعلمني سياسيو الجنوب ايضا ان القادة العسكريين الاسرائيليين استدعوا علماء اسرائيليين ليستشيروهم في كيفية تعامل الجيش الاسرائيلي مع الشيعة والموارنة والسنة والدروز. وكان جيش لبنان الجنوبي المدعوم من اسرائيل يزداد قوة يوما بعد يوم. وكان الاسرائيليون يخبرون الشعب في الجنوب ان الحكومة اللبنانية تجاهلت وضعهم، وأن اسرائيل تريد العيش بسلام معهم. ولكن من اجل كبح العنف والارهاب، كان الاسرائيليون يمارسون سياسة العنف، فيقتحمون المنازل ويوقفون السكان ويعدمون الذين يتهمونهم بالقيام بنشاطات مناهضة لهم او يبعدونهم عن البلاد. وحذّرني سياسيو الجنوب من خطر استمرار هذا الوضع فيصبح الجنوب عندها شبيها بالضفة الغربية او قطاع غزة. كانوا قلقين بشأن شعبهم وأملاكهم ونفوذهم وكانوا يطالبون بموقف لبناني يخرج اسرائيل من الجنوب.

كان الاسرائيليون ايضا يحرضون طائفة على طائفة، وكانوا قد استغلوا الفروقات بين المسلمين والمسيحيين لتنمية الخوف في قلوب المسيحيين في الجنوب. كانت اسرائيل تركز ايضا على اكبر طائفة في الجنوب وهي الشيعة. فكان الشيعة منقسمين الى اربعة تجمعات واسعة: حركة امل، حزب الله الاصولي، القيادة الشيعية التقليدية وتجمعات يسارية. وكانت اسرائيل تحاول الاتصال بكل هذه الاطراف لاسيما القيادة التقليدية لتحسين العلاقات معها. وكان غيظ السياسيين يتفاقم مع مجرى الاحداث. فما من احد كان يأتي على ذكر الانسحاب الاسرائيلي الا في اطار غارات ابو جهاد او من خلال حرب دينية. كانوا على ثقة بان اتجاه الاحداث

هذا قد يرسخ الوجود الاسرائيلي في المنطقة الواقعة جنوب نهر الليطاني. بعد هذا العرض، ناشدونا المباشرة باي نوع من المفاوضات التي قد تؤدي الى انسحاب اسرائيلي نهائي.

فترة استراحة وجيزة

خلال هذه الفترة، شعرت أني لم ارتح قط منذ ساعة انضمامي الى الحكومة في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٨٢. نظرت الى الروزنامة، فكان واضحا اني لن اتمكن من الاستراحة يوما الا اذا ما اتخذت قرارا متعمَّداً بذلك. فلازمت البيت خلال اول اسبوع من شهر آب/اوغسطس. وكما اعتدت الاستراحة بقراءة كتاب جيد، فقد انتهزت الفرصة لاعادة قراءة كتاب اوسڤالد شپنغلر: «انحطاط الغرب» "Oswald Spengler's The Decline of the West" فاخذني هذا الكتاب بعيداً عن الروتين وكان مفيدا، مشوقا يذكر بدور الفكر في مسيرة التاريخ. وطالما استهوتني الفلسفة الالمانية واعجبت بالفكر الالماني السياسي والتاريخي. عندما كنت في سن الشباب، اردت ان اتابع دراستي في المانيا بعد ان تخرجت من الولايات المتحدة ولكن «تَجْري الرياح بما لا تشتهي السُفُنُ». وربما كان هذا الذي زاد اعجابي بحيوية الفكر الالماني وعمقه ومجاله الواسع. وعندما انتهيت من شپنغلر Splengler، انتقلت الى نيتشي Nietzsche وكتابه الشهير الذي لا مثيل له: «هكذا تكلم زرادشت» "Thus Spake Zarathustra" فزرادشت نيتشي هو، في الحقيقة، اعادة تقييم للقيم واعادة اعتبار جذرية لمسار الفكر الاوروبي.

تساءلت، طيلة فترة استراحتي هذه: هل بقائي على المسرح السياسي رأي صائب؟ فلعالم الفكر جاذبية لا توازيها جاذبية، ولكن الجاذبية تكمن ايضا في الحياة العامة، وفي فرصة المشاركة في خلق الاحداث التي، بمجملها، وبعد مرحلة من الزمن، تصبح هي التاريخ. لقد احترم الرئيس اسبوع استراحتي ورغم انه كان يرغب كثيراً في التحدث مطولا على الهاتف، فانه لم يطلبني يوما. وهذه مبادرة منه قدرتها كل التقدير.

عندما انتهت فترة استراحتي، دعاني الرئيس لتناول العشاء مع عائلته. وقال

لي: إن الاسبوع الفائت كان مريعا. فقد تشاجر مع كرامي والحص وبري وبارثولوميو، وكان الرئيس يتأفف ويشتكي من كل شخص وكل شيء. كان منزعجا للغاية اذ ان بارثولوميو زاره فقط من اجل اخذ بعض المعلومات واعطائه النصائح، ولكنه لم يطلع الرئيس يوما على السياسة الاميركية في المنطقة. وقال لي الرئيس: «اعرف ما يريده الاسد. يريد ان يكون له نفوذ في سوريا الكبرى، ولكني لا ادري ماذا يريد ريغن، وعندما اغمض عيني اسمع الاميركيين يقولون لي: شكلوا حكومة ذات قاعدة واسعة. لقد قمت بذلك تماما، فشكلت حكومة الاتحاد الوطني ووضعها اليوم مأساوي، فهي اشبه بساحة قتال منها بحكومة. فذكّرني يا إيلي ما قاله النبي محمد عن زوجاته؟ هل قال استشرهن وخالفهن؟ فلا تدع ذلك يغرب عن بالنا ونحن نتكلم مع الاميركيين. اما في ما يتعلق باهدافي، فأكاد افقد صوابي عندما افكر بها وبوسائل تحقيقها. فبدل تحقيق الاهداف الكبيرة، احاول فقط ادارة الازمة يوما بعد يوم. اما القرار حول المسائل الكبيرة فهو يؤخذ في كل عاصمة من العالم الا في بيروت».

كانت حكومة الاتحاد الوطني منقسمة على نفسها، وسرعان ما لقبت بحكومة «الانقسام الوطني». وكان بعض اعضائها يتشاجرون داخل المجلس اذا ما التقوا، ويتقاتلون في شوارع بيروت. فمعركة الشارع كانت محكومة بمنطق سياسة الميليشيا وطالما كانت سياسة الشارع في لبنان على حساب سياسة الدولة. وبدأت الحركات الاصولية تهاجم المصالح الغربية في لبنان واصبح الغربيون يغادرون البلاد بسرعة.

كان لهذه الاحداث نتائج غير مباشرة على الحكومة اللبنانية وزادت في عزلتها. حتى إن دولاً عديدة بدأت تتجاهلنا كحكومة عندما بدا واضحا ان القرار كان في دمشق وفي يد قادة الميليشيات وان الحكومة اللبنانية لا تملك سوى نفوذ ضئيل في البلاد. وبينما كان في الماضي لكل دولة مهمة سفير في بيروت، بدأ عدد كبير منها الآن ينقل سفراءه الى عمان، ودمشق وقبرص، وكان هؤلاء السفراء (انطلاقا من مراكزهم في هذه الدول المستقرة) يقومون بزيارات خاطفة الى بيروت لتقصّي ما

يجري فيها. لقد اثارت هذه الممارسات غيظنا واستياءنا. ولحسن الحظ، لم تَحْذُ الدول العظمى، ولاالدول التي حافظت على اهتمام خاص بلبنان حذو البلدان الاخرى. فنقل الاميركيون سفارتهم من غربي بيروت الى عوكر في شرقي بيروت، كما فعل البريطانيون والفرنسيون والايطاليون، وابقوا خلال مدة على فريق عمل صغير في غربي بيروت. كانت السفارات الاجنبية تنكمش على نفسها بينما المجموعات الاصولية تزداد قوة عبر احتجاز الرهائن الذي كان يشل الى حد بعيد نفوذ الدول العظمى ويرغمها على مغادرة الساحة اللبنانية.

نهار الخميس ٢٠ ايلول/سبتمبر، انفجرت سيارة مفخخة اخرى يقودها سائق انتحاري في السفارة الاميركية في عوكر، مسببة مقتل ٢٥ موظفاً، من بينهم شخصان اميركيان. وعندما انفجرت العبوة، كان السفير بارثولوميو يعقد اجتماعا في المبنى مع السفير البريطاني دافيد ميرز، فجرى نقل السفيرين الى أحد مستشفيات المنطقة، وتوجهتُ لتوي الى هناك. كان ميرز، عندما وصلت، مغطى بالاضمدة وقد تورمت احدى عينيه، وتبدو بعض الجروح على وجهه ويديه. اما بارثولوميو، فقد عاد إلى مقره بعد أن ضمدت جراحات وجهه، واصر ميرز، الذي كان لم يزل تحت تأثير الصدمة، على التحدث عن الكارثة، فأعطاني نظرة مفصلة عن الحادث وكانت كلماته احيانا غير متناسقة. كان مجتمعاً مع بارثولوميو في مكتبه بعوكر، عندما هز المبنى انفجار، فتزعزع الجدار من خلف بارثولوميو، وانهار على السفير الاميركي مسمرا اياه على مكتبه. وحاول بعض الشباب نشل بارثولوميو، ومن ثم نقل السفيران الى المستشفى. وختم ميرز قائلا: «كم هي خطرة حياة السفير في ايامنا هذه». اما بارثولوميو، فكانت أعصابه منهارة، فهو الذي كان اتخذ القرار بنقل السفارة الى عوكر وهو الذي دعا خبراء اميركيين لوضع تدابير امنية مشددة، ومع ذلك كله تجرّأ شاب فجر نفسه وفجر معه هذا الحصن المنيع. وتساءل بارثولوميو أمامي: «كيف تريدني ان أؤمن الحراسة الآن لحماية الموظفين».

مع الوقت، انشأ بارثولوميو مجموعةً من الحراس بلغ عددها خمسمائة شاب.

وقد عرفت هذه المجموعة بـ«ميليشيا بارثولوميو» اذ انها كانت ترعب اللبنانيين كلما كان اعضاؤها المستنفرون والمدجّجون بالاسلحة يواكبون السفير في ذهابه وايابه.

مجموعة اطلقت على نفسها اسم «الجهاد الاسلامي» اعلنت مسؤوليتها عن عملية عوكر. وكانت هذه المنظمة، التي ستشتهر قريبا بسبب خطفها للاجانب في بيروت، قد سبق واعلنت مسؤوليتها عن عدد من العمليات الكبيرة ضد اسرائيل والقوة المتعددة الجنسيات في بيروت، ولكنها لم تنفذ يوما عملية من هذا القبيل في المناطق الشرقية المسيحية للبلاد. ولأنّها تستطيع تهديد المصالح الاميركية في هذه المنطقة من العاصمة، فقد أثارت إشاعات مفادها ان الاميركيين قد يغلقون سفارتهم ويرحلون. وسرت هذه الاشاعات لمدة طويلة رغم المواقف العكسية من واشنطن. وكان الالمان الغربيون والايطاليون والبريطانيون والسويسريون والبلجيكيون وغيرهم قد تلقوا تهديدات مماثلة من منظمات اصولية، وكلهم خطر لهم امر اغلاق السفارات او سحب موظفيهم لفترة من الزمن.

لم تكن السلطات الغربية الوحيدة التي عانت من تصاعد العمل الأصولي في لبنان. فالسفارة السعودية اصبحت، هي ايضا، هدفا لهجمات متتالية من الاصوليين الشيعة. وخلال تظاهرة احتجاج ضد القيود التي وضعتها المملكة العربية السعودية على الشيعة الراغبين في الحج الى مكة والمدينة، أحرق العلم السعودي واستبدلت بصورة الملك فهد صورة الامام الخميني واضرمت النار بمبنى السفارة. بعد هذه الحادثة، اغلق السعوديون سفارتهم في بيروت، وبدأوا يعتمدون كليا تقريبا على السيد رفيق الحريري لادارة علاقاتهم السياسية بلبنان. اما الحريري، فانه، بعد ان ادرك مكان تواجد السلطة، جعل إقامته في دمشق اكثر من إقامته في بيروت. وكان يتنقل في دمشق بكل حرية ويجتمع بكل القادة الذين يهمه امرهم.

لم تكن العلاقات بين السعوديين وكرامي تسير على ما يرام. فكان السعوديون ينتظرون منه، بصفته رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية، ان يتصل بالملك فهد، ويعتذر منه عن هذه التظاهرة العنيفة ولكنه لم يقم بشيء. كان كثيراً ما يشكر سوريا في خطاباته لدورها الايجابي في لبنان ويتجاهل الدور السعودي تجاهلاً

كلياً. ولكن ما اثار سخط السعوديين هو كيفية تعامل كرامي مع هبة مالية كان قد ارسلها السعوديون اليه. لقد قدموا مبلغ ١,٢٥٠,٠٠٠ دولار اميركي لبعض السياسيين الكبار، وكان كرامي من بينهم. ولدى تلقيه الهدية صرح قائلا: كنا ننتظر هدية من السعوديين وظننا انها ستكون «تمراً سعوديا». فبدل التمر وصلنا مليون ومئتان وخمسون الف دولار اميركي، وقدّمنا هذا المبلغ لتوّنا الى اساتذة وطلاب من اجل تعزيز التعليم في طرابلس.

موقف كرامي هذا يستحق حقا كل الاعجاب والتقدير لانه موقف نادر لدى السياسيين. ولكن التصريح الذي أدلى به علنا ضايق السعوديين واحرج موقفهم، اذ انهم غالبا ما كانوا يدفعون مبالغ كبيرة واحيانا تلبية لطلب ملحّ من السياسيين انفسهم. وعندما زار كرامي المملكة العربية السعودية بعد وساطات طويلة، انتقد السعوديين علنا لتكريمه بهذه الطريقة المفرطة، وسألهم: لم هذه الزهور كلها؟ اليس من الافضل انفاق هذه المبالغ على امور اكثر افادة؟ وتساءل السعوديون عندها: هل كانت نيته الحقيقية اثارة غيظهم أم أن الامر يقتصر على عدم معرفته بالبروتوكول؟ في الواقع كان كرامي رجلاً مقتصداً، فكان يعيش في منزل متواضع، ولم يكن يصرف الكثير على نفسه او على مرافقيه، فكان اظهار المال والثراء مخالفا لذوقه، ويفضل توجيه هذه النفقات الى مساعدة الفقير والمعوز. علاوة على ذلك، كانت روابطه بدمشق وثيقة للغاية، حتى انه كان لا يبالي بمضايقة السعوديين.

زيارة الى الامم المتحدة

قرر كرامي، بصفته رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية، القيام بزيارة للامم المتحدة والولايات المتحدة الاميركية للاصرار على سياسته باخراج الاسرائيليين من لبنان بموجب القرار ٤٢٥. قدم اجتماع الجمعية العامة له هذه الفرصة في اواخر شهر ايلول/سبتمبر ١٩٨٤. فدعا بري لمشاركته في هذه المهمة، وكم كانت دهشة الرسميين الاميركيين كبيرة عندما صرح، هو وبري، علنا عن نيتهما الاجتماع بالرئيس ريغن في حين ان هذه الزيارة لم تكن مدرجة على جدول اعمال الاميركيين. وكان اجتماعهما بريغن امراً غير وارد اذ لم تكن هناك أيّ رغبة في واشنطن لتركيز

الاهتمام على لبنان. وكما كان متوقعا لم يستقبلهما ريغن فاجتمعا بشولتز. وكان لهذا الرفض مردود سلبي عند كرامي وبري، اللذين لم يكونا في ذلك الوقت على معرفة بخبايا السياسة الاميركية.

كان شولتز حذرا مع كرامي لانه كان يعتبره مشجعا للإرهاب، من خلال تصريحاته المتعددة، وهو يدعو للنضال المسلح ضد اسرائيل. اما كرامي، فكان يريد اقامة علاقات جيدة ومباشرة مع الولايات المتحدة واخبر شولتز بذلك. كان شولتز متحفظاً. ونقل الى كرامي الموقف الاسرائيلي ومضمونه أن اسرائيل تريد مفاوضات مباشرة مع الحكومة اللبنانية وتريد ان تعترف الحكومة اللبنانية بجيش لبنان الجنوبي، فضلاً عن اقامة تدابير امنية في الجنوب. واضاف شولتز ان اسرائيل تصر على الحصول على الموافقة السورية المسبقة لكل هذه النقاط، اذ انها تعلّمت درسا من خبرتها في اتفاق ١٧ ايار، وبان اي اتفاق مع لبنان لا يحظى بالدعم السوري الكلي محكوم عليه بالفشل.

لم تنقل الولايات المتحدة الموقف الاسرائيلي الى الرئيس كرامي فحسب، بل ابدت بوضوح دعمها له. فكان شولتز يؤمن بالمفاوضات المباشرة ويعتبر وجود جيش لبنان الجنوبي امراً مبرراً ما دامت الميليشيات غير الشرعية لا تزال منتشرة في البلاد. وكان يؤمن بان التدابير الامنية اقل ما يمكن فعله لوضع حد للاحتلال الاسرائيلي والحؤول دون عودته. وقد تعلم شولتز من كيسه ان انسحاب اسرائيل من لبنان موضوع يجب مناقشته مع سوريا وليس مع المملكة العربية السعودية. ولكنه لم يكن مستعدا، في تلك المرحلة، ان يغوص في المياه السورية بعدما اوشك على الغرق فيها. بعد الاجتماع مع شولتز قرر كرامي ان لا فائدة من العمل مع الولايات المتحدة، وبدأ يفكر في الامم المتحدة كبديل لها. وكم كانت دهشته كبيرة عندما علم، بعد بضعة اسابيع، أنه لا الولايات المتحدة، ولا اسرائيل تعارضان وساطة الامم المتحدة. غير ان اسرائيل كانت تعتبر هيئة الامم المظلة فقط للمفاوضات المباشرة. وكانت اسرائيل تميل إلى توسط الامم المتحدة لانها لا تريد ان تعرض علاقاتها الجيدة مع اميركا الى أي انتكاسة جديدة.

لم يكن للرئيس الجميل ثقة في سياسة كرامي الخارجية، فكان يجدها ساذجة، سلبية وقديمة الطراز. وكان يصر ان يبقى لبنان على علاقات قوية مع الولايات المتحدة واوروبا. علاوة على ذلك، كان الرئيس ينوي ان يبقى في صلب عملية السياسة الخارجية وكان يعتبرها مسؤوليته كرئيس للجمهورية، وكان يحب الالتقاء برؤساء الدول والتعامل المباشر معهم لمصلحة لبنان. وخشي من ان يكون كرامي وبري قد خلّفا وراءهما انطباعا سلبيا في واشنطن، واراد السفر شخصيا الى الولايات المتحدة لتصحيح هذا الانطباع. قرر السفر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، مستبقا بذلك انتصار ريغن المحتمل في الانتخابات الاميركية، وكان يأمل ان يشرع هناك في عملية سياسية جديدة وادخال الولايات المتحدة مرة جديدة في الشؤون اللبنانية. حاولت ثني الرئيس عن القيام بهذه الرحلة لأنها قد تكون غير ملائمة ايضا بالمنظار الاميركي. فكانت واشنطن تريد ان تبتعد عن لبنان وكان من المستبعد ان يولي ريغن الاهتمام الذي أولاه اياه سنة ١٩٨٣. ولم يكن لدى الرئيس مشروع جدي لتدخل اميركا على اساسه كما انه لم تكن هناك الفرصة الاقليمية المناسبة لتحركها من جديد في اتجاه المنطقة.

في الرابع عشرمن شهر تشرين الاول/اكتوبر، أعلمني بارثولوميو أنه سيكون وزوجته خارج لبنان لفترة من الزمن. كان من الواضح ان الاميركيين ارادوا الحؤول دون امكانية وقوع حادثٍ ما قد يركز الانتباه على لبنان خلال مرحلة الانتخابات الاميركية. فاذا ما تعرض بارثولوميو للخطف او الاغتيال في بيروت، فمن شأن الحزب الديمقراطي ان يستغل هذه الحادثة لإبراز فشل ريغن في لبنان. لذلك طلب من بارثولوميو مغادرة البلاد والحؤول دون التسبب في احراج الحزب الجمهوري بفشل جديد في بيروت قد يضاف الى انفجار السفارة، وتهديم ثكنات المارينز، والانفجار الاخير في سفارة عوكر. فالعطلة اداة سياسية مناسبة، وعندما يكون للعمل الدبلوماسي، او لفشله، تأثير على السياسة، فالعطلة لا تصبح مناسبة فحسب، بل ضرورية وحتمية. فهمت خطته واستودعته بالسلامة.

في غضون ذلك، كان كرامي يحاول الحصول على مظلة الامم المتحدة لتأمين



إيلي سالم ورئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر

انسحاب اسرائيلي من الجنوب وشجعته على المضي قدما في هذا الاتجاه. كان هذا خياراً من الخيارات المتعددة. لم يكن بالخيار الافضل ولكنه احسن الموجود، والحرية تلزم المرء احيانا أن يقبل بالامر الحتمي. فالولايات المتحدة خارج الحلبة، والامم المتحدة نصب اعيننا تحمل القرارات الملائمة وتصر على القيام بشيءٍ ما بعد ان تخلت الولايات المتحدة عن الساحة. وكان دي كويلار يتحيَّن الفرص لمعالجة الازمة اللبنانية بعد فشل شولتز، فارسل معاونيه الينا بِتَواتُر، وهم يحاولون ايجاد دور تؤديه الامم المتحدة في تأمين المباحثات بيننا وبين الاسرائيليين، حول الانسحاب من الجنوب، مقابل تدابير امنية معينة. ولكننا كنا نود ان نتأكد: هل الاسرائيليون يقبلون بجدية مظلة الامم المتحدة؟ واذا كان الامر كذلك، فهل ستدعم الدول الاوروبية جهودنا من خلال المنظمة الدولية؟ عندما علمت ان وزير الخارجية البريطاني جفري هاو ينوي زيارة اسرائيل، طلبت من السفير البريطاني في لبنان دافيد ميرز، في السادس عشر من تشرين الاول/اكتوبر، ان يطلب من هاو ايجاد اجوبة لاسئلتنا، وتلوت عليه الاسئلة التي دونها بدقة ومنها: هل ستقبل اسرائيل التفاوض جديا معنا على الصعيد العسكري تحت رعاية الامم المتحدة؟ هل بدلت واشنطن رأيها، وهل هي مستعدة الآن للقبول بدور اوسع للامم المتحدة في الشرق الاوسط؟ هل الدول الاوروبية الكبيرة، وبالأخص بريطانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا الغربية، ستشجع وساطة الامم المتحدة وتؤدي دورا فعالا من خلالها؟ هل الدول الاوروبية على علم بان اسرائيل تعمل على تغيير طبيعة جنوب لبنان، وأن هذا الامر قد يجعل الجنوب، مع الوقت، شبيها بالضفة الغربية وقطاع غزة؟»

ارتبك ميرز أمام تدفق الاسئلة، واشار لي ان اهتمام المملكة البريطانية بلبنان محدود جداً ومحدود اكثر مما تستدعي هذه الاسئلة، ولكنه وعدني بمحاولة الحصول على اجوبة عن أسئلتنا ولكنه حذرني من ان بريطانيا ليست مستعدة للخوض في سياسة جدية تجاه لبنان، وقال: «اذا كان هناك امر محدد بسيط وغير مكلف، فنحن مستعدون للمساعدة خاصة على الصعيد الانساني». فأجبته قائلا: «آخر ما يحتاج اليه لبنان مساعدة انسانية. فنحن نعاني من مشكلة سياسية خطيرة

على الصعيد الاقليمي والدولي، وأننا في حاجة ماسة الى المساعدة السياسية في هذا المجال، فالطريق المسدود على الصعيد الاقليمي والدولي هو الذي ادى الى التهديم والتهجير فلنعالج العلة التي كانت سبب الداء». لم يكن ميرز مستعدا لحوار كهذا، لكنه قبل بنقل رسالتي وبشيء من التردد. جاء جواب هاو بسرعة وكان يتعلق بالمفاوضات فقط. فقال ان اسرائيل مستعدة للتفاوض مع فريق عسكري لبناني حول التدابير الامنية وقال لنا ان هذا يعتبر تغيراً في السياسة الاسرائيلية ومن المستحب ان نقبل به.

عندما التقيت كرامي في الثامن عشر منه كان متفائلا. فكان يعتقد ان اسرائيل قد تنسحب كليا من لبنان وفقا لاتفاقية الهدنة بين اسرائيل ولبنان عام ١٩٤٩. وكان اقتناعه يعتمد على رسالة ابرزها يومها مساعد الامين العام للامم المتحدة دي كويلار للرئيس الجميل. اما هذه الرسالة فكان قد ارسلها بتاريخ ٣ آب/اوغسطس ١٩٧٨ موشي دايان الى الامين العام للامم المتحدة السابق كورت فالدهايم، وكانت تنص على أن اسرائيل تعتبر اتفاقية الهدنة للعام ١٩٤٩ سارية المفعول وان اسرائيل ستلتزم بها، شرط ان يلتزم لبنان بشروطها ويحول دون قيام عمليات عسكرية عبر حدوده مع اسرائيل. كان هذا يعني ان اسرائيل قد تقبل عام ١٩٨٤ بتطبيق حصري لاتفاقية الهدنة، وان توفير التدابير الامنية قد يكون ممكنا تطبيقه الآن. واذا كان الامر كذلك فهذا قد يشكل انقلابا في موقف اسرائيل منذ اجتياحها لبنان عام ١٩٨٢.

وقد أشارت تقارير واردة من واشنطن إلى أن اسرائيل مستعدة للانسحاب تدريجياً من الجنوب، تاركةً وراءَها جيش لبنان الجنوبي وقوة اسرائيلية صغيرة ولكن فعالة ومتحركة. وكنا الآن نواجه الاسئلة عينها التي واجهناها عندما اعلن الاسرائيليون انهم سينسحبون من الشوف: «بمن سينيط الاسرائيليون السلطة في المناطق التي سينسحبون منها؟ هل ستنسق اسرائيل لانسحابها مع الحكومة اللبنانية، بواسطة فريق ثالث؟ وقد علمنا ان الولايات المتحدة كانت ترفض دور الوسيط بين لبنان واسرائيل مفضلة دور الوسيط بين سوريا واسرائيل. وكانت

واشنطن، بعد ان استوعبت الوضع الجديد في المنطقة، تستعد للتعامل مباشرة مع سوريا والاعتراف بمصالحها المشروعة في لبنان. واخبرني بارثولوميو ان الولايات المتحدة قد تقبل بوساطة الامم المتحدة، وأنها ستتبع التطورات وتعمل على ضوئها، ولن تستبق الاحداث لأن الاميركيين لا يريدون ان يجدوا انفسهم يحاربون عدواً وهمياً برمح مكسور مثل دون كيشوت. لقد تلقنوا درسهم وحفظوا الامثولة: قبل ان تقوم الولايات المتحدة بأي خطوة ستبحث الامر مع سوريا واسرائيل لاستشراف امكانيات النجاح. إن اميركا لا تحب الفشل.

محادثات الناقورة

في ٣٠ تشرين الاول/اكتوبر، توصلنا الى اتفاق على صيغة للمباحثات مع اسرائيل برعاية الامم المتحدة، فقررت اسرائيل، لاعتبارات سياسية داخلية، الانسحاب جنوباً والحفاظ على «شريط أمني» على الاراضي اللبنانية يكون لها بمثابة حاجز يؤمن سلامة المدن والقرى الاسرائيلية الشمالية. اما القبول بالمباحثات مع اللبنانيين تحت رعاية الامم المتحدة فهو عمل يُحَسِّن صورتها، ويظهرها بمظهر المتعاون المرن. وابدى الاسرائيليون الرغبة في التعاون اذ انهم يرضون بذلك الولايات المتحدة دون المخاطرة بشيء. علاوة على ذلك، فان حواراً مع دولة عربية يوّلد لدى الشعب الاسرائيلي الانطباع ان دولة اسرائيل تقوم بتطبيع وجودها تدريجيا في البيئة العربية التي لم تظهر حتى الان الا عداءها للدولة العبرية. وفقا للصيغة الجديدة، يدعو الامين العام الى اجتماع بين ضباط من الجيش اللبناني والاسرائيلي للتباحث حول الانسحاب الاسرائيلي، والتدابير الامنية في جنوب لبنان. اما الجانب اللبناني، فيعلن عن موقفه ويشدد على تطبيق اتفاقية الهدنة ويقدم الجانب الاسرائيلي من جهته وجهة نظره. ومن شأن ممثل الامم المتحدة ان يبقى على الحياد خلال المباحثات، ويستمع الى كل من الجانبين ويسمح لكل منهما ان يعبر عن موقفه. وهذه كانت في الحقيقة صيغة اتفاقية الهدنة. وقد وافق القادة اللبنانيون على هذه الصيغة قبل ان يعلنها بيريز دي كويلار في ٣١ تشرين الاول/اكتوبر. كان القادة اللبنانيون متفائلين بالنسبة لهذه المباحثات. وكانوا

يؤمنون ان الحكومة العمالية الجديدة، برئاسة شيمون بيريز، قد تكون اكثر ليونة من حكومة الليكود، التي توالى على رئاستها مناحيم بيغن واسحق شامير.

كان من المقرر ان يجتمع مجلس الوزراء في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ لتعيين الفريق اللبناني في المحادثات الاسرائيلية اللبنانية ولكن، لتحاشي اعطاء لون سياسي لهذه العملية، جرى الاعلان في آخر لحظة ان القيادة العسكرية هي التي ستعين الفريق، وليس مجلس الوزراء. اما القيادة العسكرية، فتضم قائد الجيش وهو ماروني وخمسة جنرالات من الطوائف الكبرى الاخرى. طلب مني الرئيس ان احضر اجتماع السابع من تشرين الثاني/نوفمبر في وزارة الدفاع، حيث سيجري تعيين الفريق. بعد بضع دقائق، اتصل بي قائد الجيش الجنرال ميشال عون ودعاني الى الحضور. لدى وصولي الى الوزارة، وجدت الجنرال عون يرأس اجتماعا للفريق المفاوض الذي عيِّن قبل ساعة من وصولي برئاسة العميد احمد الحاج.

قدمت للفريق عرضا سريعا عن المشكلات القائمة وعن خبرتنا السابقة في التفاوض مع اسرائيل. وتباحثنا في شؤون لوجستية كالمترجمين والسكريتاريا، والمحاضر الخ... وكنا بامس الحاجة الى مترجمين فوريين، اذ ان الاسرائيليين يتكلمون الانكليزية في حين أن فريقنا لا يتقنها مثل الاسرائيليين. وقمنا، أنا وعون والحاج والسفير خليل مكاوي، بتدوين الافكار الرئيسية للخطاب الافتتاحي الذي سيلقيه الحاج باسم الفريق اللبناني.

الا أن الحاج، وبعد ان تذكر الاتهامات والتهديدات التي وجهت ضد الذين تفاوضوا مع اسرائيل سابقاً، ابدى ترددا في تأدية هذه المهمة. كان قلقا للغاية لردة فعل الطائفة الاسلامية. ورغم دعم سوريا للصيغة الجديدة، فقد كان مرتبكا، واقترح، لتعزيز موقفه، الاتصال بمفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد، والمرشد الروحي احزب الله السيد محمد حسين فضل الله، وطلب دعمهما، فشجعته على ذلك. كان موقف الشيخ حسن خالد ايجابيا، وقال انه قد يصدر تصريحا في المساء لدعم هذه المفاوضات. اما السيد فضل الله، فكان جوابه سلبيا ولكن مهذبا للغاية،

وقال ان موقف حزب الله حول التفاوض مع العدو موقف معروف، التفاوض مرفوض ولكن، اضاف السيد فضل الله قائلا انه لا يلوم الافراد الذين يشكلون فريق التشاور ولا يحملهم المسؤولية.

ابدى الحاج ارتياحه حيال رد المفتي، لكنه كان قلقاً في ما يتعلق بالسيد فضل الله، وكان ممزقا بين فكرة النجاح اذا ما سار كل شيء بشكل ايجابي، وبين خطر الفشل اذا ما تعرقلت الامور. ودرست معه ايجابيات المباحثات مع اسرائيل وسلبياتها، وقرر ان يفعل ما يمكن خدمة لبلاده. وقد حذرته من خطر اتخاذ قرارات حول المسائل المهمة، دون التشاور مسبقا مع الحكومة، وبشكل خاص مع الرئيس ورئيس الوزراء الذي كان ايضا يشغل منصب وزير الخارجية. واشرت ايضا الى ان الاتفاق حول جدول الاعمال هو، بحد ذاته، قرار سياسي محفوف بالمخاطر: كان الاسرائيليون يقترحون عقد اجتماع واحد في الاسبوع، فطلبت من الحاج ان يشدّد على تكثيف الاجتماعات لان «الذي يأكل العصي ليس كالذي يعدها».

في محاولة لتقييم الاهداف الاسرائيلية، توصلنا الى النتيجة التالية: لقد غيرت اسرائيل سياستها حيال لبنان: اصبحت مستعدة للانسحاب جنوبا ولكنها كانت تنتظر حجة تبرر بها انسحابها، ووجدت ان اتفاقا مع دولة لبنانية ضعيفة امر لا جدوى منه. فارادت، بدلا من ذلك، انشاء منطقة أمنية جديدة داخل لبنان، وكانت تبحث عن تبرير الانسحاب من المنطقة التي كانت تسيطر عليها الى تلك المنطقة الجديدة. وقد ساد الاعتقاد أن محادثات الناقورة كانت مسألةً ثانوية. فالمحادثات الحقيقية، اذا ما حصلت، تكون بين اسرائيل وسوريا من خلال وسطاء اميركيين، ولكن الولايات المتحدة لم تشأ ان تظهر في محادثات الناقورة. فآخر ما كان يريده شولتز هو ان يستجوبه الكونغرس حول لبنان الذي اصبح، بنظر الاميركيين، شبيها بجحيم دانتي، وما من احد في واشنطن كان يريد ان يظهر في الصورة والخريطة اللبنانية وراءه.

عقدت محادثات الناقورة برعاية الامم المتحدة، لتحضير الانسحاب الاسرائيلي من لبنان، ودخل لبنان المباحثات وهو يتعهد بتطبيق التدابير الامنية وفقا لاتفاقية

الهدنة. وهذا الامر كان، بحد ذاته، مهماً لانه يدل على استعدادنا للتخلي عن اتفاقية القاهرة لعام ١٩٦٩، التي اعطى لبنان بموجبها منظمة التحرير الفلسطينية حق انتهاك هذه التدابير ومحاربة اسرائيل عبر حدوده الجنوبية. وكان ذلك ايضا يَدُل على استعدادنا لبسط سلطة الدولة على المناطق التي ستنسحب منها القوات الاسرائيلية، فهذا يعني ان الدولة ستقوم مقام الأحزاب في الجنوب. ولم نكن في ذلك الحين اقوياء عسكرياً. ولكن كان علينا أن نحاول. وكان من المفترض ان تكون الحكومة قد حلت مشكلة الميليشيات ورغبتهم في البقاء مسيطرين على الشارع، ولكنها لم تنجح في ذلك. دخلت اسرائيل المباحثات لاقتراح تدابير امنية جديدة، للحصول على نوع من الاعتراف بها. كان الجانب اللبناني يحرص على تحديد المباحثات في اطار عسكري بحت، وتقليص اهميتها السياسية. ودخلنا المباحثات بموجب قرار لمجلس الوزراء اللبناني في ٥ آذار/مارس ١٩٨٤، وبموجب اتفاقية الهدنة وبموجب قرار الامم المتحدة رقم ٤٢٥ وعشرات القرارات الدولية، التي تؤكد استقلال لبنان وسيادته وحقه في ممارسة سلطته على كل اراضيه.

اعتمدنا على قرار الأمم المتحدة رقم ٤٢٥ الذي تبناه مجلس الامن بالاجماع في التاسع عشر من ايار/مايو ١٩٧٨، إثْر الهجوم الاسرائيلي على جنوب لبنان، كان هذا القرار يطالب بانسحاب اسرائيلي من كل الاراضي اللبنانية، وبإحلال قوة للامم المتحدة لحفظ السلام في لبنان. وكانت هذه القوة مؤلفة من ستة آلاف ضابط وجندي من النروج وفنلندا والسنغال وغانا وفرنسا وايرلندا وجزر الفيجي وهولندا، مع وحدات لوجستية وطبية من فرنسا وايطاليا. كان دور اليونيفيل هو التأكد من انسحاب القوات الاسرائيلية واعادة السلام والامن الى المنطقة ومساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها الفعلية في المناطق التي كانت تخضع للاحتلال الاسرائيلي.

واعتمد لبنان ايضا على قرارات الامم المتحدة التي تلت القرار ٤٢٥ لاسيما القرارين ٥٠٥ و٥٠٩، اللذين طالبا ايضا بانسحاب اسرائيلي فوري وغير مشروط من الاراضي اللبنانية. مقابل ذلك، كانت الحكومة اللبنانية مستعدة لتطبيق قرار

مجلس الوزراء الصادر في ٥ آذار/مارس ١٩٨٤، الذي كان يهدف الى تأمين السلام والاستقرار في جنوب لبنان والحؤول دون التسلل عبر الحدود المعترف بها دوليا مع اسرائيل.

وعند بدء المباحثات، أعَدّ الجيش اللبناني خطة مفصلة للانتشار في الجنوب، للتنسيق بشأنها مع اليونيفيل. كانت منطقة الانتشار تشمل ٢٦٠٠ كلم ٢، ابتداء من نهر الاولي، شمال صيدا شرقا، الى سهل البقاع؛ وجنوبا الى الحدود الدولية الاسرائيلية - اللبنانية. وكان يعيش في هذه المناطق حوالي ٩٠٠،٠٠٠ نسمة. ووفقا لخطة الجيش، ينتشر لواءان منه في هذه المنطقة بالاضافة الى قوة من الامن الداخلي وضباط من الامن العام. اما قوات اليونيفيل، فستنتشر بدورها على طول الحدود مع اسرائيل، بجوار المخيمات الفلسطينية في الجنوب.

افتُتحت محادثات الناقورة اللبنانية - الاسرائيلية في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤، في مقر اليونيفيل، برئاسة قائد قوات حفظ السلام الذي يمثل الامين العام للامم المتحدة. وضمت بعثة الامم المتحدة خمسة ضباط بينما ضمت كل من البعثة اللبنانية والاسرائيلية ستة.

كان العائق الاول الذي واجهناه هو موقف الاسرائيليين من اتفاقية الهدنة للعام ١٩٤٩، إذْ اعلنوا ان مشاركة لبنان في حرب حزيران عام ١٩٦٧ جعلت هذه الاتفاقية باطلة. وهذا الموقف كان يتعارض ورسالة دايان التي سبق وتكلّمنا عنها. رفض لبنان هذا الموقف لانه لم يلغ يوما اتفاقية الهدنة، وحتى انه لم يشترك في حرب حزيران ١٩٦٧. تصرف الممثل الاسرائيلي وكأن ليس لهذه الرسالة من وجود. وفي الحقيقة، واذا ما وضعنا الرسالة جانبا، فان الرسميين الاسرائيليين، بمن فيهم دايان، غالبا ما اعلنوا ان اتفاقية الهدنة بين لبنان واسرائيل قد مر عليها الزمن، ويجب أن نستبدل بها اتفاقيةً أخرى. وبينما كان لبنان يعتبر محادثات الناقورة وكأنها عملية للامم المتحدة، بقيادة الجنرال كالاهان، كان الاسرائيليون يعتبرونها مباحثات مباشرة بين لبنان واسرائيل، واصروا على ان مهمة كالاهان كانت لتسهيل المحادثات فقط وليس لترؤُسها.

جلست البعثات الثلاث حول طاولات مختلفة، وتجادلت مطولا حول من كان الرئيس، فاعتبر اللبنانيون كالاهان رئيسا لهذه المحادثات، وخاطبوه على هذا الاساس. اما الاسرائيليون، فقالوا بان الرئاسة تكون بالتناوب بين لبنان واسرائيل، واعطوا ممثل الامم المتحدة دور المراقب فقط. لم يكن هذا تصورنا ابدا، فلبنان دخل المحادثات على اساس انها برعاية الامم المتحدة، وبرئاسة ممثل الامين العام للهيئة الدولية. وكانت كل جلسة تبدأ على النحو التالي:

كالاهان: صباح الخير، لنبدأ العمل.

وبما ان كالاهان كان يفتتح كل جلسة معتبرا نفسه الرئيس، كنا نحن نخاطبه دائما على هذا الاساس. اما البعثة الاسرائيلية فكانت تشدد من ناحية اخرى على ان يتناوب لبنان واسرائيل على الرئاسة، وكان غيلبوا Gilboa يبدأ بالكلام قائلا: «اذا لم اكن مخطئا، فانا اليوم رئيس هذه الجلسة، كما كان الجنرال الحاج رئيسا للجلسة السابقة وبناء عليه افتتح هذه الجلسة». وكان الحاج يرد على الفور قائلا: «حضرة الرئيس كالاهان، انا...». واستمرت هذه اللعبة طوال كل الجلسات.

كانت الخطة الامنية، التي تقترحها اسرائيل بعد انسحابها من المناطق، تنطوي على تقسيم المنطقة الواقعة من الحدود الاسرائيلية حتى صيدا الى منطقتين، الاولى تمتد من الحدود حتى نهر الزهراني، وتحافظ عليها فرقة من الجنود تضم افرادا مقبولين من قبل اسرائيل. اما المنطقة الثانية، فتمتد من نهر الزهراني حتى نهر الاولي، اي شمالي صيدا وتخضع لمراقبة قوات الامم المتحدة. رفضت اسرائيل رفضاً باتّاً تواجد قوات الامم المتحدة على مقربة من حدودها، وما كانت تتقدم به في الحقيقة هو فصل المنطقة الممتدة من الزهراني حتى حدودنا الجنوبية، ووضْعها تحت مراقبة جيش بديل مماثل لجيش لبنان الجنوبي بقيادة لحد، إذا لم يكن مطابقاً له. وكان هذا الاقتراح بمثابة انتهاك صريح لسيادة الدولة. وكانت الخطة اللبنانية تقضي بنشر الجيش اللبناني وقوات حفظ السلام في الجنوب، اي من المنطقة التي كانت قوات اليونيفيل منتشرة فيها الآن، حتى الحدود مع اسرائيل. وهذا كان يعني ان سلطة الدولة تمتد من خلال الجيش وقوى الامن الداخلي على كل ارضنا

الجنوبية وان مسؤولية ضبط الامن على ارضنا تعود لنا، وليس لاسرائيل. فرفضت اسرائيل اقتراحنا، كما رفضنا اقتراحها.

انتهت مباحثات الناقورة في كانون الثاني/يناير ١٩٨٥ وباءت بفشل ذريع. وكانت في الحقيقة محكومة بالفشل. فلم تكن اسرائيل تثق بالحكومة اللبنانية، وقد قبلت بمحادثات الناقورة لكسب الوقت والبرهنة على ليونتها وحسن نيتها، في حين انها، في الحقيقة، لم تقبل الا بخططها المرسومة مسبقا كما كانت تقتضيه مصلحتها. وكانت اسرائيل تضع العراقيل لمنع الجيش اللبناني من الانتشار جنوباً. وبعد فشل مباحثات الناقورة، قامت اسرائيل بالمضي قدما في سحب جيوشها واعادة نشرها. واصبح مصير المسيحيين في مناطق صيدا واقليم الخروب، (شمال شرق صيدا) مسألة اولية فور اعلان اسرائيل عن خطة انسحابها. فخشي الرئيس الجميل ان يقع الاقليم في يد الميليشيات، كما حصل في منطقة الشوف على اثر المجابهة بين القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي. فان سيطرة الميليشيات على هذه المناطق ستؤدي، دون اي شك، الى تهجير جديد للمسيحيين ولتزايد الضغط المسيحي على رئيس الجمهورية.

عندما انسحب الإسرائيليون في السابق من منطقة عاليه والشوف، دون التنسيق معنا، ادى الامر الى مجازر بين الدروز والمسيحيين، كما ادى الى تهجير المسيحيين من المنطقة. وكان يعيش في الجنوب حوالي ـ١٥٠,٠٠٠ مسيحي، وكان من المرتقب جدا ان يقع هؤلاء المسيحيون، إثْر انسحاب اسرائيلي من مناطقهم، بين نيران القوات اللبنانية من جهة، ونيران الميليشيات المناوئة لهم. وانتابنا القلق من خطر نشوء مشكلة تهجير جديدة في الجنوب، وأن يؤدي تهجير هذه المجموعات المسيحية الى مشاكل سكن في شرقي بيروت، مما قد يشعل من جديد نار التوتر بين المسيحيين والمسلمين. وانتابنا الخوف ايضا من ان يندفع بعض الشبان المسيحيين الى الجنوب، وأن ينضموا الى الجيش الموالي لاسرائيل. فالثأر يعمي البصر عن المصالح الموضوعية وعن مبادئ الوطنية.

اتصلت هاتفيا بفيليب حبيب في ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥. ورغم ان

مهمته، كمبعوث الى لبنان، كانت قد انتهت، فقد بقي على علاقات وثيقة بشولتز. وفي رأيه كانت محادثات الناقورة «مهزلة» وقال انه كان من الافضل للبنان لو انها لم تحصل ابدا. واضاف حبيب قائلا: «بذلت قصارى جهدي لمساعدتكم ولكنني فشلت. افكر فيكم دائما ولكنني لا اتمكن من فعل شيء، الله يكون معكم».

في اليوم ذاته، اعلمني كرس روس ان لبنان فقد كل اهميته بالنسبة للولايات المتحدة. وقال لي انه ليس من باب الصدفة ان تكون الامم المتحدة قد دُفِعت الى الواجهة في مباحثات الناقورة. وقال ان الولايات المتحدة هي التي اقنعت الامم المتحدة لتجرب حظها بالقضية اللبنانية لان اميركا كانت قد أحرقت اصابعها. وقال روس «اننا لن نعود إلى الاهتمام بلبنان الا اذا استتب الامن عندكم. في هذه المرحلة، عليكم ان تعملوا مع الامم المتحدة على الصعيدين السياسي والعسكري». وذكرتني نصيحة روس عندها بطرفة الرئيس الوزّان بان دول العالم العظمى احالت ازمة لبنان المعقدة الى قداسة البابا واعطته الصلاحية لحلها.

تعجبت من موقف دولة عظمى تترك بلداً صغيراً في مأزق، وقد تعود اليه فقط عندما يخرج من هذا المأزق. فكان لبنان بأمسّ الحاجة الى المساعدة السياسية من الديمقراطيات العظمى وهذا ما لم يحصل عليه قط. ومما زاد الطين بلة اختطاف الرهائن على ايدي قوى راديكالية، تعمل في لبنان ولكن بتوجيه خارجي. وقد اختصر لي مسؤول في وزارة الخارجية الاميركية الوضع على الوجه التالي: الوضع مؤسف ولكنه صحيح. أميركا الآن تربط كل سياستها في لبنان بقضية الاميركيين الخمسة المخطوفين. سياسة اميركا تتبع الاعلام. والاعلام اليوم مع المخطوفين.

مع نهاية العام ١٩٨٤ تحول لبنان، بالنسبة للرأي العام الاميركي، من دولة صديقة الى دولة معروفة بالخطف والارهاب، واعتبر الاميركيون وضع لبنان مثل وضع سوريا وليبيا وايران المتهمة اميركياً بالارهاب. كان الاميركيون متأثرين للغاية بمسألة خطف الاجانب وكانوا قلقين من صعود نجم حزب الله. وكانوا على ثقة بان حزب الله سيهدد قادة الشيعة المعتدلين، الامر الذي قد يؤدي في نظرهم الى

أسلمة البلاد. وتغلغلت هذه الصورة في الكونغرس ووزارة الخارجية والبيت الابيض. وأصبح لبنان في نظر الاميركيين، قضية خاسرة، والعقل الاميركي لا يحب التعامل مع الخاسرين.

في عام ١٩٨٥، كلمني الرسميون الاميركيون، الذين كنت اتعامل معهم، عن الارهاب وعن ايجاد حل لمشكلة الفلسطينيين، واقروا لي انه عند التخلص من هاتين القضيتين نستطيع البدء بحل المشكلة اللبنانية، واوضح لي حوار مع شولتز في شهر كانون الثاني/يناير الموقف الاميركي الجديد. بدأ شولتز قائلاً: «حسنا يا صديقي ايلي، أسْمعني رايك. ان شغلنا الشاغل هو مشكلة الارهاب والرهائن المحتجزة الآن في لبنان». فقلت له: ان مسألة الارهاب والرهائن لا تكوِّن سياسة ولا تليق بدولة عظمى. أما السياسة، فهي بالتعامل مع المشكلة اللبنانية بطريقة قد تبطل الارهاب وخطف الرهائن. وتابعت كلامي بحضور ريتشارد مورفي، وهو مساعد وزير الخارجية لشؤون آسيا الوسطى ودول جنوب آسيا، وشرحت لشولتز رأيي في ما تسميه الولايات المتحدة «سياسة». وعندما غادرت مكتب شولتز قال لي مورفي: «يا لها من محاضرة القيتها الان امام وزير الخارجية. ما من احد تجرّأ على ذلك من قبل». فقلت لمورفي: إنني لم اعد وزيرا للخارجية ملزما بالبروتوكول. فانا الآن مستشار غير رسمي اي أستاذ حر، كبروميثيوس المطلق العنان، يمكنني ان اقول ما اعتقد من الواجب البوح به.

لكنَّ مورفي لم يعطني خيارا آخر سوى سلوك طريق الامم المتحدة، مع انه اعترف انها ليست مجدية. اما الآخرون في الحكومة الاميركية، الذين كانوا يرصدون السياسة الاسرائيلية، فقد ردّد بعضهم ما كنا نخشاه، قالوا: من المرتقب ان تنسحب اسرائيل من الجنوب كما انسحبت من الشوف دون تنسيق معكم، مسببة بذلك الفوضى والعنف، ونزوحاً قسرياً للمسيحيين جنوبا الى المنطقة الحزامية التي تقررها اسرائيل. ومن المنظار الاسرائيلي، فان وجودا مسيحيا معززا على طول الحدود الشمالية لاسرائيل قد يعطي اسرائيل ضمانات امنية اكبر، واحتياطياً ديمغرافياً يعزز صفوف جيش لبنان الجنوبي.

في تلك المرحلة، كان الرئيس الجميل مكبلاً لا يستطيع التحرك باي اتجاه، وحكومته كانت بالنسبة له المشكلة الكبرى. وكان الجميل يولي صورته اهمية قصوى، وكان معنياً بنظرة اللبنانيين إليه ونظرة السلطات الخارجية. فمنذ اوائل التاريخ المدون، ابتكر الحكام وسائل مختلفة لمعرفة رأي الشعب فيهم. فكان الخلفاء العرب الاولون يتنكرون ويجوبون الشوراع لاستشراف آراء رعاياهم. وكان السلاطين العثمانيون يعتمدون على الجواسيس والمخبرين. اما اليوم، فيعتمد رؤساء الديمقراطيات على اصوات ناخبيهم. فلا يؤثر السياسيون على الشعب فحسب، بل انهم، بدورهم، يتأثرون برأي الشعب فيهم. إنهم يريدون ان يحبهم الشعب لا ان يخافهم فقط.

وكان الرئيس على حق في حرصه على صورته. وكان الرئيس يعتبر نفسه رجلا من الشعب منفتحا على العالم، وان عنده خطة لانقاذ لبنان. ولكن، مقابل ذلك، كانت صورته لدى الشعب صورة مختلفة عن تصوره. فكان متهما بحبه للمظاهر والشكليات. واعتقد الرئيس ان مشكلة الصورة يمكن معالجتها من قبل خبراء. اما انا، فكنت اكره فكرة خبير الصورة. وفي احد الايام لم استطع مقاومة رغبتي بمصارحة الرئيس والقول له: ان افضل طريقة للحصول على احترام الشعب هي بالتخلص من بعض المقربين له، والتخلص من هؤلاء «الخبراء»، والاعلان عن رسالته المطالبة بالوحدة الوطنية والتحرير، وذلك بعبارات بسيطة مطمئنة تكون باللغة العامية. وافق الرئيس على كلامي هذا، ولكن الواقع ان العراك بين المظهر والمحتوى عنده غالباً على حساب المحتوى.

انشغلت للغاية بانشاء فريق يعمل مع الرئيس ويكون كُفُؤاً وجديرا بالثقة. كنت ابحث عن فريق قد يعمل بالتعاضد ويكون مؤلفا من افراد لن يترددوا في إبداء رأيهم بصراحة، في المحافظة على السرية وفي التشاور مع الرئيس واسداء النصائح له في القضايا الصعبة. وكنت أريد ان يكون هذا الفريق ذا قاعدة تمثيلية واسعة، ولكن الرئيس كان يفضل العمل مع فريق صغير مؤلف من مساعديه المقربين منه. لم نحصل قط على هذا الفريق ذي القاعدة التمثيلية الواسعة. بدل ذلك، غالبا ما كان

الرئيس يؤلف مجموعات مختصة من بيروقراطيين كان يرتاح إليهم. وكان يسود هذه الاجتماعات جو من المداورة والضبابية حتى كدت استسلم لليأس. وغالبا ما قاطعت سير هذه الجلسات لاقول انه في الجامعات يصحح الاساتذة الفروض ليجعلوها مطابقة للحقيقة، بل يقاصصون الطلاب الذين ينحرفون عن طريق الصواب. فاقل ما كان علينا القيام به في الحكومة هو تطبيق المبادئ الجامعية هذه وعدم القبول بالاخطاء والمداورة، لا بل وتحويلها الى فضيلة.

لم اتمكن يوما خلال هذه الاجتماعات العديدة من فرض منهجية الحوار المفتوح للتوصل الى السياسة الفضلى. فكان من الصعب جدا التكلم والتوصل الى قاسم مشترك في موضوعٍ ما. بدلا من ذلك، كان كل من المشتركين يلقي خطاباً وينتظر الاشادة ببلاغته. وعندما يتحقق له ذلك، يستأذن ويترك القاعة. حاولت ان اضع قواعد للحوار، فشعر المشتركون بالاهانة ولم يكترثوا البتة باقتراحي. في المحيط الجامعي، يتقدم الطلاب بفضل النقد البناء، وكلما كان النقد لاذعا، كان مردوده الايجابي اكبر. في البيروقراطية يفسر النقد بانه اتهام بالفشل والبيروقراطي لا يفشل ولا يُتهم.

وأصررتُ على الرئيس أن يتخذ امين سر يدون جميع محاضر الجلسات، وينقل هذه المحاضر للوزراء المعنيين، اذ انه من المهم وضع سجل كامل عن الرئاسة ينقل فيما بعد الى خلفه. وكنا قد حصلنا على صندوقة كرتون صغيرة فقط من اوراق الرئيس سركيس، وكان علينا ان نسلم خلفنا مئات من الصناديق ولكن في ملفات مدروسة ومبوبة وليس في صندوقة كرتون من سوبرماركت. وقد قمنا بمحاولة في هذا السبيل ولكن الملفات احترقت في القصر الجمهوري، في احدى الحرائق التي سببتها قذائف النزعات العنيفة والتي استمرت لسنتين بعد انتهاء ولاية الرئيس في ايلول ١٩٨٨.

الفصل الثامن

الحكومة الجديدة امام التحديات

منذ مؤتمر لوزان، اخذت الاصلاحات السياسية تحتل المرتبة الاولى من اهتمام اللبنانيين. وكانت النزاعات العسكرية الداخلية تبرر كلها باسم الاصلاح. وحاول مجلس الوزراء، الذي كان يصعب عليه حتى ان يجتمع، تطبيق بعض الاصلاحات وفقا لبيان كرامي الوزاري في ١٩ أيار/مايو ١٩٨٤. وكان هذا البيان يرتكز أساسا على وثيقة لوزان بعد أن أعيد درسها خلال قمة الجميل والأسد منذ شهر تقريبا. ولكن الوزراء كانوا يختلفون على تطبيق الاصلاحات. فكان شمعون بشكل خاص يعارض كرامي وتفسيره للاصلاح ونيته بالتنسيق مع سوريا. وكان شمعون يقول ان الهوة بينه وبين كرامي تقاس بآلاف الكيلومترات. وشعر الرئيس انه يتوجب عليه، لحل هذا النزاع، ان يستعين بالرئيس الأسد. فكان الجميل مستعدا لانشاء تحالف قوي مع الأسد اذا ما قرر الأسد تشجيع وزراء المعارضة على التعاون معه وبسط سلطة الحكومة على كل الأراضي اللبنانية. وقرر الجميل الاجتماع بالأسد في أوائل آذار/مارس١٩٨٥، لمناقشة توثيق العلاقات واحراز تقدم في الاصلاحات.

ولتحضير هذه القمة، استدعى الرئيس الدكتور جورج ديب، مستشار الرئيس كرامي المقرب من السوريين، الذي كان قد لجأ الى سوريا اوائل الحرب ودرَّس في الجامعة السورية وصادق قادة حزب البعث. ذكرنا الدكتور ديب بأن الأسد رجل صبور، لا يستعجل الأمور، وينتظر الوقت المناسب ويترك الامور تأخذ مجراها ليقطفها حين تصبح ثمارا ناضجة.

وبينما كانت التحضيرات لاجتماع الرئيسين جارية، كان الاشتراكيون يقصفون المنطقة الشرقية. وذات يوم، بينما كنت أتناول الغداء مع زوجتي، أصيب منزلنا في بعبدا بقذيفة، فتخلّعت الابواب، وتناثر الزجاج، وبدت الفجوات في السقف. هرولنا إلى غرفة وحيدة في البيت سقفها من الاسمنت في حين ان الغرف

الاخرى مسقوفة بالخشب والقرميد الاحمر. فجأة رنّ الهاتف، كان الرئيس على الخط، وكان غاضبا جدا من وليد جنبلاط لقصفه القصر الجمهوري، وسألني: ماذا عسانا ان نفعل؟ أجبته: الشيء الوحيد الذي اخذته معي من مائدة الطعام كان كأسا من النبيذ وأعصاباً متوترة. فلم أكن استطيع التحادث معه على الهاتف. وبما ان جنبلاط حليف لسوريا، كان الرئيس على ثقة ان القصف يهدف إلى اضعافه قبل انعقاد قمة دمشق. فنصحته بتخطي القصف والتركيز على ترسيخ قواعد صلبة مع الأسد.

إن الرئيس، الذي طالما كان حذرا في الشؤون السياسية المهمة، أراد التوصل إلى تحالف شخصي عملي مع الأسد. فكان يهدف إلى قيام صداقة معه تخوله تخطي العوائق الداخلية. ولكنه كان يخشى من ناحية اخرى انشاء تحالف بموجب تعهد مكتوب قد يربط لبنان بسوريا في المستقبل. وكان الرئيس، بصفته كتائبياً، يشكك، إلى حد ما، في نوايا سوريا تجاه العرب ويتحفظ على هذه النوايا، ويتخوف من تصاعد الاصولية الاسلامية. ولكن، بصفته رئيسا للجمهورية، كان يتوجب عليه ان يتعامل مع سوريا والعرب والعالم الاسلامي بايجابية. وقد بذل أقصى جهده في هذا السبيل. كان الرئيس معجبا بحافظ الأسد وقدرته على الاستمرار في الحكم وعلى تأمين الاستقرار في سوريا، ولكنه كان منزعجاً من نفوذه المتزايد على الأراضي اللبنانية. وكان يدرك تماما بأن الأسد لم يكن «مغرماً»به ولكنه كان يتطلع الى نتائج ايجابية من القمة.

أراد الرئيس انشاء فريق عمل لبناني سوري يقدم الاقتراحات للتعاون في شؤون الامن والعلاقات الاقتصادية والاعلام. وكان يريد الحصول على دعم الأسد في توحيد صفوف القوى اللبنانية وراء الحكومة، لا سيما الميليشيات الموالية لسوريا. وأراد من الأسد ان يتخذ تدابير تعيد الثقة إلى اللبنانيين وتطمئنهم بان لبنان باق بلداً سيداً حراً مستقلاً. وأراد ايضاً التوصل إلى اتفاق مع الأسد حول مبادئ اصلاحية أولية متعلقة بهوية لبنان، ودوره في العالم العربي، وبصلاحيات الرئاسة والبرلمان ورئاسة الوزراء، والمركزية واللامركزية الادارية، وانشاء

مؤسسات جديدة، والنظام الاجتماعي والاقتصادي، والجيش، وحل الميليشيات، وعودة المهجرين اللبنانيين إلى ديارهم. كان في الواقع يريد السلام الذي كان ينتظره اللبنانيون بعد تشكيل حكومة الاتحاد الوطني. فعوضاً عن السلام اندلعت الحرب بين أمل والفلسطينيين، وتعارك الاصوليون السنة مع العلويين في طرابلس للسيطرة على عاصمة لبنان الثانية. علاوة على ذلك، اخذ الاقتصاد اللبناني في التدهور السريع. ومنذ خريف ١٩٨٤ هبطت قيمة الليرة اللبنانية مقابل الدولار الاميركي، مسببة بذلك قلقاً مالياً وصل في السنوات التالية الى احجام مأساوية.

جرى الاتفاق، قبل القمة، على أن يأتي نائب الرئيس عبد الحليم خدام إلى بكفيا للعمل على الامور اللوجستية. لقد استقبلت خدام في الخامس من آذار/مارس بضهور الشوير وواكبته إلى بكفيا. وخلال لقاء له مع الجميل، استمع خدام بعناية كبيرة إلى افكار الرئيس المتعلقة بالاصلاح والمسائل الاخرى التي أراد مناقشتها مع الأسد، ومن بينها انشاء مؤسسات جديدة توزع على الطوائف المختلفة، منها: رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة مجلس النواب للشيعة، ورئاسة مجلس الوزراء للسنة. وكان الدروز يطالبون بمجلس شيوخ برئاسة درزي، والروم الاورثوذكس كانوا بدورهم يطالبون برئاسة المجلس الاقتصادي والاجتماعي. وكانت هنالك اجهزة اخرى كالمحكمة العليا والمجلس الدستوري. فقد كان السياسيون يطالبون بمكاسب في نظام طائفي متعدد الاطراف، وكان الرئيس ينقل مواقفهم هذه إلى نائب الرئيس السوري في محادثات ما قبل القمة السورية - اللبنانية.

وعندما انتهى الرئيس من عرضه هذا، هتف خدام قائلا: «فخامة الرئيس هذه الاصلاحات تعزز الطائفية وتمثل خطوة إلى الوراء». ولكن الرئيس تابع قائلا انه يريد الحصول على صفقة شاملة مع الأسد قد تضع حدا للحرب وتؤدي إلى الانسحابات. لكن خدام لم يكن راضيا بموضوع الصفقة الشاملة ولم يكف عن المطالبة بوثيقة مدونة توضح افكار الرئيس ونواياه فيما يتعلق بالعلاقات بسوريا. وأبدى شكوكا في موضوع عقد قمة قريبة مع الأسد، اذ ان الرئيس السوري كان منشغلا بتشكيل حكومة جديدة. ولكن، لتسريع عجلة الامور، اقترح خدام العودة

إلى بكفيا بعد بضعة ايام مع بري وجنبلاط. فكانت سوريا تعتبر ان المشكلة اللبنانية تكمن في النزاعات بين «امراء الحرب». وفي رأي خدام، لم يكن الجميل مستعدا لابرام معاهدة تكرس العلاقات المميزة مع سوريا، وكان الجميل يحاول تحاشي هذا الموضوع كلما كان احد يلمح إليه. فهو يريد الحصول على مكاسب، ويأمل ارساء قواعد صداقة مع الأسد تساعده على تخطي المصاعب التي يواجهها.

عقدت قمة مصغّرة بين الرئيس الجميل وخدام في التاسع من آذار/مارس ١٩٨٥، حضرها كرامي وبرّي، وجنبلاط والجنرال غازي كنعان. كانت هذه القمة المصغرة ترمي إلى مناقشة البيان الوزاري وإزالة العوائق التي تحول دون تطبيقه. والبيان ينصّ على وقف اطلاق النار وتوحيد اللبنانيين، كخطوة أولى من أجل تحرير الجنوب وانشاء تدابير امنية فيه، وفقا لقرار مجلس الوزراء الصادر في الخامس من آذار/مارس ١٩٨٤، وتعزيز قوى الامن الداخلي، واعادة بناء ما تهدم وتحسين الوضع الاقتصادي، وصياغة دستور جديد، وانشاء مؤسسات جديدة، ومجلس شيوخ. كما نص البيان أيضا على الاصلاحات التي اقرّت في وثيقة لوزان. ولكن سرعان ما تحولت هذه القمة المصغرة إلى اجتماعات دامت يومين في جو صاخب وشبه فَوضوي. وكان كل اجتماع يفتتح بخطاب طويل. اما خدام فتقدم بمحاضرة قصيرة حول مصير لبنان. فقال: ان الانسان قد تقدم في تنظيم حياته فانتقل من العائلة إلى القرية، ومن ثم إلى القبيلة فالمدينة فالدولة. اما أنتم في لبنان، فتقومون بعكس ذلك تماما. ولربما اللبنانيون يرقصون على الوتر الاسرائيلي دون أن يشعروا بذلك فلنتصرف كالاطباء، وليشر كل واحد منا إلى الداء ولنحاول عندها ايجاد الدواء.

باشر كرامي بتحديد الداء او المشكلة كما كان يفهمها. ثم أشار إلى ضرورة تطبيق البيان الوزاري، والغاء المراسيم الاشتراعية التي اصدرتها حكومة الرئيس الوزان، وضرورة تصحيح التمثيل الطائفي، والمشاركة في السلطة من خلال القوانين، وتطبيق المركزية الادارية دون تجاهل وتعزيز التنمية في كل المناطق اللبنانية، وضرورة اعادة تشكيل مجلس النواب على اساس التوازن العددي بين المسلمين والمسيحيين.

أما بري، فطالب بالغاء الطائفية السياسية وشدد قائلاً: «لا يمكنني قبول ان يعامل احد افضل مني. وبالمقابل، لا أريد ان اعامَل أفضل من غيري». ولم يكن بري متحمساً للبيان الوزاري: لأنه لم يلحظ الغاء الطائفية السياسية. ولكنه قبل به على مضض. تابع بري محتجا: «اذا استمرت المحافظة على الطائفية السياسية علينا ان ننشئ تعادلا ما بين الطوائف. لذلك يريد الشيعة ان يعاملوا بالتعادل مع الموارنة والسنّة في مجلس النواب».

لم يكن بامكان الجميل القبول باقتراح برّي: لأنه يعتبر ان التعادل في معاملة الموارنة كالسنة والشيعة في مجلس النواب يؤدي إلى الاجحاف بحق الموارنة. اذ اكد ان الموارنة يشكلون اكثر من ٦٠ في المئة من الطائفة المسيحية وان حصرهم في صيغة ٣٠ ـ ٣٠ قد يعطي للروم الارثوذكس والروم الكاثوليك تمثيلا اكبر مما هو منوط بهم. كانت هذه القضية بالنسبة للموارنة غير قابلة للمساومة. وقال الرئيس ان هذه الصيغة خطرة للغاية ويجب بحثها ملياً مع البطريرك الماروني والاطراف المارونية والرئيس السابق سليمان فرنجية والقيادات المارونية الاخرى.

اقترح خدام مجلسا للنواب يكون نصفه مسيحيا والنصف الآخر مسلما، دون ان تخصص المقاعد على أساس المذاهب. كان بري الوحيد الذي أيد الاقتراح من بين كل المشاركين. ثم حاول خدام اقناع الموجودين بالغاء الطائفية، وحذّر من ان عدم الغائها يعني ان الحرب لن تتوقف في لبنان. وقال ان الطائفية قد تنمي مئات من الاصوليين. وأضاف ان الطائفية تشبه النار فكلما غذيتها عظمت. كان الغاء الطائفية موضوع خدام المفضل، وكان يبرع في التكلم عنه، مستشهداً بعقيدة البعث العلمانية التي كان متضلعاً منها.

أما جنبلاط، فأعرب بدوره عن استيائه اذ كل ما كنا نفعله هو التكلم عن «جنس الملائكة» بينما كانت البلاد تنهار. وردّ الرئيس عليه قائلا ان البلاد تنهار لأن مجلس الوزراء قلّما يجتمع، ولأن الوزراء كانوا يتهجمون عليه، متجاهلين بذلك المصلحة الوطنية. وأعاد الرئيس النظر في مواد البيان الوزاري، وأشار إلى التقدم الذي احرز فيه. وقال: على سبيل المثال، جرى تشكيل اللجنة المختصة بالاصلاحات

الدستورية، وهي تدرس الآن الدستور وتقترح التغييرات والتعديلات، وقد انهت العمل فيما يتعلق بثلاثين مادة ومن المنتظر ان تنهي ما تبقى خلال سنة تقريبا.

وكانت اللجنة تنتظر التوجيه فيما يتعلق باقتراح انشاء مجلس الشيوخ. واشار الرئيس إلى ان برلماناً يضم ١٢٦ عضواً، على أساس المناصفة بين المسيحيين والمسلمين، هو أمر قيد الدرس. ولكن ثمة عراقيل متعلقة بتوزيع المقاعد ما بين الطوائف المسيحية. علاوة على ذلك، ستكون صلاحيات رئيس الوزراء منصوصاً عليها في الدستور وليس فقط متوافقاً عليها حسب العرف.

وعندما أتى الرئيس على ذكر اعتماد قانون محاربة الفساد صاح خدام قائلا: محاربة الفساد؟! من سيبقى عندها في الحكومة وفي الادارة؟ واقترح انه من الممكن وضع قانون كهذا على الرف حتى تصبح الدولة قوية بما فيه الكفاية لتقف على رجليها. وحث الرئيس على تطبيق البند الوارد في البيان الوزاري عن انهاء الحرب، وقال: على الرغم من ان حكومتنا حكومة الاتحاد الوطني فاني أعقد كل اجتماعاتي في الملجأ لأن الوزيرين الحاضرين بيننا نبيه بري ووليد جنبلاط لا يتوقفان عن صب القذائف علي. فعلى الميليشيات ان تعيد الدبابات والسيارات المصفحة والشاحنات التي استولت عليها من الجيش اللبناني وعليها ان تتحول إلى احزاب سياسية غير مسلحة.

اقترح الرئيس بضم بعض أعضاء الميليشيات إلى قوى الامن الداخلي، فاعترض كرامي على هذا الاقتراح، مشيراً إلى ان الميليشيات محازبة ونظرتها ضيقة، ولا تستطيع لذلك خدمة المصلحة العامة، فعلق خدام قائلا انه من الافضل ان تكون الميليشيات داخل النظام من ان تكون خارجه. فرد عليه كرامي بقوله: في هذه الحال سيكونون هم في الداخل وسنصبح نحن في الخارج. اما جنبلاط، فأكد انه شئنا أم أبينا، لا بد ان ينضم بعض الميليشيويين إلى قوات الدولة النظامية.

حاول الجميع، بعد ذلك، تجنب الموضوع، ودار النقاش حول الجيش اللبناني. فكان من الضروري ايجاد أجوبة عن الأسئلة التالية: كيف سيوّحد الجيش؟ كيف سيجري تجهيزه؟ وكيف ستتحقق المصالحة بين الجيش والميليشيات؟ عندما كان

يأتي احد على ذكر التدريب العسكري الاجباري، كان كرامي المعروف بحذره من موضوع النفقات يتساءل: من سيتحمل اعباء هذا التجنيد؟ اشار خدام إلى ان التجنيد العسكري مهمّ للغاية للاخلاق والشخصية وان المال يتوافر دائما. وتذكر انه خضع هو لخدمة عسكرية دامت خمسة عشر يوما بيد ان الضابط المسؤول عنه زجّه في السجن لنصف هذه المدة. فأجابه الرئيس على التو، وكان يتحرق دائما لمباغتة خدام في لحظة سهو: يظهر بان هذه المدة لم تكن كافية.

اخيرا اتفق الجميع على ان تدخّل اسرائيل في الشؤون اللبنانية هو الذي أدى إلى التعصب الطائفي، والنزاعات بين مختلف الطوائف. وكالعادة، كان التذرّع باسرائيل يحل مشاكل كثيرة. وكان السياسيون اللبنانيون، منذ سنوات طويلة، يفتشون عن «الشخص الثالث» حتى يحملوه مسؤولية فشلهم. فقرروا من باب المزاح والدعابة ان ينحوا بالملامة على الايطاليين. وفي الحقيقة أضحت عبارة «الحق على الطليان» عنصراً أساسياً في التقييم السياسي عند اللبنانيين.

وعندما أوشكت القمة المصغرة في بكفيا على الانتهاء، جرى نقاش طويل حول ما يصرحون به للاعلام، والنقاش كان طويلا لأن النتائج كانت ضئيلة. كان كل يغني على ليلاه ولا احد يستمع. فاقترح خدام ان يعلن الجميع بانهم اتفقوا على بعض البنود وان النقاش سيستأنف في مجلس الوزراء حتى التوصل إلى اتفاق حول جميع البنود، وهكذا كان.

أما الرئيس، فأصيب بخيبة امل. كان يريد عقد قمة مع الأسد فاكتفى، بدل ذلك، بقمة مصغرة مع خدام. وكان يريد التوصل إلى نوع من التحالف مع الأسد شبيه بالتحالف الذي أقامه فؤاد شهاب مع جمال عبد الناصر، في أواخر الخمسينات، ولكن ذلك لم يتحقق.

الانتفاضة

رغم كل الجهود التي بذلها الرئيس الجميل للتقرب من السوريين والتكيف معهم، لم يتمكن من تغيير الموقف السوري تجاهه، فجاءت ردّة فعله عند ذاك

بمحاولة تعزيز موقفه داخل الطائفة المارونية وحزب الكتائب. ولكن الرئيس، في العام ١٩٨٥، كان قد خسر الاجماع الوطني الذي اوصله إلى السلطة. فكانت التطورات في البلاد خارج سيطرته، وكانت الحكومة عاطلة عن العمل، والميليشيات تمارس السلطة في مناطقها. وكانت عمليات الخطف واحتجاز الرهائن وخطف الطائرات متفشية في البلاد. وحتى داخل طائفة الرئيس المارونية، كانت السلطة في يد القوات اللبنانية، وكان الدكتور سمير جعجع رئيس القوات المسلحة فيها.

تحدى الدكتور جعجع الحزب والرئيس الجميل وسيطر، في ١٢ آذار/مارس، على المناطق الشمالية الممتدة من جبيل حتى نهر الكلب. كانت انتفاضة جعجع هذه تحديا لمحاولة الرئيس المستمرة للتقرب من سوريا. واتهم الرئيس اسرائيل انها وراء هذه الانتفاضة.

ولكن وزارة الخارجية الاميركية اكدت لنا ان اسرائيل لم تتدخل قط. واخبر بارثولوميو الرئيس ان جعجع وحبيقة، رئيس مكتب الاستخبارات في القوات اللبنانية، لم ينتفضا بدافع خارجي، بل لانهما كانا ضد الرئيس وضد نهجه.

في ١٣ آذار/مارس، وبينما كنت مجتمعا بالرئيس، دخل علينا الكولونيل سيمون قسيس وقدم التحية. ولكن الجميل تجاهله لأنه كان يعتقد بان قسيس «لا يكشف عن خطة من الخطط الا بعد حدوثها ببضعة أيام». فتركت الرئيس، ومزاجه معكر، وتوجهت مع قسيس إلى مكتبي. وبينما كنا في المكتب، اتصلت بي جويس زوجة الرئيس واطلقت العنان لغضبها على قسيس. كانت على علم انه معي في المكتب، وأنه كان يستمع لنقدها اللاذع. واتهمت رجال الاستخبارات بأنهم لا يقولون الحقائق للرئيس «بل يزوِّرون له الصورة ليرضوه»، وكان صوتها يتعالى من السماعة. واكملت قائلة ان الأسوأ هو ان الرئيس يحب سماع الاخبار السارة، وان معاونَيْه، الكولونيل سيمون قسيس، والدكتور جميل نعمة المدير العام للأمن العام، كانا ينقلان إليه دائما الاخبار السارة. وتابعت القول بان امسّ ما يحتاج إليه الرئيس يا عزيزي ايلي هو شخص يقول له الحقيقة ـ الحقيقة ـ الحقيقة.

في غضون ذلك، اتصل بري بالرئيس وقدم له دعمه ودعم جنبلاط ضد

الانتفاضة. واتصل به الرئيس السوري ايضا وعرض عليه ارسال أيّ مساعدة قد يحتاج إليها من اجل قمع الانتفاضة. ولكن الرئيس رفض هذا العرض قائلا: «يجب علينا حل المشاكل العائلية بانفسنا».

اقترح جوزف أبو خليل عقد مؤتمر يضم القادة المسيحيين، بغية التوصل إلى موقف مسيحي موحد، حول التطورات في المنطقة الشرقية. استهوت الرئيس هذه الفكرة، وعُقد مؤتمر في القصر الجمهوري ضمّ نواباً ووزراء ووزراء سابقين ورؤساء دينيين مسيحيين. واجتمع المؤتمرون لمدة أربع ساعات واصدروا بيانا دعموا فيه الرئيس وتوجهاته السياسية.

اجتمع بي بعد المؤتمر عدد كبير من المؤتمرين، الذين لم يكونوا من القوات اللبنانية، ولا من حزب الكتائب، واشتكوا بأنهم تورّطوا في قضية كتائبية. وتساءلوا: لماذا عُقد الاجتماع في القصر الجمهوري؟ ولماذا كانت مشاورتهم بعد فوات الأوان؟ وكانوا على حق: فقد وقعوا في نزاع من أجل السلطة بين الرئيس والقيادة الجديدة داخل القوات اللبنانية. كان من الصعب إيجاد متطوّع لقراءة بيان المؤتمر: فكل واحد كان يخشى ردة فعل انتقامية من جعجع وحبيقة. اما حزب الكتائب، وبعد ان حشد كل قواه لطرد جعجع من الحزب، فكان الآن في حال اضطراب. واخبرنا ابو خليل ان جوّا انهزاميا كان مخيما على مقر الحزب الرئيسي، وكان المسؤولون الحزبيون مسترسلين على كراسيهم، فاقدي الحميّة، يشربون القهوة، فلم يكن لديهم أي خطة أو رغبة في القتال، ويتأسفون الآن على قرار اتخذوه بحق جعجع ولم يتمكنوا من تنفيذه. فقد أعطوا جعجع وحبيقة، اللذين كانا دائماً مناهضين للرئيس، مبرّراً للتنازع معه علنا، وهما يملكان السلاح في حين أن الرئيس «أعزل» ولا يستطيع استعمال الجيش ضدهم، خصوصاً ان الجيش ليس مستعداً للتدخل في عملية حزبية داخلية.

كان الرئيس قلقا للغاية بشأن منطقة المتن التي كانت معقل عائلته، وموضع رصيده السياسي في حزب الكتائب. وكان يخشى ان يحاول جعجع وحبيقة التسلل إلى المتن، او حتى شن هجوم عليه والسيطرة على قراه. ورغم انه كان لا يزال غاضبا

من قسيس، فقد امره بالتوجه إلى المتن والتنسيق مع الموالين له هناك للدفاع عن المنطقة. فوجئ قسيس بأمر الرئيس هذا وتظاهر بالانصياع.

تفشت الاشاعات في المنطقة الشرقية، (وكانت تغذيها الانتفاضة)، عن حشد سوري، وحتى عن احتمال حصول هجوم سوري على المناطق الشرقية، وذلك من أجل قمع الانتفاضة. وكانت زوجة الرئيس تتصل بي بالحاح، وهي تطالب بأن نصدر بيانا نُطَمْئن فيه الشعب بان هذه الاشاعات كاذبة. وحتى الملك فهد اتصل بنا وقدم لنا المعونة الدبلوماسية. ولكن ما من احد في الحقيقة يمكنه ان يساعد. فالقضية أضيق من ان تكون مسيحية مسيحية، فهي، في الواقع، حزبية، ان لم تكن عائلية.

لم يكلّ المبعوثون عن اخباري ان السوريين خاب املهم للغاية، اذ ان الرئيس لم يطلب منهم المساعدة. فكانوا مستعدين للدخول إلى المنطقة الشرقية وقمع الانتفاضة، ثم الانسحاب إلى مواقعهم. ولكني قلت لهم ان عملية كهذه قد تخلف وراءها اثرا مدمرا على الاسرة المسيحية ويجب تحاشيها. وكنت أعتقد ان أفضل طريقة هي في ايجاد حل سياسي للانتفاضة ومعالجة الاسباب التي أدت إليها. واقترحت ان ينضم قادة الانتفاضة إلى قيادة حزب الكتائب وتجديده من خلال عنصر الشباب. التقيت ببارثولوميو في الثامن عشر من آذار/مارس بعد ان اجتمع بكريم بقرادوني. واعلمني انه نقل رسالة إليه مفادها ان منتفضي القوات اللبنانية يعرقلون سير الاصلاحات السياسية في البلاد، ويضعفون رئاسة الجمهورية، وقال انه غير معقول ان يتحدى فريق مسيحي الرئاسة: لأن الرئيس يحتاج إلى فريق وإلى حزب يدعمه. وقال بارثولوميو ان الانتفاضة قد تؤدي إلى عزل القوات اللبنانية عربيا ودوليا، وان بقرادوني يعي ذلك، غير انه كان يظن بان الرئيس قد ذهب بعيدا في سياسته العربية وفي اقتراحاته الاصلاحية.

أما الأسد، وبعد أن انتابه قلق شديد يتعلق بالانتفاضة وتأثيرها على الطائفة المسيحية، فقد اتصل بالرئيس نهار الجمعة ٢٢ آذار/مارس ودعاه إلى دمشق. اجتمع الرئيسان على انفراد خلال عطلة الاسبوع. تناولتُ الفطور نهار الاثنين مع

الرئيس ورأيته محبط العزيمة. فتح الكتاب المقدس وبدأ بالقراءة من فصل أيوب، وتساءل بصوت مرتفع عن احباطات الرئاسة. كلما كان مزاجه معكرا، وكان هذا حالنا يومياً خلال هذه المرحلة، كنت أحاول ايجاد تشابهات لحالته قد تساعده على الخروج من الاحباط. واخبرته اني انتهيت لتوي من قراءة كتاب غور فيدال عن لينكولن، وقلت له: واجه لينكولن مشاكل كالتي تواجهها. فكانت عاصمته محاصرة، وكانت محاولات اغتياله كثيرة، وكان قادته العسكريون يتشاجرون ولا يقاتلون، وكانت حكومته في بلبلة شديدة، وكانت حياته في البيت الابيض بمثابة كابوس. وتحمس الرئيس لسماع المزيد من اخبار لنكولن، وأراد ان يقرأ الكتاب بنفسه.

اخبرني الرئيس ان اجتماعه بالأسد لم يكن ناجحاً. فكان الاسد يريد انهاء «الوضع الاسرائيلي» أي الانتفاضة المناهضة لسوريا في المنطقة الشرقية. وقال له الجميل ان هذه المسؤولية تعود اليه، وأنه سيحسم الامر سياسيا من خلال المصالحة. اراد الجميل أن يتعاون بري وجنبلاط معه وهما حليفا سوريا الاساسيان. وكان الرئيس يريد ان يُنْشىء علاقة مع بري بشكل خاص. فلم يكن يتسنى له ولحكومته العمل بتواظب دون بري وجنبلاط. وكما وعد الجميل بشكل عام بتسوية المشاكل الناتجة عن الانتفاضة، كذلك وعد الاسد بدوره، وبشكل عام، بمساعدة من بري وجنبلاط. واشتكى الجميل من حكومته، وابدى رغبته في تغييرها. ولكن الاسد لم يشجعه على ذلك قائلا له: ان التبديل الوزاري قد يجلب الآن اشخاصا جدداً لا يريدهم اي منا (وهو يشير بذلك الى زعماء الانتفاضة). واعترف لي الرئيس انه حقاً امر مذهل: كيف يستطيع الرئيس الاسد ان يكلمك، فتظنه معك على الموجة ذاتها، وإذ به على موجة تختلف كليا. وتظن انك اتفقت واياه على كل شاردة وواردة، ثم تغادر صالة الاجتماع وتدرك فجأة انك لم تحصل على شيء. وجد الرئيس نفسه وحيداً لا عون له امام كل هذه الأزمات المتفاقمة من حوله. فلم يكن السوريون راضين عن الطريقة التي يعالج بها الانتفاضة. ولم يكن الجميل مرتاحاً الى نوايا السوريين. وكان يخشى من هجوم سوري على القوات اللبنانية فيكون بمثابة هجوم عليه شخصياً في محيطه الماروني. وكان يخشى أيضا ان

يُهجّر المسيحيون من الجنوب. ولأن اسرائيل كانت تستعد للانسحاب من جوار صيدا، فان الرئيس كان متخوفا ان تلي الانسحاب حالة شبيهة بالتي تلت انسحابهم من منطقة الشوف. كانت القوات اللبنانية تحصن مواقعها للحلول مكان الاسرائيليين بينما كانت الاحزاب الاخرى، كالحزب التقدمي الاشتراكي وحلفائه، داخل المعارضة واقفة لها بالمرصاد. وكان الرئيس يتخوف من النتائج، واراد ابلاغ القادة الموارنة بذلك لاسيما البطريرك والرؤساء السابقين: حلو وفرنجية وشمعون. فدوّن موقفه وآراءه على ورقة. وفي الرابع من نيسان/ابريل، أرسل اثنين من معاونيه لقراءة هذه الورقة لهؤلاء الزعماء.

وكان بيان الرئيس ينص على ما يلي: اخشى من حدوث بحر من الدماء في الجنوب، وتهجير للمسيحيين نحو الجنوب، وتهجير الشيعة نحو الشمال، وسنة صيدا نحو بيروت. هذا ما قد ينشئ كانتونا شيعياً وكانتونا درزياً في الشوف. فالمسيحيون ينجرّون عندئذ ليصبحوا حراسا لحدود اسرائيل، وقد تؤدي عملية التهجير هذه الى نزاعات طائفية ضارية. وبما ان سوريا تعتبر ان اسرائيل هي التي حرضت على الانتفاضة، فستشجع هي بدورها حلفاءها على قصف المنطقة الشرقية، معقل الانتفاضة. فامام هذه الوقائع، لا استطيع تحمل المسؤولية وحدي. عليكم ان تشاركوني في المسؤولية وأنا احتاج إلى معرفة موقفكم حول النقاط التالية:

١ ـ القتال في الجنوب الذي تتورط فيه القوات اللبنانية.

٢ ـ الخطط الاسرائيلية في الجنوب.

٣ ـ عملية تقسيم لبنان الى كانتونات.

٤ ـ وحدة البلاد.

٥ ـ السياسة التي اتبعتها الحكومة منذ مؤتمرَي جنيف ولوزان، وكما وردت في بيان حكومة الاتحاد الوطني.

٦ ـ علاقات لبنان وسوريا.

واختتم الرئيس بيانه هذا بالدعوة لعقد مؤتمر مسيحي بغية حل هذه المشاكل.

أتى رد القادة الموارنة مؤيداً بشكل عام لموقف الرئيس. فكان الجميع يؤيدون وحدة البلاد، والبيان الوزاري، والتعاون مع سوريا. وكان هؤلاء القادة متخوفين من توجه الانتفاضة، والبعض منهم لا يزال يعتقد ان المشكلة هي في الحقيقة مشكلة داخلية بين القوات اللبنانية وحزب الكتائب، ويجب ان تسوّى «عائلياً» وليس في اطار مؤتمر مسيحي كما يقترح الرئيس.

ولكن، رغم هذه التحفظات، عُقد مؤتمر ضم القادة المسيحيين في البطريركية المارونية في بكركي في التاسع من نيسان/ابريل، وحضره القادة السياسيون والدينيون والنواب والوزراء. وكان البطريرك الماروني انطونيوس بطرس خريش متردّدا في استضافة المؤتمر. وفي حال عقده، لم يكن يريد ان يصدر عنه اي بيان. لكن خريش تنازل عن موقفه بعد ان بذل الجميع جهودا مكثفة معه. وأصدر المؤتمر بيانا دعم سياسة الرئيس الجميل. وطالب ايضا برص الصفوف من اجل تفشيل المشاريع الاسرائيلية في الجنوب واعادة التأكيد على الهوية اللبنانية العربية واكدّ على الحاجة الى علاقات جيدة مع سوريا، وعبّر عن دعمه لمؤسسات الحكومة التي وحدها تستطيع ان تضمن حرية المواطنين اللبنانيين وكرامتهم. وطالب التجمع المسيحي بعقد مؤتمر مسيحي ـ اسلامي لاعادة التأكيد على المبادئ الوطنية التي يتوافق عليها اغلبية اللبنانيين.

رحب الزعماء اللبنانيون وعواصم الدول الاجنبية بهذا البيان، وهم الذين كانوا لا يزالون يأملون في ان يتحد اللبنانيون سوياً لحل مشاكلهم. ولكن من المعروف ان البيانات تظل حبراً على ورق ما لم يتحقق التوصل الى اتفاق ملموس بين الفعاليات على الارض. وكما كان الرئيس يشعر بالاحباط، وهو يرى السلطة تنتقل في المنطقة الشرقية الى يد الانتفاضة، هكذا كان وضع رئيس الوزراء كرامي ازاء تغيير ميزان القوى في المناطق السنية، مثل طرابلس وبيروت وصيدا. فأدرك كرامي والزعامة السنية ان سيطرتهم تتراجع في المدن امام المد الشيعي والدرزي ـ وفي منتصف شهر نيسان/ابريل كانت حركة امل والحزب التقدمي الاشتراكي قد سحقا الميليشيا

السنية «المرابطون»، في عملية تهدف الى زعزعة سلطة كرامي. كما كانت القوات اللبنانية تحاول زعزعة سلطة الجميل.

فكانت ردّة فعل كرامي أنْ اعلن عن استقالته متهماً الميليشيات ملمّحاً إلى دور سوريا بتشجيعهم. كما شن الشيخ حسن خالد هجوماً عنيفاً على الميليشيات. وبما أن «المرابطون» كانوا يدعمون عرفات، فقد اعتبر القادة السنة ان ضرب «المرابطون» كان بمثابة ضربة غير مباشرة لياسر عرفات. كان بري وجنبلاط يعبران علنا عن ابتهاجهما الغامر بانتصارهما هذا، فسخرا من كرامي، واعلنا عن نيتهما في تعيين رئيس جديد للوزراء. لم يقدم كرامي استقالته رسميا، ولكنه اعتكف في منزله، واعتبر فعله هذا بمثابة استقالة. كانت اسرائيل قد انسحبت في هذا الوقت جنوبا، فنشبت النزاعات في المناطق التي نزحت عنها.

وفي ٢٥ نيسان/ابريل، تحققت كل التوقعات. فالقتال بين القوات اللبنانية من جهة، والفلسطينيين والحزب التقدمي الاشتراكي من جهة ثانية، ادى الى هجوم فلسطيني ضد القرى المسيحية شرقيّ صيدا أرغم السكان المسيحيين على مغادرة بيوتهم وقراهم واللجوء الى جزين. اما وحدات الجيش التي كانت منتشرة في جنوب لبنان لفرض النظام، فانقسمت ما بين وحدات مسيحية ووحدات مسلمة واصبحت تشكل، هي بدورها، مصدراً جديداً للخطر.

فكر الرئيس جدياً بالاستقالة. وفي ٢٧ نيسان/ابريل، ابلغ محمد الخولي انه، اذا ما تابع الاسد دعمه لبري وجنبلاط وفرنجية ضدّه فسيستقيل من رئاسة الجمهورية. وقال لخولي: انه كان يتوقع حدوث كل هذه التطورات في الجنوب في الرابع من شهر نيسان/ابريل عندما وجه رسالة إلى المسيحيين. وكانت تلك الرسالة، حتى ذلك الوقت، رسالة سرية. ولكن الرئيس سمح بنشرها في الصحافة للدفاع عن موقفه امام تهجمات القوات اللبنانية على سياسته، وللتخفيف من حدة النتائج التي تترتب على التهجير الجديد للمسيحيين.

في ٢٨ نيسان/ابريل، وقع إقليم الخروب في ايدي الاشتراكيين. وعندها نصح

بعض الاعضاء في حزب الكتائب الرئيس الجميل بتقديم استقالته والسيطرة على اكبر وحدة في الجيش اللبناني وهي اللواء الثامن، والتمركز في منطقة المتن كما فعل بري في بيروت مع اللواء السادس وجنبلاط في الشوف مع اللواء الثاني عشر.

رفض الرئيس الأخذ بهذه النصيحة، اذ اكد انه لا يستطيع ان يقلب فلسفته السياسة رأسا على عقب، وأن يبقى صادقا مع نفسه. رغم انه كان من غير المعقول أن يستقيل، ولم يحاول الجميل تكذيب الاشاعات المتزايدة حول استقالته، اذ ان هذه الوسيلة كانت قد برهنت على جدواها عندما لجأ اليها من قبله الرؤساء فؤاد شهاب وشارل حلو والياس سركيس.

اما قادة الانتفاضة، اي جعجع وحبيقة وبقرادوني، وخشية من ان تؤدي استقالة الرئيس إلى عزلهم وتعريضهم للخطر، وبالأخص لهجوم سوري، فقد قرّروا التوقف عن انتقاد الرئيس، وشرعوا، بدل ذلك، بالتنسيق معه. فاجتمعوا معه في بكفيا نهار الاثنين في ٢٩ نيسان/ابريل، وبدأوا، تدريجيا، يتخذون مواقف علنية مماثلة لمواقف الرئيس. وفي منتصف شهر أيار/مايو، بدأ اتجاه جديد مفاجىء داخل صفوف قيادة الانتفاضة. فبدأ ايلي حبيقة، الذي كان الان على رأس القوات اللبنانية، باصدار البيانات الداعمة لسوريا ولسياستها في لبنان. في هذه المرحلة، قام ميشال سماحة، وهو عضو في القوات اللبنانية، ومستشار للرئيس وصديق للنظام السوري، بتمهيد الطريق لحبيقة للسفر الى دمشق والقيام بتغيير جذري في اتجاه سياسته، والتحول، من الصداقة لاسرائيل، الى الصداقة لسوريا، شأنه شأن الاشعري الذي تحول تحولاً كاملاً بعد ان ارتد عن المعتزلة ورجع إلى تعاليم اهل السنة والجماعة.

كانت هذه السياسة الانفتاحية الجديدة نحو سوريا تخفي في الحقيقة نزاعا داخليا في قيادة القوات اللبنانية. فلم تتوافق تحركات حبيقة مع تطلعات جعجع. فكان الرجلان يمثلان الآن طرفي المجتمع المسيحي: كان حبيقة يملك قاعدة نفوذ في منطقة الاشرفية من بيروت الشرقية، وكان الى درجةٍ مّا، يستفيد من الشبكات المدنية التي انشأتها القوات اللبنانية هناك، بينما كان جعجع متمركزا في المنطقة

المارونية شمالي بيروت. وكان اقل استعدادا من حبيقة للمساومة في نظريته المتعلقة بالامن المسيحي. ولكن حبيقة كان هو الذي يمسك بزمام القرار في المجلس التنفيذي، فماشى جعجع حبيقة في سياسته الجديدة مع سوريا بتردّد، وكان يتحين الفرص لضرب حبيقة وقلب سياسته.

فالرئيس الجميل، الذي كان يناشد السوريين لدعمه حتى يتصدى للانتفاضة بطريقته، اصبح الآن يشاهد حبيقة يبحث سرّا عن دعم سوري ضدّ الجميل نفسه. وكلما ضعف موقف الرئيس، كان من السهل التهجم عليه. وفي غضون ذلك، تابع بري وجنبلاط وابلهما من الكلمات والقذائف، عليه وعلى المنطقة الشرقية. اما الكلمات، فكانت، بالنسبة للرئيس، تدمر اكثر من القذائف، فكانت تزعزع الثقة الوطنية، وتعرض الحكومة للانقسامات، وتقضي على ما تبقى من كرامة الرئاسة.

اصبح الذين يعملون في القصر الجمهوري معتادين على القصف والقنص. وكانوا يأخذون الامر بجرأة كبيرة، وحتى بشيء من المرح احيانا. فكان المرح بمثابة درع نفسي بالنسبة الينا وكان يهبنا احساسا وهميا بأن الامور طبيعية. فاذا ما التقى شخص زميلاً له في اروقة القصر الجمهوري كان من باب الدعابة ان يلقي عليه التحية هاتفا: شو بعدك طيب؟. وفي ٣٠ ايار/مايو، عندما قام مسؤول ليبي كبير بزيارة للقصر الجمهوري، تساءلنا جميعا: كيف سيتعاطى هذا الثوري مع القذائف عندما تنصب عليه. وصل الزائر الى القصر تحت حراسة مكثفة ووابل من القذائف. وعندما غادر سيارته المصفحة ليقوم ببعض الخطوات نحو باب القصر بدا مرتعبا وشاحب اللون وهرول الى الداخل. وخلال مأدبة الغداء، أصابت إحدى القذائف غرفة الطعام، فانهار قسم من الحائط وتناثر الزجاج وتطايرت الشظايا في الطابق الثاني من القصر. اظهر الجميع خوفهم وتضايقهم، ولكن الزائر كان الوحيد الذي قذف بنفسه ارضا، وحاول الرئيس طمأنته بان كل شيء على ما يرام، وان عليهما ان يستأنفا المناقشة. ولكن الزائر اعرب عن تأسفه، واراد مغادرة القصر فوراً. في آخر المطاف، قد يكون السؤال الحقيقي المتوجب طرحه هو التالي: من هم الاشخاص الطبيعيون، أنحن المعتادون على القصف ام زوارنا؟؟

بدأت موجة من خطف الاجانب تجتاح بيروت. وبما ان الجامعة الاميركية في بيروت كانت المستخدم الأساسي للاميركيين في لبنان، فقد اضحت هدفا للحركات المناهضة لاميركا. وفي الثامن من شهر حزيران/يونيو، اخبِرتُ ان عميد كلية العلوم الزراعية في الجامعة الاميركية، توماس ساذرلاند قد اختطف، وكان قد اختطف من قبل رئيس الجامعة بالوكالة دايڤيد دودج وهو قريب وسليل لمؤسس الجامعة في اواخر القرن التاسع عشر. وكان الان كالڤن بلمبتون رئيس الجامعة وكنت اخشى ان يصيبه سوء.

عرفت بلمبتون لفترة، وطالما اعجبت بشجاعته واستعداده للمجازفة بحياته من اجل استمرارية الجامعة. وكنت أشعر أيضا ان طبعه المرح وغير المبالي قد يعرّضه للخطر. اتصلت به ذات يوم من مكتبي، عندما كان في بيروت، وكان بجانبي ممثلون عن كل فروع امن الدولة، واعلموه انه بحاجة إلى حراسة شديدة لأن بيروت مدينة خطرة. فجاء جواب بلمبتون بكل مرح: حسنا، ان مركزي الآن أهم من مركز سفير، لقد هدّدوا في الاسبوع المنصرم باختطافي. اما الآن فهم يهددون باغتيالي. ونصحه احد مسؤولي الامن باستخدام اثني عشر حارساً، وبتزويدهم بالاسلحة، وتبرع المسؤول بتدريب هؤلاء الرجال شخصيا. ولكن بلمبتون أجابه بالرفض قائلا: منذ بضع سنوات، قمت بزيارة لشيخ أبو ظبي، ولاحظت ان حراسه كانوا يحملون بنادق عثمانية بالية. فسألته: «يا شيخ شخبوط، ان حراسك بحاجة إلى بنادق افضل من تلك التي يحملونها». فأجابني قائلا: «اني رجل حكيم يا صديقي، فكل سلفائي لاقوا حتفهم على ايدي حرّاسهم، لذلك اعطيتهم عمدا بنادق ضخمة ولكن غير مجدية». تمكنا اخيرا من تأمين حراسة محدودة لبلمبتون. ورغم ذلك، لم يتوقف عن القول ان الحرّاس لا يستطيعون ان يحموه من القدر.

كان السفراء الغربيون معرّضين، هم ايضا، للخطر، وكان للسفير الاميركي ميليشيا بكل معنى الكلمة، اذ انها تضم ٥٠٠ عنصر لتأمين الحراسة له شخصيا ولموظفي السفارة. وعندما يتجه إلى مكانٍ ما، كانت تلازمه مواكبة من الرجال المدججين بالسلاح. والسفير شخصيا كان يحمل مسدسا يحرص عليه كوثيقة

سرية. وكانت التدابير الامنية المحيطة بعدد من السفراء بالاهمية عينها للتدابير التي تتوافر لرؤساء الدول. ولكن سفيراً واحداً كان لا يستهويه هذا الخطر البتة، وهو الكونت لويس دالسيوس، السفير البلجيكي. وكان دائما، عندما يراني، يخبرني قصصاً عن ميليشيا تلاحقه، لكنه لا يعرفها. نصحته بالسفر إلى بلجيكا حتى يزول الخطر عنه، فقبل نصيحتي بكل طيبة خاطر.

لم يكن لاساتذة الجامعة ميليشيا. وبعكس السفراء، كانوا يبدون ساذجين وهم يُقَيِّمون الخطر المحدق بهم. لذلك طلبت من الاميركيين في الجامعة الاميركية مغادرة لبنان في أقرب وقت. وقمت مع زوجتي بابتكارخطط عدة لاخراجهم من بيروت وباستضافتهم في منزلنا في بعبدا. غادر الكثير منهم في ظروف صعبة للغاية وكانوا بحاجة إلى طمأنة وعناية كبيرة. واستطعت ان أؤمن إذْناً خاصا لنقلهم بواسطة طوافة عسكرية إلى قبرص.

بينما كان كل انتباهنا منصبا على اخراج الأساتذة الاميركيين من لبنان، جرى اختطاف طائرة TWA، في الرابع عشر من شهر حزيران/يوليو، على ايدي مناضلين اصوليين، وحطت الطائرة في مطار بيروت الدولي. اختطف منها اربعون راكبا اميركيا واحتجزوا في امكنة مختلفة من بيروت، وذلك من اجل احباط أي محاولة اميركية او اسرائيلية لانقاذهم. طالب الخاطفون باطلاق سراح سبعمئة سجين في السجون الاسرائيلية. وادّى ذلك إلى سلسلة مربكة من المناورات والبيانات والاتصالات. أعلن الاسرائيليون ان ثمة قراراً كان قد اتخذ باطلاق سراح السجناء قبل حدوث اختطاف الطائرة. ولكنهم اضافوا قائلين ان اسرائيل لن تطبق هذا القرار ما لم تطلب منها ذلك الولايات المتحدة. وبهذه الوسيلة، اعفيت اسرائيل من مسؤولية اطلاق سراح السجناء. اصرّت الولايات المتحدة بدورها علنا انها لن تتفاوض مع «الارهابيين»، ولكنها اعلنت بصورة غير رسمية انها لن تعارض اطلاق سراح السجناء في اسرائيل. وسرَتْ شائعة بان الاميركيين يدرسون احتمال شن عملية عسكرية، اذ ان بارثولوميو طلب مرارا من كل المواطنين الاميركيين الباقين في الجامعة الاميركية مغادرة البلاد في أسرع وقت.

عندها دخل نبيه بري الساحة، وكان حينها يشغل منصب وزير العدل، وتولى السيطرة على الرهائن من الخاطفين. وكان بري يلعب لعبة خطيرة: فبأخذه للرهائن، كان يحاول، من ناحية أولى، إبعادهم عن العناصر الأكثر تطرفاً التي كانت قد اختطفت طائرة الـ T.W.A، ومن ناحية ثانية، دعم بري مطالب الخاطفين، وناشد باطلاق سراح السجناء في اسرائيل. وكان بري شخصية معتدلة يبذل أقصى جهده في ظروف صعبة للغاية، وأراد ان يساعد الرهائن من جهة، وان يقمع التيار الاصولي المتصاعد في طائفته، وذلك بالاستجابة لمطالب الخاطفين الشعبية. وبينما كان بري يؤدي دور الوسيط في لبنان، كانت صورته في وسائل الاعلام الاميركية بانه وزير وخاطف في ذات الوقت. في نهاية المطاف، ادّى التدخل السوري واطلاق سراح السجناء في اسرائيل إلى اطلاق سراح رهائن الـ TWA في ٣٠ حزيران/يونيو.

في الاول من شهر تموز/يوليو، طلب بارثولوميو ان يجتمع بي في أسرع وقت. ونقل إلي الرسالة التالية:

«أصبح مطار بيروت الدولي يشكل مصدر خطر لكل المسافرين، ويبدو ان الولايات المتحدة مستهدفة في القرصنة الجوية، وهي لا يمكنها ان تسمح بحدوث هذه العمليات دون إنزال العقاب بفاعليها. ومن الآن فصاعداً، ستبذل الولايات المتحدة جهودا مع كل الدول المعنية لتوقيف الطيران من هذا المطار وإليه، وسترفض الولايات المتحدة حق الهبوط للخطوط الجوية اللبنانية MEA و TMA، وستحاول اقناع الدول المجاورة للبنان عن التوقّف بتزويد هاتين الشركتين بالمعلومات الجوية اللازمة، وستحاول الولايات المتحدة اخيرا منع وصول فيول الطائرات إلى لبنان. واتخذ الرئيس ريغن ووزير الخارجية شولتز هذه التدابير بأسف عميق، وأن الولايات المتحدة لا تريد الحاق الضرر بلبنان، بل اضعاف هؤلاء الذين اصبحوا يشكلون، من لبنان، مصدر خطر للمسافرين بشكل عام وللمسافرين الاميركيين بشكل خاص».

أثارت هذه الرسالة غضبي إلى أقصى حد. وحاولت افهامه قائلا انكم بذلك

تعاقبون لبنان واللبنانيين، وليس خاطفي الطائرات، وان حكومتنا ستعتبر هذه الخطوة خطوة عدائية. وأصررتُ على ان يتصل بوزير الخارجية كرامي قبل ان تعلن حكومة الولايات المتحدة عن هذا القرار. قال انه قد يجتمع به ولكنه لم يبد عجلة، وكأنه لا يبالي باظهار الاهمال لكرامي، أو بالاحرى «استاذ البلاغة»، كما كان يسميه الأميركيون. لسوء الحظ، قرأ كرامي هذا القرار في الصحف قبل ان يتصل به بارثولوميو ببضع دقائق. وبعد ان غادر بارثولوميو مقرّي، اعلمني الرئيس ان السفير الاميركي قام بزيارته قبلي وسلّمه الرسالة ذاتها.

وصف لي الرئيس فيما بعد لقاءه ببارثولوميو قال: عندما انتهى السفير من تلاوة التدابير المعادية للملاحة الجوية اللبنانية عليه، شكره الرئيس. وتلا ذلك صمت طويل. وسأل بارثولوميو: أليس لديك سؤال تطرحه علي يا فخامة الرئيس؟

فأجاب الرئيس: كلا. وتلا هذا الجواب صمت طويل آخر اعتذر بعده باثولوميو وغادر الاجتماع. وقال لي الرئيس: «إيلي، ماذا تنتظر مني ان اقول له؟ من أين تراني ابدأ؟ لقد كان بامكاني القول: أردتم بري وجنبلاط في الحكومة فحصلتم على ذلك، وأردتم حكومة ذات قاعدة تمثيلية واسعة فحصلتم على ذلك ايضا. انكم تعرفون كل المعرفة من هو المسؤول عن خطف الطائرات. رغم ذلك فانكم تعاقبون الدولة التي لا تستطيع ايقاف هذه الدوامة، ولا تكفون عن إضعافي وتريدون مع ذلك ان «اخلق العجائب». شعرت باحباط عميق ولكني قررت عدم التفوه بكلمة فقط للمحافظة على هذا الخيط الرفيع الذي لا يزال يربطنا بالولايات المتحدة».

بينما كنا متفهمين مليا لغضب الاميركيين ازاء حادثة الخطف، شعرنا مع ذلك أن التدابير الاميركية كانت تعاقب الدولة اللبنانية وليس الخاطفين. وكنا نعتبر ان هذه التدابير قد تشجع الخطف وتضعف من ناحية اخرى الدولة اكثر فأكثر. وكنا قد عقدنا العزم على المطالبة بعقد اجتماع لمجلس الأمن للطعن في هذه التدابير، ولكن قررنا في آخر المطاف ان نكتفي بتقديم الشكوى.

حصل أمر طريف بينما كنا نصوغ الشكوى. فُتح باب مكتبي ودخل القاعة زائرٌ، لم يكن يبغي رؤيتي، بل كان يريد التحدث مع الرئيس حول موضوع في غاية

الأهمية. طلبت منه بالحاح ان يخبرني عن الامر، لأني مؤتمن على أسرار الدولة. وجّه إلي نظرة غريبة ثم اطلق صرخة هرول لدى سماعها نصف موظفي القصر إلى مكتبي.

«لن يحل السلام على هذه الأرض ما لم أعيّن الآن وزيراً للدفاع». فهمت عندها ان هذا الرجل المسكين كانِ مجنونا وتساءلت كيف استطاع ان يصل إلى مكتبي. فشاطرته الرأي بسرعة ووعدت بتعيينه وزيرا للدفاع في أقرب وقت. ومن ثم واكبته بلطف إلى خارج المبنى. وعندما رويت على الرئيس قصة زائرنا قال لي: «يا إيلي قد استعجلت كعادتك، ربما هذا هو الوقت المناسب لتعيينه وزيراً للدفاع».

كان الجميع يتكلمون عن تطبيق البيان الوزاري، ولكن لم يحدث أي تطور على هذا الصعيد، وكان النزاع المتواصل بين أمل والفلسطينيين يعرقل العملية السياسية، في حين أن تهجمات بري وجنبلاط المستمرة ضد الرئيس قد قضت على ما تبقى من الثقة المطلوبة للاستمرار في العمل السياسي. ولم يكن مجلس الوزراء يعقد اجتماعاته بسبب هذه التوترات الداخلية. كانت الحكومة تعاني الشلل بينما الميليشيات كانت تتوسع على حساب الدولة.

اما في المناطق المسيحية من لبنان، فقد أدى التحاق حبيقة بسوريا إلى تقارب بين قائد القوات اللبنانية والرئيس السابق سليمان فرنجية. وتفشّت الاشاعات داخل الاسرة المسيحية عن احتمال تحالف جديد. وعقد اجتماع بين الرئيس فرنجية وحبيقة تلته تصريحات أدلى بها فرنجية وطالب فيها باستقالة الرئيس الجميل. وكان الانطباع السائد ان فرنجية قد يخلف الجميل حتى لو اقتصرت مدة ولايته على سنتين، وذلك لتحسين الوضع. وبعدها قد يسلم الرئيس فرنجية زمام السلطة لرئيس جديد. وهكذا كان يلوح سيناريو جديد في الافق. كانت الميليشيات الموالية لسوريا والقوات اللبنانية الموالية لـ إيلي حبيقة تتقدمان سويا ببطء نحو صياغة قاعدة سياسية جديدة وتحالف عسكري جديد.

الميليشيات في دمشق

خلال صيف ١٩٨٥، كان حبيقة على اتصال بسوريا، وكانت اللمسات الاخيرة

توضع على الخطط المتعلقة بلقاء بين ممثلي القوات اللبنانية الموالية لحبيقة، وحركة امل والحزب التقدّمي الاشتراكي. وكان نائب الرئيس السيد خدّام هو المهندس الأساسي لهذه الخطط. فأراد ان يتوافق «شبان» الميليشيات دون تدخّل الحكومة او الرئيس أو السياسيين التقليديين. وتعهد بالقيام بهذه العملية اثر فشل مؤتمر لوزان في آذار/مارس ١٩٨٤، ووجد في حبيقة ممثلا مارونيا وشابا واثقا من نفسه، وذا طاقة متفجرة، ووجد فيه ايضا قناعة المهتدي. كان حبيقة يرى في التقارب مع اعدائه القدامى «أمل» والحزب التقدمي الاشتراكي، فرصة لتعزيز موقفه السياسي.

كان الرئيس والطائفة المارونية بأجمعها متوتري الأعصاب. فكانت تجري دراسة الصيغة السياسية المستقبلية للبنان، أي ما يعني مكانة الموارنة في هيكل السلطة. وكان يقوم بهذه الدراسة مبعوثا حبيقة إلى دمشق وما من احد منهما كان مارونيا. فميشال سماحة من الروم الكاثوليك، وأسعد شفتري من الروم الارثوذكس.

كانت القوات اللبنانية تريد التباحث اولا في الشؤون الامنية، كازالة المتاريس واطلاق سراح الرهائن. اما «أمل» والحزب التقدمي الاشتراكي، فكانا يريدان التكلم عن الاصلاحات السياسية لا سيما مستقبل الطائفية السياسية.

وواصل الممثلون عن الميليشيات الثلاث عقد الاجتماعات بانتظام في دمشق وفي منتصف شهر تشرين الأول/اكتوبر ١٩٨٥، انتشرت الاشاعات انهم توصلوا إلى اتفاق حول مبادئ الاصلاحات الاساسية.

كان الرئيس الجميل، ورئيس الوزراء كرامي ورئيس البرلمان حسين الحسيني، خارج هذه العملية بكاملها، وباءت بالفشل جهود الرئيس بنزع الطابع السري المحيط بالمحادثات. وبدأ حبيقة بتحضير الطائفة المارونية للتنازلات التى اكد انه يقوم بها «من اجل لبنان وليس لصالح حزب ما».

كان الرئيس يحرص على ان يكون طرفا في هذه العملية السياسية. وكان يفقد نفوذه امام حبيقة ليس بصفته رئيسا للجمهورية فحسب، بل بصفته زعيما اساسيا للطائفة المسيحية.

وبما انه كان ينوي القاء خطاب في الجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر تشرين الأول/اكتوبر، فقد راودته فكرة انها مناسبة ملائمة للاجتماع بالاسد والتنسيق معه حول شؤون الأمم المتحدة، ومحاولة اكتشاف فحوى المحادثات بين الميليشيات. وتوجّه الرئيس الجميل في ٢٠ منه الى دمشق للقيام بزيارة وجيزة للرئيس الأسد. ولكن الأسد لم يكن مستعدا لاخبار الجميل ما كان يريد الجميل معرفته. أراد الجميل ان يجري تحقيقا حول المحادثات الثلاثية الجارية في دمشق، فقال له الاسد انه لم يكن على علم بشيء، وبعد ان تتفق الميليشيات الثلاث عندها فقط قد يشارك الرئيس في المحادثات. واذا ما اراد بعد ذلك معرفة المزيد، فبامكانه ارسال مبعوث إلى دمشق للتكلم مع خدام. فأرسل الرئيس لي كلمة طلب مني فيها ان أحضر إلى دمشق وأجري اجتماعا وجيزا مع خدّام حول المحادثات الثلاثية.

لدى وصولي، أخبرني خدام ان زعماء الميليشيات الثلاثة قد يتوصلون قريبا إلى اتفاق حول وثيقة، وانه قد يعقد مؤتمر وطني في دمشق للتصديق عليها. واثر ذلك، قد تشكل حكومة جديدة من أجل تطبيق هذه الوثيقة. سيكون للسوريين دور حفظ السلام عبر كل لبنان، حتى لو اقتصر هذا الدور على المراقبة. واخبرني ايضا ان حبيقة لم يعترض على تواجد مراقبين سوريين في المنطقة الشرقية، ولكنه لم يكن يريد ان يتخذ هو شخصيا هذا القرار. فكان يريد الحصول على غطاء رئاسي له.

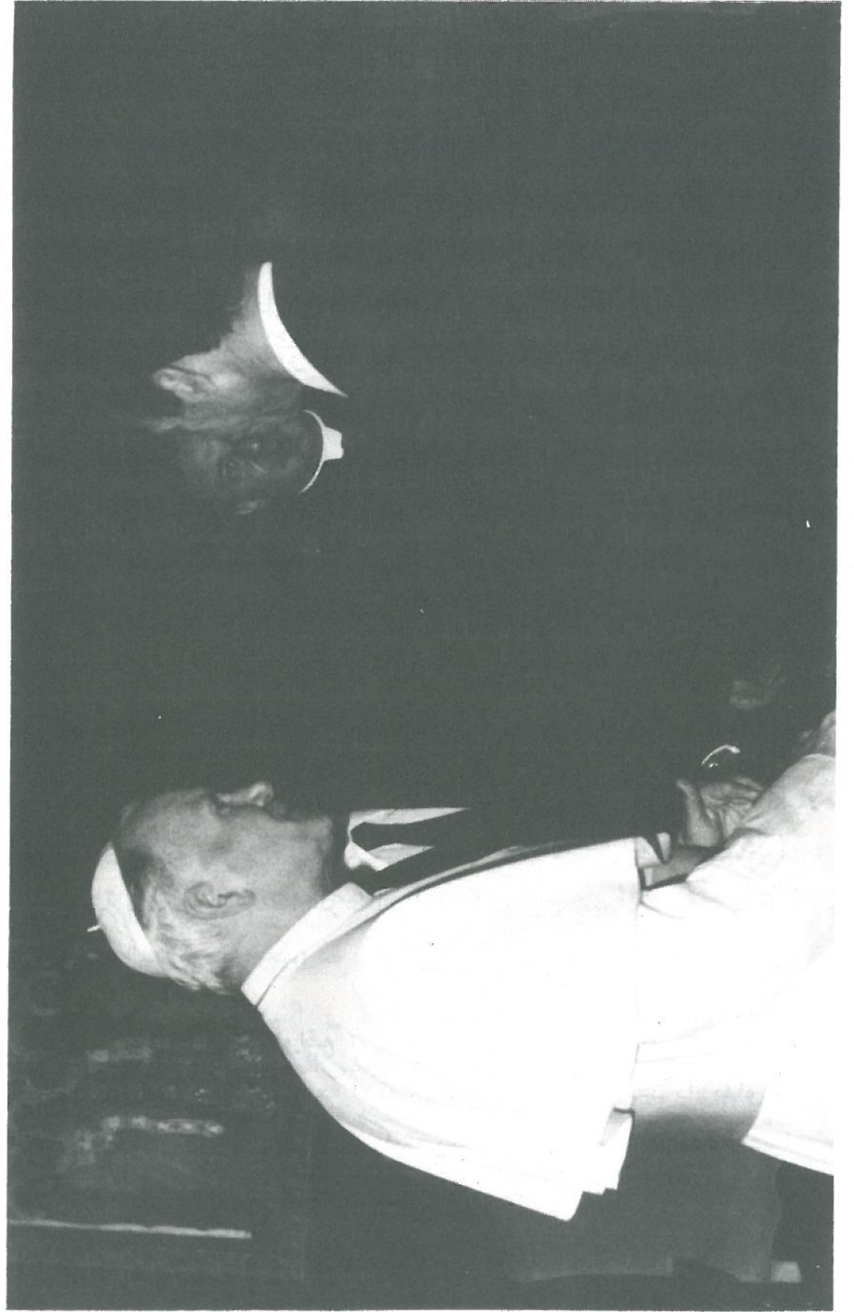
وكالعادة، برهن خدام عن الود، واعرب عن تأسفه لعدم وجودي في الحكومة. فكان مستاء من حكومة الاتحاد الوطني واعطاني رأيه في الوضع بلبنان، فبدأ خدام خطابه كالتالي:

«اتفقنا مع الجميل على تشكيل حكومة تضم ٢٤ وزيرا، وبدل ذلك شكل حكومة ضمت عشرة وزراء نصفهم دبٌّ الخرف فيهم. فمن يا ترى يعيّن والده وزيرا؟ ومن يجلب رجلا متداعياً كشمعون إلى الوزارة؟ رغم ان الجميل ليس «نجم عصره»، فقد دعمناه، وما فتئنا نقول لحلفائنا اننا لن نرغمه على الاستقالة. فعلى العملية الدستورية ان تأخذ مجراها، وعلى الجميل ان يكمل ولايته. ولو كان ادخل الاصلاحات لما كنا وصلنا إلى الوضع الذي نتخبط فيه اليوم.

فلن يحصل الموازنة على الامن ابدا اذا ما ظلوا يشددون على امتيازات الماضي. ان سوريا، بصفتها دولة علمانية، ليس بامكانها القبول بالطائفية. فبرّي وجنبلاط وحبيقة هم من الجيل الجديد، ولهم افكار مقدامة وهم يتطلعون إلى الغاء الطائفية. حدّثنا الجميل عن بيان كرامي الوزاري ولكن البيان مر عليه الزمن. حبيقة رجل ذكي. فهل تراني انا القومي العربي متفاهما مع حبيقة؟ ولا شك أن تغيرات جذرية تحدث اليوم على الساحة، ولن نناقش مع الجميل أو معك فحوى الوثيقة الآن لأنها قيد التحضير. فعندما ننتهي منها، سنرسلها إليكم للتعليق عليها. ويمكنكم اذا أردتم اخضاعها لاستفتاء شعبي». فجاوبته قائلا: ان استفتاء شعبيا في الظروف الراهنة قد يعطي النتائج التي نحن على علم ويقين بها. وتابعت مؤكدا انه اذا ما حصل استفتاء عام فعلينا ان نؤمن وجود مراقبين محايدين. فصرخ خدام قائلا: يا إلهي! هل سترسل وراء الأسطول الاطلسي؟ وتابع وهو يضحك «ربما طلبت مساعدة الروس ايضا. لا، لن يكون هناك مراقبون». واحتججت بعدها على وثيقة تتعلق بمستقبل لبنان يحضرها زعماء الميليشيات الثلاث. فكنت أقبل بدور لزعماء الميليشيات في العملية السياسية، ولكن داخل اطار دستوري. هم جزء من لبنان ليسوا كل لبنان. لم يعطني خدام تفاصيل عن الاتفاق، ولكنه كان طلق اللسان عندما يتكلم عن سياسة لبنان ودور سوريا الايجابي والبناء في معارضة المتطرفين ايّاً ما كانت طائفتهم.

كان اضطراب الطائفة المارونية يتزايد حيال انفتاح حبيقة على سوريا. وكان حزب الكتائب يدرس امكانية تحضير شبابه لمجابهة حبيقة عسكريا اذا وجب الامر. اما حبيقة، فكان يمضي قُدُماً في مشروعه. وأطلق السوريون سراح ٣١ رهينة مسيحية ليبرهنوا للمسيحيين ان لحبيقة مصداقية في دمشق.

اما عاصم قانصوه، وهو رئيس فرع حزب البعث في لبنان، فأمر بانسحاب فرقة من ميليشياته من الخط الاخضر وذلك من اجل تخفيف حدة التوتر بين بيروت الشرقية وبيروت والغربية. وكانت الموجة الموالية لعملية دمشق قد بلغت أهمية قصوى في خريف ١٩٨٥.



إيلي سالم مع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني

وفقاً لروح التنسيق التي كنا نأمل المحافظة عليها خلال هذه الفترة الحرجة، اجتمعت بخدام مرة اخرى في ٣٠ تشرين الأول/اكتوبر، لاعطائه فكرة وجيزة عن الوضع في لبنان ودراسة عملية دمشق بشكل أعمق.

أعطاني خدام من جديد القليل من التفاصيل، ولكنه أعرب عن استعداده لمناقشة الاتفاق المقترح معنا ككل عند نهاية تحضيره. فكان يريد اولا ان يلزم قادة الميليشيات الثلاث بالاتفاق خطيا. وقال لي انه يريد وضع توقيع كل واحد منهم على وثيقة لمنعهم من التذرع يوماً ما بعدم تمكنهم القيام بشيء بسبب «فضل الله»، او «شمس الدين»، او الجميل. ومن ثم ستحمل الوثيقة إلى الرئيس الجميل، الذي سيقوم بالمشاورات اللازمة في شأنها. وبعدها، سنعقد مؤتمراً وطنيا في دمشق. قاطعته قائلا: ينبغي أن يعقد في بيروت ـ فأجابني: حسنا في بيروت، هل أصبحتم، انتم اللبنانيين، حساسيين لهذه الدرجة؟ فاجبته: نعم وسألته هل سيدوم المؤتمر اسبوعا او ما يناهز ذلك، فأجابني خدام: كلا. قد تكتمل مناقشته خلال جلسة وجيزة تدوم ساعة تقريبا، فضحكت ظناً مني انه هو يضحك ايضاً في داخله.

تسربت بعض المعلومات حول الاتفاق المقترح، رغم السرية المحيطة به. وكان الأهم منها يشير إلى ان الفرقاء قد اتفقوا على الغاء الطائفية. وهذا الامر أقلق المسيحيين بشكل خاص، اذ انهم كانوا يتخوفون من ان عدد المسلمين قد ينزل بهم إلى مرتبة ثانوية. ولم يكن الزعماء الموارنة يثقون كثيراً بحبيقة، خاصة ان خبرته في الامور الدستورية محدودة.

وفي نهار السبت الواقع في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر، وصل العميد محمد الخولي الى بكفيا، حاملا معه الاتفاق الذي عُرف فيما بعد بالاتفاق الثلاثي. كان الرئيس معكر المزاج، وحاولت تسليته بعض الشيء، وتحضيره لعقد اجتماع بناء مع مبعوث الرئيس الأسد. فاقتربت منه وامسكت بيده قائلا: انت مبسوط، انت مبسوط جدا، وسنظهر للخولي انك مبسوط ومرتاح. فقهقهنا وكنا لا نزال نضحك عندما دخل علينا الخولي. عندها استأذنت وغادرت القاعة.

انضممت إليهما لاحقاً واستغربت للغاية اسلوب العميد الخولي. اذ ان خبرتي بالرئيس الاسد ونائبه عبد الحليم خدام لم تهيئني قط لاسلوبه ولصمته.

لم يكن في حوزته أي جواب عن أي سؤال من أسئلتنا، فكان يدوّنها ويعدنا انه سينقلها حرفيا للاسد. وكان يتوجب على الرئيس ان يفكر بسرعة وهو يقرأ النص، وكان التوتر قد بلغ أوجه عندما حاول الرئيس ادخال مبعوث الاسد في مناقشة جوهرية حول الاتفاق، ولكنها كانت محاولة دون جدوى. وعندما غادر الخولي نظر الجميل إليّ وقال لي: ايلي، امامنا كارثة، ان الامر اسوأ بكثير مما توقعنا. اني يائس للغاية لكي اتكلم عنه الآن. خذه معك اقرأه وسنناقشه مليا غدا.

اجتمعت بعدها مع مسؤولينا عن الامن لتقييم الدعم الذي كان يحظى به الاتفاق الثلاثي. فاعلموني ان القوات اللبنانية كانت منقسمة الاراء في شأنه، ولم يتسنّ لعدد كبير من المسؤولين قراءة النص. وقالوا ان الوثيقة «كانت فُرضت على حبيقة وكان يتطلع إلى مَنْ قد يحرره من تعهده هذا». كان من المرتقب ان يتجه حبيقة إلى دمشق لابرام الاتفاق ولكن راودته فيما بعد شكوك وعدل عن السفر.

هذا ما حث السوريين على توجيه رسالة طارئة لنا طالبين منا عدم بحث هذا النص مع اي كان اذ لم يتخذ بعد صيغته النهائية.

انتقد الرئيسان السابقان سليمان فرنجية وكميل شمعون الاتفاق الثلاثي لالغائه الطائفية السياسية وإضعافه لسلطة رئيس الجمهورية.

ووزعت مناشير في شرقي بيروت تتهجم على حبيقة والاتفاق الثلاثي باسم «الشهيد بشير الجميل». اما زوجة الرئيس جويس، التي كانت تخشى ان يفقد زوجها قسطا اكبر من سلطته، فقد أرادت ان يعارض الرئيس هذه الوثيقة علنا وفي اسرع وقت، وذلك قد يمكّنه من استعادة شعبيته في الطائفة المسيحية. فقالت انه حاول ان يكون زعيماً للبنان ففشل في ذلك، فيتوجب عليه الان ان يكون زعيماً للمسيحيين.

في الوقت عينه، طلب الرئيس من ثلاثة محامين هم ابراهيم نجار، وانطوان

معربس، ومارسيل سيوفي، للعمل معي، واقتراح تعديلات على الاتفاق الثلاثي. وكان نجار ومعربس عضوين في حزب الكتائب، وكانا محامين لامعين. اما سيوفي فكان محاميا مستقلا.

الاتفاق الثلاثي

كانت الوثيقة التي وصلتنا من الخولي موقعة بتاريخ ٢٦ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٨٥، وقد كُتب، بخط اليد، على الصفحة الأولى، ان هذه الوثيقة وافق عليها كل من القوات اللبنانية وأمل والحزب التقدمي الاشتراكي، وانها قرئت بكاملها في هذا التاريخ، بحضور مروان حماده وأكرم شهيب ممثلي الحزب التقدمي الاشتراكي، ومحمد بيضون ممثل «أمل»، واسعد شفتري، وميشال سماحه ممثلي القوات اللبنانية. ووقع نائب الرئيس خدام على الوثيقة بصفته شاهداً.

كانت الوثيقة المسماة «مشروع لِحل وطني في لبنان» تحتوي على ٢٥ صفحة مقسمة على الشكل التالي: المقدمة، المبادئ العامة، المبادئ الاساسية للنظام السياسي، المرحلة الانتقالية، العلاقات المميزة بين لبنان وسوريا، وملحق حول انهاء الحرب في لبنان.

كانت المقدمة تطالب بتحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي، بعودة الامن والاستقرار إلى البلاد وإقامة نظام ديمقراطي صحيح في لبنان. المبادئ العامة كانت تؤكد على سيادة لبنان وحريته واستقلاله ووحدة شعبه وأراضيه ومؤسساته، ضمن حدوده المعترف بها دوليا، وعلى هوية لبنان العربية. وقد رفضت كل الجهود الرامية إلى اللامركزية السياسية والفدرالية والكونفدرالية، ونظام الكانتونات واللامركزية الموسعة على اساس انها افكار تقسيمية.

حصل الاعتراف بأن لبنان جمهورية تتمتع بنظام برلماني ديمقراطي يحترم الحريات الشخصية وفصل السلطات، ويرتكز النظام الاقتصادي على السوق الحرة.

ونصت الوثيقة على تعزيز النضال من اجل تحرير جنوب لبنان من اسرائيل ورفضت عقد اتفاقات امنية معها.

كان الاتفاق يدعو إلى نظام سياسي غير طائفي، وكانت مبادئ المشروع الجديد هي التالية: لبنان ذو نظام برلماني ديمقراطي جمهوري يكون فيه الشعب مصدر السلطة. كل المواطنين اللبنانيين متساوون امام القانون ويجب حماية حرياتهم الشخصية، وعلى العدالة الاجتماعية ان تشمل اللبنانيين جميعا. كان يجب انشاء قانون انتخابي جديد يمنح كل من يفوق الثامنة عشرة من العمر حق الانتخاب، تكون المحافظة هي الوحدة الانتخابية. كذلك توجب انشاء مجلس شيوخ يشارك مجلس النواب في حق التداول في الامور المهمة كتعديل الدستور، والحرب والسلام وقوانين الاحوال الشخصية.

كان على الحكومة الجديدة أن تقوم بتعيين مجلس تأسيسي من أجل تحضير الدستور الجديد.

ثم أُشير في الوثيقة إلى ان المجلس يكمل في مهلة خمس سنوات، الالغاء التام للطائفية، وادخال الاصلاحات الاخرى. كان ينبغي لصلاحيات الرئيس ان تقلص، في حين يتوجب تحديد صلاحيات رئيس الوزراء بشكل اوضح مما كان عليه في دستور ١٩٢٦ المتبع حاليا. وانيطت، في هذا الاتفاق، السلطة التنفيذية بمجلس الوزراء. اما المسائل السياسية الاساسية فكانت من صلاحية مجلس وزاري مؤلف من ستة وزراء دولة يمثلون الطوائف اللبنانية الاساسية (الموارنة، الارثوذكس، الكاثوليك، السنة، الشيعة، والدروز)

يكون نصف مجلس النواب مسلماً والنصف الآخر مسيحياً، ويتوازى تمثيل الطوائف الثلاث الاكبر عدداً: الموارنة، والسنة والشيعة في مجلس النواب. كان الاسد قد اعتبر سابقا هذا العرض غير عادل. الغيت الاعتبارات الطائفية في الادارة العامة باستثناء موظفي الفئة الأولى، حيث يُمثَّل المسيحيون والمسلمون بعدد مماثل. ادخل الاتفاق ايضاً هيئات قضائية واستشارية جديدة كمجلسٍ للشيوخ ومحكمة عليا،

ومحكمة دستورية، ومجلس اجتماعي واقتصادي. ونص على اعادة تشكيل الجيش وفق مبادئ وطنية جديدة تأخذ بعين الاعتبار التنسيق والتكاملية الاستراتيجية مع سوريا، وحددت العلاقات المميزة بين لبنان وسوريا ونصت على التكاملية الاستراتيجية بين البلدين.

لائحة الفئات التي قسمت بموجبها العلاقات المميزة بين سوريا ولبنان:

ـ الشؤون الخارجية:

ينبغي للتنسيق في الشؤون الخارجية ان يشمل العلاقات العربية والاقليمية والدولية. يجب اقامة اتصال مباشر وسري بين المسؤولين عن الشؤون الخارجية في الدولتين.

ـ العلاقات العسكرية:

بسبب نضال سوريا ضد اسرائيل، يوافق لبنان وسوريا على تمركز وحدات عسكرية سورية في مواقع معينة بلبنان تحددها لجنة عسكرية لبنانية ـ سورية، بموجب اعتبارات الامن الاستراتيجية اللبنانية والسورية. سيبقى الجيش السوري منتشرا في لبنان حتى يصبح الجيش اللبناني قادراً على تحمل مسؤولياته الاستراتيجية الجديدة.

ـ العلاقات الامنية:

ان شعار «امن لبنان من امن سوريا والعكس» شعار صحيح يجب ان يترجم باتفاقيات توفّر تكاملية الامن بين الدولتين. وستعقد اتفاقيات من اجل تأمين التنسيق والتكاملية بين الدولتين.

ـ العلاقات الاقتصادية:

يجب التنسيق والتكامل في هذا المجال رغم الفروقات الكبيرة بين النظامين الاقتصاديين. وستقوم لجنة خبراء لبنانيين وسوريين باقتراح الاتفاقيات المناسبة.

ـ التعليم:

تضع لجان مختلطة من الدولتين اسس نظام تعليمي كامل في لبنان. التعليم الخاص في لبنان سيبقى على حاله، وستبذل الجهود لمنع التعليم الخاص من زرع بذور التفرقة بين اللبنانيين، وخلق جو معاد للعرب وسوريا.

ـ الاعلام:

يجب حماية العلاقات المميزة من الاعلام المعادي، فعلى الاعلام اللبناني ان يبلغ درجة عالية من المسؤولية الوطنية وان يحترم المبادئ التي تحدد اتجاه الدولة الجديد.

اما الملحق فعرض اجراءات لوضع حد للحرب، منها:

١ ـ وقف اطلاق النار مع «مساعدة عسكرية سياسية سورية».

٢ ـ تقوية وتوسيع لجنة الأمن التي انشئت بعد مؤتمر لوزان، والمكوَّنة من ضباط من الجيش ومن الميليشيات والتي قد تضم الآن ضباطاً سوريين. اعادة انتشار القوات السورية بطريقة تساعد اللجنة الامنية على تعزيز سلطة الدولة على الاراضي اللبنانية.

٣ ـ تقوية قوى الأمن الداخلي والأمن العام.

٤ ـ انسحاب الجيش اللبناني إلى ثكناته لاعادة تأهيله وتمركز الجيش اللبناني فقط على الجبهة مع اسرائيل.

٥ ـ حل الميليشيات واستيعاب اعضائها في مؤسسات الدولة.

٦ ـ نزع السلاح من اللبنانيين وغير اللبنانيين دون اي استثناء.

٧ ـ تأمين حرية اللبنانيين للتنقل والعيش اينما ارادوا في لبنان.

٨ ـ وجود حل جذري لمشكلة المهجرين وإعادة المهجرين اللبنانيين منذ ١٩٧٥ إلى مدنهم وقراهم.

ردات الفعل حول الاتفاق الثلاثي

بناء على طلب من الرئيس، اجتمعت عدة مرات بالمحامين الثلاثة الذين كان قد عينهم لمناقشة الاتفاق. منذ اللحظة الأولى بدا معربس غير مقتنع، لم يكن يصدق ان وثيقة كهذه عرضت جديا، ولم يعتقد ان أي لبناني سيقبل بها، فغضب وانفعل واشعل غليونه مرارا، وكان موقفه واضحا.

وانتقد نجار ايضا الوثيقة لكنه كان مستعدا لدرس الوجوه الايجابية فيها، وتقديم بعض التصحيحات. اما سيوفي، فكان هادئاً علمياًّ ومستعدا لتحليل كل مادة بموضوعية. وشعر المحامون الثلاثة ان الاتفاق بشكله الحالي غير مقبول. فان اضعاف الرئاسة من شأنه ان يبعثر السلطة. كانت اللجنة السداسية في الواقع تشكل حكومة مستقلة تتمتع بسلطات فائقة اكثر مما هو مرغوب فيه. ان الغاء الطائفية بموجب مرسوم قد يؤدي إلى استمرار النزاع الطائفي. كان المحامون مقتنعين ان المشروع ارسل إلى الرئيس الجميل ليرفضه، على ان يلتقي الرئيس الاسد ليتوصل معه إلى اتفاق معدل. كان هذا في الحقيقة بمثابة التمني ولا يستند إلى واقع.

كنت أظن انه يمكننا انقاذ الاتفاق الثلاثي، لكنني أردت اعادة صياغة الاتفاق بندا بنداً. شعرت ان المبادئ كانت صحيحة في الاساس، لكنها مبالغ فيها بشكل يجعلها غير مقبولة. شعرت ايضا ان استشارةً اوسع كانت انجزت وثيقة افضل. اردت ايضا اكبر تعاون وتنسيق ممكن بين لبنان وسوريا ضمن مبادئ الاستقلال والسيادة. وكنت قد أطلقت شعار: «علاقات مميزة مع سوريا وعلاقات ممتازة مع الدول العربية الاخرى»، وقد قبل الرئيس هذا الشعار، وجعله جزءاً من سياسته الخارجية. في الأربعينات والخمسينات كان لبنان وسوريا ينسقان في الشؤون الخارجية وكان وزراء خارجيتهما يلتقيان بشكل مستمر قبل المؤتمرات الاقليمية والدولية. كنت أؤمن ان التنسيق بين لبنان وسوريا أمر أساسي في الشؤون العربية. لكن لبنان كان مختلفا عن سوريا في نظامه الاقتصادي، وفي علاقاته

الثقافية، وعلاقاته التاريخية بسائر دول العالم. وعليه ان يطبق هذه الخصوصية بحرية تامة.

ان النظرة اللبنانية، في عدد كبير من المسائل، تختلف عن النظرة السورية لا سيما في ميادين التعليم والاعلام. وكان لا بد من اصلاح النظام التعليمي اللبناني لكن دون ان يصبح مثل النظام التعليمي السوري.

فالنظام السوري نظام «حركة ثورية»، نظام ايديولوجي وعسكري في اتجاهه، وينعكس هذا الاتجاه على النظام التعليمي والاعلام. اما نظامنا، فهو نظام ديمقراطي ليبرالي متعدد الأطراف مع نظام تعليمي متنوع للغاية. فلجنة التعليم المختلطة كانت قد أدت الى تدخل سوري في سياسة التعليم اللبنانية دون اي تدخل لبناني في سياسة التعليم السورية. ان القوي هو الذي يتدخل عادة لا الضعيف. في ما يخص الإعلام، يلاحظ أن لبنان كثيراً ما كان دولة تنشر اخبارا يتعذر نشرها في سائر الدول العربية. بالمقارنة مع هذه الدول العربية، كان لبنان دائما يتمتع باعلام رصين ومستقل. ففي لبنان، كان يتسنى للمرء الكتابة او التكلم دون موافقة من الحكومة. وكذلك انتقاد الحكومة في لبنان أصبح بمثابة نهج وطني. صحيح ان الحرية في لبنان كانت قد استغلت في السنين الماضية لاغراض مؤذية، لكن هذا الوضع يتطلب الاصلاح لا الالغاء.

اما في مسألة الاصلاحات السياسية، فقد تسبب الاتفاق بمعضلة للمسيحيين ولا سيما الموارنة. لقد أعطى الاسد الموارنة خيارين: اما ان يكون رئيس الجمهورية قويا، وفي هذه الحال ينتخبه الشعب مباشرة بغض النظر عن طائفته، واما ان يكون رئيسا مارونيا، وعندها تحدّ صلاحياته وتناط السلطات الحقيقية بمجلس الوزراء.

أراد المحامون الثلاثة اعادة صياغة كاملة للاتفاق. قال معربس: «يمكننا المحافظة على بعض الفواصل». ونصحوا الرئيس بمعارضة الاتفاق الثلاثي، ولكن بعدم الاستقالة الناجمة عن معارضته له مهما كان الثمن. أرادوا ان يبقى مقربا من الأسد، وأن يعمل لعلاقات مميزة حقيقية بين لبنان وسوريا. اراد الرئيس ارسال

نسخ عن الاتفاق إلى كل من الرئيسين السابقين شارل حلو وكميل شمعون وإلى البطريرك خريش.

كان السوريون قد طلبوا منا عدم توزيع الوثيقة، فاقترحت على الرئيس ارسال مبعوث يقرأ لهم الاتفاق دون ان يسلمهم نُسَخاً فوافق الرئيس على ذلك. وكانت الصحف تعلق بكل حرية على الاتفاق، والوزير السابق ميشال المر، الذي أدى دورا في صياغته، كان يقرأه على كل من كان على مرأى منه.

كانت ردود الفعل حول الاتفاق الثلاثي، في مختلف الاوساط اللبنانية، ردوداً سلبية. كان حبيقة يواجه صعوبات لجعل قائده العسكري الدكتور سمير جعجع يقبل به. الرئيسان السابقان شمعون وفرنجية، رهبان الكسليك الموارنة، جبهة الموارنة المستقلين، الاساقفة الموارنة، كلهم عارضوا الاتفاق. كان الموقف السني غير متحمس للاتفاق. اما حسين الحسيني، وهو رئيس المجلس النيابي، فقال ان الاتفاق لا ينجح لأن الغموض يعتريه.

بدأت القوات اللبنانية تتخذ لهجة دفاعية حيال الاتفاق الثلاثي قائلة: إن هذه الوثيقة ليست الوثيقة التي وافقت عليها: انها لم تتضمن تغييرات كانت القوات اللبنانية قد اقترحتها. وقال احد مستشاري الرئيس: ان خدام، في هذا الاتفاق، فتح الاكورديون إلى اقصى حد، والآن يترتب على الرئيس ضغطه إلى اقصى حد. واضاف ان الطريقة الوحيدة هي طرح الاتفاق على مؤتمر وطني.

كانت الضغوط تتكاثر على الرئيس من اجل رفض الاتفاق. انا نصحته بالحذر من التسرع برفضه، واشرت عليه ان يستشير جميع الزعماء، وان يبقي خط الاتصال مفتوحاً مع الاسد. كانت الكتائب، بشكل عام، والمحاميان الكتائبيان معربس ونجار بشكل خاص، يريدان ان يرفض الرئيس الاتفاق. لكنني كنت اعتقد انه يجب تعديله. هذان الموقفان كانا سيوضعان على المحك خلال الاسابيع المقبلة. بعض مسؤولي الكتائب ارادو ان يتسلّم الرئيس حزب الكتائب قبل ان يستولي عليه حبيقة، لكنني كنت اشعر ان هذا الامر لم يكن سهلاً ولا مرغوباً فيه. كنت اعتقد ان الرئيس يجب ان يهتم فقط بامور الرئاسة دون التعامل مع السياسة الحزبية. هذا

التضارب في الآراء ادى إلى صراعات حامية بيني وبين الموالين لحزب الكتائب. كنت اريد ان يطور الرئيس علاقاته بالاسد، ويحقق انجازات للبنان من خلال هذه الصداقة. وشعر مستشارون آخرون انه، بالعكس، يجب على الرئيس ان يعارض الاسد ويصبح بطلاً في المجتمع المسيحي.

وكان نص الاتفاق، الذي أبقي سريا بعض الشيء حتى هذا الحين، قد نُشر في صحيفة «السفير» في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر. اتتنا ردة فعل اميركا على الاتفاق من خلال بارثوليميو. ورأيه: ان سوريا تريد اصلاحات في لبنان. ولكنها ايضا تريد الحصول على مكاسب سياسية من خلال العلاقات المميزة بين البلدين. والولايات المتحدة، كصديقة للبنان، مستعدة لاستعمال نفوذها في سوريا اذا لزم الأمر. واعتبر بارثولوميو ان القوات اللبنانية كانت ساذجة في مفاوضات دمشق. فلم تكن القوات تريد تقديم تنازلات واسعة إلى هذا الحد، لكنها، في نهاية الامر، سمحت للسوريين ان يفعلوا ما يشاؤون.

في ٢٥ منه، اتصل بي رفيق الحريري من باريس قائلاً: انه يمكن ادخال التعديلات على الاتفاق، وان سليمان فرنجية قد يزور دمشق قريبا للتباحث في التعديلات. اشار كذلك الى أنَّ الرئيس الجميل يمكنه ان يقترح للاسد بعض التعديلات عندما يجتمع به. كذلك قد يُعقد مؤتمر وطني ويعرض فيه تعديلاته. وهكذا يوافَق على الوثيقة باجماع واسع. وقلت للحريري آمل ان تكون على حق، لأن النص، كما هو حاليا، فيه مشاكل عديدة. وكنا قد سمعنا ان القوات اللبنانية عرضت تعديلاتها على السوريين، وان السوريين قبلوا بها مما عزز نصيحة الحريري لنا.

على ضوء ذلك، سافرت إلى باريس في ٢٨ منه كي التقي الحريري واتباحث معه حول التعديلات الممكنة. كان الحريري يعلم ان الرئيس يعارض الاتفاق واراد معرفة السبب، وكان يشعر ان تخوفات الرئيس ليست مبررة: لأن الاتفاق سيعرض على مؤتمر وطني للموافقة عليه. وعندها يمكن للرئيس ان يقترح تعديلات. وتمنى علينا الحريري، باسم الملك فهد، ان نقوم بالاصلاحات اللازمة لأنه، بدون الاصلاحات، لن تنتهي الحرب. قرأنا أنا والحريري النص المعدل من قبل القوات

اللبنانية وقمنا بتغييرات واسعة بانفسنا على أغلبية النقاط الاساسية في الاتفاق. وأنفقنا اكثر من ٢٠ ساعة نناقش مضمون الاتفاق على أمل انقاذه. وافق الجميل على التعديلات التي توصلت إليها مع الحريري، وشعر ان النص أصبح بذلك شيئاً معقولا.

اجتمعت بالسيد خدام في دمشق وعرضت عليه التعديلات التي توصلت اليها في مباحثاتي مع الحريري وتقبل خدام التعديلات واظهر ليونة وقال انه سيستشير المعارضة اللبنانية بشأنها.

وبينما كان حبيقة وجنبلاط وبري ومستشاروهم يلتقون خدام في آخر اسبوعين من شهر كانون الاول/ديسمبر، كنت اعمل باستمرار على اتفاق بديل اكملته في ٢٧ منه. كان نصي يرتكز على الاتفاق الثلاثي، وعلى المحادثات التي اجريتها مع الحريري والذي كان بدوره يقوم باستشارات مع الرياض ودمشق.

في ٢٨ منه، وقّع قادة الميليشيات الثلاث على النص النهائي للاتفاق الثلاثي. وعلى الفور صرّح قادة الميليشيات والسوريون ان على الوثيقة ان تقبل كما هي دون اي تعديل. اضافةً إلى ذلك كان الاتجاه نحو تشكيل حكومة جديدة تضم قادة الميليشيات وحلفاءهم لتنفيذ الاتفاق الثلاثي. وعلى الرغم من ان رئيس الوزراء كرامي، ورئيس المجلس الحسيني، لم يكونا طرفين في مشاورات الاتفاق الثلاثي، فقد صرحا بدعمهما له. رغم هذه التطورات بقي الرئيس يأمل في تعديل الاتفاق عند اجتماعه بالرئيس الأسد.

في اليوم نفسه، زارني بارثولوميو في منزلي متذمّراً من القادة المسيحيين الذين رافقوا حبيقة إلى دمشق. كذلك ذهب عدد من النواب البارزين إلى دمشق لحضور توقيع الاتفاق، وقدموا دعمهم له، وتحدثوا علناً عن دخولهم الحكومة الجديدة المعنية بتنفيذ الاتفاق.

كان بارثولوميو متخوفا من ان يقوم جعجع، الذي كان مسيطرا على الجناح العسكري للقوات اللبنانية، بعمل عسكري ضد حبيقة. فجعجع كان ضد تحرك

حبيقة باتجاه دمشق، وكان يحاول مضايقته بجميع الطرق. ونصح بارثولوميو الرئيس بالقبول بالاتفاق على امل تعديله في المستقبل. كان الاتفاق، كما يرى بارثولوميو، بمثابة قطار يتوقف في ٥٠ محطة. وكانت نصيحته ان نستقل القطار. واذا لم تعجبنا السفرة يمكن لنا ان ننزل في أي محطة من المحطات الخمسين على الطريق. قال: يحق لسوريا ان يكون لها نفوذ في لبنان ولكن هذا النفوذ يجب ان يبقى محدداً. وكان يعني ان الولايات المتحدة هي ايضا لها نفوذ في لبنان. ولكنه كان يشعر بالاحباط اذ ان الاحداث في لبنان، كانت تتطور في تلك المرحلة دون ان تتأثر بالموقف الاميركي.

نهار الاثنين ٣٠ كانون الأول/ديسمبر، سلم فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري، إلى الرئيس، نص الاتفاق الثلاثي الجديد. كذلك قدم له دعوة ملحة للاجتماع بالاسد في اليوم التالي. اما الرئيس، فاعتذر من عدم تلبية الدعوة غداً. فاقترح الشرع ان يجري اللقاء بعد يومين، فاعتذر الرئيس ثانية على اساس انه منهمك في احتفالات رأس السنة. عندها الحّ الشرع على ان يجري اللقاء في ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، ووافق الرئيس على مضض.

كان الرئيس يدرك أن الاسد سيلح عليه ليقبل بالاتفاق دون تعديل، او مع تعديلات بسيطة جداً. وتبين، من جهة الوزير الشرع، انه لم يكن هناك امل في ادخال التعديلات التي كنت قد عملت انا طويلاً من اجلها. غادر الشرع القصر وانفجر غضب الرئيس، واعتزل وحده يفكر. كان لا شك قلقاً على المسيحيين «والضمانات» التي يتمتعون بها بفضل الرئاسة، وكان يخشى ان يخسر الموارنة مواقعهم في الدولة في الوقت الذي كان هو فيه رئيس الجمهورية. وعندما يخسر الرئيس الجميل يصبح يمينياً كتائبياً لا يساوم.

كان الرئيس في وضع لا يحسد عليه. فللمرة الثانية في عهده كان أمام اتفاق ما، وكان عليه أن يختار بين الرفض والقبول.

كان الضغط عليه هائلا: فعائلة الجميل ومحيطها تريد ان يرفض الاتفاق فورا. اما انا، فاقترحت اسلوبا آخرا: نصحت الرئيس ان يحاول مع الاسد تعديل كل البنود

التي كان يرتأي تغييرها، وان يكسب بعض الوقت ليدعو إلى مؤتمر وطني حول الاتفاق. نصحته بان لا يرفض الاتفاق، وان لا يقطع العلاقات بالاسد. شعرت ان رفضه سيؤدي إلى تجديد القتال، واستمرار اضعاف الرئاسة. وكانت نصيحتي ترتكز على اعتبارات عملية. كنت أريد تحالفاً مع الاسد. ومن هذا التحالف، يمكن التعديل والتأثير على مجرى الاحداث. بدون الاسد، كان الرئيس معرضاً لكل احتمال، محاطاً مجمداً. اشرت إلى ان معارضته ستؤدي الى انعزاله وتقوية المعارضة ضده. كنت كلما تكلمت مع الجميل بهذه اللهجة، ازداد تحفظه وانكماشه على نفسه. من وقت إلى آخر، كان يخرج عن صمته الطويل ويقول: «ايلي انا لست على موجتك». وكان هذا يقلقني كثيراً: لأنني كنت أشعر ان تأثيري عليه يتوقف عند الحد الذي يتصل بمارونيته ونشأته الكتائبية.

كان الرئيس يحثني دائما على التنبّه لهذا البعد من شخصيته. كان الصديق الحميم جوزف ابو خليل، الايديولوجي الرائد في حزب الكتائب، والمستشار الاقرب إلى والد الرئيس الشيخ بيار، لا يكف عن شرح هذا البعد من شخصية الرئيس لي. ولكني ما تمكنت يوماً من التفهم الصحيح لهذا البعد.

ان النزعة الطائفية تتحكم حتماً بالسياسة الداخلية اكثر مما تتحكم بالسياسة الخارجية. والشؤون اللبنانية الداخلية، وبخاصة المناصب الحكومية والادارية، محكومة إلى حد بعيد باعتبارات طائفية. ودخل الاتفاق الثلاثي في صميم الشؤون اللبنانية ـ الطائفية وتوزيع السلطة والتعليم الخ...

كان قد مر شهران منذ النهار الذي ارسل لنا فيه محمد الخولي الصيغة الأوَّلية من الاتفاق الثلاثي. والنهار الذي وقَّع فيه قادة الميليشات الثلاثة في دمشق على الاتفاق الثلاثي في ٢٨ كانون الاول/ديسمبر ١٩٨٥

وكانت الصيغة النهائية هي صيغة ٢٦ تشرين الأول/اكتوبر ذاتها، وقد ادخلت عليها تعديلات بسيطة. كانت هذه التعديلات تتعلق بالمهلة المخصصة لالغاء الطائفية. وفق الاتفاق المعدل، تلغى الطائفية من جميع المناصب العامة والادارة والجيش

وقوى الامن خلال مدة لا تتعدى الاثني عشر عاما، عوضا عن الخمسة اعوام التي وردت في نص تشرين الأول/اكتوبر.

وادخلت تعديلات رمزية على مجلس الوزراء، فبات ثلثا اعضائه يشكلون النصاب المطلوب بدلا من ان تشكله الاغلبية الساحقة، كما ورد في النص السابق. كذلك قلصت صلاحيات رئيس الوزراء بعض الشيء.

في ما يتعلق بمجلس النواب، حدد النص النهائي عدد النوب بـ ١٩٨ نائبا مضاعفا بذلك عدد النواب الحالي، في حين لم يتطرق النص الأول إلى هذا الموضوع. وبما ان عدد المقاعد الشاغرة كان يفوق عدد المقاعد المشغولة، فقد توجب على مجلس الوزراء تعيين اغلبية النواب لاستكمال المجلس الجديد.

اما الفقرة المتعلقة بالعلاقات المميزة بين لبنان وسوريا، فلم تدخل أي تعديلات عليها.

كان الاضطراب في الأوساط المسيحية حيال هذا الاتفاق عميقا وشاملا. ومما زاد الطين بلة ما نشرته صحيفة «السفير»، في ٢١ كانون الاول/ديسمبر ١٩٨٥، من رسائل سرية وجهها حبيقة إلى نائب الرئيس خدام، مقدماً فيها ما اعتبره الموارنة «تنازلات» هامة. وكان التوتر يتصاعد. وفي حين كان الرئيس بحاجة إلى وقت طويل لتحضير اللقاء مع الأسد في ٢ كانون الثاني/يناير، كان في الواقع يقضي كل وقته بمعالجة القضايا الطارئة، من خطف وخطف متبادل بين محازبيه ومحازبي حبيقة.

كنت غاضبا من هذا الوضع: اذْ أردته ان يرتاح ويعود للاجتماع بالرئيس الاسد. وقلت للرئيس ان لديه اربعة خيارات في لقائه مع الاسد:

١ ـ يمكنه رفض الاتفاق حالا ومواجهة معارضة سورية شديدة من شأنها ان تشل رئاسته.

٢ ـ يمكنه اقتراح تعديل النقاط الاساسية في الاتفاق، ومن ثم تقديم دعمه الكامل للاتفاق المعدل.

٣ ـ يمكنه قبول الاتفاق مبدئيا شرط ان يعرضه للمراجعة والتعديل على مؤتمر وطني. بعد ذلك قد يخضع الاتفاق لاجراءات دستورية صارمة.

٤ ـ يمكنه دراسة الاتفاق مع الأسد، ومن ثم المطالبة بعقد قمة لتعديل نقاط معينة في جو يسوده الثقة بينهما. لكن، نظرا للضغوط العسكرية والسياسية المتزايدة، ونظرا لأهمية دعم الرئيس للاتفاق، شعرت ان التيار الثالث كان الخيار الأصح.

ما ان انتهيت من عرضي، حتى انفعل الرئيس انفعالا شديدا وقال: «لا يتوجب علي قبول اي من هذه الخيارات. لا يمكنني ان اسلم لبنان إلى سوريا. اذا كان لبنان سيقدم لسوريا على طبق من فضة، فليس الجميل الذي سيقدمه. ايلي انت تعتقد انك تعرفني، لكنك لا تعرفني ابدا. يمكنني قلب الوضع رأسا على عقب، يمكنني اعادة خلط الاوراق، يمكنني احداث الفوضى. املك بيتا في باريس. يمكنني القيام بما أريد وبعدها أحزم امتعتي وارحل إلى باريس». ألححتُ عليه ان يغير هذه الموجة وقلت له: «انت لست بمخرب، انت لا تخلق الفوضى، انت لا تهرب من مسؤولياتك إلى بيتك في باريس».

قاطعني، في منتصف حديثي، واتهمني بممارسة الضغط عليه. اضاف انه كان صادقا جدا في رفضه للاتفاق الثلاثي بكامله، وانه يجب ألاّ أفاجأ اذا عاد بعد لقائه مع الاسد إلى بعبدا وقدم استقالته وعينني رئيساً لمجلس الوزراء. ولكن، عندما يفكر ماروني بتعيين اورثوذكسي في منصب رئيس الوزراء، فلا بد أن يكون مازحاً. قلت له ذلك، وعندها اظن انني لمحت شبه بسمة على شفتيه.

التقى الجميل الاسد في ٢ و٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦. وبعد عودته من دمشق، ذهبت إلى منزله في بكفيا. فنظر إلي مبتسما وقال: اخذت الخيار الرابع وطلبت وقتا اضافيا. ثم قدّم لي تلخيصا عن زيارته إلى دمشق: كان قد التقى الاسد وخدام سوية ثم اجتمع بكل واحد على انفراد قال: تكلم الاثنان اللغة نفسها وكانا يعرفان الاتفاق غيبا. وكانا يريدان ان نقبل الاتفاق كما هو تماما دون تغيير فاصلة واحدة فيه.

قال الرئيس للاسد انه ذهب إلى سوريا نهار الخميس لان الشرع اصرّ على ذلك، لكنه لم يكن مستعدا لاتخاذ قرار نهائي بخصوص الاتفاق الثلاثي قبل استشارة القادة اللبنانيين. فثمة نقاط في الاتفاق لا يمكنه القبول بها. قال الاسد: انه لا يمكنه ان يتوقع منه ابرام الاتفاق دون دراسة معمقة، ثم اتفق مع الاسد ان يعقد الاجتماع في نهاية الاسبوع المقبل.

واشار الجميل إلى انه لن يعرقل سير الاتفاق اذا ما تعذر عليه القبول به. فقال انه قد يقدم استقالته ويعود إلى حزب الكتائب كمستشار للرئيس الحالي الدكتور ايلي كرامة، وقال لي الرئيس: ان الاسد حاول مرارا ان يناقش الاتفاق بندا بندا لكنه رفض ذلك. تدخل خدام فيما بعد قائلا ان الدكتور ايلي اعد اتفاقاً بديلاً اريد ان اراه. فاجاب الرئيس ان ايلي لم يعد اتفاقا، بل تدارس مع الحريري في بعض الأفكار واحرزا تقدما في هذا المجال. وقال الرئيس لخدام انه لم يقدم النص الذي اعده ايلي الى دمشق لأنني واثق بانك سترفضه، فابتسم عبد الحليم واجاب «قرارك قرار حكيم يا فخامة الرئيس».

أخبرني الجميل أن الاسد كان هادئاً مرتاحاً خلال كل هذا النقاش العنيف الذي دار بينهما وقال: الاسد دائما مرتاح، وكأن لا همّ لديه في هذا العالم. انا حقا أحسده. لا احد يصدق ذلك لكنه يظل ساعات يتكلم عن دمشق وعن كونها اقدم مدينة في العالم. وكلما تحدثتُ عن الامور الحالية، حاول ان يجرني إلى القرون الوسطى والتاريخ القديم، وحتى الى العصر الحجري. هل يعتقد انني عالم آثار؟ انه حقا يدهشني. ثمة امر في شخصيته يزعجني للغاية: انه يتعامل معي وكأنني قوة بين مجمل القوى شأني شأن بري وجنبلاط او فرنجية فانه لا يعاملني كرئيس للجمهورية، اذ يناديني دائما يا شيخ امين، وليس يا فخامة الرئيس. هل يظن انني محافظ بيروت؟ هل انا في الرئاسة فقط للتوقيع؟».

كانت ردة فعل اسرائيل على الاتفاق مزدوجة: فتيار يقول ان الاتفاق ليس سوى ورقة مثل اوراق كثيرة قبلها. فلا داعي للقلق. وتيار يقول ان هذا الاتفاق يشكل منعطفا استراتيجيا في دور سوريا في لبنان، وان لبنان اصبح دولة مواجهة.

والتيار الثاني يتطلب من اسرائيل ان تعزز مراكزها داخل «الحزام الامني» وان تراقب التطورات في لبنان عن كثب. حتى الآن كان الوجود السوري في لبنان مبررا اذ ان الحكومة اللبنانية هي التي طالبت به. لكن الاتفاق اعطى الوجود السوري العسكري في البلاد بعدا استراتيجيا يؤثر على اسرائيل بشكل خاص.

كان الاميركيون يحبّذون الاتفاق الثلاثي لكنهم ارادوا ادخال بعض التعديلات للتأكد من ان لبنان سيبقى دولة مستقلة سيدة وديمقراطية. كان الفاتيكان يعارض الاتفاق وبالاخص البند المتعلق بالطائفية. وكان القاصد الرسولي المونسنيور لوسيانو انجلوني شديد القلق: «لان الموارنة مقسمون، والبطريرك ضعيف والمجموعة الدولية لا تكترث لشؤون لبنان». وقال انجلوني بلهجة يائسة: «هؤلاء اللبنانيون وقّعوا على الاتفاق، فماذا يمكننا ان نفعل، اخشى انه لا يمكننا ان نفعل شيئاً».

رغم ذلك كانت العاصفة ضد الاتفاق تزداد حدة. فكان جنبلاط يتكلم عن الاتفاق وكأنه لا يعنيه. والسنة لم يحبذوه قط. وكانت معارضة فرنجية له واضحة بادئ ذي بدء مع انه عدل قليلاً من موقفه بعد زيارته إلى دمشق. اما الدكتور جعجع، فقد اصبح الآن يعارض الاتفاق علناً وبقوة، وكان يحضر لمعركة عسكرية ضد حبيقة. فاستولى على تلفزيون القوات اللبنانية واذاعتها. وفي الوقت عينه، كان حزب الكتائب برئاسة ايلي كرامة يصعّد حملته على حبيقة وعلى الاتفاق الثلاثي.

في هذه المرحلة، عين الفاتيكان منتدباً بطريركياً هو الاسقف ابراهيم الحلو كي يتولى الاشراف على الكنيسة المارونية ويتسنّى انتخاب بطريرك جديد يخلف البطريرك خريش. وكان الاسقف حلو معارضا للاتفاق، لكنه لم يكن يستطيع ان يعرب عن معارضته له علنا. فكان يقول: ليس لدي سوى حارسين امام الباب، فلا اريد تكرار كارثة عوكر هنا. وكان يشير بذلك إلى انفجار السيارة امام السفارة الاميركية في عوكر. واضاف: «فضلا عن ذلك لا نريد ان نتّهم بالهيمنة». كانت آماله قد خابت من مفاوضي الميليشيات الذين كانوا بنظره لا يعرفون الكثير عن أوضاع لبنان. وكان مستاء من القادة الموارنة الذين حاولوا، في آخر اجتماع مع البطريرك،

ان يشدّ كل منهم الحبل نحو شخصه ونحو مصالحه. وفي محاولة للتوصل إلى تسوية حول الاتفاق قدّم الحلو عددا من الاقتراحات هي:

١ - يجب تخفيض عدد النواب من ١٩٨ إلى ١٠٨ نواب.

٢ - يجب على مجلس النواب وليس مجلس الوزراء ان يعين النواب الجدد لملء المقاعد الشاغرة في البرلمان.

٣ - يجب تعزيز سلطة الرئيس.

٤ - يجب تعديل البند العسكري في الاتفاق الذي يعرّض جنوب لبنان لخطر ضم أراضيه إلى اسرائيل.

٥ - يجب ان يبقى النظام التعليمي اللبناني مستقلا حرا.

٦ - يجب الا تكون سياسة لبنان الخارجية مرتبطة بسوريا.

كان الحلو يريد ايضا ان تؤلف لجنة تضم الرئيسين السابقين فرنجية وشمعون، ورئيس الوزراء كرامي، ورئيس المجلس الحسيني، كي يعدّلوا الاتفاق: «لأنهم رجال دولة مسؤولون». وكان الحلو يعتقد ان مفاوضي الميليشيات لا يمكنهم حل النزاع الدستوري. فوحدهم رجال الخبرة الواسعة، كشمعون وفرنجية وكرامي والحسيني، يمكنهم القيام بذلك.

قرر عقد اجتماع المتابعة حول الاتفاق الثلاثي بين الرئيسين الجميل والاسد في ١٣ كانون الثاني/يناير. وفي صباح هذا النهار، انفجر الوضع في منطقة المتن بين القوات اللبنانية الموالية لايلي حبيقة وحزب الكتائب. كذلك دارت معارك على جبهة سوق الغرب: الامر الذي كان بمثابة رسالة للرئيس كي يكون مرنا. ولتعثر السير بسبب القتال الناشب اخذتُ طوافة عسكرية إلى بكفيا ووجدت الجميل في حال اضطراب قصوى فكان مجتمعاً مع قادة الكتائب في المتن الذين اكدوا له انهم يستطيعون الوقوف بوجه حبيقة. وكان الرئيس ممزقاً بين قرارين: هل يذهب إلى دمشق وقاعدته في المتن قد تقع في يد حبيقة، ام يبقى ويشرف على العملية

القتالية؟ نصحه العقيد قسيس بعدم الذهاب. اما انا، فشجعته على الذهاب إلى دمشق، وقلت له ان وضعك في المتن وفي لبنان يتوقف على ما ستفعله في دمشق. وبعد ان تردد بعض الشيء، شاطرني الرأي واستقليت الطوافة معه من بكفيا الى القليعات، وهي قاعدة جوية لبنانية في الشمال قرب الحدود السورية، فاستقل من هناك طائرة خاصة إلى دمشق. وقبل ان يغادر الرئيس قلت له: مهما يكن الامر يجب ان تبقى على وفاق مع الاسد، وتتعاون معه بالنسبة للاتفاق ولتأليف الحكومة الجديدة.

وعندما كنت راجعاً في الطوافة فوق مياه البحر ببضعة اقدام، تجنباً لقذائف المعركة المستعرة، كنت افكر كم هو سهل اعطاء النصائح للغير، وتذكرت قول سليم ديب في بطرام «الحرب بالنظارات هين»

في نهار الثلاثاء ١٤ منه، ذهبت، انا وقائد الجيش العماد ميشال عون، والعقيد قسيس، إلى مطار القليعات لاستقبال الرئيس. وصل من دمشق وسط عاصفة جوية كانت في الحقيقة تنذر بالعاصفة السياسية التي كانت ستهب لاحقا. وكان المطر يتساقط بغزارة حتى تعذر علينا تقريبا رؤيته وهو ينزل من الطائرة. قبل هبوط الطائرة، كان العقيد السوري المسؤول عن الفرقة السورية في المنطقة قد اصرّ على ارسال كتيبة من الجيش السوري لتقديم التحية للرئيس. قبلنا عرضه واعتقدنا خطأ ان المحادثات كانت ناجحة. فقام الجنود السوريون بواجبهم تحت المطر الغزير، ولكن لا بد ان العديد منهم قد لعن نصيبه ذاك اليوم. كان الرئيس مرهق القوى، مبتلا من المطر الغزير، وبدا لنا متحفظا. نظر إلي وقال: «لم أعمل بنصيحتك». ثم نظر إلى عون وقال له: «كن مستعدا فان القصف سيشتد» استقلينا الطوافة إلى بكفيا. وما ان وصلنا، حتى عقد الرئيس اجتماعا مع عون، ثم عقد اجتماعا مغلقا آخر مع قادة الكتائب في المتن. ثم اجتمع الرئيس بي وقال: كان الاجتماع مع الاسد «صعباً للغاية». لقد تكلم عن الشرعية الثورية المسيطرة على الأرض بأنها اهم من الشرعية الدستورية. وفي الماضي، كان الاسد يتكلم عن اللبنانيين والسوريين كشعب واحد في دولتين مستقلتين. لكن هذه المرة تكلم عنهما كشعب واحد دون ان

يأتي على ذكر الدولتين المستقلتين. ان الشعب اللبناني اراد الوحدة مع سوريا، ولكن سوريا رفضت طلبه هذا». وتكلم الاسد عن الصورة الكبيرة، عن مصير دمشق، عن سوريا الجغرافية وتكلم عن فلسطين بانها سوريا الجنوبية.

قال الجميل: ان الاسد كان يتكلم كرجل ثوري، في حين تكلم هو كرئيس دستوري. وابلغني انه قال للرئيس الأسد: «اعرف مدى خطورة معارضة الأسد لكن لا خيار امامي. فعندما يتعلق الامر باستقلال لبنان وسيادته لا يمكنني ان اساوم ابدا، وهذا الاتفاق يهدد استقلالنا وسيادتنا». واضاف الرئيس قائلا: «انه يمكن الغاء الطائفية، ولكن ليس بموجب مرسوم كما في الاتفاق. في الماضي كانت السلطة عمودية بين الرئيس ومجلس الوزراء. اما الآن، وبموجب هذا الاتفاق، فقد تصبح افقية: اذ يتعامل الوزراء مباشرة مع دمشق». ثم اشار الرئيس انه في الواقع قد تصبح دمشق عاصمة لبنان وليس بيروت. والسلطات التي ستؤخذ من الرئيس لن تعطى لرئيس الوزراء بل ستبقى غامضة. «ما من دولة عربية تحكم بهذا الشكل» «فلماذا يُستفرد لبنان؟ فالرئاسة يجب ان تعزز كي تنهي الفوضى المتفشية في البلاد». ولكن الرئيس الاسد بقي على موقفه بان الاتفاق هو من صنع اللبنانيين، وهو الافضل للبنان المستقبل.

وبعد ١٥ ساعة من المحادثات، بدا الجميل والاسد يبحثان عن طريقة مهذبة لانهاء ما سماه الجميل «حوار الطرشان». كان انطباع الجميل انهما اتفقا على نقطتين:

أولا: سيقوم السوريون بدعوة الموقعين الثلاثة لمناقشة وجهات نظر الرئيس والعمل عليها اذ ان هذه المسألة، كما كان يقول الاسد، مسألة لبنانية داخلية.

وثانيا: يطرح الرئيس هذا الاتفاق امام مجلس النواب، وللمجلس الحرية التامة في رفضه او تعديله او قبوله. ومن المعقول ان الاسد، الذي يعرف بتهذيبه مع ضيوفه، كان قد ترك هذا المخرج للرئيس كي يقول انه عاد ومعه شيء ما. ولربما كان هذا الامر بمثابة خطوة لائقة اكثر مما كان سياسة حقيقية. كان من الواضح ان الاسد لم يكن راضيا من موقف الجميل واعتبره معرقلا. ولم يكن الاسد مستعدا

لتعديل مجرى الامور من اجل ارضاء رئيس يشكك فيه جميع اصدقاء سوريا وحلفائها في لبنان. بدت النقطتان صحيحتين من الناحية النظرية. ولكن عندما اعلن خدام انه ما من اجتماعات اضافية بين الرئيسين بعد اليوم، كان الموقف السوري واضحاً: ينبغي للاتفاق ان يستمر، وعلى الجميل ان يتحمل مسؤولية عرقلته. وعلى الفور التقى موقعو الاتفاق الثلاثي بخدام وادانوا كل الطروحات التي كان قد تقدم بها الجميل، واخذ بعضهم يطالب بالحاح باستقالة الجميل.

الانتفاضة المضادة

في نهار الاربعاء ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، سدد الرئيس الجميل والدكتور جعجع ضربة قاسية لسياسة سوريا في لبنان، عندما شنا هجوما عسكريا مشتركا على حبيقة. وقد استعان الجميل، في هجومه هذا، بشباب الكتائب في قضاء المتن، في حين استعان جعجع بمُواليه في القوات اللبنانية وكان عددهم يفوق عدد مُوالي حبيقة. وعند حلول الليل كانت قوات حبيقة قد هزمت واستسلم حبيقة إلى الجيش ونُقل إلى وزارة الدفاع.

وفي ١٦ منه، استقال حبيقة من رئاسة المجلس التنفيذي في القوات اللبنانية وذهب على متن طوافة عسكرية إلى قبرص، ومن ثم إلى سويسرا. في ٢٢ منه، وصل إلى دمشق حيث استُقبل كبطل، وخلال اسبوع وصل إلى زحلة وحشد تابعيه وطالب، من قاعدته الجديدة، باستقالة الجميل. في هذا الوقت، كان جعجع قد انتخب رئيسا للقوات اللبنانية وكريم بقرادوني نائبا للرئيس. وكان خدام، وهو الذي بذل كل جهوده للتوصل إلى هذا الاتفاق، مستاء للغاية من الجميل، فاتهمه باتلاف جهود «الجيل الجديد». وردا على هذا الوضع، اطلق قادة المعارضة نيران قذائفهم على المنطقة الشرقية. ودعا خدام القادة المسلمين للاجتماع به في دمشق والتشاور حول التطورات الجديدة. ومن جهة ثانية قرر جعجع ونائبه كريم بقرادوني عقد مؤتمر مسيحي في بكركي.

كان الرئيس حريصا على التأكيد للسوريين ان النزاع بين جعجع وحبيقة نزاع

داخلي في القوات اللبنانية، وأن الاتصالات بين لبنان وسوريا يجب ان تبقى مستمرة. وكان الرئيس جدياً في شأن الاصلاحات والعلاقات المميزة مع سوريا، لكن ليس كما نص عليه الاتفاق. فاراد ان يكون هو المحاور الوحيد لوضع اتفاق كهذا. ولم يكن مستعدا للتخلي عن دوره لصالح الشاب الطموح ايلي حبيقة الذي قد يؤمن النجاح له السيطرة على حزب الكتائب وعلى الطائفة المارونية، وربما على اكثر. ولكن الجميل كان هو ايضاً يفكر بموقع قيادي له في الكتائب وفي الطائفة المارونية وربما باكثر.

تمشياً مع النقطة الثانية عن حديث الرئيس الجميل مع الاسد كما فسّرها هو اراد ان يدعو مجلس الوزراء إلى الانعقاد، وعلى اخذ موافقته لارسال الاتفاق الثلاثي إلى مجلس النواب للتصويت عليه.

في ٢٦ منه، دعا الرئيس مجلسَ الوزراء للانعقاد لدرس الاتفاق الثلاثي. ولكن مجلساً للوزراء على رأسه كرامي ويضم بري وجنبلاط كان من المستحيل ان يجتمع ارضاءً للجميل. عندها ارسل الرئيس معاوناً له لتسليم الاتفاق لرئيس المجلس فلم يجده فترك معاون الرئيس الملف على مكتب الحسيني وعاد مهرولا إلى القصر الجمهوري.

في غضون ذلك، كانت المعارضة في خضم تحضير هجوم على المنطقة الشرقية. وكانت كل هذه التحضيرات تنذر بالشؤم: فكان هنالك القصف والمطالبة بالاستقالة والمقاطعة والمناورات العسكرية. وتسلَّم العماد عون رسالة من القائد العسكري السوري في لبنان متّهماً فيها الجيش اللبناني «بتحركات عدائية» على جبهة بكفيا. وكانت هذه الرسالة في غاية الجدية. وبحسب تقديرات العماد عون، فان المنطقة الشرقية كانت تستطيع أن تصمد أسبوعاً واحداً فقط إذا شن عليها هجوم شامل. وبدأ تدهور هذه الحالة السياسة بالتأثير سلبياً على اقتصاد لبنان. وتعالت الاحتجاجات الشعبية عندها. وفي اوائل شهر شباط/فبراير ١٩٨٦، بلغ الدولار الأميركي ٢٨ ليرة لبنانية بعد تقدّمه المستمر مقابل الليرة اللبنانية منذ ١٩٨٤. ومرة جديدة اتجهت اصابع الاتهام نحو رئيس الجمهورية، وكأنه كان لا يزال يتمتع بسلطةٍ ما للسيطرة على الاحداث الاقتصادية والسياسية.. ولكنه من

الصعب محو الاساطير او تجاهلها. فكان السوريون غاضبين على الرئيس، وكان الرئيس يسعى إلى مصادقتهم ولكن بدون نجاح. وكنت ابحث عن طريقة لاحياء الحوار اللبناني ـ السوري، وفي الخامس من شباط/فبراير بدت فرصة قد تكون ناجحة.

في ذلك اليوم، أرغمت الطائرات الاسرائيلية طائرة «ليبية» صغيرة على الهبوط، متهمة اياها بنقل زعماء من منظمة التحرير الفلسطينية. لكن تبيّن ان هذه الطائرة كانت تحمل على متنها بعثة سورية. وقد احرجت هذه الحادثة موقف الاسرائيليين، ولم يتأخروا عن اطلاق سراح البعثة. شعر السوريون بشكل عام، والاسد بشكل خاص، ان هذه العملية الاسرائيلية هي بمثابة اهانة بالنسبة إليهم. فنصحت الرئيس بالاتصال بالاسد لادانة هذه الحادثة. ولكن الرئيس تردد وهو يخشى ان يحرج الاسد موقفه اذا رفض ان يكلمه على الهاتف. اكدت له ان الاسد لن يرفض مكالمته. وان عليه ان يثابر في محاولته للوصول إلى حوار مع الرئيس السوري لانه يتعذر عليه القيام بأي تحرك سياسي بدونه.

حدق بي الرئيس طويلاً ثم تنفس الصعداء واتصل بالاسد. وخلال بضع دقائق، كان يتحدث مع الرئيس السوري، وكأن شيئاً لم يكن. وقال الجميل للاسد انه يريد اقامة حوار جديد مع سوريا من شأنه ان يؤدي إلى اتفاق قد يرضي الطرفين. فاجابه الاسد ان هذا اقتراح جيد. ولكنه اضاف ان على هذا الحوار ان يبدأ بشكل سرّي على مستوى اجهزة المخابرات السورية واللبنانية. واذا ما رأت سوريا ان هنالك بوادر ايجابية، أصبحت المحادثات سياسية ومفتوحة.

والاسد رجل صبور، يتحمل المصاعب وينتظر الوقت المناسب. قوته في برودته. فلم تكن ردة فعله على رفض الرئيس للاتفاق الثلاثي مفجعة كما تمنى البعض وتخوف البعض الآخر. فمن خلال خدام بدأت عملية طويلة من الاستشارات مع القادة اللبنانيين. فسرعان ما لاحظ السوريون ان الدعم للاتفاق لم يكن كما خيّل لهم من قبل.

التقت القيادة السنية برئاسة المفتي الشيخ حسن خالد بنائب الرئيس السوري

عبد الحليم خدام. تناول الكلمة اولا المفتي، ومن بعده رئيس الوزراء السابق تقي الدين الصلح فقال الصلح: «ثمة بنود جيدة في الاتفاق، ولكن ثمة بنود اخرى يجب تعديلها. فلا نحتاج إلى بري وجنبلاط وحبيقة لكي يقولوا لنا ان لبنان دولة عربية. فنحن كنا ولم نزل رواد العروبة . اما التفاصيل القانونية، فيجب ان تُناقش في البرلمان وان تعدل هناك. وانه لخطر كبير على مستقبل نظامنا الديمقراطي ان يعيّن مجلس الوزراء عددا من النواب يفوق عدد النواب المنتخبين في آخر انتخابات نيابية عام ١٩٧٢. اما مسألة التعادل التمثيلي للطوائف الثلاث الكبرى، الموارنة والسنة والشيعة، فيمكن ان تطبق في مجلس الشيوخ لا في البرلمان». ابدى خدام بعض الليونة في ما يتعلق بالاتفاق. وقال انه كان ثمة امكانية لتعديله، لكن الجميل اضاع هذه الفرصة عندما شن هجوما على حبيقة. وفي الواقع، كانت المعركة بين الجميل وحبيقة تتهيأ منذ وقت طويل، ومن الصعب القول، في نزاع كهذا، من الذي أطلق الطلقة الأولى.

لم تبدّل الثغرة الصغيرة في العلاقات بين الأسد والجميل شيئاً في وضع الرئيس، فكان لا يزال رئيسا محاصرا خاضعا لضغوط تهدف إلى إقالته. وكان يسعى إلى ايجاد فرصة لتبديل الاتفاق الثلاثي او للشروع بعملية اخرى يكون هو محورها قد تؤدي بدورها إلى اتفاق جديد.

اقتراح الحريري

يظهر انه كلما ساء الوضع في لبنان وبدا الباب مقفلا، ظهر رفيق الحريري على الشاشة، ممثلا الملك فهد، عارضاً الحل تلو الآخر.

اتصل بي رفيق هاتفياً واتفقنا على عقد اجتماع بباريس في ٢٦ و ٢٧ من شباط/فبراير ١٩٨٦. اخبرني الحريري ان الملك فهد طلب منه ان يحاول العمل على مصالحة بين لبنان وسوريا، وكان الحريري قد اتصل بخدام للاعراب عن استعداده لمحاولة فتح باب الحوار بين الجميل والاسد، وقال لي رفيق: ان خدام رفض كل العروض التي قدمت إليه حول التعاون مع الجميل. مع ذلك، كان خدام يرى في الملك

صديقا مميزا ولم يستطع ان يرفض له طلباً. فاعربت سوريا عندها عن استعدادها لمناقشة تعديلات هذا الاتفاق مع الجميل شرط، ألاّ تؤثر هذه التعديلات على جوهر الاتفاق.

قال لي الحريري:«ان الملك فهد يأمل في ان تُقترح بعض التعديلات التي قد تأخذ بعين الاعتبار الوقائع على الأرض. فلا يستطيع المرء ان يحصل دائما على ما يحلم به. وإذا ما تحرك الجميل، فقد يقدّم الملك فهد الدعم له. ولكن، إذا لم يقم بأيّ مبادرة، فلن يعارضه الملك، ولن يوجّه إليه اصبع الاتهام». واخبرني الحريري ايضا ان الاسد اراد ان يعلم الجميل انه انقذ حياته مرارا من قبل، عندما كان اعداؤه في لبنان يريدون رأسه. وكان الاسد على علم ايضا انه عندما كان الرئيس مؤخرا في دمشق، كان يخطط لشن هجوم على حبيقة.

اقترح الحريري ان يوجّه الرئيس رسالة إلى الاسد يبلغه فيها انه يقبل بجوهر الاتفاق الثلاثي وانه، أي الحريري، يسلمها، شخصيا، إلى الرئيس السوري. ولكن الجميل ارتأى انه قد يكون من الانسب صياغة هذه الرسالة وارسالها مباشرة إلى الملك فهد. وعندما يتسلمها الملك، فقد يضع ثقله لدعمها او يستعملها مع الاسد كما يرتأي.

واجتمعتُ بعدد من الرسميين لمناقشة هذا الاقتراح. فالقاصد الرسولي انجلوني قدّم دعمه الكامل لهذه الفكرة، لأنه كان على ثقة أن رسالة من هذا القبيل قد تسهّل مهمة وزير الخارجية البابوي أشيل سلفستريني الذي كان متوقعا وصوله إلى بيروت ودمشق في الاسبوع المقبل. واعلمنا ان الفاتيكان كان يتلقى معلومات واخباراً متفاوتة من الكاثوليك في المشرق العربي. فكان بطريرك الروم الكاثوليك حكيم قد اخبر البابا ان الاتفاق جيد للمسيحيين، في حين أن الناطقين باسم الموارنة كانوا يتحسرون ويخبرون البابا ان هذا الاتفاق ينهي الوجود المسيحي في الشرق العربي.

ولدى وصول سلفستريني إلى بيروت، التقى القادة المسيحيين والمسلمين. وكانت تنقلاته في لبنان محدودة، بسبب نشاطات حزب الله المتزايدة. فقد استقبل

حزب الله المبعوث البابوي بخطف رعايا فرنسيين في بيروت الغربية وتهديده بقتلهم. كنا قلقين للغاية من هذا التطور، واردنا دعماً سورياً للحكومة حتى تتمكن من تأمين الاستقرار. اشرتُ على القاصد الرسولي بضرورة الاسراع في ادخال الاصلاحات لاستباق تطورات جديدة قد تحول دون استمرار الحوار المسيحي الاسلامي. وافق انجلوني على طلبي هذا والحّ على سلفستريني كي يضغط على القادة الموارنة للتوصل إلى توافق حول الاصلاحات والعلاقات اللبنانية ـ السورية.

قرّر سلفستريني، ولعدم المجازفة كثيرا بحياته، ان يعقد اجتماعا واحدا يضم جميع القادة الدينيين المسلمين. حضر الاجتماع المفتي الشيخ حسن خالد، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وشيخ العقل محمد أبو شقرا. قال المشايخ المسلمون لسلفستريني انهم يصرون على التعايش مع المسيحيين بموجب صيغة سياسية تكون فيها كل الطوائف متساوية. وأكدوا له أنهم يعتبرون زيارته هذه وكأنها موجّهة إلى كل اللبنانيين ولا تستهدف طائفة دون اخرى، ولذلك يؤيدونها كليا. وقالوا له إنَّ أي اتفاق بين اللبنانيين يجب ان يُعقد من خلال العملية الدستورية، ويعتبرون الدعم السوري عنصرا اساسيا لتأمين نجاح اي جهد قد يبذل في لبنان.

في السابع من آذار / مارس، انتهينا من استشاراتنا المتعلقة برسالة الجميل إلى الملك فهد. بعثنا الرسالة على الفور، آملين ان يتوجه الحريري وسلفستريني، في الوقت عينه، إلى دمشق لكي يعملا سويا لدعم المشاورات والتخفيف من حدة التجابه بين السوريين والمسيحيين. اما في الرسالة التي ارسلناها إلى الملك فهد، فقد قلنا اننا نقبل بجوهر الاتفاق الثلاثي ولكننا نرفض بعض التفاصيل فيه. وقدَّمنا لائحة بسبع نقاط اعتبرناها جوهر الاتفاق الثلاثي وهي:

١ ـ التشديد على استقلال لبنان وسيادته والدفاع عن الحريات العامة فيه.

٢ ـ تعبئة جميع الطاقات اللبنانية والعربية والدولية لتحرير الجنوب من الاحتلال الاسرائيلي، وتطبيق قرارات مجلس الامن ٤٢٥ و ٥٠٨ و ٥٠٩، والتشديد، في الوقت عينه، على سريان مفعول اتفاق الهدنة.

٣ ـ التأكيد على هوية لبنان العربية، ودور لبنان في المجتمع العربي وضرورة

اقامة علاقات مميزة مع سوريا تقوم على اسس واعتبارات تاريخية وجغرافية.

٤ ـ ضرورة تطوير النظام السياسي اللبناني، لتأمين المشاركة الفعلية لكل الطوائف الاساسية، وضرورة صياغة دستور جديد يؤمن هذا الهدف. وضرورة القيام باصلاحات اقتصادية واجتماعية لضمان العدل والمساواة في نظام ديمقراطي حر.

٥ ـ اعتماد مبدأ المناصفة في المجلس النيابي بجعل نصفه مسيحيا والنصف الآخر مسلما، وملء المقاعد الشاغرة فيه.

٦ ـ الاعتراف بضرورة الانتقال من الوضع الطائفي الراهن، إلى وضعٍ لا تفرقة فيه، بين لبناني ولبناني آخر، الا على اساس الكفاءة.

٧ ـ وضع حد للنزاع المسلح، وحل الميليشيات، وبسط سلطة الدولة على كل الاراضي اللبنانية، ضمن اطار خطة متفق عليها وبمساعدة سوريا.

كانت رسالتنا، المؤرخة في ٧ آذار/مارس ١٩٨٦، تشير إلى الاتفاق الثلاثي «كخطوة نحو حل شامل»، وتطالب بحوار جديد بين حكومتي لبنان وسوريا، وفقا للنقاط السبع المذكورة اعلاه. وبينما كنا نحاول ان نبلّغ دمشق بواسطة الحريري، جرت محاولتان اخريان: الاولى تقدم بها الفاتيكان، والثانية رئيس وزراء بافاريا فرانز جوزف شتراوس. كان سلفستريني قد التقى مجمل القادة اللبنانيين وفي ١٢ منه عقد اجتماعا مع الرئيس الاسد.

أما الاسد، وهو المعروف بتفكيره العملاني، فلم يكن لديه الكثير من المصالح مع الفاتيكان كي يُسهم في انجاح زيارة سلفستريني. ورغم ذلك، استقبل الاسد المبعوث البابوي بحفاوة كبيرة وحدثه مطولا عن التاريخ، وعن دور الاديان السماوية في صنع الحضارة. وسأل سلفستريني الاسد: هل تنوي سوريا اجراء بعض التعديلات في الاتفاق؟ واشار إلى ان الفاتيكان قد يكون مستعدا لتقديم بعض التوصيات اذا ما ارادت سوريا ذلك. واجابه الاسد قائلا: ان سوريا ليست طرفا في هذا الاتفاق. واذا ما اراد الفاتيكان ان يقدم توصيات، فعليه ان يتوجه إلى قادة

الميليشيات الثلاث الذين وقعوا الاتفاق. فصمت عندها سيلفستريني اذ تبيّن له انه واجه بابا مسدوداً.

كان خدام قد سبق فأخبر سيلفستريني ان سوريا لا تثق بالجميل، وانها لن تتشاور معه. على ضوء هذا الحديث، اقترح المبعوث البابوي بارسال توصياته إلى قادة الميليشيات مباشرة. وعندما اخبر انجلوني الجميل بما جرى، وكان يقدم له عرضا موجزا لزيارة سلفستريني، قال له الرئيس: «اذا كنت انا العقبة، فانا مستعد ان أضع استقالتي بتصرف قداسة البابا». طبعاً لم يَعْنِ الجميل كلمة واحدة مما تفوه به ولكنه رجل سياسي يقول ما هو مناسب، وربما يكون قد تسرع بطرحه هذا.

تلاشت مبادرة سلفستريني شيئا فشيئا. فالمبادرة التي تقدم بها الفاتيكان، «كخطوة طموحة قد تؤدي إلى حل المعضلة اللبنانية الجديدة»، سرعان ما اصبحت مبادرة متواضعة تهدف إلى تحقيق اجماع داخل الطائفة المارونية. وكان سلفستريني يأمل بمصالحة الجميل مع فرنجية، ولكنه فشل في مهمته هذه. وامل في اقناع القادة الموارنة بالعمل سويا ولكنه سرعان ما اكتشف ان لكل منهم موقفه الشخصي المستقل. وكم كانت مفاجأته كبيرة عندما تبين له انه لم يكن للقادة الموارنة هدف موحد. فكانوا يتكلمون عن مواضيع عامة دون خطة، وكأنهم ينتظرون الخلاص من قداسة البابا. واخبرني سلفستريني «ان الموارنة قابعون في القرون الوسطى. وان الطائفة المسيحية في حالة شلل»، ولم يكن مسروراً قط لسماعه الرئيس يضع استقالته بتصرف البابا. فكان يفضل ان يتصرف الرئيس بعكس ذلك ويوحد المسيحيين، الذين اعتبر سلفستريني أنّهم في طريقهم نحو الكارثة. غادر سلفستريني لبنان وفي قلبه احباط عميق. ترك وراءه معاونه المونسنيور لويجي جياتي، وذلك من اجل توليد الانطباع بان مبادرة الفاتيكان لم تزل قائمة رغم انها بالفعل قد انتهت بفشل ذريع.

مبادرة شتراوس

في حين كان الفاتيكان يحاول حل النزاع من خلال تعديل الاتفاق الثلاثي، كان

رئيس الوزراء الباڤاري، فرانز جوزيف شتراوس، يسعى دون كلل لايجاد حل للازمة اللبنانية من خلال مشروع أكبر بكثير. كان شتراوس يحب الدبلوماسية الشخصية، ويحب اغضاب بون التي كانت منزعجة من تحركاته الدولية.

وصل شتراوس إلى دمشق صباح الاثنين الواقع في ٢٤ آذار/مارس، واجتمع بالرئيس الاسد، وكان يأمل في ايجاد مخرج. وكنا ننتظر وصوله بعد الظهر ولكنه ابلغنا انه يتعذر عليه المجيء بسبب الاحوال الجوية الرديئة. فمنذ اقدم العصور كان الانسان يتذرع بالطقس كوسيلة سياسية للخروج من مأزقٍ مّا. وكان شتراوس، وهو في دمشق، قد فهم تماما ان القرارات الاساسية المتعلقة بلبنان والمنطقة تؤخذ في العاصمة السورية وليس في بيروت. ورغم ذلك قام بدعوة الرئيس الى مزرعته في باڤاريا لاستعراض حلول الازمة اللبنانية.

في أواخر آذار/مارس، قضى الرئيس بضعة ايام في باڤاريا. توجه شتراوس إلى الجميل، قائلاً: أنْ لا خيار امامه سوى حل مشاكله مباشرة مع الاسد. فالولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والڤاتيكان والمانيا كلها لا تستطيع القيام بشيء للبنان. وحدها سوريا بامكانها ذلك. فهي تملك السلطة والارادة والتفويض كي تكون اللاعب الرئيسي على الساحة السياسية اللبنانية في الوقت الحاضر وأشار شتراوس على الرئيس السوري بفتح حوار مع الجميل على الأسس التالية: يرسل الجميل نسخة عن الاتفاق مشيرا فيها إلى البنود التي يقبل بها وتلك التي يرفضها. وعليه ان يقدم بديلا عن كل بند يرفضه. واقترح شتراوس على الرئيس ان يرسل إليه باحثاً المانيا ليساعده في هذه المهمة واصر عليه القبول بهذا العرض.

انتهز شتراوس هذه الفرصة ليؤكد محبته للجميل القائد المسيحي، اذ ان شتراوس ينتمي إلى حزب الديموقراطيين المسيحيين، فكان يشعر بمسؤولية معنوية تجاه الجميل.

اكد شتراوس للرئيس ان ابنه ماكس قد يزوره خلال عشرة ايام، لينقل افكار الجميل إلى الاسد، وقال انه كان ينسق في جهوده مع البابا، واكد للجميل ان الحبر الاعظم يبارك مبادرته هذه.

قبل الرئيس نصيحة شتراوس، ولكنه أبقى عينا ساهرة على الرياض. وفي ٢٦ منه نقل إلينا سفير لبنان في المملكة العربية السعودية، ظافر الحسن، رسالة شفهية من السعوديين مضمونها: ان الملك فهد يشكر الرئيس على رسالته المؤرخة في ٧ آذار/مارس. فقد قام بكل ما في وسعه، وتحدث إلى السوريين ليبقي باب الحوار مفتوحا قليلا. وشعر الملك ان الرئيس الجميل قد يجري اتصالات مباشرة بالسوريين. واكد لي السفير الحسن ان الملك فهد برهن عن استعداد كبير لمساعدة لبنان، لأنه كان يقضي الآن معظم أوقاته في الصحراء بعيدا عن مشاغل الرياض، وكان كل تفكيره منصبا على ايران التي كانت قد اجتاحت مؤخرا مناطق في جنوب العراق. وقد طلب الملك منا ان نبقى على اتصال به من خلال الحريري. وهكذا قد تبقى اتصالاتنا غير رسمية وغير معلنة حتى اذا ما فشلت لم يكن لأحد إحراج.

حاولنا اتّباع كل خيار يمكن ان يؤدي إلى نتيجة. فمن خلال شتراوس، وبمساعدة الباحث الدستوري الالماني الذي ارسله إلينا رئيس وزراء باڤاريا، بحثنا عن طرق جديدة لادخال الاصلاحات. ومن خلال سلفستريني، ابقينا اتصالاتنا مفتوحة مع اوروبا. ومن خلال السعوديين، تركنا الباب مفتوحاً، ولو قليلاً، مع دمشق.

الفصل التاسع

الاصلاح السياسي

في مباحثات دمشق

في الثاني من نيسان/ابريل، ١٩٨٦، اطلعني قائد الجيش، العماد ميشال عون، على رسالة مؤرخة في الثاني والعشرين من آذار/مارس ارسلها الجنرال سعيد بيرقدار، قائد القوات السورية في لبنان، يتهم فيها الجيش اللبناني بقصف المواقع السورية، منذراً بأنه سيجد نفسه مضطراً إلى اقتحام المنطقة الشرقية الواقعة تحت سلطة الجيش اللبناني اذا ما تكرر هذا الامر. واطلعني عون على رده المقترح على رسالة بيرقدار، فوجدت رده استفزازياً وخطيراً.

اقترح الرئيس ان نبعث برسالة إلى قادة الدول العربية، عبر الأمين العام لجامعة الدولة العربية، الشاذلي القليبي بشأن هذا التهديد. ومرة أخرى لم احبذ اقحام الدول العربية بهذا الشأن. ذلك ان رسالة الى القادة المسلمين للاقطار العربية، من رئيس ماروني يواجه خطراً من معظم القادة المسلمين في البلاد، لن تؤدي إلى الغرض المنشود. واقترحت أن يرد عون رداً مهذباً وموضوعياً وصادقاً لأن لا مصلحة لنا في التصعيد. وشاركت في اعداد مسودة الرسالة مؤكداً ان جيشنا لم يقصف المواقع السورية، وان الجهود يجب ان تنصب على منع الاحتقان، وليس على مفاقمة المشكلة. وقد كان عون يرى أن بامكانه الصمود في وجه هجوم سوري مدة تكفي لاثارة عاطفة الغرب ودعمه في آن. بادرت إلى القول: ان هجوماً سورياً هو اول ما يجب ان نتفاداه في الوقت الحاضر، وان نسعى الى الاتفاق مع سوريا وليس إلى الاحتكاك بها. وفي النهاية، ارسلنا إلى بيرقدار رداً دبلوماسياً أنهى هذه الأزمة. ولم يكن مستبعداً ان عناصر من الجيش اللبناني وعناصر من الجيش السوري قد تورطوا باطلاق النار، قبل ان تجري محاصرتها، سياسياً، وعلى مستوى القيادة. وقد بدا جلياً، ان ثمة توتراً بين الجيشين كان متوقعاً نظراً لتقارب مواقعهما، فضلاً عن حوادث القصف المستمر الذي لم يكن ممكناً تحديد مصادره على نحو دقيق.

وفي كل الاحوال، لم تتدنَّ حدة القصف والخطف والاغتيال. كنا ندرك ان

الاستقرار يتطلب موافقة على الاتفاق الثلاثي، مع ادخال تعديلات لا تمس جوهره. اطلع السعوديون الرئيس الاسد على رسالة الرئيس الجميل إلى الملك فهد، غير ان الاسد الح على طلب المزيد من الايضاحات. وفي هذا السياق، قدمت الولايات المتحدة النصح إلينا، ولكن عن بعد. لقد دأبنا على وضعها في الاجواء عبر سفيرها في بيروت وسفيرنا عبد الله بوحبيب في واشنطن، وايضاً من خلال السعوديين الذين كانوا، وقتئذ، يؤدون دور الوساطة.

وكان مساعد وزير الخارجية الاميركي لشؤون الشرق الأوسط قد اوصى بعقد مؤتمر مسيحي من شأنه ان يزود الرئيس بتعديلات مقبولة لديه، ليرسلها بدوره إلى سوريا. وقتئذ، كانت الطائفة المارونية التي تمسك بزمام القرار المسيحي، منقسمة على نفسها وتفتقر إلى زعيم يقودها. فسليمان فرنجية تزعَّم مسيحيي الشمال، بينما توزع مسيحيو الشطر الشرقي من بيروت بين الكتائب والقوات اللبنانية، وتجمعات اخرى صغيرة الحجم. وفي الجنوب، كان اللواء انطوان لحد، قائد جيش لبنان الجنوبي المدعوم من اسرائيل، هو المسيطر على القرار المسيحي هناك.

رُفض اقتراح مورفي حول عقد مؤتمر مسيحي، واستعيض عنه برفع التعديلات المقترحة على الاتفاق الثلاثي بعد مشاورات فردية مع القادة المسيحيين. وبعد مشاورات مكثفة حول الاتفاق الثلاثي، ادخلنا عدداً من التعديلات، وبعثنا بها إلى شتراوس، في السادس من ايار/مايو ١٩٨٦. وقتئذ، كان موقف القادة المسيحيين، وخصوصا الرئيس كميل شمعون، يميل نحو تصعيد اللهجة مع السوريين، الامر الذي جعل جهود شتراوس عرضة للانتكاس.

تمثلت مهمتي في اتخاذ موقف مختلف من العلاقات مع سوريا، واعتبرت ان اكثر السبل عقلانية تكمن في المحافظة على خطوط مفتوحة مع دمشق، ومحاولة تقليص الفجوة بين البلدين من خلال العمل الدبلوماسي. السوريون عقائديون بعثيون، ونظامنا ديمقراطي تعددي ينطوي على نظرة سياسية مختلفة. كان السوريون يعولون على القيادات الشابة للميليشيات لرسم مسار لبنان السياسي،

ويودون السرعة في انجاز الاتفاق. اما الرئيس الجميل فكان حذراً ولم يشأ ان يخطو خطوة في الاصلاح دون تأمين اجماع واسع لها.

لم يكن تدخل رئيس الوزراء شتراوس أمراً مفيداً، رغم انه كان يظن ان مبادرته ستنجح: «لأنه صديق حميم للرئيس الاسد». وخلال سنوات اربع، التقيت عدداً كبيراً من المسؤولين كل منهم يظن ان مفتاح الاسد بيده، ناهيك عن عدد أكبر من السياسيين ورجال الاعمال والاطباء والمغامرين اللبنانيين، الذين عرضوا على الرئيس الجميل حلولاً جاهزة، شريطة ان يزودوا بصلاحيات مطلقة للتفاوض مع «صديقهم الرئيس حافظ الاسد».

وبصفتي أستاذاً متخصصاً في الدراسات الاسلامية والعقل العربي، فقد اوليتُ اهتماماً دائماً بالعنصر «الشخصي» في السياسة. وقد حققت وترجمت في الماضي مخطوطة عربية تعود إلى القرن العاشر المسيحي، حول البلاط العباسي واسلوب الخلفاء، ودور الاصدقاء والوزراء والانسباء وآخرين في التأثير على القرارات التي يتخذها الخلفاء. واذا لم يكن كل من فهد والاسد ومبارك وعرفات خلفاء او ائمة او سلاطين، فهم، رغم ذلك ورثة لهؤلاء الحكام السابقين. صحيح ان مسيرة التاريخ تبدل احوال الناس والتقاليد وانماط السلوك، غير ان تبديلاً كهذا غالباً ما يمس القشور فقط. اما ما يَكْمُن عميقاً في الجوهر فيبقى ويستمر باشكال مختلفة. وبعد اشهر ستة من الشلل السياسي والقصف المدفعي المستمر، شعرت بالحاجة إلى الدبلوماسية الشخصية.

فاتصلت بالسيد عصام فارس والذي يعرف عنه انه يعمل في الخطوط الخلفية لدعم لبنان من خلال اتصالاته الدولية الواسعة والذي احرز سمعة مرموقة في لبنان والسعودية وسوريا والولايات المتحدة واوروبا لمساعدتنا في الازمة القائمة. واسوة بسائر اللبنانيين المتعاطفين مع لبنان، استخدم جزءاً من ثروته لمساعدة اللبنانيين في ضائقتهم، ووضع نفسه بتصرف الحكومة، رغبة منه في ابداء المساعدة حيثما تسنّى له ذلك. لقد نشط عصام فارس في تأمين الاتصالات مع القادة الاجانب، وقدم نصحه حول كيفية الاتصال باصدقائه في السعودية وسوريا واشار

ان نتصل بواسطة معينة مع الرئيس الاسد والتوصل إلى حل بالعمل المباشر معه وليس بالوكالة. ومن خلال سفيرنا في واشنطن، الدكتور عبد الله بوحبيب، كنا نتلقى باستمرار معلومات عن الاجواء الاميركية حيال لبنان. كان بوحبيب، بخلافي انا، مغرماً بالاتصالات الهاتفية، فدأب على التشاور المستمر باللبنانيين النافذين المماثلين لفارس، وجعل يحثني دائماً، على ايجاد طريقة مباشرة تمكنني من التحدث إلى السوريين حول الاصلاحات الواردة في الاتفاق الثلاثي. وعندما اخبرت بوحبيب ان الجهود التي يبذلها شتراوس اصطدمت بحائط مسدود، اجابني ان هاني سلام وشخصاً آخر صديقاً له يبدوان مفيدين على هذا الصعيد. لقد شعر بوحبيب ان سلام وصديقه الآخر، الذي كان لا يزال مجهولاً لدي، قادران ان يقوداني إلى التحدث مباشرة مع السوريين.

كان سلام رجل اعمال ناجحاً، كوَّن ثروته، في الخليج، كعدد من نظرائه اللبنانيين. وكان، وقتئذ، يدير نشاطه التجاري، من مكتبه في لندن. وآل سلام يعتبرون من العائلات السنية البارزة في بيروت، التي كان لها شأن واسع في الحياة السياسية بلبنان طوال القرن الحالي. كان «هاني بك»، كما يعرف عادة آل سلام، يقطن خارج لبنان، واتخذ قاعدة له في بيروت يتردد إليها باستمرار. كما داوم على الاتصال بالقادة اللبنانيين والسوريين. وقد ابدى اهتماماً خاصاً بفتح باب الحوار مع سوريا. وعندما اتصل بي من لندن، عارضاً عليّ الاتصال بخدام نيابة عني، اقترح علي اسم مهدي التاجر الذي كان سفيراً سابقاً لدولة الامارات العربية المتحدة في بريطانيا وفرنسا.

كان التاجر مقاولاً ثرياً، عرف عنه توقه الشديد إلى جمع كل ما تقع عليه يده من قطع الآثار الاوروبية، التي كانت موضع شهرة كبيرة في الماضي، بدءاً من القلاع والقصور، مروراً بالسجاد واللوحات الزيتية والساعات والفضة، والمخطوطات، والمفروشات القديمة على مختلف انواعها. وكان التاجر صديقاً مقرباً من الرئيس الاسد منذ مطلع السبعينات، ولأنه شيعي بارز في دولة الامارات، فقد كان على علاقة وثيقة بالزعماء الشيعة في المنطقة، فضلاً عن علاقته بعدد من المفكرين الشيعة في العالم.

عقدت العزم على مقابلة التاجر قبل ان نعهد إليه القيام بمهمة الوساطة. واثناء زيارتي إلى ابو ظبي في ٢٦ ايار/مايو، طلبت من احد المقاولين اللبنانيين، ويدعى مرشد بعقليني، ان يصطحبني إلى دبي للتعرف على مهدي التاجر. ابدى بعقليني سروره، خصوصاً وانه كان على علاقة تجارية بالسابق مع التاجر ولم يره منذ مدة.

استقبلنا التاجر في قصرٍ بُنيت قاعة الاستقبال فيه على شكل خيمة. وسرعان ما وجدنا ان الاجواء في الداخل لا تمت بصلة إلى تلك الخيمة. بدا التاجر صغير الحجم نسبياً، كبير النفس، طليق اللسان، ذا ثقافة واسعة. استقبلنا بحرارة ثم اطلق العنان للحديث. قال لنا ان عدداً من قطع المفروشات وغيرها، التي وقع نظرنا عليها، استقدمت من قصور شاه ايران، عبر قنوات خاصة.

ثم اطلعنا على علاقاته الوثيقة بكل الزعماء العرب، وخصوصاً منهم الرئيس حافظ الاسد، مبدياً سروره بمساعدتنا مع الرئيس السوري، اذا ما رغبنا في تكليفه هذه المهمة. قال ان التاريخ العربي عبارة عن تاريخ الأشخاص انفسهم، ثم بادرنا بمحاضرة طويلة عن الخليفة علي بن ابي طالب، وابنه الحسين الذي استشهد في كربلاء على يد يزيد بن معاوية، فترقرقت الدموع في عينيه وكأن الحسين قد استشهد صبيحة ذلك اليوم وليس قبل ثلاثة عشر قرناً. كان التاجر، بالفعل، رجلاً غير اعتيادي. فقد بدا لي أنه مؤمن، ولكن مع شيء من رحابة الصدر، ذو اسلوب لطيف. ورغم ثروته الطائلة، فقد بدا زاهداً، وكان شاعراً ومتصوفاً. كان متلهفاً لتولي مهمة وصل ما انقطع على صعيد الحوار اللبناني ـ السوري، معتبراً أن هذه المهمة ضرب من التحدي، واملت عليه ثقته بنفسه انه سينجح. غادرته بعد ان وعدته بأننا سنلتقي قريباً لمناقشة المسائل على نطاق واسع.

وفي مبادرة كان الغرض منها احياء القيادة الكنسية في الطائفة المارونية، انتخب مارنصرالله بطرس صفير، بطريركاً جديداً للكنسية المارونية في ١٩ نيسان/ابريل ١٩٨٦. وقتئذ كان المبعوث البابوي لوشينو انجيلوني مستاءً من البطريرك خريش الذي بدا طاعناً في السن ضعيف الاداء، الأمر الذي دفع انجليوني

إلى معالجة هذه القضية مع الحبر الأعظم، رغبة منه في ايجاد منصب جديد لخريش، ومن ثم المجيء بشخص يصغره سناً للاضطلاع بكرسي البطريركية. وهكذا رقي خريش إلى رتبة الكاردينالية، وأفردت له اقامة دائمة في أحد اجنحة القصر البطريركي في بكركي. عقدنا الآمال على ان يتمكن البطريرك صفير من ملء الفراغ الذي خلفه خريش حيال توحيد الطائفة المارونية التي بدت زعامتها مشرذمة منقسمة. في تلك الاثناء، كانت الحاجة إلى معاودة الحوار شيئاً ملحاً نظراً لتصاعد حدة الاقتتال، ولأن الموقع الماروني كان موقعاً محورياً في اي حوار في لبنان.

وبعيد انتخاب صفير بطريركاً، قمنا بزيارته أنا والرئيس، وتحدثنا إليه مطولاً حول التطورات المستجدة. ومن جهتي، ابقيت باب الاتصالات مفتوحاً معه. ولطالما اضطلع الكهنة الموارنة بادوار سياسة رئيسية: فالبطريرك الحويك كان فاعلاً في قيام لبنان الحديث من بين انقاض الامبراطورية العثمانية. وخلال العقد الأخير، تسببت الحرب الداخلية في شرذمة الطائفة المارونية وبددت زعامتها، الامر الذي وضع البطريرك صفير امام تحد كبير. أطلعتُ البطريرك صفير على مهمة الوساطة التي يتولاها التاجر مع دمشق، خصوصاً وان الرئيس كان قد ازمع على اقتراح عدد من المبادئ الاصلاحية التي من شأنها ان تحرك عملية الحوار وتؤدّي إلى تعديل الاتفاق الثلاثي.

في الأول من آب/اوغسطس ١٩٨٦، وفي خطبة يوم الجيش، أعلن الرئيس موقفه من الاصلاحات المقترحة، داعياً المجلس النيابي الى الاجتماع فوراً لاقرارها وفقاً للاجراءات الدستورية. قال الرئيس: ان هذه الاصلاحات تستقطب اجماعاً واسعاً، وهي على الشكل التالي:

- لبنان وطن نهائي للبنانيين، يتمتع بحق السيادة على كل اراضيه، وهو ليس جزءاً من اي دولة اخرى، كما يتعذر انضمامه الى اي دولة اخرى. لبنان ذو هوية عربية، يلتزم بمحيطه العربي على نحو كامل، وهو ذو نظام جمهوري ديمقراطي وبرلماني، وتوزع المناصب الحكومية على جميع أبنائه بالمساواة.
- وضع حد نهائي للنزاع العسكري، وبسط سلطة الدولة على كل الاراضي اللبنانية.

- لبنان ملتزم بنظامه الاقتصادي الحر.
- تبني اللامركزية الادارية في لبنان.
- اقامة علاقات مميزة مع سوريا.
- بذل المساعي الدبلوماسية لتنفيذ قرارات الامم المتحدة حول جنوب لبنان.
- الانتقال التدريجي من النظام الطائفي إلى نظام غير طائفي.
- تحديد صلاحيات الرئاسات الثلاث (رئاسة الجمهورية، ورئاسة المجلس النيابي، ورئاسة مجلس الوزراء).
- تطوير معايير ممارسة المسؤولية.

ولتفعيل عملية الاصلاحات على قاعدة عادلة، اقترح الرئيس على المجلس النيابي الاجتماع فوراً لاقرار الاصلاح الدستوري الذي يؤمن رأساً المساواة بين المسيحيين والمسلمين في المجلس النيابي.

وفي استجابة فورية لخطبة الرئيس، قام رئيس الحكومة رشيد كرامي بتعيين لجنة من ستة وزراء برئاسته تضم سليم الحص، كميل شمعون، جوزيف الهاشم، جوزيف سكاف، فيكتور قصير وعبد الله الراسي لدراسة مقترحات الرئيس، فضلاً عن مقترحات أخرى، واعداد خطة اصلاحية ترفع إلى المجلس النيابي في غضون شهر. ثم اوفد كرامي مستشاره الدكتور جورج ديب ليبلغ السيد خدام الرسالة التالية: إن كوني رئيساً لحكومة لبنان، مسلمين ومسيحيين، يُوجب علي ان اتبنى موقفاً معتدلاً. انني اتعامل مع هذه المبادرة، التي هي قيد التشاور، تعاملاً جدياً، وارغب في الاطلاع على موقفكم منها.

اجاب خدام بالقول: إن سوريا تدعم الحوار، خصوصاً اذا ما تولى كرامي الاشراف عليه. ومهما يكن، فقد رسمت دمشق خطين احمرين: استحالة العودة إلى صيغة ١٩٤٣، واستحالة السماح لطائفة ان تسيطر على اخرى.

وارتفعت حمى الجدل الدائر بين اعضاء اللجنة منذ اجتماعها الاول: لقد افتتح

كرامي اجواء المناقشة بالتشديد على العلاقة الكيانية بين سوريا ولبنان، فصرخ شمعون: هل نحن هنا لنناقش اموراً لاهوتية؟ اجاب كرامي: ان ما نتحدث بشأنه ليس لاهوتياً على الاطلاق. انه توجهنا العام.

احتدم الخلاف بين كرامي وشمعون حول معظم القضايا المطروحة، بدءاً من الطائفية والهوية، مروراً بصلاحيات رئيس الجمهورية. ثم أصبحت الامور اكثر سوءاً عندما تغيب شمعون فترة طويلة عن اجتماعات اللجنة، فأصابها الشلل. وفي كل الاحوال، درج اعضاء اللجنة على اطلاع الصحافة على اجواء الآراء المتناقضة، الأمر الذي اضفى صعوبة هائلة على النقاط المطروحة. وعندما قابل ريتشارد مورفي الرئيس الأسد في ايلول/سبتمبر، بدا الأسد متشككاً حيال أعمال تلك اللجنة، قائلاً: «ان طبيعة تكوينها تجعل من فشلها امراً محتماً». وقتئذ، حاول كرامي ان ينقذ مبادرته بحلّ هذه اللجنة السداسية الاطراف، جاعلاً من مجلس الوزراء، كله، هيئة حوار وطني. ولم يكن مصير هذه المبادرة بأحسن من سابقتها، فاصطدمت، هي أيضاً، بالحائط المسدود. وفي الاول من آب/اوغسطس سلم القاصد الرسولي في دمشق وزير الخارجية السوري، فاروق الشرع، مذكرة من صفحتين تمثل الآراء التي اقترحها سلڤستريني بعد لقاءاته مع القادة اللبنانيين، يمكن ايجازها على النحو التالي:

- وجوب اعادة بناء لبنان على أساس انه بلد مستقل ذو سيادة يتمتع بهويته الخاصة. وقد يقيم لبنان «علاقات خاصة» مع سوريا تُحدّدها اتفاقات ثنائية بين البلدين وتحترم استقلال كل من الدولتين وسيادتها.

- وجوب انسحاب كل القوات الاجنبية لتمكين الحكومة اللبنانية من بسط سيطرتها على كل اراضيها.

- ان الاصلاحات التي تحترم الخصائص الديموغرافية في لبنان، وبنيته الاجتماعية، وصيغة التعايش، يجب ان تثبّت دستورياً.

- احترام هوية لبنان التاريخية، وتعدديته السياسية، والحريات الفردية، وحرية الفئات التي يتكون منها المجتمع اللبناني.

- حرية المعتقد الديني والتعبير والتعليم والملكية الخاصة.

- تثبيت مبدأ توزيع الرئاسات الثلاث على المذاهب الثلاثة الكبرى في لبنان، والمساواة بين عدد النواب المسيحيين والمسلمين في المجلس النيابي ومجلس الوزراء واعتماد مبدأ اللامركزية.

وعد الشرع بمناقشة مذكرة سلڤستريني مع القادة اللبنانيين، مما يعني، في اللغة السياسة، صرف النظر عنها. كانت لهجة الڤاتيكان مختلفة عن لهجة دمشق، فالمذكرة قد صيغت باسلوب محافظ مشيرة إلى «انسحاب كل القوات الاجنبية» مما يعني انها تنظر إلى سوريا كما تنظر إلى اسرائيل؟ والاشارة إلى الخصائص الديموغرافية والتعايش تفوح منها رائحة الماضي. لقد تبدلت الخصائص، وتبدل الوضع الديموغرافي، بنظر سوريا، اما الهوية التاريخية للبنان التي اشير إليها في المذكرة، فهي نفسها موضع تساؤل. هل تعني الفينيقية؟ المسيحية؟ الاسلامية؟ العربية؟ الشرق اوسطية؟ ان سوريا تفضل ان تستمع الى كلام واضح على هذا الصعيد، فلبنان مثلا هويته عربية.

اما مسألة الرئاسات الثلاث، فسوريا تفضل ان تبقى عرفاً دون التكلم عنها. وبحلول منتصف ايلول/سبتمبر، بلَغَنا ان كرامي أصبح يائساً من التوصل إلى تسوية حول الاصلاحات من خلال الحوار الحكومي. وقد عزا هذا الفشل إلى العراقيل التي وضعها شمعون الذي رفض كل الطروحات وخصوصاً هوية لبنان العربية واقامة علاقات مميزة مع سوريا. وبينما باءت مساعي كرامي بالفشل، وصل ماكس شتراوس، ابن فرانز جوزيف شتراوس، الى بيروت، برفقة خبير في الشؤون الدستورية، هو البروفسور هنريخ شولر. كان شتراوس واثقاً من نجاح مهمة أبيه، قائلاً ان كل ما نحتاج اليه: هو ان نضع، بالتعاون مع البروفسور شولر، الاصلاحات بشكل جيد. وقال: ان مقترحات الڤاتيكان لم تكن جيدة، ولذلك لم تكن لتلقى تجاوباً من سوريا.

كان شولر أكاديمياً طريفاً، ويكاد يكون فاقد البصر. كان يقرأ بمعونة عدسات مكبرة مُعقدة، جعلته شبيهاً باحدى شخصيات الروائي تشارلز ديكنز. كان يعمل

على نحو يذكرني بعلماء المانيا في القرون الوسطى، يدفن نفسه بين الكتب ونصوص القوانين والاصلاحات المقترحة، ويجتهد للتوصل إلى الصيغة الملائمة لحل عقدة الاصلاحات اللبنانية. خرج علينا بمجموعة حلول متنوعة، وشجعته، بدوري، على التفكير الحر، وكان يتحدث مع مختلف القادة اللبنانيين، قبل ان يرفع توصياته إلينا. لقد أبدى تعاوناً منقطع النظير، وكان راغباً، حقاً، في مساعدتنا.

باصطدام مهمة سلفستريني بالجدار المسدود، والطابع شبه الأكاديمي الذي توخاه شتراوس في انجاز مهمته، انصبّت انظارنا على مهدي التاجر. وفي ١٨ ايلول/سبتمبر، قابل التاجر الرئيس الاسد، واردنا أن نعرف ماذا جرى. وغالباً ما يلجأ الاسد في اجتماعه بالوسطاء الى الايحاء برسائل مهمة، والرسائل التي كنا حتى الآن نتسلّمها كانت سلبية للغاية. في تلك الاثناء، اتصل بنا هاني سلام من كاليفورنيا، ليخبرنا بأن لقاء التاجر بالاسد دام اربع ساعات، واسفر عن نتيجة ايجابية. كان الاسد متجاوباً، وقد رغب في ان يصطحب كرامي الرئيس الجميل إلى الامم المتحدة، ليعلنا، من هناك، موقفاً مشتركاً ضد الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان.

طلبت من هاني سلام ان يحضّر لاجتماع مع مهدي التاجر لنطلع على اجواء لقائه بالاسد؟ هل سيتوقف القتال؟ ما هي خطوتنا المقبلة؟ اجاب سلام قائلاً: ان سفيرنا في واشنطن، الدكتور عبد الله بوحبيب، سينسق هذه الامور. واضاف ان بوحبيب يعرف ان خطوطه وخطوطك مراقبة، ولذلك فانه سيتكلم بالشيفرة.

اتصل بو حبيب في اليوم التالي. افتتح كلامه بالقول: الرسالة إلى جون ترافولتا على النحو التالي: تحدثت إلى كاليفورنيا الذي قال ان الشرقي عقد اجتماعات ناجحة مع المتشدد، وبناء عليه يتوجب على تايرون باور ان يلتقي روما ليؤكد اننا ننسق مع جهوده.

قاطعت سفيرنا قائلاً: ماذا تقول؟ انني لا افهم ولا كلمة. واضفت، اذا كان الامر يتعلق بالشيفرة، فالاغلب ان رموزها اصبحت واضحة للجميع، باستثناء ذلك المسكين الذي يتحدث إليك في هذه اللحظة. اخبرني عمّا تتحدث. اجاب مكرهاً: ان

ترافولتا هو الجميل (الشخص الوسيم) وكاليفورنيا هو هاني سلام؛ والشرقي هو مهدي التاجر، وتايرون باور هو ايلي سالم، وروما تعني خالد اغا. قلت له: الآن، وبعد ان عمّمت شيفرتك دولياً، دعنا نتكلم بصراحة. وعندما اطلعت صديقاً فلسطينياً على هذه القصة، قال ان الامر نفسه حدث مع ياسر عرفات: اتصل به احد اعوانه من باريس قائلاً: «النمر سيصل غداً إلى القاهرة». اجاب عرفات بعصبية. ذكرني بالله عليك هل النمر هو ابو احمد»؟ نعم، اجاب المتحدث على الطرف الآخر من الخط؛ «الله يرحمه».

نَصَحَنا التاجر بأن يقدم الرئيس الجميل على اتخاذ موقف ايجابي من الرئيس الاسد، وأن على الجميل ان يسعى إلى المبادرة الاولى لكسر الجليد بينهما. جاءت المناسبة في ٢٣ ايلول/سبتمبر ١٩٨٦، وكانت الذكرى الرابعة لتولّي الجميل رئاسة الجمهورية. خاطب الجميل حشداً في قرية بكفيا يجمع الافاً من محازبيه معظمهم من الموارنة، قَدموا من القرى المجاورة. وعلى الرغم من ان اجواء الحشود كانت معادية لسوريا، فسرعان ما راحت الناس تصفق بقوة عندما طلب الجميل علناً مساعدة «اخي سيادة الرئيس حافظ الاسد لوضع حد للازمة اللبنانية». وكان موقف الجميل هذا موقفاً شجاعاً، خصوصاً اذا ما اخذنا في الاعتبار الصورة المعادية لسوريا عند هذه الحشود. بعد ذلك، اتصل بي التاجر ليشكرنا على ثقتنا به، ويخبرنا ان سلام سيصل إلى بيروت ليطلعنا على اجواء دمشق.

في العاشر من تشرين الاول/اكتوبر، وصل سلام إلى بيروت، وأبلغنا ما يلي: ان الرئيس الاسد يريد رسالة من الجميل يؤكد فيها التزامه بالاصلاحات، والتزامه بعلاقات مميزة مع سوريا. وكان الجميل يعارض رسالة كهذه خوفاً من ان تقابل بالرفض، لا سيما وان رسالته السابقة إلى الملك فهد لم تُؤتِ ثمارها المرجوة. حاول سلام المستحيل اقناع الجميل بجدوى هذه الرسالة، غير انه لم ينجح إلا في اقناعه بأن ارافقه انا في اليوم التالي إلى اثينا، لملاقاة التاجر، والاطلاع مباشرة على اجواء لقائه بالاسد، ثم نقرر في ضوء ذلك خطواتنا التالية.

في اليوم التالي، توجهنا، أنا وسلام، إلى لارنكا، في هليكوبتر عسكرية. ومن

هناك اقلعنا إلى اثينا في طائرته الخاصة. وفي اثينا انضم إلينا التاجر وتوجهنا إلى لندن. وبعد منافسة عفوية بيني وبين مهدي التاجر، في الشعر العربي القديم، أنْعَشَتْ ذاكرته، اطلعني على تفاصيل اجتماعه بالرئيس الاسد قائلاً:

أخبرتُ الاسد عن لقائي بالجميل، وكذلك عن السؤال الذي طرحته على الجميل: «ما هو شعورك إزاء الرئيس الاسد، وهل ترغب في التعاون معه»؟ وأخبرته بأن جوابه كان «نعم».

وسألت الرئيس الاسد السؤال نفسه: «ما هو شعورك ازاء الجميل؟ وهل ترغب في التعاون معه»؟ فقال: نعم. فقلت للأسد: في تلك الحال، عليكما ان تتعاونا معاً لانهاء القتال في لبنان، ووضع البلد على طريق السلام. اجاب الاسد: «لا مانع لدي، بامكاني ان التقط الهاتف وأتصل بالشيخ امين الآن وادعوه إلى لقاء في الغد. غير ان حرباً مشتعلة منذ اثنتي عشرة سنة لن تتوقف بمجرد اجتماع بين رئيسين مهما طال هذا الاجتماع. الشيخ امين يعرف معزته عندي، وكان حكيماً في سعيه إلى وساطتك. لقد حاولت الولايات المتحدة وفرنسا والفاتيكان والمانيا الغربية ان تتوسط بيننا، ولكننا ابلغناهم بان الازمة اللبنانية ازمة داخلية، وعليكم ان تتحدثوا إلى اللبنانيين. وبغض النظر عن الاسباب الداخلية للحرب، فنحن عندنا نفوذ في لبنان، وبامكاننا ان نساعد، خصوصاً عندما نستقبل صديقاً كمهدي التاجر، لا يسعنا ان نودعه صفر اليدين. بامكاننا المساعدة، وانا على استعداد للتعاون شرط ان اتسلم تأكيدات خطية محددة وعملية. ليتقدم الجميل ويعطني بديلاً عن الاتفاق الثلاثي. ان اتفاقاً كهذا ليس من صنعي، فقد جرت الموافقة عليه من قبل احزاب لبنانية ثلاثة. وهو لا ينسجم مع ما أصبو إليه، وهو، في الحقيقة يتناقض مع اهدافي ومبادئي البعثية. ان الاصلاحات الداخلية شأن لبناني. وانا يهمني شيء واحد، هو، العلاقات المميزة بين لبنان وسوريا. لا أريد ان أتدخل في النظام الاقتصادي الحر في لبنان، فالاقتصاد الحر هو جوهر لبنان. ان العلاقات المميزة امر يهم سوريا ولبنان لأن اسرائيل عدو مشترك. ان اسرائيل بمثابة خنجر في خاصرتي، ولا أريد خنجراً آخر في لبنان. ان سوريا ليست مثل تونس او المغرب،

وعلاقاتها بلبنان تختلف عن علاقاتها بتونس والمغرب. فاذا توترت الامور في بيروت، توترت ايضاً في دمشق. ان امن سوريا من امن لبنان، والعكس صحيح ايضاً. انني اسعى إلى لبنانٍ مستقل وسيد وحر ولكن في اطار علاقات مميزة مع سوريا».

اضاف التاجر، ان الاسد يطلب من الجميل رسالة خطية يشرح فيها موقفه من الاصلاح، ومن بعدها يمكن ان نؤمن اجتماعاً ناجحاً بالرئيس الاسد. ومن الافضل ان تضمِّنوا الرسالة المشروع الاصلاحي الجدي، أو التعديلات التي تريدون إدخالها على الاتفاق الثلاثي.

وكان الجميل يتردد بتوجيه رسالة إلى الاسد تقابل بالرفض، وكان حساساً جداً مع هذا الموضوع. وكذلك كان من الصعب على الرئيس الاسد، الذي أشاد علنا بالاتفاق الثلاثي، ان يجتمع بالرئيس الذي أفشله. وفي كل الاحوال، كان الجميل تواقاً إلى احلال السلام في لبنان، او، على الاقل، احراز بعض التقدم على طريق السلام، لا سيّما وانه لم يتبقَّ من عهده سوى سنتين، في حين انه قضى السنوات الاربع الماضية في خيبات امل متتالية. كان يمني النفس باختراقٍ مَّا. ولا يمكن تصور مثل هذا الاختراق الا بمساعدة الرئيس الاسد. كانت هذه هي الاجواء التي خيمت على الرئيس في شتاء ١٩٨٦.

واثناء لقاءاتي المتعددة في لندن، مع التاجر، وسلام، وعدد من اصدقائي الشخصيين في الوسط الاكاديمي، وضعنا قائمة من الخيارات حول الكيفية التي تُمكّن الجميل من معاودة حواره مع الأسد، فدوّنا حوالي ثمانية مقترحات للجميل ليختار واحدة منها.

إنني اعرف تماماً تردد الرئيس الجميل في توجيه رسالة خطية إلى الرئيس الاسد. واذا كان لا بد منها فعلي ان أؤكد للرئيس انها ستبقى سرية للغاية.

كان همنا ان نجد الاسلوب المناسب لرجلين مختلفين في موقعين مختلفين، اضافة إلى ذلك كان هنالك عامل التوقيت: هل الاسد مستعد للاجتماع بالجميل الآن؟ فالاسد يفكر في اطار اقليمي واستراتيجي، وهل هذا الاطار متوافر الآن لمثل هذا الاجتماع؟.

عدنا إلى بيروت، أنا، والتاجر وسلام، وفي حوزتنا هذه الخيارات. ولدى جوجلتنا لها، اتُفق على الخيار الذي برأينا يسمح بتوجيه رسالة خطية. وبعد حوار طويل وصعب مع الرئيس وافق على رسالة توجه خطية وسرية إلى لأسد.

في هذه الرسالة، المؤرخة في ١٥ تشرين الاول/اكتوبر، ١٩٨٦، شدد الجميل على استعداده للتعاون الوثيق مع الاسد لحل الازمة اللبنانية، وتضمنت الرسالة تقديراً لدور الرئيس الاسد في لبنان وفي المنطقة، وتصوراً لمبادئ الاصلاح الاساسية، مشيرة إلى وحدة لبنان وهويته العربية. ودعت إلى المشاركة في السلطة والمساواة والحاجة إلى «ميثاق ودستور جديدين»، ومقاومة الاحتلال الاسرائيلي. واشارت الرسالة الى ان لبنان لن يكون مقراً او ممراً لأي عمل عدائي ضد سوريا، كما أشارت إلى حاجة لبنان للدعم السوري، على ان يتفق على طبيعة هذا الدعم بين الرئيسين، وهو دعم سيتخذ شكل اتفاقات بين «حكومتينا»، في اطار العلاقات المميزة بين البلدين، ومن ضمن استقلال لبنان وسيادته وكرامة كل من لبنان وسوريا. وكذلك ذكرت الرسالة الحاجة إلى «تعاون مشترك في القضايا العائدة إلى امن بلدينا، وتنسيق مواقفنا على المستويات الاقليمية والدولية».

وقبل توجيه الرسالة اطلعنا البطريرك صفير والرئيس كميل شمعون على مضمونها. واخبرني الرئيس انه وضع قائد القوات اللبنانية الدكتور سمير جعجع في اجواء الرسالة، واعتقد الرئيس ان موافقة هؤلاء الثلاثة عليها توفر له الدعم الماروني الذي يحتاج إليه.

في ٢٣ تشرين الاول/اكتوبر، نقل التاجر، شخصياً، الرسالة إلى الرئيس الاسد، مزوداً بتعليمات أخرى يبلغها للأسد، شفهياً. وقد تمحورت الملاحظات التي كتبتها بخط يدي واعطيتها للتاجر، حول امور بسيكولوجية، الغرض منها اقناع الاسد بجدية الجميل. قدم التاجر عرضاً شفهياً مطولاً، وسلم الرسالة إلى الاسد طالباً منه الابقاء على سريتها. وقد قابل الاسد بين العرض الشفهي المقنع الذي ادلى به التاجر، والافكار المدرجة في الرسالة، وتساءل: لماذا لم تكن الرسالة على مستوى العرض الشفهي الذي قدمه التاجر؟ ان الملاحظات التي تقدمت بها تتعلق باجتهادي

الشخصي، والغرض منها شرح ما جاء في الرسالة وتوضيحه. ولا بد من الاشارة إلى انه منذ ان اقدم الجميل وجعجع على تفشيل الاتفاق الثلاثي، اصبح الجميل معزولاً من قبل سوريا وحلفائها في لبنان؟ ولم يكن ممكناً رفع هذا «العزل» ما لم يتأكد الرئيس الاسد من عزم الجميل على الاصلاح. وعلى الرغم من أن الرئيس الاسد قد أبدى ملاحظاته، فإنه قد ابدى ارتياحه للرسالة، واعتبرها خطوة هامة إلى الامام. عندها قال التاجر، اذا كانت الرسالة جيدة فآمل ان تجتمع بالجميل، وهو على استعداد لتلبية الدعوة، وفي حوزته تعديلات للاتفاق الثلاثي اعتبرها مهمة جداً. اجاب الاسد: اذا اجتمعنا، يجب ان يكون الاجتماع ناجحاً. وحتى نؤمن نجاحه اقترح ان يجتمع ممثل عني وممثل عن الجميل، فاذا اتفقا انعقدت قمة تتوج هذا الاتفاق».

اضاف الاسد: وقبل ان يجتمع الممثلان، أود أن أعرف من الرئيس الجميل موقفه من العلاقات المميزة ومن الاصلاح. وفي السادس من كانون الأول/ديسمبر، بعثنا إلى الاسد رسالة عن العلاقات المميزة: تضمنت ثلاثة عناوين: أ-الشؤون السياسية ب-الشؤون العسكرية الامنية ج-الشؤون الاقتصادية.

في ما يتعلق بالشأن السياسي، تعرضت الرسالة للنقاط التالية: التعاون بين لبنان وسوريا في المجالات ذات الاهتمام المشترك، التعاون في المسائل الامنية والتنسيق السياسي في القضايا الاقليمية والدولية، سعي لبنان ذي الهوية العربية إلى اقامة علاقات ممتازة مع البلدان العربية وعلاقات مميزة مع سوريا، اجتماع الرئيسين باستمرار، وتوسيعهما لإطار التعاون، واتخاذهما خطوات من شأنها ان تؤدي إلى تنفيذ سياستهما المشتركة.

وفي ما يتعلق بالشأن العسكري والامني، قد يلجأ الرئيس، عبر القنوات الدستورية، إلى طلب اعادة انتشار القوات السورية في لبنان، بشكل استراتيجي يحمي سوريا من هجوم اسرائيلي عبر لبنان، ويحدد الرئيسان مكان انتشار القوات واعدادها، وسينفذ انتشار هذه القوات لفترة محددة وفي امكنة محددة، ويعاد النظر في وجودها على ضوء الانسحاب الاسرائيلي الكامل، او على ضوء امكانات الجيش اللبناني لرد أي هجوم محتمل. اما في الوضع الامني، فيقوم لبنان باعداد قوة

عسكرية ضاربة مهمتها وضع حد للاقتتال، وعند الضرورة قد يطلب رئيس الجمهورية دعم القوات السورية لها، وستشرف هذه القوة على وقف اطلاق النار وحل الميليشيات وجمع السلاح وعودة المهجرين. وتنص المسائل الامنية التي تخص لبنان وسوريا، على ان لا يهدد أيٌّ من البلدين أمن الآخر، او ان يستخدم من قبل الغير لتهديد امن الطرف الآخر؟ فضلاً عن منع الحملات الاعلامية التي تسيء إلى العلاقات المميزة.

ووفقاً للشق الاقتصادي، يقوم الطرفان على استكشاف الوسائل التي من شأنها تكثيف التعاون بينهما، كل في مجال نظامه الاقتصادي الخاص وتعين حكومتا البلدين خبراء اقتصاديين لاقتراح معاهدات اقتصادية تخدم اهداف البلدين.

اعتبر الشرع ان رسالتنا المتعلقة بالعلاقات المميزة والمؤرخة في ٦ كانون الأول/ديسمبر، صالحة لتكون ورقة مشتركة. ولكن بما ان العلاقات اللبنانية - اللبنانية تؤثر على العلاقات المميزة، فقد طلب الشرع من سلام رسالة منا حول الاصلاحات السياسية. وقد أبلغ الشرع، لاحقاً، هاني سلام بان الاسد يريد علاقات مميزة بين بلدين مستقلين، وأنه لا يريد وحدة مع لبنان. قال الأسد: «قد نفكر باقامة وحدة مع المغرب قبل ان نفكر باقامة وحدة مع لبنان لأننا نقدر دور لبنان الاقليمي والدولي». اضاف الشرع: ان الوفاق الوطني هو احد اهداف العلاقات المميزة.

وهكذا اعددنا وثيقة حول الاصلاحات الدستورية مؤرخة في ١٣ كانون الاول/ديسمبر، ١٩٨٦، سلمها هاني سلام إلى الشرع في اليوم التالي.

في هذه الوثيقة: دعونا إلى الغاء الطائفية السياسية تدريجياً من دون ان نحدد زمناً لذلك: انشاء مجلس شيوخ. توزيع مقاعد المجلس النيابي مناصفة بين المسيحيين والمسلمين. تحديد صلاحيات مجلس الوزراء ورئيس الحكومة. اعطاء المجلس النيابي دوراً في تسمية رئيس الوزراء. تأسيس المحكمة العليا، والمجلس الدستوري، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي، وتعزيز اللامركزية الادارية.

من دون مشورة مسبقة، اقترح مهدي التاجر على الرئيس الاسد ان امثل انا

الرئيس الجميل، وان يمثل سفير سوريا في جنيف، اديب الداودي، الرئيس الاسد. واقترح، كذلك، ان نلتقي سراً في سان موريتز في سويسرا.

اجاب الاسد، انه على الرغم من ان تصوري لاتفاق ١٧ ايار كان مغايراً للتصور السوري، فانه يحترم موقفي ويقدر اهتمامي بتطوير العلاقات اللبنانية - السورية، وهو يرحب بي ممثلاً للرئيس. واشار الاسد، انه ارسل الداودي إلى جنيف لأسباب صحية، والا لبقي قريباً منه في دمشق. وافق الرئيس الاسد على ان اجتمع انا والداودي في سويسرا لمراجعة الاتفاق الثلاثي، وان يتشاور كل منا مع رئيسه، ثم نرفع مقترحاتنا إلى الرئيسين، معتقداً ان اجتماعاتنا ستستغرق بين اسبوع واحد واربعة اسابيع، يصار، بعد ذلك، إلى عقد قمة بين الرئيسين لتبني المقترحات. وبعد ذلك، استدعى الرئيس السوري الوزير فاروق الشرع وزوده بتعليمات تقتضي استدعاء الداودي للحضور إلى دمشق ليتلقّى التعليمات الضرورية قبل انعقاد مفاوضات سان موريتز. اضاف الاسد انه سيطلب من الداودي ان يحضر إلى سوريا في رحلة عادية، لانه يفضل ان تبقى هذه المبادرة خارج الأضواء قبل التوصل إلى اتفاق نهائي.

احسّ ماكس شتراوس ان شيئاً ما يجري في الخفاء، فاتصل بي من ميونخ ليقول انه في صدد ترتيب لقاء بين الرئيس الجميل وقداسة البابا. اجبت ان اجتماعاً كهذا لن يكون مجدياً الا بعد التوصل إلى اتفاق مع الرئيس الاسد. واضفت اننا نجتاز الآن مرحلة تفاوضية دقيقة لا نريد لاحد ان يتدخل فيها، فدعنا نؤجل هذا الموعد. لم يبدِ شتراوس الذي بان عليه الغيظ، تجاوباً. ولذلك، اتصلت فوراً بسفيرنا في الڤاتيكان غازي شدياق وطلبت منه ان يحول دون ادراج هذا الموعد مع البابا الا بعد اجتماع الرئيسين الجميل والاسد. اطلعت الرئيس على ما فعلت فكان موافقاً. ذلك ان اجتماعاً مع البابا في هذه المرحلة من شأنه ان يثير الشبهات، ويتناقض مع المهمة التي يقوم بها التاجر.

استُدعي الداودي إلى دمشق لاطلاعه على تفاصيل المناقشات التي كانت ستدور بيننا. وبدا واضحاً ان ثمة مسافة تفصله عن سير الازمة اللبنانية، ولذلك

كان يحتاج إلى مزيد من الوقت ليضع نفسه في الاجواء المطلوبة. واثناء مشاوراته في دمشق، استقر الرأي على وجوب عقد الاجتماعات في العاصمة السورية. وقد ابلغ الاسد التاجر عن تغيير مكان الاجتماع، ولذلك طلب من وزير خارجيته فاروق الشرع، ورئيس جهاز المخابرات في لبنان العميد غازي كنعان، تمثيله في الاجتماع المذكور. وبناء عليه، كلفني الجميل، أنا ورئيس المكتب الثاني سيمون قسيس، تمثيله. وضم الوفد السوري بالاضافة الى مدير عام وزارة الخارجية السفير وليد معلم الذي انيطت به مهمة تدوين الملاحظات، كما انيطت بالدكتور نقولا نصر (احد مساعدي الرئيس) مهمة مماثلة في الجانب اللبناني.

في الثالث من كانون الثاني/يناير ١٩٨٧، اتصل العميد كنعان بالعقيد قسيس ليخبره ان المفاوضات المقترحة ستبدأ يوم الاثنين في الخامس منه في مكتب الوزير الشرع.

مفاوضات سالم ـ الشرع

بسبب رداءة الطقس، كانت رحلتنا إلى دمشق بالطوافة عن طريق طرابلس، حمص ـ دمشق، ولدى وصولنا، نُقل الوفد اللبناني إلى فندق ميريديان. وفي جناحي، كان في انتظاري زجاجة وسكي من نوع دمبل، وطبق من المكسرات وسلة من الفاكهة. لقد كانت بداية مشجعة: فانا اتذوق الويسكي، وأستحسن المكسرات، وأكثر من أكل الفاكهة.

ونزولاً عند رغبة الرئيس الجميل، كان هاني سلام قد عين، في وقت سابق، موفداً رئاسياً ينقل آراء الجميل الى دمشق. فقد اراد الاسد لبنانياً مقبولاً من دمشق وبيروت للاضطلاع بهذا الدور، وبدا ان هاني سلام كان مناسباً لهذا الدور في تلك المرحلة. وفور وصولنا إلى الفندق، اتصل بي الشرع مرحباً ودعانا إلى الاجتماع في مكتبه في وزارة الخارجية التي كنت أتردد إليها سابقاً في مباحثاتي مع الوزير عبد الحليم خدام.

وجدتُ الوزير الشرع دبلوماسياً ماهراً دمث الاخلاق، استقبلني بابتسامة

عريضة، وتقدم نحوي وهو لا يدري: هل يجدر به ان يرحب بي بتقبيل الوجنتين، كما يفعل العرب عادة ام لا؟ من جهتي، سهلت عليه الامر، ومددت يدي للمصافحة بحرارة، مؤثراً، كعادتي، الاحجام عن التقبيل والمعانقة. اما قسيس وكنعان، فقد عانق احدهما الآخر بحرارة. اوصى الشرع باحضار الشاي ثم القهوة وقدم لي سيغاراً فوجدتها بداية خيِّرة.

افتتح الشرع حديثه بالقول: ان القيادة السورية اناطت به وبالعميد كنعان مسؤولية التفاوض عن الجانب السوري، وان دور الجانب السوري هو دور الوسيط بيننا وبين المعارضة، وانها ترحب بي وبالعقيد قسيس كمفاوضين نمثل الرئيس الجميل. ثم عرضت، في مداخلة طويلة، فلسفة لبنان السياسية، وموقعه الفريد في العالم العربي، وشخصيته العربية، وعلاقاته بسوريا، واصراره على الاستقلال والسيادة. وعبر الشرع عن مهمته بالقول انه يضطلع بدور توافقي، وبالتالي فانه سينقل إلينا موقف المعارضة، لننقله، بدورنا، إلى الرئيس الجميل.

وفي وقت لاحق، قمت انا وسلام، بزيارة نائب الرئيس خدام الذي قال انه سيتابع المفاوضات اللبنانية ـ السورية، لا سيّما وأن الشرع سيتولى اطلاعه، اولاً بأول، على مستجَداتها. وكان خدام مرحاً كعادته، جاداً صريحاً يبعث بالرسالة تلو الاخرى. استقبلني، وقتئذ، بالسؤال التالي: «كيف حالْ بيت حماك»؟ وهو يعني الاميركيين، مشيراً إلى زوجتي الاميركية المولد. ثم رحب بسلام مخاطباً اياه بـ«موفد الجميل» وتساءل: لماذا لم يهتد الرئيس فيأخذ طريق الشام، كما اهتدى إيلي حبيقة؟

قال خدام: «انظر إلى ذلك الشاب، مشيراً إلى الرئيس السابق للقوات اللبنانية. كان الحريري اول مسلم التقاه ايلي حبيقة في حياته، وكنت انا ثانيهما. قضى كل حياته بين الموارنة، ولكنه وجد ضالته اخيراً، ولديه حس عميق بالتاريخ ويتفهم الهوية العربية». فسألته أنا «ما هي الهوية التي يؤثرها الرئيس الجميل، اهي الهوية الاسرائيلية»؟ اجاب خدام، هل تريد كعادتك خلق المشاكل؟ ثم انتقل، بمهارة، إلى موضوع آخر. عدت إلى بيروت في اعقاب الجولة الاولى من المفاوضات لاطلع

الرئيس على اجوائها. وفي تلك الاثناء، توجه سلام إلى الخليج ليضع رؤساء دولها في اجواء المفاوضات الدائرة.

وقبيل بدء جولة المفاوضات الثانية، اجتمعت مع نبيه بري في مقر اقامته في دمشق لاتبين منه، على سبيل الانطباع، مطالبه حيال المفاوضات. كان بري يريد انتقال السلطة الاجرائية من رئيس الجمهورية إلى مجلس الوزراء، وان يجري انتخاب رئيس الحكومة من قبل المجلس النيابي.

وفي اجتماعات متعاقبة مع الشرع وكنعان، توصلنا إلى عدد من المبادئ الاساسية، صيغت في وثيقة أُطلق عليها اسم «الميثاق الوطني» مؤرخة في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٨٧، اعتبرها الشرع بداية ممتازة يجب ان تؤدي الى قمة بين الاسد والجميل. واتفقنا على ان يستشير كل منا اوساطه.

بادرت إلى القول: «فاروق، انني اضمن لكم دعم اوساطنا». اجاب: «وانا كذلك، سنستشير حلفاءنا المهمين فقط، والاّ لن تنتهي مهمتنا». كان حلفاء سوريا في لبنان كثيرين، بدءاً من الاحزاب السياسية والميليشيات، مروراً بالتجمعات السياسية والقادة الدينيين وغيرهم في طول البلاد وعرضها. وقد الحّ عليّ الشرع الا استشير احداً من المعارضة للحؤول دون مواقف سلبية قد يصعب على سوريا معالجتها في ما بعد.

نص «الميثاق الوطني» المقترح على المبادئ الاساسية التالية :هوية لبنان العربية؛ الغاء الطائفية السياسية تدريجيا من خلال هيئة يعينها البرلمان ويرأسها رئيس الجمهورية؛ اناطة السلطة التنفيذية بمجلس الوزراء الذي يرأسه رئيس الجمهورية من دون ان يكون له حق التصويت؛ يختار رئيس الجمهورية رئيس الحكومة بناء على استشارات نيابية ملزمة، او ينتخب من قبل المجلس النيابي؛ توزيع المقاعد النيابية مناصفة بين المسيحيين والمسلمين؛ تأسيس مجالس جديدة؛ اعادة تأهيل الجيش وقوى الامن؛ انهاء الحرب بمساعدة الجيش السوري وبطلب من رئيس الجمهورية، ويتولى الجيش اللبناني الاشراف على وقف اطلاق النار، وحل الميليشيات، وجمع السلاح، واعادة المهجرين.

وبعد اتفاقنا على مختلف بنود «الميثاق الوطني»، اجتمعت إلى القاصد الرسولي انجلوني والبطريرك الماروني صفير لاطلعهما على التفاصيل. لقد قرأت الوثيقة في حضورهما وناقشتها بنداً بنداً من دون ان اسلمهما نسخاً عنها. وافق انجيلوني على النص من غير تردد وعلق قائلاً: «انها وثيقة ممتازة»، ثم هنأنا قائلاً ان الموارنة سيرتكبون خطأ كبيراً، اذا رفضوها، وقال إن البند المتعلق بالمشاركة يمكن تقويته لصالح المعارضة.

وكان البطريرك مسروراً ايضاً بالنص، الا انه عندما قرأ البند المتعلق بصلاحيات رئيس الجمهورية، قال مندهشاً: «ما هذا، الا يحق للرئيس ان يصوت»؟ اجبت ان التصويت ليس مهماً وحسب علمي لم يصوت مجلس الوزراء مرة واحدة منذ الاستقلال لانه يعتمد على الاجماع، وبامكان الرئيس ان يكون ذا تأثير فاعل مادام يترأس مجلس الوزراء. ثم قال: لا بأس، لقد اخذوا حقنا في التصويت، ولكننا لا نزال نترأس جلسات مجلس الوزراء. قلت ان على المرء ان يفعل شيئاً ما ليتكيف مع المتغيرات. وبعد ان انتهينا من مناقشة الوثيقة، قال البطريرك: ليبارككم الله، امضوا قدماً في مهمتكم، وارجو ان يثمر هذا الاتفاق.

وكنت قد ناقشت الوثيقة، ايضاً، مع كميل شمعون والمطران الياس عودة، كلّ على حدة، فوجداها وثيقة جيدة.

في تلك الاثناء، كان الرئيس الجميل يتبادل الآراء مع العماد ميشال عون والدكتور سمير جعجع حول الوثيقة، وقرأ بنودها أمام العماد عون، في حضوري، فوجدها مرضية. وعلمت من الرئيس، ان جعجع ابدى ارتياحه للوثيقة مع بعض التحفظ على بند الهوية، وبحلول الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير كنا قد اكملنا استشاراتنا حول الوثيقة، وكنا نتطلع إلى فتح صفحة جديدة من العلاقات بين الجميل والاسد، وكانت انظارنا متجهة إلى المؤتمر الاسلامي الذي سيعقد في الكويت لاتخاذ مبادرة على هذا الصعيد. وبالفعل، اجتمع الاسد والجميل في الكويت لكسر حائط الجليد بينهما، من دون ان يتطرقا إلى تفاصيل الوثيقة.

في الخامس من شباط/فبراير، استؤنفت المباحثات في دمشق ووجدتُ الشرع

في مزاج معكّر. أطْلعت الشرع على مشاوراتي الواسعة التي اجريتها حول الوثيقة، ونقلت اليه موافقة الرئيس وقادة المنطقة الشرقية على نص الوثيقة دون أي تعديل.

أجاب الشرع بأنه قد تسلم ردوداً مكتوبة من كل الاحزاب اللبنانية وأنه بحاجة إلى كومبيوتر لجوجلتها والخلوص منها إلى قواسم مشتركة. وسلمني ما جوجله منها.

اما الوثيقة التي سلمني إياها، والمؤرخة في ٦ شباط/فبراير ١٩٨٧، فإنها تختلف كلياً، عن الميثاق الذي كنا تواقفنا عليه والمؤرخ في ٢٢ كانون الثاني/يناير، وألحّ علي أن أعود بها إلى بيروت واجري مشاورات على أساسها. واضاف ان هذه الوثيقة الجديدة قد اشتملت على بعض المقترحات التي تسلمها من المعارضة، وان سوريا تمارس نفوذها على المعارضة لحملها على اتخاذ مواقف معتدلة، غير انها لا تستطيع ان تملي ارادتها عليها.

ولدى قراءتي للنص الجديد، تبين لي أننا عدنا إلى الاتفاق الثلاثي. فقد وضعت الوثيقة الجديدة تاريخاً محدداً لالغاء الطائفية، واعادت صياغة صلاحيات كل من رئيس الجمهورية والحكومة بما يضعف مركزية السلطة، كما طرأ تغيُّر على النقاط المتعلقة بتوزيع مقاعد المجلس النيابي بين مختلف الطوائف، على نحو لا يتفق مع المعادلة التي اتفقنا عليها في الوثيقة المؤرخة في ٢٢ كانون الثاني/يناير، فضلاً عن ان الصياغة التي تناولت البند المتعلق بالجيش اللبناني لم تكن مقبولة. وادركت، كذلك، انه ما لم يتفق الاسد والجميل على مبادئ اساسية جديدة يتوليان فرضها على الاطراف المعنية، فان مباحثات دمشق لن تنتهي. قلت للشرع: لا بد من وضع حدود معينة نتوقف عندها، فاعتماد المشاورات المفتوحة مع كل التجمعات - خصوصاً وان بعضها يرغب في الاتفاق وبعضها الآخر لا يرغب ابداً، وبعضها مهم وبعضها غير مهم على الإطلاق - من شأنه ان يجعل المباحثات غاية في نفسها ولا تؤدي الى نهاية مرضية. وهكذا سنجد اننا قد انزلقنا إلى المأزق الذي تعرّض له البطل في مسرحية «بانتظار غودو». هل تريدنا ان ننتظر «غودو» ونحن نعلم أنه لا «غودو» هناك، ولا امل أبداً من مجيئه؟

طلبت من الشرع ان يُبقي وثيقة السادس من شباط/فبراير طي الكتمان، حتى لا يصاب من وافق على وثيقة ٢٢ كانون الثاني/يناير بالاحباط. ووعدني بأنه سيفعل ذلك، وتعهدت انا ان ابقيها سرية وعندما سلمت النص الجديد للرئيس بدا عليه الاحباط وردّد ما كان يقوله الرئيس كرامي في الأزمات: «لا حول ولا...»

في الحادي عشر من شباط/فبراير، أعدتُ مناقشة وثيقة السادس منه مع الشرع، مبيناً ما بها من اشكالات. قال الشرع مجدداً انها عبارة عن جوجلة لمختلف الآراء السياسية داخل المعارضة، ولا علاقة لسوريا بمحتوياتها. واقترح علي بأن اناقش واياه البنود الواردة في الوثيقتين، بغية التوصل إلى صيغة توحد بينهما. كنا، وقتئذ، مصرين على مواصلة حوارنا مع دمشق، فاحلال السلام على الارض، لم يكن ممكناً من دون تدخلها المباشر. في ذلك الوقت كانت الدولة ضعيفة، والميليشيات قوية، وكانت سوريا وحدها قادرة على تمكين الدولة من تسلُّم زمام الامور. وفي شتاء ١٩٨٧، تعاظمت حدة الاقتتال، خصوصاً بين حليفي الأمس حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي، اذ سعى كل منهما إلى السيطرة على بيروت. وكانت نتيجة اشتباكهما مصرع اكثر من مائتي شخص، وتصاعد حالة الفلتان في العاصمة. وعندما استفحل الامر، التمس قادة السنة، الذين تخوفوا من سيطرة شيعية درزية على بيروت، مساعدة دمشق لاستعادة الأمن في العاصمة وتخليص بيروت من كماشة الميليشيات.

في العشرين من شباط/فبراير، استجابت سوريا لهذه المناشدة، فأعادت قواتها إلى العاصمة للمرة الأولى بعد ان غادرتها سنة ١٩٨٢. وقد اخبرني العماد عون ان هذه القوات، ومعظمها من الوحدات الخاصة، تتكون من حوالي ١٢ ألف جندي و١٠٠ دبابة و٩٠ قطعة مدفعية، وقدّر انها كافية لاحكام السيطرة على بيروت، ولكنها ليست كافية لاقتحام المنطقة الشرقية كما كان يتخوف البعض، وبالاخص العماد عون.

راوحت ردات الفعل ازاء هذا التدخل واختلفت، فقد ايدته اسرائيل ظناً منها انه قد يضعف منظمة التحرير الفلسطينية ويستوعبها. يضاف إلى ذلك أن اسرائيل

كانت تريد لسوريا ان تتورط في «المستنقع اللبناني» وتضعف. وكان تأييد اسرائيل مشروطاً بأن لا تُدخِل سوريا صواريخ أرض - جو. وعلى نحو مماثل، ابدت الولايات المتحدة ارتياحها لهذه الخطوة، آملة ان تتمكن سوريا من السيطرة على حزب الله. وكالعادة، ادلى الاميركيون بتصريحات تؤكد دعمهم لوحدة لبنان وسيادته واستقلاله.

أما الاتحاد السوڤياتي، فلم يكن مرتاحاً للتدخل السوري، خصوصاً وانه يضعف حلفاء موسكو الاساسيين في لبنان، ومنهم منظمة التحرير، والحزب التقدمي الاشتراكي، والحزب الشيوعي اللبناني. ونتيجةً لذلك نقل وفد سوڤياتي رسالة شديدة اللهجة إلى دمشق. وقد اخبرني السيد خدام، في ما بعد، انه قال للوفد السوڤياتي: «لو تسلمنا رسالة كهذه من الولايات المتحدة، لكنا قطعنا علاقاتنا الدبلوماسية معها، غير اننا نعتبر الاتحاد السوفياتي حليفاً لنا، ولن نقطع علاقاتنا معه، ولكننا نرفض موقفكم جملة وتفصيلاً». وفي الاغلب، فان الولايات المتحدة واسرائيل أيدتا الانتشار السوري في بيروت لانه يحد من النفوذ السوفياتي فيها. وقد ابلغني السفير الاميركي، لاحقاً، ان الولايات المتحدة واسرائيل لم يطلعا على الخطوة السورية.

اجرى الرئيس الجميل مشاورات مكثفة مع القيادات المسيحية حول التدخل السوري في بيروت. وأشار عليه الرئيس كميل شمعون بأن يصدر بياناً يعلن فيه ان الانتشار جرى دون تأييد من الشرعية الدستورية، اذ لا يحق، في رأيه، لرئيس الوزراء كرامي أو للدكتور سليم الحص، أو أي زعيم لبناني، ان يطلب تدخلا اجنبياً من لبنان. واضاف ان مجلس الوزراء وحده يمتلك هذا الحق، وربما يحتاج ايضاً إلى موافقة المجلس النيابي.

وقد أوصى الرئيس السابق شارل حلو بأن يصدر الجميل تصريحاً رسمياً يؤكد فيه ان الانتشار السوري قد جرى من دون علم رئيس الجمهورية، فهو، لذلك، لا يتمتع بالشرعية الدستورية، على ان يدين البيان، في الوقت نفسه، الفوضى السائدة في الشطر الغربي من بيروت، ويبدي تعاطفاً مع سكانه. كان موقفي اقرب

إلى الرئيس حلو منه إلى الرئيس شمعون، فاذا لم يكن باستطاعتنا تأمين الاستقرار في بيروت، فالأجدر بنا ان نرحب بالسوريين عوضاً عن أن نعرض العاصمة للفوضى والدمار.

اعدت مجموعة صغيرة من المستشارين مسودة بيان وفقاً لاقتراح الرئيس حلو، وكنت، أنا، قد اشرفت على صياغته. ولما قرأ البيان أحد المستشارين، ألحّ أحد الحضور يريد أن يعرف: هل أنا مؤيد للرئيس الجميل أم عدو له؟ لم يكن مني الا ان اجبت قائلاً: سيدي الرئيس، أنا أؤيد لبنان، وأطلب منك ان تتبع الاستراتيجية التالية: عليك ان توطد علاقتك مع سوريا، وان تحاول جعل الرئيس الاسد حليفاً لك؛ مع علمنا انه قد لا يقبل بذلك. غير أن عليك محاولة ذلك في سبيل مصلحة لبنان. وحتى يتمكن لبنان من استعادة استقلاله، عليه ان يعمل جنباً إلى جنب مع سوريا. ان لبنان عاجز عن حل الميليشيات دون المساعدة السورية. وفي المقابل، علينا ان نهدئ من مخاوف سوريا حيال لبنان، وإلا فانها لن تثق بنا ولن تتعاون معنا. ان استقلال لبنان لا يتحقق الا بأيدي اللبنانيين، ولكن على اللبنانيين، اولاً، ان يتحدوا في ما بينهم، وان يتوحدوا حول هدف وطني مقبول للجميع؛ ولكن قبل ان نتمكن من الوصول إلى هذا الوضع، وبينما نكون في سعينا إليه، يتوجب علينا ان نتعاون مع سوريا، وان نضع نصب اعيننا ان هذه حقائق ليس بوسعنا التغافل عنها». وبعد نقاش طويل، اصدر بياناً مخففاً، مكتفياً بتسجيل موقف، دون اللجوء إلى التحدي او التصعيد. وقتئذ، لم يكن الجيش اللبناني في وضع يستطيع معه الحد من الفلتان الحاصل. وفي هذه الحال لم يكن في وسع الرئيس ان يدين القوات السورية، التي كانت على وشك دخول المدينة لاحلال الهدوء فيها، خصوصاً وانها تلقت مناشدة بالتدخل من رئيس الوزراء ومسؤولين آخرين من السنة تعتبرهم دمشق ذوي شرعية كافية لتغطية تدخلها. وكان من نتيجة الاقتتال في بيروت ان تعثرت مفاوضاتي مع الشرع وتأجلت مراراً.

أما هاني سلام، الذي لم يكن ملماً بالضغوط التي يتعرض لها الرئيس يومياً، فقد حاول، من جهته، ان يضغط على الرئيس حتى يواصل حواره مع سوريا. ورد

الرئيس بمحاضرة طويلة على النحو التالي: هاني بك، يا صديقي، انا لست الهاً، انا من لحم ودم. ماذا باستطاعتي ان افعل اكثر من ذلك؟ السوريون دائماً ضدّي. لقد أوفدت إيلي للتحدث معهم، فلم يكن منهم إلا ان دخلوا بيروت من دون ان يطلعوني على نواياهم لا مباشرةً، ولا بطريقة غير مباشرة. طلبوا مني رسالة، فاستجبت ايضاً. وفي المقابل لم اتسلم منهم شيئاً، ولا حتى قصاصة ورق موقعة. وكلما اعطيتهم ما يريدون، خسرت مزيداً من شعبيتي في طائفتي. وهم دائماً يطلبون مني اشياء تجاوز قدرتي. يا هاني بك انهم يجننوني. لقد طلب مني ايلي ان اصبر، فليجلس مكاني ليرى كم يتمكن ان يصبر هو. ماذا حصلت منهم منذ تشرين الماضي؟ لا شيء باستثناء هذه المفاوضات الدائرة في حلقة مفرغة بين سالم والشرع. انني آسف لعصبيتي، ولكن عليك ان تدرك الصعاب التي يواجهها رئيسك.»

ورغم التحفظ الذي أبداه الرئيس، حيال الموقف السوري، فقد ظلَّ مصراً على أن يوثق علاقاته بالاسد. وكان الملك حسين قد اتصل به ليخبره ان الاسد ابدى استعداداً للاجتماع به، واقترح عليه ان يبادر إلى الاتصال بالاسد. استجاب الرئيس واتصل بدمشق مباشرة، بعد ان اقفل سماعة الهاتف مع الملك حسين، ولكن من دون جدوى. ثم اعاد الكرّة مرة اخيرة، وطال انتظاره عشر دقائق قبل ان يضع السماعة مجدداً. كانت هذه الصدمة مؤلمة له ولي.

نظر إليَّ بحزن وسأل: «كيف تراني اتصرف وانت تحثني دائماً على تخطي كل الصعاب من اجل لبنان»؟ اجبت: «بشكل ممتاز، ممتاز جداً.»

في تلك الاثناء كان المسيحيون منقسمين حول الاصلاحات: منهم من ارتأى ان الوقت مناسب للاصلاح، ومنهم من فضل الانتظار لتغير الاجواء الاقليمية. وكانت القوات اللبنانية مع التريث. واقترحت علينا القوات اللبنانية ان نستكمل مناقشاتنا في دمشق، مشيرةً إلى اننا لن نتوصل إلى نتيجة، مادامت سوريا ليست مستعدة، في نظرهم، للتوصل إلى تسوية الآن. وكان الرئيس يعتبر الاصلاحات شيئاً مهماً ولكن لم يعتبرها جوهر الازمة اللبنانية. وكان يردد «انه يمكن تسوية مسألة

الاصلاحات خلال نصف ساعة بيني وبين الرئيس الاسد، بعد ان نتوصل إلى اتفاق حول الأمور الكبرى». ومن جهتي كنت أعتبر الاصلاحات هي الوسيلة لتسوية القضايا الاخرى مثل: هل ستنسحب اسرائيل؟ هل ستنسحب سوريا؟ هل ستعيد منظمة التحرير نشاطها العسكري في لبنان مجدداً؟ هل يدفع لبنان ثمن التسوية في الشرق الاوسط؟ هل ستنتهي الحرب الداخلية؟ وقد اخذ عدد من القيادات المارونية تتساءل عما سيحصل عليه المسيحيون مقابل تنازلاتهم؟ هل سيحصلون على الهدوء والاستقرار؟ وكنت انا اكره الحلقة المفرغة، وأؤمن أنَّ الاصلاحات مفيدة في حد ذاتها، مفيدة لأنها محقة ومستحقة.

تلك كانت الاجواءعندما قابلت الشرع يوم الخميس في الخامس من آذار/مارس افتتحت تلك الجلسة بالقاء اللوم على سوريا، لعدم اطلاعنا على قرار دخولها بيروت. اجاب الشرع: ان رئيس المجلس النيابي حسين الحسيني كان قد تحدث إلى غسان تويني في باريس، وأن تويني قد اتصل بالرئيس الجميل لاخذ موافقته. قلت لفاروق: ان هذه المعلومات جديدة علي، ولن اتحرى فيها اكثر من ذلك، ولندخل في صلب الموضوع.

سلمت الشرع وثيقة مؤرخة في الثاني من آذار/مارس، تضمنت التعديلات التي ادخلناها على النص المقدم من قبل المعارضة، والمؤرخ في ٦ شباط/فبراير. لم يكن الشرع على عجلة من بحث هذه النقاط. لقد وضع ورقتنا جانباً وقال لي: «يا دكتور ايلي، على الرئيس الجميل ان يحتوي القوات اللبنانية، ويثبت قدرته على تنفيذ اي اتفاق نتوصل إليه». وكنت قد لاحظت ان السوريين نقلوا اهتمامهم من وثيقة الاصلاح نفسها إلى مناقشة قدرة الرئيس في تطبيق الوثيقة. ومنذ تلك اللحظة، كان علي أن اناقش اراءنا حول الاصلاح، وايضاً قدرة الرئيس على السيطرة على المنطقة الشرقية. إن موضوع الاصلاح اعرفه جيداً، أما موضوع سيطرة الرئيس على القوات اللبنانية، فهذا موضوع لا اعرف عنه الكثير. ولا شك ان العميد كنعان كان يعرف الكثير من خلال جهاز مخابراته.

كان موقفنا، حول الاصلاح، موقفاً قوياً ومرناً، ويتمتع بالمصداقية في اطار

التركيبة اللبنانية المعقدة فالمسلمون يريدون صلاحيات أوسع، وهم على حق. والمسيحيون قلقون على مصيرهم اذا تنازلوا كثيرا. وكانت استراتيجية المسيحيين دفاعية، تدور، في مجملها، حول المحافظة على ما في حوزتهم، وتقليل الخسائر: ففرنسا لم تعد تضطلع بدور الوصاية كما في الماضي، والولايات المتحدة لم تتفهم، يوماً، الموارنة او تقدر نظرتهم إلى العالم. وأوروبا منشغلة بمصالحها السياسية والاقتصادية وعلاقاتها الوثيقة بالعالم العربي - الاسلامي. وعلى المستوى الديموغرافي، لم يَعُد المسيحيون يشكلون اكثرية عددية كما كانت الحال في الثلاثينات. وعلى المستوى السياسي، أصبحت كفة المسلمين راجحة بسبب بروز الدور السوري في لبنان. وعلى الرغم من كوني ممثلاً للرئيس، فقد كنت، في الوقت نفسه، اتعاطف مع المعارضة بالنسبة للاصلاح. وكنت في اجتماعاتي الخاصة بالرئيس أدلي بآرائي حول كل بنود الاصلاح وقد وجدته اكثر انفتاحاً على الاصلاح من معظم قيادات الطائفة المارونية. والحق يقال، كان، بشكل عام، يتفق مع توجهاتي الإصلاحية. غير انه كان حذراً. فقد أراد ان تكون الاصلاحات جزءاً من اتفاق شامل ينهي الحرب ويضع لبنان على الطريق السليم.

إن موقفنا من الاصلاحات في ذلك الوقت يمكن ان يوجز كما يلي: لقد وافقنا موافقة تامة على هوية لبنان العربية كما اقرّت في مؤتمر الحوار الوطني في جنيف؟ وتبنينا ان لبنان وطن نهائي وجد ليبقى دولة موحدة غير قابلة للشرذمة، او الانضمام إلى الآخرين؟ اصرّينا على وجوب ازالة الطائفية السياسية تدريجياً بما لا يجعل أي اقلية عرضة للخطر، واقترحنا، على هذا الصعيد، خطة تنص على الالغاء التدريجي قَبِلَتْها المعارضة على مضض. وبعدما تمت الموافقة على موقفنا من الغاء الطائفية، قال العميد كنعان إنه واثق من ان أعضاء الهيئة المقترحة لإلغاء الطائفية السياسية سيقضون نَحْبهم قبل ان تُلغى الطائفية. وقال الوزير الشرع: «حسنا»، لقد قبلنا وجهة نظرك، ولكنني أريدك أن تدون في مفكرتك ان الطائفية السياسية لن تلغى في لبنان وفقاً لخطتك»، فأجبته :إذن، فأنا حظي قليل: لأني لن أتمكن من أن أصبح رئيساً للجمهورية! فردّد الوزير وهو يبتسم: «ولا حتى أولادك». اتفقنا،

كذلك، على مسألة توزيع الصلاحيات بعد مناقشات مستفيضة. ولم يكن اتفاقنا كليا على من سيترأس مجلس الوزراء، واتفقنا على أن يجري اختيار رئيس الحكومة من قبل رئيس الجمهورية بعد اجراء استشارات ملزمة مع أعضاء المجلس النيابي. وقد أصررتُ على وجوب تمتين السلطة المركزية والابقاء على رئيس قوي يتمكن من ضبط الفوضى في البلاد. واتفقنا على ان يتوزع المسلمون والمسيحيون بالتساوي مقاعد المجلس النيابي والحقائب الحكومية ومناصب الفئة الأولى، مدنياً وعسكرياً وامنياً وقضائياً، وألْحَحْت بأن يشرف مجلس الوزراء على توزيع الوظائف التي دون الفئة الأولى: للتأكد من صحة التمثيل على أساس عادل. ولم نناقش العلاقات المميزة مادامت الوثيقة التي تقدمنا بها، والمؤرخة في ٦ شباط/فبراير ١٩٨٦، قد اعتبرت كافية. غير اننا ناقشنا عدداً من الافكار العامة، ولم نتفق على بعض منها، خصوصاً وأن السوريين يستعملون لغة عقائدية مثل، «العلاقات الاستراتيجية» «والمصير المشترك»، ولم نقبل بها نظراً لافتقارها إلى ضوابط محددة. ولكنا اتفقنا على ان «الاعتبارات الجغرافية والتاريخية تستوجب اقامة علاقات مميزة بين لبنان وسوريا، والتوقيع على معاهدات بين البلدين في شتى المجالات».

واتفقنا، كذلك، على الحاجة الى دعم اللامركزية الادارية، وانشاء المحكمة العليا لمحاكمة الرؤساء والوزراء، والمحكمة الدستورية لمناقشة القوانين، ومجلس اقتصادي واجتماعي لدفع عجلة التنمية. وساد بيننا تفاهم حول التعليم والاعلام والجيش وقوى الامن، وظهرت لغة مغايرة تماماً للغة التي صيغ بها الاتفاق الثلاثي.

وعندما أُطْلعت البطريرك صفير على النقاط التي اتفقنا عليها في دمشق، كان متجاوباً، وعبّر عن موقفه كما يلي: «لا يسعنا الموافقة على الغاء الطائفية السياسية، فالعالم العربي طائفي بمجمله. ولماذا الاصرار على تمييزنا؟ ان اهمية المسيحيين تكمن في كونهم قيمة لا عدداً، وبناء عليه، فان مبدأ المناصفة بين المسيحيين والمسلمين امر حيوي لنا. هناك قيمتان، المسيحية والاسلام اللتان ينبغي ان يتساويا بغض النظر عن العدد. ونحن نصر على ان يكون للرئاسة المارونية صلاحيات تكفي لمنح المسيحيين ضمانات في اوقات الازمات. وينبغي ان يكون للبنان جيشه المستقل

وان لا يكون جيش لبنان امتداداً لجيش دولة اخرى. نحن على استعداد أن نصبر وننتظر؟ فقد انتظرنا في الماضي وحافظنا على استقلالنا وان لم يجيء مكتملاً. سننتظر مجدداً. لقد خصنا الله بهذه الجبال والوديان، وهنا سنبقى».

في الرابع من ايار/مايو ١٩٨٧، قدم رئيس الحكومة رشيد كرامي استقالته، ونصح شمعون الرئيس الجميل بقبولها فوراً، لأنها فرصة لن تتكرر. ولكن شمعون قد حضر إلى القصر الرئاسي في اليوم التالي، واخبر الجميل انه قضى طيلة الليل وهو يفكر في استقالة كرامي، وطلب من الرئيس ان لا يقبل الاستقالة: لأن أيّ قائد سني لا يقبل أن يؤلف حكومة الآن. «وأضاف شمعون: لا شك أن استقالة كرامي تحظى بدعم سوريا، ولذلك سيتعذر على أي سني ان يقبل بمعاداة سوريا».

ثم جاءت تصريحات عبد الحليم خدام لتؤكد هذا الاتجاه، اذ قال ان على كرامي ان يبقى رئيساً للوزراء، وان أي اصلاحات لم توافق عليها حكومة برئاسة كرامي، فهي غير مقبولة. وأضاف، «اذا رحلت حكومة كرامي، فسيلحق به الجميل الذي سيكون آخر رئيس ماروني للبنان».

في التاسع من أيار/مايو، التقيت الشرع لاستكمال مباحثاتنا حول الاصلاحات. افتتحت الجلسة باثارة استقالة كرامي، فقلت ان من المحتمل ان يقبل الجميل استقالته، ثم يكلفه بتصريف الاعمال ريثما تشكل حكومة جديدة. ابدى الشرع دهشته في اثارتي هذا الموضوع، وقال: هذه قضية لبنانية داخلية، ثم التفت إلى العميد غازي كنعان وطلب رأيه.

أسهب العميد كنعان في الرد، وهو عادة يفضل الإصغاء على التحدث، فعرض جردة مطولة عن خيبات كرامي مع عدد من الساسة المسيحيين، وخصوصاً منهم القوات اللبنانية. وأشار إلى ان الجميل لم يحرك ساكناً لدعم حكومة كرامي لتسيطر على المنطقة الشرقية، وان سوريا لا يمكن ان تقبل الظاهرة الاسرائيلية المتمثلة بالقوات اللبنانية، أو ببعضها، او تقبل الاختراق الاسرائيلي بواسطة القوات الى الطوائف المسيحية، وان هذا الاختراق يشكل خطراً كبيراً على سوريا. واختتم قائلاً ان الجميل يبدو عاجزاً امام هذه الظاهرة، رغم نواياه الإصلاحية الصادقة. ومن

جهتي، بذلت أقصى ما في استطاعتي لاعادة الاعتبار إلى صورة الرئيس الجميل، وتهدئة مخاوفهم. ثم ابديت معارضة للطرح السائد بان القوات اللبنانية هي «ظاهرة اسرائيلية»، بالقول ان هؤلاء شبان لبنانيون تنتابهم مخاوف حول لبنان، وان بامكانهم ان يقدموا في المستقبل على تعاون وثيق مع سوريا. وأضفت ان على سوريا ان تنظر إلى الامور من زاوية هؤلاء، وان تمنحهم، والرئيس الجميل، وقتاً لحملهم على تبني التصور الذي طرحته انا في دمشق، كممثل لرئيس الجمهورية، والذي جرى التوافق عليه.

وفي اجتماع ١٤ أيار/مايو مع الشرع، كنت مصمماً على البقاء في دمشق حتى نتوصل إلى اتفاق نهائي. اخبرت الشرع ان لدي تفويضاً مطلقاً لمعالجة مختلف القضايا العالقة، على الرغم من قناعتي باننا اتفقنا على كل مسائل الاصلاح او كنا على وشك ان نفعل ذلك. ولم يغب عن الشرع انني كنت جاداً، فعلاً، في مسعاي هذه المرة، ولكن اكد لي مجدداً، انه ليس سوى وسيط، ولذلك يتحتم عليه دائما ان يتفاوض مع الاطراف المعنيين؟ حتى انه اقترح «توسيع دائرة المشاروات». رفضت هذه الفكرة في المطلق، لأنه لا بدّ للدائرة الموسعة أن تثير من جديد ما كنا اتفقنا عليه. وهكذا نقع في الدائرة المفرغة.

اخذت أشعر ان هناك شيئاً ما يحول دون التوصل إلى اتفاق. هل كان هذا يعني ان سوريا ترفض عقد اتفاق مع الجميل؟ هل تفضل عقد اتفاق مع رئيس جديد؟ هل سوريا غير مستعدة في الوقت الحاضر للتوصل إلى وثيقة تفرض عليها ان تتخذ موقفاً من كل اللاعبين على الساحة اللبنانية؟. أصبحت أشعر ان مباحثاتنا وصلت إلى طريق مسدود رغم أننا، بالفعل، اتفقنا على كل المبادئ الاصلاحية الاساسية.

واذا افترضنا ان مسألة الاصلاحات قد سويت، فقد اخذنا نواجه مسألة اخرى هي: من سينفذ هذه الاصلاحات. وبدا واضحاً ان السوريين والمعارضة لم يكونوا ليطمئنوا إلى الجميل، ولذلك كان الامل ضعيفاً في التوصل إلى اتفاق معه. ولو تقبلنا هذه الفرضية فماذا نفعل؟ فالرئيس باقٍ حتى ايلول/سبتمبر ١٩٨٨. ماذا يفعل؟ وازاء موقف دمشق، فكر الرئيس بالاستقالة، ثم وجدها خياراً صعباً وموقفاً

انهزامياً. وبدلاً من ذلك، ظل يخالجه أمل ولو ضعيف، وسط اجواء اليأس والخيبة، انه قد يتوصل إلى اتفاق ويخرج من الرئاسة كرجل الاصلاح.

في ٢١ ايار/مايو، ١٩٨٧، التأم المجلس النيابي والغى اتفاق القاهرة الموقع في سنة ١٩٦٩. وكثيراً ما خلق هذا الاتفاق اشكالات بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية: لقد كان الاتفاق يمنح منظمة التحرير شرعية الكفاح المسلح ضد اسرائيل انطلاقاً من مناطق محددة في لبنان. والحقيقة: أن هذا الاتفاق كان ميتاً منذ سنة ١٩٨٢. ولم يحضر النواب السنة تلك الجلسة لانقاذ ماء الوجه مع حلفائهم التقليديين في منظمة التحرير. كان هذا الالغاء انتصاراً شيعياً في الدرجة الأولى اعد له العدة رئيس المجلس السيد حسين الحسيني. وكان الشيعة الذين يقطنون جنوب لبنان اكثر المتضررين من المجابهة الفلسطينية الاسرائيلية.

جهود الحريري

بعد ان وصلت المحادثات اللبنانية السورية إلى النفق المسدود، اتصل بي رفيق الحريري عارضاً وساطة الملك فهد. التقيت الحريري في ٢٤ ايار/مايو بقبرص حيث اخبرني ان الملك فهد مستعد للتدخل، ومعالجة قضية الاصلاحات معنا، كان الحريري كعادته متفائلا واثقاً من نفسه ومن علاقة الملك فهد بالرئيس الاسد. وقد أعددت، بالتشاور معه، رسالة إلى الملك فهد، اطلعناه فيها على التقدم في مسار مفاوضات دمشق، والحاجة إلى ان تتكلل هذه المفاوضات بالنجاح.

في الاول من حزيران/يونيو ١٩٨٧، اغتيل رئيس الوزراء كرامي بقنبلة وضعت خلف مقعده، في طوافة عسكرية تقله من طرابلس إلى بيروت. ورغم الانفجار، تمكن قائد الطائرة من الهبوط بها في مطار حالات. وقد اتهمت المعارضة القوات اللبنانية والجيش اللبناني، بل اتهمت رئيس الجمهورية باغتيال كرامي. لقد اتهم الرئيس بتوفير غطاء للقوات اللبنانية وللجيش اللبناني لارتكاب الجريمة. وتولى الجيش والمجلس القضائي القيام باستقصاءات لم تؤد إلى اكتشاف هوية الفاعل. وكما في كل حالات الاغتيال السياسي في لبنان، ينكر الجميع المسؤولية، ويلقي اللوم على الشخص الثالث.

اقدم الرئيس الجميل، الذي تحرك بسرعة وبالتعاون مع القيادة السنية، على تعيين الدكتور سليم الحص رئيساً للوزراء بالوكالة ليضمن استمرارية العمل الحكومي بعد اغتيال الرئيس كرامي. لقد القى الاغتيال بثقله على مفاوضات دمشق، فجمد كل تحرك على صعيد الاصلاحات. وارسل الاسد برقية تعزية إلى عائلة كرامي وليس إلى الرئيس الجميل، في إشارة منه الى استبعاده اوادانته بمقتل رئيس الحكومة . وبعد فترة قصيرة تلقينا اشارة من دمشق بأن المفاوضات ستبقى مجمدة الى أن يكشف الجاني ويعاقب . اما الرئيس ، الذي كان حريصا على الابقاء على خطوط مفتوحة مع دمشق، فقد مارس ضغطا على العماد عون ليتخذ اجراءً مّا، حتى ولو أقدم على طرد عدد من المسؤولين في قيادة الطوافات العسكرية . لم يرضَ عون الاساءة الى سمعة الجيش بطرد أشخاص لم يعتبرهم مسؤولين عن الجريمة. وفي الحقيقة لم يكن عون مستعدا للتعاون مع الجميل لأنه كان يتطلع الى ما وراء الجميل، والى رئاسة الجمهورية. وكان يردد أنه لا يشك في أن عميلا أجنبيا دخل الطوافة اثناء توقفها في طرابلس ووضع المتفجرة فيها.

شعرنا أن مأساة اغتيال كرامي يجب الا تثنينا عن متابعة مفاوضات دمشق، فطلبت من الحريري الحضور الى لبنان للتحدث بشأن المبادرة السعودية حيال استكمال المفاوضات . سألني كيف احضر؟ فأجبت: سأرسل لك طوافة عسكرية. فأجاب بسرعة: «هل أنا مجنون؟» حسناً اجبته، سأحضر أنا بالطوافة إلى قبرص. وهكذا كان.

اجتمعت به على متن طائرته في لارنكا بقبرص في ٩ حزيران/يونيو، واتفقنا على خطة للتحرك. كانت الوساطة السعودية تنطوي على التحرك التالي: يبادر الملك فهد إلى الاتصال بالرئيس الاسد، ليقول له ان لديه اقتراحاً معقولاً يرغب في ان يطلعه عليه. ثم يعمد، بعد ذلك، إلى ايفاد الحريري الى سوريا كمبعوث شخصي له، ويكون في حوزته اتفاق شامل من قبل الرئيس الجميل نكون أنا والحريري قد وضعناه مع الرئيس. ويتضمن الاتفاق كل النقاط التي اتُفق عليها في مباحثات

دمشق، ويقوم الحريري بتسليمه إلى الاسد شخصياً. واقترحت ان يبقى الاتفاق والاجواء المحيطة به طي الكتمان، خوفاً من تعثر محتمل.

وقال الحريري: اذا وافق الرئيس على هذا التوجه، كان علينا (أنا والرئيس والحريري) ان نجتمع خارج لبنان. واقترحت ان نجتمع ثلاثتنا في طائرة الحريري منعاً من تسرب معلومات عن هذا اللقاء. بدا الحريري مطمئناً لهذا الاقتراح وتردد الجميل في قبوله. وبعد مناقشات مطولة، تمكنت من اقناعه بالاخذ بهذا الاقتراح والاجتماع الى الحريري في طائرته الخاصة.

في العاشر منه، استقلينا أنا والرئيس الجميل وحدنا، وبدون حرس، طوافة إلى قبرص حطت بنا بالقرب من طائرة الحريري في مطار لارنكا. ومنعاً لاثارة الشكوك، اقلعنا إلى سردينيا وعملنا بشكل متواصل من العاشرة صبيحة ذلك اليوم إلى الرابعة من فجر اليوم التالي، وبدا شيء من التوتر على مزاج الجميل والحريري، ولم يساعد ضجيج الطائرة المتواصل في تهدئة الاجواء. ادلى الحريري بمقترحات وادلينا بمقترحات، ثم استقر رأينا جميعاً على اتفاق جديد يقوم على محادثاتي في دمشق. وبما انه كان يفترض في الحريري ان يرفع الاتفاق إلى الاسد في ١٣ حزيران/يونيو، فقد اشرنا إليه باتفاق الثالث عشر من حزيران.(انظر الملحق).

في ١٣ حزيران/يونيو، اتصلت بالحريري لاستفسر عن موعده مع الرئيس الاسد، فأجاب انه طلب تحديد موعد وينتظر رداً على ذلك. ومن جهتي، اخذت تساورني الهواجس، وكان علي ان انتظر قدوم ١٨ حزيران/يونيو لالتقي الحريري مجدداً في قبرص، واستطلع منه المستجدات. اخبرني الحريري انه اجتمع مع عبد الحليم خدام الذي قال ان الاسد كان خارج المدينة ولن يتمكن من استقباله.

وفي كل الاحوال، كان خدام مخولاً استقبال الحريري كموفد من قبل الملك فهد. ولم يفت نائب الرئيس السوري ان يخبر الحريري انه علم برحلة الجميل إلى سردينيا وبالمقترحات التي يحملها الحريري.

اجاب الحريري ان معلومات السعوديين تفيد ان محادثات سالم ـ الشرع ادت

إلى اتفاق على كل النقاط المطروحة، باستثناء بعض التفاصيل حول توزيع الصلاحيات، ثم أطلعه على المقترحات الواردة في وثيقة ١٣ حزيران/يونيو بتوزيع الصلاحيات على الشكل التالي: يضطلع مجلس الوزراء في لبنان بمهام السلطة التنفيذية، ويتخذ لاجتماعاته مقراً مستقلا، ويتفق رئيسا الجمهورية والحكومة في ما بينهما على الكيفية التي يترأس بموجبها كل منهما مجلس الوزراء، مما يستوجب منهما كليهما ضرورة ان يجتمعا لمناقشة جدول أعمال مجلس الوزراء. واذا ما شعر رئيس الجمهورية ان ثمة قضايا جوهرية تستدعي حضوره، فإنه يحضر. والا، فإن رئيس الحكومة، يترأس مجلس الوزراء.

اضاف الحريري ان لديه مزيداً من الآراء يدلي بها. غير ان التعليمات التي لديه تنص على وجوب ان يتقدم بمقترحاته شخصياً إلى الرئيس الاسد، ثم ينقل رد الرئيس الاسد إلى الملك فهد. وبناء عليه، فقد طلب خدام من الحريري ان يبقى في العاصمة السورية يوماً اضافياً قبل ان ينقل إليه رد الاسد الذي تضمن التالي: ان الرئيس الاسد يقدر رغبة الجميل في التعاون الوثيق معه، وانه لا يحمله مسؤولية الاحداث الاخيرة، وخصوصاً اغتيال كرامي. ويعتقد الاسد ان الاحداث الاخيرة موجهة ضد الرئيس الجميل كما هي موجهة ضد سوريا. واضاف انه يتوجب معالجة النفوذ الاسرائيلي في الشطر الشرقي من بيروت في الحال، مصراً على استعداده لوضع كل امكاناته بتصرف الجميل لازالة النفوذ الاسرائيلي في المنطقة المذكورة. ان اسرائيل تسعى الى شرذمة لبنان وايجاد دولة شبيهة بها في الشطر الشرقي. ولدى سوريا معلومات تفيد بان اسرائيل تعتبر كلا من الجميل وبري وجنبلاط عقبات تعرقل مخططاتها. وبناء عليه، فان الرئيس الاسد يخشى ان يكون الجميل ضحية اسرائيل المقبلة. ولذلك يجدر به ان يتحرك بسرعة. اراد الاسد معرفة رد الجميل على رسالته، وايضاً الاطلاع على الكيفية التي بها سيقوم بمعالجة الظاهرة الاسرائيلية، والنتائج التي يتوقعها والحاجة التي يريدها من سوريا.

ادرك الحريري ان هذا الرد لم يكن ما نسعى إليه، فقرر ان يجتمع بالاسد شخصياً حالما تسنح له الفرصة بذلك: بغية الحصول على اتفاق نهائي. قلت

للحريري ألاّ يتوقع من الجميل ضربة موجهة الى القوات اللبنانية: ذلك أنه، بغض النظر عن الفروقات بينهما، فالطرفان ينتميان إلى الطائفة ذاتها؟ وهو يهدف إلى استيعابهم سياسياً في اطار اتفاق يحدد العلاقات المميزة بين لبنان وسوريا.

اعلمت الحريري ان الرئيس يرغب في ان يجري التعامل مع القوات اللبنانية أسوة بسائر الميليشيات، ثم يجري استيعابهم سياسياً في حكومة جديدة تُشكل على قاعدة المبادئ التي اتفقنا عليها في وثيقة ١٣ حزيران/يونيو.

التقى الحريري الرئيس الاسد في ٢٧ منه، ونقل إليه ردنا. وبعد يومين، اجتمعت بالحريري في مدينة لارنكا، حيث افادني بأن مهمته لم تتكلل بالنجاح. لقد أراد الاسد من الجميل ان يحسم الوضع في المنطقة الشرقية، مؤكداً دعم سوريا له في هذا المجال. وقد ايقن الرئيس السوري أن اي اتفاق يعقد مع الجميل، في ظل النفوذ الاسرائيلي في المنطقة الشرقية، مصيره الفشل. واعتبر ان مسودة الاصلاحات التي نقلها الحريري اليه كانت مقبولة، غير انها لن توضع موضع التنفيذ قبل ان يتحرك الجميل ضد الظاهرة الاسرائيلية في منطقته. وقال الاسد: «ان محادثات سالم ـ الشرع حققت تقدماً كبيراً وكانت على وشك ان تكلل بالنجاح لولا اغتيال كرامي».

اشاد الاسد كذلك بالدور الذي يمكن للولايات المتحدة ان تضطلع به في لبنان، خصوصاً في ما يتعلق بالانسحاب الاسرائيلي، مبدياً استعداده للتعاون مع الولايات المتحدة من خلال السفير السعودي في واشنطن الامير بندر. وكنا قد علمنا ان الرئيس ريغن اخبر رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر، في قمة البندقية، ان واشنطن ترغب في تحسين علاقاتها بدمشق، ولم تعترض رئيسة بريطانيا على ذلك، الا انها تمنّت تأجيل الحوار الاميركي مع سوريا الى ما بعد الانتخابات البريطانية. وقد بعث ريغن برسالة الى الاسد يعبر فيها عن امتنانه من طرد ابو نضال من سوريا، مشيراً الى عدد من القضايا التي سيناقشها الموفد الاميركي الجنرال ڤيرنون والترز معه لدى زيارته الى دمشق. وقد تضمنت هذه القضايا: العلاقات الاميركية ـ السورية، الحرب العراقية ـ الايرانية، عملية السلام، ودور

ايران في لبنان عبر «حزب الله». في هذا السياق، اتصل الشرع بالقائم بالاعمال الاميركي في دمشق ليعلمه ان الرئيس الاسد مسرور برسالة ريغن، وانه يرحب بزيارة والترز.

لم افاجأ بغياب المسألة اللبنانية عن جدول اعمال المناقشات الاميركية ـ السورية، ورغبت إلى السفير الاميركي في بيروت جون كيلي ان يطلب من وزارة خارجية بلاده ادراج لبنان على جدول اعمال والترز. وفي الوقت نفسه، كتبت مسودة رسالة باسم الرئيس الجميل ليرسلها إلى الرئيس ريغن قبل وصول والترز إلى العاصمة السورية.

التقى والترز الاسد في ٥ تموز/يوليو ١٩٨٧. وفي السابع منه اطلعني كيلي على اجواء هذه الزيارة. لقد اكد المبعوث الاميركي على دعم الولايات المتحدة لسيادة لبنان واستقلاله مشدداً على وجوب تفعيل المؤسسات الحكومية في لبنان. واضاف والترز ان الولايات المتحدة تضغط على الرئيس الجميل حتى يلاحق مسألة اغتيال الرئيس كرامي. واشار الاسد الى والترز انه نصح الجميل بكيفية معالجة المشكلة، غير ان الجميل تجاهل النصيحة. والح والترز على الاسد لاستكمال مباحثات دمشق بين سالم والشرع بمعزل عن مسألة اغتيال الرئيس كرامي. واثناء وجود الموفد الاميركي في دمشق، اجتمعت ابريل غلاسبي مع الشرع وشجعته على مواصلة مباحثات دمشق. ويُذكر ان غلاسبي عملت في السفارة الاميركية في دمشق، وهي ملمة بالسياسة السورية. ولأنها مسؤولة رفيعة المستوى في قسم الشرق الادنى في وزارة الخارجية، فقد كان عليها ان تضطلع بدور مميز في جهودنا المستمرة للتوصل إلى اتفاق مع دمشق. وفي كل الاحوال، كان الموقف السوري صلباً ومعارضاً لمعاودة المباحثات قبل الكشف عن قتلة كرامي ومعاقبتهم.

ادركت منذ البداية ان محادثات دمشق ستضع الاسس التي ستبنى عليها التسوية النهائية. ولاحظت كذلك ان ما اتفقنا عليه، أنا والشرع في دمشق، كان يتطلب اجواء سياسية ملائمة ليوضع موضع التنفيذ. ذلك ان احلال السلام في لبنان كان يتطلب عدداً من الامور دفعة واحدة: اهتمام اقليمي مكثف ودعم دولي.

غير ان التوقيت لم يكن مناسباً لايجاد حل شامل لازمتنا. وهكذا وصلت محادثات دمشق إلى نهايتها المحتومة، ولكنها لم تفشل. فالنقاط التي جرى الاتفاق عليها وتجسدت في وثيقة ١٣ حزيران/يونيو،١٩٨٧ المرفقة في الملحق، هي بالاساس النقاط ذاتها التي تضمنتها وثيقة الوفاق الوطني التي تبناها مجلس النواب اللبناني رسمياً في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩ مع تعديلات قانونية كثيرة لم تغيِّر بالجوهر، وكنت قد بحثت كل هذه النقاط بشكل مستفيض مع الأخضر الابراهيمي قبل شهر من اجتماع الطائف.

الفصل العاشر

بين واشنطن ودمشق

بين ١٩٨٢ و ١٩٨٤، كانت ادارة الرئيس ريغن مهتمة جداً بالاوضاع اللبنانية. وحين عجزت عن تحقيق أهدافها في لبنان، انسحبت عسكرياً ودبلوماسياً، مفضلة، لأسباب اميركية داخلية، ان لا تظهر أمام الرأي العام الاميركي بمظهر الدولة المعنية بلبنان. لقد أرادت ان تجعل مسافة بينها وبين الازمة اللبنانية. وعن وضع واشنطن بين ١٩٨٤ و ١٩٨٧، عبّر روبرت أوكلي، أحد معاوني ريغن في البيت الأبيض، أفضل تعبير، حين قال: «نحن كالاسرائيليين، مرتبكون بالنسبة للبنان، الا اننا اكثر منهم ارتباكاً. نحن كدولة عظمى لدينا مشكلات كثيرة وليس لدينا من الوقت ما يكفي لتقديمه إلى لبنان. ونحن لذلك نعتمد كليا على كلي، سفير الولايات المتحدة في بيروت لينبهنا وينبئنا بحدوث شيء مهم او خطير في لبنان يستدعي اهتمامنا. نحن مرتبكون لكثرة الديانات، لكثرة الاحزاب، لكثرة الزعماء، وللتحالفات الكثيرة المتقلبة في بلادكم. كيف يمكن لاحد ان يفسر تعاون القوات اللبنانية مع منظمة التحرير الفلسطينية في الوقت الحاضر؟. نحن هنا في واشنطن لا نحب الامور المعقدة. نحن نفضل الحلول البسيطة للمشاكل البسيطة». فقلت لأوكلي بان المشاكل لا تنتهي بتجاهلها؛ ثم ان المشاكل لا تحلحل اذا تركناها على غاربها. لقد استطاعت إيران مؤخراً ان تحقق تقدما لها في لبنان؛ والاعمال الارهابية ضد المصالح الاميركية والاوروبية قد تتزايد. ومقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية عادوا إلى بيروت باعداد كبيرة؛ والميليشيات عززت قبضتها على بيروت، على المنطقة الشرقية، وعلى المناطق الاخرى. والفترة الممتدة بين ١٩٨٤ و ١٩٨٧ كانت فترة تقلبات كبيرة، فترة مؤتمرات حوار وطني وجهود كبيرة للتوصل إلى اتفاق حول الاصلاحات والعلاقات اللبنانية السورية في المستقبل. مؤتمرات الحوار فشلت، سوريا بذلت جهدها لتحقيق الإصلاح عبر الاتفاق الثلاثي، لكنها فشلت. وحاول الجميل ذلك بواسطة مناقشات دمشق بين سالم والشرع. ولكن المباحثات توقفت. وفي ربيع ١٩٨٧ اخذت سوريا توجه الاشارات للولايات المتحدة معربة عن استعدادها

للتعاون معها حول لبنان والمشاكل الاقليمية. ولكن واشنطن لم تكن متحمسة لدور مرئي في لبنان قد يؤدي إلى فشل واحراج. لقد احرق شولتز اصابعه مرة في لبنان ولم يكن على استعداد لإحراقها مرة ثانية.

ومع ان واشنطن تباعدت عن لبنان الا اننا، انا والسفير عبد الله بوحبيب، ابقينا علاقات متينة في البيت الابيض وفي وزارة الخارجية للافادة منها عند الحاجة في المستقبل، وبالاخص مع سوريا التي تملك اهم أوراق الأزمة اللبنانية.

وقد حافظت على علاقات وثيقة مع السفير ريجينالد بارثولوميو، ومع خلفه جون كلي. وعندما تتباعد واشنطن عن لبنان يكتسب سفيرها في بيروت اهمية كبرى بحيث يتحول، هو، إلى محور القرار الاميركي لا ناقله. لقد كانت التصريحات الصادرة عن واشنطن تعكس هذا التباعد. كانت روتينية بيروقراطية عامة لا ترتبط بالتطورات الجارية على الارض.

ولتقييم الوضع الاميركي بالنسبة للبنان والشرق الاوسط على شكل أفضل، وقبل العمل على استعادة اهتمام الولايات المتحدة بلبنان، طلب بوحبيب من الاستاذ عصام فارس ان يموّل ويستضيف ندوة صغيرة، من اختصاصيين في سياسة اميركا. وانعقدت الندوة في قصره في دوفيل بفرنسا. والتقى خبراء أميركيون رفيعو المستوى فارس وبوحبيب والتقوني أنا، في دوفيل، وقدموا لنا عرضاً كاملا عن سياسة ريغن آنذاك. وقالوا: إن اهتمام ريغن قد تحول، وبات جل تركيزه على الشؤون الداخلية. وكان شولتز يشعر بالقنوط بالنسبة للبنان، لكنه كان حريصاً على دفع عملية الشرق الاوسط إلى الامام، فيما أصبح لبنان في مرتبة متدنية جداً في سلم اولويات واشنطن. ولقد اكتسبت دمشق اهمية في واشنطن لأنها اثبتت انها العاصمة القادرة على التأثير في قضايا الشرق الاوسط. وأصبحت مفتاح عملية السلام في الشرق الاوسط. واذا كانت دمشق مستعدة للحوار مع الولايات المتحدة، فان الولايات المتحدة مستعدة كذلك، وتواقة إلى هذا الحوار، الا انه ينبغي لاميركا أن تخطو خطوة التعاون مع سوريا بحذر، لأن الاسد نفسه سيتحرك نحو اميركا بحذر شديد. وكثيرا ما يؤكد الكلام مع الخبراء ما نعرفه مسبقا. فهو قد يؤمن لك بعداً

جديداً، او نظرة جديدة، او نصيحة لوجستية، ولكنه لا يغير قناعاتك الاساسية. وفي دفء منزل عصام فارس ازددنا تفهماً لأجواء ريغن النفسية وأجواء معاونيه.

لقد كان شولتز مصمما على عقد مؤتمر للسلام في الشرق الاوسط. وكان يريد تحقيق نجاحٍ مّا في الشرق الاوسط قبل الانتخابات الاميركية سنة ١٩٨٨.

المؤتمر الدولي حول الشرق الاوسط

كنا نتوق إلى المشاركة في هذا المؤتمر وانهاء عزلة لبنان، والحؤول دون تحوله إلى مكب لمشاكل المنطقة المستعصية. فان لم نطالب بالحضور فالارجح ان ينسانا الداعون إلى المؤتمر. فأهم من حضورنا المؤتمر تأمين اهتمام الدول الكبرى بلبنان كدولة تستدعي الاهتمام بحد ذاتها. وعبر المباحثات لعقد المؤتمر الدولي كنا نحن نريد حواراً اميركياً سورياً يؤدي إلى انهاء الازمة اللبنانية. غير ان المؤتمر كان يواجه مشاكل رئيسية. لم يكن هناك اتفاق بين الدولتين العظميين والاطراف المعنية بنزاع الشرق الأوسط حول جدول اعمال المؤتمر. كان الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية يؤمنان ان المؤتمر الدولي يوفر الوسيلة المثلى لتحقيق تسوية إقليمية. غير ان الولايات المتحدة واسرائيل كانتا تخشيان ان يتحول المؤتمر إلى اداة ضغط على اسرائيل. لذلك كان شولتز يريد مؤتمراً مع دور محدود جداً للامم المتحدة فيه. وعلى الرغم من أهمية المؤتمر للبنان بسبب الاحتلال الاسرائيلي والوجود الفلسطيني الكثيف فيه، فقد لقيت، حين أَثَرْتُ في واشنطن مشاركتنا في المؤتمر، رداً سلبياً على أساس ان هذه المشاركة تعطي سوريا صوتا اضافيا في المحادثات. اعترضت على هذه الحجة بقوة، وحصلت على دعم أوروبي قوي لحضور لبناني كامل في أي محادثات مقبلة. واستجابت دول الفاتيكان، وفرنسا، وايطاليا، وجمهورية المانيا الاتحادية، وبلجيكا، والمملكة المتحدة، إلى طلبنا ودعمت حضورنا المؤتمر. وفي بيروت شددت على السفير كلي للحصول على موقف اميركي ايجابي من مشاركتنا. وفي السادس من أيار/مايو ١٩٨٧، جاءني كلي بالرد الاميركي مصوغا بلغة بيروقراطية غامضة كما يلي:

«إن هدفنا (هدف واشنطن) هو تحقيق تسوية سلمية شاملة في الشرق الاوسط. وبما ان المفاوضات المباشرة هي الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف، فان الاطراف المعنية فقط تستطيع، عبر المفاوضات، بالأخذ والعطاء، ان تتوصل الى حلول مقبولة للمشاكل التي تواجهها. اننا نتفهم أهمية المؤتمر الدولي لبعض الاطراف المعنية. ولذلك كنا نستكشف: هل المؤتمر الدولي يستطيع ان يسهل المفاوضات الثنائية المباشرة بين الاطراف؟ إن المؤتمر، بأي معنى من المعاني، أو صورة من الصور، لن يكون هدفا بحد ذاته، ولا يجوز له ان يفرض ارادته، أو الغاء أيّ اتفاقيات تنعقد بالمفاوضات المباشرة بين الاطراف، او ان يتدخل باي شكل من الاشكال في عملية التفاوض. أما مشاركة لبنان في المؤتمر، فتعود، إلى حد كبير، للاطراف المعنية ان تقرر من يشارك في مثل هذا المؤتمر. ان مؤتمر السلام، من وجهة نظرنا، يجب ان يكون مبنيا على مبدأ الارض مقابل السلام، كما في قراري الامم المتحدة ٢٤٢ و ٣٣٨. ان القضايا التي تهم لبنان سيصار إلى بحثها حتماً. ومن الملائم إذن أن تعكس ترتيبات المؤتمر، التي تقررها الاطراف، اهتمام لبنان الصريح بالتطورات التي تؤثر على احتمالات الاستقرار والسلام في المنطقة».

وحين قرأت هذه الرسالة، قلت للسفير كلي: «قرأت الرد يا جون (كلي) ولكنني لم أفهم أي كلمة منه». فرد كلي قائلا: «ولا أنا». عند ذاك طلبت ان اتلقى رسالة واضحة وبلغة بسيطة حتى نفهم موقف اميركا. وفي الحادي عشر من أيار/مايو زارني كلي وعلى وجهه ابتسامة عريضة، حاملا الرسالة التالية:

«نأسف للغموض في الرسالة المشار إليها. ورداً على طلب الدكتور سالم بخصوص التوضيح، يرجى التأكيد على ان حكومة الولايات المتحدة، كما يعرف الدكتور سالم، كانت باستمرار ترى أنْ لا يستثنى لبنان من أي مؤتمر دولي بين العرب واسرائيل. لقد كان الغرض من الرسالة المشار إليها ان تقدم موجزاً عاماً لموقفنا الحالي. ولا شك أننا سنتطرق الى التفاصيل لاحقا».

الإطار الجديد للاهتمام الاميركي

حين توقفت محادثاتي في دمشق مع الشرع في أيار/مايو، حاولت المملكة

العربية السعودية والولايات المتحدة استئناف هذه المحادثات. وبينما كان الحريري يتقدم باقتراحات جديدة، راحت أبريل غلاسبي تستعرض التقدم الذي تحقق حتى الآن، ثم تقترح افكارا ووسائل لاحراز التقدم. وقد أرادت غلاسبي، التي راحت، مع الوقت، تقوم بدور اكبر في الشؤون اللبنانية، ان يعمل الرئيس الجميل بنشاط للتحقيق في جريمة اغتيال الرئيس كرامي، وبان يضبط القوات اللبنانية، وأن يحافظ على علاقات وثيقة مع المملكة العربية السعودية لتحقيق التقدم مع سوريا. وكانت غلاسبي تعتبر ان محادثات سالم/الشرع قد حققت تقدما هاماً في مجال الاصلاحات، ولم يبق إلاّ وضع اللمسات الاخيرة لتأمين الاتفاق.

وفي المحادثات الطويلة التي أجريتها مع جون هوايتهيد، نائب وزير الخارجية، وروبرت أوكلي، وفيليب حبيب، وابريل غلاسبي، جرى الاتفاق على ان الولايات المتحدة بحاجة إلى صياغة إطار جديد لسياستها في الشرق الاوسط، كذلك اتفقنا على ان نتوجه، أنا والرئيس الجميل، إلى واشنطن في خريف ١٩٨٧، لمناقشة الوضع في لبنان مع وزير الخارجية شولتز في نطاق هذا الاطار الجديد. وكان الاميركيون متفائلين بامكانية تحقيق انجازٍ مّا. وكان ريتشارد مورفي يقول ان حادثة «العال» التي اتهمت سوريا فيها بمحاولة وضع قنبلة في رحلة «العال» من لندن إلى تل أبيب، قد شوهت صورة الرئيس الاسد في الغرب، وان السوريين مهتمون بالحوار مع الولايات المتحدة لتغيير هذه الصورة. واضاف مورفي ان واشنطن التي استدعت سفيرها من سوريا، السيد ايغلتون، احتجاجا على حادثة «العال»، ستطلب منه الرجوع إل منصبه بدمشق في وقت قريب. ولكن مورفي كان يشك في كون الرئيس الاسد مستعداً للتوصل الى اتفاق مع الرئيس الجميل في آخر سنة من عهده. وكان مورفي يحاول ان يضع نفسه مكان الرئيس الاسد ويحلل من ذلك الموقع، فيجد ان الرئيس الجميل لم يكن فعالاً. ويجد ان اسرائيل حققت مكاسب في المنطقة الشرقية عبر القوات اللبنانية ويتساءل: هل الرئيس الجميل متواطئ مع القوات، لا لأنه كان متعاطفاً معها أو مع اسرائيل، بل لأنه لم يتمكن من وقف توسع اسرائيل في الاوساط المارونية. ويجد ايضا أن ايران بلد صديق، ولكن يمكن ان

يتحول الى بلد معاد. ويضيف مورفي بأن الاسد لا يمكن ان يكون مرتاحاً إلى بروز حزب الله في لبنانٍ على هذا الشكل. ان سياستنا، كما قال مورفي، هي ابعاد سوريا عن ايران. ولهذا السبب، اردنا فتح حوار مع سوريا. ونحن ندرك تماماً، مدى صعوبة الحوار مع دمشق، ولكن دمشق ضرورية لعملية السلام في الشرق الاوسط.

في صيف ١٩٨٧، طلبت واشنطن من الجنرال فيرنون والترز، سفير الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة، أن يفتح الحوار الجديد مع سوريا. وادركت، حين التقيت بوالترز لأول مرة، انه سينجح مع الرئيس الاسد. إنه جنرال سابق في الجيش الأميركي، متحمس، صاحب نكتة، متحرر كليا من الشكليات الدبلوماسية... عسكري مرتاح. وكانت واشنطن تفكر فيه كجرّافة قوية تذهب إلى دمشق فتزيل العوائق والحواجز ثم ترسل الدبلوماسيين لاستئناف المباحثات الجدية. وكان والترز واثقا من ان صفحة جديدة فتحت في علاقات واشنطن وسوريا؛ ورأيه: ان لبنان سيستفيد من الحوار الاميركي السوري. وقد اراد ان يجتمع بالرئيس الجميل في الجلسة الافتتاحية للجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر لابلاغه مباشرة بالموقف السوري، المستجد، وباستعداده لمساعدته من موقعه في الامم المتحدة. كان والترز معجبا بالرئيس الاسد، وكان واثقا من انه قادر على التفاهم معه. كذلك قال انه طلب من وزير الخارجية جورج شولتز ان يعيد فتح الحوار اللبناني السوري الذي توقف عند اغتيال رئيس الوزراء رشيد كرامي. وقد نصح شولتز ان يتحدث الى السوريين في نطاق جلسة الجمعية العامة في ايلول/سبتمبر، بخصوص لبنان وضرورة التوصل إلى اتفاق.

وفي السابع من آب/أوغسطس توفي الرجل الذي سيطر على السياسة اللبنانية طوال نصف قرن، ونجا من عدة محاولات اغتيال، عن سن متقدمة. كان كميل شمعون في اواسط الثمانينات من العمر، وكان، برغم سنه، وزيراً في حكومة الحص، «وبطريرك السياسة المارونية». كان رئيسا للجمهورية بين ١٩٥٢ و ١٩٥٨ وترأس حزب الاحرار، وانتخب نائبا، واشترك في عدة حكومات. وبعد وفاة الشيخ

بيار الجميل، بقي شمعون الزعيم الماروني الوحيد في المنطقة الشرقية. كنت أجري مشاورات معه باستمرار، وكان تأييده العامل الأساسي في احراز تقدم في محادثات سالم/الشرع. والواقع أنه وافق على جميع المبادئ المتضمنة في ورقتنا في ١٣حزيران/يونيو، ودعمها، وهي التي صارت بعد ذلك مبادئ اتفاقية الطائف سنة ١٩٨٩. وبوفاته ظل مكانه شاغراً، وبذلك اصبح التمثيل المسيحي في الحكومة ضعيفا. وبسبب مقاطعة بعض أعضاء الحكومة لرئيس الجمهورية، كان تشكيل حكومة جديدة أمرا ملحاً بالنسبة للرئيس، ولكنه لم يكن قادراً على تشكيل حكومة بدون موافقة سوريا. ولم تكن سوريا لتشجّع الجميل على تشكيل أي حكومة قبل ان يوقف قتلة الرئيس كرامي ويعاقبهم.

في هذا الوقت، اقترحت على كلي ان ينقل السفير إيغلتون ورقة مقترحاتنا الاصلاحية المؤرخة في ١٣ حزيران/يونيو إلى الرئيس الاسد، مع الدعم الاميركي لها. ووافق كلي على ذلك، الا انه قال: ان الرئيس الاسد قد يرد على ذلك بانه لن يبحث الاصلاحات قبل ان يعتقل الجميل قتلة رشيد كرامي، فأضاف كلي: عندها يجب على إيغلتون ان يقول للرئيس الاسد انه لا يجوز ان يبقى لبنان بكامله رهينة لهذه القضية، وان واشنطن مقتنعة بان الجميل يعمل ما في وسعه لمعرفة قتلة رشيد كرامي.

وفي واشنطن كانت ابريل غلاسبي تتصل يومياً بالسفير عبد الله بوحبيب، وتشجع كلي على اخذ مبادرات جديدة تظهر اعادة اهتمام اميركا بلبنان وتظهر استعدادها للعمل كوسيط بين لبنان وسوريا. وفي الوقت نفسه، كان الرئيس سليم الحص يشجع الاميركيين في المثابرة على العمل باتجاه التوصل الى اتفاق ينهي الازمة بين الرئيس والسوريين. وكان يعرف ان الدولة العظمى فقط هي القادرة على تحريك سوريا، لأن لسوريا اهتمامات اقليمية تريد بحثها مع اميركا. وبما أن الحساسيات في واشنطن بخصوص لبنان كانت لا تزال قوية، فقد خشيت أبريل غلاسبي ان تشير إلى الجهد الدبلوماسي الجديد بانه «مبادرة اميركية»، خوفا من ان تثير بذلك معارضة الكونغرس. يضاف إلى ذلك انه ما من احد في ادارة ريغن كان مستعدا، ذلك الوقت، للدخول في محاولة غير مضمونة النتائج في لبنان.

وفي دمشق، كان إيغلتون تواقا إلى نقل رسالتنا إلى الرئيس الاسد، وهي مؤلفة من أربعة أقسام:

١. مشروعنا الاصلاحي بتاريخ ١٢ حزيران/يونيو ١٩٨٧؛

٢. ضرورة انهاء مقاطعة الرئيس الجميل؛

٣. ضرورة تشكيل حكومة جديدة؛

٤. خطة امنية لتوحيد بيروت.

وجدت وزارة الخارجية الاميركية اقتراحنا معقولا، وان الرئيس الأسد ايضا لا بد ان يجده معقولا. وفي محادثاتي مع الاميركيين، اقترحت ان تقوم ابريل غلاسبي باستكشاف القضايا التي يمكن للاميركيين ان يبحثوها مع السوريين لتحسين العلاقات الاميركية السورية.

ومثل هذه العلاقات يمكن ان تشمل التعاون الاوروبي مع سوريا، وعودة الشركات الأوروبية إلى سوريا، وشطب اسم سوريا من لائحة الدول التي تقوم بالاعمال الارهابية، وموافقة الكونغرس على تقديم المساعدة الاقتصادية لسوريا، والتفاهم الاميركي السوري على بعض القضايا الاقليمية.

وبينما كنت أعمل في اطار هذه العملية الجديدة، بعث إليَّ الرئيس بنسخة من خطاب ينوي إلقاءه في كندا. الخطاب باللغة الفرنسية، مكتوب بلهجة عاطفية بقلم كاتب متحمس، وفي رأيي أنه جاوز كل حد. وركز الخطاب، إلى حد مفرط، على مشاكل لبنان، وتآمر الدول المجاورة عليه. وأساء بالتالي، ولو تلميحا، إلى كل بلد نحن بحاجة إلى مساعدته. كان مصوغا باسلوب جميل، ولكن المحتوى كان سيئا مؤذيا. اتصلت بالرئيس وقلت له بصراحة: ان هذا الخطاب سيرفع الدولار إلى مئة ليرة لبنانية؛ انه سينهي عملية الوساطة الاميركية؛ انه سيخيف كل لبناني لا يزال يعتقد بوجود بقية من سلطة حكومية؛ هو مشحون بالاسئلة، كأن من يلقيه مواطن عادي لا رئيس جمهورية. لا موقف فيه، ولا توجيه، ولا قوة.

صعق الرئيس من كلامي: كان قد اعاد قراءة الخطاب وأحبه. ومن حسن الحظ

انه اقتنع بكلامي، فوضع النص جانبا. وبدلا من ذلك اتصل بكلي وابلغه انه مرتاح إلى العملية التي بدأناها، أنا وكلي، ولكنه اضاف ان خبرته المريرة علمته ان هذه العملية الجديدة لن تنجح، ولو انه لا بديل افضل منها. كان شديد القنوط، ثم لاحظ انه، في حال فشل هذه العملية، سيلجأ إلى تشكيل حكومة جديدة، وإلى «قلب المعادلة»: لأنه يريد عندها ان يقول كل شيء. وأبدى كلي تفهما لكنه اكد للرئيس ان العملية الجديدة لا بد ان تسفر عن نتائج ايجابية، وانه ينبغي ان ندعمها.

وفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ابلغني كلي باجتماع السفير ايغلتون بالاسد، وقال انه لم يكن جيدا، كما توقعت واشنطن. الرئيس الاسد لن يستأنف الحوار مع الجميل قبل معاقبة قتلة رشيد كرامي. كذلك قال ان على الجميل ان «يعمل بحزم» مع القوات اللبنانية. وقال الرئيس الاسد ان الرئيس الجميل قد انحاز إلى المعسكر الانعزالي، اي إلى التكتل الماروني المناصر لاسرائيل. والجميل، في رأي الرئيس الاسد، يقول له كلاما معقولا، ولكنه لا ينفذ ما يقول. وقال الرئيس الاسد: انه عقد ١١ قمة مع الرئيس الجميل لكنه لم يستطع ان يعرف منه ماذا يريد، وان الرئيس الأسد يتمنى على الولايات المتحدة ان تدرس الوضع في لبنان وترى: هل هناك اي شيء يمكن القيام به؛ بعد ذلك يمكن للسوريين والاميركيين ان يتعاونوا فيما يجب القيام به.

ورأى كلي في ذلك اشارة من الرئيس الاسد الى انه يريد للعملية الحوارية الجديدة ان تبقى مفتوحة. الا انه سيكون محاوراً صعباً. وبتقييم كلي للوضع، كان الرئيس الاسد في محادثاته مع ايغلتون سلبيا في اكثر نقاط المباحثات وهكذا كان موقفه مختلفا عن الموقف الاميركي بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، والارهاب، والحرب الايرانية العراقية، وعملية السلام.

وحين ذكر إيغلتون ان «أبو نضال» لا يزال في لبنان، رد الرئيس الاسد فقال: لبنان بلد ذو سيادة. وسلطتي لا تمتد إليه. وحين تكلم إيغلتون عن استعمال الايرانيين مطار بيروت الدولي للقيام بالاعمال الإرهابية، اجاب الرئيس الاسد ان المطار لا يقع تحت السلطة السورية. وكلما حاول ايغلتون ان يفتح للرئيس الاسد

باباً، كما قال كلي، كان الرئيس السوري يغلقه. ولكن كلي ظل يعتقد أن هنالك امكانية ضئيلة للاتفاق مع الرئيس الاسد بخصوص لبنان؛ ويجب استكشاف ذلك مباشرة من قبل الرئيس الجميل مع وزير الخارجية شولتز بنيويورك في ايلول/سبتمبر. وكان هدفنا ان نعد جدولا بالاعمال لما يمكننا القيام به، وان نحدد موعداً لتنفيذ كل بند نعتمده. وكان املنا: ان مثل هذه النظرة المحددة تقنع الرئيس الاسد الذي كان يشعر ان الرئيس الجميل يتكلم في العموميات ولا يقوم بأي شيء.

وفي ٢٨ أيلول/سبتمبر، اجتمعنا، أنا والرئيس وغسان تويني وعبد الله بوحبيب، بمورفي وغلاسبي في فندق ولدورف أستوريا في نيويورك. قال لنا الاميركيون: انهم سيجتمعون بالشرع في اليوم التالي، في هيئة الامم المتحدة. كانوا يريدون منا بعض الدلالة المحددة، كجدول للأعمال مثلا، لاظهار التزامنا بتنفيذ الاصلاحات. وطلبوا منا ان نجتنب استعمال عبارة «مبادرة اميركية». في وصف الدور الاميركي الجديد، لأن واشنطن تفضل وصف دورها بانه «عملية» لا «مبادرة» وَوَصفَ شولتز الدور الاميركي، في هذه العملية الجارية، بأنه بمثابة «نقل الرسائل، ذهابا وإيابا، بينكم وبين الرئيس الاسد.» كان يريد دبلوماسية هادئة، ويود ان يعرف: «ماذا يريد السوريون».

وفي اجتماعنا بشولتز، في اليوم التالي، اتفقنا على تسليمه جدول أعمال محدداً، بخصوص تنفيذ الاصلاحات، حتى يسلمه إلى الشرع، بدعم اميركي. وقمنا، أنا وتويني وبوحبيب، بصياغة تفاصيل الاقتراح في ما أطلقنا عليه «النقاط الثماني».

النقاط الثماني

١ ـ يقوم الرئيس الجميل، عند عودته إلى لبنان، باصدار بيان يكرر فيه تصميمه على متابعة الاصلاحات الدستورية المحددة التي اعلنها في خطابه بالجمعية العامة للامم المتحدة، أي ورقتنا المؤرخة في ١٣ حزيران/يونيو، المتعلقة بالاصلاحات.

٢ ـ عند ذلك تستأنف المفاوضات السورية اللبنانية على المستوى الملائم للتوصل إلى اتفاقية بخصوص تفاصيل الاصلاح السياسي.

٣ ـ يصار إلى اعلام الولايات المتحدة بتطور هذه المفاوضات، وهي مستعدة لمواصلة مساعدة المفاوضين اللبنانيين والسوريين في تضييق شقة الخلاف بينهما.

٤ ـ يقبل الرئيس استقالة الحكومة الحالية، ويعمل على تشكيل حكومة جديدة قبل ٢٠ تشرين الأول/اكتوبر. ويكون برنامج هذه الحكومة، كما يعبر عنه بيانها الوزاري بصورة خاصة، تنفيذاً للإصلاح الدستوري المتفق عليه مع حكومة سوريا، ويشمل التدابير الضرورية لانهاء حالة القتال في لبنان.

٥ ـ تقوم الحكومة الجديدة، فوراً، بعرض مشاريع القوانين الدستورية على المجلس النيابي، إلى جانب أيّ مشروعات قوانين اخرى ضرورية، وتطلب التصويت النهائي عليها باسرع ما يمكن.

٦ ـ على أثر ذلك، توسع عضوية المجلس النيابي كما اتفق عليه سابقا.

٧ ـ أما التحقق في اغتيال رئيس الحكومة رشيد كرامي، فان رئيس الجمهورية مصمم على تَحريك جميع المؤسسات الحكومية المعنية للكشف عن القتلة، ومعاقبتهم، وفقا للاجراءات القانونية اللبنانية. انه سيطلب تشكيل لجنة تحقيق نيابية، وسيطلب من الحكومة اللبنانية الجديدة الاستجابة لجميع طلبات هذه اللجنة.

٨ ـ ان رئيس الجمهورية سيشترك في القمة العربية المقبلة في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر على اساس سياسة الحكومة الجديدة، للمطالبة بما يلزم من المساعدة العربية، للاسراع بوقف القتال، ومعالجة ما ينتج عن الحرب، والمباشرة ببرنامج إعمار لبنان.

وفي اجتماع شولتز بالشرع، سلّمه النقاط الثماني من الرئيس الجميل، واشار إلى ثقته برغبة الرئيس في تنفيذ الاصلاحات. ولكن الشرع اعرب عن الشك في الجميل وفي الجدول الذي قدمه وتساءل عن الدافع لتقديمه، لا سيما وان سوريا لم تطلبه منه. فأكد مورفي، الذي كان يرافق شولتز، ان الجدول يؤكد الجدّية اللبنانية،

واضاف أن الاشارة، في الوثيقة، إلى عقد القمة العربية تتوخى الاسراع بالتقدم، ثم طلب المساعدة العربية على أساس هذا التقدم. وبقي الشرع شديد الحذر، فأراد ان يستشير دمشق. ولم يكن، لا هو، ولا أي مفاوض سوري آخر في أي حال، ليتعجل الامور. ان سوريا تمارس فن المفاوض القوي، فتعمل بثقة، وارتياح، وتعتبر الوقت لصالحها. وبعد مهاجمة الشرع للجميل بسبب عرقلته الإصلاح، عاد فوافق بتردد، على توزيع نقاط الجميل الثماني على المعارضة اللبنانية، فاعتبر شولتز انه حقق تقدماً مّا في هذا الاجتماع.

وحين اتصل بي مورفي يعلمني بما سيفعله الشرع، اعترضت على ذلك بقوة. ان توزيع اقتراحنا على المعارضة، ذات الاصوات المتعددة، هو بمثابة تجريدها من كل جدية. المعارضة تتكلم بأصوات كثيرة، وبابل، بالنسبة لها، تبدو معقولة، متماسكة. اقترحت، بدلا من ذلك، ان يستشير الشرع، بصورة سرية، مع عدد من قادة المعارضة، وان لا يعلن النقاط الثماني على الصحافة. وبما ان ورقة ١٣ حزيران/يونيو بقيت سرية، فان النقاط الثماني المبنية عليها يجب ان تبقى سرية.. ثم اتصل مورفي بالشرع، وعاد ليؤكد لي ان الاستشارات ستكون محصورة في الحلفاء الرئيسيين، وبان النقاط الثماني ستظل سرية.

وفي بيروت، قام السفير كلي، في هذه الاثناء، باطلاع الرئيس الحسيني على اجتماعاتنا بشولتز ومورفي، وبشأن ورقتنا المؤرخة في ١٣ حزيران/يونيو. وقال الحسيني لكلي: إن النقاط الواردة في هذه الوثيقة هي النقاط ذاتها التي كان قد اتفق عليها مع الرئيس رشيد كرامي، وهو مسرور لأن الرئيس عاد فقبلها نهائيا. ثم اضاف انه، في كل حال، يريد مدة رئيس المجلس النيابي أربع سنوات لأنه يعتقد ان رئيس المجلس ينبغي ان ينتخب لكامل مدة المجلس. وتبين، في تقرير كلي لنا، انه لا الرئيس الحص ولا الرئيس الحسيني، على ما يبدو، كانا مطّلعين على ورقة١٣ حزيران/يونيو، وقد كانت مفاجأة سارة لهما.

وفي أول تشرين الأول/اكتوبر، أبلغني كلي ان شولتز ومورفي سيزوران المنطقة، وان مورفي سيتوجه إلى دمشق وحده، لأن موعد اجتماع شولتز بالرئيس

الاسد لم يزل سابقاً لأوانه. مثل هذا الاجتماع يجب ان يهيأ له مسبقا، وان تكون بعض النتائج الايجابية مضمونة. وفي أيّ حال، لم يكن قدوم مورفي إلى بيروت بالأمر المؤكد. ولذلك اصررت على كلي بان يجيء مورفي إلى بيروت. وإلا فان العملية التي بوشرت في واشنطن ستتعرض للخطر. ووافق كلي على ما قلته، ونصح مورفي بالمجيء إلى بيروت. وبعد شيء من التردد، قبل مورفي ان يمر ببيروت بعد الانتهاء من دمشق. ووصل شولتز ومورفي في الاسبوع الثاني من تشرين الاول/اكتوبر. كان شولتز يقوم بزيارات إلى العواصم المعنية بعملية السلام باستثناء العاصمة السورية.

وفي دمشق اجتمع مورفي بعبد الحليم خدام، لأن الرئيس الاسد كان في زيارة رسمية إلى بلغاريا. وكان خدام سلبيا إلى أبعد حد بالنسبة للجميل، ولم يكن يؤمن بان هنالك مجالا للعمل معه. الا انه وعد بدراسة ورقة الجميل وبان يبعث برده إلى الاميركيين مباشرة.

وبعد بضعة أيام، اتصلت بكلي لمعرفة الرد، فقال كلي: مهما كان الرد، فانه سيكون كالشوربا كثير الماء، قليل الأرز. وفي السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، اتصل بي دان سبسمون، المستشار الأول في سفارة الولايات المتحدة، ليقول انه تلقى الرد السوري. فأشرت عليه أن يسلمه إلى الرئيس مباشرة.

وبعد ساعات من ذلك، اتصلت بالرئيس اسأله عن ردّ فعله فقال: «انني مازلت أبحث عن الأرز».

لقد ردت دمشق على اقتراحاتنا بالدعوة لالغاء الطائفية بعد أربع سنوات من الانتخابات النيابية. كذلك تقدمت بطلبات أضعفت مركز الرئاسة. وبالاضافة إلى ذلك، دعا السوريون الجميل إلى حل القوات اللبنانية قبل تنفيذ الاصلاح. كانت سوريا تتهم القوات اللبنانية باغتيال كرامي، فطلبت من الرئيس «ان يصادر اسلحتها وان يقدم قادتها للمحاكمة». هذه الطلبات كلها بحثت المرة تلو المرة؛ وموقفنا منها كان معروفاً. وبالنسبة للقضايا السياسية المتعلقة بالتعامل مع القوات اللبنانية، كانت سوريا تعرف موقفنا كذلك. لقد سبق لي ان أوضحت له مراراً، باسم الرئيس،

أن الرئيس لا يستطيع تجريد القوات اللبنانية من السلاح. ولا يريد ان تعالج قضية ميليشيا القوات اللبنانية بمعزل عن قضية الميليشيات الأخرى. الواضح من ذلك ان دمشق غير مستعدة للحوار مع الجميل.

وقد شعر مورفي انه لم يحقق اي تقدم، إلا انه كان مصمما على معرفة رأي المعارضة اللبنانية بخصوص ورقة ١٣ حزيران/يونيو. وفي ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر، أثار هذه المسألة مع الحص، الذي أسر له ان الوثيقة تمثل تقدما، ثم قال: إنه سيشاور الحسيني وبري وجنبلاط، قبل ان يبعث الردود الخطية إلى دمشق. ثم حث الحص مورفي بان يواصل جهوده. وقبل مورفي شريطة ان تكون مطالب المعارضة مقبولة. قال مورفي: ان ورقة ١٣ حزيران/يونيو ورقة جدية، وواشنطن تتوقع رداً جديا عليها.

مؤتمر القمة العربية في عمّان

انتقل الجهد الأميركي إلى القمة العربية المجتمعة في عمّان، وقد كان الملك حسين تواقاً إلى تحقيق النجاح في المؤتمر بترتيب لقاءات بين الرئيس الاسد والرئيس صدام حسين، وبين الرئيس الأسد والرئيس الجميل. ولم يبد ان الرئيس الاسد كان مهتما بالاجتماع إلى الرئيس الجميل، ولذلك حث رئيس الوزراء الدكتور سليم الحص على ترؤس الوفد اللبناني. ورد الحص على ذلك يقول: «الرئيس الجميل ذاهب إلى القمة، فماذا أفعل؟ فإما ان أجلس في حضنه، أو أن يجلس هو في حضني». وانفجر الرئيس الاسد ضاحكا، ثم اتفق مع الحص على ان لا يذهب رئيس الوزراء إلى عمان، بل ان يرسل مذكرة إلى القمة يعلن فيها الموقف اللبناني من وجهة نظر المعارضة.

وبسبب مقاطعة الرئاسة، لم يقبل اي مسلم ان ينضم إلى وفد الرئيس الجميل إلى عمّان. ويوم السبت، في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر، وصل الوفد الرسمي مؤلفاً من الرئيس، ومن غسان تويني، ومني، إلى عمّان؛ وبعد ظهر ذلك النهار كان افتتاح المؤتمر.

وقبل انعقاد القمة كان ياسر عرفات يوزع البسمات باستمرار، ناظرا إلى اليسار واليمين، باحثا عن زعيم يعانقه ويقبله. وكان موقعنا في المؤتمر موقعاً بارزاً، لالتقاط الصور؛ كان يجمع، بالدرجة الأولى، بلدانا مضطربة في المنطقة: لبنان، وليبيا، والمغرب، ومنظمة التحرير الفلسطينية. كنا محور الاهتمام، لا بسبب انجازاتنا، بل بسبب أزماتنا المستفحلة.

لقد جاء الوفد اللبناني إلى عمان بعد التأكيد بان الملك حسين سيدبر لقاء بين الرئيسين الجميل والاسد. ويوم الأحد، بعد اجتماع طويل لنا مع ياسر عرفات في جناحنا، وصل ولي العهد الامير حسن ورئيس الوزارة زيد الرفاعي، وعلى وجوههما كآبة. قالا ان الرئيس الاسد لن يجتمع بالرئيس الجميل «الا اذا كانت لديه افكار جديدة».

ورد الرئيس الجميل انه يقبل أي افكار بشأن الاصلاح يجدها الملك حسين والرئيس بن جديد معقولة. ولقد كان ذلك موقفا سياسيا لا بل أدبيا أكثر مما كان موقفاً قانونياً ملزما. وقام الاردنيون بوضع عدد من الصيغ بشأن المشاركة في السلطة، بأمل فك العقدة، واستئناف الحوار اللبناني السوري.

وفي المساء، شوهد الرئيسان الأسد وصدام حسين يسيران معا ويتبادلان النكت. سألت طارق عزيز كيف استطاع هذان العدوان القديمان ان يلتقيا في القمة؟ فقال لي ان الملك حسين حاول ان يجمعهما، لكنه فشل، غير ان ولي العهد السعودي الامير عبد الله أمسك بكل من الرئيسين الاسد وصدام باليد وفرض عليهما ان يتبادلا الحديث، ففعلا.

وحين اخفقنا في ترتيب اجتماع مع الرئيس الاسد، حاولنا البديل الثاني، وهو الحصول على الموافقة على قرار مرضٍ بالنسبة للوضع اللبناني. وفي ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧، أقرت القمة العربية في عمان المبادئ التالية بالنسبة للبنان:

١ - دعوة جميع أطراف النزاع الى استئناف الحوار الذي يؤدي إلى اصلاحات سياسية وإلى اعادة وحدة الشعب، والبلاد، والمؤسسات،

٢ ـ دعوة الجمهورية العربية السورية لمواصلة جهودها وتكثيفها مع الاطراف المعنية لتحقيق التفاهم الوطني، في لبنان.

٣ ـ دعوة الدول العربية لمساعدة لبنان في جهوده لضمان تنفيذ مقررات الامم المتحدة بشأن الانسحاب الاسرائيلي من جنوبي لبنان.

٤ ـ اخذ العلم بقرار لبنان انشاء صندوق لدعم العملة اللبنانية بالتشاور مع صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإعمار والتنمية.

كانت هذه المقررات ضعيفة ولكنها كانت افضل ما يمكن الحصول عليه من المؤتمر.

وبين السابع والحادي عشر من آب/اوغسطس، اجتمعنا، أنا وغسان تويني، بوزراء خارجية المملكة العربية السعودية ودول الخليج، وطلبنا منهم الإسهام في الصندوق المقترح. كنا مسرورين لردودهم الايجابية اثناء هذه المحادثات الخاصة، لكننا شعرنا بخيبة الامل من موقفهم حين جلسنا نصوغ نص القرار. ما من دولة عربية كانت مستعدة لاعلان التزام الاسهام بهذا الصندوق. كانوا يفضلون الاسهام بصورة غير مباشرة، بواسطة صندوق النقد الدولي، او أيّ وكالة مالية دولية اخرى على استعداد لمساعدة لبنان. ثم ان الرئيس الحص الذي كان يقاطع الرئيس، كان برغم ذلك، مستعداً لزيارة المملكة العربية السعودية وطلب الدعم المالي للصندوق الذي اقترح في قمة عمّان.

وبرغم اخفاقنا في ترتيب لقاء بين الرئيسين الجميل والأسد، اثناء انعقاد القمة، فقد قال لي الشرع ان هناك عملية جديدة قد بدأت بين سوريا واميركا، وأن سوريا مسرورة لذلك. لم يكن يريد تدخل الملك حسين او اي قائد عربي آخر في المسعى الاميركي السوري. وارتأيت ان اذهب الى واشنطن، واعمل مع بوحبيب وغلاسبي لدفع اقتراحاتنا الاصلاحية وتحريك المسار القائم ـ المجمد.

وكان بوحبيب قد أعد لهذه الزيارة. وجرت غالبية الاجتماعات بغلاسبي في السفارة اللبنانية بواشنطن، حيث كانت زوجة السفير الشابة جولي تستضيفنا بسخاء.

وانضم إلينا فيليب حبيب، وزودنا بالنصح، ثم أعرب عن أسفه لتطور الاحداث في لبنان. قال: «ليس لأحد يا إيلي أي قلب. مسكين لبنان، مسكين أنت؛ أنت تحاول ولكنك لا تحققق شيئاً. اقل ما في الامر أنك تواصل ايجاد عملية او مسارٍ مّا. لا يسعك ان تحقق أي تقدم بدون ان تكون هناك عملية ومسار.» ورأى فيليب حبيب بعض الامل في ابريل غلاسبي التي كانت تعمل بدينامية هائلة.

وأكدت لنا أبريل غلاسبي ان واشنطن جادة بمشاركتها في العملية. كانت الولايات المتحدة تعلم ان سوريا تتهم القوات اللبنانية باغتيال رشيد كرامي، وتعتبر هذه القضية العقبة الوحيدة الباقية دون استئناف محادثات سالم/الشرع. وعملنا على وضع مسودة ورقة وجدناها، أنا ومورفي وغلاسبي، وبوحبيب، ورقةً معقولة. كانت مبنية على أساس ورقة ١٢ حزيران/يونيو، بتفصيل أوسع حول المشاركة في السلطة. اتفقنا ان تقوم الولايات المتحدة بمناقشة الورقة مع سوريا بواسطة سفيرها وليم ايغلتون في دمشق. وفي مطلع كانون الاول/ديسمبر قدم الحريري اقتراحا للاصلاح الى خدام، فاحاله خدام، كما قيل لنا، الى ايغلتون لبحثه في اطار العملية الجديدة.

ورقة الحريري في كانون الاول/ديسمبر ١٩٨٧

يوم الجمعة ١١ كانون الأول/ديسمبر، اتصل بي كلي ليقول لي ان لديه مشروعاً تقدم به الحريري إلى سوريا. وهو ما سنشير إليه بـ«ورقة الحريري» المؤرخة في ١١ كانون الأول/ديسمبر، ١٩٨٧». كان السوريون يريدون رأينا في هذا المشروع، وقد قيل لنا ان دمشق تقبله اذا ما قبلنا به نحن. وبما انني كنت قد رأيت العشرات من مثل هذه الورقات، وقمت، أنا نفسي باعداد عدد منها، فانني، شخصياً، كنت اكثر اهتماما «باجواء» الورقة من الورقة نفسها.

قلت لكلي انني أريد أن أعرف ما يجري: المفروض بنا ان نفاوض المعارضة بواسطة سوريا. هنالك الآن عملية توفيق مقبولة اميركياً وسورياً، ونحن نعمل من ضمنها.

وفي ١٥ كانون الأول/ديسمبر، اتصلت بالحريري وقلت له: اننا لا نعرف كيف نتعاطى مع ورقته التي لا تتبناها لا سوريا ولا الولايات المتحدة، ولا نعرف كيف نعالجها ضمن المسعى الاميركي-السوري.

ومثْلَنا كان الاميركيون لا يعرفون كيف يستجيبون لورقة الحريري. وبذلك قال كلي ان ادخال ورقة الحريري في العملية الجارية هو بمثابة وضع سلّة ثالثة في ملعب كرة السلة. وكتبت إلى مورفي أؤكد له من جديد استعدادنا لتجربة أي مسار ينفتح امامنا، وأضفت: «إلا اننا نخشى التأخيرات والبدايات الجديدة التي تستهدف تأجيل القضية. ان جدّية الازمة تفترض انتهاج اسلوب واضح وبذل جهد حاسم. وليس في ورقة الحريري أي صعوبة بالنسبة لنا اذا ما عرفنا كيف نعالجها ضمن العملية الاميركية السورية. وكيف يمكن للمباحثات بشأنها ان تستمر سريعةً بوجه خاص. إن ورقة الحريري تحتوي على نقاط كان قد جرى الاتفاق عليها في المباحثات اللبنانية السورية في دمشق؛ وهنالك نقاط كنا قد قدمناها نحن بمراسلات خطية مع دمشق على وجه أفضل؛ وهنالك نقاط مبهمة تتطلب التوضيح. ان المسألة الرئيسية بالنسبة لنا ليست في محتوى هذه الورقة بالذات، بل في كيفية التعامل مع مبادرة خاصة في اطار مفاوضات بين دول».

وفي ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، تلقينا مذكرة من مورفي يدعونا فيها أن نرد على ورقة الحريري خطيا. وقد شجع مورفي على ذلك تصريح خدام بأن الرد الايجابي منا سيلاقي رداً ايجابيا من سوريا. وفي ٣١ كانون الأول/ديسمبر بعثنا إلى مورفي وغلاسبي بردنا على ورقة الحريري. وكان الحريري يتصل بي يوميا مستفسراً عن ردنا، ملحّاً على الاسراع فيه. وتشكل ورقة الحريري وثيقة طويلة، ولا ضرورة للخوض فيها؛ والواقع ان محتواها يتبين بوضوح من ردنا الذي أظهر النقاط التي نتفق عليها، والنقاط التي تستدعي التوضيح، والنقاط التي ينبغي ان ينظر إليها في اطار واسع، وهذه النقاط بنصها الحرفي هي:

النقاط المتفق عليها بوجه عام

* الهوية العربية، حقيقة واضحة بذاتها (معترف بها من قبل الجميع).

* الانسحاب الاسرائيلي والمخاطر في جنوب لبنان.
* طابع الدولة (نيابية، ديمقراطية، جمهورية).
* الشعب مصدر السلطة.
* الفصل بين السلطات والعلاقات بين سلطات مؤسسات الدولة.
* النظام الاقتصادي.
* الحرية الشخصية.
* السلطة التنفيذية في مجلس الوزراء.
* تكوين مجلس الوزراء (الرئيس، ورئيس الوزراء، والوزراء).
* صلاحيات مجلس الوزراء.
* عدة نقاط تتصل برئيس الجمهورية وبرئيس الوزراء.
* عدة نقاط تتصل باستقالة الحكومة.
* مدة رئيس مجلس النواب سنتان، قابلة للتجديد.
* الفصل بين منصب النيابة والمنصب الوزاري (ممكن).
* رفع عدد اعضاء مجلس النواب إلى ١٠٨.
* التدابير بحق الذين يستغلون الطائفية ويعملون ضد وحدة الدولة.
* المحكمة العليا.
* محكمة لمراقبة دستورية القوانين.
* اللامركزية الادارية (مقبولة بوجه عام، على انه لا لزوم الآن لذكر عدد المحافظات، ولا للاتفاق على المحافظة كأساس للدائرة الانتخابية).

* الجيش وقوات الامن الداخلي (على انه غير مقبول ان يصار إلى تحديد الجيش بعدد معين؛ وهنالك نقاط تتطلب المزيد من النقاش والايضاح).

* دستور جديد.

* التربية

* انهاء الحرب بسنة واحدة (بحاجة الى إيضاح).

* عودة جميع المهجرين اللبنانيين منذ ١٩٧٥.

* حل الميليشيات (جمع السلاح في غضون أربعة أسابيع غير واقعي).

* خاتمة.

النقاط التي تتطلب المزيد من النقاش و/ أو التوضيح، هي:

* العلاقات المميزة. اننا نريد العلاقات المميزة؛ نريد التنسيق في القضايا الاساسية كما اشرنا إليه في ورقتنا بتاريخ ٦/١٢/١٩٨٦. وفي اطار استقلالنا وسيادتنا والمميزات الخاصة لبلادنا. وهنالك في هذه الورقة نقاط تستدعي التوضيح:

* جميع المراكز العامة مفتوحة امام الجميع. هل يتناول ذلك المراكز العليا الثلاثة؟

* مجلس الشيوخ، كما هو معروض هنا، يثير تساؤلات كثيرة بحاجة إلى توضيح.

* استقالة الحكومة.

* طريقة ملء المراكز الاضافية في المجلس النيابي.

* المجلس الاجتماعي والاقتصادي (استشاري).

* الاعلام.

* محاكم ميدانية حتى السنتين (بحاجة إلى توضيح).

* تشكيل الحكومة.

النقاط التي يجب ان ينظر إليها في اطار المبادئ التي تتطلب التفاهم المسبق، هي:

* الطائفية، وخطوات إلغائها.

* صلاحيات رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء.

اننا نفترض ان مبدأ المساواة سيطبق. ثم ان الاصلاحات التي يجب ادخالها ينبغي ان تؤمن العدالة لمجموعة، وتضمن الامن والاستقرار لمجموعة اخرى. ولا بد للاصلاحات ان تعكس البيئة التي تفرض الهجرة حاليا في الاوساط التي تشعر انها مهددة.

ولهذه المبادئ مضامينها الوطنية، والاقليمية والدولية، وهي تؤثر على الروحية التي تسيطر على المناقشات التي تتناول النقاط المذكورة اعلاه.

المنهجية

لاضفاء المصداقية كأساس لمناقشة ورقة الحريري، نقترح أن تجري مناقشتها ضمن فترة زمنية محددة.

وبالنسبة للطائفية تذكر ورقة الحريري أن أول مجلس نيابي ينتخب على أساس المناصفة بين المسيحيين والمسلمين يحدد «باكثرية ٥٥٪ موعد الغاء الطائفية كليا». ان هذا غير مقبول من قبلنا. كذلك بالنسبة للمشاركة في السلطة. ان ورقة الحريري، عند ذكر التفاصيل التي يتعامل معها رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ومجلس الوزراء، والمجلس النيابي، قد خفضت صلاحيات رئيس الجمهورية الى درجة كبيرة جدا.

ومنذ كانون الثاني/يناير، ١٩٨٨، كنا نناقش أجواء ورقة الحريري، من طريق الاتصالات المباشرة بالحريري، ومورفي، وغلاسبي. وهنا صارت المسائل الاصلاحية المطروحة في هذه الورقة تناقش إلى جانب مسألتين اخريين هما: تشكيل حكومة جديدة، وانتخاب رئيس الجمهورية في أيلول/سبتمبر. وحيال خيبة أمل الرئيس الجميل بحكومة قاطعته طوال اكثر من سنة، كان الجميل تواقا إلى تغيير هذه الحكومة والإتيان بحكومة مستعدة للتعاون معه واتخاذ المقررات. وحثّه مستشاراه للشؤون الداخلية، الدكتور جميل نعمة، مدير الامن العام، والعقيد سيمون قسيس، على تشكيل أي حكومة يكون أي زعيم سني مستعداً لتشكيلها. اما أنا، فحثثته على ان لا يؤلف أي حكومة إلا في نطاق الاتفاق مع سوريا. لرئيس الجمهورية صلاحية دستورية لعزل حكومة الحص واعلان أي حكومة يريد، لكن هذا العمل، ان لم يكن مدعوماً باجماع سياسي، لا يعني أي شيء. الحص لن يولي اعلان الرئيس أي اهتمام، وفي أي صراع مكشوف كهذا، لا بد للرئاسة الضعيفة ان تكون هي الخاسرة. وحذرت من اتخاذ مثل هذه الخطوة الا بالتنسيق مع سوريا.

وبالنسبة لانتخابات الرئاسة، كان جميع النواب الموارنة تقريبا يعتبرون انفسهم مرشحين. وبات مسلكهم السياسي مُرَكَّزاً على الانتخابات قبل موعدها بثمانية أشهر. ونصحت الرئيس بالاهتمام فعليا بانتخاب خلف له لتأمين انتقال السلطة بهدوء إلى الرئيس الجديد. وفي كل يوم تقريبا كنت أردد له القول التالي: «مسألة كيف يكون تركك للرئاسة أهم بكثير من مسألة كيف كان دخولك إليها. ان الرئيس الجديد ينبغي ان يكون توفيقياً، يتمتع بمصداقية عالية، لا سيما بالنسبة لسوريا، وينبغي ان يشعر ان الرئيس الجميل قد سهّل وصوله إلى سدة الرئاسة». هاتان المسألتان - تشكيل الحكومة وانتخاب الرئيس الجديد، باتتا المسألتين اللتين تخللتا مباحثاتنا مع الاميركيين والسوريين.

كان الرئيس يريد أن يترك الرئاسة بنجاح؛ كان يأمل الموافقة على صفقة عامة مع الرئيس الاسد تتناول الاصلاحات، وتشكيل حكومة جديدة، والاتفاق على خلف له، والخطوات الملموسة لاستعادة سيادة لبنان واستقلاله. وحين اجتمعت بشولتز

في شباط/فبراير، قلت له: ان الرئيس يريد تحقيق الاصلاحات قبل ان يترك الرئاسة، ويريد اقامة حكومة جديدة لتنفيذ هذه الاصلاحات. وطلبت من شولتز ان يبعث بمورفي إلى دمشق وبيروت لدفع العملية التي أطلقناها في نيويورك في أيلول/سبتمبر الماضي. كنت أريد التحرك بسرعة لأن ابريل غلاسبي التي كانت تقوم بدور دينامي في هذه العملية، كانت على وشك أن تعيّن سفيرة للولايات المتحدة في بغداد. كنا نسعى إلى تقدم قبل الصيف لأنه مع مجيء صيف ١٩٨٨، سينصب الاهتمام بكليته انتخاب رئيس جمهورية جديد. ومن شأن الاتفاق على الإصلاحات ان يمهد الطريق إلى انتخابات هادئة ويحول دون انقسام البلاد.

الا ان منظور واشنطن كان يختلف عن منظورنا. الاتفاق مع سوريا اتفاق جوهري بالنسبة لنا. أمّا بالنسبة لواشنطن، فهو وسيلة لحوار أوسع مع دمشق بخصوص ايران وحزب الله، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والضفة الغربية وغزة، وعملية السلام ككل. وفي الرابع من شباط/فبراير، قلت لغلاسبي إن لبنان أصبح، منذ اكثر من عقد، مَكَبّاً لمشكلات الشرق الاوسط، وأصبح ايضا تعبيراً جغرافيا. نريد ان نغير هذا الوضع وهذه الصورة. ومن هنا اصرارنا على صفقة عامة شاملة.

وفي رأي غلاسبي، يصعب على نظام بعثي ان يرضى بالطائفية. وقلت لها: ان ذلك صعب علي كذلك. كنت، كغيري، مدركا ان نظام لبنان الطائفي يحرمني ويحرم أولادي الكثير من مناصب الدولة. غير ان لبنان هو غير سوريا. واذا كان قدرنا ان نكون طائفيين، ولو لفترة من الزمن فقط، فذلك هو صليبنا نحمله نحن وحدنا. الطائفية تلغى حين تصبح لدينا ثقافة سياسية متقدمة، وثقافة مدنية تجعل من الطائفية نظاماً قديماً، لاغياً، لا مكان له.

وفي محادثاتنا المتعلقة بعدد أعضاء المجلس النيابي، كنت أدعو إلى اعتماد أصغر عدد ممكن يؤمن المساواة بين المسيحيين والمسلمين، وهو ١٠٨. وكنّا نفضل هذا العدد الادنى لأن تعيين أقل عدد ممكن من النواب، لملء المقاعد الشاغرة والاضافية في المجلس النيابي، هو الأقل عبئاً على نظامنا السياسي.

لقد أوضحت موقفنا من كل نقطة لاعطاء مورفي وغلاسبي خلفية حول تفكيرنا

عند مناقشة الصفقة العامة الشاملة التي كنا نأمل التوصل اليها مع دمشق. وكان الاميركيون حريصين على معرفة موقفنا من الطائفة الشيعية التي شعروا انه يجب ان تنال نصيباً من السلطة يتناسب مع أهميتها. كنا مرنين إلى أقصى حد حول هذه النقطة، كما كنا كذلك في مباحثات دمشق. والواقع ان جميع هذه النقاط نوقشت، وجرى الاتفاق بشأنها، قبل ان ردّتنا معارضة مبهمة إلى البداية. كنا قد نظرنا في خيارات تسمية شيعي كنائب لرئيس الجمهورية، أو لرئيس الحكومة؛ وهذه المرة اقترحت للمناقشة صيغة عرضها منح الصلح، وهو مثقف سني بارز، وصديق قديم لي. لقد اقترح تعزيز مركز الرئيس الشيعي التقليدي لمجلس النواب، وتعيين نائبين لرئيس الحكومة، يكون احدهما شيعيا والآخر أرثوذكسيا. ثم ان هذين النائبين معا، إلى جانب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، يوقعان جميع المراسيم. وبحال غياب رئيس الوزراء يقوم نائبه الشيعي بدور رئيس الوزراء بالوكالة؛ وفي حال غياب رئيس الجمهورية يقوم رئيس الوزراء ونائباه بتسلم مهمات الرئاسة. يضاف إلى ذلك أن هيئة مصغرة مؤلفة من رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة، ونائبي رئيس الحكومة، تضع جدول الاعمال وتُعنى بصياغة المقترحات لاجتماعات مجلس الوزراء.

وبالنسبة لعدد الجنود في الجيش اللبناني، كنا نطالب بقوة صغيرة فاعلة تستطيع الدفاع عن حدودنا الوطنية، وتؤمن الاستقرار داخل البلاد عند الحاجة. وفي تقديراتنا ان جيشاً من نحو ثلاثين ألف جندي يحقق مثل هذه الغاية.

لقد أبدينا المرونة إزاء جميع النقاط لاعطاء مورفي متسعا للحوار في دمشق. وقد شعر اننا زودناه بكل ما يحتاج إليه للتوصل إلى نتائج مقبولة. وتوجه إلى سوريا، وتوجهت إلى لندن وباريس. وفي باريس، تلقيت اتصالا من مورفي فور الانتهاء من اجتماعاته بدمشق، وقال انه يريد ان يجتمع بي فوراً.

التقينا يوم الخميس، الحادي عشر من شباط/فبراير، بمنزل السفير الاميركي في باريس. واطلعني مورفي على النتائج بشيء من التفصيل؛ قال انه اجتمع بالشرع وبخدام وبالاسد في السادس والسابع منه، وقال له السوريون انهم

مسرورون من اهتمام الولايات المتحدة بالموضوع؛ فأكّد مورفي لهم خطورة تفكُّك لبنان، وخطر الأصولية الايرانية، وقال: انه ينبغي للرئيس الجديد ان يحتل منصبه على أساس اصلاحات متفق عليها مسبّقا. ثم سأل الرئيسَ الاسد: هل قرر عدم التوصل إلى اتفاقية مع الجميل؟؛ فردّ الرئيس الاسد على ذلك بانه على استعداد للاتفاق مع الجميل. ثم أضاف الاسد ان الجميل والولايات المتحدة هما اللذان نسفا الاتفاق الثلاثي بين الميليشيات، وأعرب عن شكه في أنّ الجميل يريد التوصل إلى اصلاح. وقال إن سوريا تريد التأكيد على مبادئ معينة هي أن السلطة في لبنان ينبغي ان تقتسم بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين. ينبغي أن تظل الرئاسة بأيدي الموارنة، ولكن بصلاحيات مخفّضة، فيما تجعل السلطة التنفيذية لمجلس الوزراء. وأضاف مورفي ان الذي يريده الرئيس الاسد هو رد واضح من الجميل على هذه المبادئ، وبخصوص الطائفية. وكان خدام قد قال، أثناء الحديث، بانه يريد ورقة بخصوص ذلك من الرئيس الجميل. ولكن الرئيس الاسد رد: «لا أوراق بعد الآن. لقد تلقينا ما يكفي منها. لقد نسيت عددها».

واكد الرئيس الأسد لمورفي أن حركة «أمل» والحزب القومي الاجتماعي يحلان الميليشيا التابعة لهما. أما الميليشيات الاصولية الاخرى، فينبغي تجريدها من السلاح بالقوة بواسطة الدولة اللبنانية. ان سوريا مستعدة لتقديم العون اذا ما طلب إليها ذلك. واصر الرئيس الأسد على وجوب الغاء الطائفية خلال فترة قصيرة، لكنه شعر ان الباب مفتوح لوضع جدول زمني لتحقيق ذلك. وشعر ان ورقة الحريري وردنا عليها وثيقتان جدّيتان، جديرتان بالبحث؛ واذا ما كان ردنا ايجابياً بالنسبة للمشاركة بالسلطة وإلغاء الطائفية، فان سوريا مستعدة لنقل موقفنا إلى الاحزاب المعارضة والعمل على تأمين تأييدها. بعد ذلك يمكن لمندوبي الرئيس الجميل والمعارضة ان يجتمعوا وان يتوصلوا إلى اتفاق جديد. وكان خدام يُقْحم مسألة اغتيال رشيد كرامي، لكنه كان يصر على انه لا يربط مباحثات دمشق بعملية الاغتيال.

وشعر مورفي أنه حقق تقدما، غير انني عارضته إذ انني شعرت انه يسمح

بتحويل نفسه إلى ساعي بريد ينقل الرسائل جيئة وذهابا. كان رأيي ان على الولايات المتحدة، اذا كانت مقتنعة بموقف ما، ان تسعى لاقناع بيروت ودمشق به، او ان لا تتحرك ابداً، اذا كان الامر غير ذلك. على ان زيارة بيروت ودمشق مرة واحدة في السنة لا يتوقع لها ان تؤدي إلى نتيجة. على الاميركيين ان يكونوا على استعداد للبقاء هنا وقتا طويلا. ووافق مورفي على ذلك. ثم طلبت منه ان يبلغ كلي بالقواعد الجديدة للّعبة، وهي ان الولايات المتحدة لن تقوم بعد اليوم بدور ساعي البريد، بل ان تعمل كشريك ملتزم يحاول اقناع بيروت ودمشق بقبول ما تعتبره هي عادلا. واننا بدورنا سنعمل على هذا الاساس.

وما إن عدتُ إلى بيروت حتى أَطْلعت كلي على ما جرى في اجتماعي بمورفي. وكان كلي آنذاك قد تلقى من مورفي وصفاً آخر لذلك الاجتماع؛ وقد رأى بين العرضين فارقاً واحدا، هو أن دايفيد وِنْ، الذي سجل ملاحظات محضر اجتماع باريس قد أضاف: «كان سالم يذرع القاعة جيئة وذهابا، ويداه في جيبه، وهو يحاضر امام مورفي بحماسة عن كيفية التصرف في مرحلة المناقشات التالية». ولئن كنت قد حاضرت بالفعل، فما ذلك لأن مورفي كان طالباً لدي في المعهد العالي للدراسات الدولية في جونز هوبكنز، بل لأنني كنت عميق الاحساس بما كنت أقوله. ان دور الاستاذية جزء صميمي في شخصيتي، وهو مازال كذلك منذ سنة ١٩٥٤.

وبعد اجتماعنا، اجتمع كلي على الفور بالحص والحسيني بغية اتخاذ موقف موحد بشأن جميع نقاط الاصلاح. وحين أتينا السفارة، أنا وغسان تويني، كان كلي في حالة شديدة من القلق. كان قد عاد لتوه من بيروت الغربية، مسدسه بيده، أعصابه متوترة إلى أقصى حد. قال: العقيد وليم هيغنز، المراقب الاميركي لدى الامم المتحدة، قد خطف، وأضاف: أنه هو بدوره نجا بصعوبة وهو في طريقه من رأس بيروت إلى بعبدا. وقال لي: كنت أعلم ان دور السفيرالاميركي في بيروت دور خطير، ولكنني ما كنت أعرف انه خطير إلى هذا الحد». وتابع كلي قائلاً:

رأْي الحص في المشاركة بالسلطة لا يختلف كثيرا، عن رأينا. وبالنسبة لالغاء الطائفية، فان الحص والحسيني يريدان عملية دينامية تؤدي إلى الالغاء.

هما لا يريدان وضع مواعيد محددة، ولا إثارة الرعب لدى الآخرين؛ ولاحظ كلي انه يرى الفارق قليلاً بين موقف الحص وموقفنا، فاقترح ان نعد مذكرة بشأن المشاركة في السلطة، وبشأن الغاء الطائفية، وان نبعث بها إلى مورفي.

ولكن رئيس الجمهورية غضب وثار قائلاً: «لا يمكن لي ان استمر على هذا المنوال أَبْعَث بالرسائل وأتلقاها، دون ان يتحقق شيء، إلى ان تنتهي مدة رئاستي في أيلول/سبتمبر. ينبغي ان نضع حداً لانتهاء محادثات دمشق. ينبغي ان تنتهي في نيسان/أبريل. لست مستعداً لتوقيع الاصلاحات وتسليمها على الفور للرئيس الجديد لتنفيذها. أريد شهرين أو ثلاثة أشهر على الاقل لأنفذها بنفسي. لماذا الانتظار؟»

وكان كلي متفهما، فاقترح تحديد حزيران/يونيو حدا أقصى للتوصل إلى اتفاقية؛ وعرض نقل شعور الرئيس بالإلحاح والسرعة إلى شولتز، الذي سيجتمع به بعد أيام قليلة. واتفقنا على تزويد كلي بمذكرة عن المشاركة في السلطة والغاء الطائفية، تأكيداً للمواقف التي كنت قد اتخذتها في دمشق: السلطة التنفيذية في مجلس الوزراء، مكان منفصل عن القصر الجمهوري لاجتماعات مجلس الوزراء؛ رئيس الجمهورية يترأس اجتماعات مجلس الوزراء، وفي حال غيابه يترأس الاجتماعات رئيس الوزراء؛ الحكومة تُشكَّل من قبل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء بالتعاون بينهما؛ القوات المسلحة باشراف مجلس الوزراء؛ الغاء الطائفية تدريجيا.

وقام شولتز بزيارة المنطقة بين ٢٤ شباط /فبراير و٤ أذار/مارس، ١٩٨٨، بغية الإعداد لعملية السلام في الشرق الأوسط، على أساس قراري الامم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨. وأثناء زيارة شولتز هذه، اجتمع بالقادة الاسرائيليين، والاردنيين والمصريين والسوريين.

وفي ٢٩ شباط/فبراير أطلعني دان سمبسون، المستشار في السفارة الاميركية، على اجتماع شولتز بالرئيس الاسد في ٢٧ منه، وفيه عرض شولتز مذكرتنا على الرئيس الأسد، واضاف ان واشنطن تدعمها كليّا. ورحب الرئيس

الاسد بالجهد الاميركي ووعد بمناقشة محتويات الوثيقة مع مورفي. لم يجر أي بحث لقضية اغتيال رشيد كرامي. وبينما كان شولتز يتجول في المنطقة بشأن عملية السلام، كان السوريون يتشاورون مع المعارضة ويهيئون الرد.

وفي السادس من آذار/مارس، جاءت غلاسبي بالرد السوري. التقت بي أولاً عند الظهر واطلعتني على الزيارة الى دمشق وارادت ردوداً على نقاط معينة. لقد أراد السوريون ان يعرفوا: ما هو المقصود بترؤس رئيس الحكومة لمجلس الوزراء في غياب رئيس الجمهورية. هل يعني ذلك انه في حاجة إلى اذن من رئيس الجمهورية ليقوم بذلك؟ كان ردّنا: كلاّ.

وأراد السوريون أن يُذكر ان رئيس الجمهورية يترأس مجلس الوزراء لكنه لا يصوت. وقد وافقنا لأنه لم يكن هنالك تصويت في مجلس الوزراء، كما هو مذكور من قبل.

والقرارات التي تتخذ في مجلس الوزراء يجب تنفيذها على الفور، لا أن تهمل في أدراج رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء. ووافقنا على ذلك أيضا وفي الماضي كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء يتبادلان التهم بشأن ذلك.

وأراد رئيس المجلس النيابي، حسين الحسيني، ان يتشاور رئيس المجلس ومكتبه مع النواب بشأن تعيين رئيس الوزارة. فرفضنا ذلك اذ شعرنا ان التشاور يجب ان يجري بواسطة رئيس الجمهورية، ويجب ان تكون النتيجة ملزمة.

وعن الطائفية، قالت غلاسبي ان السوريين موافقون معنا على وجوب اقامة لجنة لالغائها بدون جدول زمني. وتابعت غلاسبي تقول لنا: انها أبلغت السوريين ان دور الولايات المتحدة قد تغيّر، وأن الاميركيين باتوا ملتزمين، ويهمهم تحقيق اتفاق بالسرعة الممكنة. وقالت غلاسبي ان السوريين ارادوا التحرك هنا بسرعة، وانهم طلبوا منها ان تعود إلى دمشق بعد زيارة بيروت. هنا أعدت عليها موقفنا، وهو أن أي مبدأ نقبل به الآن حول هاتين النقطتين ينبغي له ان يكون جزءاً من صفقة عامة شاملة، نحن لا نريد للاصلاحات ان تكون مجزأة، منفصلة، بل ان تكون كلها مترابطة، وان تنفذ كلها بالتزامن مع خطوات حل الميليشيات وانهاء القتال.

وفي المساء اجتمعت غلاسبي بالرئيس وبي. وصلت متأخرة من زيارة لها في بيروت الغربية، متعبة، متوترة الأعصاب. والرئيس كان كذلك متعبا، متوتر الأعصاب، واحس انه أهين بتأخرها. كان يتوقع منها اعتذاراً وكلاما من هذا القبيل. إلا انها كانت مستعجلة؛ ودخلت رأساً في موضوع الورقة والموقف السوري. صدمت ودهشت حين انتزع الورقة من يدها، وبسخط بالغ، وقّع عليها اسمه، وقال:

«ها هي. إليك بها. انني اوافق على كل شيء. السؤال هنا: هل ينهي هذا القتال؟»

وزمت غلاسبي شفتيها، وشحب لونها، واطلقت تنهدة عميقة، ثم عادت ببطء إلى الورقة. ولم أتمالك، بعد الاجتماع، إلا ان أقول للرئيس انه، بانفعاله، هدّد بإفشال العملية الوحيدة المتاحة أمامنا للوصول إلى تسوية. وافق على ذلك الا انه اعتقد انه عوّض عن ذلك بان غمر غلاسبي بالثناء عليها فيما بعد. كان في ذلك مخطئا. قال لي كلي في وقت لاحق انها كانت منهوكة القوى. وخلال الايام الستة الماضية كانت تتنقل ذهابا وإيابا بين دمشق، والرياض، والقاهرة، وقسمي بيروت. يضاف إلى ذلك ان كلي كان قد طلب الحراسة السورية لغلاسبي وله إلى بيروت الغربية فراح الحرس، وهم تواقون للإرضاء، يطلقون النار في الهواء لتأمين الطريق. لم تكن غلاسبي المسكينة تعلم ماذا يجري. كادت شجاعتها تنفد. ظنت أن النيران مصوبة عليها. هي في بيروت، في كل حال، وهي اميركية، منهمكة بعملية يرفضها المتطرفون في كل المعسكرات، فالرصاص، كما ظنت، كان موجها إليها.

لقد كان الاميركيون متفائلين بنجاح الحوار؛ كانوا يأملون بتحقيق إنجاز مع الرئيس الاسد عبر تسوية الازمة اللبنانية. واذا كان اقتراح عقْد مؤتمر دولي لشؤون الشرق الأوسط لم ينجح بتحقيق التقارب بين واشنطن ودمشق، فلعل التسوية في لبنان تحقق ذلك. وبهذه الطريق، يمكن لشولتز ان ينهي عمله شاعرا انه انجز شيئاً ما في المنطقة بعد فشله، عام ١٩٨٣/ ٨٤.

واجتمعت بمورفي وغلاسبي في مطار لارنكا يوم الاحد في الثالث من نيسان/ابريل. كانا قادمين من دمشق حيث اجتمعا بخدام وبحثا معه مقترحاتنا الاصلاحية. وبحسب ما قاله، كان خدام يصر على تحديد موعد نهائي لإلغاء

الطائفية. وإلا فانها ستبقى وستُنزل الأضرار بلبنان مئة سنة اخرى. على انه عاد اخيرا فوافق على عدم تحديد الموعد النهائي لالغاء الطائفية، ولو ان ذلك كان ضد قناعاته. الا انه قال ان رئيس الجمهورية، وهو ماروني، لا يجوز ان تكون له صلاحيات البتة. هنا سأله مورفي: «هل تسمح له بفراش ينام عليه؟» وضحك خدام، وهو الذي طالما تمتع بالنكتة الطريفة. وعارض خدام منح الرئيس لقب القائد الأعلى للجيش لأنه هو رئيس ماروني، يحابي الطائفية المارونية..

وحين رد مورفي بان اللقب رمزي، غضب خدام وردّ بان رموزاً كهذه هي التي قادت لبنان إلى الكارثة. قال مورفي: انت لا تريد رئيسا، انت تريد روبوطاً. ثم استنتج مورفي ان خدام كان يناقش صلاحيات الرئاسة وهو يفكر بالجميل. وحين اشار مورفي إلى الصلاحيات المعطاة للرئيس في الاتفاق الثلاثي، قال له خدام ان العودة إلى اتفاق ميت أمر غير جائز. يضاف إلى ذلك ان خدام اراد لرئيس المجلس النيابي ان يشارك رئيس الجمهورية في اختيار رئيس الوزراء، احساساً منه بان ذلك يعزّز مصداقية العملية.

ويمكن ايجاز الموقف الاميركي من المشاركة في السلطة بمبدأين:

١ - تحطيم رئاسة الجمهورية ينسف أي فرصة لتوحيد لبنان مجددا؛

٢ - اعادة توحيد لبنان تتطلب صيغة سياسية مختلفة عن صيغة ١٩٤٣.

كنا موافقين على ذلك كل الموافقة، الاّ انني كنت أعتقد انه من المهم ان لا تجرد الرئاسة من كل الصلاحيات. وفي ٢٠ نيسان/ابريل قلت لغلاسبي: «اننا نريد لبنان دولة عربية يشعر فيها المسيحيون بانهم أحرار ومتساوون، وبان لهم مجالا للوصول إلى السلطة فيها. مثل هذا الشعور يجب ان تتوافر له ضمانات بنيوية، والا كان بلا معنى. والرئاسة ضمانة من هذا القبيل. وكرمز للوجود المسيحي الابداعي في لبنان وفي الشرق العربي، ينبغي لها ان تتمتع بالصلاحيات» ونصحت غلاسبي ان تزور باريس والفاتيكان للحصول على منظور لدور المسيحيين في الشرق، وعلى أهمية الرئاسة. وقامت بذلك في نهاية نيسان/ابريل، ولو ببعض التردد، وقالت لي بعد الزيارة: «لا فائدة ترجى لا في باريس ولا في الفاتيكان».

في أوائل أيار/مايو قضت غلاسبي أسبوعا في دمشق، ناقشت خلاله حاجة لبنان إلى حكومة تستطيع ان تحكم؛ ذلك يعني حكومة تجتمع وتديرالامور اليومية، وتشرف على انتخاب الرئيس الجديد. واذا تعذر تشكيل مثل هذه الحكومة، فان على الحكومة الحالية ان تجتمع وتحكم.

اهتمامات سياسية

نحن في ايار/مايو ١٩٨٨، وقد عدنا إلى البحث في نقاط كنا قد استنفدنا البحث فيها عام ١٩٨٦ و عام ١٩٨٧، وفي نقاط اخرى كنا قد اتفقنا بشأنها من قبل. ومنذ خريف ١٩٨٣، بذلت جهدي للمساهمة في صياغة اصلاح ينهي الحرب. عملت جاهداً مع الحريري في مؤتمر جنيف، ومع خدام والحريري ومروان حماده في مؤتمر لوزان؛ ونصحت بتعديل الاتفاق الثلاثي وكتبت عشرات الوثائق وعقدت عشرات اللقاءات، ولكن تبين ان سوريا لا تريد الاتفاق مع الجميل، ولذلك انصب اهتمامنا كليا على تأليف حكومة جديدة وانتخاب رئيس جديد.

ووافقت غلاسبي على استنتاجاتي، ورأت ان الحكومة الجديدة يجب ان تشكل قبل حزيران/يونيو، وقبل ان تصبح حملة الانتخابات الرئاسية في ذروتها.

كانت مقتنعة ان سوريا تريد للانتخابات الرئاسية ان تجري في موعدها لانها تفضل ان تعمل مع حكومة جديدة. وكانت ترى أن سوريا تريد حوارا مستمرا مع الولايات المتحدة، وتريد ان يكون لبنان جزءا من هذا الحوار.

وفي أحاديث مع دان سمبسون، بصدد الانتخابات الرئاسية، قال لي ان الولايات المتحدة بريئة في هذا الشأن. هي لا تعلم المدى الذي كانت الأطراف، اي سوريا واسرائيل والقوات اللبنانية والرئيس، مستعدة للذهاب اليه. قال سمبسون: «انني اتخيل محادثاتنا مع السوريين جارية على الصورة التالية: يقترحون سليمان فرنجية وايلي حبيقة، فننفجر ضاحكين، ونقترح سمير جعجع، فينفجرون بالضحك بدورهم. وهكذا نستمر في هذه اللعبة الى ان يتلاشى الضحك».

كذلك اثار سمبسون مسألة قائد الجيش، الجنرال ميشال عون. كان يعلم انه لا يحظى بدعم الرئيس او القوات اللبنانية، وبانه لا حظَّ له في انتخابه رئيساً. كان سمبسون يقول ان الرئيس الجميل يريد حكومة جديدة لاتخاذ مقررات ادارية معينة احدها عزل عون. كان محقا في ذلك. ولذلك اقترح سمبسون ان يبعث الرئيس الجنرال عون سفيراً الى احدى البلدان في اميركا اللاتينية، بدلا من مجرد عزله. ورحب الرئيس بالفكرة، لكنه عرف ان الحكومة لن توافق على اي تدبير يتقدم به. كان يقول متذمراً: «اذا قلت ان الجو صاح، قالوا: بالعكس انه ممطر».

وفي حزيران/يونيو كان محتوى العملية الاميركية السورية قد تغير تغيرا أساسياً. ومع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية، اخذت جميع الجهود تنصب في ذلك الاتجاه. وبين السابع والعاشر من حزيران/يونيو، عقد في الجزائر مؤتمر قمة للجامعة العربية لبحث الانتفاضة في الاراضي المحتلة، وحضره الرئيس الجميل مصحوبا بالوزير جوزيف الهاشم وبي.

وكان الزعيم الليبي معمر القذافي نجم الجلسة الافتتاحية لمؤتمر القمة. وليس بين زعماء العالم العربي النابضين بالحياة من يبرز مثله ناشطا حياً. هو لا يتميز فقط بسياسته المتطرفة، بل باسلوبه الشخصي في الدرجة الاولى. لقد كشف الزي القبلي القديم وجعله حديثاً بمساعدة المصممين الايطاليين. عرف عادات الغرب من القوات الاجنبية في ليبيا. وطوّر فنّ «خض» الغرب، مخالفة عاداته. ونظر الى العالم العربي وانتقى ايديولوجية لا يمكن لاحد ان يناهضها، ولو ان احدا سواه لم يتخذها بصورة جدية. ادرك المألوف العادي واختار الغريب غير العادي. واذا كان السعوديون يهجرون الخيام ليسكنوا القصور، فانه اراد ان يجعل من الخيمة ذلك المقر المحترم مرة ثانية، ونصب له خيمة بجوار مكتبه. وفي الجو الرجولي المخيم على العالم العربي اختار تجنيد الفتيات حراساً له. ورأى البروتوكول الجديد يسيطر على العلاقات بين رؤساء الدول فقرر خرقه. القذافي ممثل ممتاز في الاساس. غالبية تحركاته مدروسة بدقة لتحقيق الصدمة التي يريد.

وفي قمة الجزائر جلس القذافي وحده بثوبه الابيض الفضفاض. يده اليمنى

في قفاز ابيض، ظاهر للعيان. مال الرئيس الجميل نحوه وسأل عن سبب لبس الكف فرد: «أوه لتغطية جرح من الغارة الاميركية اللعينة». وكان الاميركيون قد قصفوا طرابلس - ليبيا، ومسكنه، وطالبوا بمقاطعته من قبل الدول الحليفة.

لم اقتنع بالرد. اعدت عليه السؤال همساً، مرة ثانية، فرد هامساً: «علي أن اصافح هؤلاء الملوك والرؤساء والامراء الرجعيين جميعاً. هذه الكف وقاء لي، ويؤمن نظافتي!»

واثناء تبادل الكلمات والعبارات اللطيفة بين القذافي والجميل، وعد الزعيم الليبي بان يرسل للرئيس خيمة توفر له الدفء، والكتاب الاخضر الذي يوجز فلسفته السياسية، للاسترشاد به. الخيمة لم تصل، اما الكتاب فقد وصل مع اهداء خاص.

ويجري العمل الحقيقي في القمم العربية في لجنة تحضير المقررات حيث تتمثل جميع الوفود. وكان الموقف الأهم في لجنة الصياغة هو الذي صدر عن وزير الخارجية السوري فاروق الشرع، محدداً بتعابير واضحة، سياسة سوريا من القضية الفلسطينية قال: إنَّ سوريا من ناحية تاريخية، تعتبر المسألة الفلسطينية هامة بالنسبة لها. وكان بذلك يرد على فاروق القدومي مندوب منظمة التحرير الفلسطينية، الذي طالب بحق الفلسطينين ان يتخذوا قرارهم المستقل المتعلق بقضيتهم.

ولقد دوّنت موقف الشرع، كما يلي:

«ان سوريا هي الدولة العربية الطليعية في الدفاع عن الحقوق القومية للعرب، وعن حقوق الفلسطينين بصورة خاصة. ان القضية الفلسطينية ذات اهمية خاصة لسوريا، لأن الشعب الفلسطيني، والشعب السوري، شعب واحد. ومن الطبيعي لذلك ان يكون لسوريا: اهتمام بالقضية الفلسطينية، مختلف كليا عن اهتمامات الدول الاخرى. التاريخ يتكلم عن بلاد الشام. وهذه البلاد تتالف من سوريا، والاردن، وفلسطين ولبنان. منذ زمن الامويين، كانت بلاد الشام وحدة واحدة سياسيا، وكانت دمشق قلبها النابض. هذا هو التاريخ.

«ونحن لا نخترعه. ولقد ظل الأمر كذلك حتى قسمت اتفاقية سايكس - بيكو بلاد الشام الى دول مختلفة. ولكن اتفاقية سايكس - بيكو لم تغير الحقيقة. وهي ان الشعب الذي يقطن هذه المناطق الاربع شعب واحد، وهو من حيث الجوهر، وحدة سياسية.

«ولقد كانت اتفاقية - سايكس بيكو الانتهاك التاريخي الاكبر لهذه الحقيقة. إنها مسؤولية اهل بلاد الشام ان ينهوا هذا الانتهاك، وان يستعيدوا للشعب الذي يشكل بلاد الشام استقلاله ووحدته. اننا لا نريد ان نتدخل في الانظمة السياسية القائمة في بلاد الشام حاليا، لكنه حق لنا، وواجب علينا، ان نقول ان القرارات التي تؤثر على اهل بلاد الشام لا يمكن اتخاذها بدون اعتبار موقف دمشق وهي قلب هذه المنطقة. واذا كانت الانتفاضة حدثا هاما، وكانت للفلسطينيين حقوق، فانهم لا يستطيعون التوصل الى تسوية لها تاثيرها على المستقبل السياسي للفلسطينيين بدون مشاركة دمشق الفعلية. هذا هو موقفنا؛ هذه هي ايديولوجيتنا؛ هذا هو ما نؤمن به. مثل هذا الموقف قد لا يسر بعض اصدقائنا في هذا الاجتماع، لكنه واجب علي ان اوضح موقفنا كي لا يكون هنالك اي سوء تفاهم. مستقبل فلسطين، كمستقبل الجولان، كمستقبل جنوب لبنان، ينبغي تقريره معا، لان جميع هذه القضايا تشكل اجزاء من قضية بلاد الشام الرئيسية».

لقد فسّر هذا الخطاب معارضة الرئيس الاسد لاتفاقيات كامب دايفيد، واتفاقية الانسحاب الاسرائيلي في ١٧ أيار، ١٩٨٣، والخطوات الحالية التي تتخذها الولايات المتحدة في عملية السلام.

مرة اخرى أخفقت محاولاتنا في الجزائر لبحث الاصلاحات مع الرئيس الاسد، ولتشكيل الحكومة الجديدة والانتخابات الرئاسية. الواقع ان الجميل والاسد اجتمعا، لكن الرئيس الاسد لم يسمح للمناقشات ان تجاوز الناحيتين الشخصية والعامة، فجاء ذلك دليلا آخر على انه كان يتطلع الى العهد الذي يلي عهد الجميل. وطلب الرئيس تعاون الرئيس الاسد لتشكيل حكومة جديدة، مما اثار دهشة الاسد. سأله: «ولماذا تريد حكومة جديدة؟». فرد الجميل: «لان الحكومة القائمة قاطعتني

ثلاث سنوات. هل سمعت ببلاد على هذه الارض لا تجتمع حكومتها برئيسها؟» ولكن الرئيس الاسد اكتفى بالابتسام.

وعلمنا في الجزائر ان الاميركيين والسوريين اتفقوا على العودة في أيلول/سبتمبر، وبعد انتخاب الرئيس اللبناني الجديد، الى متابعة عملية الاصلاح من حيث كانوا قد وصلوا. وقد عمد بوب أو كلي، المعاون في البيت الابيض، الى تحديد الموقف الاميركي بعبارات قاسية واضحة؛ قال لي: «ان الاهتمام في الولايات المتحدة قد تحوّل؛ وهو الآن موجه نحو عقد مؤتمر دولي بخصوص الشرق الاوسط، ونزع التسلح النووي، والحرب العراقية الايرانية، والانتخابات الرئاسية الاميركية، وهي الاهم. لبنان لم يعد قضية كبيرة؛ وليس في واشنطن من يعتقد ان لبنان بلد محوري لنجاح السياسية الاميركية في الشرق الاوسط أو فشلها. لقد اعترفت الولايات المتحدة بوجود سوريا في لبنان ونفوذها فيه، وهي تريد لهذا النفوذ ان يكون ايجابيا لصالح لبنان. وستلجأ اميركا في الوقت الحاضر الى علاقتها الطيبة مع سوريا للوصول الى اتفاق على مرشح للانتخابات الرئاسية اللبنانية. ينبغي لهذه العملية ان تسفر عن ثلاثة اسماء او اربعة تحظى بالاتفاق العام، ثم يصار الى اختيار احدهم».

وفي ٢٨ حزيران/يونيو، اجتمع الوزير جوزيف الهاشم، مبعوث الرئيس الجميل الخاص، بالرئيس الاسد لبحث انتخاب رئيس جديد. واقترح الرئيس الاسد ان يبعث اليه الرئيس الجميل باسمين او بثلاثة اسماء ممن يتمتعون بقبول واسع في اواسط مختلف الفئات اللبنانية السياسية. وينبغي ارسال هذه الاسماء بواسطة الجنرال غازي كنعان، رئيس الاستخبارات السورية العسكرية في لبنان. وكرر الرئيس الاسد موقفه من أن تشكيل حكومة جديدة غير ضروري. قال الرئيس الاسد لجوزيف الهاشم: «ان تشكيل حكومة جديدة في الوقت الحاضر هو بمثابة دق مسمار في تابوت».

واراد كلي لمورفي أن يأتي الى بيروت ودمشق في تموز/يوليو لمتابعة المحادثات بخصوص الانتخابات الرئاسية. كان واضحا للجميع ان الرئيس القادم

ينبغي له ان يحظى بموافقة سوريا والولايات المتحدة. وهنا كان كلي يتساءل: كيف يمكن لمورفي ان يواجه الموضوع؟ لنفترض، كما قال، ان السوريين قالوا له انهم يريدون رينيه معوض. فهل يدعمه الرئيس الجميل؟ قلت له: طبعا، انه يدعمه.

ودهش كلي لجوابي. قلت له ان الرئيس الجميل، على ما اعلم، لم يضع «فيتو» على اي شخص. لديه لائحة من بضعة اسماء يوحي بهم اذا ما سئل. هو يفضل ان لا يصار الى اعادة انتخاب الرئيس السابق سليمان فرنجية لانه يهاجمه باستمرار. وهو لا يريد الجنرال عون لانه لم يكن مواليا له. ولأنه في نظره كان يعمل لاغراض سياسية، فيما كان يجب عليه ان يركز على قضايا امنية وعسكرية. الرئاسة في نظره يجب ان تبقى محصورة في السياسيين او «في اولاد العائلات المعروفة». وعندما كان يشدد الرئيس على «ابن العائلة» كنت اقول له ماذا تعني بذلك؟ نحن في عصر ثوري وليس من الضروري ان تكون «العائلة المعروفة» منبعا للمرشحين الصالحين. وقلت للرئيس الجميل: انك في حديثك مع الرئيس الاسد كنت تشير دائما الى الرئيس كامل الاسعد بانه «ابن عائلة». وكان الرئيس الاسد يبتسم. القادة، في ذهن الرئيس الاسد، ينشأون خلال النضال للوصول الى السلطة، ليس بفعل الوراثة.

وحين حمل جوزيف الهاشم اقتراح الرئيس الاسد الى الرئيس الجميل فوجىء به ولم يكن متشوقاً لارسال لائحة باسماء مرشحين بواسطة الجنرال كنعان. كان يؤثر تسوية القضية، بينه وبين الرئيس الاسد رأساً. واذا ما شاء الاميركيون ان يتدخلوا في العملية، فذلك مستحسن. ومع ذلك، فقد بعث في ٦ تموز/يوليو بضابط في الجيش إلى الجنرال كنعان لابلاغه بان الرئيس ينظر في اقتراح الأسد وأنه سيرسل في الوقت المناسب اسمين او ثلاثة اسماء كما هو مقترح.

ومنذ تموز/يوليو، انفتح باب الصراع على الرئاسة على مصراعيه. وركز المرشحون انظارهم على المفتاحين الرئيسيين في العملية الانتخابية، دمشق والسفارة الاميركية في بيروت. وفي بيروت كان الاعتقاد السائد ان واشنطن وسوريا ستختاران الرئيس القادم، وكان النواب حريصين على معرفة مسبقة

للشخص المتفق عليه ليبادروا الى دعمه. وجاء مسلك المرشحين بفعل الوقائع السياسية الناجمة عن الحرب يعطي الولايات المتحدة وسوريا قوة في العملية اكبر مما كانتا تأملان فيه. وفي دمشق، كان خدام الذي كان يستطيع، في بيئة اخرى، ان يكون قائد جوقة موسيقية موهوباً، يقابل المرشحين واحداً بعد الآخر، وينصحهم بصدد كيفية الإعداد لحملتهم الانتخابية لدى اعضاء المجلس النيابي. والعادة في السياسية اللبنانية أن يصار الى اجماع مسبق على المرشح، ثم تعقد الجلسة النيابية لانتخابه. مرة واحدة، سنة ١٩٧٠، كانت المعركة الانتخابية حامية، وفاز سليمان فرنجية آنذاك بأكثرية صوت واحد.

وفي ٢١ تموز/يوليو اتخذت القوات اللبنانية موقفا علنيا رفضت فيه ثلاثة مرشحين للرئاسة هم: ريمون إدّه، وميشال عون، وسليمان فرنجية. وتعاطف الرئيس مع هذا الموقف. وفي نهاية تموز/يوليو انتشرت شائعات بأن الجنرال عون ينوي القيام بانقلاب اثناء فترة الانتخابات. ولكن الرئيس ومستشاريه العسكريين لم يأخذوا هذه الشائعات مأخذ الجد. انطباعهم بالنسبة لميشال عون هو أنه «لن يجرؤ على أن يقدم على مثل هذه الخطوة». وعرفنا من المرشحين الذين يجتمعون بخدام أن فرصة الجنرال بالنسبة للرئاسة ضعيفة. كان خدام يعتبره متردداً لأنه ارتكب، في رأيه، اربعة اخطاء:

١ـ أخفق في القضاء على قوات حبيقة عندما شقت طريقها الى الاشرفية؛

٢ـ أخفق في الحفاظ على معنويات جيشه بعد اغتيال الجنرال خليل كنعان، أحد اصدقائه المقربين اليه، على ايدي القوات اللبنانية؛

٣ـ اخفق في استغلال مناسبة اغتيال رئيس الوزراء رشيد كرامي في طوافة للجيش، كي يحسّن سمعته؛

٤ـ حين ندّد الرئيس الجميل بمطامع الجنرال بالرئاسة امام ضباطه، لم يقم الجنرال بمجابهته. تساءل خدام: «فكيف يتوقع المرء ان يؤيد مثل هذا المرشح؟».

وكانت حُمَّى الانتخابات تَقْوى مع اقتراب موعدها. وبموجب الدستور اللبناني

يتحول المجلس النيابي الى هيئة انتخابية بين ٢٣ تموز/يوليو و٢٣ آب/اوغسطس. وخلال هذه الفترة يمكن لرئيس المجلس ان يدعو المجلس في أي وقت كان الى الاجتماع لانتخاب رئيس يتسلم السلطة في ٢٣ أيلول/سبتمبر. وإذا تعذر، لأي سبب من الاسباب، إجراء الانتخابات خلال هذه الفترة، فإن إجراءها يبقى ممكنا قبل ٢٣ منه. وفي كل يوم تقريبا كان الرئيس يبحث مع مستشاريه الاسماء الثلاثة التي سيرسلها الى الرئيس الاسد بواسطة الجنرال غازي كنعان. غير أن هذه الاسماء كانت تتغير كل يوم كذلك. وفي باريس كان الحريري يُجْري تقييما للمرشحين، ثم يتقدم برأيه الى السوريين والاميركيين.

وأبلغ الاميركيون الرئيس الجميل أن سليمان فرنجية «لن يُنتخب»، فيما قال الجميل للاميركيين إن ريمون اده وميشال عون لن يسمح لهما بالوصول الى الرئاسة. ولعله بذلك قصد أن القوات اللبنانية، بدعم منه على ما يرجح، ستعارض انتخابهما.

وهنا طلع الدكتور جعجع بالاقتراح التالي وطلب منا ان ننقله الى الرئيس الاسد بواسطة مورفي. وفيه دعا الى ان يختار الرئيس الاسد ثمانية اسماء، وبذلك تنعكس العملية التي كان يدعو اليها الرئيس السوري؛ ثم نقوم نحن، اي الرئيس الجميل القوات اللبنانية والزعماء في المنطقة الشرقية باختيار ثلاثة من بين الثمانية. بعد ذلك يكون للرئيس الاسد ان يختار مرشحا من الثلاثة. ورفض الاميركيون حمل الاقتراح. وفي هذه الآونة كان التنسيق بين الجميل وجعجع كاملا. يضاف الى ذلك ان الاميركيين كانوا يرفضون نقل اسم اي مرشح الى دمشق ما لم يكن مقبولا للرئيس الجميل وسمير جعجع. على اعتبار انه لا الجميل وحده يمثل المسيحيين، ولا جعجع وحده يمثل المسيحيين، ولكن للاثنين معا مصداقيّة تمثيلية. وفي الرابع من آب/اوغسطس، اجتمع مورفي بالرئيس الجميل في بيروت، واصدر بالتالي بياناً أكّد فيه اهمية اجراء الانتخابات، ووجوب التقيد بالدستور، ومسؤولية اللبنانيين في «اختيار رئيسهم الجديد».

وفي الثامن من آب/اوغسطس، اجتمع مورفي بالرئيس الاسد؛ قيل له ان

سوريا تؤيد سليمان فرنجية للرئاسة، غير أنها لم تشجعه على ترشيح نفسه. كان الرئيس الاسد يحترم سليمان فرنجية، ويَثِق به. هو له صديق شخصي. واذا ما اراد سليمان فرنجية ان يرشح نفسه للرئاسة. فان سوريا ستقف الى جانبه، لكنها، وهو المسن، لا تشجعه على ذلك. ثم ان سوريا لا تريد رئيساً يخضع للميليشيات. وظهر ان هنالك اتفاقاً عاما بين الرئيس الاسد ومورفي حول «نقاط البحث» التي نوقشت في بيروت، إلا انه لم تتخذ أي خطوات ملموسة. وبدا ان عقد اجتماع بين الرئيسين الجميل والاسد للاتفاق على مرشح للرئاسة، بات الآن بعيد الاحتمال ولذلك فان أيَّ اقتراح من قبل الرئيس الجميل لا بد أن يمر عبر مورفي.

وبعد بضعة ايام زارني سمبسون ليشرح لي بعض الاجواء التي سادت محادثات مورفي في دمشق. قال إن سوريا التي تؤيد سليمان فرنجية اذا ما اختار ترشيح نفسه، لا تزال تبقي الباب مفتوحا أمام مرشحين آخرين. وقال خدام: «ان علينا ان نبحث عن ثلاثة مرشحين او أربعة»، مما اعتبره سمبسون مشجعا. كذلك فان سوريا تصر على ضرورة اجراء الانتخابات ضمن المهلة الدستورية وكان رأي سمبسون ان الرئيس سليمان فرنجية سيرشح نفسه، وأن هذا الترشيح يعزز فرصة النائب مخايل الضاهر والجنرال عون. مخايل الضاهر، كما قال، معقول، ومقبول، بالنسبة لفرنجية، كما ان الجنرال عون سيعتبر افضل من فرنجية من قِبَل بعض الزعماء اللبنانيين. واذا لم يؤيد الرئيس الجميل مخايل الضاهر او الجنرال عون، فعليه عندئذ ان يرسل بواسطة الاميركيين لائحة باسماء المرشحين لمناقشتها في دمشق. وكان سمبسون قد تحدث الى مخايل الضاهر، ووجده معقولا «رغم ان الولايات المتحدة لا تدعم مرشحا معيناً». ثم اضاف ان الولايات المتحدة تعلن ان هنالك عدداً من المرشحين المعتدلين، ومنهم رينيه معوض، وميشال إده، ومانويل يونس، وبيير حلو، وجان عبيد، وجورج افرام. وقال ان هنالك مجالاً لإضافة اسماء اخرى إلى هذه اللائحة.

وقال لي سمبسون ايضا: ان الولايات المتحدة لا تدعم الجنرال. لقد وجد فيه الأميركيون شخصاً هادئا وأمينا، لكنه ليس سياسياً، وأن الاميركيين لا يدعمون

الجنرالات: لانهم لا يعرفون كيف يحكمون بالاجماع. هم يرفضون التخلي عن السلطة اذا ما اعطيت لهم. ثم اكد لي سمبسون ان الدور الاسرائيلي في انتخابات الرئاسة ضئيل جدا. قال: «لقد قلنا لهم ان يظلوا بعيدين عنها، لاننا نحن دخلنا فيها مباشرة».

وفي الخامس عشر من آب/اوغسطس، اجتمع الرئيس بكريم بقرادوني، والعقيد قسيس، وبي، وقررنا ارسال اسماء ثلاثة بالطريقة المقترحة. كان رايه قد استقر على مانويل يونس، وميشال إده، وبيار حلو. تلك الليلة اتصل قسيس بالجنرال كنعان وقال له ان الاسماء جاهزة لدينا. ولم يُبْد الجنرال كنعان اي اهتمام بذلك. وفي صباح اليوم التالي اتصل به قسيس مرة ثانية فقيل له انه تأخر، اذ ان سوريا قررت دعم فرنجية.

وادى هذا النبأ إلى تشدد حلف الجميل - جعجع. ثم اخذا يعملان لمنع انعقاد الجلسة بالقوة في ١٨ آب/اوغسطس لانتخاب الرئيس سليمان فرنجية. وفي ١٧ منه اتصل كنعان بقسيس وطلب منه لائحة الاسماء. وعلى الفور ارسلها اليه قسيس. وفي اليوم ذاته، اعلن فرنجية ترشيحه رسمياً. آنذاك راح الجميل وجعجع يعملان لمنع النواب من الوصول الى مجلس النواب للحؤول دون اكتمال النصاب. وفي الليل وزعت القوات اللبنانية مسلحين في المنطقة الشرقية لمنع النواب من الوصول الى المجلس. وتعاون معهم الجميل وعون في هذا المسعى، ولو لاهداف مختلفة. الجميل يأمل بان يكون الرئيس الجديد صديقا له يتعاون معه ويعطيه كرئيس سابق دوراً في الشأن العام. وكان الرئيس فرنجية يكره آل الجميل وجعجع. اما عون فشارك في الحؤول دون الانتخاب خشية ان يكتمل النصاب وينتخب المجلس سليمان فرنجية. لقد كان يريد تأجيل العملية ريثما يشعر ان له فرصة جيدة لترشيح نفسه واحتمال انتخابه رئيسا.

ويوم الانتخاب، خُطف بعض النواب الذين تجرأوا على تحدي الحواجز، حتى الظهر حين اعلن الغاء الجلسة بسبب عدم اكتمال النصاب. وحين زرت احد النواب في وقت لاحق لتهنئته بالافراج عنه، راح يروي قصته امام الزائرين قائلا بتأثر:

«فيما كنت اتوجه بسيارتي الى المجلس، اوقفني مسلحون وطلبوا مني هويتي. قلت لهم انني نائب ذاهب الى المجلس للقيام بواجبي الوطني. ها! ها! اجاب المسلحون. نائب! يا له من صيد ثمين!».

وخشي النائب رينيه معوض الاستياء السوري من الجميل وجعجع وعون لمنعهم انتخاب فرنجية، فتوسل الينا ان لا ندرج اسمه في اللائحة التي نبعثها الى الجنرال كنعان. قال: «تلك هي القبلة المميتة. اتركوا اسمي للمباحثات الجدية بين الرئيس الاسد ومورفي».

والواقع ان السوريين سخطوا على الرئيس الجميل، وجعجع، وعون، لدورهم في منع انعقاد الجلسة النيابية. وبحسب اقوال بعض النواب العائدين من دمشق، ظل فرنجية المرشح السوري، حتى اذا ما تعذرت الانتخابات ثانية، كان لحكومة الحص ان تستمر في مهماتها، وان تتسلم صلاحيات الرئاسة بدءاً من ٢٣ ايلول/سبتمبر. ولهذه الحكومة ان تسيطر على جميع اجهزة الدولة، لاسيما المصرف المركزي، حيث يختزن احتياطي الذهب. وستطلب هذه الحكومة من الجنرال عون ان يمتثل لاوامرها، ثم يُسْتبدل به، اذا رفض، قائد آخر. بعد ذاك يطلب من المصرف المركزي ان لا يدفع اي مال للمنطقة الشرقية؛ وكأن خدام كان، على ما بدا، قد تحسّب لمختلف الخطوات المقبلة.

هنا كان موقف الولايات المتحدة أنها على استعداد للبحث مع سوريا في مواصفات الرئيس الجديد وبطريقة انتخابه. وفي ٢٨ آب/اوغسطس ابلغني كلي ان شولتز فوَّض مورفي التباحث في الأسماء مع الرئيس الاسد، وأنه سيطلب من الرئيس الاسد تحديد موقفه من الاسماء الثلاثة التي بعث بها الجميل في ١٧ منه. وله، اذا كان معارضاً لهذه الاسماء، ان يقترح اسماءً بديلة. عند ذاك يعود مورفي الى بيروت لمعرفة موقف الجميل وغيره من القادة. على ان مورفي لم يكن ينوي الانشغال بدبلوماسية مكوكية بين دمشق وبيروت. لقد كانت الولايات المتحدة على اتصال بفرنسا والفاتيكان والعربية السعودية، للمساعدة في دفع العملية الى الامام وانتخاب الرئيس في الموعد الدستوري المحدد.

وفي ٣١ آب/اوغسطس اجتمع البطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير بالنواب الموارنة، واصدر بيانا دعا فيه الى انتخاب الرئيس قبل موعد ٢٣ ايلول/سبتمبر، والتعاون مع سوريا والدول الاخرى، لضمان نجاح العملية الانتخابية، واجراء الاصلاحات. غير ان الاصرار السوري على فرنجية زاد التأكيد على ان الانتخابات الرئاسية لن تجري. وحتى الآن تعاون الجميل وجعجع وعون فيما بينهم على رفض فرنجية، ثم انه لم يكن هناك اي دليل على امكان اتفاق الثلاثة مع سوريا على مرشح واحد.

ومع ذلك، فقد كان على الرئيس الجميل ان يفكر تفكيراً جدياً في نوع الحكومة التي ستتسلم مهام الرئاسة بعد انتهاء عهده. وللحظة فقط، خطر بباله استبقاء حكومة الحص بعد توسيعها لجعلها أكثر تمثيلاً، إلا انه كان يمثل تياراً سياسياً مارونياً راسخ الاعتقاد بان مصير الطائفة ومصير الرئاسة المارونية مصير واحد لا ينفصم. وقد قرّر الجميل تعيين حكومة جديدة برئاسة ماروني اذا لم ينتخب رئيس جديد للجمهورية في الوقت المحدد.

وقضى الرئيس الجميل الأسبوعين الأخيرين من عهده وهو يحاول ايجاد حل للانتخابات الرئاسية، أو إقامة حكومة انتقالية في حال عدم اجراء الانتخابات. واتجه التفكير الى الرئيس السابق شارل حلو كرئيس للحكومة الانتقالية، وتوجهنا، أنا وسيمون قسيس، بناء على تكليف من الرئيس، لاستكشاف الموضوع معه. وبعد أنْ انهيت كلمتي التمهيدية، قال لي الرئيس حلو: انني اعرف ماذا تريدون. تريدون مني ان اكون رئيس حكومة. ذلك ما لا استطيع القيام به. انني متقدم في السن؛ وزوجتي مريضة؛ لقد قمت بما يتوجب علي، واليكم أسماء من ارشحهم لهذا المنصب. اقترح غسان تويني: لديه صحيفة كبيرة، وهو لا يفتقر الى الخبرة. صحيح انه يتكلم كثيراً ولكن كلامه له معنى اكثر الوقت. واقترح ايضا إيلي سالم: صحيح انه جديد في السياسية، ولا ريب ان امامه اشياء كثيرة يتعلمها. ولكن لِمَ لا؟ وماذا بشأن جوزيف الهاشم؟ هو، بخلاف ايلي سالم، لا يتقن الصمت. وماذا بشأن عبده عويدات؟ هو نائب جيد ولو انه بدا لي في المرة الاخيرة التي لقيته فيها مسناً. وماذا

بخصوص الجنرال عون؟ لا، لا. ارجو شطب الاسم من اللائحة. لا تقولوا للرئيس انني اقترحت اسمه. وماذا بشأن فرنجية؟ هو رجل دولة مجرب ولكنّ اعداءه كثر في شرقي بيروت. وماذا بشأن ميشال إده؟ هو كبير الى حد كاف. إنه يتمتع بكافة الاوصاف، الا انه لا يعرف كيف يتوقف عن الكلام. وهكذا واصل الرئيس شارل حلو سرد الاسماء ليعود فيذكر العيوب او نقاط الضعف فيها. ومن الواضح انه مهتم بالموضوع. لقد أراد عرض المنصب عليه لكي تكون له، على الاقل، كلمته في العملية. هو رجل معتدل، وموثوق به من قبل الجميل وجعجع. غير ان اسمه استبقي احتياطيا للحظة الاخيرة.

وفي هذه الاثناء عمد الحص، وهو يخشى ان يكون وضْع الحكومة التي يترأسها وضعاً مهتزّاً، بسبب استقالة رئيس الوزراء رشيد كرامي قبل شهر من اغتياله، الى توجيه رسالة خطية الى رئيس الجمهورية في ٢ ايلول/سبتمبر، ساحباً الاستقالة التي تقدم بها رشيد كرامي. ولقد فعل ذلك ليضمن استمرار حكومته وتسلم مهام رئيس الجمهورية في حال عدم اجراء الانتخابات.

ولدى تسلّم رسالة الحص، أصدر الرئيس بياناً قال فيه ان استقالة رشيد كرامي قائمة، وأنَّ سحْبها غير قانوني. وهكذا، فان النزاع بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة أخذ، منذ مطلع أيلول/سبتمبر، طابعاً سياسياً وقانونياً.

ومع ان الرئيس الجميل كان يحب ان يمدد ولايته سنتين أخريين اذا امكن التوصل الى اتفاق من اجل ذلك مع سوريا والمعارضة، فانه، على ما اعلم، لم يعمل من اجل ذلك، ولم يثر المسألة بصورة جدية مع اي طرف من الاطراف. على انني كنت اخشى ان يكون قد بحث هذا الامر مع مستشارين آخرين. وللتثبت من الحقيقة، دخلت مكتبه ذات صباح وقلت له انني سمعت بشائعات عن عزمك على تمديد مدة رئاستك، وقلت له انني اعتقد ان ذلك خطر بالنسبة له وللبلاد. كان رأيي ان عليه ان يتقيد بالعملية الدستورية؛ والدستور لا يسمح بتجديد مدة الرئاسة. ونصيحتي: ان جهوده يجب ان تنصب فقط على ضمان انتخاب خلف له، لا على تعيين حكومة جديدة برئاسة ماروني. مثل هذه الحكومة تقود الى تعريض وحدة

لبنان للخطر والدخول في نفق مظلم. قلت له ان رئاسة فرنجية، وهو يعارضه، افضل من الرئاسة الشاغرة.

وقاطعني الرئيس، واكّد لي انه يتفق معي على ذلك كليا، وان علي ان اعمل على ذلك الاساس. وعلى هذا الاساس، ولتسجيل الواقع اعلنت موقف الرئيس لجميع الاطراف المعنية، بمن في ذلك السفراء الاجانب. وسرّ كلي لسماع إعلان هذا الموقف رسمياً، وبصورة قاطعة: اذ ان واشنطن كانت مليئة بالشائعات عن عزم الجميل على البقاء في المنصب. ثم اكّد لي كلي ان الولايات المتحدة تبذل جهودها لتأمين انتخاب رئيس جديد، وانه مستاء من الزعماء الآخرين في لبنان بسبب فتور نشاطهم في هذا المجال. وكان يميل الى توجيه جميع الجهود، بما في ذلك الوساطة الشخصية من قبل اناس حياديين كعصام فارس، نحو دمشق. لقد شعر أنه ينبغي عدم التفكير في تشكيل حكومة جديدة قبل ٢٠ أيلول/سبتمبر. غير انه كان يتمسك بحق الرئيس الدستوري بان يقبل استقالة الحكومة القائمة، وبأن يعين بدلاً منها حكومة جديدة، مُفَضّلا أن تكون برئاسة سني معتدل، لا ماروني.

في هذا الوقت نفسه كان البطريرك صفير يتصل بالسفراء الاجانب لابلاغهم ان الحكومة الانتقالية ينبغي لها، في حال عدم اجراء الانتخابات، ان تكون برئاسة ماروني. كان شديد التشاؤم من الاحداث، وغير قادر على السيطرة عليها. قال لي: «ماذا استطيع ان افعل اكثر من ذلك؟»، وأضاف: «لقد كتبت إلى ريغن، الى ميتران، الى الحبر الاقدس، ولم اتلق أيّ ردّ. اذا شاؤوا ان يتركونا وحدنا، فان لهم ذلك. سنقبله. استطعنا البقاء في الماضي، في الوديان، وعلى رؤوس الجبال. وسنتمكن من البقاء مرة اخرى». وكنت انا افضل الابقاء على حكومة الحص وتوسيعها، وقد جاءني وسطاء من رأس بيروت لبحث هذا الخيار، ولكن الرئيس أصرّ على رئيس ماروني للحكومة. قال لي الرئيس انني لم افهم العقلية المارونية.

وكان قائد القوات اللبنانية، سمير جعجع، يلاحق رئيس الجمهورية ليناقش معه تشكيل حكومة جديدة. كان يريد لرئيس الجمهورية ان يكون على استعداد لاعلان الحكومة فور التأكد من ان الانتخابات لن تجري في موعدها. وكان يريد ان

يكون عضواً في هذه الحكومة لانه يمثل احدى القوى الماثلة على الارض. ولكن رئيس الجمهورية لم يتعهد بشيء، قائلا ان تعيين الوزراء هو لرئيس الجمهورية ورئيس الوزارة المكلف معا، لا لرئيس الجمهورية وحده، ولم يرق هذا الجواب لسمير جعجع؛ كان يريد التزاماً صريحا من الجميل بان يكون عضوا في الوزارة. وكلما كرّر الجميل شرح هذه المشكلة، كان جعجع يزداد غضباً، وهو يعلم جيداً ان الرئيس بوسعه في هذا العمل الدستوري الاخير ان يعين من يشاء. وكان لمثل هذا الاستياء ان ينقلب مع الايام القليلة القادمة الى عداوة مكشوفة.

بعثة مورفي

في الاسبوع الثالث من ايلول/سبتمبر، توجه مورفي الى دمشق في محاولة أخيرة للتوصل الى اتفاق حول مرشح تسوية. وفي هذا الوقت، غادر كلي بيروت في ١٦ منه، لاسباب صحية، وأصبح سمبسون قائما بالاعمال. ولم يصدق اي انسان في بيروت هذا السبب الذي اذيع لذهاب كلي. على ان كلي أكّد لي في وقت لاحق انه كانت لديه مشكلة في القلب، وان ذلك هو السبب الوحيد لمغادرته المفاجئة لبيروت. وطلبنا من مورفي ان يعود من دمشق حاملاً ثلاثة اسماء للرئاسة، وقلنا اننا سنوافق معه على احدها. ورد على ذلك انه سيكون في بيروت في ١٨منه، وانه سيجتمع بالحص اولا، ثم بالحسيني،مما يترك له الوقت الكافي لاجراء محادثات مع رئيس الجمهورية. اقترحت عليه ان يطلعني على الأجواء أولا لدى وصوله، ثم أن يواصل برنامجه كما يرى. وبذلك يتسنى لي ان اطلع رئيس الجمهورية على الاجواء، فيما يقوم مورفي بجولته، وان اعدّ للاجتماع بينه وبين الرئيس.

وحين اجتمعت بمورفي، فور وصوله الى بيروت في ١٨ منه، قال لي ما يلي: «عقدت في دمشق ما مجموعه سبعة اجتماعات مع خدام والشرع، واجتماعا واحداً مع الرئيس الاسد. الساعات الاربع عشرة الاولى من الاجتماعات لم تسفر عن شيء. لم يتزحزح السوريون عن دعم فرنجية. هو خيارهم الوحيد للرئاسة. لقد رشح نفسه وهم يدعمونه؛ انهم يريدون من المسيحيين ان يتوقفوا عن معارضته؛

انهم يريدون تبني الاصلاحات قبل الانتخابات. انهم يريدون نقل الصلاحيات التنفيذية الى مجلس الوزراء. رفضت هذه المواقف الثلاثة. ان مقاطعة انتخاب فرنجية في ١٨ آب/اوغسطس دليل على انه ليس له دعم واسع وقوي. وببقاء أربعة ايام فقط على انتهاء مدة ولاية الرئيس الجميل، لا وقت لبحث الاصلاحات. والبحث بالاصلاحات يستأنف بعد انتخاب رئيس جديد. ثم اخذت اذكر اسماء المرشحين المحتملين للمناقشة، ولكن السوريين لم يكونوا يصغون. مرشحهم هو فرنجية. وبعد مناقشات طويلة بشأن اللائحة التي تقدمت بها، وافق السوريون اخيرا، وقالوا ان هنالك اسما واحدا يؤيدونه. قلت ان الافضل هو ذكر اسمين لا اسم واحد. قالوا ان هنالك اسماً فقط، هو النائب مخايل الضاهر لا اسمين، ولا ثلاثة اسماء او اربعة. قالوا ان فرنجية صديق للرئيس الاسد، إنه يسحب ترشيحه باسم المصلحة الوطنية. وافقت على نقل ذلك اليكم. هذا هو افضل ما نستطيع القيام به. اننا نريد ان تجري الانتخابات قبل ٢٢ ايلول/سبتمبر. اننا نريد انتخاب مخايل الضاهر، فهو رجل صالح. واذا ما عرقلت الانتخابات، فاننا سننتقد الذي يعرقلها علناً. واذا ما رفضتم الضاهر وعينتم حكومة، فان لبنان يتجه عند ذاك نحو التقسيم والفوضى. الخيار امامكم واضح: «إما الضاهر وإما الفوضى».

فشكرت مورفي على رسالته، وتوجهت الى بكفيا حيث كان الرئيس ومستشاروه ينتظرون. ارتبك الرئيس امام هذا الخيار. اراد متسعاً للمناورة؛ اراد ان تكون له كلمة في العملية. لا شيء لديه بحق مخايل الضاهر؛ وكثيراً ما اشار اليه في الماضي كمرشحه. غير ان هذا الحسم بالنسبة للموضوع جعل انتخابه غير وارد.

وبينما كان مورفي مجتمعاً الى الحص والحسيني، وفيما كان معاونوه يبلغون النبأ الى جعجع وعون والبطريرك صفير، اتصل عون بالرئيس للتشاور في ما وصفه بالعودة الى الاتفاق الثلاثي. لقد ربط مخايل الضاهر بالاتفاق الثلاثي لانه كان واحدا من كثيرين من الزعماء اللبنانيين الذين حضروا توقيع هذا الاتفاق في دمشق. بعد ذاك اتصل جعجع ليقول ان القوات اللبنانية تعارض انتخاب الضاهر،

وتريد التشاور في كيفية إفشال الاتفاق الاميركي السوري. كانت القوات اللبنانية تتهم الضاهر بان له دوراً في الاتفاق الثلاثي، وتعتقد انه حليف لايلي حبيقة. الواقع ان الضاهر الذي كان يؤيد الاتفاق الثلاثي بقوة سنة ١٩٨٥، غيّر موقفه، كما ان افكاره بالنسبة للاصلاحات وللعلاقات المميزة مع سوريا لم تكن بعيدة عن افكارنا. وكذلك كانت ردة فعل البطريرك صفير مماثلة، فقد غضب، وقال لنا: «انهم لا يتركون لنا أيّ خيار؛ هذا فرض علينا».

ولم يأت اجتماع مورفي والرئيس الجميل باي شيء جديد. لقد وقع الرئيس بين خيارين قاسيين. القبول بالضاهر واثارة سخط عون وجعجع، او تشكيل حكومة وترك منصبه والبلاد امام حكومتين تتنازعان ما تبقى من سلطة الدولة. وجهت الملامة الى مورفي على اخفاقه في دمشق. كان يجب ان يرجع حاملا اسمين او ثلاثة اسماء، وترك المجال امام القادة الموارنة، بمن فيهم رئيس الجمهورية، كي يسهموا في اختيار واحد منهم. ما كل ما يتمنى المرء يدركه...

زيارة الرئيس الجميل الاخيرة الى دمشق

في اجتماع بين رئيس المجلس النيابي السيد حسين الحسيني وغسان تويني، نهار الثلاثاء، ٢٠ ايلول/سبتمبر، سأل الحسيني: ماذا يمكننا ان نفعل كي نقنع رئيس الجمهورية والطائفة المارونية بقبول مخايل الضاهر؟ فذكر غسان تويني خمسة شروط يمكن اذا تحققت ان ينعقد الاتفاق على اساسها بشأن الضاهر، وهي شروط حددها غسان تويني على الوجه التالي:

١ - ان الورقة التي قدمها الضاهر الى خدام بخصوص الاصلاحات ينبغي ان لا تعتبر ملزمة، بل تعتبر ورقة بين ورقات اخرى. ان هذه الورقة، على ما قيل لي، تعتمد المبادىء التي كنا نحن والشرع وغلاسبي قد اتفقنا عليها من قبل؛

٢ - ان القوات اللبنانية يجب ان تتمثل في اول حكومة يشكلها مخايل الضاهر؛

٣ - لا يجوز السماح لحبيقة وقواته بالعودة الى المنطقة الشرقية؛

٤ - ينبغي للانتخابات الرئاسية ان تجري في قصر منصور، وهو مكان حيادي يفضله النواب المسيحيون. لا في منطقة المبنى النيابي، لان ذهاب النواب المسيحيين الى هناك غير مأمون؛

٥ - ينبغي للجميل ان يجتمع بالضاهر في دمشق، واذا كان الرئيس راضيا عنه، عاد به الى القصر الجمهوري للاجتماع بجعجع والنواب الآخرين. واذا كانت نتيجة هذه الاجتماعات ايجابية، كان الضاهر مرشح اجماع. واذا لم يتحقق الاتفاق، يتعهد الرئيس باعادة الضاهر بطوافة عسكرية الى بلدته القبيات في منطقة عكار. واعتبر الحسيني ان هذه الشروط كلها قابلة للتحقيق. وتساءل: هل رئيس الجمهورية يقبل بها؟ هل يجتمع بالرئيس الاسد في دمشق في اليوم التالي لتأكيد قبوله بهذه الشروط واجراء انتخاب الضاهر. هل يقوم باقناع المعارضين للضاهر بان ذلك هو السبيل الافضل امام البلاد؟

واتصل بي غسان تويني تلفونياً، واخذ يروي لي ما ورد اعلاه لاجئا الى الرموز للتمويه. قلت له: «ان البلاد يا غسان تكاد تنهار؛ ليست لدينا غير ساعات قليلة لوضع حل، وانت تتحدث إليّ بالرموز. تكلم على المكشوف. العالم كله يصغي الينا في كل حال». فوافق. بعد ذلك قلت له انني ساتصل بالرئيس ثم اعود فاتصل به. وكان رد رئيس الجمهورية ايجابيا، واراد ان يجتمع بغسان تويني وبي في المساء لمتابعة القضية.

في ذلك المساء جرى نقاش طويل بحضور كريم بقرادوني، وسيمون قسيس، وجوزيف الهاشم، وجوزيف ابو خليل، وغسان تويني، وحضوري أنا؛ ما كان لكريم بقرادوني ان يصدق ان الرئيس الاسد يقبل الاجتماع بالرئيس الجميل في هذه اللحظات الاخيرة. ثم اذا تحقق هذا الاجتماع، فانه لن يكون ناجحا. راهن على مئة ليرة لبنانية مع غسان تويني بان الرئيس الاسد لن يستقبله. وكان هنالك اتفاق عام على انه لا خسارة في تجربة اقتراح غسان. ولذلك طلب الرئيس من غسان تويني ان يتصل بالحسيني ويقول له ان الرئيس مستعد لدعم الشروط الخمسة والحصول على موعد للرئيس مع الاسد على هذا الاساس. ولم يكلف احد نفسه بان

يتصل تلك الليلة بجعجع وعون. كان الرئيس يتكل في ذلك على بقرادوني، بينما كان بقرادوني يتكل على الرئيس للتشاور مع جعجع مباشرة. كان الرئيس يشكك في عون، وشاء بالتالي تاجيل ابلاغه حتى اللحظة الاخيرة. واتصل تويني بالحسيني وقيل له ان الاجتماع مع الرئيس الاسد تقرر لليوم التالي، الاربعاء، الساعة الواحدة بعد ظهر. والحسيني الذي كان على اتصال بخدام، أكّد لغسان تويني ان الشروط الخمسة التي وضعها مقبولة لدى سوريا. وبعد الاجتماع بالرئيس الاسد، تجري المصالحة مع الحص، والحسيني، وفرنجية، والضاهر الذي كان في دمشق آنذاك. وبقينا مع الرئيس حتى الساعة الثالثة صباحا نعدّ تفاصيل الاجتماع المقترح مع الرئيس الاسد.

وحين رجعت الى القصر الجمهوري، عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وجدت الرئيس وغسان تويني في حالة تأمل كئيب. قالا لي ان المشروع برمته قد انهار؛ ان جعجع رفض الضاهر للرئاسة، ولذلك فانه لا جدوى من الذهاب الى دمشق. وبعد نقاش مفصل بين الرئيس وتويني، وهاشم، وقسيس، وبيني، قرر الرئيس ان يتوجه الى دمشق. الرئيس الاسد، واعضاء حكومته، وجميع السفراء الاجانب ينتظر وصولهم الى مطار دمشق في أي لحظة، لا دقيقة لدينا نضيعها. العلاقات بين الرئيسين الجميل والاسد لم تكن جيدة؛ ولا يمكن للرئيس الجميل أن يسيء إلى الرئيس الاسد بالغاء زيارة مقررة في اللحظة الاخيرة. وجعجع، كما قال الرئيس، لا يعارض الزيارة؛ إنه يعارض مخايل الضاهر. بوسعه كما قال جعجع، ان يتوجه الى دمشق وان يتحدث الى الرئيس الاسد عن رئيس جديد، لا عن الضاهر، على ان لا يفكر بان يعود به، كما هو مقترح، للتشاور معه. ووجد بعض المستشارين الذين كانوا تواقين الى مرافقة الرئيس في مهمة ظنوها ناجحة اعذاراً ملائمة للانسحاب. ولم يبق احد غير غسان تويني وغيري الى جانب الرئيس المحبط. سألَنا: أما نزال مستعدين لمرافقته. قلنا له اننا لا نزال مستعدين للتوجه الى دمشق برفقته، ولو اننا نعلم مسبقا انها رحلة لانقاذ ماء الوجه فقط، ولتقليل الاذى الى حده الادنى، لا لحل المشكل، كما كنا نأمل.

ووصلنا الى دمشق متأخرين ساعة واحدة؛ وتوجهنا برفقة الرئيس الأسد الى مكتبه رأساً. وبعد تبادل المجاملات مدى وقت قصير، اقترح غسان تويني ان نخرج، نحن الاثنين، أنا وهو، لنترك لرئيس الجمهورية ان يتحدث الى الرئيس الاسد على انفراد. بعد ذلك اجتمع الرئيسان ثلاث ساعات. واثناء الاجتماع اتى معاونو الرئيس الاسد اليه بنبأ اجتماع بين جعجع وعون وداني شمعون، بقصد نسف زيارة الجميل. هنا احس الرئيس الاسد كأن نوعا من الانقلاب قد وقع، وان الجميل لم يعد قادراً على السيطرة على سير الاحداث، لاسيما وان فترة مدة ولايته منتهية منتصف ليل اليوم التالي.

وفي الوقت نفسه، كان النواب المسيحيون يجتمعون الى البطريرك صفير، بانتظار نتائج اجتماع القمة في دمشق. وكان غسان تويني يتكلم الى النواب هاتفيا، بصورة منتظمة؛ فأبلغهم بالبقاء في البطريركية في بكركي، وباننا في طريق العودة من دمشق سنحط بطوافتنا هناك بحيث يتسنى للرئيس بنفسه أن يطلعهم على النتائج.

وفي طريق العودة، اراد غسان تويني ان يعرف ماذا حدث. ومن حسن حظ الجميل ان ضجيج الطوافة حال دون المحادثة؛ ثم ان سير الاحداث كان من السرعة بحيث اننا، لا أنا ولا غسان، استطعنا ان نعرف ماذا حدث في تلك القمة.

وهبطت بنا الطوافة في بكركي بعيد المغيب واطلع الرئيس البطريرك والنواب على ما حدث. قال انه حاول اقناع سوريا بقبول اكثر من مرشح واحد، لكنه اخفق. الوضع، كما قال، سيكون حرجاً اذا لم تجر الانتخابات في اليوم التالي؛ ان لبنان سيكون بحكومتين مما قد يؤدي بالتالي الى التقسيم. وقال انه يترك الامور بايدي النواب؛ انه تحت تصرفهم. شعرت آنذاك انه في اللحظة الحرجة تخلى عن دوره القيادي، وترك النواب مرتبكين بدون اي توجيه. ونظروا الى البطريرك ينتظرون منه القيادة، لكنه كان مرتبكا؛ بدا، كالرئيس، تواقا للسير وراء الارادة الجماعية، لا لقيادتها؛ على انه لم تبرز اي قيادة جماعية.

وغادرنا بكركي كالضباط المهزومين، عائدين الى بعبدا. وفي الساعة الثامنة مساء، اجتمع برئيس الجمهورية وفد مؤلف من ثلاثة نواب هم رينيه معوض،

وحبيب كيروز، وخاتشيك بابكيان. لقد خافوا ان تنقسم البلاد تحت حكومتين متنازعتين، واعلنوا عن استعدادهم لانتخاب الضاهر في اليوم التالي. كان بابكيان يخشى ان يؤدي وجود حكومتين الى اضعاف رئاسة الجمهورية. وتحدث عن معاناة الارمن في الماضي، وعن اهمية ابقاء لبنان بلدا موحدا ضمن معادلة العيش المشترك. وحث على انتخاب الضاهر بشروط، او بدون شروط. وقال الرئيس انه موافق على ذلك، عند ذاك قرر الوفد ان يجتمع بجعجع، ثم يعود الى الرئيس لاطلاعه على النتيجة. وعند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عاد الوفد وقد اخفق في اقناع قائد القوات اللبنانية.

وبسبب معارضة القوات اللبنانية، قرر النواب المسيحيون ان يقاطعوا انتخاب الضاهر؛ بعد ذلك تركزت جميع الجهود على تشكيل حكومة انتقالية. غادرت القصر عند الساعة الثالثة صباحاً، عائداً الى منزلي في بعبدا. الساعة الرابعة صباحاً، اطلق على منزلي صاروخان من مسافة خمسين مترا. الضجيج كان قوياً مدمراً حتى انني حسبت ان المنزل قد انهار. وحيال ذلك لجأت زوجتي، كعادتها في أزمات من هذا النوع فيها قصف او اطلاق رصاص على منزلنا، او على جواره، الى الارتماء تحت السرير. اما انا، فاغفيَت مستسلما الى القدر. كنت متعبا الى حد لا استطيع ان افعل اي شيء آخر. واخذ الحرس يطلقون النار بصورة عشوائية في كل اتجاه. اعتبرت ذلك مفيدا لتعزيز معنوياتهم، ولا علاقة له بالوضع القائم. وفي الصباح، حين شاهدت مقدار الاضرار، ورايت النشرات التي تندّد بزيارة دمشق في اليوم السابق، اتصلت بمن اعتقد انهم الفاعلون لأتقدم اليهم بشكواي. ولم اتلق منهم إلا إنكار العلاقة بما حدث، والتاكيد على الدعم. وكالعادة فإن المسؤولية في لبنان تقع دائما على الشخص الثالث المجهول الهوية. وكما نقول على الطليان.

٢٢ ايلول/سبتمبر ١٩٨٨

كان يوم الرئيس الجميل الاخير في منصبه اطول أيام عهده، واكثرها حزنا وكآبة. منذ الساعة الثامنة صباح الخميس، ٢٢ ايلول/سبتمبر، كان القصر

الجمهوري شبيهاً بسوق شرقية. كان كل انسان يعتبر نفسه ذا مكانة، أو «شيئاً» ما، يأتي الى القصر ليقدم النصح للرئيس، ليحذره، ليتناول القهوة معه، وليلعب دوراً في اللعبة اللبنانية الوطنية لتشكيل الحكومة. وصل جعجع ونائبه بقرادوني في الصباح الباكر. كذلك جاء داني شمعون ومعاونوه. وراح النواب يدخلون ويخرجون وفق تطور عملية تشكيل الحكومة. نواب سابقون، اصدقاء الرئيس، وسطاء في الازمات الماضية، الرئيس السابق شارل حلو، الوزراء السابقون، المرشحون للرئاسة... جميع هؤلاء جاؤوا الى القصر.

وفي اليوم الذي كان يجب فيه ان يترك الرئيس وحده للتفكير والتأمل، كان منهمكا بالزوار والمقابلات. وبينما كان ينبغي له ان يتخذ المقررات بنفسه، كان يسمح للمقررات ان تتخذ من قبل هذا التكتل المائع الذي تشكل حوله. اختار الرئيس النائب بيار حلو لتشكيل الحكومة، فقبل المهمة بتردد. هو معتدل، ولا يريد ان يترأس حكومة تدخل في مواجهة مع حكومة الحص المنافسة. وقد سبق للحص ان اعلن انه باق في منصبه، وان أيّ حكومة يشكلها الجميل لن تعتبر شرعية. وكان بيار حلو يواجه صعوبة في اقناع المسلمين بالانضمام الى حكومته لانه لم يكن اي مسلم يجرؤ على مقاومة حكومة الحص التي تتمتع بالتأييد السوري. وحين قيل لبيار حلو ان المفتي حسن خالد سيصدر فتوى يحظر فيها على اي مسلم ان ينضم الى حكومته، قال لي: «رباه! هل سمعت بذلك؟ الرجاء ان تبلغ الرئيس انني لا استطيع القيام بهذه المهمة. انني رجل سلام لا رجل حرب». تخلى عن مهمته واقترح ان يقوم بها آخر.

وبعد تردد، اتصل الرئيس الجميل بعون، وطلب اليه ان يأتي الى القصر. سأله: هل يشترك في حكومة يرئسها مدني؟ ورد عون بانه يؤثر ان لا يفعل؟ لقد كان يترك خياراته مفتوحة. بدا وكأنه بعيد، غير قلق لما يجري، أو كأنه كان قد صمم على انتزاع السلطة كيفما كان الامر. وقبل ذلك باسبوع دخل على مكتبي وقال لي انه عزم على تسلّم السلطة اذا لم يَجْرِ انتخاب رئيس، لانه لا يستطيع ان يعرض الجيش للفوضى التي تنشأ في اعقاب ذلك. سألته: وكيف ستفعل ذلك؟ فقال: ساستولي على القصر الجمهوري وجميع المكاتب الحكومية في المنطقة الشرقية. ثم أضاف:

يجب ان يظل الجيش موحدا وان تبقى الشرعية في ايدٍ أمينة. سألته: هل يذكر لي ذلك كي انقله الى الرئيس، فقال، اجل، اذا شئت ذلك. وحين قلت ذلك للرئيس، بدا غير قلق وكان رده: «انه لن يجرؤ على ذلك».

وكان داني شمعون الموعود من قبل الرئيس الحص بان يكون وزيراً في حكومته، تواقاً لتوسيع حكومة الحص. كان على اتصال مستمر بالحص في محاولة لاقناعه بان يُشْرك معه ممثلين للمسيحيين اقوياء، أمثال جعجع، غير ان الحص رفض ذلك. هنا اعلن داني شمعون امام الجمهور القلق في مكتب الرئيس انه هو مستعد لتشكيل حكومة. فطلب منه الرئيس ان يجرب. وبعد نصف ساعة عاد داني شمعون بلائحة طويلة من وزراء بينهم عون وجعجع، اللذين سيكونان غير مقبولين لدى المسلمين. فقال له الجميل ان مثل هذه الحكومة لن «تقلّع» ولن يشترك فيها اي مسلم. عند ذاك اقترح داني شمعون، وهو في حالة غضب، أن يؤلف عون الحكومة العتيدة.

عند ذاك قام الرئيس الجميل، الذي عارض عون للرئاسة، وفكّر في عزله من قيادة الجيش، بسؤال عون: هل هو مستعد لتشكيل الحكومة. فردّ عون بأنه سيؤلف حكومة تضم المجلس العسكري المؤلف اصلا من ستة جنرالات، نصفهم مسيحيون، ونصفهم مسلمون. سأله الجميل: «وماذا تفعل اذا رفض الجنرالات المسلمون ان يشتركوا في الحكومة؟» فردّ عون: «في هذه الحالة، اوسع الحكومة وادخل فيها أمثال جعجع».

في الساعة الثانية عشرة الا ربعا، اي قبل انتهاء ولاية الرئيس بخمس عشرة دقيقة، اعلن الجميل تأليف حكومة برئاسة عون. فغضب جعجع. وصرخ بالرئيس قائلا: «منذ أيام قليلة كنا، أنا وايلي (سالم)، وسيمون (قسيس)، نتناول العشاء معك وسألتك هل لديك حكومة، فقلت اجل؛ ان لديك لائحة اسماء الوزراء في جيبك. لقد تبين انه ليس لديك اي شيء. ما هكذا تشكل الحكومات. عون صديقي؛ أستطيع ان اتدبر الامور معه؛ لكن لدي مشاكل معك». بعد ذاك خرج جعجع غاضباً وصفق الباب وراءه.

وطلب الرئيس من عون ان يتصل بالجنرالات الخمسة الآخرين وان يبلغهم امر تعيينهم وزراء في الحكومة الجديدة. ورضي المسيحيون بذلك على الفور، ووصلوا الى القصر الجمهوري خلال دقائق قليلة. اما الجنرالات المسلمون فطلبوا الوقت للتفكير، ثم ردوا بعد بضع دقائق آسفين بانهم لن يشتركوا في الحكومة المقترحة.

وفي الصمت البارد الذي اعقب هذا الهيجان دعا الرئيس الجنرال عون، ودعاني أنا الى جانب. وقد وضع كل يد من يديه على كتف كل منا، وقال لعون: «إيلي اختصاصي. اريده ان يبقى معك. ينبغي ان يبقى في مركزه وان يكون مستشارك للشؤون الخارجية». فرحب عون بالفكرة وشكرت الرئيس على ثقته بي كما اعربت عن شكري لعون على ملاحظاته اللطيفة بترحيبه باستمراري، إلا انني كنت قد قررت ان اترك، وابلغت عون بذلك في اليوم التالي.

وبعد منتصف الليل بقليل، خرج الجميل من القصر، منهوك القوى، وهو في حالة دوار، وعلى وشك اليأس، بعد ان صافح الموظفين، والضباط، والحرس الذين عملوا معه طوال ست سنوات.

وداع كئيب حقا. عينا الرئيس دامعتان. ليست هذه بالنهاية التي توقعها. ويوم تسلم المنصب، كان واثقا، مصمما! كانت لديه مخططات كبيرة؛ راى نفسه الفارس الذي يمتطي الجواد الابيض وينقذ الحسناء. غير ان الامور لم تَجْرِ كما توقع. الاحداث كانت معقدة. العوامل التي تقرر وتحسم تجاوز لبنان. كان يستطيع ان يسيطر على جزء من اللعبة. كان في وسعه احيانا ان يدخلها، ان يكون في قلبها، لكنها سرعان ما تفلت منه. كان لبنانيا صميماً، لكنه لم يكن وفاقيا ناجحا. لقد خلق له اعداء حيث كان يمكن ان يخلق اصدقاء. ترك الأشياء تحدث وتشوه صورته، ثم تهزمه في النهاية.

لقد توخيت سرد الاحداث كما شاهدتها؛ لقد اردت لها ان تتكلم. وكما في حكاية الفيل والسائحين الثلاثة، عرضت ما رايت وما خبرت. وما هذا إلا شيء منظور ومحدود، على انه، برغم ذلك، شيء مهم. انه يَهَبُ الحقيقة بعداً؛ وحين يقارن بالأبعاد والآفاق الاخرى، يكمل صورة هذه الفترة الحرجة من تاريخ لبنان، بل من تاريخ المنطقة.

ملحـــق

إتفاق جلاء القوات الإسرائيلية

الموقع في ١٧ أيار/١٩٨٣

نص الاتفاق:

إن حكومة جمهورية لبنان وحكومة دولة اسرائيل

إدراكاً منهما لأهمية تعزيز السلام الدولي القائم على الحرية والمساواة والعدالة واحترام حقوق الانسان الاساسية،

تأكيداً لإيمانهما بأهداف شرعة الامم المتحدة ومبادئها وإقراراً بحقهما وواجبهما في العيش بسلام مع بعضهما ومع جميع الدول داخل حدود آمنة ومعترف بها،

بناء على إتفاقهما على إعلان إنهاء حالة الحرب بينهما،

رغبة منهما في إقامة أمن دائم ما بين بلديهما وتلافي التهديد واستعمال القوة فيما بينهما،

رغبة منهما في إقامة علاقاتهما المتبادلة وفقاً لما نص عليه هذا الاتفاق،

وبعد أن زودتا مندوبيهما المفوضين الموقعين أدناه بصلاحيات مطلقة لتوقيع هذا الاتفاق، بحضور ممثل الولايات المتحدة الاميركية،

إتفقتا على الاحكام الآتية:

المادة: ١

١. يتعهد كل من الفريقين باحترام سيادة الفريق الآخر واستقلاله السياسي

وسلامة أراضيه، ويعتبر أن الحدود الدولية القائمة بين لبنان واسرائيل غير قابلة للإنتهاك.

٢. يؤكد الفريقان أن حالة الحرب بين لبنان وإسرائيل انهيت ولم تعد قائمة.

٣. عملاً بأحكام الفقرتين الاولى والثانية، تتعهد إسرائيل بأن تسحب قواتها المسلحة من لبنان وفقاً لملحق هذا الاتفاق.

المادة:٢

في ضوء مبادىء ميثاق الامم المتحدة والقانون الدولي، يتعهد الفريقان بتسوية خلافاتهما بالوسائل السلمية وبطريقة تؤدي إلى تعزيز العدالة، والسلام والامن الدوليين.

المادة:٣

رغبة في توفير الحد الاقصى من الامن للبنان ولإسرائيل، يقيم الفريقان ويطبقان ترتيبات أمنية، بما في ذلك إنشاء منطقة امنية، وفقاً لما هو منصوص عليه في ملحق هذا الإتفاق.

المادة:٤

١. لا تستعمل اراضي أي من الفريقين قاعدة لنشاط عدائي أو ارهابي ضد الفريق الآخر، أو ضد شعبه.

٢. يحول كل فريق دون وجود أو إنشاء قوات غير نظامية أو عصابات مسلحة، أو منظمات أو قواعد أو مكاتب أو هيكلية تشمل اهدافها أو غاياتها الإغارة على اراضي الفريق الآخر أو القيام بأي عمل إرهابي داخل هذه الاراضي، أو أي نشاط يهدف إلى تهديد أو تعريض أمن الفريق الآخر أو سلامة شعبه للخطر. لهذه الغاية، تصبح لاغية وغير ملزمة جميع الإتفاقات والترتيبات التي تسمح ضمن اراضي أي من الفريقين بوجود وعمل عناصر معادية للفريق الآخر.

٣. مع الاحتفاظ بحقه الطبيعي في الدفاع عن النفس وفقاً للقانون الدولي، يمتنع كل من الفريقين:

أ) عن القيام أو الحث أو المساعدة أو الاشتراك في تهديدات أو أعمال حربية أو هدامة، أو تحريضية أو عدوانية أو الحث عليها ضد الفريق الآخر، أو ضد سكانه أو ممتلكاته، سواء داخل اراضيه أو إنطلاقاً منها، أو داخل اراضي الفريق الآخر.

ب) عن استعمال اراضي الفريق الآخر لشن هجوم عسكري ضد اراضي دولة ثالثة.

ج) عن التدخل في الشؤون الداخلية أو الخارجية للفريق الآخر.

٤. يتعهد كل من الفريقين باتخاذ التدابير الوقائية والإجراءات القانونية بحق الاشخاص والمجموعات التي ترتكب أعمالاً مخالفة لأحكام هذه المادة.

المادة:٥

إنسجاماً منهما مع إنهاء حالة الحرب يمتنع كل فريق، في إطار أنظمته الدستورية، عن أي شكل من أشكال الدعاوة المعادية للفريق الآخر.

المادة:٦

فيما عدا حق العبور البريء وفقاً للقانون الدولي، يمنع كل فريق دخول ارضه أو الانتشار عليها أو عبورها لقوات عسكرية أو معدات أو تجهيزات عسكرية عائدة لأية دولة معادية للفريق، بما في ذلك مجاله الجوي وبحره الإقليمي.

المادة:٧

باستثناء ما هو منصوص عليه في هذا الاتفاق وبناء على طلب الحكومة اللبنانية وموافقتها، ليس هناك ما يحول دون انتشار قوات دولية على الارض اللبنانية لمؤازرة الحكومة اللبنانية في تثبيت سلطتها. ويتم اختيار الدول المساهمة الجديدة في هذه القوات من بين الدول التي تقيم علاقات دبلوماسية مع الفريقين.

المادة ٨:

١ أ) عند دخول هذا الإتفاق حيز التنفيذ، ينشىء الفريقان لجنة اتصال مشتركة تبدأ ممارسة وظائفها من وقت إنشائها وتكون الولايات المتحدة الاميركية فيها مشاركاً. يعهد إلى هذه اللجنة بالإشراف على تنفيذ هذا الاتفاق في جميع جوانبه. وفيما يخص القضايا ذات العلاقة بالترتيبات الامنية، تعالج هذه اللجنة المسائل غير المفصول بها والمحالة إليها من قبل لجنة الترتيبات الأمنية المنشأة بموجب الفقرة (ج) أدناه.

تتخذ اللجنة قراراتها بالإجماع.

ب)تهتم لجنة الإتصال المشتركة بصورة متواصلة بتطوير العلاقات المتبادلة بين لبنان وإسرائيل، بما في ذلك ضبط حركة البضائع والمنتوجات والاشخاص، والمواصلات، الخ.

ج) في إطار لجنة الإتصال المشتركة تنشأ لجنة الترتيبات الامنية المحدد تشكيلها ووظائفها في ملحق هذا الإتفاق.

د) يمكن إنشاء لجان فرعية للجنة الإتصال المشتركة حينما تدعو الحاجة.

هـ) تجتمع لجنة الإتصال المشتركة في لبنان وإسرائيل دوريا.

و) لكل من الفريقين، إذا رغب في ذلك، وما لم يحصل أي إتفاق على تغيير الوضع القانوني، أن ينشىء مكتب إتصال على أرض الفريق الآخر، للقيام بالمهام المذكورة أعلاه في إطار لجنة الإتصال المشتركة وللمؤازرة في تنفيذ هذا الإتفاق.

ز) يرئس أعضاء كل فريق في لجنة الإتصال المشتركة موظف حكومي رفيع المستوى.

ح) تكون جميع الشؤون الأخرى المتعلقة بمكاتب الإتصال هذه، وبموظفيها، وكذلك بالموظفين التابعين لأي من الفريقين والموجودين على أرض الفريق الآخر لسبب ذي صلة بتنفيذ هذا الإتفاق، موضوع بروتوكول يعقد بين الفريقين ضمن

لجنة الإتصال المشتركة، وبانتظار عقد هذا البروتوكول تعامل مكاتب الإتصال والموظفون المشار إليهم وفقا للأحكام المتصلة بهذا الموضوع المنصوص عليها في إتفاقية البعثات الخاصة تاريخ ٨ كانون الأول ١٩٦٩، بما فيها الأحكام المتعلقة بالإمتيازات والحصانات. وهذا دون المساس بموقف الفريقين من تلك الإتفاقية.

٢ خلال فترة الستة أشهر التالية لانسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من لبنان وفقا للمادة الأولى من هذا الإتفاق، وبعد الإعادة المتزامنة لبسط السلطة الحكومية اللبنانية على طول الحدود الدولية بين لبنان وإسرائيل، وفي ضوء إنهاء حالة الحرب، يشرع الفريقان، في إطار لجنة الإتصال المشتركة، بالتفاوض، بنية حسنة، بغية عقد إتفاقات حول حركة السلع والمنتجات والأشخاص وتنفيذها على أساس غير تمييزي.

المادة ٩

١ ـ يتخذ كل من الفريقين، في مهلة لا تتعدى عاما واحدا من دخول هذا الإتفاق حيز التنفيذ، جميع الإجراءات اللازمة لإلغاء المعاهدات والقوانين والأنظمة التي تعتبر متعارضة مع هذا الإتفاق، وذلك وفقا للأصول الدستورية المتبعة لدى كل من الفريقين.

٢ ـ يتعهد الفريقان بعدم تنفيذ أية التزامات قائمة تتعارض مع هذا الإتفاق وبعدم الإلتزام بأي موجب أو اعتماد قوانين أو أنظمة تتعارض مع هذا الإتفاق.

المادة ١٠

١ ـ يتم إبرام هذا الإتفاق من قبل الفريقين طبقا للأصول الدستورية لدى كل منهما، ويسري مفعوله من تاريخ تبادل وثائق الإبرام، ويحل محل الإتفاقيات السابقة بين لبنان وإسرائيل.

٢ ـ تعتبر جزءا لا يتجزأ من هذا الإتفاق كل المرفقات له (الملحق والذيل، الخريطة والمحاضر التفسيرية المتفق عليها).

٣ ـ يمكن تعديل هذا الإتفاق أو تنقيحه أو استبداله برضى الفريقين.

المادة ١١

١ ـ تجري تسوية الخلافات الناجمة عن تفسير هذا الإتفاق أو تطبيقه بطريقة التفاوض ضمن لجنة الإتصال المشتركة. وكل خلاف من هذا النوع تعذرت تسويته بهذه الطريقة يجري طرحه للتوفيق. وإذا لم يحل، يصار إلى إخضاعه لإجراء يتفق عليه للفصل فيه بصورة نهائية.

المادة ١٢

يبلغ هذا الإتفاق إلى أمانة الأمم المتحدة لتسجيله وفقا لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة.

حرر في خلده وكريات شمونه في اليوم السابع عشر من أيار ١٩٨٣ على ثلاث نسخ بأربعة نصوص رسمية باللغات العربية والعبرية والإنكليزية والفرنسية. في حال أي اختلاف بالتفسير يعتمد على حد سواء النصان الإنكليزي والفرنسي.

عن حكومة الجمهورية اللبنانية — عن حكومة دولة إسرائيل

انطوان فتّال — بشهادة — دايفيد كمحي

عن حكومة الولايات المتحدة الأميركية

موريس درايبر

ملحق الترتيبات الأمنية

١ ـ المنطقة الأمنية:

أ) تقام منطقة أمنية تتعهد الحكومة اللبنانية بأن تنفذ ضمنها الترتيبات الأمنية المتفق عليها بموجب هذا الملحق.

ب) يحد المنطقة الأمنية وفقا لما هو مبين على الخريطة المرفقة بهذا الملحق، من الشمال خط يشكل «الخط A» على الخريطة المرفقة ومن الجنوب والشرق خط الحدود اللبنانية الدولية.

٢ ـ الترتيبات الأمنية:

تتخذ السلطات اللبنانية تدابير أمنية خاصة لكشف النشاطات العدائية ومنعها، كما لكشف ومنع إدخال أو تحرك المسلحين غير المسموح لهم وكذلك إدخال أو تحرك التجهيزات العسكرية غير المسموح بها في المنطقة الأمنية أو غيرها. فيما عدا المستثنيات المنصوص عنها، تطبق على حد سواء في كامل المنطقة الأمنية الترتيبات الأمنية التالية:

أ) القوات والعناصر المسلحة المنظمة الوحيدة المسموح بها في المنطقة الأمنية هي الجيش اللبناني، والشرطة اللبنانية، وقوى الأمن الداخلي والقوى اللبنانية المساعدة (الأنصار) المنشأة تحت سلطة الحكومة اللبنانية المطلقة، وذلك باستثناء ما هو مبين في مكان آخر من هذا الملحق.

للجنة الترتيبات الأمنية ان توافق على أن تتمركز في المنطقة الأمنية عناصر مسلحة لبنانية رسمية أخرى مشابهة للأنصار.

ب) يمكن لقوى الشرطة اللبنانية والأمن الداخلي، والأنصار أن تتمركز في المنطقة الأمنية دون قيود من حيث أعدادها. وتزود هذه القوات والعناصر بالأسلحة الأتوماتيكية الخفيفة والفردية، كما تجهز قوى الأمن الداخلي أيضا بمصفحات الإستطلاع أو مصفحات المغاوير وفقا لما هو مبين في الذيل.

ج) يتمركز في المنطقة الأمنية لواءان إثنان من الجيش اللبناني، يكون أحدهما لواء إقليميا منطقة عمله هي البقعة الممتدة من الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية حتى «الخط B» المرسوم على الخريطة المرفقة. ويكون اللواء الثاني نظاميا إعتياديا متمركزا في البقعة الممتدة من «الخط B» حتى «الخط A» ولهذين اللواءين أن يحملا الأسلحة العضوية والتجهيزات المدرجة في الذيل. ويمكن تبعا لتنسيق تضع أصوله لجنة الترتيبات الأمنية، نشر وحدات إضافية، مجهزة طبقا لذيل هذا الإتفاق في المنطقة الأمنية لأغراض تدريبية، بما في ذلك تدريب المجندين، أو في الحالات العملانية الطارئة.

د) تدمج الوحدات المحلية القائمة حاليا، كما هي، في الجيش اللبناني، وفقا لأنظمة الجيش اللبناني. كما يدمج الحرس المدني المحلي القائم حاليا في «الأنصار» ويمنح الصفة المناسبة، بموجب القوانين اللبنانية، لتمكينه من متابعة حراسة القرى في المنطقة الأمنية. تبدأ عملية بسط السلطة اللبنانية على هذه الوحدات وعلى الحرس المدني، تحت إشراف اللجنة، فورا بعد بدء سريان مفعول الإتفاق، وتنتهي قبل إتمام الإنسحاب الإسرائيلي من لبنان.

هـ) لوحدات الجيش اللبناني أن تحتفظ، ضمن الخطة الأمنية بأسلحتها العضوية المضادة للطائرات، وفقا لما هو مبين في الذيل. أما خارج المنطقة الأمنية فيمكن للبنان أن ينشر صواريخ الدفاع الجوي الكتفية وتلك ذات المدى المنخفض والمتوسط. للجنة الترتيبات الأمنية، بعد إنقضاء فترة ثلاث سنوات من تاريخ سريان مفعول هذا الإتفاق ، أن تعيد النظر، بناء على طلب أي من الفريقين بالترتيب المتعلق بالبقعة الواقعة خارج المنطقة الأمنية.

و) التجهيزات الألكترونية العسكرية في المنطقة الأمنية هي تلك المبينة في ذيل

هذا الإتفاق. ويخضع نشر الرادارات الأرضية ضمن عشرة كيلومترات من الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية لموافقة لجنة الترتيبات الأمنية، أما في مجمل المنطقة الأمنية فتنشر هذه الرادارات بحيث لا يتجاوز قطاع إستكشافها الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية. لا يطبق هذا الشرط على الرادارات الخاصة بمراقبة الطيران المدني او النقل الجوي.

ز) يسري الشرط المذكور في الفقرة (هـ) على الصورايخ المضادة للطائرات المحمولة على مراكب القوات البحرية اللبنانية. ضمن المنطقة الأمنية، للبنان أن ينشر وحدات بحرية، وأن يقيم ويصون القواعد البحرية أو الإنشاءات الساحلية الأخرى التي يقتضيها إنجاز المهمة البحرية. تحدد إنشاءات الشواطئ في المنطقة الأمنية وفقا لما هو مبين في ذيل هذا الإتفاق.

ح) تلافيا لإمكانية وقوع حوادث ناجمة عن التباس في الهوية، تعطى السلطات العسكرية اللبنانية إشعاراً مسبقا بجميع الرحلات الجوية من أي نوع كانت فوق المنطقة الأمنية، وذلك وفقا لأصول تضعها لجنة الترتيبات الأمنية. لا تشترط الموافقة على هذه الرحلات.

ط) ١ ـ ان القوات والأسلحة والتجهيزات العسكرية التي يمكن إدخالها، أو مركزتها أو تخزينها في المنطقة الأمنية أو نقلها عبر هذه المنطقة هي فقط المذكورة في هذا الملحق وذيله.

٢ ـ لا يمكن إقامة أو الإحتفاظ بإنشاءات مساعدة أو تجهيزات أو هيكليات في المنطقة الأمنية من شأنها أن تساعد على إعداد أسلحة غير مسموح بها بموجب هذا الملحق أو ذيله.

٣ ـ يعمل بهذا التحديد أيضا حيثما يكون في هذا الملحق شرط يتعلق ببقع خارج المنطقة الأمنية.

٣ ـ لجنة الترتيبات الأمنية:

أ) تنشأ لجنة ترتيبات أمنية في إطار لجنة الإتصال المشتركة.

ب) تتألف لجنة الترتيبات الأمنية من مندوبين لبنانيين وإسرائيليين متساوين بالعدد، برئاسة ضباط قادة. يشترك مندوب الولايات المتحدة الأميركية في إجتماعات اللجنة بناء على طلب أي من الفريقين.

تتخذ قرارات لجنة الترتيبات الأمنية باتفاق الفرقاء.

ج) تشرف لجنة الترتيبات الأمنية على تنفيذ الترتيبات الأمنية بالإضافة إلى البرنامج الزمني والصيغ وسائر التدابير المتعلقة بالإنسحابات المبينة في الإتفاق وفي هذا الملحق.

لهذه الغاية، وباتفاق الفريقين تتولى اللجنة:

١ - الإشراف على تنفيذ تعهدات الفريقين طبقا للإتفاق ولهذا الملحق.

٢ - إنشاء اللجان المشتركة للتحقق وإدارتها كما هو مفصل أدناه.

٣ - الإهتمام والسعي لحل أي مشكلة ناجمة عن تنفيذ الترتيبات الأمنية الواردة في الإتفاق وفي هذا الملحق، ومناقشة أي إنتهاك ترفع اللجان المشتركة للتحقق تقريرا به إليها، أو أي شكوى يقدمها أحد الفريقين بصدد إنتهاك ما.

د) تعالج لجنة الترتيبات الأمنية أية شكوى تقدم إليها في فترة لا تتعدى ٢٤ ساعة من وقت تقديمها.

هـ) تعقد لجنة الترتيبات الأمنية إجتماعاتها مرة على الأقل كل أسبوعين في لبنان وإسرائيل مداورة. في حال طلب أحد الفريقين عقد إجتماع خاص، فان الاجتماع يعقد خلال ٢٤ ساعة من الطلب. ينعقد أول إجتماع في خلال ٤٨ ساعة من بدء سريان مفعول الإتفاق.

و) اللجان المشتركة للتحقق:

١ - تنشىء لجنة الترتيبات الأمنية لجانا مشتركة للتحقق (لبنان - إسرائيل) تكون تحت إمرتها وتتألف من عدد متساو من المثلين عن الفريقين.

٢ - تتحقق اللجان بصورة دورية من تنفيذ أحكام الترتيبات الأمنية ترفع اللجان فورا إلى لجنة الترتيبات الأمنية تقريرا بأي إنتهاك مؤكد كما تتثبت من أن الإنتهاك قد صحح.

٣ - عندما يطلب منها ذلك، تكلف لجنة الترتيبات الأمنية لجنة تحقق مشتركة، لتفحص الترتيبات الأمنية الحدودية المتخذة طبقا للمادة الرابعة من هذا الإتفاق، في الجانب الإسرائيلي من الحدود الدولية.

٤ - تتمتع اللجان المشتركة للتحقق بحرية التنقل على الأرض وفي البحر والجو حسب الضرورة اللازمة لانجاز مهامها ضمن المنطقة الأمنية.

٥ - تحدد لجنة الترتيبات الأمنية جميع الترتيبات التقنية والإدارية المتعلقة بتأدية لجان التحقق المشتركة لوظائفها، بما في ذلك أصول عملها وعددها وتشغيلها وأسلحتها، وتجهيزاتها.

٦ - لدى تقديم تقرير إلى لجنة الترتيبات الأمنية أو لدى تثبت لجان التحقق المشتركة من صحة شكوى أحد الفريقين، يقوم الفريق المعني فورا وعلى أية حال في مدة أقصاها ٢٤ ساعة من تاريخ التقرير أو التثبت بتصحيح الإنتهاك وبإبلاغ ذلك فوراً إلى لجنة الترتيبات الأمنية. حالما يصلها الإبلاغ، تتأكد لجان التحقق المشتركة من أن الإنتهاك صحح.

٧- يتم إنهاء مهمة لجان التحقق المشتركة في مهلة تسعين يوما تلي إشعارا بذلك يتقدم به أي من الفريقين في أي وقت يختاره بعد مضي سنتين على بدء سريان هذا الإتفاق. توضع قبل هذا الإنهاء ترتيبات بديلة للتحقق بواسطة لجنة الإتصال المشتركة. برغم ما تقدم يحق للجنة الإتصال المشتركة أن تقرر في أي وقت أنه لم يعد هناك حاجة لمثل تلك الترتيبات.

ز) تعمل لجنة الترتيبات الأمنية على إقامة إتصالات عملية وسريعة بين الفريقين على طول الحدود، وذلك تفاديا للحوادث وتسهيلا للتنسيق بين القوات المتواجدة على الطبيعة.

٤ ـ من المتفاهم عليه أن الحكومة اللبنانية قد تطلب من مجلس الأمن في الأمم المتحدة إتخاذ التدابير المناسبة لوضع وحدة من «اليونيفيل» في منطقة صيدا، وذلك لمساندة الحكومة اللبنانية والقوى المسلحة اللبنانية في تثبيت سلطتها وتأمين الحماية اللازمة في مناطق المخيمات الفلسطينية. طوال مدة ١٢ شهرا، يكون من حق الوحدة المتمركزة في منطقة صيدا، أن ترسل بناء على طلب الحكومة اللبنانية وبعد إبلاغ لجنة الترتيبات الأمنية، مجموعات من عناصرها لتفقد ومراقبة مناطق المخيمات الفلسطينية في جوار صيدا وصور. وتبقى السلطات اللبنانية مسؤولة وحدها عن الأمن ووظائف الشرطة. كما تعمل الحكومة اللبنانية على تطبيق أحكام هذا الملحق بصورة كاملة، في هذه المناطق.

٥ ـ بعد إنقضاء ثلاثة أشهر على إنجاز إنسحاب جميع القوات الإسرائيلية من لبنان، تجري لجنة الترتيبات الأمنية تقييما شاملاً لملاءمة الترتيبات المبينة في هذا الملحق، بقصد تحسينها.

٦ ـ إنسحاب القوات الإسرائيلية:

أ) في خلال مهلة تتراوح بين ثمانية أسابيع وإثني عشر أسبوعا من سريان مفعول الإتفاق، تكون جميع القوات الإسرائيلية قد انسحبت من لبنان، إنسجاماً مع هدف لبنان الرامي إلى إنسحاب جميع القوات الخارجية من لبنان.

ب) تؤمن القوى المسلحة اللبنانية وقوات الدفاع الإسرائيلية إتصالا مستمرا في أثناء الإنسحاب وتتبادلان جميع المعلومات عبر لجنة الترتيبات الأمنية. كما تتعاون قوات الدفاع الإسرائيلية في أثناء إنسحابها مع القوى المسلحة اللبنانية وذلك لتسهيل عودة وتوطيد سلطة الحكومة اللبنانية فيما القوات المسلحة الإسرائيلية تجري إنسحابها.

ذيل

يمكن للقوى المسلحة اللبنانية، طبقاً لأحكام الملحق أن تحمل أو تدخل أو تمركز أو تخزن أو تنقل عبر المنطقة الأمنية جميع الأسلحة والعتاد العضوي لكل لواء إعتيادي من القوى المسلحة اللبنانية. لا تكون محظرة بموجب هذا الذيل الأسلحة الفردية والإجمالية، بما في ذلك الأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة، التي توجد عادة بحوزة وحدة المشاة المؤللة.

١ ـ أنظمة الأسلحة المدرجة أدناه والعضوية حاليا لكل لواء في المنطقة الأمنية، يكون مسموحا بها وفقا للأعداد المبينة:

دبابات

ـ دبابة عدد (٤٠) أربعين.

ـ عربة إخلاء متوسطة عدد (٤) أربعة.

سيارات مصفحة

ـ أم ل ـ ٩٠/ سلادين / الخ عدد (١٠) عشرة

حاملات جند مصفحة

ـ م ١١٣ أ ١/ف. س. س. ل عدد (١٢٧) ماية وسبع وعشرين حاملة زائد (٤٤) أربعا وأربعون حاملة من صنف م ١١٣.

مدفعية / هواوين

ـ قذّاف مقطور ١٥٥ ملم عدد (١٨) ثمانية عشر (أيضا ١٠٥ ملم / ١٢٢ملم).

ـ هاون ١٢٠ ملم عدد (١٢) إثني عشر.

- هاون ٨١ ملم عدد (٢٧) سبعة وعشرين. محمولة على حاملات هاون مسرفة م ١٢٥).

أسلحة مضادة للدروع

- آر. ب. ج عدد (١١٢) ماية واثني عشر.
- أسلحة مضادة للدروع عدد (٣٠) ثلاثين (مدافع ١٠٦ ملم عديمة الإرتداد صواريخ تو/ صواريخ ميلان).

أسلحة للدفاع الجوي

- مدافع عيار ٤٠ ملم وما دون عدد (١٢) إثني عشر (غير موجهة بواسطة الرادار)

٢ ـ عتاد الإشارة في اللواء

- جهازان/ ج. ر. ث. ـ ١٦٠ عدد (٤٨٢) أربعمائة وإثنين وثمانين.
- جهازان/ ف. ر. ث. ـ ٤٦ عدد (٧٤) أربعة وسبعين.
- جهازان/ ف. ر. ث. ـ ٤٧ عدد (١٦) ستة عشر.
- جهازان/ ف. ر. ث. ـ ٤٩ عدد (٩) تسعة.

جهاز ج. ر. أ. ـ ٣٩ عدد (٤٣) ثلاثة وأربعين.

- جهاز ت. أ. ـ ٣١٢ عدد (٥٣٩) خمسماية وتسعة وثلاثين.
- موزع س. ب. ـ ٢٢ عدد (٢٧) سبعة وعشرين.
- موزع س. ب. ـ ٩٩٣ عدد (٨) ثمانية.
- جهازان/ ج. ر. ث. ـ عدد (٤) أربعة.

٣ ـ عتاد الرصد في اللواء

- رادارات تحديد مكان الهاون.
- رادارات تحديد مكان المدفعية.
- رادارات رصد الأرض.
- أجهزة المراقبة الليلية.
- أجهزة التحسس الأرضية غير المدارة عن قرب.

٤ ـ إنسجاما مع أحكام الملحق، تكون السيارات المصفحة التابعة لقوى الأمن الداخلي وفقا للآتي:

سيارات مصفحة مدولبة ذات مدافع عيارها حتى الـ٤٠ ملم عدد (٢٤) أربع وعشرين.

٥ ـ إنسجاما مع أحكام الملحق، لن يكون هناك تحديدات على المنشآت الساحلية في المنطقة الأمنية باستثناء ما يعود للفئات الأربع الآتية:

- رادار ساحلي لمراقبة البحر عدد (٥) خمسة.
- مدافع دفاع ساحلي عدد (١٥) خمسة عشر من عيار ٤٠ ملم أو أدنى.
- مدافع ساحلية للدفاع الجوي عدد (١٥) خمسة عشر من عيار ٤٠ ملم أو أدنى (غير موجهة بواسطة الرادار).
- صاروخ بر/ بحر: لا شيء.

٦ ـ ان تنظيم كل من لواء المشاة واللواء الإقليمي في المنطقة الأمنية هو كالآتي:

قيادة اللواء وسرية القيادة	ضباط: ١٤	رتباء وأفراد: ١٧٣
ثلاث كتائب مشاة	ضباط: ٣١	رتباء وأفراد: ٦٥٤
	(في كل كتيبة)	(في كل كتيبة)
كتيبة مدفعية	ضباط: ٣٩	رتباء وأفراد: ٦٧٢
كتيبة مدرعات	ضباط: ٣٧	رتباء وأفراد: ٥٧٩
(ثلاث سرايا مدرعات		
زائد سرية إستكشاف)		
كتيبة لوجستية	ضباط: ٢٦	رتباء وأفراد: ٣٤٤
سرية هندسة	ضباط: ٦	رتباء وأفراد: ١٢٥
سرية مضادة للدروع	ضباط: ٤	رتباء وأفراد: ١١٧
سرية مدفعية مضادة للطائرات	ضباط: ٤	رتباء وأفراد: ١٤٦
المجموع: ٤٣٤١	ضباط: ٢٢٣	رتباء وأفراد: ٤١١٨

المحاضر التفسيرية المتفق عليها

المادة الرابعة، الفقرة ٤

يؤكد لبنان أن القانون اللبناني يتضمن كل التدابير الضرورية لتأمين تطبيق هذه الفقرة.

المادة السادسة:

دون المساس بما ينص عليه الملحق بصدد المنطقة الأمنية، من المتفق عليه أن الطائرات العسكرية غير المقاتلة التابعة لدولة أجنبية، والتي تقوم بمهمة غير عسكرية، لن تعتبر من التجهيزات العسكرية.

المادة السادسة:

من المتفق عليه أنه، في حال قيام أي اختلاف حول ما إذا كانت تعتبر دولة معينة «معادية»، وفق ما ورد في المادة السادسة من الإتفاق، فإن المحظورات المفروضة في المادة السادسة تطبق على أي دولة ليست لها علاقات دبلوماسية مع الفريقين.

المادة الثامنة، (١) (ب)

من المتفق عليه أن لجنة الإتصال المشتركة ستبدأ، بناء على طلب أي من الفريقين، بحث مسألة الأموال التي يطالب بها مواطنو أحد الفريقين والكائنة في أراضي الفريق الآخر.

المادة الثامنة، (١) (ح)

من المتفاهم عليه أن على كل فريق أن يقدم إثباتات للفريق الآخر حول ما إذا كان أحد عناصره يقوم بمهمة رسمية أو يؤدي وظائف رسمية في أي وقت معين.

المادة الثامنة، (٢)

من المتفق عليه أن المفاوضات ستختتم بالسرعة الممكنة.

المادة التاسعة:

من المتفاهم عليه أن هذه الأحكام ستطبق، مع تغيير ما يتوجب تغييره، على الإتفاقات التي تتم بين الفريقين وفقا للمادة الثامنة، الفقرة الثانية.

المادة الحادية عشرة:

من المتفق عليه أن يطلب الفريقان من الولايات المتحدة الأميركية أن تساعد على الحل السريع للخلافات الناجمة عن تفسير هذا الإتفاق أو تطبيقه.

المادة الحادية عشرة:

من المتفق عليه أن عبارة «إجراء متفق عليه للفصل بصورة نهائية» معناها الدور المتفق عليه الذي يتولاه فريق ثالث والذي يؤدي إلى حل للخلاف يكون ملزما للفريقين.

الملحق

الفقرة ١ ـ ب

من المتفق عليه أنه، في ذلك الجزء من جبل الباروك، المشار إليه على الخريطة المرفقة بالملحق، لا تقام سوى إنشاءات المواصلات اللاسلكية المدنية كالمعدات التلفزيونية والرادارات الخاصة بمراقبة الملاحة الجوية.

تطبق على هذه المنطقة نفس القيود المطبقة على العتاد والأسلحة المفصلة في الذيل المرفق بالملحق.

الملحق

الفقرة ٢ ـ د

تؤكد الحكومة اللبنانية قرارها بأن يحتوي اللواء الإقليمي الذي أنشىء في ٦

نيسان ١٩٨٣ والمذكور في الفقرة الفرعية ج، الوحدات المحلية القائمة التي شكلت في حجم قريب من حجم لواء، إضافة إلى عديد من الجيش اللبناني مستخرج من سكان المنطقة الأمنية، وذلك بما يتفق مع أنظمة الجيش اللبناني المرعية الإجراء. يتولى هذا اللواء الإقليمي شؤون الأمن في المنطقة الممتدة من الحدود اللبنانية - الإسرائيلية إلى «الخط ب» المرسوم على الخريطة المرفقة بالملحق. وتخضع لسلطة قائد اللواء كل القوات والعناصر المسلحة اللبنانية في هذه المنطقة، بما فيها الشرطة اللبنانية وقوى الأمن الداخلي اللبنانية والأنصار. يعاد النظر في تنظيم الوحدات المحلية القائمة، تحت إشراف لجنة الترتيبات الأمنية بما يتفق مع الجدول التنظيمي للواء الإقليمي الوارد في الملحق.

الملحق

الفقرة ٢ ـ ز

١ ـ يستمر لبنان في فرض الحظر القائم حاليا على الملاحة المدنية في منطقة تمتد من ٣٣ درجة و١٥ دقيقة شمالا/ و٣٥ درجة و١٢,٦ دقيقة شرقا إلى ٣٣ درجة و٠٥,٥ دقيقة شمالا و٣٥ درجة ٠٦,١ دقائق شرقا وإلى ٣٣ درجة و١٥ دقيقة شمالا و٣٥ درجة و٠٨,٢ دقائق شرقا، وإلى ٣٣ درجة و٠٥,٥ دقائق شمالا و٣٥ درجة و٠١,٤ دقيقة شرقا.

٢ ـ بغية تفادي الإشكالات تكون هناك إتصالات مستمرة بين القيادة الجنوبية للبحرية اللبنانية وبين البحرية الإسرائيلية لتبادل المعلومات حول السفن المشتبه بها. وتحدد لجنة الترتيبات الأمنية أسلوب تبادل هذه المعلومات.

٣ـ تتدخل البحرية اللبنانية بسرعة للتأكد من هوية تلك السفن المشتبه بها. وفي الحالات الطارئة، تتم إتصالات مباشرة بين القطع البحرية.

الملحق

الفقرة ٣ ـ و

١ ـ تقوم لجان التحقق المشتركة بمهماتها، وهي على بينة من أن المسؤولية عن

العمليات العسكرية وعمليات الشرطة وسائر عمليات المراقبة والتفتيش هي من صلاحيات القوات المسلحة اللبنانية والشرطة وسائر المؤسسات اللبنانية المختصة، وليست من صلاحيات لجان التحقق المشتركة.

٢ ـ على لجان التحقق المشتركة إذا كشفت عن دلائل وجود مخالفة أو إحتمال مخالفة للترتيبات المتفق عليها، أن تتصل بالسلطات اللبنانية عبر «مراكز التحقق من الترتيبات الأمنية» المنشأة وفقا للمحضر التفسيري للفقرة الثالثة (و) - (٥) - من الملحق لتأمين أن تتخذ السلطات اللبنانية في الوقت المناسب التدبير الملائم لتفادي المخالفة وقمعها.

تتأكد لجان التحقق من أن الإجراءات المتخذة قد صححت المخالفة وتقدم تقريرا بالنتائج الى لجنة الترتيبات الأمنية.

٣ ـ تبدأ لجان التحقق المشتركة نشاطات محدودة في أقرب وقت ممكن بعد بدء العمل بالإتفاق بغية مراقبة تنفيذ ترتيبات إنسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي. أما سائر نشاطات التحقق والمراقبة التي يسمح الملحق للجان بممارستها، فإنها تبدأ مع الإنسحاب النهائي لجيش الدفاع الإسرائيلي.

٤ ـ تقوم لجان التحقق المشتركة بتحققات يومية ليلا ونهارا، إذا دعت الحاجة. وتتم أعمال التحقق في البر والبحر والجو.

٥ ـ يتولى ضابط لبناني قيادة كل لجنة من لجان التحقق المشتركة، ويأخذ الضابط في الإعتبار الطابع المشترك خلال القيام بمهام التحقق.

٦ ـ خلال القيام بمهمة ما، يتمتع قائد لجنة التحقق المشتركة بسلطة إستنسابية في مواجهة أية حالة غير متوقعة تتطلب عملا فوريا. ويفيد قائد اللجنة عن أية حالة كهذه وعن التدبير المتخذ.

٧ ـ لا تستخدم لجان التحقق المشتركة القوة إلا في حال الدفاع عن النفس.

٨ ـ من الأمور التي تقررها لجنة الترتيبات الأمنية نمط عمل لجان التحقق المشتركة، وتسليحها وتجهيزها، ووسائل نقلها، والبقاع التي ستعمل فيها، وذلك

وفق أحكام المنطق والإعتبارات العملية. وتحدد لجنة الترتيبات الأمنية نمط العمل العام مع الأخذ في الإعتبار ضرورة تفادي كل ما من شأنه أن يلحق خللا بالحياة العادية للمدنيين، وكذلك ضرورة تفادي جعل اللجان أهدافاً للهجوم.

٩ ـ لا يمكن أن يتجاوز الحد الأقصى لعدد اللجان العاملة في آن واحد الثماني لجان.

الملحق

الفقرة ٣ ـ و ـ ٥

ضمن المنطقة الأمنية، تقيم لجنة الترتيبات الأمنية مركزين للتحقق من هذه الترتيبات.

تعين لجنة الترتيبات الأمنية الموقع المحدد للمركزين، مع مراعاتها لمبدأ وجود المركزين في جوار حاصبيا وميفدون وخارج المناطق الآهلة.

٢ ـ تحت الإشراف العام للجنة الترتيبات الأمنية يكون هدف كل من المركزين كالآتي:

أ) مراقبة وتوجيه لجان التحقق المشتركة العاملة في القطاع المعين للمركز ضمن المنطقة الأمنية، والإشراف عليها.

ب) أن يستخدم كمركز إتصالات مرتبط بلجان التحقق وبمراكز القيادة المعنية.

ج) أن يستخدم كمكان إجتماع في لبنان للجنة الترتيبات الأمنية.

د) يقوم، نيابة عن لجنة الترتيبات الأمنية، بتلقي وتحليل وبلورة كل المعلومات الضرورية لعمل لجان التحقق المشتركة.

٣ الترتيبات العملانية:

أ) يكون المركزان بقيادة ضباط من الجيش اللبناني.

ب) يعمل المركزان على مدى ٢٤ ساعة في اليوم بدون إنقطاع.

ج) تقرر لجنة الترتيبات الأمنية العدد المحدد للعاملين في كل مركز.

د) يتمركز الإسرائيليون في المركزين ضمن الأراضي الإسرائيلية خارج أوقات عملهم.

هـ) تتولى الحكومة اللبنانية مسؤولية تأمين الأمن والدعم اللوجستي للمركزين.

و) تنطلق لجان التحقق المشتركة في مهماتها إعتيادياً من المركزين بعد تلقي التعليمات المناسبة، ثم تنهي مهماتها بتقديم تقريرها الى المركزين.

ز) يشتمل كل مركز على غرفة أوضاع، ومعدات إتصال، وتسهيلات لاجتماعات لجنة الترتيبات الأمنية، وغرفة لإعطاء التعليمات وتلقي تقارير لجان التحقق.

الملحق

الفقرة ٣ ـ ز

من أجل تفادي الحوادث وتسهيل التنسيق بين القوى على الأرض، تشمل «الإتصالات العملية والسريعة»، إتصالات مباشرة بالراديو والهاتف بين القادة العسكريين المعنيين وأركانهم في منطقة الحدود المباشرة، وكذلك المقابلات الوجاهية.

مبادئ لحل الأزمة اللبنانية

في ١٣ حزيران ١٩٨٧

الوثيقة الأخيرة التي اتفق عليها في مباحثات سالم ـ الشرع والتي يتبين انها اعتمدت مع غيرها من الأوراق المقدمة في هذه المباحثات في صياغة وثيقة الوفاق الوطني التي تبناها مجلس النواب في جلسته المنعقدة في القليعات بتاريخ ٥/١١/١٩٨٩.

مبادئ لحل الازمة اللبنانية

مبادئ اساسية

١ـ لبنان وطن سيد، حر، مستقل وواحد ارضاً وشعباً ومؤسسات في حدوده المنصوص عنها في الدستور والمعترف بها دولياً.

٢ـ لبنان عربي الهوية والانتماء وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح المشتركة التي يتم ترسيخها باتفاقيات ثنائية بعيدة المدى في مختلف المجالات.

٣ـ لبنان عضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية وملتزم بميثاقها وقراراتها، كما هو عضو مؤسس وعامل في منظمة الامم المتحدة وملتزم بميثاقها وعضو في حركة عدم الانحياز.

٤ـ لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية تقوم على احترام الحريات العامة وفي طليعتها حرية الرأي والمعتقد، وعلى المساواة التامة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين.

٥ـ الشعب مصدر السلطة وصاحب السيادة الوطنية يمارسها عبر المؤسسات الدستورية وعلى الوجه المبين في الدستور.

٦ـ احترام مبدأ الفصل بين السلطات وتوازنها وتعاونها من خلال مسؤولية الحكومة امام المجلس النيابي. وحق رئيس الجمهورية بحل المجلس بمرسوم استناداً لقرار يتخذه مجلس الوزراء.

٧ـ النظام الاقتصادي حر منظم ويكفل المبادرة الفردية ويضمن الملكية الخاصة ويحقق تكافؤ الفرص بين المواطنين.

٨ـ اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لتحرير جميع الاراضي اللبنانية من الاحتلال الاسرائيلي وبسط سيادة الدولة اللبنانية على جميع اراضيها وتنفيذ ما ورد في البيان الوزاري الصادر في ٣١ ايار ١٩٨٤ في هذا الخصوص والذي تبنى قرار مجلس الوزراء بتاريخ ٥ آذار ١٩٨٤، والتمسك بقرارات مجلس الامن الدولي، وفي مقدمتها القرار ٤٢٥، القاضي بإزالة الاحتلال الاسرائيلي من جميع الاراضي اللبنانية دون قيد او شرط، والتمسك ايضاً باتفاقية الهدنة الموقعة في الثالث والعشرين من آذار ١٩٤٩.

الغاء الطائفية السياسية

١ـ الغاء الطائفية السياسية هدف وطني اساسي، ولبلوغه يقتضي تحقيق الانصهار الوطني وتعزيز الوحدة الوطنية بين اللبنانيين وتعميق روح الانتماء الوطني فيما بينهم، تبعاً لتبني الاصلاحات الكفيلة بذلك خلال فترة محدودة.

تتولى هيئة وطنية برئاسة رئيس الجمهورية وعضوية رئيس مجلس النواب ورئيس الحكومة وعدد من الاعضاء يتفق عليه فيما بعد، المهام التالية:

● تبدأ الهيئة عملها فوراً بـ:

ـ توحيد كتب التربية الوطنية والتاريخ.

ـ وضع سياسة اعلامية لكل وسائل الاعلام تساعد في تحقيق الانصهار الوطني وتجاوز الحال الطائفية القائمة في البلاد.

ـ الغاء ذكر المذهب عن تذكرة الهوية.

ـ عدم تخصيص وظائف معينة لطائفة معينة.

٢ـ وضع اجراءات عملية تدريجية، لانهاء الحالة الطائفية ومراقبة تنفيذها، وتعمل تدريجياً في ضوء ذلك على إلغاء النصوص التي لها الطابع الطائفي، تتوج بوضع قانون انتخاب وطني.

المشاركة

إلى ان يتحقق الغاء الطائفية السياسية، توسع قاعدة التمثيل للميثاق الوطني بحيث تتمثل كل الطوائف في اجهزة الدولة القائمة والمستحدثة تمثيلاً متوازناً مبنياً على المشاركة المتساوية.

على مستوى السلطة الاجرائية

١ـ تناط السلطة الاجرائية بمجلس الوزراء.

٢ـ يتألف مجلس الوزراء من رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والوزراء.

٣ـ تتم اجتماعات مجلس الوزراء في مقر خاص مستقل.

٤ـ يترأس رئيس الجمهورية مجلس الوزراء دون ان يمارس التصويت فيه، ويحق لرئيس الحكومة ترؤس جلسات مجلس الوزراء بالتوافق مع رئيس الجمهورية.

تحال القرارات المتخذة في مجلس الوزراء برئاسة رئيس الحكومة الى رئيس الجمهورية لتوقيعها خلال اسبوعين من تاريخ ورودها الى الرئاسة، او يعيدها خلال هذه المهلة الى مجلس الوزراء المنعقد برئاسته للبت بها، وتكون قرارات مجلس

الوزراء في هذه الحالة نهائية وملزمة ويصبح المرسوم نافذاً من تاريخ صدور قرار المجلس.

تحدد مهلة لتوقيع كل من رئيس الحكومة والوزير المختص قرارات مجلس الوزراء على ان يوقعها الوزير فوراً واستطراداً رئيس الحكومة.

٥- يعتمد في توزيع الحقائب الوزارية وعدد الوزراء على المثالثة بين الطوائف الكبرى ضمن المناصفة.

صلاحيات مجلس الوزراء

يمارس مجلس الوزراء السلطة الاجرائية وتكون الحكومة مسؤولة امام المجلس النيابي، ومن الصلاحيات التي يمارسها:

١- وضع السياسة العامة للدولة في المجالات السياسية والاقتصادية والدفاعية والمالية والانمائية والتربوية والاجتماعية وفي غير ذلك من المجالات.

٢- وضع مشاريع القوانين والمراسيم واتخاذ القرارات اللازمة لتنفيذ سياسة الدولة واضفاء صفة المعجل على مشاريع القوانين عندما يرى ذلك ضرورياً.

٣- تأمين تنفيذ القوانين والانظمة ومراقبة عمل كل اجهزة الدولة.

٤- اقرار حالة الطوارئ والغاؤها كذلك بالنسبة إلى الحرب والتعبئة العامة وابرام الاتفاقيات والمعاهدات الدولية مع مراعاة صلاحيات السلطة التشريعية.

٥- تنسيق وتوجيه ومتابعة اعمال الوزارات وادارات الدولة والمؤسسات العامة التابعة لها.

٦- وضع مشروع الموازنة للدولة ووضع الخطط الانمائية الشاملة والطويلة المدى.

٧- تعيين موظفي الدولة واقالتهم وقبول استقالتهم وفق القانون.

٨- القرارات تصدر بمراسيم ترفع إلى رئيس الجمهورية لإصدارها خلال اسبوعين من تاريخ اتخاذها في مجلس الوزراء.

٩- يمكن لمجلس الوزراء تفويض أحد أعضائه في بعض الصلاحيات التي لها الطابع الروتيني، شرط أن يتم ذلك بمرسوم يوقعه رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والوزير أو الوزراء المختصين.

١٠- دعوة المجلس النيابي لعقد دورة استثنائية.

١١- حل المجلس النيابي.

١٢- يتخذ مجلس الوزراء قراراته توافقياً واذا تعذر ذلك يعتمد نظام خاص بالتصويت، على ان تتخذ القرارات باكثرية ٣/٤ مجموع اعضاء مجلس الوزراء.

صلاحيات رئيس الجمهورية

رئيس الجمهورية هو رأس الدولة وممثلها تجاه الدول والمؤسسات الدولية، يسهر على احترام الدستور وسيادة القانون وحماية الوحدة الوطنية ويحافظ على استقلال لبنان وسلامة اراضيه ويضمن بقاء الدولة وانتقال السلطات الدستورية والسير المنتظم للسلطات العامة ويمارس الاختصاصات التالية:

١- يوقع المراسيم وينشرها ويصدر القوانين وفق المهل المحددة بعد اقرارها من الجهات المختصة، كما يحق له الاعتراض على القوانين وردها ضمن المهل المحددة في الدستور.

٢- يوقع منفرداً مرسوم تكليف رئيس الحكومة ومجتمعاً مع رئيس الحكومة مرسوم تسمية الوزراء، كما يوقع مرسوم استقالة الحكومة (وحلها) واعتبارها مستقيلة.

٣- يترأس المجلس الاعلى للدفاع.

٤- رئيس الجمهورية هو القائد الاعلى للقوات المسلحة.

٥- يقبل اوراق الاعتماد ويستقبل الممثلين الدبلوماسين ويعقد الاتفاقات الدولية.

٦ـ يمنح الاوسمة.

٧ـ يمنح العفو الخاص.

٨ـ يوجه عندما تقتضي الضرورة رسائل للمجلس النيابي.

٩ـ لرئيس الجمهورية اقالة احد الوزراء بمرسوم يوقعه هو ويوقعه معه رئيس الحكومة.

١٠ـ لا يسأل رئيس الجمهورية عن تبعاته إلا في حالة الخيانة العظمى وخرق الدستور.

صلاحيات رئيس الحكومة

يمارس رئيس الحكومة الصلاحيات التالية:

١ـ يجري استشارات نيابية لتشكيل الحكومة بالاتفاق مع رئيس الجمهورية.

٢ـ يوقع مرسوم تشكيل الحكومة مع رئيس الجمهورية.

٣ـ يضع جدول اعمال مجلس الوزراء بالاتفاق مع رئيس الجمهورية.

٤ـ يكون حكماً نائباً لرئيس المجلس الاعلى للدفاع.

٥ـ يترأس جلسات مجلس الوزراء في حال غياب رئيس الجمهورية او حين يستنيبه، والقرارات التي تتخذ في هذه الجلسات تحال الى رئيس الجمهورية لتوقيعها خلال اسبوعين من تاريخ ورودها إلى الرئاسة او يعيدها خلال هذه المهلة إلى مجلس الوزراء المنعقد برئاسته للبت بها. وتكون قرارات مجلس الوزراء في هذه الحالة نهائية وملزمة ويصبح المرسوم نافذاً من تاريخ صدور قرار المجلس.

٦ـ يترأس ويدير مجالس وزارية لدراسة ومناقشة القضايا بغية تحضيرها واحالتها لاتخاذ القرار بصددها في مجلس الوزراء، وللاشراف على تنفيذ قرارات وتوصيات مجلس الوزراء.

٧ـ يتابع اعمال الوزراء والمؤسسات وينسق بين الوزارات ويعطي التوجيهات اللازمة لضمان حسن سير العمل.

٨ـ يعقد جلسات عمل مع الجهات المختصة في الدولة.

٩ـ يكلف امين عام رئاسة الحكومة بتنظيم محضر أصولي لجلسات مجلس الوزراء.

١٠ـ يطرح سياسة الحكومة العامة امام مجلس النواب.

تكليف رئيس الحكومة وتسمية الوزراء

١ـ تجري تسمية رئيس الحكومة من قبل رئيس الجمهورية بالاستناد إلى نتيجة استشارات نيابية ملزمة.

٢ـ فور صدور مرسوم التكليف يباشر رئيس الحكومة استشاراته لتشكيل الحكومة بالاتفاق مع رئيس الجمهورية.

٣ـ تعتبر الحكومة مستقيلة في الحالات التالية:

- اذا استقال رئيسها.

- متى ادى عدد المستقيلين إلى تعطيل العمل بالنظام الخاص بالتصويت على قرارات مجلس الوزراء.

- بوفاة رئيس الحكومة.

- عند انتهاء ولاية المجلس النيابي.

- عند انتهاء ولاية رئيس الجمهورية.

- نزع الثقة من قبل المجلس النيابي.

الدستور

تعديل الدستور وفقاً للمبادئ الواردة في هذا الاتفاق.

السلطة التشريعية

١- توزع المقاعد النيابة بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين ونسبياً ضمن كل من الفئتين.

٢- يزاد عدد اعضاء مجلس النواب إلى (١٠٨) ويتم ملء المراكز الشاغرة والمستحدثة في مجلس النواب بتقديم الترشيحات من قبل الحكومة.

٣- انتخاب رئيس مجلس النواب واعضاء مكتبه لمدة سنتين قابلتين للتجديد.

٤- اعادة النظر بالاكثريات المطلوبة لانتخاب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب ورئيس الحكومة ولاقرار القضايا المصيرية.

٥- وضع قانون انتخاب جديد يؤمن اوسع وافضل تمثيل لتحقيق الاهداف الواردة في هذا الاتفاق.

المراكز المستحدثة

١- **المجلس الاعلى** لمحاكمة رؤساء الجمهورية ورؤساء الحكومات والوزراء.

٢- **المحكمة الدستورية** لتفسير الدستور ولمراقبة دستورية القوانين والبت في كل النزاعات والطعون الناشئة عن الانتخابات الرئاسية والنيابية اضافة إلى نزاعات اخرى يحددها القانون.

٣- **المجلس الاقتصادي والاجتماعي** يضم الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية والنقابية والعلمية ويحدد القانون اختصاصات هذا المجلس وعدد اعضائه والذي يكون له صفة استشارية.

اللامركزية الادارية

١- اعتماد لامركزية ادارية موسعة في اطار وحدة الارض والشعب والمؤسسات.

٢- اعتماد خطة انمائية موحدة وشاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية وتنميتها اقتصاديا واجتماعياً.

في الجيش وقوى الامن الداخلي

١- اعادة لحمة الجيش وتطويره على الاسس الوطنية الواردة في هذا الاتفاق وممارسة دوره الوطني في الدفاع عن البلاد والشعب.

٢- تطبيق قانون خدمة العلم.

٣- تعزيز عقيدة الجيش القتالية الوطنية وفقاً للتوجهات السياسية للدولة وتوجهات هذا الاتفاق.

٤- تشكيل مجلس اعلى للدفاع برأسه رئيس الجمهورية ويكون رئيس الحكومة نائباً له ووزراء الدفاع والمالية والداخلية والخارجية حكماً اعضاء فيه بالاضافة إلى اعضاء آخرين يحددهم القانون.

تجري اعادة النظر في قوى الامن الداخلي وفق الاسس المقررة للجيش وترتبط هذه القوى بما فيها الامن العام بوزير الداخلية.

قانون الجنسية

وضع قانون جديد للجنسية يتم بموجبه معالجة كل القضايا العالقة.

التربية والتعليم

تعزيز التعليم بما يؤمن حريته وتعميمه ومجانيته وتطوير البرامج التربوية في المدارس الحكومية والخاصة بما يعزز الانتماء الوطني ويرسخ الوحدة الوطنية

انهاء الاقتتال

وضع خطة امنية شاملة تؤدي إلى وقف الاقتتال والعودة بالبلاد إلى حال السلم والحياة الوطنية الطبيعية، وهذا يتطلب:

١- وقف شامل لإطلاق النار.

٢- جمع الاسلحة بكل انواعها.

٣ ـ حل التنظيمات المسلحة.

٤ ـ عودة المهجرين اللبنانيين منذ عام ١٩٧٥، وتقدم الدولة المساعدة لهم في اعادة تعمير ما تهدم من بيوتهم، كما تضمن هذه العودة.

٥ ـ الربط وعدم التجزئة بين انهاء حالة الاقتتال في بنودها الاربعة والاصلاح السياسي بغية تأمين مصداقية وتكاملية هذا الاتفاق.

٦ ـ مساعدة الشقيقة سوريا بتحقيق هذه الاهداف.

الفهرس

هذا الكتاب .. أمْ هذا الكاتب

يَحارُ من يقرأ هذا الكتاب عمن يتحدث، عن الكاتب أو عن الكتاب. فمنذ السطر الأول تقع في عجز المقدرة على الفصل. هل أنتَ أمام رواية أو شهادة أو بحث أكاديمي أو مذكرات؟ أم أنت أمامها جميعاً في مزيج قلّما يحدث، إلا عندما يرمي القدر أكاديمياً حقيقياً، في عالم السياسة الحقيقية وداخل يوميات حرب حقيقية.

إنها النظرية تنزل إلى حقل الممارسة المسوَّرة بإمكانية الموت البيولوجي في كل لحظة. أو قلْ إنه «الخَبَرُ» المطلق يهبط من برجه العاجي إلى حقل «الحَدَث» المطلق، على درجاتِ سُلَّمٍ كلُّ درجة منها تحوي جثّة ووعداً ونقطة ضوء لا تلبث أن تخفت.

وفي لبنان، أهُوَ دائما قدر القادرين على العطاء أن يتم اللجوء إليهم فقط حين تكون الأزمات مستعصية والآفاق مسدودة؟. تصلُ إلى هذا الاستنتاج مرغماً وأنت تقرأ إيلي سالم في «الخيارات الصعبة» التي عايشها ليس يوماً بيوم بل دقيقةً دقيقة. كيف ولج عالم الممارسة السياسية، كيف استخدم جعبته النظرية في السياسة، كيف عانى، كيف مشى فوق المشاريع والحلول والاقتراحات والمؤتمرات والاتفاقات.

متاهة أدركها بعقله منذ اللحظة الأولى، وأبت عاطفته الوطنية أن ترضخ لها، فحاول طيلة تسنّمه المسؤولية أن يساهم في البحث عن مخرج. ست سنوات (١٩٨٢ ـ ١٩٨٨) هي المدى الزمني الذي يغطيه إيلي سالم في كتابه هذا، من بداية الإجتياح الإسرائيلي للبنان، وحتى الأيام الأخيرة من عهد أمين الجميل.

يدخل بكَ إلى دهاليز المرحلة بتفاصيلها المعلومة وغير المعلومة، يُعلّق عليها بحسّه الأكاديمي الصرف تارة، يصفها بإبداع الروائي تارة، «يؤرشفها» بهمة الباحث العالم تارة، ويشهد لها وعليها بَدأبِ المشارك تارة. حتى وكأنك أمام عجين سياسي متكافىء، عناصرهُ النظرية والممارسة والتطبيق، أي العلم والعمل والمعاناة.

فئةٌ من الناس تعرف إيلي سالم الأستاذ الجامعي، وفئةٌ أُخرى تعرف إيلي سالم المسؤول. وفَضْلُ هذا الكتاب، إضافة إلى المعلومات المذهلة الذي يحويه، أنه يصل بكَ لتعرف أن الثقافة والسياسة ليسا ضدّين في كل الأحوال، إذا ما تم صهرهما في عجينة إنسان... وليس كل Homo sapien إنساناً.

الناشر



إيلي أديب سالم

شهادات: ـ اجازة في العلوم السياسية من الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٥٠
ـ دكتوراه فلسفة في العلوم السياسية من جامعة جونز هوبكنز ١٩٥٣
ـ دكتوراه شرف من جامعة ماريتا ١٩٨٤

مراكز جامعية:
ـ استاذ في العلوم السياسية وفي قضايا الشرق الأوسط في جامعة جونز هوبكنز ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢.
ـ أستاذ في العلوم السياسية في الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٦٢ ـ ١٩٧٤
ـ عميد كلية الآداب والعلوم في الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٧٤ ـ ١٩٨٢

المنشورات:

الكتب:
النظرية السياسية عند الخوارج
(من منشورات جامعة جونز هوبكنز ١٩٥٦)
التحديث السياسي في لبنان
(من منشورات جامعة انديانا ١٩٧٣)
رسوم دار الخلافة العباسية
(تحقيق وترجمة مخطوطة هلال الصابىء من منشورات الأونسكو ١٩٧٧)

المقالات:
عشرات من المقالات العلمية في المجلات المتخصصة في العلوم السياسية، وفي الدراسات الاسلامية، وفي قضايا الشرق الأوسط، كما في الانسيكلوبيديات الكبرى

محاضرات:
في جامعات اميركا واوروبا والعواصم العربية بما فيها المشاركة في المؤتمرات الدولية وفي البرامج التلفزيونية الكبرى في اميركا واوروبا.

العمل السياسي:
ـ نائب رئيس حكومة ووزير للخارجية والمغتربين ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤
ـ مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية ١٩٨٤ ـ ١٩٨٨

حالياً:
ـ رئيس المركز اللبناني للدراسات
ـ رئيس جامعة البلمند